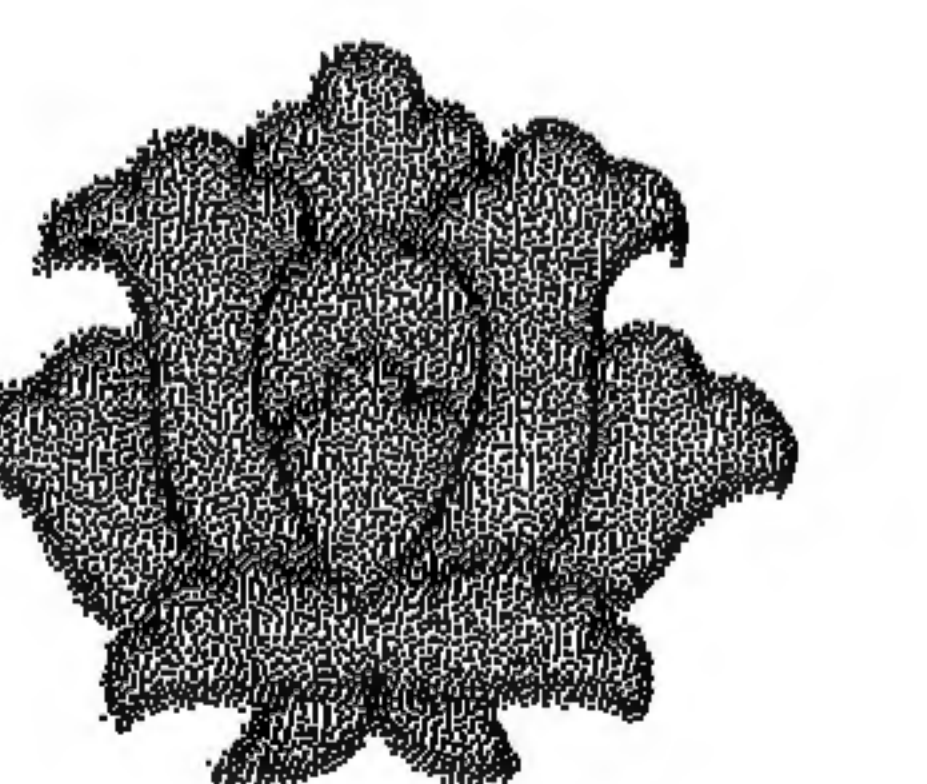


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

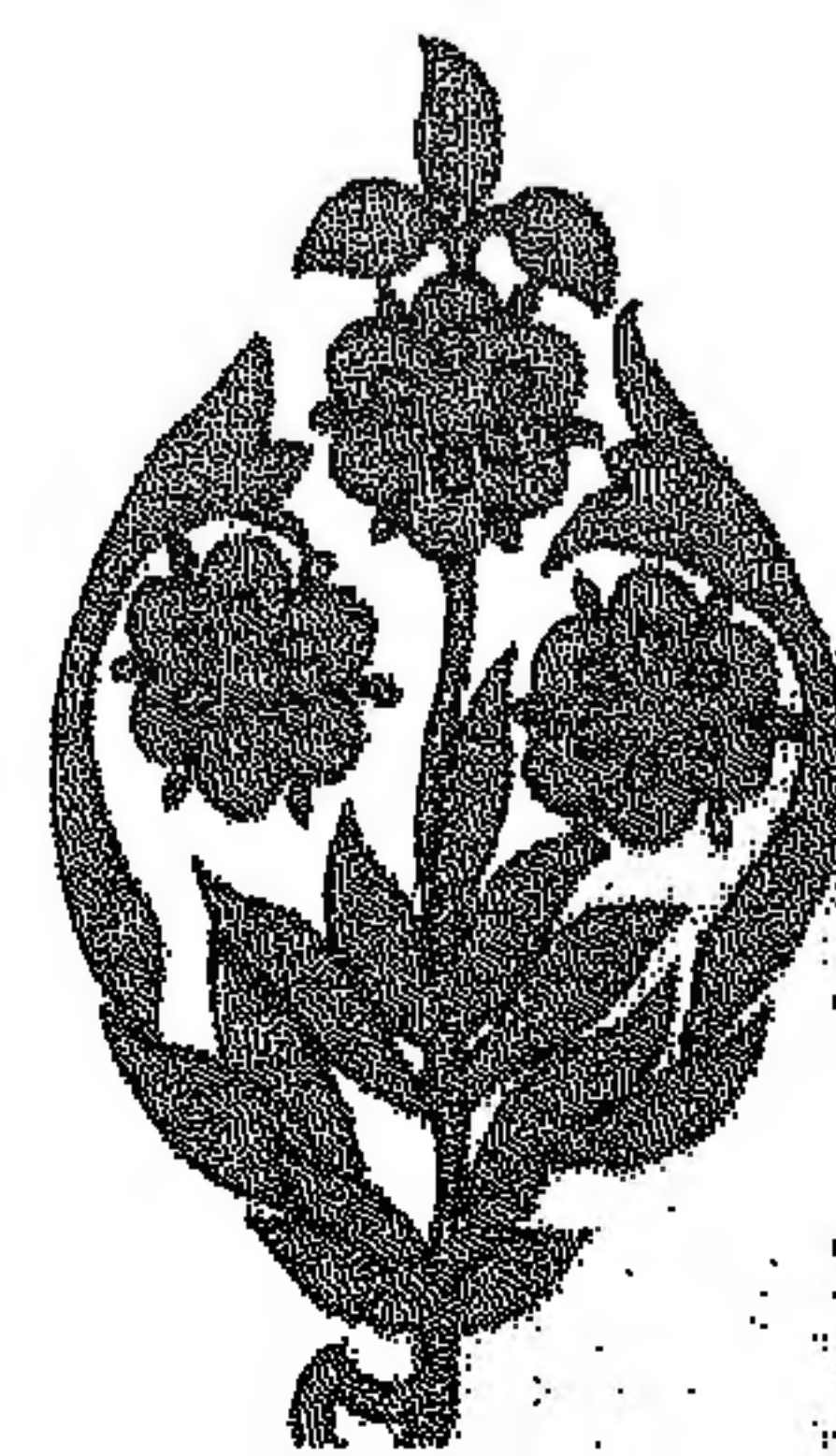
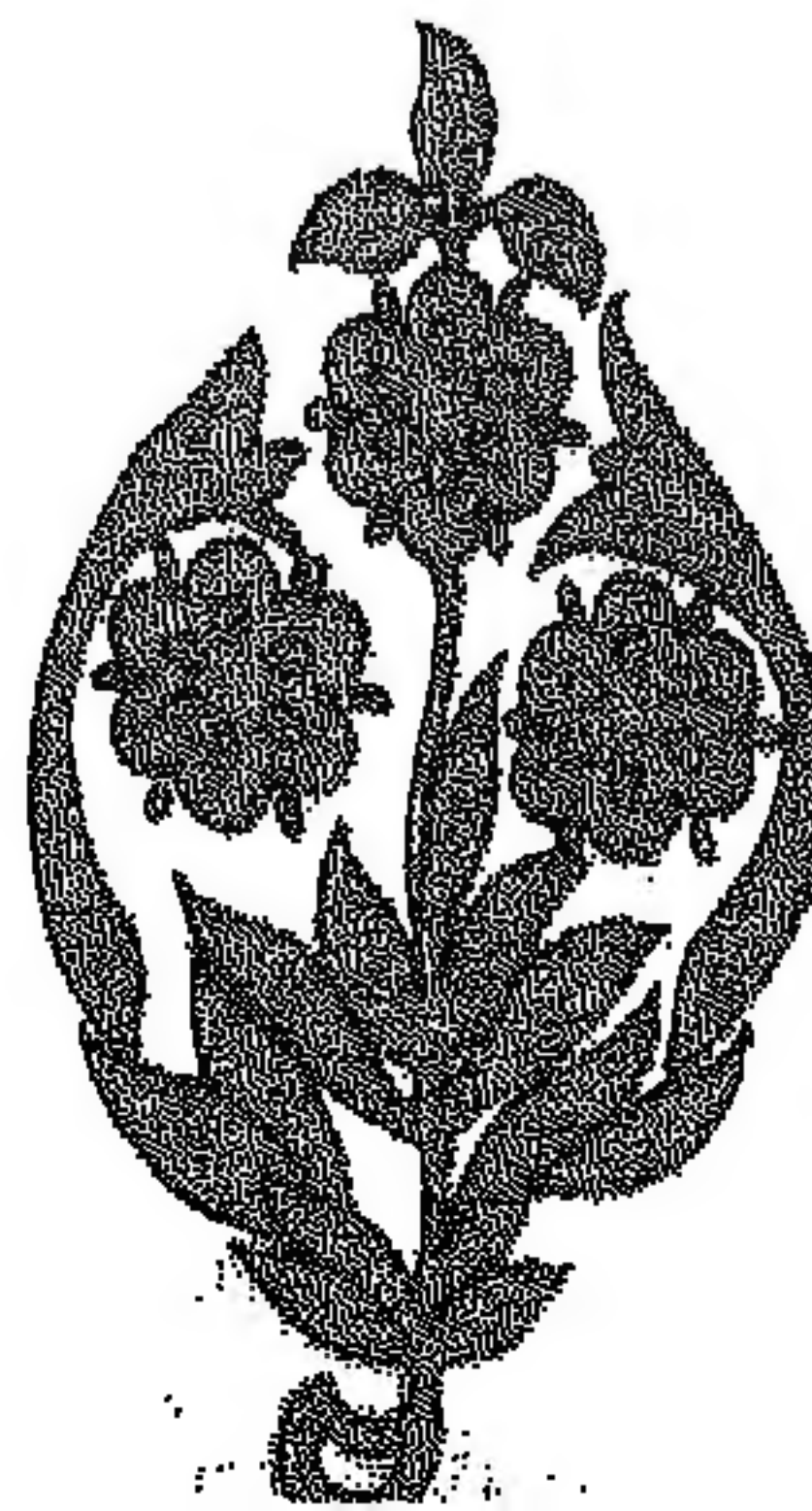
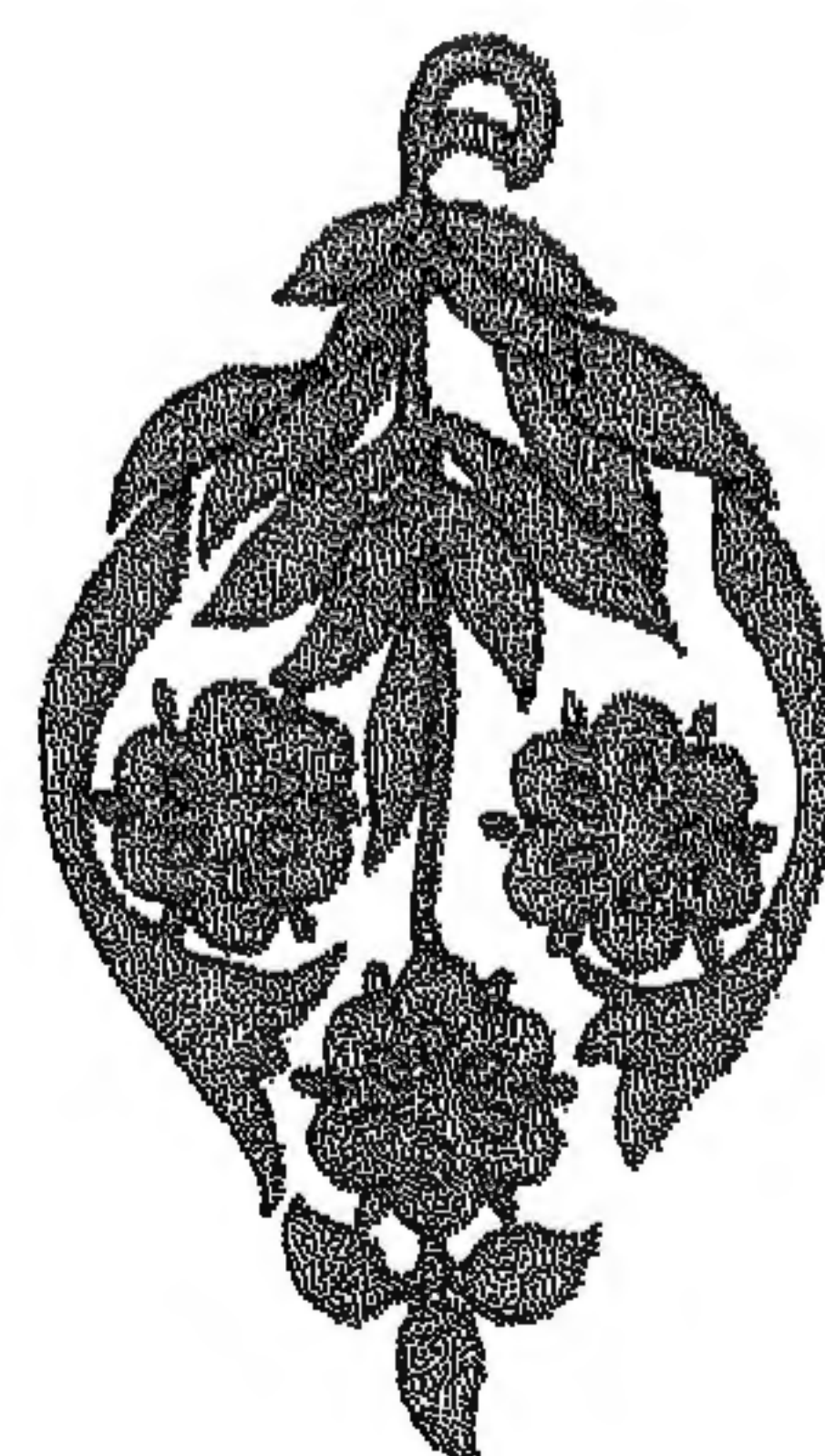
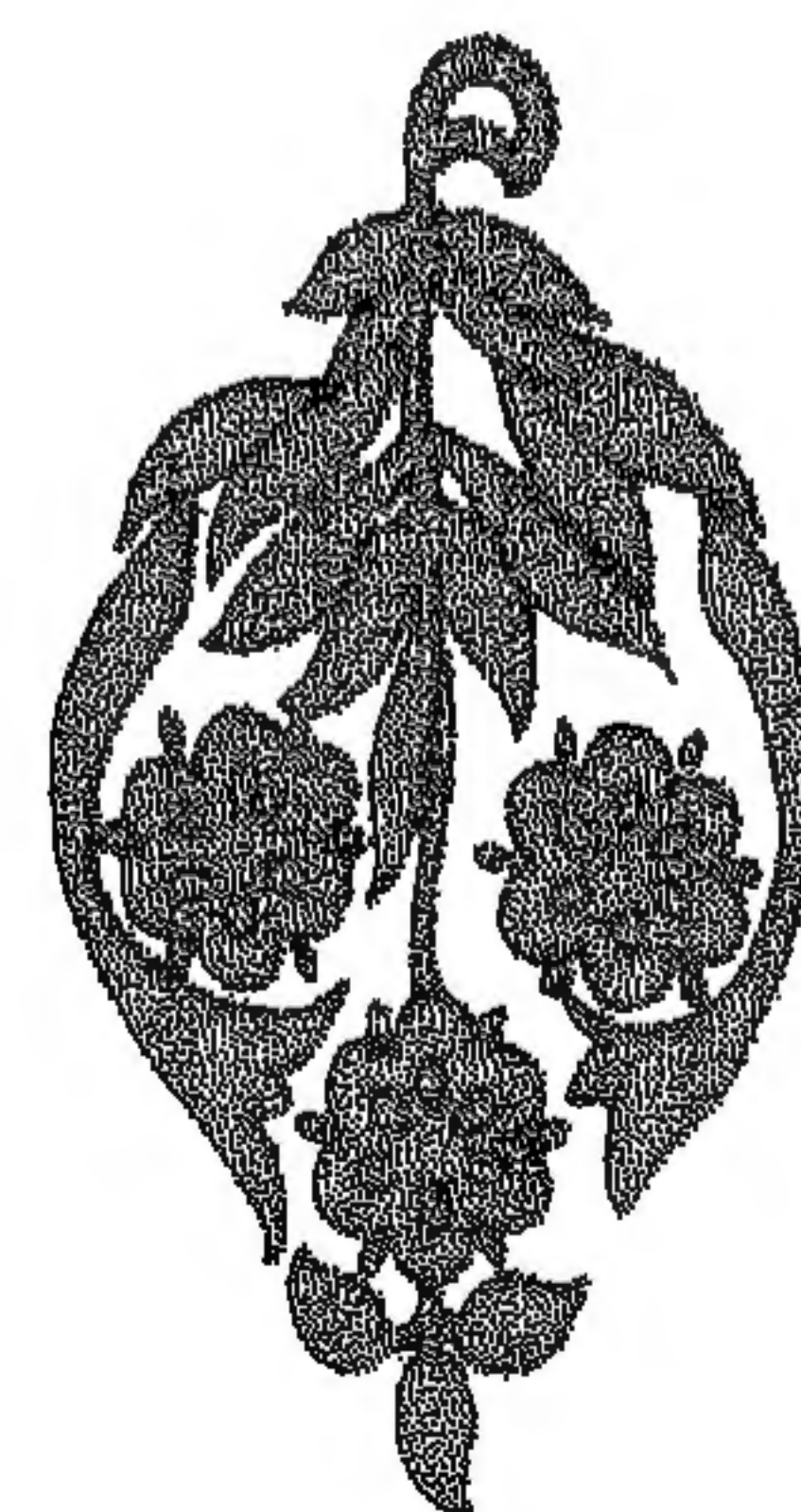
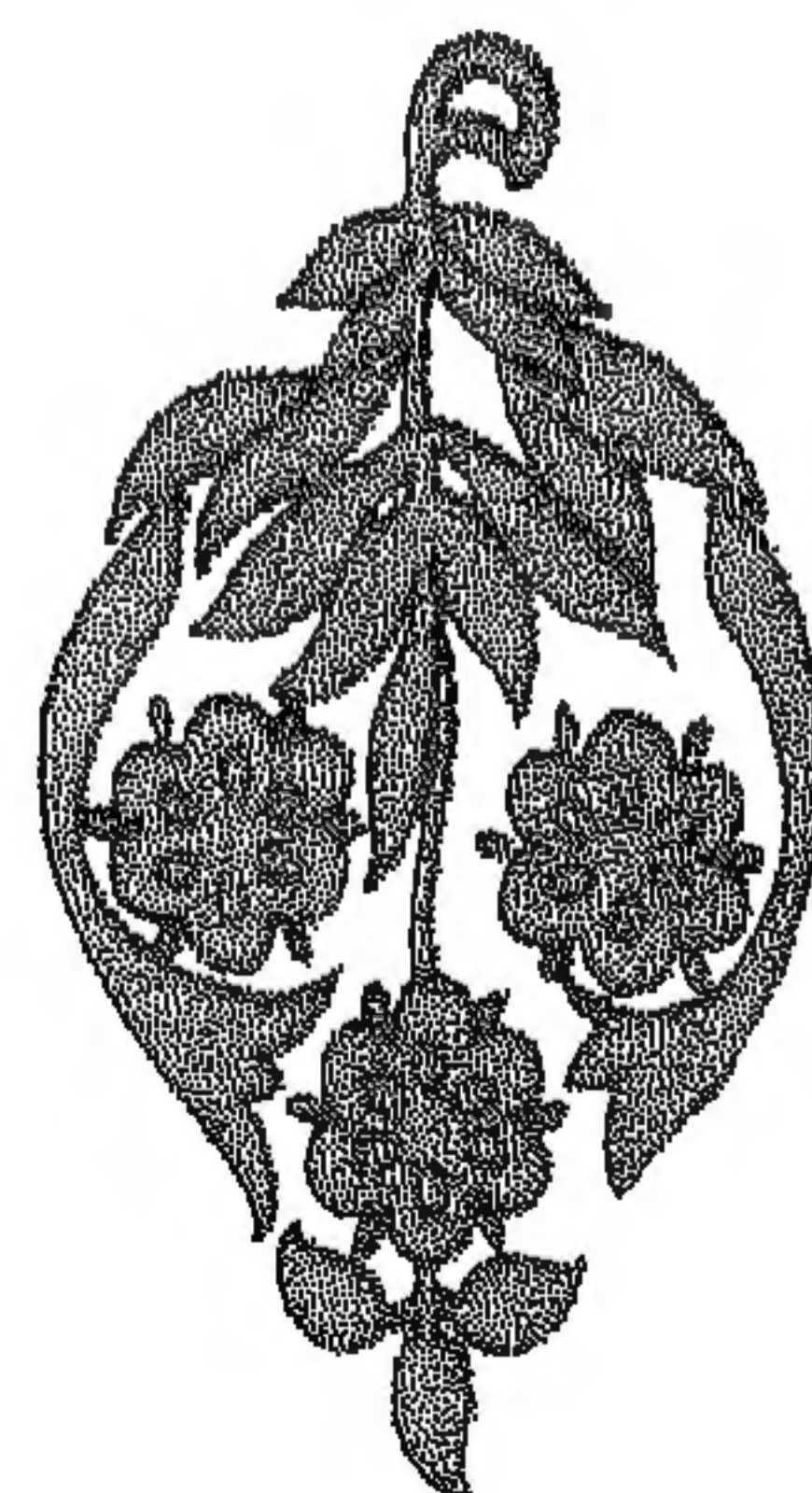
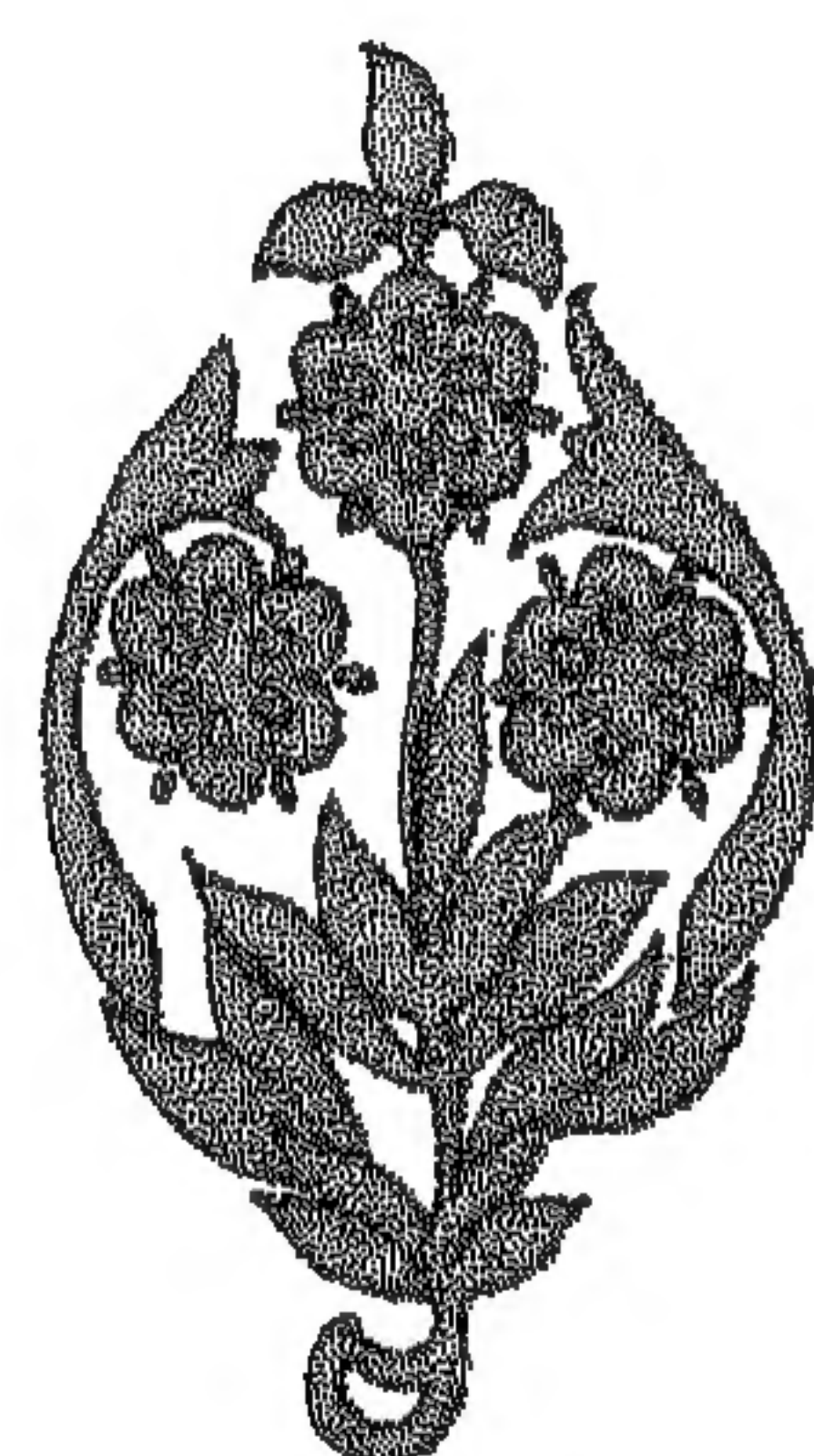
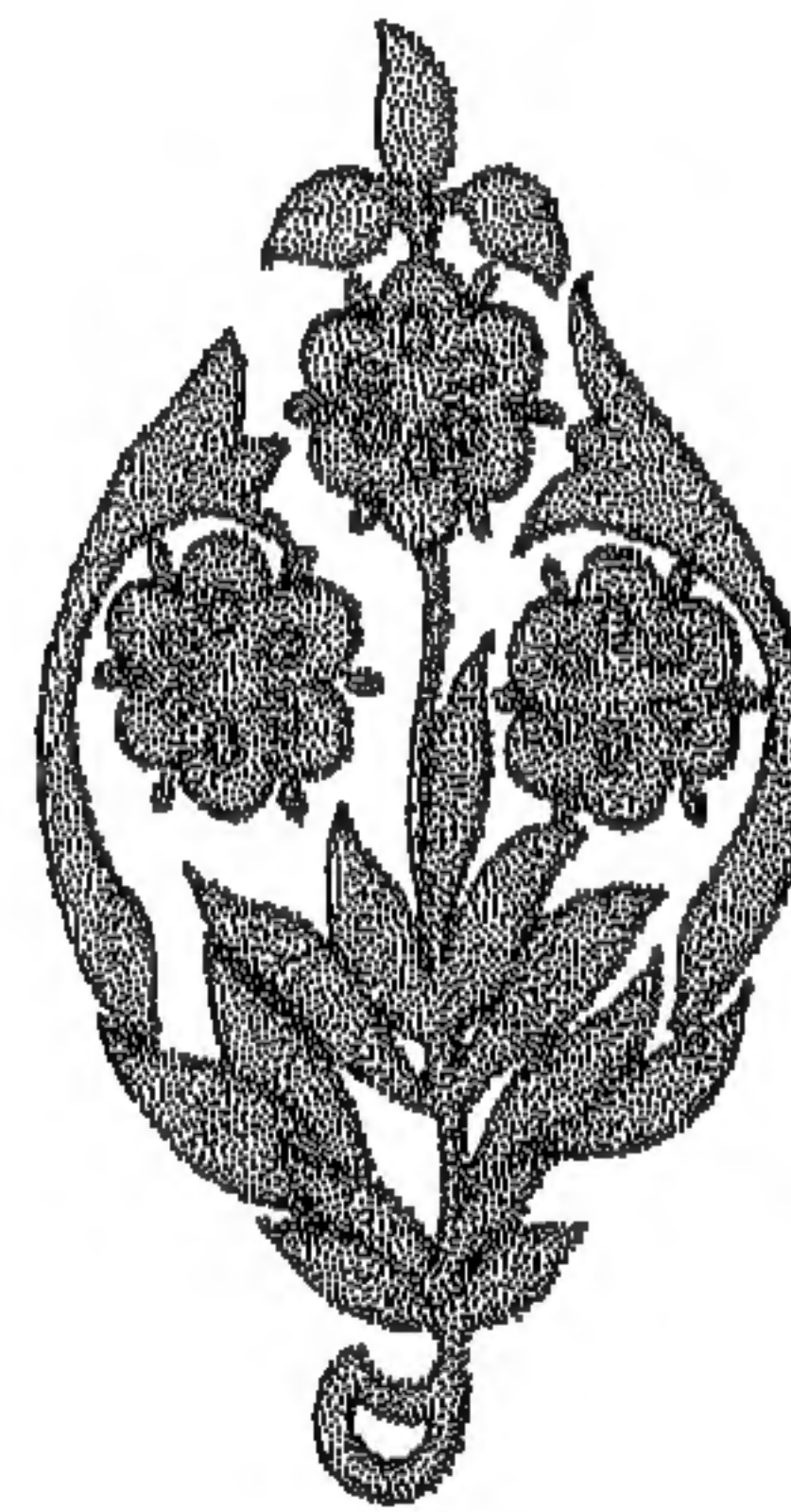
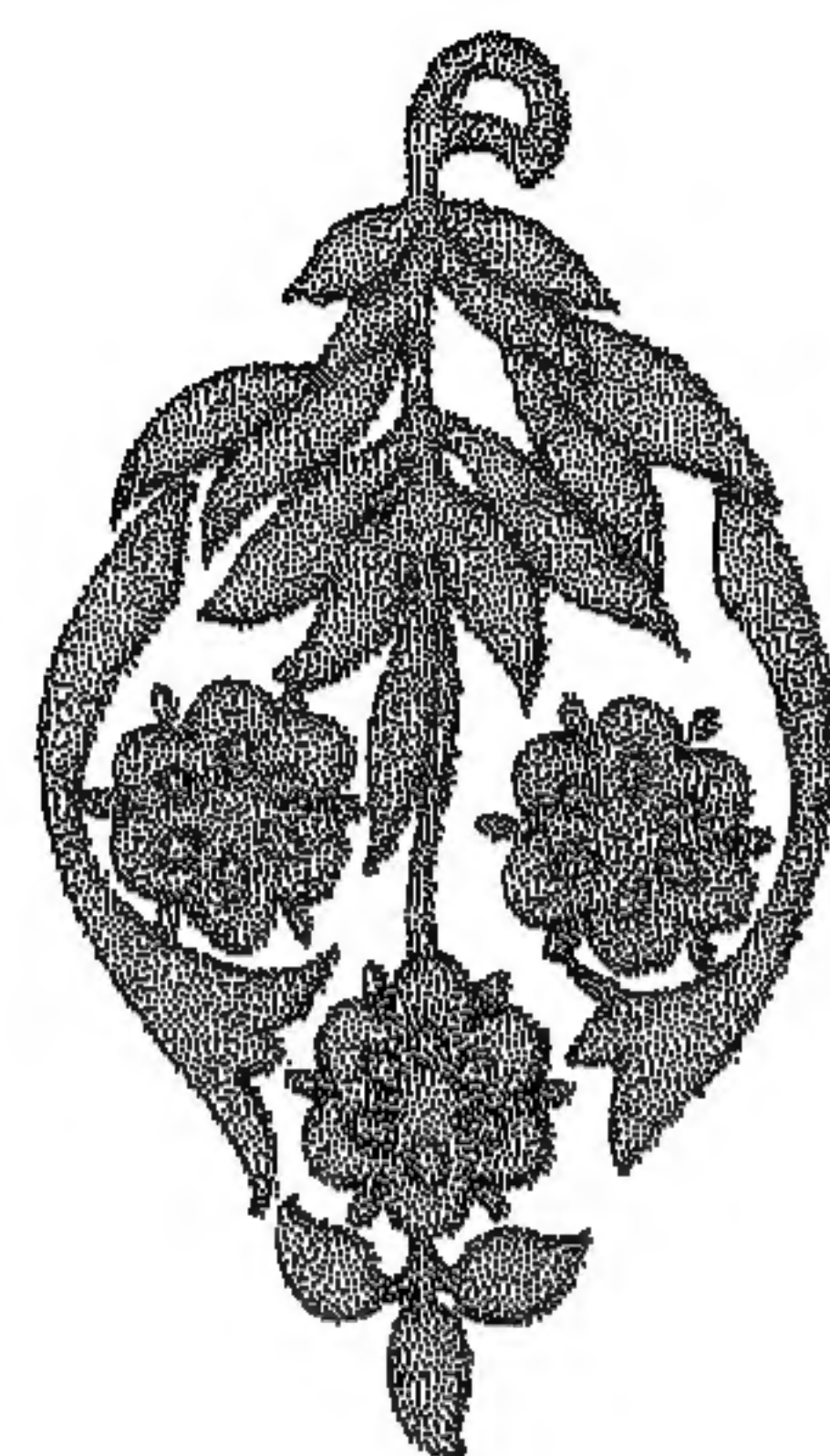
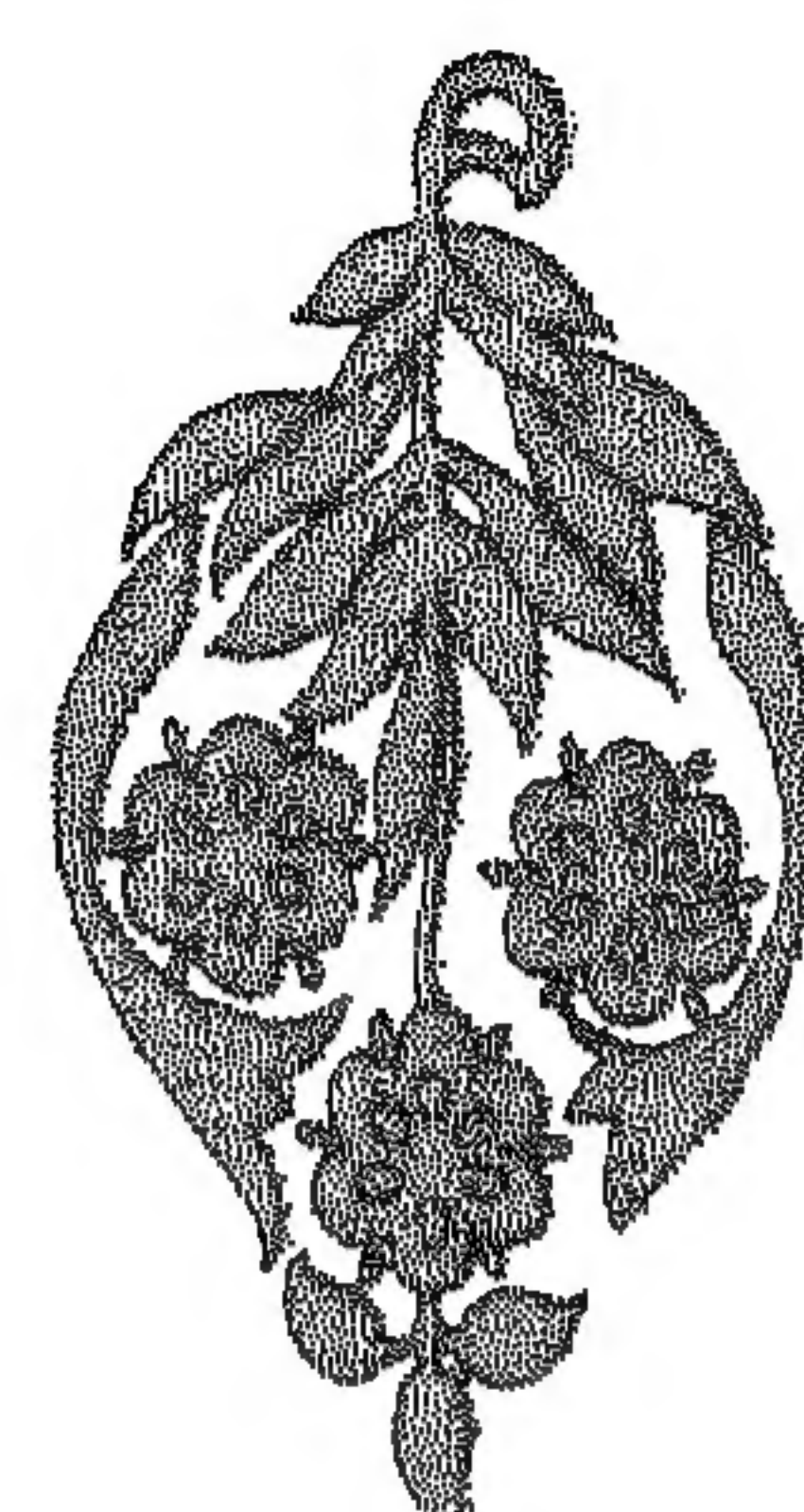
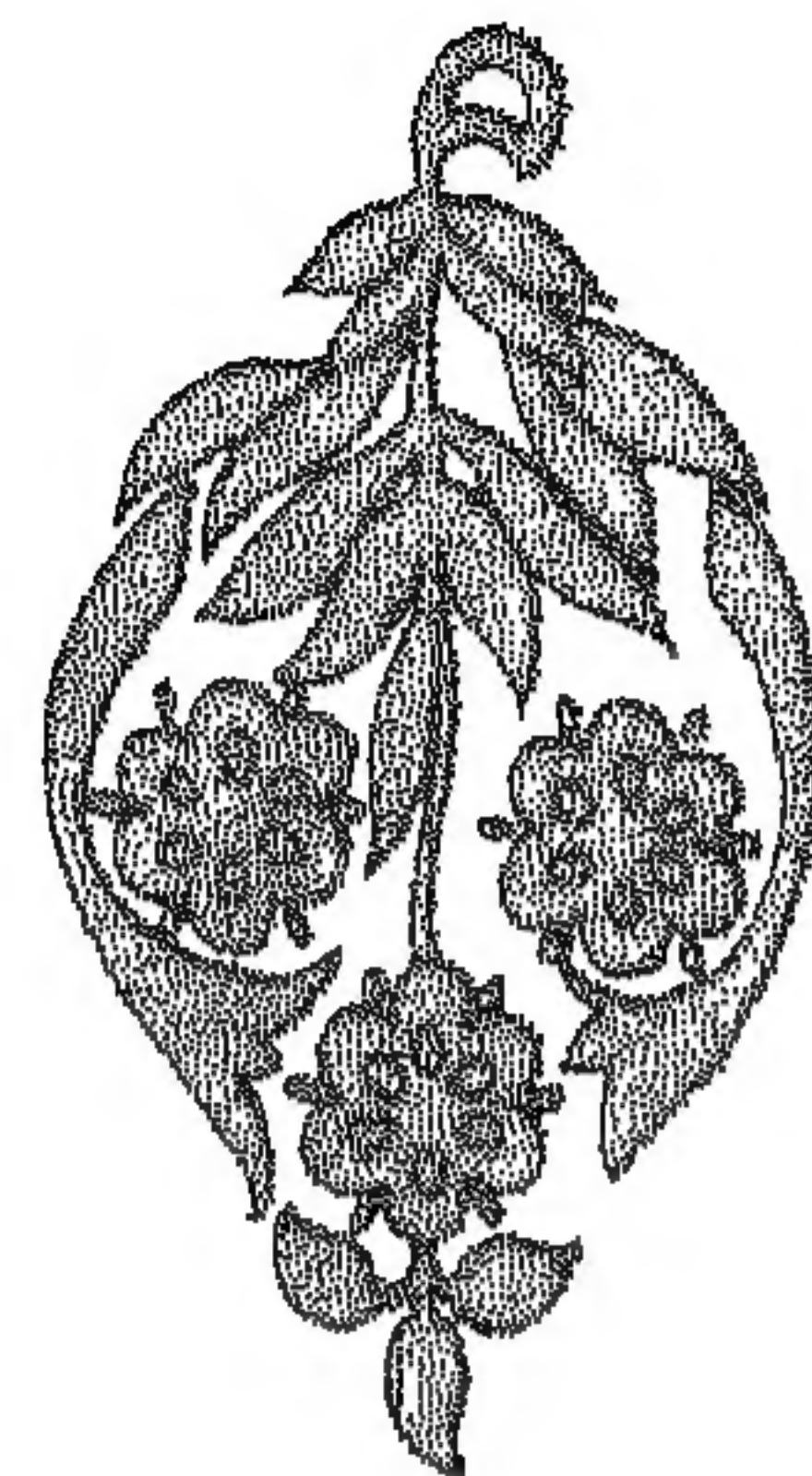
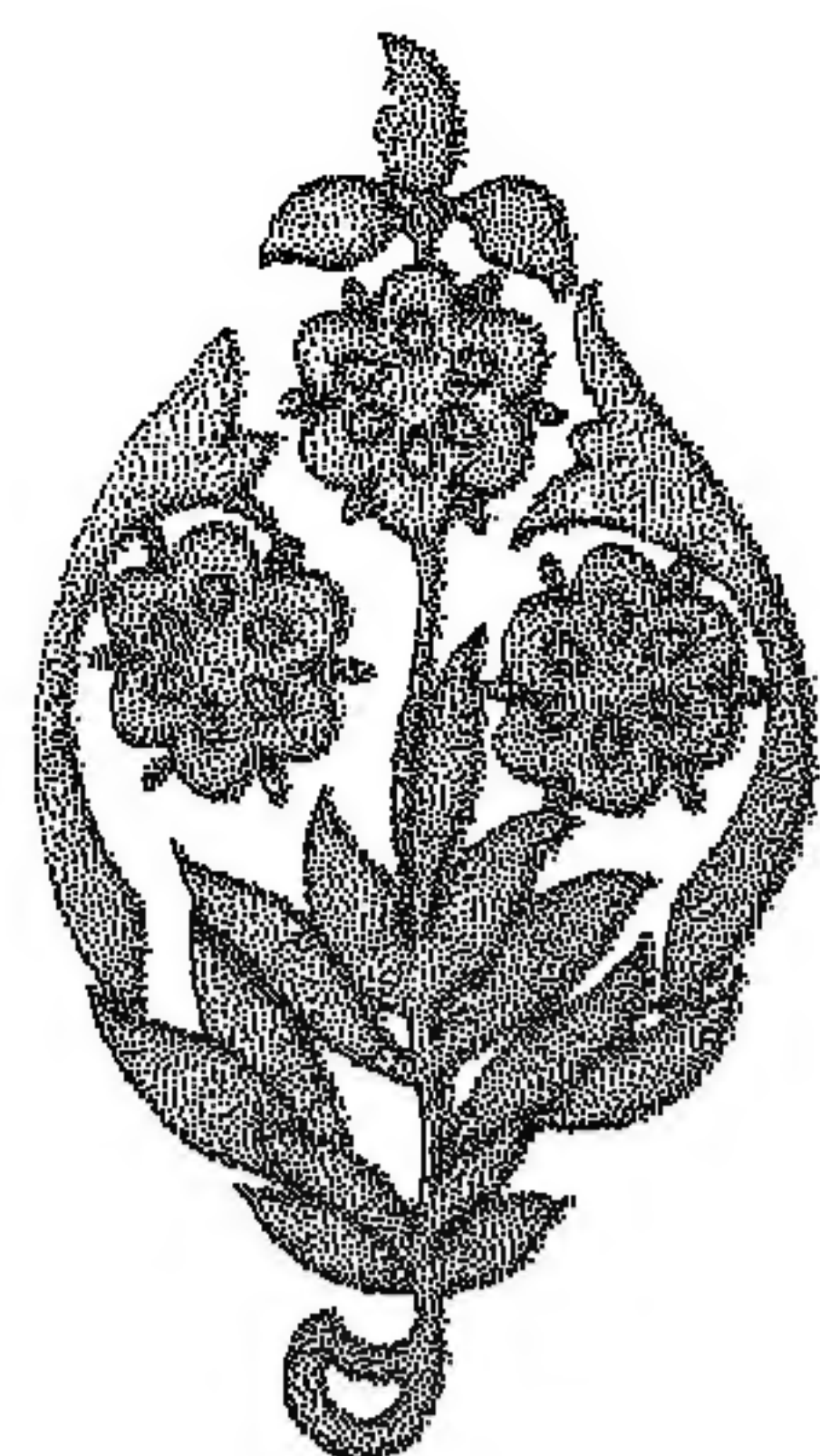
نظرات في كتاب الله

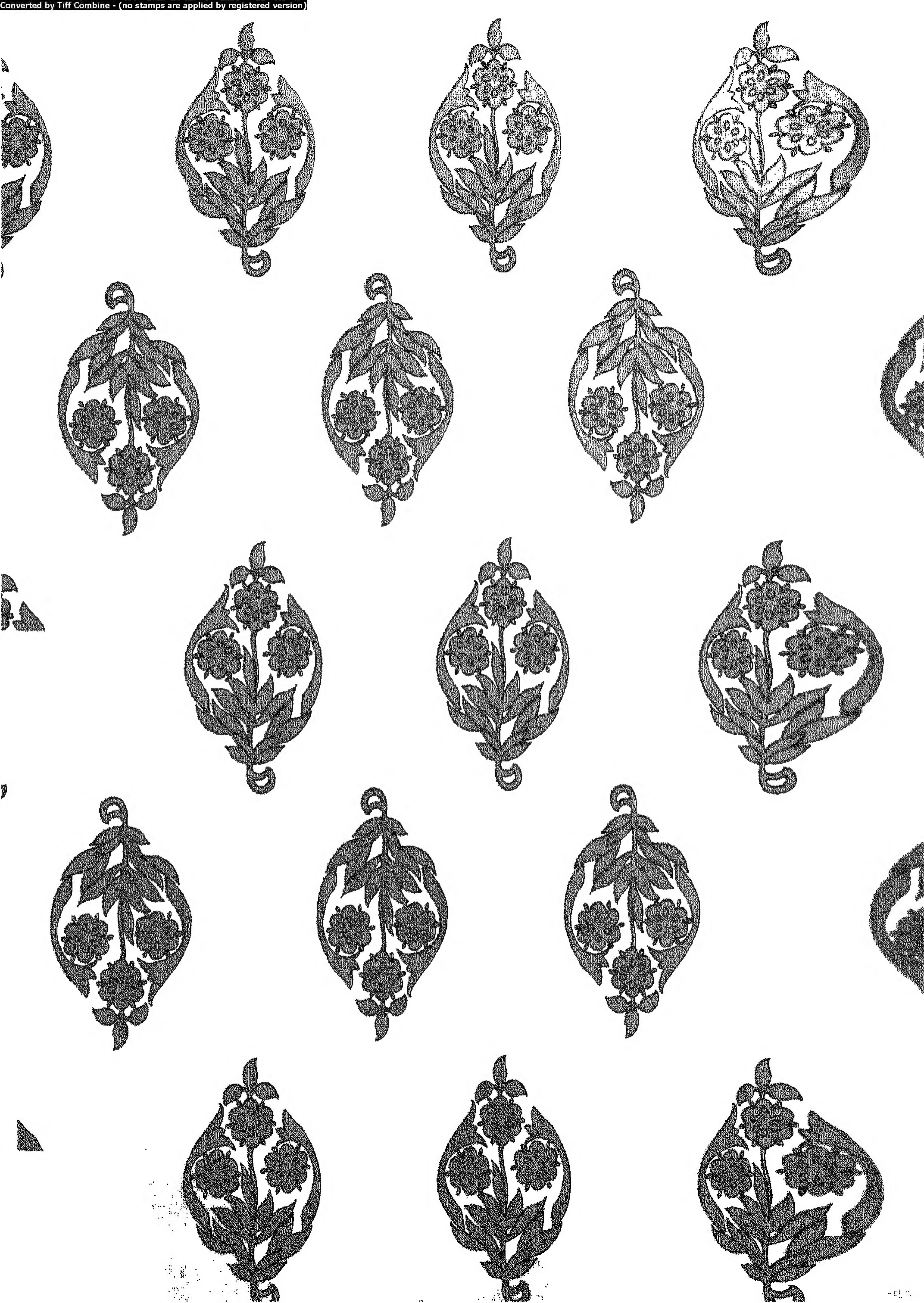
زينب الغزالي الجبيلي



المجلد الأول

دار
النشرو
الكتاب



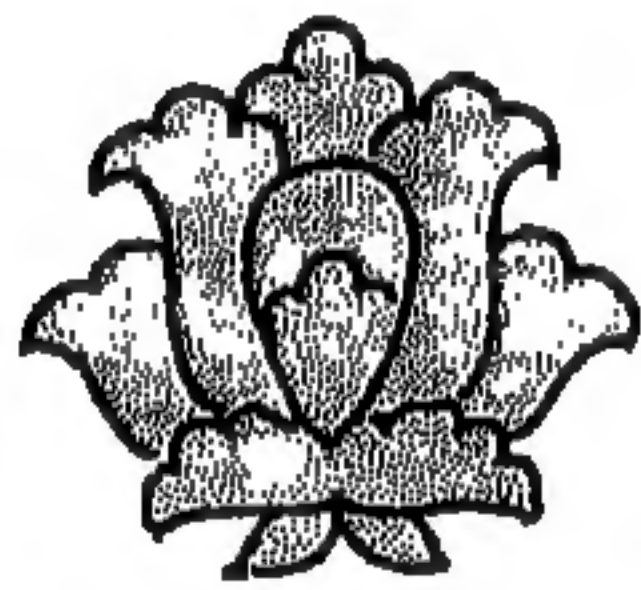


نظرات
في
كتاب الله

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نظرات
في
كتاب الله



زَيْنَبُ الْغَزَالِي الْجُبَيْلِي

مراجعة وتقديم
د. عبد الحى الفرماوى

المجلد الأول

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسن - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) - تليكس : SHOROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تليكس : SHOROK 20175 LB

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه .

أما بعد :

فقد عاشت الداعية المجاهدة « زينب الغزالي » ، « مع كتاب الله » تعالى ، حياتها - بحلوها ومرها - تتلوه ، وتستمع إليه يُتلى ، وتقرأ ما يعينها على فهم مراد الله تعالى فيه ومنه ، وتلتزم نفسها ، وتكيّف واقعها على الالتزام بهذا الذي فهمت .

وأكسبها ما كانت تتلوه ، وتستمع إليه ، وتقرأ حوله ، وتلتزم نفسها به : خشوعاً في قلبها ، ونوراً في بصيرتها ، وسلامة في فهمها ، وصواباً في التزامها .

كما أكسبها ذلك : رغبة جيّاشة صادقة ، في تقديم ما فهمت ، وتبسيط ما وجدت في كتاب الله تعالى من نور وهداية ، إلى السيدات المسلمات ، وقد كان . . في الفترة من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٦٤ ، ثم إلى الأخوات المسلمات ، وقد كان . . في الفترة من عام ١٩٦٤ إلى الآن . وماتزال الداعية المجاهدة - حتى ساعة كتابة هذه السطور - تقدم ، وتبسط ، وتفيض ، وتفيد ، في : دروس ولقاءات ؛ ليفهمنه كما فهمته هي ، وليسعدن به كما سعدت هي ، وليتج هذا الفهم لهنّ - مع الرغبة الصادقة ، وتوفيق الله - التزاماً واعياً ، مثمراً ، منقذاً ، كما أنتج لها .

* * *

وقد حقق الله تعالى - لإخلاصها وصدقها - ما أرادت ، منذ أن عاشت هي والسيدات المسلمات ، ثم هي والأخوات المسلمات « مع كتاب الله » تعالى ؛ فترات طويلة في جلسات تحفها الملائكة حول مائدة القرآن العظيم .

* * *

كانت الداعية المجاهدة : تقرأ في كتاب الله ، خلال هذه الجلسات ، فتتال عليها الخواطر من العليم الحكيم ؛ ومن ثم تنسكب في قلوب من يستمع لها أنوار الفهم لهذا الكتاب الكريم الخالد ، وتنشرح لشرحها له الصدور ، وتستجيب خاضعة - بالالتزام - لربها : القلوب والعقول والصدور والأبدان ، ويحاول كل مستمع بنفسه وفي نفسه ولنفسه ، ومع إخوانه ، أن يقيم صرح هذا الدين : بحسن إدراك ، وسعة فهم ، وإخلاص قصد ، وصحة سلوك .

* * *

وقد طُلب مني أن أقوم بمراجعة هذه الخواطر التي سجلتها الداعية الكبيرة وهي تعيش « مع كتاب الله » نظرا إلى أن تخصصي في تفسير القرآن الكريم وعلومه الشريفة . وكدت أعتذر عن ذلك ، لاعتلال صحتي وضيق وقتي ، لولا تقديري للداعية المجاهدة وحرصى على أن ترى هذه المعاشة الصادقة « مع كتاب الله » النور ؛ ليستفيد منها المسلمون والمسلمات على أوسع نطاق وأدومه .

* * *

ومن اللازم في هذا التقديم : أن نحيط القارئ علما بالمنهج الذى تقوم عليه هذه المعاشة ، والذى يتجلى - باختصار - في النقاط التالية :

١ - شرح - الداعية المجاهدة - للآيات ، وكشفها لمعانيها ، بعبارات سهلة ، وأسلوب واضح ، لاغموض فيه ولا غرابة ولا إبهام .

٢ - ربط معانى القرآن الكريم وأحكامه بواقعنا الذى نعيشه ، فى محاولة - صادقة - لتقويم هذا الواقع على هدى هذه الأحكام ، وفى إطار هذه المعانى ، وفى محاولة - صادقة - دائبة لعلاج أمراض المجتمع ، عن طريق إبراز هذه المعانى ، وتلك الأحكام ، والأخذ بأيدي المسلمين ، أفرادا وجماعات - مع هذا التقويم ، وذاك العلاج - لربط حياتهم بهذه المعانى ، وإسعادهم عن طريق الالتزام بهذه الأحكام .

٣ - التركيز الشديد على الجانب العملى فى الإسلام ، والذى يقوم على :

(أ) بناء الفرد المسلم ، على أساس : فهم سليم ، ومعرفة واسعة شاملة لهذا الدين ، وثقة به عقيدة وشريعة ، والتزام به ، وتطبيق له . كل ذلك : بخلق قويم ، وعاطفة نبيلة ، يصطبغ بهما عمله وكل تصرف له .

(ب) بناء البيت المسلم ، فى تكوينه ، وفى تسييره ، وفى تقويمه ، على أساس من : عقيدة سليمة ، وخلق قويم ، وعواطف صادقة ، بما يعين أفراداه على السكن فى حياتهم ، ويشيع المودة بينهم فى تعاملاتهم ، ويظللهم بالرحمة ، ولو كان فى خصوماتهم .

(ج) تكوين الأمة المسلمة ، التى يُبنى أفرادها ، وتتكون أسرها على الأسس والمعانى السابقة .

كل ذلك ليكون للدعوة حصاد ، وللإسلام وجود ينمو ويتحرك ويتقدم عملاقا ، يبدد الجهل ، ويحارب الظلم ، وينشر العدل ، ويشيع الأمن ، ويخرج الناس من ظلمات الأرض وعبادة طواغيتها والخضوع لمادياتها ، إلى نور الإسلام ، وحرية العبادة لرب السموات والأرض ، والتعالى على ماديات الحياة ، وأرجاسها ، وأدناسها ، فى ظل وجود الدولة الإسلامية .

٤ - الدعوة القوية إلى إحياء فرائض الاسلام الغائبة ، من مثل :

(أ) الحكم بما أنزل الله ، والعمل بما شرع إنقاذاً للعباد وإحياء لهم . وتربط الداعية المجاهدة بين ما يعانيه المسلمون فى واقعهم ، من تخلف وهوان ، وبين إهمالهم

تحكيم شرع الله فيهم . ومحش القارئ بلوعة الداعية المجاهدة لتغيب ما أنزل الله من تشريع عن حياتنا وأحكامنا وأنظمتنا التربوية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية . . إلخ . كما يشعر - مع ذلك - بثقتها المطمئنة بأن الله تعالى سيغمر أتباع هذا الدين برحمته ، ولن يتخلى عن إسباغ نعمته عليهم بتمكينهم من العمل بشرعه ، والتزامهم بهديه ، مهما حيل بينهم وبين ذلك .

(ب) وجوب الجهاد في سبيل الله تعالى ؛ لجعل كلمة الله هي العليا ، وإزالة العوائق من طريق تبليغها ، ونصرة الإسلام وأهله ، والدُّؤد عن حياضه ، بوعى ، وعلم ، وامتلاك للقدرة المؤهلة لذلك ؛ لتعود للإسلام دولته ، ويأخذ المسلمون دورهم فيما يحقق خيريتهم من : إيمان بالله تعالى ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر بعز واقْتدار، يمكنهم من كلمة الحق تُقال ، والنصيحة المخلصة الواعية تُقدّم . ونلاحظ هنا بجلاء : ثقة الداعية المجاهدة الواضحة القوية بانتصار الإسلام وأهله ، واندحار الباطل وجيشه .

٥ - الإكثار من التوجه إلى الله تعالى بالحديث المباشر ، والدعاء إليه تعالى - بقلب مُفعم بالإيمان ، واثق بالإجابة - عقب آيات الوعد ، والاستعاذة عقب آيات الوعيد .

٦ - اعتماد الداعية المجاهدة على الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما تستشهد به منه في معاشيتها « مع كتاب الله » تعالى . واستشهادها بالحديث النبوى قد يكون لبيان معنى الآية وتوضيحها ، كما قد يكون لضرب المثل بالحديث الشريف المقرب لمقصود الآية ومعناها . كما قد يكون - كذلك - لزيادة الأُنس والإمتاع ، ببيان تعائق الحديث الشريف والآية الكريمة حول المعنى المطروح في الآية القرآنية .

وقد اقتضى إبراز هذا الهدف ، والمحافظة على هذا المنهج ، وتوضيح هذه المعاشية، تجنّب القارئ الدخول في كثير من القضايا والمسائل التي عنى بها كثير من المفسرين ، بل التي كانت تصطبغ بها - أحيانا - تفسيراتهم .

وهكذا ، وصلت معايشة الداعية المجاهدة « مع كتاب الله » تعالى : إلى ما أرادت لها
صاحبته أوكادت ، كما لبست هذه المعاشة - كذلك - ثوبا قشيبا ترفع به هامتها ، وتحذدُ
به مكانتها بين رفوف مكتبة القرآن الكريم ، الرفيعة المنزلة ، العالية القدر .

* * *

وأضرع إلى الله تعالى أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن يجعله : مرشدا لهديه ،
نافعا لعباده ، وزادا لنا ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿^(١) .

د . عبد الحى الفرماوى

أستاذ التفسير بجامعة الأزهر

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

« مع كتاب الله »

إن كتاب الله هو كلمة الله الأخيرة على خاتم رسله محمد ﷺ . ولقد كان لي معه جلسات وجلسات أسأل الله أن يتقبلها عنده . لقد عايشته آياته أيام خلوتي مع الله ، في السجن ؛ فالسجن لأصحاب الدعوات خلوة . وما أعذبها من خلوة حينما ينقطع الإنسان عن الدنيا بكل زخارفها وشواغلها ، ويعيش مع الله ، مع آياته يشبع في رحابها بقلبه وروحه فيسمع ربه يحدثه بآياته بلا حائل ، فيقطف من ثمارها بقلبه معاني وأسراراً وفيوضاً نورانية تجلي ظلمة القلوب .

نعم ، عشت - بفضل الله تعالى - مع آيات الله وعایشتها وعشت أنغامها ، وفتح الله تعالى لها قلبي - بفضل وحده - فتمعتها بكل ذرات جسدي حتى ذبت بين آياته بقطرات دمع تستجدي البر الرحيم أن يرحم قلباً ضعيفاً مسكيناً فقيراً إلى رحمته وعفوه ، « فلن يدخل أحد الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته » . فيا الله يا أرحم الراحمين تغمدنا برحمتك وأدخلنا في زمرة عبادك الصالحين .

نعم ، عشت - بفضل الله - لحظات مع كتاب الله - فما أحلى أوقات الطاعة ، مهما طالت فهي قصيرة - فكانت لحظات عذبة حلوة تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة . وأحببت أن يعيش معي أبنائي وبناتي على طريق الدعوة هذه اللحظات وهذه الأشواق ، فيسر الله لي كتابة هذه الصفحات (مع كتاب الله) راجية من الله العلي القدير أن يتقبله في ميزان حسناتي وأن ينفع به .

ولقد كانت عدتي في تسطير هذه الصفحات ما علق بذاكرتي ، مما سطرته في

السجن على هامش مصحفى وبين سطوره ، مما كان يفيض على خاطرى وقلبى وأنا أعيش فى رحاب آياته سبحانه وتعالى .

وتزودت من زاد علمائنا السابقين ممن توفروا على تفسير كتاب الله ؛ فتتلمذت على القرطبى فى تفسيره ، وعلى الحافظ ابن كثير وكان لى معه أشواق وأشواق ، وعلى الألوسى وأبى السعود والقاسمى والأهوازى ، وعشت فى ظلال الشهيد سيد قطب رحمه الله .

وأخذت أراجع فى السنة ما وسعنى جهدى ، فهى خير مفسر لكتاب الله ، وكل من كتبوا فى التفسير من علمائنا الأفاضل كانوا يحومون فى رحابها وينهلون من معينها .

وكانت أكثر جلساتى مع كتاب الله بين صفحات ابن كثير ، فأخذت على لُبى ، فكنت أطلع ما سطره وكأنى أنظر إليه وحببات النور تتلألأ فى جبينه وتتفجر من ثناياه .

فهل رأيت حلقات العاشقين الهائمين حول كتاب الله ؟

إن شئتفا فاجلس وخل قلبك عن الأغيار وعش مع ابن كثير وهو يسطر بقلم من نور تفسير القرآن العظيم .

إنه يأخذك من دنياك لتعيش مع رسول الله - ﷺ ، ومع صحابة رسول الله وهم يقتدون بهديه فهو زعيمهم الأوحد وأسوتهم العليا - صلى الله عليه وسلم . ما أحوجنا ونحن فى عصر تكاثفت فيه الفتن علينا - وعلينا وحدنا نحن المسلمين - للعودة إلى كتاب الله ، فيكون لنا زاداً لدنيانا وآخرانا .

ما أحوجنا للعودة إلى كتاب الله ليكون لنا منهاجاً لسلوكنا وحياتنا كلها . ما أحوجنا للعودة إلى كتاب الله ليكون للأمة دستوراً فى جميع شئونها . فنسعد فى رحاب القرآن ، وننعم فى حكمه ، فهى نعمة لا تفضلها نعمة . إنه فى رحاب حكم القرآن تحمل الأزمات المعقدة .

فى رحاب حكم القرآن تتربى الأمة على هدى ربها .

إن القرآن ما نزل على رسول الله - ﷺ - إلا ليكون دستوراً لحياة البشرية إلى يوم القيامة ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ .

تأمل معى : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم ﴾ . (ليحكم) لا ليهجر .

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا
مما قضيت ويسلموا تسلياً ﴾ تأمل معي ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك . . . ﴾ .
وإن ما يسر الله لي كتابته « مع كتاب الله » خطوة نحو العودة إلى كتاب الله . نسأل
الله تعالى أن يجعلها خطوة مباركة ، وأن يتقبلها عنده ، وأن ينفع به كل من قرأه أو
ساهم في إخراجه للمسلمين ، ويجعل عملهم هذا ذخراً لهم يوم لا ينفع مال ولا بنون .
وصلى الله على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

زينب الغزالي الجبيلي

(١) سُورَةُ الْفَاتِحَةِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة الكتاب هي أول سورة نزلت مكتملة بآياتها السبع ، وهي سورة جامعة . في آياتها مقاصد القرآن كلها من عقيدة وتشريع وقصص ، وذلك في إجمال بليغ جامع . ففي آياتها القليلة القصيرة بيان شافٍ للتوحيد والتوكل والبراء من المشركين والضالين والمعطلين أحكام الله تعالى عن العمل بها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ
يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦﴾

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي أقام ببعثة محمد - ﷺ - خير الأمم وأنزل عليه خير كتاب وافتتحه بخير سورة هي أم القرآن ، الشافية ، الواقية ، الرقية ، الكثر ، التفويض ، المناجاة ، النور . كل ذلك أسماء للسورة العظيمة أم الكتاب . « الحمد لله » الذي أنعم على أمة رسوله - ﷺ - فاختر منهم حفظة لكتابه وورثهم حفظه وتفسيره وبيان غاياته ومقاصده .

فالعلماء ورثة الأنبياء ؛ فهم يشرحون للناس ما غمض عليهم ، ويبينون أحكامه ، حلاله وحرامه ، محكمه ومتشابهه . فالمؤمنون يحيون به وله في الدنيا ، ويحيون في حياة أبدية في الجنة .

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

إنه كتاب مبين افتتح بأعظم سورة في القرآن .

عن أبي سعيد بن المعلى - رضى الله عنه - قال : كنت أصلى فدعاني رسول الله - ﷺ - فلم أجبه حتى صليت فاتيته فقال ما منعك أن تأتينى ؟

قال قلت : يا رسول الله كنت أصلى . قال : ألم يقل الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ؟

ثم قال لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد . قال فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت لى لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قال : نعم « الحمد لله رب العالمين » هى « السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته »^(١) .

ولما كانت الصلاة قد فرضت فى مكة فى ليلة الإسراء والمعراج ، فقد أجمع العلماء على أن فاتحة الكتاب مكية حيث نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ من سورة الحجر^(٢) وهى مكية .

وقد اشتملت هذه السورة العظيمة على اسم الله الأعظم (الله) ، ثم جمعت من أسمائه الحسنى (الرحمن ، الرحيم ، الملك) . والأسماء الثلاثة الأولى افتتحت بها السورة ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ الحمد لله رب العالمين ﴿ ثم جاء الوصف ﴾ الرحمن الرحيم ﴿ ثم جاء الإعلان لأن ﴾ الرحمن الرحيم ﴿ هو ﴾ مالك يوم الدين ﴿ .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة . ﴿ الحمد لله ﴾ الشكر لله خالصا دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصىها عدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد . . . والرب هو المالك المتصرف . و ﴿ العالمين ﴾ جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله عز وجل . ﴿ يوم الدين ﴾ يوم الحساب للخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، إلا من عفا عنه . ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ الأول تبرؤ من الشرك ، والثانى تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل ؛ أى لا نعبد إلا إياك ، ولا نتوكل إلا عليك ، وهذا هو كمال الطاعة .^(٣)

(١) رواه البخارى كتاب التفسير تفسير سورة الفاتحة وتفسير سورة الحجر .

(٢) الآية : ٨٧ . (٣) انظر ابن كثير : ١ / ٢٥ .

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

عندما يستغرق الإنسان في مشاهد ﴿يوم الدين﴾ وموقف الناس والأمم في هذا اليوم العصيب ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿، يوم يفر المرء من أخيه﴾ وأمه وأبيه﴾ وصاحبه وبنيه﴾ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴿، يوم تنشر الصحف﴾ وإذا الصحف نشرت ﴿، يوم توضع الموازين﴾ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً . . . ﴿ - يجول المسلم بقلبه في ساحات ومواقف هذا اليوم ، فتستغرقه يقظة في القلب وصحوة في الضمير، توقفه ليسائل نفسه ويحاسبها ، فيجد نفسه تهتف من أعماقها : يارب يا مالك الدنيا والآخرة يا مالك يوم الدين ، ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ، فارزقنا إيماناً يملأ جنات حياتنا وارزقنا عملاً صالحاً يرضيك عنا . ارزقنا صلاة تصلنا بجلالك . ارزقنا زكاة نخرجها تزكو بها نفوسنا وأموالنا . ارزقنا شهادة في سبيلك وفي سبيل دعوتك وتحكيم كتابك فهو الصراط المستقيم .

إنه يمثل لأمر الله ونهيه ، إنه يسمع كلام ربه وكأنه ينزل عليه هو ليحققه في نفسه ويقوم به في الناس . إنه يخترق الحجب بقلبه وروحه - لأنه على الصراط المستقيم - ليشهد ملائكة الله تسبح وتكبر فيشعر أن الكون كله معه وأنه ليس وحده ، بل يسير معه على الدرب عباد الله كثيرون ، وملائكة الله لا يعلم عددهم إلا خالقهم .

فالهداية هي الإرشاد والتوفيق . و ﴿الصراط المستقيم﴾ هو الطريق الواضح الذي لا عوج فيه . و ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ مفسر للصراط المستقيم . والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء ﴿من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ .^(١)

وتختتم السورة بالبراء ، من ﴿المغضوب عليهم﴾ وهم الذين غضب الله عليهم لمعرفتهم الحق ، ثم حيدتهم وانحرافهم عنه . وكذلك : من ﴿الضالين﴾ وهم الذين ضلوا عن الحق ، فلم يهتدوا إليه أصلاً^(٢) . ومع هؤلاء وهؤلاء : كل من يسير في ركبهم من الذين خالفوا الإسلام ، طريق « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

(١) آية : ٦٩ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن (بتصرف يسير) .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ
مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ

اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور ؛ فمنهم من قال هي مما استأثر الله بعلمه ، ومنهم من فسرها ، واختلف هؤلاء في معناها . « وقد وردت في تفسيرها وجوه كثيرة ، نختار منها وجهها . إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ، وهي في متناول المخاطبين به من العرب ؛ ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز ، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله . . . الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، فلا يملكون لهذا التحدي جوابا !

« والشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خلق الله جميعا . وهو مثل صنع الله في كل شيء وصنع الناس . إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات ، فإذا أخذ الناس هذه الذرات ، فقصارى ما يصوغونه منها لبنة أو آجرة ، أو آنية أو أسطوانة ، أو هيكل أو جهاز ، كائنا في دقته ما يكون ، ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة ، حياة نابضة خافقة ، تنطوي على ذلك السر الإلهي المعجز ، سر الحياة ، ذلك السر الذي لا يستطيعه بشر ، ولا يعرف سره بشر . وهكذا القرآن . . حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاما وأوزانا ، ويجعل منها الله قرآنا وفرقاناً . والفرق بين

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض . . هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة ! » ^(١) .

وبعد أن قال الحق تبارك وتعالى « آلم » للإعجاز ابتداءً : يعقب ذلك بالإشارة إلى موطن الإعجاز ألا وهو القرآن الكريم ، فيقول تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فيه ، إذ لا يختلط به الباطل . إنه عين الصدق والحق ، وهو الحقيقة الواضحة ، الناطقة بحقائق هذا الوجود ، وذلك الكون ، جاء بها هذا الكتاب يسطع بالنور ، ويبرهن على القدرة ، ويعلن عن الحكمة ، ويصدر عن الأمانة ، ويبسط آياته لبيان عظمة الخالق جل وعلا .

ولكى يكون القرآن لا ريب فيه على مر العصور : تكفل الله وحده بحفظه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وإذا كانت جميع الكتب السماوية - قبل القرآن - لم تسلم من التحريف والتبديل ، فإن القرآن يبقى وحده ، فريدًا ، سالمًا من أى تبديل أو تحريف .

يقول الشيخ محمد الغزالي ، فى معنى ذلك « نحن نوقن بأن القارات الخمس لا تحوى سجلًا للوحى الأعلى إلا فى هذا الكتاب العزيز » ^(٢) .

إن الله تبارك وتعالى يهذى بكتابه هذا الذين اتقوه : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴾ ^(٣) .

ومعنى التقوى هنا اتقاء العذاب بالطاعة والامتنال . ويستحيل أن يتقى الإنسان ربه إلا إذا عرفه حق المعرفة .

فالتقوى ثمرة المعرفة الحقيقية التى تعلو إلى مرتبة الشهادة القلبية ، كما أراد الله تعالى منا فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٤) .

ويقول - ﷺ - : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به ، حذرًا لما به بأس » ^(٥) .

(١) فى ظلال القرآن : ١ / ٣٨ . (٢) دستور الوحدة الثقافية : ص ٢٧ .

(٣) المائدة : ١٦ . (٤) آل عمران : آية ١٠٢ .

(٥) رواه ابن ماجه ، كتاب الزهد باب الورع والتقوى ، ورواه الترمذى فى السنن كتاب صفة القيامة ، باب ١٩ وقال : « حسن غريب » !

سُورَةُ التَّقْوَى

وسأل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أبى بن كعب عن التقوى ، فقال له أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال : بلى .

قال : فما عملت ؟

قال : شمريت واجتهدت .

قال : فتلك التقوى .

ووصفها على بن أبى طالب - رضى الله عنه - بأنها : « الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، والرضا بالقليل » .

وجاء فى فضل التقوى عن عبد الله بن عمرو . قال : « قيل يا رسول الله - ﷺ - أى الناس أفضل ؟

قال : كل مخموم القلب ، صدوق اللسان .

قالوا : صدوق اللسان نعرفه فما هو مخموم القلب ؟

قال : هو التقى النقى ، لا إثم فيه ولا بغي ، ولا غل ، ولا حسد » ^(١) .

هذه هى التقوى التى تجعل المسلم يحب ربه ، ويخافه فى الوقت نفسه ، فيتحرى الطاعة ، فلا يفتقده الله حيث أمره ، ويخشى المعصية ، فلا يراه الله حيث نهاه ، وتلك منزلة المتقين ، الذين يرجون رحمته ويخافون عذابه ، يخافون أن يمسهم غضب من ربهم ، فيحذرون المعصية ، ويشفقون من أن تفوتهم الطاعة ، على أكمل وجه لله جل وعلا .

وقد وصف الله - سبحانه وتعالى - المتقين غير مرة فى كتابه العزيز . وفى هذه السورة يوضح سماتهم وخصائصهم بأنهم : ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ .

أى أنهم يؤمنون بأن هذا العالم الدنيوى القائم المشهود : وراءه عالم آخر مستور ، قائم قيام هذا العالم الملموس المنظور .

فألجنة قائمة ، وإن لم يروها ، فإيمانهم بها إيمان بالغيب . والنار قائمة ، وإن لم يروها ، فالتصديق بها تصديق بالغيب . وكذلك الإيمان بالله ، وملائكته ، واليوم الآخر . . . كل ذلك إيمان بالغيب .

وهذا الإيمان يدفعهم إلى خشية الله يوم القيامة . فهم على يقين من أن الله تعالى

(١) رواه ابن ماجه ، كتاب الزهد باب الورع والتقوى ، وفى الزوائد : هو إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

سُورَةُ التَّقْوَةِ

سيتجلى عليهم وينظر إليهم . ولهذا فهم يعملون لهذا اليوم ، ويعدون له الزاد . أولئك هم المتقون ، الذين يؤمنون بالغيب ، وبالأخرة هم يوقنون .

وقد بين الإمام الشهيد حسن البنا - عليه رحمة الله - ذلك فقال :

« ليس المراد بالإيمان بالغيب التسليم الأعمى بدون دليل أو برهان ، مما يؤدي إلى اعتقاد الخرافات ، والتصديق بالأوهام ، وبما لا يتفق مع الحقائق العليا ، التي جاء بها الدين الحنيف ؛ فقد نهينا عن مثل هذا الإيمان المتهاافت . فالمراد بالذين يؤمنون بالغيب هو هذا الصنف المشرف الشفاف من النفوس الطيبة اللينة الحسنة الاستعداد ، لتقبل الحقائق ، وإن جاءتها عن غير طريق الحواس » .

ومن صفات المتقين ، أنهم ﴿ يقيمون الصلاة ﴾ . والصلاة هي : الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين اللتين بهما نعتقد أن الله الفاعلية في كل كونه .

والعبادات كلها توقيفية ، ومعنى ذلك أننا نتلقاها عن الرسول - ﷺ - ونقوم بها على النحو الذي أداها به رسولنا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - وقد علمنا أن نصلي كما رأيناه نصلي ، ونحج كما رأيناه يحج ، ونصوم كما كان يصوم .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ يقيمون الصلاة ﴾ ، يختلف عما إذا قال « يؤدون الصلاة » . فإقامة الصلاة ، تعنى أن ينصرف المصلي بتكبيره الإحرام عن نفسه ودنياه ، ويعيش ما يقرأ من القرآن ، ويؤدي ركعاته وسجدياته بخشوع قلبه وخضوع روحه ، إلى أن يرتقى الخشوع إلى مرتبة كأنها الحضور والشهود لله ، وكأنه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان . ومن إقامة الصلاة أن تصلي لوقتها ، فإن ذلك من أفضل الأعمال .

والصلاة تقوم النفس وتقويها ، وتجعل لها عزيمة وإرادة ودفعة حياة ، وبذلاً دائماً في سبيل الله .

وطهارة البدن ونظافة الأطراف ، تعود النظافة الحسية التي ترتقى بك مع الذكر والتسبيح والتهليل إلى طهارة قلبية .

ومن صفات المتقين أيضاً ، أنهم كما وصفهم القرآن : ﴿ . . . وما رزقناهم ينفقون ﴾ .

وقد نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة - وإن كان حكمها مازال معمولاً به - واختار ابن جرير أنها تعم الزكاة وغيرها من النفقات ، فالمسلم ينفق من ماله حين يجد أخاه المسلم في حاجة إلى الطعام ، وكذلك الثياب ، وغيرها .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وهؤلاء المتقون ﴿يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ . إنهم يؤمنون بالقرآن الذي أنزل على محمد - ﷺ - كما يؤمنون بالكتب التي نزلت من قبل .
إنهم لا يفرقون بين نبوة نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ونبوة محمد - ﷺ - الخاتم لكل النبوات

إنهم يؤمنون بالكلمات التي تلقاها آدم من ربه ، وبالكلمات التي تنزلت على جميع الأنبياء من بعد آدم . فهم كما وصفهم تعالى بقوله :

ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ ۚ وَكُتِبَ لَهُ
وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ
رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

ولكن ليس معنى الإيمان بما أنزل من قبلنا أن نعمل بشرائع الأمم قبلنا دائماً ، بل نعمل بالقرآن والسنة المبينة له ، ونؤمن بأن هذه الرسائل متفقة معنا في العقائد ، وتختلف في التشريع ، وأنا مطالبون بأن يكون للقرآن الهيمنة الكاملة على كل الرسائل .

قال تعالى :

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾^(١) .

وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٢٨٦﴾

والإيقان بالآخرة يعنى أنهم لا يشكون في أمر الآخرة ، ويرونها ماثلة أمام أعينهم رأى العين ، ولا يتم الإيمان إلا باليقين .

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۚ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٨٧﴾

هؤلاء المتقون المفلحون ، هم الذين يصلحون إذا فسد الناس ، ويهتدون إذا ضل

(١) المائدة : ٤٨ .

نُورَةُ الْبَقِيَّةِ

الناس ، فيعيشون غرباء في أوطانهم وبين ذويهم ، ويعملون على إصلاح ما أفسد الناس من سنة نبيهم - ﷺ - يجاهدون في سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم ، يقولون كلمة الحق وهم يعلمون أن الموت أقرب إليهم من شرك نعالهم .

إنهم طائفة ظاهرة على الحق ، قائمة به حتى تقوم الساعة ، وهي قائمة لا يضيرها من خالفها ، ولا من خذلها حتى ينفخ في الصور الموعود وهم على ذلك ، فينتقلون إلى دار الكرامة ، ويناديهم ربهم : ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ ^(١) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

بعد الحديث عن المتقين وصفاتهم في الآيات السابقة نتحدث الآيات هنا عن طائفة مناقضة للمتقين ومناهضة لهم ، وهي طائفة الكافرين ، لا تنفعهم الذكرى ، ولا تجدى معهم الموعظة . لا يهتدون ، ولا ينتفعون بها في الكتاب من آيات بينات ، يزداد بها المتقون إيماناً مع إيمانهم ، بينما لا يزداد الكافرون بها إلا ضلالاً على ضلالهم .

وإصرار الكافرين على كفرهم ، ليس السبب فيه تقصيراً في البلاغ ، ولا عيباً في القرآن ، ولكن لأن الكفر متشبث بقلوب هؤلاء ، بما اكتسبوا من سيئات رانت على قلوبهم فغلقتهم ، وعلى أسماعهم فأصممتهم ، وعلى أبصارهم فأعمتتهم .

إنهم لا يعاندون الله ولا يعاندون رسوله - ﷺ - بل إنهم يعاندون أنفسهم بعنادهم للحق الذي جاءهم من ربهم ، وللحقيقة القائمة في ضميرهم .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ آمِنُوا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ؕ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا

(٢) الزخرف : ٦٨ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي ءِاذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

بين الله سبحانه وتعالى لنا بإيجاز صفات المتقين ، ثم صفات الكافرين ، ثم بين هنا بشيء من التفصيل صفات طائفة المنافقين ، لأن عالم المنافقين عالم متفرد . إذ النفاق خليط غير متكافئ من باطل ألبس بحق ، وحق أشرب بباطل ، يشع فيه النور فجأة كما يختفي فجأة ، ويستحيل إلى ظلام دامس مخيف - فلا تكاد تميز بين نار استوقدت لتضيء وأخرى لتلهب عالماً تسود فيه دواعي الحيرة والتردد والقلق والتساؤل .

وأصل النفاق : أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن ، وهو المتعارف عليه شرعاً بـ «إظهار الإيمان وإخفاء الكفر» . وقد ظهر بين صفوف المسلمين - أول ما ظهر - في المدينة . وسورة البقرة أول سورة مدنية تتناول المنافقين بذكرهم وبيان صفاتهم . ولم يكن الحال بمكة يدعو إلى ظهور أمثال هؤلاء المنافقين ، لأنه لم تكن للإسلام دولة تحمل الناس على منافقة المسلمين ، بل كان كفار مكة يظهرون للمسلمين عداؤهم الذي يكونونه .

أما في المدينة وقد صارت الشوكة والغلبة للمؤمنين ، وقامت دولتهم بقوتها ، بجيشها ، بحكومتها ، وقبل ذلك كله بقائدها ورائدها محمد - ﷺ - إذن فقد تغير الحال ، وأصبحت الدولة للمسلمين ، وهنا ظهر النفاق .

وخطر الكفر أقل من خطر النفاق ، ذلك أن أهل الإيمان يقفون من الكفار وجهًا

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

لوجه ، ويعلنون الحرب عليهم ، فمقاومة الكفر أهون وأيسر من مقاومة النفاق ، لأن النفاق غير معلن ، ولذلك نجد قيامنا في هذه الدائرة صعبًا وحرَجًا ، والأمة الإسلامية قد عانت - في تاريخها الطويل - من المنافقين أكثر مما عانت من أعدائها الظاهرين . ولذا كان القرآن معنيًا برسم ملامحهم ، ووصف علامات نفاقهم ، حتى يتعرفها المؤمنون فيحذروهم ، ولا يقعوا في حبال خداعهم .

وحتى نعلم خطر هذه الفئة على الإسلام والمسلمين ، فلتصورهم وهم يأتون رسول الله - ﷺ - ومن بعده من المؤمنين ، فيقولون : « نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » والله يعلم إنهم لكاذبون . . وهم يظنون أنهم بكذبهم هذا قد خدعوا الله ورسوله والذين آمنوا ، بينما هم المخدوعون حقًا ؛ ذلك أنهم يسرون في طريق نهايته الدرك الأسفل من النار ، ولن يجدوا لهم نصيرًا .

فما أقسى قلب من خالط أهل الحق ، واستمع من رسول الله - ﷺ - وعاش التعاليم والمبادئ التي علّمها وشرحها رسول الله - ﷺ - لأصحابه ، ثم أصر - بعد هذا - على الكفر سرا . وما أتعس وأبأس من نافق في الدنيا حتى إذا كان يوم القيامة واتجه المنافقون ليجلسوا حيث يجلس المؤمنون - كما كانوا يفعلون في الدنيا - إذا بسور يضرب بينهم ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، فينادون المؤمنين : ﴿ ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله . . . ﴾ (١) . والمرض هو الشك . قال بذلك غير واحد من صحابة رسول الله - ﷺ - منهم ابن عباس ، وابن مسعود . وقال بذلك أيضًا جماعة من التابعين ، منهم مجاهد ، وقتادة والحسن البصري .

وعن عكرمة وطاوس في قلوبهم مرض يعنى الرياء (٢) .

وقد جازاهم الله في الدنيا بمزيد من المرض على مرضهم ، ذلك أن الجزء من جنس العمل . أما في الآخرة فقد أعد لهم العذاب الأليم ، وتلك هى عاقبة كذبهم الذي لم يتخلوا عنه في الدنيا .

والكذب أول آيات المنافق ، وبه يدارى نيته الخبيثة وباطنه السيئ . وأعظم الكذب :

(١) الحديد : ١٤ .

(٢) ابن كثير : ٤٨ / ١٠ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الكذب على الله ، وعلى رسوله - ﷺ - قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ^(١) .
ثم بين الحق تبارك وتعالى صفة أخرى فيهم ، وهى أنهم :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

و « الفساد خروج الشيء عن حال استقامته ، وكونه منتفعاً به ، ونقيضه الصلاح ، وهو الحصول على الحاة المستقيمة النافعة » ^(٢) .

والإفساد فى الأرض إنما يكون بمعصية الله ، فبقدر ما فيها من المعاصى بقدر ما فيها من فساد وإفساد .

يقول تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليزيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ ^(٣) .

وهذه الطائفة من الناس قد اتخذت ادعاء الإيمان بالله واليوم الآخر ذريعة لى يفعلوا ما يحلو لهم ، وحجاً يستترون وراءه من قبيح أفعالهم .

وهذه صفة المنافقين فى كل زمان ، قبل البعثة ، وبعدها ، وإلى يومنا هذا ، بل إلى يوم الدين بنفس صفاتهم وخلاتهم التى وضحتها القرآن ، كما سبق بيانه . فإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، بتعطيل شرع الله ، قالوا : ما نريد إلا الإصلاح . فهم مفسدون ، مرة باسم المصلحة العامة ، ومرة باسم الحضارة .

وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال :

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

وليس بين هؤلاء المنافقين والدرك الأسفل من النار إلا الموت ، وليس بينهم وبين الجنة إلا أن يوافق باطنهم ظاهرهم ، وفعلهم قولهم .

قال تعالى :

﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابوا

(١) الصف : ٧ . (٢) محاسن التأويل ، القاسمى ، ٤٣/١ .

(٣) الروم : ٤١ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

وبعد نهيهم عن المنكر في الآية السابقة بـ ﴿ لا تفسدوا ﴾ ، يأتي أمرهم بالمعروف في هذه الآية بـ « آمِنُوا » .

وقوله تعالى : ﴿ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ يعنى الإيمان الحق ، الذى أمر الله - سبحانه وتعالى - به ، والذى عرّفه العلماء بأنه « قول باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمل بالأركان » . ولكنهم يرون أنفسهم فى مكانة تعلو بهم عن إيمان العامة ، فلا بد لهم من لون خاص من الإيمان ، يتناسب مع مناصبهم ومراكزهم ، وسياساتهم ورئاستهم . لون من الإيمان لا أمر فيه ولا نهى ، لا شرع فيه ولا شريعة . وبإيجاز : يريدون إيماناً غير الإيمان الذى عليه الناس ، والناس عندهم ، هم السفهاء ، ولهذا قالوا :

﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾

ولكن الله سبحانه وتعالى قد رد عليهم مقولتهم ، وحصر السفاهة فيهم ، وتولى عن المؤمنين الجواب عليهم ، فقال تعالى :

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأى ، القليل المعرفة بمواطن المصالح والمضار . وهم كذلك ولكنهم لا يعلمون ، فقد فتنوا بأهوائهم ، فصدوا عن السبيل . ولشدة سفههم لا يعون حقيقة أمرهم ، ولا حقيقة أمر من رموهم بالسفه بغير علم . ويضيف الله تعالى صفة أخرى للمنافقين بقوله تعالى :

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٥﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

(١) النساء : ١٤٥ ، ١٤٦ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وهم مذبذبون بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، لا ينتمون إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .
وبينما يرفضون أن يكونوا على مثل إيمان المؤمنين ، ويعدونهم من السفهاء ، فهم حين يلتقون بهم يؤكدون لهم أنهم على مثل ما هم عليه من الإخلاص لله ، وذلك لأن الله قذف في قلوبهم الرعب من المؤمنين ، حتى إذا انتهوا إلى أعوانهم من الكفار الذين يعادون المؤمنين ، أكدوا لهم الولاء ، ووضعوا أيديهم في أيديهم ، مصرحين بكفرهم ساخرين مستهزئين .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْدِهِمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يعني أنه يزيدهم ضلالاً على ضلالهم ، وطغياناً على طغيانهم ، ومرضاً على مرضهم ، فيزدادون حيرة على حيرتهم ، فلا هم يخرجون مما هم فيه ، ولا هم يظنون على ما هم عليه ، فهم في زيادة مستمرة من الرجس على رجسهم ، فلا يفيقون إلا وهم في قاع جهنم ، مع فرعون وهامان وقارون وأمية بن خلف .

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِّحَتِ بِتِجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

قال قتادة : « قد والله رأيتهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة » (١) ، فتلك صفقة خاسرة ، وتجارة كاسدة ، وجهل منهم بما فيه مصلحتهم وصالح أمرهم في الدنيا والآخرة .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

ويضرب الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الأمثال لهؤلاء المنافقين حتى يزيد صورتهم وضوحاً : يكشف حال هؤلاء المنافقين ، ويفضح أعماق شعورهم ، ويقف على حيرتهم بالتصور الملموس . فهذا رجل قد أوقد حطباً ، وظن أن نار الحطب ستظل ، ليتهدي بها ، وهو في جوف ليل ساحق الظلمة ، فلما أنار الحطب ما حوله ، ورأى كل شيء على حقيقته ، واغتر به كثيراً ، وظن أنه يستطيع أن يسير بهذا الضوء المؤقت ، فوجئ بأن الضوء كان خداعاً له ، إذ لم يستمر الضوء إلا قليلاً ، وعاد إلى ظلام دامس ، وقد نفذ وقوده وتحول إلى رماد .

(١) في ظلال القرآن ، دار الشروق ، ١ / ٦٣ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

هكذا حال المنافقين .

إنهم طلبوا معرفة الحق ، فلما أضاء الحق لهم تمردوا عليه - سبحانه - فذهب بنورهم ، وحلت عليهم ظلمة كثيفة من الكفر والنفاق .

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيءِ إِذْ أَنِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْافِيهِ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

وكذلك في الآيتين ١٩ ، ٢٠ مثل آخر ضربه الله لنوع آخر من حالات النفاق ، حالة قوم يظهر لهم الحق تارة ، ويشكون تارة أخرى ، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم على ما ذكرته هاتان الآيتان ^(١) ، فهم لقلة إيمانهم في فزع دائم ، وفي حذر غير نافع وكلما ازداد الإسلام قوة ، استكانوا وتابعوه ، ثم تعرض لهم الشكوك فيرتدون إلى الظلام وإلى ضلال النفاق .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

في بداية السورة عشنا مع عالم المفلحين الناجين بطهارة قلوبهم واستقامة سلوكهم ، فقد أقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقهم الله ، والتزموا منهج الحق في حياتهم ، فأحسن الله في الآخرة عاقبتهم ، وأكرم مثواهم ومستقرهم . ثم بين لنا السبيل الذي يُلحقنا بهم وهو: عبادة الله الواحد الأحد ، الذي خلقنا وخلق الذين من قبلنا : خلقهم جميعاً ليعبدوه ، كما قال سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٢٢﴾ .

فإذا عرفنا ذلك ، واعتقدناه ، وعملنا به ، نكون من المتقين الناجين المفلحين .

(١) انظر تفصيل ذلك ابن كثير : ١ / ٥٤ ، ٥٥

(٢) الذريات : (٥٦ - ٥٨) .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

ثم يقول :

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

وهذا مزيد من التذكير بنعمة الخالق ، فهو لم يخلقنا عبثا ، ولن يتركنا سدى ، فقد يسر لنا الحياة ، وقدر في الأرض أقواتنا ، وفي السماء أرزاقنا ، فبسط الأرض حتى كانت لنا فراشا وثيرا ، ورفع السماء فكانت لنا ظلا ظليلا ، وأنزل منها الماء ليخرج من الأرض مكنونها من الأقوات التي قدرها الله لعباده وخلقها . . فكيف نجعل لله بعد ذلك ندا . . أونظيرا . . أو شريكا في أى شىء وله المثل الأعلى في السموات والأرض وليس كمثله شىء ؟

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

بعد أن ذكرنا الله سبحانه وتعالى بنعمه يدعونا إلى الإيمان بالقرآن . . . بالرسالة التي أرسل بها نبيه - ﷺ - حتى يتم لنا الإيمان به .

من كان في شك من أن هذا القرآن منزل من عند الله ، فيمكن له أن يزيع هذا الشك عن صدره بأن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ، فإن استطاع ذلك ، فهو على حق في أن هذا القرآن ليس منزلا من عند الله ، وإن لم يستطع فليؤمن بهذا الكتاب ، وليصدق برسالة من نزل عليه الكتاب ، وليتق الله ربه باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وإلا كانت عاقبته النار التي أعدها الله سبحانه وتعالى للكافرين . ﴿ ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾ .

والله - سبحانه وتعالى - يتحدى الذين يَشْكُون وَيُشَكِّكُون في رسالة محمد - ﷺ -

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

يتحداهم إلى يومنا هذا ، وإلى أن تقوم الساعة : أن يأتوا بمثل هذا القرآن . . ولو بسورة . . . ولو بآية ؟ .

وهذا إنذار من الله - سبحانه - للعباد ، فليس أمامهم إلا أن يسلموا . . . ويسلموا لله رب العالمين ، وإلا فالنار التي أعدت للكافرين .

أما من آمن بهذا الكتاب ، وعمل بما أمر الله - سبحانه وتعالى - به فله البشارة من الله ورسوله بجنات غير محدودة ولا معدودة ، كلما رزقهم الله - سبحانه وتعالى - فيها رزقاً وأعطاهم عطاء ، قالوا : لقد رزقنا هذا من قبل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾

نزلت هذه الآية لما قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، أى كالذى استوقد ناراً أو كصيب ، وهذا مروي عن السدى ، عن ابن عباس وابن مسعود^(١) .

وقيل نزلت ردّاً على المشركين الذين قالوا : « ما بال الله يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ؟ » . يضرب الله المثل بالبعوضة البسيطة ، التى تستصغرها وتستحققها الأنظار لينبه إلى أن سهولة الخلق لديه فى بسط الأرض ، وجعل الجبال موازين لها ، وفى رفع السموات وبث الأفلاك ، مثل سهولة الخلق لديه لهذه البعوضة ، لذلك فهو لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما : بعوضة فما فوقها .

« أى أية بعوضة صغيرة كانت أو كبيرة ، فما فوقها ، قيل : فوقها فى الصغر والحقارة ، وقيل : فما فوقها فى الكبر »^(٢) .

يضرب الله بها المثل ، وهو يعلم أن فيها الإعجاز للإنسان المتغطرس ، وفيها مزيد

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ / ٦١ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ / ٦٤ ط الحلبي .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

من الإيمان للمتعمق المتدبر ، إذ بينما يمر عليها الكافر ولا يعيها ، ينظر إليها المؤمن ويتدبرها ويتعظ بالحق الذي تنطق به .

والفسوق هو « الخروج » تقول العرب فسقت الرطبة ، إذا خرجت من قشرتها ، ويقال للفأرة فويسقة ، لخروجها عن جحرها للفساد . والفاسق : يشمل : العاصي والكافر، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش ، والمراد من الآية الفاسق والكافر، والله أعلم^(١).

والمسلم الذي يصر على المعاصي ، ويعطل أمر الله ونهيه ، إنما هو من الفاسقين ، وقد يكون عاقبة إصراره على الذنب أن يقع في الكفر وهو لا يدري .

إذن فالفسق يكون بمعنى المعصية : تارة ، ويكون بمعنى الكفر ، تارة أخرى .

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

والعهد في الآية قد يراد به ما عهد الله به إلى أهل الكتاب في التوراة والإنجيل . وقد يكون العهد هو ما أخذه الله على جميع بني آدم في عالم الذر ، حيث أقروا له بالربوبية . وشهدوا على أنفسهم بالعبودية لله - سبحانه - لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾^(٢) .

ونقض العهد مع الله - سبحانه وتعالى - من أعظم الذنوب . وأكبر عهد أخذه على بني آدم هو عهد الخلافة : خلافة بني آدم عن الله في الأرض . . يحكم بحكمه . . يأمر بأمره . . ينهى بنهيه ، وذلك بعد العهد الذي أخذه عليهم بأنه الرب الخالق ، وهم العبيد ، وذلك بقوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ وبقولهم إجابة عليه سبحانه بكلمة ﴿ بلى ﴾ .

والذين أسلموا قلوبهم وأبدانهم لله ، وآمنوا بالله ورسله وكتبه ، هم أصحاب العهد الذين لم ينقضوه .

أما الذين يفعلون غير ذلك ، فهم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .

(٢) الأعراف : ١٧٢ .

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٦٥ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فبعد أن علموا أن الإسلام هو انقياد وطاعة ، حادوا عن الطريق المستقيم .
السياق فيه إجمال ، والصلوات المطلوبة في مجموعها كما قال سيد قطب : صلة الرحم والقربى - صلة الإنسانية - صلة العقيدة والأخوة الإيمانية ص ٥٢ .
وقيل : يقطعون كل ما أمر الله بوصله من الطاعات ، فيتركون الصلوات ، فينقطعون عن رحمة الله ، وعن الصلة بالله ، ويقطعون الصلة بينهم وبين الله أيضاً بتركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويقطعون حبل الله الواصل إليهم من السماء بهجرهم للقرآن ، وكتماهم للعلم عن المسلمين ، فيقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

هذا بيان للخلق ، لكى يتفكروا : أنهم كانوا أمواتاً : كانوا عدماً ، ثم صاروا أنفساً حية . تخرج إلى الدنيا ، وتحيا ما شاء الله لها أن تحيا ، ثم تموت ، ثم تمكث في القبور حتى يأتى الإحياء الثانى بعد الموتة الثانية ، وهو البعث يوم النشور ، لترجع إلى الله - عز وجل - .

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

فالله سبحانه وتعالى خلق لنا كل ما فى الكون ، فإذا استعملناه فيما يرضيه فقد أحسننا ، وإذا استعملناه فيما يغضب الله فقد أسأنا ، خلق لنا ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، وهذه نعمة كبرى ، ﴿ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ﴾ ، فلا نرى فيها من فطور . رفعها الله بقدرته ، وسواها بحكمته ، وجملها بإبداعه . ويمسكها بعظمته . ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحدٍ من بعده إنه كان حليماً غفوراً ﴾ (١) .

ثم هو سبحانه : عليم بكل شئ : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٢) .

(١) فاطر : ٤١ .

(٢) الملك : ١٤ .

سُورَةُ التَّقْوَةِ

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا بِهَٰذَا ۖ إِنَّا نَسْمِعُ مَا نَحْنُ بِأَعْلَمُونَ ۖ وَأَنْتَ عَلِيمُ الْغُيُوبِ ﴿٢٢﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا بِهَٰذَا ۖ إِنَّا نَسْمِعُ مَا نَحْنُ بِأَعْلَمُونَ ۖ وَأَنْتَ عَلِيمُ الْغُيُوبِ ﴿٢٣﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٤﴾

الخلافة عهد قائم بين الحق تبارك وتعالى وبين خلقه منذ آدم ، ذلك أن الله تبارك وتعالى سأل الخلق - حين كانوا في عالم الذر - ألسن بربكم ؟ قالوا : بلى . وهذه الأمانة في صورتها الكبرى هي العهد بالخلافة ، إذن فكل إنسان من ولد آدم مسئول عن تلبية نداء الله - سبحانه وتعالى - ومسئول عن تحمل التبعة التي قبلها عن الله . فالذين شهدوا لله - سبحانه وتعالى - بالوحدانية ، ولرسوله بالرسالة ، قد استجابوا لله - سبحانه وتعالى - حين دعاهم ، وقد جاء محمد - ﷺ - وأقام هذه الخلافة ، وصحح للذين سبقوه من أمم الأنبياء من قبله : ما وقعوا فيه من خيانة للعهد وتقصير في حمل الأمانة ، وبين لهم مسئولية كل مسلم عن إقامة أمر الإسلام في نفسه وفي غيره . وسؤال الملائكة هنا ليس اعتراضاً على الله ، ولا حسداً لبني آدم - إذ لم يكن هناك تنافس بين آدم والملائكة على الخلافة ، حتى يقال هذا - لكنه سؤال استعلام واستكشاف ، كما ذكر ابن كثير^(١) .

وحين رد الله - سبحانه وتعالى عليهم هذا الاستفهام بقوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ لم تعد الملائكة الكرة .

ثم تفضل الله - سبحانه وتعالى - على ملائكته فكشف لهم عن بعض سر اختياره لخليفته ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ فتعلمها ، ثم عرض الأشياء على الملائكة ، وقال : ﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ ﴾ فعجزت الملائكة مسبحة بنعمة الخالق وحده قائلة :

(١) تفسير ابن كثير ، ٦٩/١ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ ، ثم أقرت الله - سبحانه وتعالى - بالعلم مع الحكمة قائلة : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وقد سماه الله آدم لأنه خلقه من أديم الأرض ، من جميع عناصرها . وناداه الله - سبحانه وتعالى - باسمه فلبى ، وقد علمه الله الأسماء كلها بما فيها اسمه ، ثم أمره أن يذكر أسماء الأشياء كلها ، فتلاها جميعاً ، وحين ذاك تمت الحجة تفضلاً من الله على الملائكة ، وعند ذلك أمرهم بالسجود له .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

وحيث أمر الله - سبحانه وتعالى - الملائكة بالسجود لآدم : كان ذلك أمراً تكريمياً من الله لآدم ، فالسجود هنا ليس بمعنى العبادة ، بل سجدود تحية وسلام وإكرام ، وهو طاعة لله عز وجل لأنه امتثال لأمره تعالى .

وكان آدم بمثابة الكعبة لابد أن يتجه الإنسان إليها في صلاته ، فيكون السجود لله لا لأحجار الكعبة .

وقد أطاعت الملائكة أمر الله وسجدت لآدم ، معترفة بفضله عليها بتعلم الأسماء ، وأبى إبليس أن يسجد ، فنزل عليه غضب الله ، وصدر أمر جديد .

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعُ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

ونادى الله آدم وزوجه ليسكنا الجنة ، وحذرهما من الأكل من شجرة معينة في الجنة ، ولهما بعد ذلك أن يأكلا من حيث شاءا ، كما شاءا ، وكيف شاءا ، ومتى شاءا . وهنا ظل إبليس يوسوس لآدم وزوجه بالأكل من الشجرة ، موحياً إليهما أنها شجرة الخلد والملك الذي لا يزول ، حتى وقع آدم ، فأكل من الشجرة ، وحين ذلك تحسس نفسه فوجدها عارية من ستر الطاعة ، فأخذ يخصف عليه من ورق الجنة ، ولكن الجنة لم تخلق لهذا ، فلم يكن لأحد أن يعصى ربه في جنته . لقد عجز عن ستر عورته التي لم

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

يكن يراها ، ونظر إلى زوجه فرآها مثله ، لقد خرجا - بمعصية ربها - مما كانا فيه من نعيم السعادة .

فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا
فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾

فمن سلك سبيل المحسنين التائبين فلا يخاف ولا يحزن ، أما من سلك سبيل إبليس فهو من أصحاب النار « خالدين فيها » .

وقد وضع الله بذلك قانونًا وناموسًا ثابتًا للإنسان في كل زمان ومكان ، وهو أن سعادته في اتباع الهدى ، وشقائه - في الدنيا والآخرة - في تكذيب آيات الله والصد عن منهج الله تعالى .

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِئْتِي
فَارْهَبُونَ ﴿٣٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ
وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِئْتِي فَاتَّقُونِ ﴿٣١﴾

ينادى الله - سبحانه وتعالى - أبناء العبد الصالح والنبى المبعوث : إسرائيل . فيا أولاد الرجل الذى وهب نفسه لله ، يا أولاد يعقوب ، حفيد إبراهيم . . ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ ، وقد أنعم الله عليهم بالكثير من النعم ، ذكر سيدنا موسى لهم بعضها حين قال لهم : ﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين﴾ (١) أى أن أهل زمانهم لم ينالوا مثلهم . إذا كان المطلوب بيان نعم الله عليهم ، فهذا قليل وهناك ما هو أهم منه ، ويبدو هذا من مقارنة ﴿جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً﴾ بتفجير الماء ونزول المن والسلوى . فاشكرونى على ذلك بالإيمان بى ، والوفاء بعهدى عليكم ، حتى تنالوا ما عاهدتكم عليه وواعدتكم به من الجزاء والثواب العظيم .

أوفوا بعهد التوحيد الذى أخذه عليكم آباؤكم من قبل ، واخشونى ولا تعرضوا

(١) المائدة : ٢٠ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أنفسكم لغضبي وعقابي ، وإنكم لن تفوا بعهدى حتى تؤمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ألا وهو القرآن ، مصدقاً لما بين أيديكم من التوراة والإنجيل ، فلا ينبغي أن تكونوا أول كافر به ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ والثلث القليل هو الدنيا بحذاقها ، فهي لا تساوى شيئاً أمام آية واحدة تكفرون بها من آيات الله .

وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُوهَا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٤٢﴾

وتلبس الحق بالباطل ، هو طريق من أراد أن يكتم الحق ، فيظهره بصورة غير صورته الحقيقية ، ويستبدلون به الباطل وهم يعلمون . وهذا إثم عظيم ، وذنب كبير ، فإن يكتم أهل الحق ما استُحْفِظُوا عليه ، وصاروا عليه أمناء ، فمن يبينه للناس بعدئذ؟ .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

أى أقيموا الصلاة كما فرضها الله ، وأنزلها وشرعها . كما يقيمها من آمن بما أنزل الله على رسوله ، وآتوا الزكاة كما يؤتيها أصحاب محمد - ﷺ - ولا تصح لكم صلاة ولا زكاة حتى تنضموا إلى صفوف الراكعين من أصحاب محمد - ﷺ - فتركعوا معهم لله رب العالمين ، ذلك أن محمداً قد جاء بالرسالة الخاتمة المكملة لما بين أيديكم ، فما خالفكم فيه من أعمال فهو بمثابة نسخ لما بين أيديكم ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ، حتى تكونوا قد وفيتم بعهدكم ، وأكدتم إيمانكم بما بين أيديكم ، فتصيروا من أمة محمد - ﷺ - .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنُونَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

هذا استفهام بعد استفهام ، واستنكار بعد استنكار . إنه اللوم الشديد ، والعتاب الصارخ من الله - سبحانه وتعالى - للذين علموا الحق ودرسوه يذكرون به الخلق ، ويدعونهم إلى العمل بما فيه ، ثم يقعون هم فيما يحذرون منه ، ويقتربون ما ينهاون عنه ، ولا يجدون لأنفسهم زاجراً من الناس عن الشر ، ولا آمراً من الناس بالخير .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . أفلا يعقل هؤلاء شيئاً مما يقرءون ، أو حرفاً مما يعلمون الناس؟

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أقست قلوبهم إلى هذا الحد ؟ أم غلبتهم شهواتهم وأهواؤهم وما ينالون من العطاء المادى والثناء القاتل ؟

لقد نزلت هذه الآية بين منازل فى بنى إسرائيل ، إلا أنها عامة فى الحكم ، لأن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

لقد كان علماء بنى إسرائيل يبشرون بمحمد - ﷺ - وينعتونه للناس ويستفتحون عليهم به ، ويأمرونهم بالإيمان به إذا ظهر ، ولكنهم حين جاء محمد - ﷺ - كفروا به .
عن ابن عباس فى هذه الآية يقول : « أتأمرون الناس بالدخول فى دين محمد - ﷺ - وغير ذلك مما أمرتم به من إقامة الصلاة ، وتنسوا أنفسكم » .

وقد جاء رجل إلى ابن عباس فقال : يا ابن عباس إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ؟ قال : أبلغت ذلك ؟ قال : أرجو ، قال : إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ؟ قال : وما هن ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثانى ، قال : قوله تعالى : ﴿ ... لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴿ ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثالث : قال : قول العبد الصالح شعيب عليه السلام : ﴿ ... وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ... ﴾ أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا ، قال : فابدأ بنفسك .

وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٥٦﴾

وهذا طريق كل من أراد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، حيث يتطلب الكثير من مجاهدة النفس والاستعانة بالله - سبحانه وتعالى - حتى يقوى على مواصلة السير لما سيلقاه من صعاب ، فهو فى حاجة دائمة إلى الصبر ، ولا يعود الصبر كالصوم ؛ « فالصوم نصف الصبر » .

والذى يدعو إلى الله ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، لابد أن يستعين بالله ويستهديه فيما يعترض طريقه من صعاب شتى .

والصلاة ثقيلة وشاقة على نفوس الكثير من الناس . أما الخاشعون الذين ألانوا الجانب لله ، وخفضوا الجناح بين يديه ، وتدبروا آياته ، واتصلوا بالله سبحانه وتعالى فى

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

صلاتهم ، فقد حُبب الله - سبحانه وتعالى - الصلاة إليهم ، لأن فيها مناجاته سبحانه والقرب منه ، فهؤلاء الخاشعون قد جعلت قرآءة أعينهم في الصلاة .

ولا يتأتى الخشوع في الصلاة إلا من اليقين بالله واليوم الآخر ، وخوف اللقاء ، وعرض الأعمال على الله ، والاعتقاد بأن الصلاة ميزان الأعمال جميعاً ، فإن صَلَّحَتْ صَلَّحَ سائر عمله ، وإن فسدت فسدت سائر عمله ، وأنه سوف يرجع إلى الله في يوم معلوم . ثم توفي كل نفس ما كسبت .

فخوف العبد من ربه ولقائه يبعث في القلب الحضور والخشوع ، ويصرف المصلي عن أمور الدنيا مستشعرا اللقاء مع الله ، فيخضع له ويستنير قلبه بالنور المتجلي عليه في صلاته ، فيزداد بالله يقينا وله حبا .

وهنا يسلم نفسه ويكل أمره لله رب العالمين ، فتصدر عنه الطاعة لله عن محبة ورضا ، وتقع في النفس رهبة من معرفة الله ، ورغبة في المزيد من المعرفة ، تشفى صدر هذا العبد المصلي ، الذي يحس بالوجود : ساجداً لله ، حين يسجد ، راکعاً لله حين يركع .

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

يذكر الله - سبحانه وتعالى - بنى إسرائيل بنعمته عليهم حين حباهم بالرسالة وحين أيدهم بأنبيائه وعضدهم برسله ، مفضلاً إياهم على جميع العالمين ﴿٤٧﴾ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴿٤٨﴾ أى على عالمى أهل زمانهم .

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

اعلموا أن هناك يوماً ستسألون فيه عما فعلتم ، وما فرطتم ، فاتقوا ذلك اليوم واعملوا له ، فكل نفس بما كسبت رهينة ، لا تجزى نفس عن نفس ، ولكن كل نفس مسئولة عما قدمت ، اتقوا اليوم الذى لا تنفعكم فيه شفاعة ، ولن يأخذ الله منكم فداء لأنفسكم من النار ، ولا أنتم تنصرون على أى وجه من الوجوه .

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

وفرعون علم على كل من ملك مصر كافرا ، من العماليق وغيرهم ، كما أن قيصر

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرا ، وكسرى لمن ملك الفرس وهذا اختيار ابن كثير^(١) .

وذلك أن فرعون - لعنه الله - كان قد رأى رؤيا هالته : رأى نارا خرجت من بيت المقدس ، فدخلت بيوت القبط ، إلا بيوت بنى إسرائيل ، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدى رجل من بنى إسرائيل ، وعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذكر يولد من بنى إسرائيل وأن تترك البنات ، كما أمر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاق الأعمال وأرذلها ، ظنا منه أنه بذلك يمكنه أن يمنع قضاء الله ، أو يقف أمام أمر الله^(٢) .

ولم يكن فرعون وحده هو الذى يقوم بتعذيب بنى إسرائيل ، من قبل موسى ومن بعده ، ولكنه استخدم أهله وجنوده جميعا فى ذلك ، إلا امرأته آسية التى آمنت بموسى ودعت ربها أن ينجىها من فرعون وعمله . وقوله تعالى : ﴿ آل فرعون ﴾ يعنى فرعون وجنوده الذين شاركوه فى بغيه وظلمه وعتوه ، وهم شركاء معه فى الظلم والبطش ، وسيكونون شركاء معه فى عذاب جهنم ، لقوله تعالى : ﴿ ... ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ . وهذا مصير كل طاغية وأعوانه وجنوده ، مهما احتج الجنود بأنهم مغلوبون على أمرهم ، مقهورون فى تنفيذ أوامر أسيادهم ، فالكل يستحق اللعنة والعذاب . قال تعالى : ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ . لافرق فى الخطأ بين فرعون ووزيره هامان ، وجنودهما المساعدين لهما على الظلم .

وقد ذكرهم الله بنعمته عليهم ، إذ كانوا يعيشون فى مصر أذلاء مغلوبين على أمرهم ، فأرسل لهم موسى ليحررهم من تحكم هذا الطاغوت المتجبر ، ويستخلصهم من ذل العبودية والمسكنة للبشر ، ليكونوا عبيدا لله الواحد القهار .

ذلك أن ماكان يقع بأبنائهم وأزواجهم تحت أبصارهم لعذاب شديد أليم . والإنسان فى كثير من الأحيان يحتمل العذاب على نفسه أكثر مما يحتمله فى غيره ، إلا أن آل فرعون يلزمونهم أن يروا العذاب ويعايشوه ، مبالغة فى الإيذاء والانتقام .

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٦٠﴾

اذكروا نعمة الله عليكم إذ شق لكم فى البحر طريقا يابسا تسرون عليه ، وجعل كل جانب من جوانب البحر كالجبل العظيم ، فلم يستطع فرعون وجنوده إدراككم ،

(٢) خلاصة ما ورد فى التفاسير .

(١) ابن كثير ، ١ / ٩٠ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

ولكن أدركه الغرق هو وجنوده . ولقد رأيتم هذه الآية أمام أعينكم وأنتم تنظرون ؛ ألم يكن الأجدر بكم حينئذ أن تدعونا لأمر الله ، وتشكروا إحسانه إليكم ، بدلا من هذا التمرد المستمر في غير ما حياء ؟!

وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾

وبعد أن نجاهم الله - سبحانه - من فرعون ، وأخرجهم من مصر ، سألوا موسى حياة مستقرة يحكمها كتاب يأتي من عند الله يهتدون به ويتبعون ما فيه . فسأل موسى ربه أن يؤتيهم كتابا ، فوعده الله بالتوراة ، وهى كتاب بنى إسرائيل ، يعرفون منه ما أحل الله وما حرم . وحدد له ميقاتا : أربعين يوما ، يأتيه موسى بعدها ، فيؤتيه ربه الكتاب . فلما ذهب موسى لميقات ربه ، اتخذ بنو إسرائيل عجلا يعبدونه ، وكان موسى قد ترك معهم أخاه هارون يعظهم ويقوم بالأمر فيهم حتى يعود موسى - عليه السلام - وبينما موسى يناجى ربه أخبره الله بما فعل قومه ، فرجع موسى إلى قومه - غضبان أسفا - فوجدهم اتخذوا من حليهم عجلا جسدا له خوار ، يعبدونه من دون الله .

وأصل ذلك - كما قال المفسرون - أنه في أثناء غيبة موسى جمع السامري الحلى ، ثم صنع منها عجلا ودعاهم إلى عبادته ، فعكفوا عليه ، وكانت تلك الفتنة قد وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوما .

وعجل الذهب رمز التعلق بزخارف الدنيا .

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

ومع ذلك فقد عفا الله عنهم ، ورفع عنهم رجس عبادتهم للعجل ، تفضلا منه ونعمة ، لعلهم بذلك يتطهرون ، فيسمعون ، فيعقلون ، فيشكرون .

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

والكتاب هنا هو التوراة ، وهو الفرقان ، والإنجيل كذلك فرقان ، والقرآن فرقان . ذلك أن الله - سبحانه وتعالى - يفرق به بين الحق والباطل . .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ أَنْفُسَكُمْ بِاتَّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ
فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَثَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

اقتلوا هذه النفوس الضعيفة المريضة الكافرة : توبة إلى الله ، وبراءة إليه من
أنفسكم ، حتى إذا ما تطهرتم من رجس الشرك بالله : يتوب الله عليكم ويرحمكم
﴿ ذلكم خير لكم ندم بارتكابكم ﴾ الذي بين لكم آياته ، وغطاكم بنعمه ، فعصيتموه ،
وأشركتم به ، فلن : لكم إلا بقتل أنفسكم .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَكُفِّرُ بِنَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ
نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾

وهذه آية عجيبة من آيات الله لبنى إسرائيل ، تمثل قمة الحلم والكرم من الله العلى
الكبير.

إن بنى إسرائيل أمة تمردت على الحق ، فلم تدعن له ، ولم تسلم ، برغم ما بدا لهم
من الآيات البينات .

فبعد كل ذلك نراهم يقولون : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ . يطلبون أن
يرؤا الله جهرة . . لأن قلوبهم عجزت عن إبصاره ، ولو أبصرته القلوب لتأدبت
الأسنن ، وتهذبت الجوارح واستقامت النفوس .

ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلًّا مِنْ طِيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

ومن يتدبر الآيات : يلمح طباع بنى إسرائيل النافرة عن الحق ، التى تزداد سوءا بعد
سوء . . . مع كل نعمة من نعم الله . . ومع كل ابتلاء من الله ، فلا النعم أخضعت
قلوبهم فشكرت ، ولا النقم أصلحت نفوسهم فاستقامت .

فبعد كل ما كان منهم : أنزل عليهم الغمام ظلا فوق رؤوسهم ، وأنزل عليهم المنّ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

والسلوى ، حتى يأكلوا مما رزقهم الله من طيبات .
ومعنى ذلك : أنهم ظلموا ، وما شكروا .

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

والقرية هي بيت المقدس ، وقد قال لهم الله - سبحانه وتعالى - ادخلوا القرية في
خشوع ، كأنكم في ركوع دائم أو سجود ، وذلك تنبيه من الله - تعالى - لهم من البداية :
أن يسلموا الأمر لله ، ولا يجادلوا في أوامره وآياته .

﴿ وادخلوا الباب سجدا ﴾ . . طائعين . . منيين . . خاشعين لله . . خاضعين
له . . ﴿ وقولوا حطة ﴾ واسألوا الله - تعالى - أن يحط عنكم خطايكم .
فماذا فعل بنو إسرائيل ؟

هل انتبهوا لتحذير الله لهم ؟ هل اتعظوا بما سبق لهم ؟ لا ، ولكن بدلوا القول الذي
قيل لهم .

وهذه قمة المعاندة والاستهزاء والمخالفة والفسوق ؛ ولذا كانت العقوبة عاجلة
وقاصمة .

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ
مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ
اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

. . لقد ضرب موسى الحجر فانفجر الماء من جهاته الأربع ، من كل جهة ثلاث
عيون ، فكانت اثنتى عشرة عينا ، ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ .

ذلك أن بنى إسرائيل كانوا اثنى عشر ولدا ، وكان أحفاده اثنتى عشرة قبيلة ، يدعون
« أسباط بنى إسرائيل » لكل قبيلة منهم زعيم من أحفاد يعقوب ، فكانت لكل قبيلة
منهم عين تأخذ منها حاجتها من الماء .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وقد أورد القرطبي نكتة لطيفة حول هذه الآية ، يقول فيها : « وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء ، وفلق الحجر من غير ضرب ؛ لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب حكمةً منه للعباد في وصولهم إلى المراد ؛ وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد »^(١) . ولا يخفى على القارئ أن معجزة موسى كانت كامنة في العصا لا في الحجر .

فلما استسقى موسى ، وفجر له الحجر عيونا ، قال : ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ . . . ﴾ .

ثم عقب ذلك بالتذكير ، قائلا : ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفسِدِينَ ﴾ يعنى « لا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها »^(٢) .

ولكن ، هل شكروا نعمة الله عليهم ؟ هل قنعوا برزقه إياهم ؟ ما كان أكثر بنى إسرائيل ليفعلوا هذا .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ^ط قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُ وِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿ لن نصبر ﴾ إنهم فى هلع مستمر على بطونهم . عادوا إلى طبيعتهم البهيمية وقالوا : لا نريد رزقا ينزل من السماء ، ﴿ فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض ﴾ حتى يطمئنوا ، فهم لا يؤمنون إلا بالأسباب ، أما المسبب فقد أساءوا به الظنون وارتابوا .

ولكن نبي الله موسى عليه السلام علم أن هؤلاء القوم لا يريدون شرعا ، ولا إسلاما ، ولا أمنا ، ولا نظاما : بل يريدون حطام الدنيا .

إذ يعلمون أن هذا الرزق غير مضمون لهم ، لأنه مشروط بشرط ثقيل عليهم ،

(٢) تفسير ابن كثير ، ١ / ١٠٠ .

(١) القرطبي : ١ / ٤١٩ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

ألا وهو ﴿ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴾ وهذا أمر يستحيل في حقهم ، ولا يزال للآن ، فنحن نرى اليوم إفسادهم وعتوهم في الأرض .

ولذا لم يسأل موسى ربه ما طلبه بنو إسرائيل ، ذلك أنه لما أراد أن يرتفع بهم إلى أعلى : ركنوا هم إلى أسفل ، إنهم يريدون أن يأكلوا الثوم والعدس ، والبصل ، ومع أن طعامهم الذي رزقهم الله كان أطيب وألذ وأنظف .

﴿ اهبطوا مصرا ﴾ يعنى اهبطوا بلدا ، أى بلد الزراعة ، أى مصر من الأمصار ، أى انحذروا إليه ، فإن ما سألتكم يكون في الأمصار ، لا في القفار .

والمعنى أن هذا الذي سألتكم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير ، في أى بلد دخلتموها وجدتموه ، فليس يساوى - مع دناءته وكثرته في الأمصار - أن أسأل الله فيه .

وقد ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، وطبع عليهم بالحقارة ، وذلك لأنهم ابتداء : جحدوا بآيات الله ، وأنكروا شريعته ، ونبدوا كتاب الله وراء ظهورهم ، ثم إنهم قتلوا أنبياءهم ومن اتبعوهم من الدعاة والمصلحين القائمين بين الناس بالقسط ، ثم بعد ذلك بعصيانهم وتمردهم ، واعتداءاتهم ، وإفسادهم في الأرض بغير الحق .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٦٤﴾

فالمسلمون الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، وأسلموا وجوههم لله ، وهم قائمون للآن على هدى محمد - ﷺ - : ملتزمون بمنهج القرآن والسنة ، وكذلك الذين انخلعوا عما كانوا عليه حين بلغتهم دعوة محمد - ﷺ - ، وانتظموا في دين الله - أولئك هم الصادقون - من أتباع الأنبياء ، وهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، وعملوا صالحا ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وكلما انتكست أمة ، فالفريق الثابت منها على المنهج ، هو الفريق الناجى ، الذين لهم من الله فضل وعطاء ، وعليهم من الله أمن وسكينة ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾

هنا وقفة أخرى مع بنى إسرائيل يذكرهم فيها ربهم بما أخذهم عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له ، واتباع رسله . ثم يذكرهم حين أخذ عليهم الميثاق ، ورفع فوقهم الجبل ، ورأوه وهم ينظرون ، وهم يقفون تحته موقفًا رهيبًا ، وهو سبحانه يناديهم ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ . ﴿ما آتيناكم﴾ أى التوراة ، و ﴿بقوة﴾ أى قوة الجهد والطاعة .

﴿واذكروا ما فيه﴾ ليس معناه مجرد تلاوته فقط ، وإنما بتلاوته والعمل به . والقرآن اليوم يرتل ويتلى ويسمع آناء الليل وأطراف النهار ، إلا أنه معطل ومهجور ، فعلى المسلمين اليوم أن ينتشلوا أنفسهم من براثن ما وقعت فيه اليهود والنصارى من قبل .

ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤﴾

ولكنهم ما لبثوا أن تولى كثير منهم . .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٥﴾

وليس ببعيد عليكم أمر الذين اعتدوا منكم يوم السبت ، حين تحايّلوا على ما حرم الله حيلة أخرجتهم عن مقتضى التسليم الصادق لأوامر الله . حيث إن الله - سبحانه وتعالى - كان قد حرم عليهم العمل يوم السبت ، ثم اختبرهم بأن جعل الحيتان تأتى وتظهر يوم السبت ، ثم تختفى بقية أيام الأسبوع ، فاحتالوا على ذلك بما سول لهم الشيطان ، فحفروا حياضا عند البحر ، وفتحوا عليها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها ليلا فيصطادونها يوم الأحد ، فعاقبهم الله - سبحانه وتعالى - على اعتدائهم هذا ، قال تعالى : ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ ، و ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ ^(١) .

(١) انظر : القرطبي ١/ ٤٤٠ ، ابن كثير ، ١/ ١٠٥ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وهذا التحايل على شرع الله عادة موروثة في بنى إسرائيل ، عادة كل من أراد أن يرجع عن الحق ويتنصل منه ، فيحل ما حرم الله ويسميه بغير اسمه .

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

جعلنا آية المسخ : تذكرة لمن هو حاضر ، ولمن يأتي بعد بنى إسرائيل ، ولهذا يجب أن نكون من المتقين الذين يتعظون بآيات بنى إسرائيل . فنتوب إلى الله ، ونسارع بالعودة لكتابه ونبيه ، ونرمى بالجاهلية خلف ظهورنا ، ونحيل الحياة إلى الحكم بما أنزل الله والإسلام لله .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَارَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾

موقف آخر لبنى إسرائيل - والعفو الممتد من الله : صاحب الفضل الجزيل والعفو الجميل .

لقد قال لهم نبيهم موسى - عليه السلام - : ﴿... إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة...﴾ . وهذا الأمر ليس من فراغ ، ولكن حدثت حادثة في بنى إسرائيل تحكيها لنا كتب التفسير المعتمدة . يقول ابن كثير ^(١) : عن عبيدة السلماني ، قال : كان رجل من بنى إسرائيل عقيماً لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل آخر منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأي منهم والنهي : علام يقتل بعضكم بعضاً ، وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى - عليه السلام - ، فذكروا ذلك له ، فقال : ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ .

فقالوا : ﴿أتتخذنا هزوا﴾ .

قال : ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ .

قال : فلو لم يعترضوا ، لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم .

(١) تفسير ابن كثير ، ١ / ١٠٨ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قالوا : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ .

لقد عفا الله عن ذاك رحمة بهم من غير نسيان ، فلم يفتنوا ، وسألوا ما عفا عنه ، فشددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليهم . وفي هذا يقول تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حلیم ﴾ قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴿^(١)﴾ .

إن الله سبحانه لا يغفل ولا ينسى ، وحين ينزل الشرع من السماء يسكت عن أشياء لحكمة يعلمها ، فلا يصح السؤال عنها ، لأنه سؤال عما عفا الله عنه . شددوا على أنفسهم ، ولو نظروا في الأمر بعين الرضا والتسليم لله رب العالمين ، لما أصابهم العنت . قال : ﴿ إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ . ثم ذكرهم بعد ذلك بوجوب الاستماع إلى أمر الله دون جدال أو سؤال ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ ، ولكن لم يفعلوا . لقد أصبحوا مطالبين ببقرة ، لا كبيرة هرمة ، ولا صغيرة لم يلقحها الفحل ، ولكن ﴿ عوان بين ذلك ﴾ ، أى بين بين .

وفي هذا من المشقة عليهم ما فيه .

إلا أنهم عادوا للعناد مرة أخرى .

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

ولو لم يقدموا المشيئة لما هداهم الله ، ولما أجابهم ، ولآخر عليهم الأمر تأخيراً . يعجزون به عن فعل المأمور به ، فيعذبون بذلك .

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْجُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

يعنى إنها بقرة مدللة لا مدللة ، فهي لا تحرث الأرض ، ولا تدير الساقية ، مبرأة من كل عيب ، مكرمة ، حسنة ، صحيحة ، ولا شية فيها أى ليس فيها لون آخر غير

(١) المائدة : ١٠١ ، ١٠٢ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الصفرة الفاقعة الصافية ، التي تعجب الناظرين ، وتبعث في صدورهم السرور والانشراح لرؤيتها .

قالوا : ﴿الآن جئت بالحق﴾ يعنى الآن بان لنا الحق وظهر ، ولو أنهم أنصفوا لبان لهم الحق فيما أمرهم الله منذ البداية ﴿فذبحوها وماكادوا يفعلون﴾ لغلو ثمنها ، فقد أصبحت موصوفة بأوصاف ستة .

يقول القرطبي في تفسيره ^(١) : « وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شددوا فشدد الله عليهم ، ودين الله يسر والتنطع في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ، نسأل الله العافية » .

وروى في قصص هذه البقرة روايات يرجع إليها من شاء في مظانها من كتب التفسير.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْهَا ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ
بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

واذكروا ﴿إذ قتلتم نفسا﴾ بغير حق ، فاختلستم في أمر قاتل هذه النفس ، والله - سبحانه وتعالى - مظهر للحق وإن أخفيتموه ، وخرج لما تكتُمونه في صدوركم .

ولما أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يظهر الحق ، ويخرج ما غيبوه من أمرهم ، قال لأهل القرية : اضربوا القاتل ببعض هذه البقرة ، يعنى بجزء من أجزائها . وهذه مفاجأة عجيبة تبين لنا حكمة الله ، وكيف كان من تبيانه لآياته ما يجعل الأرض الصلبة تنطق بأن الله على كل شىء قدير ، وبأنه هو وحده صاحب الأمر .

فهذه البقرة ذبحت لحكمة يعلمها الله ، وليرينا من آياته في الخلق والبعث بعد الموت ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ .

فأخذوا القطعة التي أخذها موسى من البقرة ، فلما ضربوا بها القاتل إذا به يحيا ، فسألوه : من الذى قتلك ؟ .

فقال المقتول المبعوث : ابن أخى ، ثم مات ثانية . .

فسبحان باعث الحياة من الموت .

(١) تفسير القرطبي ١ / ٤٥٤ ، ٤٥٥ بتصرف يسير .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

لقد أعطاكم يا بنى إسرائيل من الآيات والأعاجيب ما إن اتعظتم به لما غفلتم عنه طرفة عين .

﴿ كذلك يحيى الله الموتى ويربكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ فهل عقل بنو إسرائيل ؟ هل خشعت قلوبهم لما رأوا من آيات الله ؟ أم ماذا حدث ؟

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ وأى قسوة وقعت بالقلوب ﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ . وكان ينبغي أن تكون نورا وحياة وعطاء وتلقيا وطاعة ورحمة واستجابة لله ، ولكنها صارت كالحجارة أو أشد قسوة ، فالحجارة ألين من قلوب المتمردين على الله سبحانه ، ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ .

وكذلك يكون بعض الناس ، تقسو قلوبهم فهي كالحجارة ، إلا أنه يأتي عليهم وقت تلين قلوبهم ، فتخشع فتنهمر الدموع من عيونهم كالأنهار ﴿ وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ﴾ . أما هؤلاء : فلا .

وبعض الناس كذلك تقسو قلوبهم ، فإذا رأوا من الآيات البينات شيئا استجاب للآية التي اخترقت قلبه فشقيقته ، ثم تخرج من عينه دموع الخشية . وتختلف درجة هذا عن الأول في اللين والركة ؛ وليس في بنى إسرائيل من أمثال هذا ولا ذاك . ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ . كذلك المؤمن حين يصل به الخوف والخشية إلى أعلى ما يمكن بلوغه .

وقد نبهنا الله - سبحانه وتعالى - إلى أن نعى هذا الدرس حتى لاتقسو قلوبنا كقسوتهم حيث - قال تعالى - : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١) .

وهذه القصة تبين لنا بعض صفات بنى إسرائيل ، وتبين أنه لايجوز التعامل معهم إلا

(١) الحديد : ١٦ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

ونحن موقنون بأن نفوسهم المريضة تحتوى على كم متراكم من اللجاج والجدال والكبر والعناد، كما حدث في ذبح البقرة والتلبس والتدليس، وتدبير المكائد، واتهام الآخرين بالقيام بها ظلما وبهتاناً ، كما حدث أيضا في قتل اليهودى عمه ليستولى على أمواله .

ثم هم بعد ذلك كله لا يؤمنون بآيات الله ، ولا تلين قلوبهم لذكر الله ، وإن كانت الحجارة قد تفجرت عيوناً أمامهم ، فإن قلوبهم أشد صلابة وقساوة وبعداً عن التأثير بآيات الله .

ثم هم بعد ذلك لا يوقرون عظيماً ، ولا يرحمون ضعيفاً ، وقد رأينا كيف كان سوء أدبهم ، إذ يقولون لسيدنا موسى - عليه السلام - : ﴿ ادع لنا ربك ﴾ ، كأنه رب موسى وحده وليس ربهم . . . سوء في الأدب ، وفجاجة في التعبير .

﴿ أَفَنَظْمُعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

إن هؤلاء القوم يُدعون إلى الحق فلا يستجيبون له ، ولا يؤمنون به ، وبعض المسلمين يطمعون في أن يؤمنوا لهم .

ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد من المؤمنين ألا يطمعوا في أن يؤمن لهم هؤلاء ، أو أن تلين قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؛ إذ هم أصحاب القلوب القاسية الذين سمعوا كلام الله فحرفوه من بعد ما علموا مافيه وعقلوا ما يحويه .

هؤلاء الذين استخلفهم الله - سبحانه وتعالى - في الأرض ، واستأمنهم على صحف موسى وعيسى ليعيشوا شريعة الله عملاً والتزاماً ، ودعوة وبلاغاً ، ولكنهم لا يثوبون لحق تبين لهم ، لقد خانوا الله ورسوله من قبل ، وخانوا أماناتهم ، وخدعوا المؤمنين ، فلا يطمعن أحدكم في أن يكون هؤلاء اليهود يوماً ما معكم على صراط مستقيم .

لقد دلل الله سبحانه وتعالى على استحالة إيمانهم بقسوة قلوبهم . وفي الآية التالية يبين لنا سبحانه أنهم جمعوا - مع قسوة القلوب - فساد العقول ، فلا قلب يخشع للحق ، ولا عقل يرتقى إليه ، فمن أين يعرف الإيمان لهم طريقاً ؟

وَإِذَا الْقَوْمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا آلَهُمُ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بِمَافَتَحِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

فهل تظنون بعد ذلك أيها المؤمنون أن يكون هؤلاء على مثل ما أنتم عليه ؟ !
إنهم حين يلقون أصحاب محمد - ﷺ - ومن تبعهم من المؤمنين ، يعترفون لهم بنبوة محمد - ﷺ - ورسالته ، حتى إذا ما خلا بعضهم إلى بعض قالوا : « أتخبرون المسلمين أنكم على علم بنبوة محمد - ﷺ - ومافتح الله به عليكم من أمره في التوراة ، ليكون ذلك حجة لهم عليكم يوم القيامة عند ربكم ، فتعذبون في النار ، بعد أن تظهر خديعتكم ، ويتبين حقدكم على محمد - ﷺ - والحق الذي جاءكم به ؟ » .
وكان الله - سبحانه وتعالى - في حاجة إلى المؤمنين ليخبروه بما لا يعلم : سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، فأى عقل هذا الذي به عبوده ؟ !

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

هذه صورة أخرى من صور الضلال والجهل والانحراف عن الصراط : صورة الفتوى بغير علم . . والحديث بالظن .
وأسرع الناس فتوى بغير علم أسرعهم إلى النار ، وإن الظن لأكذب الحديث ^(١) ، إنها فتنة عظيمة تصيب الدين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، إلا تلاوة ، وهم لا يعلمون من الحق إلا تخيلات أملت عليها أمانيتهم وأهواؤهم .

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

إنهم يحرفون الكتاب على علم ، أو يفتون في الكتاب على جهل ، ثم يقولون : ﴿ هذا من عند الله ﴾ ، هذا وحى الله وكلام الله ، فغرتهم الأمانى وأردتهم الظنون لاريب ، ذلك أن الله يعلم أنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ، فيلعنهم بكل حرف كتبوه ، وبكل كذب على الله أشاعوه ، وبكل فتوى باطلة أفتوا بها ولفقوها .

(١) رواه البخارى كتاب الأدب باب (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن) .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

فويل لهم مما يفعلون ليشتروا به ثمنا قليلا . والذين القليل هو الدنيا ، وهى بحذافيرها لاتساوى شيئا أمام ما أعده الله - سبحانه وتعالى - لعباده الصالحين . وهؤلاء الذين نبتت أجسادهم من السحت ، والذين بنيت أعضاؤهم على ثمن الكفر ، الويل ثم الويل من الله لهم والنار أولى بهم . وهذه المصيبة العظمى تصيب طائفة من الذين يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، تغريهم الدنيا بزخارفها الباطلة ، وترقيهم للمناصب العالية ، أو تخيفهم تهديدات الظالمين ، ثم لا يصادف ذلك منهم إيمانا صادقا ، ولا توحيدا خالصا لله رب العالمين ، فيبدلون كلام الله لينالوا عرض الحياة الدنيا . وكما وقع أخبار بنى إسرائيل فى هذه المصيبة وقع - وللأسف - بعض المسلمين اليوم .

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

تلك حجة كل من أراد أن يستحل لنفسه معصية ربه ويخدع المؤمنين . وما يعلم هؤلاء ما هذه النار التى يدعون بأنها لن تمسهم إلا أياما معدودة !! ولكن اليهود ادعوا ذلك : ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ . وهذا نفس ما ادعاه المشركون ، فماذا قال لهم ؟

بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ ۖ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٣﴾

ماذا فعل الله بنى إسرائيل بعد ذلك كله ؟ وماذا فعل من كفر من بنى إسرائيل (اليهود والنصارى) مع الله ؟

جهلوا ، وتمردوا ، وأفرطوا ، اختلفوا وتعنتوا ، اختلقوا وزوروا ، بدلوا وحرفوا ، سرقوا وأجرموا ، والله سبحانه يعفو عنهم مرة أخرى فيأخذ عليهم عهدا وميثاقا جديدا ، به يرفعون ما وقع عليهم من الرجس والغضب ، وهى دعوة مجددة للإيمان باعثة للحق فى

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

نفس المعرضين الذين حادوا عن الطريق : أن يأخذوا بها ، عليهم بذلك أن يجدوا الطريق ويسيروا فيه .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

لا تتخذوا من دون الله إلها . . وهذا أساس كل خير . . والشرك بالله أساس كل شر .
ولا خير في أمة حرمت بر الوالدين ، فبر الوالدين رأس البركة ، ولا يعجل الله سبحانه عقوبة في الدنيا قبل الآخرة مثل عقوبة العاق لوالديه ، ولا يعجل الله إثابة في الدنيا قبل الآخرة مثل إثابة البار بوالديه ، وقد قرن الله رضاه برضاهما ، وشكره بشكرهما ، فقال : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴾ .

وعن ابن مسعود - رضى عنه - قال : قلت يا رسول الله أى العمل أفضل ؟

قال : الصلاة على وقتها .

قلت : ثم أى ؟

قال : بر الوالدين .

قلت : ثم أى ؟

قال : الجهاد في سبيل الله « (١) » .

وقوله تعالى ﴿ وذى القربى ﴾ يعنى وإحسانا بذى القربى . . وهم الذين يمتون إليكم بصلة رحم أو عصب . بكل على درجته : الأقرب فالأقرب . . وكذلك القريب في المكان ، كالجار ، وصلة الأقارب والأرحام سبب في رفع غضب الله عن قوم قطعوا أرحامهم ، فالبلاء لا ينزل إلا بذنب ، ولا يرفع إلا بتوبة .

قال تعالى : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ (٢) .

ومن يتدبر الآية يستشعر خطورة الأمر : أمر قطع الأرحام ، الذى من محصلته

(١) البخارى كتاب الأدب باب البر والصلة .

(٢) محمد : ٢٢-٢٣ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الفساد فى الأرض ، ولعنة الله التى تصيب الأذان بالصمم عن الحق ، وتعمى الأبصار عن الذكر .

ويجب أن يفتن القائمون بعلاج المجتمعات الخاملة المريضة إلى ذلك . . فـالعلاج موصوف من الله الحكيم . ولا تؤتى الدعوة ثمارها المرجوة إذا لم تكن دعوة بالله إلى الله .

وبعد أن أوصانا تعالى بعبادته وحده لا شريك له ، ثم بالإحسان إلى الأقارب ، يوصينا بالإحسان إلى اليتامى والمساكين ، ثم يوصينا بالناس أجمعين ، حتى لا يبقى ممن نعرفه أحد إلا وقد أحسنا إليه ، فيكون شهيدا لنا يوم القيامة . وحتى من لانعرفه ، أمرنا أن نحسن إليه القول ، وأقل ذلك إلقاء السلام .

قال تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا ﴾ .

يعنى كلموهم كلاما طيبا ، ولينوا لهم جانبا . ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما يدخل فى ذلك : الحلم ، والصفح ، والعفو ، وكل خلق حسن .

ولقد جمع الله - سبحانه وتعالى - فى هذا الميثاق بين الإحسان الفعلى والإحسان القولى ، ثم أكمل ذلك كله بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

وهكذا يتم الخير ، وتتم الرحمة ، فماذا بعد يا بنى إسرائيل ؟؟

توليتهم عن الحق الذى دعيتم إليه ، وتعاهدتم على الوفاء له ، ووثقتم مع الله تعالى المواثيق من أجله .

والقلة القليلة - فى كل أمة - هم الذين يتمسكون بالحق ، ويوفون بالعهد ، ويبحثون عن الطريق ، ويصرون على السير فيه ، ويحثون من حولهم على الاعتصام به . أما الكثرة الكثيرة ، فقد غلبت عليهم شقوتهم ، وأعرضوا عن الطريق ، وضلوا وأضلوا : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ ^(١) .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَآتُسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

لقد أخذ الله عليهم أيضا المواثيق ، التى شهدوا عليها وأقروا بها . فماذا فعلوا . . ؟

(١) يوسف : ١٠٣ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ
تُظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَفْدُوهُمْ وَهُوَ
مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

يقول ابن كثير^(١) عن ابن عباس : « أنبأهم الله بذلك من فعلهم ، وقد حرم عليهم
في التوراة سفك دمائهم ، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم ، فكانوا فريقين : طائفة
منهم حلفاء الخزرج . وطائفة حلفاء الأوس . فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج
حرب يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على أخوانه ، حتى تسافكوا دماءهم
بينهم ، وبأيديهم التوراة ، يعرفون فيها ما عليهم وما لهم ، والأوس والخزرج : أهل
شرك ، يعبدون الأوثان ، ولا يعرفون جنة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ، ولا كتابا ، ولا حالا
ولا حراما . فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقا لما في التوراة ، وأخذوا به
بعضهم من بعض ، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم ، وقتلوا من قتلوا منهم ، فيما
بينهم : مظاهرة لأهل الشرك عليهم .

يقول الله - تعالى ذكره - حيث أنبأهم بذلك ﴿ أفْتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ ﴾ أى تفادونهم بحكم التوراة ، وتقتلونهم ، وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج
من داره ، ولا يظاهر عليه إلا من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ، ابتغاء عرض الدنيا ؟
ففى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج - فيما بلغنى - نزلت هذه القصة « اهـ .

والذى أرشدت إليه الآية الكريمة ، وهذا السياق : ذم اليهود فى قيامهم بأمر التوراة
التي يعتقدون صحتها ويخالفون شرعها ، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة ،
فلهذا لا يؤمنون على ما فيها ، ولا على نقلها ، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول

(١) ابن كثير - ١ / ١٢١ بتصرف يسير .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الله - ﷻ - ونعته ، ومبعثه ومخرجه ، ومهاجره ، وغير ذلك من شئونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله - عليهم الصلاة والسلام - . واليهود - عليهم اللعن - الذين كفروا يتكاثرون بينهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ، أى بسبب مخالفتكم شرع الله وأمره ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذى بأيديهم ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ﴿ أَى لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً ﴾ ولا هم ينصرون ﴿ أَى وَلَيْسَ لَهُمْ نَاصِرٌ يَنْقُذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الدَّائِمِ السَّرمِدى ، ولا يجيرهم منه ، ويقفون بين يدي الله ، ليس لهم من قوتهم ولا من حولهم شيء ، ولكن عرايا من كل شيء ، يحاسبهم ربهم حسابا عسيرا ، ويصليهم نارا . وما من مفرق بين أحكام الله ، إلا ويلقى خزيا عظيما فى الدنيا قبل الآخرة ، ليكون آية مشهودة ، لكل من يفعل فعله ، أو يسلك مسلكه ، أو يسير مساره ، والآيات واضحة وبينة ، والعبرة لمن يعتبر .

فالقُرآن كل لا يتجزأ ، والسنة كذلك ، والإسلام دين شامل كامل تام ، جاء ليحكم كل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس جميعا .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

الله - سبحانه وتعالى - يقيم على بنى إسرائيل الحجة بإتيان موسى - عليه السلام - الكتاب ، وهو التوراة ، وبما أرسل من أنبياء من بعده يذكرون بذلك الكتاب ، ويشرحون تعاليمه لبنى إسرائيل ، ويمتن كذلك ببعثه عيسى بن مريم - عليه السلام - الذى جاءهم بالبينات وأيده الله بروح القدس : يعنى جبريل وقيل الإنجيل . ما أكثر ما يمتن به الله عليهم ، ولكن بنى إسرائيل لا يخرجون عن دائرة انتكاسهم ، فهم يقتلون الأنبياء ، كلما جاءوهم فذكروهم بالحق ، لأنهم لا يريدون أن يخضعوا لبيان الله على السنة رسله ، بل يخضعون كل شيء لأهوائهم وشهواتهم .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وهنا يبين الله أن على قلوبهم أغلفة غليظة ، تحجبهم عن الحق ، فلا يؤمنون به ،
ولذلك لعنهم الله : بما كفروا وجحدوا من أمره ودينه .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ
عَلَى الَّذِينَ ذَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا
نُؤْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

لقد كان يهود المدينة ، يقولون لأهلها من الكفار المشركين : إنه سيأتى الرسول الخاتم
الذى نتصر به عليكم ، ونفتح به بلادكم . فلما جاءهم محمد - عليه الصلاة والسلام -
ومعه القرآن ، مصدقا لما معهم من التوراة ، استكبروا وأنكروا الحق الذى كانوا من قبل
يؤمنون به ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ كفرا تلو كفر .

وهذه لعنة بعد لعائن كثيرة ، وقعت على بنى إسرائيل ، فكل كفر تعقبه لعنة ، وكل
لعنة يعقبها كفر وهكذا دواليك .

إنهم الكافرون . . وهم المغضوب عليهم . . وهم إخوان القردة والخنازير ، فلعنة
الله على الكافرين ، الذين يكفرون بالحق ، ويفسقون عنه ، ويظاهرون عليه أهل
الباطل ، أولئك مطرودون من رحمة الله سبحانه .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ
وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾

لقد جاءهم موسى ومعهم الآيات البينات ، ليذكرهم بالله ربهم ليخشوه ويتقوه ،
ويتعظوا بما آتاهم ، ويستشعروا وجود المالك الخالق ، وليعلموا أنهم مكلفون بعبادته
واتباع نبيه المرسل إليهم ، إلا أنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا ، ومع هذا : اتخذوا عجلا من

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الذهب ، فعبدوه ، فبئس ما اتخذوا ، وبئس ما صنعوا وبئس ما عبدوا ، وبئس ما هداهم إليه عقلهم إن كانوا يعقلون .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَأَسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ
يَكْفُرِهِمْ قُلْ يَسْكَمَا يَا مُرْكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

لايزال الله سبحانه يعدد عليهم أخطاءهم ، ويذكرهم بها ، وهذا اللون من الخطاب هو في حق اليهود شيء من العذاب الذي يصيبهم الله به في الدنيا قبل الآخرة ، وهو الدليل والآية على كونهم أهل النار ، فلن يعصمهم من الله بعد ذلك عاصم ، ولن يقيهم منه واق .

لقد أخذ الله سبحانه عليهم الميثاق فأبوا أن يستجيبوا له حتى رفع الجبل فوقهم ، ورأوه كأنه ظلة : آية منه ﴿ وظنوا أنه واقع بهم ﴾ ، وناداهم مناد من قبل ربهم ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ وما إن قبلوه إلا وخالفوه ، فقالوا : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ . وما ذلك إلا لأنهم أشربوا حبهم للعجل ، حتى خَلَصَ ذلك إلى قلوبهم فأعماهم وأصمهم ، « وحبك الشيء يعمى ويصم » فقد دخل حبهم لعجل الذهب قلوباً خاوية من الحب لله ، فتملك منها وأحاط بها .

وما كان ذلك منهم إلا لكفرهم بالله - سبحانه وتعالى - ورسله ، وهم بعد ذلك يدعون أنهم لن يؤمنوا إلا بما جاءهم به موسى ، متخذين ذلك ذريعة للكفر بمحمد ﷺ .

ويستمر الحق سبحانه في الاستهزاء بهم ، والسخرية بإيمانهم قاذفاً به في وجوههم ، راداً كيدهم في نحورهم . فيقول :

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾

وكيف يتمنون الموت ، ولم يقدموا له عملاً ، اللهم إلا نفوساً منغمسة في الكبر على الله وعلى رسله ، وعلى آياته ؟!

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أتدعون أن الله يؤثركم على غيركم من عباده ؟! كذبت . . ولو كان الأمر كذلك لتمنيت الموت . .

وأخبر الله رسوله مسبقا بأنهم لن يتمنوه أبداً لعلمه بظلمهم . وأنه لا يتمنى الموت ظالم ، ولكن يخافه ، وهم كذلك ، ليقينهم بأن الله سوف يعذبهم أشد العذاب ، ويخزيهم أشد الخزي ، ويكسوهم به لكبرهم وافترائهم على الله وظلمهم .

وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِحِهِ مِّنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

فهم أحرص الناس على الحياة وعلى طول العمر . ولكن الله البصير بما يعملون ، الخبير بما هم عليه ، سيميتهم في موعدهم المحدد لهم . ولن يزعجهم عن الموت ولا عن العذاب طول عمرهم في الدنيا التي أحبوا وأحبوا الحياة فيها ، فكيف يمكن أن يدعى مثل هؤلاء أن لهم الحياة الآخرة خالصة من دون الناس ؟ والله سبحانه يمهل الظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته .

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلْجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾

كيف يكون مثلكم أولياء لله من دون الناس ، وأنتم الذين عاديتم الله وملائكته ورسوله ؟

وقد أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا أن هذه الآية جواب لليهود من بنى إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولى ذم .

عن أنس بن مالك ، قال : « سمع عبد الله بن سلام بقدم رسول الله - ﷺ - وهو في أرض يخرنف ^(١) ، فأتى النبي - ﷺ - فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : فما أول أشرط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : أخبرني بهن جبرائيل أنا .

قال : جبريل ؟

(١) يخرنف : يجنى التمر .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قال : نعم .

قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ^(١) هذه الآية : ﴿ من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾ .

أما أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة ، فزيادة كبد الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعته .

قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني .

فجاءت اليهود ، فقال النبي - ﷺ - : أي رجل عبد الله فيكم ؟

قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا .

قال : رأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟

فقالوا : أعاده الله من ذلك .

فخرج عبد الله ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فقالوا : شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه .

قال : فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله^(٢) .

ولو أن الله قد أنزل على نبيه ميكائيل ما آمنوا به ، ولكنهم جبنا يدعون ماليش في قلوبهم ﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ .

إن الذي أنزل عليك جبريل بالقرآن إنما هو الله .

وكل ما يتنزل به جبريل عليك ، إنما هو بشرى للمؤمنين - لاندبر حرب وشؤم كما زعمت يهود - هو علامة على نبوتك وأماره على صدقك .

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ
لِّلْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾

إن الله عدو للكافرين الذين يفترون على الله وملائكته ورسله الكذب .

(١) يعنى : النبى - ﷺ - .

(٢) رواه البخارى ، كتاب : التفسير ، باب : قوله (من كان عدواً لجبريل) .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١١﴾

إن القرآن الذى أنزله الله على محمد ، وما فيه من آيات بينات . . إنما يتنزل به جبريل على قلبه ، وما دعا إليه محمد - ﷺ - إنما هو الحق ، وما يكفر بالحق ويكذب به إلا الفاسقون ، المنكرون للحق وهم يعلمون .

أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا ابْتَدَاهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

يدعو الله سبحانه نبيه لتذكر حال بنى إسرائيل الذى لا يتغير أبداً ، وهو أنهم منافقون ، وهم دائماً أهل كذب وضلالة ، لا يعاهدون عهداً إلا نقضوه ، ولا يعدون وعداً إلا أخلفوه ، لأن أكثرهم لا يؤمنون ، فلا تبتئس بما يفعلون يا محمد ، وذره في خوضهم يلعبون .

وهذه الآية صريحة في أن اليهود - في كل زمان ومكان - ينقضون العهود . ﴿ كلما ﴾ تفيد تكرار حدوث الخلف مع كل وعد ، ولذلك يجب أن يعلم المسلمون : أن اليهود لا عهد لهم ، ولا يوفون بوعدهم ، بنص القرآن الكريم .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

إن طائفة من أهل الكتاب نبذوا وطرحوا الحق الذى يعلمونه ، وأنكروه كأن الأمر لا يخصهم في شيء ، وغير موجه إليهم ، تركوا العلم الذى فيه حياتهم وسعادتهم ، ثم ماذا فعلوا بعد ذلك ؟

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾

لقد أقبلوا على تعلم السحر واتباعه وأرادوا به كيدا لرسول الله - ﷺ - وسحره .
يقول القرطبي : إن « ما » نافية ، حيث إن الله لم ينزل على الملكين سحراً ، والملكان
هما جبرائيل وميكائيل ، فيكون تقدير الكلام (وما كفر سليمان ، ولا أنزل الله السحر
على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا : يعلمون الناس السحر) ^(١) بـ (بابل هاروت
وماروت) .

وبابل هي الأرض المعروفة ^(٢) وأما هاروت وماروت ، فهما : الساحران اللذان يعلمان
الناس السحر .

وعلى هذا يكون قولها هذا من باب التبرئة لأنفسهما لأنها علما الخير من الشر ،
والكفر من الإيمان .

ويرى الحسن البصري ، أن الملكين أنزلا بالسحر ليعلم الناس البلاء الذي أراد الله
أن يتلى به الناس ، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحدا حتى يقولوا إنما نحن فتنة
فلا تكفر ^(٣) .

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

لو أنهم وحدوا الله سبحانه ، وعبدوه عبادة خالصة لوجهه الكريم ، واستقاموا
على طريق الأنبياء من قبل محمد - ﷺ - وعلموا أن الحق كله إنما جمع في صحف
محمد - ﷺ - بين دفتي القرآن العظيم .

لو أنهم صدّقوا وعملوا بما علموا ، لكانت مثوبة الله على ذلك خيرا لهم من الدنيا
وما فيها ، مما فتنوا به وبهروا ، ورضوه لأنفسهم ، ولو على حساب رضوان الله .
نعم ، لو كانوا يعلمون لاكتفوا بالله فعّالا ، وما انتكسوا ولجئوا لغيره سبحانه .

(١) انظر ابن كثير ، ١ / ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) قال في القاموس : « بابل ، كصاحب موضع بالعراق ، وإليه ينسب السحر والخمر » .

(٣) انظر ابن كثير : ١ / ١٤٣ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا
وَالْكَافِرِينَ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿١٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾

أمر الله - سبحانه وتعالى - عباده المؤمنين بصدق الحديث وصراحته ، وذلك لما
يتناسب مع طهارة قلوبهم وصفاء نياتهم . ونهاهم عن التشبه بالكافرين في أقوالهم
وأفعالهم .

وقد كان اليهود إذا أرادوا أن يقولوا « اسمع لنا » قالوا (راعنا) وراعنا : من الرعونة ،
وهي الحمق . ورجل أرعن ، يعنى أهوج في منطقته ، وقد كان اليهود - عليهم لعنة الله -
يقولونها سبا للنبي - ﷺ - ويوارون بالرعونة .

وقد نفرنا الله - سبحانه وتعالى - من الكافرين وأعمالهم وأقوالهم ، حيث بين أنه قد
أعد لهم العذاب الأليم ، ثم زادنا منهم نفورا ولهم بغضا حين كشف سرائرهم .
وبين شدة عداوتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبين المؤمنين ، فلا يتشبهون بهم .
وفي هذا تهديد ووعيد ونهى شديد عن التشبه بالكفار أقوالاً وأفعالاً وعبادة ولباساً
وأعياداً .

بل قد أمرنا بتعمد مخالفتهم في أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نزلت إلينا .
والله تعالى يختص برحمته من يشاء من عباده - الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا -
فتنزلت عليهم رحمت الله ، فيرضون بحكمه ودينه ، ويرضون باتباع نبيه - عليه الصلاة
والسلام - .

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧﴾

إن الله الذى نزل الكتاب ، وبعث محمداً ومن قبله الأنبياء والمرسلين ، له الأمر
سبحانه : من قبل ومن بعد . . . فله أن ينسخ مما أنزل ، وله أن يضيف إلى ما أنزل .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وقوله تعالى : ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ يعنى خيراً مما نسخنا ، أو مثل ما تركنا .
وإن ذلك لمن الإعجاز القرآنى ، فالله - سبحانه وتعالى - ينزل القرآن ويتحدى به
المشركين أن يأتوا بمثله ، ولو بآية ، فلا يستطيعون ذلك ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .
ولكن الله سبحانه يريهم من براهين كماله وإعجازه أنه ينسخ هذا القرآن المعجز ،
فلا يخرج عن إعجازه إلا بكونه خيراً منه أو مثله .

وهذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى شخص رسول الله - ﷺ - الذى يعلم تمام العلم
أن الله على كل شىء قدير ، إلا أن فيه توبيخاً للجاحدين والمكذبين ، واستهانة
بعقولهم وعجزهم .

وبعد أن نهانا الله تعالى عن التشبه باليهود : قولا ، وفعلا ، مبينا لنا شدة عداوتهم
للمؤمنين ، حذرنا من التأثير بهم وسلوك مسلكهم ، فقال :

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدِلِ
الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

فإلى متى أيها المؤمنون تسIRON خلف اليهود ، متشبهين بهم فيما قل أو كثر ؟ هل
ستظلون على ذلك حتى تسألوا رسولكم كما سأل اليهود موسى من قبل ، بحجة العقل
والمنطق ، فلا تجدون أنفسكم إلا وقد وقعتم فى الكفر بعد الإيمان ، والردة بعد الاتباع ؟ .
وحاش لله أن يسأل أهل الإيمان محمداً - ﷺ - كما سئل موسى من قبل .

وَدَكْثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا
حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ
يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

وفى هذا مزيد من التحذير للمؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ،
مبينا لهم عداوتهم الظاهرة والباطنة ، واليهود منهم خاصة الذين يحسدون الذين آمنوا
بمحمد - ﷺ - وصدقوا بها أنزل عليه .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فكل ما قدمتم من خير : فرضا كان أو تطوعا ، فإنها هو لأنفسكم ، وستجدونه عند الله ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ .

إن هؤلاء اليهود والنصارى : لفرط حقدهم وحسدهم ، عميت قلوبهم ، فصدت عن الحق ، وعميت أعينهم ، فصدت عن السبيل ، وظلوا يكذبون حتى صدقوا أنفسهم أوتوهموا ذلك .

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾

إن هي إلا أمانى يتمنونها ، ولا برهان لهم ولا حجة ، فاليهود يقولون : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، والنصارى يقولون : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ، فكذب بعضهم بعضا ، وكذبهم الله جميعا ، فقال تعالى :

بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

فأى نصر للمؤمنين ؟ . وأى تأييد ؟ . وأية محبة من الله لمن أسلم وجهه لله وهو محسن ؟ وصدق الله إذ قال : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ؟

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

وهكذا . . كذب بعضهم بعضا . . وصدق الطرفان : ليست النصارى على شيء ، ما داموا لم يؤمنوا بمحمد - ﷺ - وليست اليهود على شيء ما داموا لم يؤمنوا بمحمد - ﷺ - .

لقد قال ذلك أهل العلم منهم ، ثم قاله كذلك الذين لا علم لهم ، كما قالت الآية : ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ وهم الذين لا يتلون الكتاب من المشركين والكفار . فتشابه بالكفر قلب من علم بمن لا يعلم .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

ويوم القيامة : طوبى لمن أسلم وجهه لله وهو محسن من أمة آدم إلى أمة موسى وعيسى ، إلى أمة محمد - ﷺ - وأخلصوا دينهم لله ، وهم يحسنون الفهم كما يحسنون العمل الذى أمرهم الله - سبحانه - به .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿ ومن أظلم ﴾ ؟ استفهام يفيد النفي ، يعنى « ليس هناك أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها » . وأعظم الظلم أن يكون المنع عن بيت الله الحرام والكعبة المشرفة ، وهذا ما فعله المشركون الذين أخرجوا الرسول - ﷺ - من مكة ، هو وأصحابه ومنعواهم : من الصلاة في المسجد الحرام ، ومن حج البيت . هؤلاء لا ينبغي أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين ؛ فليس لهم في الدنيا إلا الذلة والخزي ، ولا في الآخرة إلا العذاب العظيم ، وذلك بما حملت قلوبهم من نفاق ، وبما كفروا به من الحق الذى أنزل على محمد - ﷺ - .

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

هناك روايات عديدة فى سبب نزول هذه الآية ، وجمعتها أن التوجه إلى المشرق والمغرب لله تعالى ، سواء إلى بيت المقدس ، أو إلى الكعبة ، أو إلى أى اتجاه فى السفر عند صلاة التطوع ، فهو جائز ^(١) ، لأن المشرق والمغرب لله تعالى ، وله ما فى السموات والأرض . فأينما وجد المؤمنون ، ولَّوا وجوههم شطر القبلة بدليل قوله تعالى : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ ؛ فالله - سبحانه وتعالى - معهم ، يسمعهم ، ويراهم ويعلم سرهم ونجواهم .

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلِيلٌ ﴿١١٦﴾

(١) تفسير ابن كثير ، ١/ ١٥٧ - ١٥٨ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

والذين اتخذوا الله ولدا هم اليهود والنصارى . حيث يقول تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أُنَى يُؤْفَكُونَ ﴾ ^(١)

والآية حجة تدحض قول هؤلاء ، وكل من يدعى أن الله ولدا ، لأنه سبحانه لا ولد له ، ولا شريك ، ولا صاحبة ، سبحانه تنزهت أسماؤه ، وعلت عن الكيف والمثل صفاته .

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

إن مشركى العرب ، قد تشابهت قلوبهم مع اليهود والنصارى ، الذين قالوا ذلك من قبل ، وقد رد الله عليهم أن الآيات واضحة بينة ، ولكنها لقوم يوقنون ويعقلون ويتذكرون ، ولكن هؤلاء يكابرون . ألم يروا في السماء آية وفي الأرض آية وفي أنفسهم آية؟

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

ولقد تشابهت قلوب الكافرين قديماً بقلوب الكافرين حين أنزل الله على محمد الكتاب المبين .

أنت بشير للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ونذير للذين أعرضوا وقالوا : ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ . بشير للذين عرفوا قدرة الله في سمواته وأراضيه ، وفي الزهرة الملوثة ، وفي الماء الجارى ، وفي حياة الأبوين وبث الذرية منها .

ونذير لمن لم يتعظ بتلك الآيات ، فسبحان الله ، إن الآيات حولهم ومن فوقهم ، ومن تحتهم ، من بين أيديهم ومن خلفهم ، مبثوثة في الكون كله ، ويقولون : ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ . إنه الإثم المبين في نفوسهم ، والظن الأثيم في ضمائرهم .

(١) التوبة : ٣٠ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وهؤلاء هم أصحاب الجحيم ، فلا تبتس ، فلن تسأل عنهم ، فكل امرئ بما كسب رهين .

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

لن ترضى اليهود ولا النصارى عن محمد - ﷺ - وتعترف بنبوته ، إلا أن يتبع ملتهم وحاش لمحمد - ﷺ - أن يتبع ملتهم ، وهو رسول الله الأمين ، وصفيه من خلقه . وهكذا هم في كل زمن : لا يرضون عن المسلمين حتى يدخلوا في ديانتهم المحرفة ، وعقائدهم المزيفة .

ويجب على المسلمين - حكاما ومحكومين - أن يتعاملوا معهم على هذا الأساس الواضح .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ : أى يؤمنون به ، ويعملون بمنهجه ، ويدعون الناس إليه . هؤلاء هم الذين يتلون القرآن حق تلاوته ، لا أولئك الذين ادعوا حفظ القرآن وأبعدوه عن الحكم والسياسة والاجتماع والتعليم والاقتصاد . ﴿ ومن يكفر به ﴾ أى بالكتاب الذى أنزل على محمد - ﷺ - بلاغا لأُمَّته ومنهجاً لها ، أولئك هم الخاسرون ، لأنهم كفروا بما أنزل على محمد - ﷺ - وهو الحق . ويعود الحق - تبارك وتعالى - فينادى بنى إسرائيل :

يٰۤبَنَىٰ إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾

يا بنى إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم ، فاتبعوا محمداً - ﷺ - ، ولا تنتكسوا ، وصححوا أخطاءكم ، واستغفروا ربكم ، وانطقوا بالشهادتين وقولوا : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، محمد عبد الله ورسوله » لتكونوا بعد ذلك من الشاكرين الذاكرين .

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

اتقوا يوم القيامة . يوم لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئاً .
﴿ ولا يقبل منها عدل ﴾ لأنه يوم لا مفر فيه من الجزاء ، يوم يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه .

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

يقول ابن كثير رحمه الله ^(١) : وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر بها إبراهيم الخليل - عليه السلام - فروى عن ابن عباس روايات في ذلك ، قال ابن عباس : « ابتلاه الله بالمناسك » . وعن التميمي عن ابن عباس قال ابتلاه بالطهارة : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد .

في الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس .
وفي الجسد : تقليم الأظافر ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء .

وروى أيضا عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : « ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ . قلت له : وما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن ؟ .

قال : الإسلام ثلاثون سهما ، منها عشر آيات في براءة ﴿ التائبون العابدون ﴾ إلى آخر الآية . وعشر آيات في أول سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ و ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ . وعشر آيات الأحزاب ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ إلى آخر الآية ، فأتمهن كلهن ، فكتبت له براءة ، قال الله تعالى : ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ . والأصح أن الكلمات هي ما سأل إبراهيم ربه في قوله : ﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا ﴾ ، ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ ﴿ واجعلنا مسلمين لك ﴾ ﴿ وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ . قلت : لأن النص يفسر بعضه بعضا أهـ .

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

والبيت هو البيت الحرام بمكة المكرمة ، قد جعله الله مثابة للناس يشوبون إليه ، متعلقة قلوبهم به ، محبة له ، ﴿ وَأَمَّا ﴾ فهم حين يصلون إليه ويعيشون حوله ، يستشعرون الأمن والاستقرار ، فهم في أمن بطاعتهم لله ، وفي أمن من معصيتهم إياه ، متعلقين بالبيت ، متعلقة قلوبهم بجلال الله ووحدانيته وعظمته .

والمقام ، قد يكون المقصود به الحرم كله ، وقد يكون المراد منه المسجد ، وقيل : هو الحجر الذي وضعت زوجته إسماعيل تحت أقدام إبراهيم حتى غسلت رأسه (١) .

وقد كلف الله إبراهيم وإسماعيل بأن يطهرا البيت من الأوثان والأصنام التي تعبد من دون الله ، فلا يعظم عند البيت غير الله ، ولا يقدر غيره ولا يرجى غيره سبحانه ، وقيل يطهر من النجس والرجس وقول الزور .

ولم يثبت أن الأصنام نصبت حول البيت في عهد إبراهيم - عليه السلام - ولعل المقصود هنا أن يوصى إبراهيم وإسماعيل أولادهما وذريتهما ومن حول البيت ، بأن يحافظوا عليه مستقبلا من أن يلوث بالشرك ، أو بعبادة غير الله .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٧﴾

يسأل إبراهيم - عليه السلام - ربه أن يجعل رزقه لأهل الحرم من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، أجابه الله بقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ﴾ فأرزقه ، فهو الإله الواحد ، الذي يرزق عبده الذي لم يشرك به ، والذي جعل له شريكا ، ومن كفر به فجحده ، وما من أحد غيره يرزق .

واستجاب الله لإبراهيم - عليه السلام - فجعل البلد آمنا ، ورزق أهله من الثمرات ، من آمن منهم بالله ، ومن كفر متعه إلى حين ؛ والحين يوم القيامة لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ . ثم اضطره إلى العذاب الأليم في الآخرة .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

(١) انظر كتب التفسير .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

إنها حلاوة الإيمان الكامل الذى لا يتخلله نقص . والتوحيد الذى لا يشوبه شرك ، إنه يبنى البيت مؤتمرا بأمر الله ثم يدعو الله هو وإسماعيل ، ويخافان ألا يتقبل الله منهما ، وتلك حقيقة من تحلى بالإخلاص الكلى لله تعالى :

﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾^(١) .

إنها قمة الخشوع لله تعالى ، والإشفاق من خشية الله ألا يقبل منهم .

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا
إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

ربنا لا تخيب مسعانا ورجاءنا ودعاءنا : اجعلنا - بحسن عطائك - من المقبولين . . .
من الذين يقولون (يارب) فيجيبهم ربهم .

إنهما يعلماننا كيف نتواضع لله ، وكيف لانغتر بعمل عملناه لوجه الله ، مهما كان كثيرا ؛ لأن الأعمال منه وإليه .

تعلم يا ابن آدم من رءوس النبوات ، وقيادات الرسل . . . تعلم ولا تقل بيدى أعطيت ، وبنفسى فعلت ، لقد صليت ليلا ، وصمت نهارا . . . تعلم التواضع . . .
كيف تكلم ربك . . ؟ وكيف كلم الرسل ربهم ؟

إننا يارب لانستطيع أن نسلم القلوب والوجوه والجوارح لك ، إذا لم تأخذ أنت بأيدينا وبقلوبنا وبمشاعرنا ، وبوجداننا . فالفضل لك ، والمنة لك ، أولا وآخرا . كما أننا لانملك من أمر ذريتنا شيئا . ﴿ وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ فعلمنا يارب كيف نؤدى مناسكك التى كلفتنا بها لنحج بيتك ونطوف به ونسعى عنده . علمنا كيف نقف بين يديك ، ونتوب إليك . . كيف نركع تحت عز عظمتك وعلاك . . . كيف نسجد بين يدي القدرة المعطية الآخذة ، الباسطة المحسنة ، القادرة الحانية ، الرحيمة القوية ، شديدة العقاب ، واسعة الرحمة .

إننا لانستطيع أن نتوب إلا أن تريد أنت التوبة لنا ، فإن لم تكن التوبة عطاء منك ، فكيف نتوب ؟

(١) المؤمنون : ٦٠ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

ابعث منا رسولا فيهم يربيههم على اليقين بأنك الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لا والد له ولا ولد .

هذا النبى الذى هو منهم ، ومن ذريتى وذرية إسماعيل ، يعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم ، فلا تردنا يارب إلا وقد أخذت بنا إلى ساحة رضاك وعفوك ومغفرتك .

وقد استجاب الله لذلك الدعاء . ففى الحديث عن العرباض بن سارية - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبى إبراهيم . وبشارة أخى عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » ^(١) . أما دعوة إبراهيم فهى قوله ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ ؛ وأما بشارة عيسى فهى قوله تعالى ﴿ يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ ؛ وأما رؤيا أمه ، فقد رأت فى المنام نورا ، قالت : فجعلت أتبع بصرى النور فجعل النور يسبق بصرى حتى أضاء لى مشارق الأرض ومغاربها ^(٢) .

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ
فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾

هذا هو إبراهيم صاحب المواقف والكلمات التى اختبر بها فنجح .
فالذين يرغبون عن ملة إبراهيم : سفهاء . . . لهم قلوب ، إلا أنهم لا يفقهون بها . .
ولهم عيون ، ولكن لا يبصرون بها . . . ولهم آذان ، إلا أنهم لا يسمعون بها :
﴿ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ﴾ اصطفاء للهداية والإرشاد ﴿ وإنه فى الآخرة لمن
الصالحين ﴾ الذين اجتبيناهم ، فكسوناهم بأردية المحبة والمودة والعطاء والتكريم
والإعزاز ورفع الدرجات والمراتب .

(١) رواه أحمد . (٢) رواه البيهقى فى الشعب ، وابن إسحاق فى السيرة .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾

إن العبد الذى يفخر بأنه عبد ، ويشرف بارتداء ثياب العبودية لله ، هو الذى يناديه ربه : أسلم ، فيقول : أسلمت لرب العالمين ، وبذلك نال إبراهيم مكانته .

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

لقد اصطفى لهم التوحيد ، واصطفاهم له ، ولذلك كان عليهم أن يلزموه ويتمسكوا به ، حتى لا يأتيهم الموت - حين يأتيهم - إلا وهم على الإسلام ، وهذه وصية إبراهيم ويعقوب كما أنها وصية كل مسلم بعده إلى أن تقوم الساعة .

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

والخطاب موجه للمشركين الذين كفروا بمحمد ، وهم من أحفاد إسماعيل ، كما هو موجه إلى الكفار من بنى إسرائيل ، فكان الواجب عليهم أن يكونوا على ما كان عليه آبائهم ، وما أوصوا به من التوحيد الخالص لله تعالى ، حيث قال يعقوب لبنيه : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾ فأخذوا على أنفسهم عهداً بأن يعبدوا إله الذى لا إله غيره ، وقد عبده من قبل إبراهيم وإسماعيل وإسحق : إلهها واحداً لا شريك له .

فيا من ادعيتكم أنكم على ملة إبراهيم وإسحق ويعقوب : كذبتكم ، فلو أنكم صدقتكم لاتبعتم محمداً - ﷺ - ولباتبعتموه .

أما النسب فلن ينفعكم ما لم تكونوا على ما كانوا عليه من التوحيد والإسلام لله رب العالمين .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

وإنما تسألون عن عملكم أنتم ، و ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

إن اليهود والنصارى ، قالوا لرسول الله : إن الهدى هو ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد ، فقال تعالى : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفا ﴾ ؛ لأن إبراهيم كان حنيفا مسلما ، وما كان مثلكم من المشركين .

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

قال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط في بني إسرائيل ، كالقبائل في بني إسماعيل . وقال الزمخشري في الكشاف : الأسباط حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر .
وعجمل الآية يعنى أن نؤمن بما أنزل على الأمم من قبلنا مجملا ، ونؤمن بما نزل على محمد - ﷺ - تفصيلا .

وهل اليهود أو النصارى أصحاب دين قائم ؟ لا . هذه قضية يجب على المسلمين أن يفهموها . يجب أن نفهم جميعا أن اليهود قد ارتدوا عن دينهم ، لأن دينهم الإسلام ، وأن النصارى قد ارتدوا عن دينهم ، لأن دينهم إنما هو الإسلام . وكل دين جاء من عند الله - سبحانه وتعالى - إنما هو الإسلام ، وكل دين يخالف دين الإسلام فإنما هو بدعة وضلالة . وإذا كنا قد أمرنا أن نعاملهم على أنهم أهل كتاب ، ففي الوقت نفسه أمرنا أن نعتقد أنهم خالفوا وعصوا الكتاب الذي نزل عليهم إن لم يتبعوا محمداً - ﷺ - ، وإن أبيحت لنا ذبيحتهم وإن تزوج رجالنا من نسائهم . وما نشترك معهم فيه ، إنما هو أمر واحد ، وهو الإيمان باليوم الآخر ، وإن كانت معتقداتهم الفاسدة قد عطلت عنهم اسم الإيمان . وإن شئت فقل هؤلاء كفرة اليهود وأولئك كفرة النصارى .

ولذلك جاء المرسوم الإلهي بقرار ينفي عنهم الهدى :

فَإِنَّمَا أَمِنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنُ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ
اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾

يقول ابن كثير^(١) : « يقول تعالى فإن آمنوا ، يعنى الكفار من أهل الكتاب وغيرهم
بمثل ما آمنتم به يأياها المؤمنون من الإيذان بجميع كتب الله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد
منهم ﴿ فقد اهتدوا ﴾ أى فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه . ﴿ وإن تولوا ﴾ أى عن الحق
إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله ﴾ أى فسينصرك
الله عليهم ويطفرك بهم ﴿ وهو السميع العليم ﴾ » .

ويستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم تركهم الهدى ابتغاء عرض الحياة الدنيا وزينتها ،
وابتغاء الجاه الباطل والمجد الزائف .

ولابد - إذن - أن تنتقل بالمسلمين من إطار الخيال والوهم ، إلى إطار الواقع
والحقيقة ، وهذا كلام صريح . . كلام صريح أن الإسلام استسلام لله والتزام ، وأن
الإسلام دين ودولة ، ولا يمكن أن يكون الإسلام بالصلاة والزكاة والصيام والحج ،
وشريعة الله معطلة ، والجهد فى سبيل الله معطل .

وهذه الآية تخاطبنا اليوم . كما خاطبت الرسول - ﷺ - من قبل . . . إنها تخاطب
المجددين حتى يعود المسلمون مرة أخرى فى الدائرة حول « لا إله إلا الله وحده لا شريك
له محمد رسول الله » . دائرة الحكم بما أنزل الله .

هذه الآية التى نحن بصدددها ، إنما هى الحجة فى أيدي شهداء القضية الإسلامية فى
كل قرن ، تقول لهم : أبشروا فالذين يخالفون صفوفكم ، ويخرجون على رأيكم ، وينقسمون
وينشقون عليكم ، إنما ﴿ هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ .

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾

أتناظروننا ، وتجادلوننا فى الله ، وأنتم الذين قتلتم أنبياءه ، وعبدتم الأوثان ، وفيكم
رسلكم ؟ وكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتهم وفريقا

(١) ابن كثير : ١ / ١٨٧ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

تقتلون . فكانت لكم أعمالكم المستمدة من هواكم وشياطينكم ، وكانت لنا أعمالنا المنزلة علينا من رب العالمين في كتاب ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .
أنتم لكم أعمالكم ، بما حرفتم في كتبكم ، ونحن لنا أعمالنا بالحق الذي نزل علينا .

أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا
هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ
مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

قالت اليهود : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب : كانوا هودا .
وقالت النصارى : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب : كانوا نصارى ،
فكذب بعضهم بعضا .

وكان الجواب الرادع من الله لهم على لسان رسوله : ﴿ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أنتم أيها الظالمون المكذبون الضالون : تعلمون أنهم جميعا مسلمون ، ولكنكم
تكتُمون الحق الذي أمرتم من الله أن تعترفوا به ، فالتوراة والإنجيل يشهدان بذلك ،
وينطقان به ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده ، وخاصة إن كانت هذه الشهادة من
الله ، في كتاب أنزله من السماء ، وأنتم اليوم تسمعون من المسلمين ما كتمتموه أنتم ﴿ وَمَا
اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أما إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، فلن ينفعكم اليوم انتسابكم
إليهم .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

ولكن تسألون عن أعمالكم أنتم وما قدمتموه لأنفسكم .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ
وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿١٤٢﴾

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مع بداية الجزء الثانى من سورة البقرة نرى النبى - ﷺ - فى موقف من مواقفه العظيمة الجليلة ، نراه وهو يقلب وجهه فى السماء يدعو ربه ، ويقدم بين يديه قلبه مناجيا مستعطفا فى أمر يخالج كل ذرات نفسه ، وكل نبضات قلبه ، أمر الوقوف بين يديه ، وتوجيه الوجه إليه سبحانه ، فما قصة ذلك الموقف ؟

كان النبى - ﷺ - : يصلى فى مكة بين الركنين ، متجها إلى الصخرة فى بيت المقدس ، ولما انتقل إلى المدينة واستقر بها : صعب عليه أن يتجه إلى الصخرة فقد كان يشتاق إلى شىء غال . . . يشتاق إلى قبلة أبيه إبراهيم . . . يشتاق إلى أن يصلى إلى الكعبة ، بدلا من بيت المقدس .

والفترة التى صلى فيها إلى بيت المقدس ليست بالقليلة ، إلا أنه يؤمل فى أن يعطيه الله - سبحانه وتعالى - عطاء يستقر به القلب فى وجهته أثناء الصلاة .

وشاء الحق - سبحانه - واستجاب لحبه ^(١) وأشواقه وتلهفانه وتعطفه وإبتهالاته ، ووجهه قبله يرضاها منة وتكرما . . فمنحه ما يرضى قلبه ومشاعره ومواجيده .

وأخبره - فيما أخبر - أن السفهاء من الناس سيقولون ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾ ؟

وأمره بأن يرد عليهم حينذاك فيقول .

﴿ لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . وهو رد الثابت على الحق ، الواثق من ربه ، المثبت من الله .

لقد أمرنا الله أن نصلى إلى بيت المقدس ، فلبينا .

واليوم يأمرنا - سبحانه - لدعائنا ورجائنا - أن نصلى إلى الكعبة ، تكرما وتفضلا منه ، وهو الذى يعطى بغير مسألة ، فأعطى وأكرم وأجزل ، ونحن له حامدون . . عابدون . . طائعون . .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۚ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

(١) الحب : بكسر الحاء : المحبوب .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

لقد جعلناك وأمتك وسطا . « أى عدلا » ، فقد جعل الله - سبحانه وتعالى - محمداً - ﷺ - وسطا بين الأنبياء ، أى عدلا وحقا . . فهو عدل الله فى الأرض . . . إن طلب العدل ، فمحمداً - ﷺ - مصدره . . . وإن طلب الكمال فمحمداً - ﷺ - مثاله . . فهو الخاتم الممثل لكل الأنبياء ، والممثل لشريعة الله ، ومنهج الله . وسط أى : عدل كله ، وكمال كله .

والأمة التى أرسل فيها محمد - ﷺ - لتقوم به ، وبالأمر الذى بعث من أجله إنما هى أمة وسط بالعدل تحكم ، وبه تقوم . . تنصف المظلوم ولا تخشى فى الحق لومة لائم . . فهى الأمة الوسط . . خير أمة أخرجت للناس . . تعلم الحق فتعقله ، تصديقا قلبيا وعقليا ووجدانيا ، فتعيشه وتعائشه .

و ﴿ شهداء على الناس ﴾ بمعنى :

- شهداء الله فى الأرض . على أنه هو الحق ، وقوله الحق ، ورسوله - ﷺ - الحق .

- شهداء الله فى الأرض . على أن الإسلام منهج حياة وشريعة تنفذ ، وحكم ينفذ ، فيعيش بين الناس ، ويعيش به الذين أسلموا لله ، فقالوا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

- شهداء الله فى الأرض . الذين لا يحيدون عن قانونهم ودستورهم ، ولا يمتدحون إلى غير القرآن ، ولا يتمسكون بغير السنة .

- شهداء الله فى الأرض . . ولاؤهم لله - سبحانه وتعالى - ثم لمن يبايعهم ويعاهدهم على أن تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وعن أبى الأسود ، أنه قال : « قدمت المدينة وقد وقع بها مرض ، فجلست إلى عمر ابن الخطاب ، فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خيرا ، فقال : وجبت . . . ثم مر بأخرى فأثنى عليها شرا ، فقال عمر : وجبت ، فقال أبو الأسود ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله - ﷺ - : « أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة » . قال : فقلنا وثلاثة فقال : « وثلاثة » قال : فقلنا واثنان قال : « واثنان » ثم لم نسأله عن الواحد ^(١) . قلت : والشاهد لا يشهد إلا بما يرى فلا بد أن

(١) رواه البخارى كتاب الجنائز باب ثناء الناس على الميت .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

يكون هؤلاء الشهود قد عايشوه وعرفوا منه التقوى والصالح كاعتياده المسجد وغيره من العبادات ، والمعاملات ، والخلق الكريم أ. هـ .

وهكذا تكون شهادة المسلمين في الدنيا ، وكذلك في الآخرة ، فقد ورد عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« يدعى نوح يوم القيامة فيقال له ، هل بلغت ؟
فيقول : نعم .

فيدعى قومه ، فيقال لهم : هل بلغكم ؟
فيقولون : ما أتانا من نذير ، وما أتانا من أحد .

فيقال لنوح : من يشهد لك ؟
فيقول : محمد وأمته .

قال : فذلك قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ .

ثم يخبر الله - تبارك وتعالى - نبيه - ﷺ - أنه ما شرع له التوجه أولاً إلى بيت المقدس إلا امتحاناً واختباراً للخلق ، حين ينقلهم بعد ذلك إلى الكعبة التي جعلها الله سبحانه قبلتهم من بعد .

فالمؤمنون الصادقون : يطيعون الله فيك ، ويتوجهون معك إليه أينما توجهت ، أما الضعفاء منهم فيفتنون بكلام السفهاء ، فينقلبون على أعقابهم مرتدين عن الإسلام .
وكل ما أتى به الله - سبحانه وتعالى - : لأمة محمد من أوامر : إنما هو صناعة لهذه الأمة على عينه ، حتى تستحق - بجدارة - أن تكون الأمة الوسط . . الشاهدة على الناس .

والله يعلم هؤلاء وأولئك ، فيثبت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء ، ولذلك قال بعدها : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ .

وقيل ﴿ إيمانكم ﴾ هنا بمعنى صلاتكم التي صليتموها إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله .

فعن ابن عباس ؓ قال : لما وجه النبي - ﷺ - إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله . . ! كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ؟

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(١) .

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ إِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

لقد كان الله - سبحانه وتعالى - يرى تقلب وجه رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - في السماء ، فاستجاب الله له ، فولاه قِبلة يرضاها ويحبها ، ذلك أنه كان يحب قِبلة إبراهيم .

والاتجاه بالوجه إلى القبلة ليس معناه الاتجاه الجسدى وكفى ، ولكنه اتجاه قلبى وروحى وعقلى . فالوجه يستدير ويتقلب بحثا عن ذلك الذى تعلق به القلب وشغفت به الروح .

﴿ وحيثما كنتم ﴾ أيها المسلمون ﴿ فولوا ووجوهكم شطره ﴾ من أى اتجاه أنتم فيه . وذلك تجمع لقلوب المسلمين جميعا فى اتجاه واحد وغاية واحدة ، فهم يلتفون حول الحق ، وإليه يسعون .

وليس هذا الاتجاه هو مقصود الصلاة فحسب ، ولكنه اتجاه إيجابى ، يستجيب لآيات الله ، الروح فيه تأخذ وتعطى . . . عطاؤها من نفسها لله . . وأخذها من الله ، تجليات مع كتابه كى تفهم مراده وتستوعب مراميه .

وبيت المقدس - وإن كان قبلة المسلمين الأولى ، إلا أنه - ليس القبلة الأقدم ، فالكعبة أقدم منه ، وقد اتجه إليها آدم من قبل ، ومن قبل آدم صلت إليها الملائكة . وهى البيت الذى أمر الله نبيه إبراهيم وابنه أن يرفعا القواعد منه ، ويتخذانه قبلة . وهو الأمر الذى يعلمه أهل الكتاب ، مكتوبا عندهم ، إلا أنهم يتكاثرونه ، وقد هددهم الله على ذلك بقوله : ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ .

وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ

(١) رواه الترمذى عن ابن عباس ، كتاب تفسير القرآن باب « ومن تفسير سورة البقرة » وقال : حديث حسن صحيح .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ قِبْلَةٍ بَعْضٌ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

بعد أن أخبرنا الله - سبحانه وتعالى - أن أهل الكتاب يعلمون أن القبلة التي وجه الله سبحانه إليها رسوله إنما هي الحق من عند الله ، كان المتوقع أن تكون النتيجة لذلك أن يؤمنوا له ويتبعوا قبلته ، لولا العناد والاستكبار والحسد .

يقول الشهيد سيد قطب^(١) رحمه الله :

« فهم في عناد يقوده الهوى ، وتورثه المصلحة ، ويحدوه الغرض . وإن كثيرا من طيبي القلوب ، ليظنون أن الذى يصد اليهود والنصارى عن الإسلام أنهم لا يعرفونه ، أو لأنه لم يقدم إليهم في صورة مقنعة . وهذا وهم . . . إنهم لا يريدون الإسلام ، لأنهم يعرفونه !! فهم يخشون على مصالحهم وعلى سلطانهم . ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذى لا يفتقر ، بشتى الطرق وشتى الوسائل ، عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة . يحاربونه وجها لوجهه ، ويحاربونه من وراء ستار ، ويحاربونه بأنفسهم ، ويستهوون من أهله من يحاربه لهم تحت أى ستار . وهم دائما عند قول الله تعالى لنبيه الكريم :

﴿وَلئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم﴾^(٢) انتهى .

وقضية القبلة - هنا - والاتجاه إليها أصبحت قضية الحق والباطل ، وقضية الوحي المنزل والهوى . . . ولذلك ينبغى أن نحذر المسلمين من الاتجاه إلى قبلة الله بالأجساد فقط بل والاتجاه إلى قبلتهم بالقلوب . فنحن نرى اليوم الكثيرين من أهل القبلة يتقربون إلى اليهود والنصارى ، بل يتشبهون بهم . وأظهر الأمثلة على ذلك هو التقليد الأعمى لهم في كل مظاهرهم ومخابئهم الخبيثة ، وقد نهانا الإسلام عن التشبه بهم ، وأوردت السنة أدق التفاصيل ، حتى لا يكون هناك أدنى شبهة فيما بيننا وبينهم . بل قد أمرنا الرسول - ﷺ - بمخالفتهم أمرا صريحا لا يحتمل تأويلا . ولكن مع ذلك لا نرى استجابة خالصة لأوامر الله ورسوله تنبئ عن صدق الاتجاه إلى قبلة الإسلام ، ولكنه التقليد الأعمى ، والجري وراء المظاهر الكاذبة الخادعة التى بهرنا بها وبألوانها الزائفة .

(١) ظلال القرآن : ١ / ١٣٤ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وبنفس البساطة والأريحية التي أخذنا بها عنهم زيهم ومظهرهم ، أخذنا شرعهم ونظامهم وسياستهم وطريقتهم في قيادة أوطانهم .

وبنفس البساطة والأريحية امتدت أيدينا إلى دستورنا وقانوننا لنعبث فيه بالتبديل والتغيير لأحكام الله ووضع الكثير من أحكام الذين حادوا وضلوا وحرفوا وأضلوا ، فماذا بقى بعد ؟

سبحانك ربى لا إله غيرك ، ولا معبود سواك .

وما تلك الركعات التي يركعها البعض منكم ، ويتركها الكثيرون ؟

لقد انقسم اليهود والنصارى على أنفسهم ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ فكلاهما قد شرد عن الحق وانتهى الأمر . ولكن الحق قد جاءنا من ربنا ، وأنزل إلينا العلم صافيا ، ولذلك فقد جاءنا التهديد المرعب المهيب من الله - سبحانه وتعالى - فانظر الخطاب ، وتفكر فيمن خاطب ومن خطوب ، فستعلم خطورة الأمر أيما خطورة .

وإذا كان الخطاب لمحمد - ﷺ - من الله الرؤوف الودود في هذه الآية : فالمراد منه هو أمته - ﷺ - وما ينبغى لرسول الله - ﷺ - أن يكون من الظالمين ، ولا أن يضل عنه اتباع الحق المنزل عليه من الله ، والعاقبة تدور على من بعده من المؤمنين به وبالحق المنزل عليه من الله ، ولذلك فقد جاء السياق القرآنى - فيما بعد - موجهاً للمؤمنين ، يقول تعالى :

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ
الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

ثم عاد الخطاب مرة أخرى للرسول - ﷺ - :

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

وفى ذلك إشارة إلى أن المؤمنين جميعهم مخاطبون بما خطوب به الرسول - ﷺ - فى القرآن ، فصاحب الرسالة هو الله . . ومبلغها رسوله ، والمقصود بها : إنما هم المؤمنون . . وهم من بعد رسولهم مكلفون بتبليغها عن ربهم ، ثم عن رسولهم .

وكتمان الحق عن علم : دليل الجحود : وقعت فيه اليهود من قبل ، ومن بعدهم وقعت فيه النصارى ، واليوم يقع فيه الكثير ممن ينتسبون إلى الإسلام .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهُ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِنَّ مَتَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ۖ
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

لكل إنسان على هذه الأرض وجهة هو موليا وجهه . . كما قال تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ ^(١) . فالطرق متعددة . . والإسلام طريقه واحدة . . هي التوحيد . . . وقبلة واحدة ، هي الكعبة . . وسبيل واحد . . وهو أن يعيشوا في محبة الله بالطاعة له ، مهتدين بما جاء به محمد - ﷺ .

والآية تحث على المسابقة والمنافسة في الخير ، وتحصيل الصالحات ، مذكرا بالموت ، والحشر . فذكر الموت : خير واعظ ، وخير محرك للهمم البليدة المتكاسلة عن طاعة الله . يعد هذا المشهد ، وهو موقف اليهود من تحويل القبلة : آخر المشاهد المتوالية عن بنى إسرائيل ، ومكر اليهود ، ولم يبق عنهم في السورة إلا موقفهم من القتال مع نبيهم - في قصة طالوت وجالوت .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۚ
وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ
إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ۚ وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

فالبيت قبله لأهل المسجد . . والمسجد : قبله لأهل الحرم ، والحرم : قبله لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها . . .

وهذا الأمر يتكرر للمرة الثالثة على التوالي . . ذلك أنه أمر خطير في رسم سياسة الأمة الإسلامية ، وضرورة وحدتها ، فالعقيدة بتوحيد الله سبحانه وعدم الإشراك به : تلزمهم بتوحيد مصلحتهم ، ووجهتهم ، وسياستهم ، وأمتهم . . فأمتهم واحدة كما أن كتابهم واحد ، وذلك لأن إلههم إله واحد . . له يسلمون . .

(١) الليل : ٤ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

ولشريعته ينقادون . . وبحكمه وأمره يعملون . . فالأمر والنهي مستمد من وحى الله : كتاباً وسنة . ومهما تعددت دولهم فأمرهم جميعاً شورى بينهم . . فوحدة القبلة تعنى : وحدة الكلمة ، والأمة ، والوجهة . . وقد كان اليهود يعلمون أن الرسول - ﷺ - سيوجه لقبلة إبراهيم أول بيت وضع للناس . . وذلك مكتوب عندهم في كتبهم . وكانت العرب تتمنى أن تكون قبلتهم قبلة أبيهم إبراهيم ، فأراد الله أن يبطل حجج المشركين الذين قالوا سيرجع محمد إلى ديننا كما رجع إلى قبلة أبينا . . ولم يرجع الرسول - ﷺ - إلى دينهم . . وكذلك أبطل حجة أهل الكتاب الذين كانوا يعلمون أن قبلة محمد هي الكعبة ، فلما وجدوا قبلته بيت المقدس قالوا ليس هذا هو النبی . . فاختر الله المؤمنين ، ثم أعادهم إلى قبلتهم حتى يبطل حجج الكافرين .

﴿ فلا تخشوهم واخشوني ﴾ لا تخشوا إلا الله الذى كف حجة الظالمين ، وفرج قلوب المؤمنين باستجابته . وخشيتكم لله تورثكم الاطمئنان الذى به تتبعون محمداً - ﷺ - اتباع يقين فيما هو عليه من الله . وانظروا كيف طاعته لله فى الاتجاه للبيت المقدس ، ثم تضرعه ليحوله إلى الكعبة ، مع الالتزام بالأمر حتى يقضى سبحانه بما يرضيه . . ولما صدر الأمر من الله استقبل الكعبة حامداً لله شاكراً له ما أتم به نعمته عليه ، وعلى المؤمنين ليسر لهم طريق الهدى . ﴿ ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ إلى ما ضلت عنه الأمم ، فقد اجتباكم بنعمته ، وجعلكم خير أمة أخرجت للناس ، فكنتم أشرف الأمم وأكملها طاعة لله .

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

يمن الله - سبحانه وتعالى - على أمة محمد - ﷺ - بتيسير أسباب الهداية لهم ، فكما أرسل إليهم محمداً - ﷺ - يتلو عليهم آيات الله ويظهرهم من رجس الأوثان والشرك بالله ، ويعلمهم الكتاب - الذى هو القرآن - والحكمة - التى هى السنة - ويبين لهم كل الأمور التى اختلفوا فيها . . وعليها . . . ويعلمهم أموراً لم يكونوا يعلمونها - كما أرسل إليهم هذا الرسول الكريم - ﷺ - فقد هداهم إلى القبلة حتى تتم النعمة عليهم . . فحق لهم أن يشكروه ولا يكفروه ، ويذكروه فلا ينسوه . . وشكر الله هو : ذكره . .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

ونسيان الله هو كفره . نذكره بطاعته ، فيذكرنا بالقبول ، ونذكره بالتوبة ، فيذكرنا بالمغفرة . . . ونذكره - بالحمد ، فيذكرنا بالمزيد . . . ونذكره بالدعاء ، فيذكرنا بالإجابة . .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

إن المؤمن إما أن يكون شاكرا ربه على نعمه . . . وإما أن يكون صابرا على ضراء مسّته . . . وعلى الشكر والصبر تدور أمور الشريعة كلها .

والصبر صبران ، صبر على الطاعات والقربات ، وصبر عن الحرمات والسيئات . وهناك صبر ثالث : وهو الصبر على المصائب والنوائب . . . وما أوتى عبد عطاء أوسع من الصبر .

وقد قال على زين العابدين : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ، ينادى مناد : أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟

قال فيقوم جماعة من الناس ، فتلقاهم الملائكة ، فيقولون إلى أين يا بنى آدم ؟ فيقولون : إلى الجنة .

فيقولون : قبل الحساب ؟

قالوا : نعم .

قالوا : ومن أنتم

قالوا : نحن الصابرون .

قالوا : وما كان صبركم ؟

قالوا : صبرنا على طاعة الله ، وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله .

قالوا : أنتم كما قلتم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

قال ابن كثير : (١)

ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) .

وقد تقدم تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ في الربع الثالث من سورة البقرة .

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

(١) تفسير القرآن العظيم ١ / ١٩٧ .

(٢) الزمر : ١٠ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

يخبرنا الله تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون . كما جاء في صحيح مسلم : قال رسول الله - ﷺ - « إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر ، تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا وأى شيء نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا . فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب - جل جلاله - « إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون » (١) .

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ
وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

إن الناس معادن ، والله - سبحانه وتعالى - يمتحن الناس ، فبأى شيء يمتحنهم؟ لقد شاءت إرادته وحكمته أن يختبرهم بشيء من « الخوف » : خوف الفقر . . خوف الظلم . . . خوف العدو . .

وهذا النوع من الخوف هو موطن البلاء ، أما خوف الله - سبحانه وتعالى - وخوف الذنوب والمعاصي وخوف النار ، فإنها هو النعم الإيمانية التي أنعم الله بها على العبد . . والخوف من النوع الأول لا يملك قلب المؤمن ، ولا يمسسه ولا يفسد عليه إيمانه ، فالمؤمن لا يخاف الفقر وهو يعلم أن الله هو ﴿ الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (٢) ، ولا يخاف ظلما ، وهل يملك الظالم من نفسه أن يخرج شربة ماء حبست فيه ؟!

ونحن حين نقرأ سيرة الرسول - ﷺ - وصحابته الذين عذبوا في سبيل الله لا نرى منهم من خاف - بعد توحيد الله - من العبيد المشركين أحدا . وعندما نسير مع المسيرة الإسلامية لنرى مولانا الإمام أحمد بن حنبل ، والإمام أبا حنيفة ومالكا ، والشافعي وحسن البنا ، ومن سار على دربهم - نجد أن الإيمان عندما يخالط الضمائر ، ويتلبس بالنفوس ، ويمسك بالقلوب يجعلها فوق المادة ، وفوق الظلمة ، وفوق الخوف ، وفوق الدنيا كلها .

(١) انظر مسلم كتاب الإمامة باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة .

(٢) الذاريات : ٥٨ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

والجوع مصدر آخر من مصادر البلاء والفتنة ، ولكن المتوكل على ربه المتزود بالرجاء فيه ، يقول : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ ^(١) .

فالتقوى خير زاد ، وإن جاعت الأجساد . . فهي تشبع الأرواح وتطمئن القلوب ، وحينذاك تنزل السكينة . . ويرفع البلاء .

﴿ ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ .

فالأموال قد تضيع وتعوض . والأنفس تزهق في الدنيا لتلتقى مرة أخرى في الآخرة . . والثمرات ، إن قلت هذا العام تزد في العام المقبل . . ولكن الإيمان بالله لا يعوض . . وثواب الصبر لا يعوض ، وقد فطنت إلى ذلك امرأة من الصالحات القانتات حين فقدت ولدها وعظم خطبها ، وجاءها الناس يواسونها ويصبرونها ، فقالت لهم : « إن مصيبتى أقل من أن أجزع عليها » ، تعنى بذلك أن ثواب الصبر على المصيبة أكبر من أن تجزع عليها ، فصبرت .

وهكذا تتلقى قلوب المؤمنين الأقدار عن الله سبحانه .

وحين سئل الإمام الشافعي عن ثمانية أمور « واجب ، وأوجب . . . عجب ، وأعجب . . صعب ، وأصعب . . قريب ، وأقرب » :

قال : « من واجب الناس أن يتوبوا ، وترك الذنوب أوجب .

والدهر في تصرفه عجب ، وغفلة الناس عنه أعجب .

والصبر في النائبات صعب ، ولكن فوات الثواب أصعب .

وكل ما ترتجى قريب ، والموت دون ذاك أقرب » . وصدق الإمام الشافعي فيما قال :

فإن البلاء شديد . . . ولكن يهون منه الثواب المرجو من ورائه ، وذكرنا للموت ، الذي ماذكر في شدة إلا وسعها ، ولا في سعة إلا ضيقها .

وقد ورد في ثواب الاسترجاع ، وهو قول ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة ^(٢) .

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

فها هو ذا الله الواحد الأحد . . . صاحب السموات ورافعها بلا عمد . . . وصاحب

(٢) انظر : كتب السنة .

(١) البقرة : ١٩٧ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الأرض وباسطها ، وصاحب يوم البعث والحشر والنشور ، يقول : إنه يصلى على أمته التى صبرت ، وعلى عبده الذى صبر .

إن لحظة من صلاة الله على العبد ، هل تساويها الدنيا . . ؟ وهل تساويها أعمالك كلها وإن وزنت مثاقيل الجبال ؟ لا والله . . . ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

فهؤلاء أهل الهدى ، وأهل الخشية ، وأهل المودة والمحبة هم عباد الله المخلصون ، ينادون من رب العالمين . . ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ ^(١) .

﴿ إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

والطواف بين الصفا والمروة ميراث نبوى من عهد إبراهيم نبي الله وخليله عن هاجر زوجه - رضى الله عنها وأرضاها - .

وحين يطوف الحاج أو المعتمر بين الصفا والمروة سعيدا ضارعا إلى الله . . مظهرها ضعفه بين يديه سبحانه . . . متجردا من الحول والقوة . . ويتصور عظمة الخالق ، متأملا خلق السموات والأرض والجبال الرواسى ، التى فجر الله من خلالها الينابيع والآبار والأنهار والبحار والمحيطات ، مستشعرا فقره إليه ، وعجزه بين يديه - تزداد قوته فى السعى . . وتسرع منه الخطى ، ويشمر عن ساعد الجد ؛ فتتساقط كل شهواته ومعاصيه ، مع كل قطرة عرقٍ تخرج من جسده . . ويرق قلبه بين يدي الله - عز وجل - ويخف جسمه فارًا من عذاب الله إلى رحمته . . وتنزوى عنه نفسه الأمارة بالسوء ، وينحسر عنه شيطانه . . فتسمو روحه لتتلقى عن واهبها وملهمها معانى كثيرة للسعى الذى يقوم به أول ما يقوم بخشوع وامثال ورضا وتسليم ، فيتذكر أمه هاجر بانكسار كل مشاعرها ومواجيدها ، وانحسار كل حواسها نحو هدف واحد ، ترجوه وتسعى إليه . وبركة المكان الطاهر تنتقل إليه كل مشاعرها نحو الله ، فيصيح لسان الحق منه : « اللهم أنا أنا . . وأنت أنت . . أنا العبد وأنت الإله . . أنا المخلوق ، وأنت الخالق . . أنا الفقير وأنت الغنى ، أنا الدليل وأنت العزيز ، أنا الطالب وأنت المطلوب ،

(١) الزخرف : ٦٨ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أنا العائد وأنت المجير ، أنا المذنب وأنت الغفار ، أنا الراجي حماك ، الراضى برضاك ، المستنجد بعفوك ، وأنت الله الذى لا إله إلا هو .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ۖ أُولَٰئِكَ عَنَّا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

وجاءت هذه الآيات لتنزل بالوعيد الشديد . . وتصيب لعناتها الغاضبة من الله سبحانه . . وملائكته . . وكل خلقه . . على كل أفاك أثيم ، معتد على الحق ، مغير لطريقته . . وهم الذين يكتُمون ما أنزل الله سبحانه من الآيات البينات لهداية الخلق . . ومن هؤلاء أهل الكتاب ، الذين كتموا الحق الذى قرءوه فى الإنجيل وفى التوراة من خبر محمد - ﷺ - ثم أنكروا الحق وطمسوه عن الناس . . فهؤلاء ملعونون من الله الذى كتموا ما بين وجحدوا ما أنزل ملعونون من الناس الذين أضلوهم بغير علم .
إن أوامر الله - تبارك وتعالى - لا تمضى بمضى الأنبياء . . وليس من حق البشر بعد ما ينتقل نبيهم إلى الرفيق الأعلى - وقد بلغ ما أنزل إليه من ربه كله - أن تعبت أيديهم أو ألسنتهم فتضيف إليه حرفا ، أو ترفع منه حرفا . . ولما كان العلماء فى أمة محمد - ﷺ - هم السرج المنيرة والأدلة على الخير . . فقد كان أجرهم عظيما إن أحسنوا ، وكذلك كان عقابهم عظيما إن كتموا وبدلوا .

فمن استقام منهم ولم يجامل فى دين الله ولا بدين الله ، ولم يخش فى الله البشر ، ولم يخوفه قول طاغية ولا قوة ظالم . . ولا بأس طاغوت . . فهؤلاء مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ، أولئك العلماء الذين يقولون لأولياء الأمور : هذا أمر الله وأمر الرسول - ﷺ - وليس لنا أن نضيف إليه أو ننقص منه أو نبذل فيه . . فالزم مكانك كعبد لله . . فليس لك فى دينه من شىء ، وليس لنا كذلك معاصر العلماء فى دينه من شىء إلا أن نبينه للناس كما استأمننا الله عليه .

فهم إن فعلوا ذلك استغفرت لهم الملائكة ، واستغفرت لهم مخلوقات الله كافة .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أما الذين علموا الحق ثم كتموه مجاملة لحاكم ، أو هربا من المسئولية ، أو طمعا في الدنيا ، فهؤلاء عليهم لعنة الله ، ويلعنهم اللاعنون من الملائكة والمؤمنين الذين يغارون على أمر الله ، ويحرصون على هديه ، ويعملون بمنهجه سبحانه . .

على أن باب التوبة مفتوح أمام هؤلاء العلماء . وطريق توبتهم هي أن ينتقلوا من دائرة السلبية مع الخير ، إلى دائرة الإيجابية مع الله ، ومن يناصره .

وهم بولائهم المستأنف بعد التوبة ، وبيانهم للحق كما أنزله الله - قد وعدوا من الله - كرما وفضلا - أن يتوب عليهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم لأنه هو التواب الرحيم . . ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ^(١) .

أما أولئك الذين قست قلوبهم ، وصدوا عن سبيل الله ، وماتوا وهم كفار ولم يعلنوا خروجهم على الظالمين ، وانضمامهم لأهل الحق والدين ، ولم يرددوا أثواب عبودية الله ، وماتوا وهم يكتمون الحق واشتروا الدنيا بالآخرة ، ولم ييسر الله لهم توبة يحتضنهم بها بأنوار رضاه ورحمته ، ويكتنفهم في ستره ، فهؤلاء مطرودون من رحمة الله ، وعليهم لعنة الله وملائكته والناس أجمعين ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ .

وَاللَّهُ كُتُبُهُ وَحِيدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

بعد الدرس العظيم فيما هو واجب أن يكون ماثلاً وقائماً في نفوس وسلوك الذين يتصدرون للدعوة إلى الله ، يذكر الله سبحانه وتعالى أن ألوهيته تعم الخلق جميعا . . هو الله الواحد القهار . . وأنه المنفرد بالوحدانية وأن لا شريك له ولا صاحب ، وأنه هو الرحمن الرحيم ، الذي عمت رحمته الكون كله . .

فيالبؤس الذين لا يعيشون معنى الرحمن الرحيم ، ويالشقاء الذين لا يعتقدون أن إلههم إله واحد ، لا إله إلا هو .

يقول الشهيد سيد قطب ^(٢) في هذه الآية : « ومن وحدانية الألوهية التي يؤكد هذا التأكيد ، بشتى أساليب التوكيد ، يتوحد المعبود الذي يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة ، وتتوحد الجهة التي يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك ، ويتوحد

(١) النازعات : ٤٠ - ٤١ .

(٢) ظلال القرآن : ١ / ١٥٢ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

المصدر الذى يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين ، ويتوحد المنهج الذى يصرف حياة الخلق فى كل طريق .

وهنا - والسياق يستهدف إعداد الأمة المسلمة لدورها العظيم فى الأرض - يعيد ذكر هذه الحقيقة التى تكرر ذكرها مرات ومرات فى القرآن المكى ، والتى ظل القرآن يعمق جذورها ، ويمد فى آفاقها حتى تشمل كل جوانب الحس والعقل ، وكل جوانب الحياة والوجود . يعيد ذكر هذه الحقيقة ليقم على أساسها سائر التشريعات والتكاليف . ثم يذكر من صفات الله هنا ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ؛ فمن رحمته السابعة العميقة الدائمة تنبثق كل التشريعات والتكاليف . أهـ .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَارَ بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

هذه الطريقة فى تنبيه الحواس والمشاعر جدية بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون ، لنرى القدرة الماثلة أمامنا ، القائمة بين أيدينا كى نستدل بها على وجود من خلقها .

فهو سبحانه يدعونا للتأمل فى خلق السموات والأرض . فإن فى هذه السموات بنجومها ، وأبراجها وأفلاكها وما فيها من آيات عظمى من سحب وأمطار ورعد وبرق : لعبرة لكل معتبر . . . متدبر . . . متفكر . . من خلق هذا كله ؟ فرفع السماء بغير عمد ترونها ، وزينها بزينة الكواكب ، وحفظها من كل شيطان مارد ، وجعل الشمس فيها سراجا وهاجا ، وجعل القمر نورا لامعا ، وأجرى السحاب الثقيل بما يحمله من ماء ، وسير الرياح لتثير السحاب ، فتنزل المطر من السماء ليسقى بلدة ميتا . . . فيحييها ، وجعل الرعد مسبحا بحمده يثير فى النفس الرهبة . . . ويشعر بصفات الجلال والعظمة والجبروت . وهو الذى جعلها سبعا طباقا ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وجعل فيها الملائكة ، ينزلون منها إلى الأرض بوحيه وبشاراته ، . . فمن الذى خلقها ؟ ما من شك أنه هو الله وليس يقدر على ذلك إلا الله .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿ والأرض ﴾ . . وما فيها من جبال رواس ، وأنهار جوار ، وأودية مبسوطه ، وبحار مشقوقة . . وما فيها من إنس وجان ، وطير وأسماك وحيوان . . يختلف في الأشكال والألوان . . والزرع الذى يسقى بهاء واحد ، ويخرج مختلفا ألوانه يفضل بعضه على بعض فى الأكل . . وغير ذلك كثير .

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ يعقب كل منهما الآخر ويخلفه فى عظمة وجلال لا يخفى على أحد ، ويشهد وينطق بعظمة الله وجلاله - سبحانه وتعالى - .

وجعل الفلك تسير وتحمل ماشاء لمن شاء ، ولو شاء لأسكن الرياح فظلت الفلك رواكد على ظهر البحر . . إلا أن رحمته سبحانه تغمدت العباد على ظلمهم . . ووسعتهم على بغيهم . ولم تقتصر على عبادة المؤمنين ، ولكن عمت الناس أجمعين بالمنفعة .

كما أنزل من السماء ماء . . مسخراً . . لا يتعب فيه الإنسان ، ولا يجتهد من أجل الحصول عليه . . أنزل من السماء ماء طهورا إلى الأرض ، فأحيها بعد ما كانت ميتة . فاهتزت وربت ، وأنبئت من كل زوج بهيج . . وذلك حين ارتشفت الماء كما يرتشفه الظمان ، وهو يلهث . . فتطمئن نفسه ويذهب ظمؤه ، وهكذا الأرض تحيا عروقها بالماء . . وتخرج نباتا مختلفا ألوانه . . رزقا وزينة ، يبعث فى الصدر الانشراح لرؤيته ، ويحرك الألسن المؤمنة بالشكر لله رب العالمين سبحانه .

وقد صدق الله سبحانه حيث قال ﴿ وجعلنا من الماء كل شئ حى ﴾^(١) .

فكل ما على الأرض من نبات ودواب أصله الماء . . فمن الذى جعله نباتا مختلفا ألوانه . . ؟ ومن الذى صيره دوابً مختلفا أشكالها وأنواعها . ؟ ومن الذى أحاله بشرا سويا عاقلا ، متكلمي . ، ﴿ إله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ وتصريف الرياح ، بتحويلها من وجهة إلى وجهة . . وجعلها للعذاب تارة ، وللخير والمنفعة أخرى . . من الذى صَرَفَهَا ؟ ﴿ إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ !!

وهذا السحاب المعلق فى جو السماء - لا هو يصعد إلى السماء ، فيلتصق بها . ولا هو يهبط إلى الأرض فيسقط عليها ، إلا أنه مسخر بين السماء والأرض ، برغم ثقله حتى تأتيه الرياح ، بأمر ربها فتضرب بعضه ببعض لتحيله مطرا غزيرا ، من بعد ما كان ظلا ظليلا . .

(١) الأنبياء : ٣٠ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

من الذى سخره ؟ ﴿ أإله مع الله تعالى عما يشركون ﴾ .

نعم فى كل هذه الآيات أدلة قاطعة ، وبراهين ساطعة ، على صانع مبدع حكيم قدير ، فما هى حجة الذين ينتطعون ، وينصرفون عن تلك الآيات فيقولون « إنها الطبيعة !! » ؟ .

هؤلاء قد غلطوا مغالطة عجيبة . . إن كنتم لا تؤمنون بوجود الله لأنكم لا ترونه ، فما هى هذه « الطبيعة » التى تتكلمون عنها ؟ ما صفاتها ؟ هل رأيتها ؟ وكيف خلقت كل هذا وألفت بينه هذا التأليف العجيب . . ؟ !

ولنستعمل مع العقل الذى وهبنا الله إياه ، ولنقل لهؤلاء :

إن لم يكن الله - سبحانه وتعالى - قد خلق ، فمن الذى خلق . . ؟

فإما أن يكون الخالق هو أنتم . . وأنتم لم تدعوا ذلك ، ولا نحن .

وإما أن تكون المخلوقات قد خلقت نفسها ، وهى أيضا لم تدع ذلك .

وإما أن يكون خلقها فرد بعينه معلوم من الناس . . ولم نسمع يوما ما أن أحدا قد

ادعى ذلك . . فلا بد وأن يكون هناك خالق لهذه المخلوقات ، وأن يكون واحدا . .

قادرا . . عليا . . حكيما . . واسعا . . مدبرا . . يشهد كل خلقه بوحدانيته ورجوعه

إليه . وهو الله سبحانه وتعالى . وفى هذا يقول الشاعر :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وقد كان الأعرابى البسيط ، الذى يسير فى البادية ، يتتبع مواقع القطر ، ويسوق

الغنم ، أعقل حين سئل عن سر إيمانه بالله ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والأقدام

تدل على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل

ذلك على اللطيف الخبير ؟ !!

ولذلك فإن الله سبحانه يخاطب العقول . . ولكن ما الذى يجدى مع رءوس

خاوية . . مع من هم كالأنعام ، بل أضل سبيلا ؟ !!

﴿ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ ^(١) .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا

أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ

(١) الكهف : ١٠٤ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوَآتُونا لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبَرَّأَ مِنْهُمْ
كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ
مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿ومن الناس﴾ يعنى فريق من الناس ، ﴿من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله﴾ . وما كان ﴿من دون الله﴾ فليس مستحقا لأن يكون ندا لله فى أى شىء فكيف يكون ما هو دون الشىء نظيره ؟!! والله المثل الأعلى . . إلا أن هناك طائفة من الناس ، وهم من أشدهم ظلما وإثما وبغيا ، قد اتخذوا من دون الله أندادا . . يعنى نظراء ساووهم بالله - سبحانه وتعالى وأشركوهم معه - سبحانه وتعالى - إنهم أشركوا مع الله مَنْ دونه . . . ومادون الله يمكن أن يكون ملكا أو نبيا . . أو صالحا أو وليا . . كما يمكن أن يكون طاغوتا أو ظالما . . أو شجرا . . أو مطرا . . أو نارا . . أو طيرا ، أو حيوانا . . . أو حجرا . . أو وثنا ، أوقبرا . . وكل هذا ﴿من دون الله﴾ وكل قد ساووه مع الله فى الحب الذى لا يصلح أن يكون إلا لله .

فإن كانت مساواتهم بالله فى الحب للأنبياء والصالحين ، فليس الممنوع هنا هو أصل الحب ، ولكن كونهم جعلوا حبهم لهم مساويا لحبهم لله - عز وجل - حتى صيروهم أندادا لله - سبحانه وتعالى . فإن كان الحال كذلك فى حب الأنبياء والصالحين ، فكيف بحب غير هؤلاء من الظلمة والفسقة والطواغيت ؟

وقد سأل ابن مسعود رسول الله - ﷺ - : أى الذنب أعظم عند الله؟ فقال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . ^(١) ولذلك فقد عقب الله - سبحانه وتعالى - مبينا سبيل المؤمنين فى نهج المحبة ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ فهم لا يشركون به أحدا فى الحب ولا فى الخوف ، ولا فى الرجاء ولا فى الإنابة ، ولا فى الرغبة ولا فى الرهبة ، ولا فى الدعاء . . لأنهم يقدرونه حق قدره ويعلمون أنه هو سبحانه المستحق للحب لذاته وحده . . وحب من سواه متفرع من حبه سبحانه .

(١) جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود انظر البخارى كتاب التفسير قوله تعالى ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ . . .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فكيف نسوى في الحب بين الخالق والمخلوق ؟ وبين المعطى والآخذ ؟ بين القوى القادر، والضعيف الهازل ؟ بين الغنى أبدا والفقير أبدا .

إذا علمت ذلك ، تبين لك أن كثيرا من الناس قد تعلق بغير الله ، والتعلق بغير الله - سبحانه وتعالى - باطل ، فهو المستحق لها وحده ، إنه وحده هو الذى غدانا بنعمته . وغطانا بفضله ، وكل حب فإنما يأتى بعد حب الله ومتفرع منه ، كما أن كل عطاء إنما يأتى متفرعا من عطاء الله سبحانه . فلا يصح أن يتخذ الخلق أندادا من دون الله ، يحبونهم كحب الله أو أشد حبا ، حتى ولو كانوا أحب خلق الله إلى الله .

والذين ظلموا هم الذين تعدوا الحق إلى الباطل ، والهدى والرشد إلى الغى والضلال ، هؤلاء الذين لم تقدر قلوبهم على التعلق بالمحبوب الأعظم وحده ، فوقعوا في « شرك المحبة » متخذين من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله . لو رأى هؤلاء أنفسهم حين يرون العذاب وأن القوة لله جميعا ما كفروا به من قبل .

فالله سبحانه هو المقصود من كل وجه ، وليس بين المخلوقات - مهما كان شأنه - من يجوز له أن يكون ندا لله في أى شىء سبحانه له القوة جميعا .

هؤلاء كانوا يدعون دعاوى مختلفة - وكلها باطلة . . يقولون : نحن نعبد الملائكة فتتبرأ منهم الملائكة ، وكانوا يعبدون الجن ، فتتبرأ منهم الجن ، وكانوا يقدمون أوامر ملوكهم وكبرائهم على أوامر الله وأحكامه ، فتتبرأ منهم كبرائهم ، وهم فضلوا طاعة أخلائهم وأحبائهم في الدنيا على طاعة الله ، فوجدوا أن الأمر كما تصوره هذه الآية الكريمة : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾^(١) .

لقد تقطعت بهم الأسباب والأحساب والأنساب ، ولم يبق إلا العذاب ، وتمنوا الكرة ولكن . . هيهات هيهات ، فليس لهم اليوم إلا الحسرات . وما هم بخارجين من النار .

يَتَأَيَّهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾
إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوْءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

(١) الزخرف : ٦٧ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

لما بين - سبحانه وتعالى - فيما سبق من الآيات أنه الخالق وحده ، ولا ينازعه منازع فيما خلق ، وأنه المستقل بالخلق ، أخذ يعلن حكمته ويبين أنه المتكفل بأرزاق خلقه ، المدبر لأموالهم ، القاضى فى حاضرهم ومستقبلهم ، وأن لهم بفضله ومنه أن يأكلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ، وأن عليهم أن يخلصوا عملهم لوجه الله ، فلا يجعلوا للشيطان عليهم ولاية ، ويحرضهم سبحانه على أن يجتنبوا كل وسوسة منه ، وأن يتبعوا كل ما أمروا به من الله - سبحانه وتعالى - .

وينفر سبحانه من الشيطان ، فيقول ﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾ تحذيراً لابن آدم من شره . وقال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ ^(١) . قال تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾ ^(٢) .

نعم . . فكل معصية لله - سبحانه وتعالى - إنما هى خطوة للشيطان ، يقتفى أثرها ابن آدم ، فطوبى للتائبين بعد سيرهم على تلك الخطوات المظلمة . أما الشقاء فلهؤلاء الذين لا يزالون منغمسين حتى يوسدوا القبور ، والشيطان يأمرهم بالسوء والفحشاء . . فعلى كل مسلم أن يراجع نفسه حين يصبح على أبواب المعصية ، لعله يتذكر أن الشيطان هو الذى يأمر بالفحشاء ، لعله أن يحذره ، فيستعيذ بالله منه ، وهو سبحانه مجيره إن أخلص فى فزعه إليه سبحانه واستعانته به .

وعلى المؤمنين كذلك أن يحذروا الشيطان أن يوسوس لهم ، فيقولوا على الله ما لا يعلمون .

ومثل ذلك ما يقع فيه الناس من شطط . . وعدم احتراز من القول على الله بما ليس لهم به علم ولا هدى ولا كتاب منير ، مما لا يجوز . . وعلينا أن نتمسك بنص الآية أو الحديث وخاصة حين يكون الأمر متعلقاً بالله وصفاته وأسمائه .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا
ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا
كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

(١) فاطر : ٦ .

(٢) الكهف : ٥٠ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إن الذين يقتفون خطى الشياطين ، هم فى عمى عن الحق ، لا يسمعون ، وإن سمعوا لا يفقهون .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

لما كان الله طيبا ويحب كل طيب ، ولا يقبل إلا الطيب ، فقد دعا سبحانه عباده لما يحب ويرضى . دعاهم لأكل الطيبات ، ثم بين لهم أنه - سبحانه وتعالى - خلق الأرزاق ، وأرزاقه طيبة ، فعبادتكم إياه واستقامتكم على أمره : هى دليل إنابتكم إليه ، والشكر يصدر ممن يعترف لله بالألوهية والوحدانية ، وأولئك إياه يعبدون . . والذين يعبدونه ، أولئك الذين قدروا نعمته .

قال رسول الله - ﷺ - : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، - فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ^(١) - وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ . .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء ، يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ^(٢) .

وبعدما أحل الله لنا الطيبات أخذ يبين لنا ما حرم علينا من الخبائث . . التى فى اجتنابها منفعتنا ، وسلامة صحتنا . . . قال سبحانه :

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

والله أعلم بمصلحة عباده . . وهذه المحرمات معروفة لنا . . . فالحلال من الطعام : ما أحل الله ، والحرام : ما حرم الله . . وليس لنا فى ذلك قول . وهذه

(١) المؤمنون : ٥١ .

(٢) رواه مسلم كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

المحرمات لايباح للمسلم منها شيء إلا مضطرا ، ويستثنى من الميتة . . ميتتان : السمك والجراد ، ومن الدم دمان : الكبد والطحال .
إن الله غفور لمن اضطر ، وهو رحيم ، اقتضت رحمته بعبدته أن أباح له - عند الاضطرار - أن يأكل مما حرم عليه في غير وقت الاضطرار . ﴿ فمن اضطر ﴾ أى أكره على ذلك بغير اختياره . وعلى ذلك فالأكل عند الاضطرار : عزيمة ، لا رخصة ، فلصاحبها التقى الذى أقدم عليها أجر طاعة لنص من نصوص القرآن ، ولا يحل له أن يترك نفسه يموت جوعا . قال ابن كثير : « وقال وكيع أخبرنا الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال : من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار . وهذا يقتضى أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة . قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكنيا الهراس رقيق الغزالي فى الاشتغال : وهذا هو الصحيح عندنا كالإفطار للمريض ونحو ذلك » (١)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَهَ
بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

إن الذين كتموا ما أنزل الله من الكتاب ، إنما هم اليهود والنصارى لعنهم الله ، فقد كتموا صفات محمد - ﷺ - ، وإخبار الحق به فى التوراة والإنجيل خوفا على الدنيا التى فى أيديهم . فكأنهم أكلوا فى بطونهم نارا وهم لا يدرون .
أولئك الذين زين لهم الشيطان أعمالهم - حتى غفلوا عن الحساب والآخرة - فلا يكلمهم الله يوم القيامة . . ولا حتى يعاتبهم ، لأنهم لا وزن لهم عنده . . ولا يزكيهم ولا يطهرهم من رجس ما فعلوه ، لأنهم ﴿ اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾ . . . فما الذى دعاهم للصبر على النار ؟ . . على شدتها . . وما الذى دفعهم للإقامة على المعاصى التى يعلمون أن لا عقوبة لهم عليها

(١) ابن كثير ، ١ / ٢٠٦ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إلا العذاب الأليم ؟ ذلك أن الله أنزل الكتاب بالحق والبيان للناس فكنتموه واختلفوا فيه على علم ، فاستحقوا بذلك النكال والعذاب الأليم .

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ ١٧٧

آية شاملة . . جامعة لمعانى الإيمان ، والعبادات ، والتوحيد ، والأخلاق . . جعلت لطلاب المحبة في الله وأهل البذل فيه : علامات يهتدون بها ، فتحقق لهم وبهم العبودية الحققة لله ، يخرجون المال وهم محبون له راغبون فيه - بغير من ولا أذى - للفقراء والمساكين وذوى القربى ، واليتامى وابن السبيل ، وفي عتق الرقاب المؤمنة . وكل طريق يرجى به وفيه وجه الله . وما كان للإسلام استهانوا من أجله التضحيات ، واستصغروا فيها كل بذل .

فليس البر أن نولى وجوهنا قبل المشرق أو المغرب ، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، وإنما حقيقة البر في : الإيمان بالله وتوحيده توحيداً خالصاً ، ينتهى بنا إلى إرضاء الله سبحانه بطاعته وامتثال أوامره واتباع شرعه . وقد سبق^(١) بيان معنى : ذوى القربى واليتامى ، والمساكين .

أما ﴿ ابن السبيل ﴾ فهو المسافر المجتاز ، الذى قد فرغت نفقة سفره ، فيعطى مايوصله لمكان إقامته . كما يدخل في ذلك الضيف الذى ينزل بالمسلمين .^(٢) ونحن نتوسع فنقول : إن من أبناء السبيل في عصرنا هذا اللاجئ السياسى المضطهد ، لجهاده في سبيل عودة العزة للإسلام ، وبذلك يصبح هذا النوع في درجة المجاهدين ، وعلى المسلمين حفظ كرامته إن هو لجأ إليهم ، وفي ذلك عزة للإسلام والمسلمين .

أما ﴿ السائلين ﴾ فهم الذين يسألون الناس ، ويتعرضون للطلب منهم ، فإن كان

(١) انظر كتابنا هذا عند تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق » الآية : ٨٣ .

(٢) وانظر ابن كثير ، ١ / ٢٠٨ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

غير قادر على الكسب ، فحقه المال ، وإن كان قادرا فحقه قول معروف ، وهو الرد الحسن الجميل ، والحث على الاكتساب وترك المسألة ، ويكون ذلك باللين .

﴿ وفي الرقاب ﴾ يعنى فى عتق الرقاب ، ومنهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه بعدما كاتبوا سادتهم على مبلغ من المال يعتقونهم عليه ، فنراهم يعملون ويتكسبون من أجل الحصول على المال الذى يدفعونه ثمنا لحريتهم من الرق . . فعلى المسلمين مساعدتهم فى ذلك .

وهذا الباب من أبواب البذل فى الإسلام ، قد أغلق منذ زمن لعدم وجود الرقيق . وبعد أن عدد الله سبحانه أبواب العمل ببذل المال تطوعا على حبه والرغبة فيه ، قال : ﴿ وأقام الصلاة ﴾ وإقامتها تأديتها على يقظة نفس ، ووثوب قلب ، وإشراق روح ، وطهر جوارح فى صلاة تصل صاحبها بحبال المودة والصلة بالله ، والحضور الواعى ، لما يتلو من قرآن وما يذكر من تسابيح .

وبعد الأمر بإقام الصلاة مسبقاً ، ببيان أبواب البر الستة ، يبين الله لنا أن أبواب النفقة السابقة إنما كانت لأرباب الفضل والسعة والبر ، الذين يتقربون إلى الله تعالى بالعطاء - بعد الفريضة - لكل محتاج يصل إلى علمهم . أما الزكاة فتؤدى لبيت مال المسلمين ، الذى يقوم أيضا بسد حوائجهم ، فإن قصرت الزكاة فى ميزانية الدولة المسلمة أخذ من مال الصدقة ما يسد حاجة المحتاج ، وحاجة الجهاد ، وحاجة المصالح العامة . . وتصبح صدقة التطوع هنا برّاً يحبه الله ، ويحفظه لأهله .

والزكاة حق لله ، ودين يؤدى : ليس تفضلا من معطيه ، وإن كان له بها أجر عظيم . لكونها طاعة لله ، وحسن صنيع فيما استخلف فيه العبد . . وتفصيل ذلك فى سورة التوبة ، إلا أننا نجمل فنقول : إن الزكاة أمر مفروض ، وإن البر - بعد الزكاة - أمر مرغّب فيه ومندوب إليه لاكتساب محبة الله سبحانه ، والفوز برضوانه .

والصادقون مع الخلق ، المخلصون فى السر والعلن ، هم الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق .

أما من خان عهد الله وضيّعه فهو لأمانات الناس وعهودهم أضيع وأضيع . . لذلك فقد جاء الله سبحانه بالموفين بالعهد فى تعداد أهل البر .

وكذلك الصابرون فى المرض ، وعلى شدة العيش وقسوته ، والجهد المبذول فى سبيله ، وحين نزول المصائب ، وحين الدعوة للقتال والجهاد فى سبيل الله ، والدعوة لدينه . .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وقاموا بما أمروا به وعاشوا الأمر والقيام بصدق قلب وإخلاص قول ، وانطوت نفوسهم على أنوار قلوبهم ، فعاشوا يخافون الله ويتقونه ، فأمنهم مما خافوا ، وزادهم من فضله ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، وناداهم ﴿ يا عبادي ﴾ ^(١) فنسبهم إليه ، فهم السعداء لا يشقون ، ولا يشقى جليسهم . . إنهم الموفون بعهد الله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

والقصاص في القتل المسلمين : ويكون بقتل القاتل إذا كان متعمدا .
وإذا قبل أهل المقتول الدية ، وعفوا عن الدم والقتل ، فعلى من عليه الدية حسن الأداء .

وقد كانت العرب تقول « القتل أنفى للقتل » فجاءت عبارة القرآن ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ بالأبلغ والأفصح ، والأوجز ، وفي القصاص حياة حيث يهاب من يريد القتل أن يقتل « فيترك القتل » .

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوَصٍّ جَنْفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

وقبل نزول آيات الموارث ، كان من يرث ، هما الوالدين فقط ، ويوصى لمن شاء من بقية ذويه ، فلما نزلت آيات الموارث ، كان للوالدين ما فرض الله لهما ، كما للأبناء والأزواج ، والأقرب فالأقرب ، وأصبحت الوصية مقصورة على من لا يرث ، ولا تكون إلا في الثلث من المال فقط .

(١) في قوله تعالى ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ الآية : ٦٨ من سورة الزخرف .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إذن فوجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين : منسوخ بالإجماع ، بل منهى عنه بالحديث الشريف « إن الله أعطى كل ذي حق حقه ، فلا وصية لوارث » ^(١) .

فالمراث مفروض من عند الله لأصحاب الفروض والعصبات .

أما الأقارب الذين لا ميراث لهم ، فتجوز لهم الوصية من الثلث استثناسا بآية الوصية وشمولها .

والوصية مشروعة ، قل المال أو كثر ، لقوله تعالى : ﴿ إن ترك خيرا ﴾ فجعلها مطلقة ، دون تحديد أو تعريف . .

وللمورث أن يوصى ، وله ألا يوصى ، فإن أوصى فله أجر ، وإلا فما عليه ذنب . فقد ثبت أن سعداً قال قلت : يا رسول الله أوصى بهالى كله ؟ . قال : « لا » . قلت : فالشطر . قال : لا . « قال : فالثلث » . قال : الثلث ، والثلث كثير ، أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس ^(٢) .

والذين يبدلون في الوصية المتروكة ، فالإثم عليهم ، لا على من ورث ، وللميت أجره على ما وصى ، والله سبحانه « هو السميع العليم » بما حملت النفوس ، وحفظت القلوب .

ولا يحل تبديل الوصية لرؤية الأحسن أو الأصلح . .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

بعد أحكام القصاص والوصية ، تأتي أحكام الصوم تكليفا وإلزاما للذين هم برهم يؤمنون . ويعود النداء من الله - سبحانه وتعالى - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بمعنى يا أيها الذين آمنوا بي ، وصدقوا برسولي وكتبى ، وأخلصوا عبوديتهم لى ، إنى قد كتبت عليكم الصيام كما كتبه على الذين من قبلكم ، وافترضته عليهم .

(١) رواه الترمذى ، كتاب الوصايا ، باب « ما جاء لا وصية لوارث » وقال : حسن صحيح .

(٢) رواه البخارى - واللفظ له - كتاب باب « فضل النفقة على الأهل . . . » إلخ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وإن كان الله - سبحانه وتعالى - قد كتب الصيام علينا : فلم يكتبه إجهادا للمؤمنين ، ولكن تنقية للقلوب ، وتزكية للأرواح ، وتخليصا للنفوس من ضلالها وما يعلق بها وقربة وطاعة لملك الملوك .

والصيام هو الإمساك ، أو الامتناع : لغة ، وشرعا هو العبادة المقصود بها وجه الله تعالى بالامتناع عن الطعام والشراب والنكاح ، من قبل طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وبه تتربى الإرادة في الإنسان حين يوقن بقدرته على الإمساك عن شهواته . والجماعة المسلمة في حاجة إلى ذوى الإرادة : لترتقى فوق حاجة النفس بالصبر والاحتمال .

ولما كان المنع عن المباح محرماً نصف اليوم ، ومتاحاً في النصف الآخر ، ولما كان الصيام مشروعاً لشهر واحد من العام ، وليس في كل الشهور ، كان ذلك تعويذا للنفس على سهولة التلقى عن الله بروح الامتثال لأمره ونهيه ، وليس في ذلك أدنى مشقة على الذين يتلقون الأمر من الله ، بثبات العبيد ، الذين يعيشون يقينهم بالله الرؤوف الرحيم ، فلا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا يكلف نفساً إلا وهو بها رؤوف رحيم .

وبذلك يتلقى المؤمنون أوامر الله في الصيام وغير الصيام ، بالرضا والحب ، والقبول ، فيعيشون الصوم تفكيراً في ملكوت الله وعظمته ، ورقة في المشاعر والحس وشفافية في النفس ، وإشراقاً في الروح ، ومدداً يصلها بحضرة الحق سبحانه . فيعيش رقيق الوجدان والشعور ، محلقاً في عالم الذاكرين ، الذين لا يشغلهم عنه شهوة بطن ولا فرج .

والصوم رياضة بدنية وروحية ، تصح بها الأبدان والأرواح ، وتتربى النفس ، وتزكو القلوب ، فتنشأ مواجيد الأرواح المسبحة . ألا يحاكى الصائم من قبل بزوغ الفجر إلى غروب الشمس حياة الملائكة بروحه المسبحة ، السابحة في بحار الحكمة ، يغالب رغباته ونزعاته ، حتى صار رقيقاً شفافاً كأنه ملك يمشى على الأرض بين الناس؟!!

أما فضل الصوم وثوابه ، فإنما هو من علم الله سبحانه ، فالصوم نصف الصبر ، وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

والأيام المعدودات المقصودة في هذه الآية : إنما هي ثلاثة أيام من كل شهر ، وقد كان ذلك قبل فرض الصيام في شهر رمضان ، حيث كان صيام ثلاثة أيام من كل شهر مكتوباً على الأمم من قبلنا ، قال بذلك معاذ ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعطاء ، وقتادة ، والضحاك ، وقيل غير ذلك عن الحسن البصري حيث قال : « لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت كما كتبه علينا : شهراً كاملاً^(١) . »

و ﴿ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ ﴾ عددًا معلومًا ، وقال أيضًا بذلك : السدي ، وقد كان الصيام قبل النسخ - الذي سوف نبينه إن شاء الله - يعنى الامتناع عن الطعام والشراب والنساء ، من بعد صلاة العشاء إلى مثلها .

أما قوله تعالى ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ يعنى من شق عليه الصيام لعارض سفر أو مرض فأفطر ، فليقض ما فاتته من أيام معدودة ، حين ترفع عنه المشقة بزوال عارض المرض أو السفر .
﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامَ مَسْكِينٍ ﴾ .

يعنى من أطاق الصيام^(٢) فلم يصم ، فعليه فدية : طعام مسكين عن كل يوم أفطر إفتارًا وسحورًا مشبعين فيه ، حيث كان الأمر بالخيار ، من شاء صام ومن شاء أفطر ، وأطعم مسكينًا فأجزأ ذلك عنه ، وكان ذلك قبل النسخ^(٣) .

﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ يعنى من أطعم أكثر من مسكين فهو خير .

﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ حيث جعل الصيام بالخيار ، ثم ندب إليه ، لأنه تمام الخير حتى وإن أطعم المفطر فدية ، فلو أنه علم ثواب الصائمين لصام معهم ، ولم يبتغ عن الصوم بديلاً .

وظل الحكم كذلك تدريجاً للمسلمين على تعود الصيام حتى نزل قول الله تعالى :

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ

(١) انظر ابن كثير، ٢١٣/١ - ٢١٥ .

(٢) أى استطاعه ولكن بمشقة وصعوبة كالشيخ الهرم ومن فى مثل حاله من الضعف .

(٣) انظر فى نسخ هذا الحكم وعدم ذلك . . تفسير القرطبي ٢٨٦/٢ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرٍ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

نسخت هذه الآية : حكم الخيار في الصوم ، وأثبتت صيام شهر رمضان للمقيم الصحيح ، وبقي الإطعام بالفدية لمن لا يستطيع الصوم .

وقد شرع الله - سبحانه وتعالى - الصيام في شهر رمضان ، وخصه بذلك ، لأنه الشهر الذي نزل فيه القرآن ، فصار فوق كل الأشهر وجعله علما عليها وفيها .

ومما رفع شأن شهر رمضان كذلك أنه كان شهر مراجعة المنهج بكل تفصيلاته ، وبيانه بيانا متكاملا ، فقد كان جبريل - عليه السلام - يراجع القرآن الكريم مع رسول الله - ﷺ - مرة كل عام ، في شهر رمضان . وليس المراد هنا تلاوة القرآن فحسب ، فهذا أمر قد مكن الله تعالى منه نبيه - ﷺ - ولكن المراد مراجعة القرآن كتابا خاتما مهيمنا على كل الكتب السابقة له ، ناسخا لأحكامها ، متمما لها ، منشئا لشريعة الإسلام الذي هو دين الله : الذي قال عنه :

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(١) .

وفي العام الذي انتقل فيه الرسول - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى راجع جبريل - عليه السلام - القرآن معه مرتين .

وقد ورد في فضل رمضان أحاديث كثيرة ^(٢) .

والقرآن كتاب جامع ، مفصل لمنهج حياة الإنسان ، على مر الأجيال والأزمان ، فهو « هدى للناس جميعا » ثم هو « بينات » وعظات ، وحكم ، وأمثال ، وعلوم ، ومعارف ، وحجج ، وآيات قاطعة ، وبراهين ساطعة ، تفرق بين الباطل والحق ، وبين الحرام والحلال ، وبين الشرك والتوحيد ، وبين الظلمات والنور .

(١) آل عمران : ٨٥ .

(٢) تراجع في كتب الحديث لمن أراد التوسع .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وقال - ﷺ - : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غُبِيَ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » (١) .

ومن كان مريضاً أو على سفر من الرجال أو النساء ، أو كانت حائضاً أو نفساء : فصيام عدة من أيام آخر مثل التي أفطر فيها .

.. وذلك لأن الله تعالى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .

وهذا دليل على استحباب الأخذ باليسر ، وترك العسر موافقة لما يريد الله بنا .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشيء من الدلجة » (٢) .

إذ إن الله لم يفرض طاعة ، ولا حرم معصية إلا ليسر على عباده الحياة بكل ما فيها من خير ، فإن تقبلوا أمره ونهيه عن حب وطاعة ورغبة فيه ، أصبح كل أمرos لديكم يسيراً لا عسر فيه ، ببركة الطاعة ، والامتثال .

والأصل في الإسلام هو العمل لوجه الله ، فمهما قل العمل أو كثر ، ومهما أفطر الناس أو صاموا ، فكل ما يطلب منهم إنما هو الإخلاص ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ والله سبحانه حين يجد من عبده عملاً في طاعة ، يرزقه الله تعالى كمال الإحسان وجمال القبول ، ويسر عليه أداء ما فرض ، أو قضاء ما فات ، فيعيش وليس في قلبه أكبر من الله ، ويجد سعادته فيما هداه الله إليه .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

والله سبحانه حين يسأل أو يتغنى ، فإنما هو أقرب إلينا من حبل الوريد ولذا لم يقل « فقل إنى قريب » إذ فيها يخص الدعاء بالذات يؤكد الله - سبحانه وتعالى - : أن لا واسطة بينه وبين عباده ، حتى ولو بكلمة « قل » يوحىها إلى رسوله ، فهو المجيب مباشرة ، وبلا واسطة ، ولذا جاءت الإجابة شافية ، مصحوبة بفاء التعقيب والسرعة .

(١) البخارى ، كتاب الصوم باب « إذا رأيتم الهلال فصوموا .. إلخ » .

(٢) البخارى كتاب « الإيمان » باب « الدين يسر .. » .

سُورَةُ التَّقْوَةِ

﴿ فإني قريب ﴾ منهم ، مطلع عليهم ، مشرف على أعمالهم ، أسمعهم وأراهم ، وأشهد ضعفهم ، وأعلم حاجتهم ، ومن استجاب لأمرى منهم استجابة حب وخضوع ، وسعته برحمتي التي وسعت كل شيء ، واستجبت له وأعطيته فوق الاستجابة : المزيد والمزيد . وحين يلجأ أحدهم إليّ ويفزع بعضهم نحوى : يدعوني لأعطيه ، ويسألونني لأسترهم ، فإني عند ظن عبدى بى ، فليظن بى الخير ، وليوقن بإجابتى ، وليدعنى لأجيبه ، وليسترحمنى لأرحمه ، وليستجرنى لأجيره ، وليسألنى فأعطيه ، وليستهدينى فأهديه ، إني أنا القريب المجيب .

وللدعاء آداب كثيرة ، نذكر منها مثلاً : ترك الاستعجال ، فعن أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : « لا يزال يستجاب للعبد ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل .

قيل يا رسول الله ! وما الاستعجال . . ؟

قال : يقول : قد دعوت ، وقد دعوت ، فلم أرَ يستجيب لى ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء »^(١) .

ومن آدابه أيضاً العزم فى الدعاء ، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر لى إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه »^(٢) .

ومن آداب الدعاء : أن يختم الداعى بقول « آمين » .

وفى آخر الآية تقرير من الحق تبارك وتعالى ، بأن الذين يدعونه وهم يستجيبون لأمره ونهيه بصدق نية وإخلاص عمل ، مؤمنون به إيمان المستيقن بأن الله يشهده ويسمعه ، فإن الله مستجيب لهم ، وإنه ليرزقهم إيماناً به يحبه ، ويرضى به عنهم ، فيستجاب لهم ، لأنهم على الخير ، وبالحير يسألون الله .

وفى قوله تعالى : ﴿ لعلهم يرشدون ﴾ إشارة لطيفة إلى أن الذين يستجيبون لله ، ويؤمنون به يرشدهم ربهم إلى أفضل الدعاء ، فى أفضل الأوقات ، فى أفضل الأماكن ، على أفضل الحالات ، فيؤهلهم بذلك للاستجابة لهم ، وكما قال عمر بن الخطاب

(١) رواه مسلم ، كتاب الذكر ، باب : بيان أنه يستجاب . إلخ .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الذكر ، باب : العزم بالدعاء .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

- رضى الله عنه - : « إني لا أحمل هم الإجابة ولكنى أحمل هم الدعاء » . فهو يعلم أن من أرشد إلى الدعاء ، كان أهلاً للاستجابة ، بوعده من الله ، وأول علامات إرادة الخير بالعبد : أن يوفقه الله - سبحانه وتعالى - للدعاء ، وأول علامات غضب الله على العبد : أن يحرمه الدعاء ، وحلاوة المناجاة .

أَحْلَلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ
عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ
فَالَّذِينَ بَشَرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ
الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ
وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ

ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

حين فرض الله الصيام ، كان المسلمون يصومون من قبل طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، فيأكلون من المغرب إلى العشاء ، فإذا نام أحدهم في ذلك الوقت ، وفاته الطعام أصبح الطعام والشراب محرماً عليه ، حتى مغرب اليوم التالى ، فهم يأكلون ويشربون ويأتون نساءهم بين المغرب والعشاء ، وهذا هو وقت الإباحة ، وما عدا ذلك فصيام . روى أبو داود في مسنده قال : « وكان الرجل إذا أفطر فنام قبل أن يأكل لم يأكل حتى يصبح » . فشق ذلك على المسلمين ، ووقع بعضهم في مخالفات نتيجة ذلك ، منها : ما جاء في الصحيح من أن عمر بن الخطاب كان عند رسول الله - ﷺ - فتأخر حتى بعد العشاء ، فلما عاد إلى بيته ، وكانت زوجته قد أخذها النوم فجامعها ظناً منه أنها تتحيل بالنوم ، حتى لا يأتيها ، ولكنه تأكد فيما بعد أنها كانت قد نامت فعلاً ، فذهب يشكو أمره إلى النبي - ﷺ - .

وبينما عمر ومن معه من المسلمين ممن عجز عن المواصلة ، يشكون إلى رسول الله - ﷺ - والرسول مشفق عليهم ، تنزل القرآن يعالج الأمر برحمة من الله وفضل ، ويرخص لهم في الطعام والشراب وإتيان النساء من المغرب حتى الفجر ^(١) ، فقال تعالى : ﴿ أَحْلَلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ والرفث هو مجامعة النساء . وقيل

(١) انظر : القرطبي ٢ / ٣١٤ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مقدماته . ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ ﴾ يعنى هن سكن لكم ، وأنتم سكن لهن ، قاله ابن عباس . ﴿ عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ وذلك بإتيانكم النساء أو الأكل بعد العشاء ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ وفى ذلك عفو من الله ، ورحمة واسعة . ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ من الذرية الصالحة . ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ وفى ذلك إباحة للأكل والشرب بعد إباحة الجماع ، فى أى وقت من الليل شاء الصائم ، كما أن فيه استحباب السحور ، والندب إليه . والمقصود بالخيط الأبيض هو أول ضوء النهار ، حين ينسلخ من الليل ، وهو الخيط الأسود .

ثم يأمر المولى بالإفطار عند غروب الشمس ، ولا يصح التأخير .

وقد شرع الله سبحانه الاعتكاف فى المساجد ، وجعل له آداباً ، ومنها أنه يحرم على المعتكف مجامعة النساء ، وقد كان الرسول - ﷺ - يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله عز وجل - ثم اعتكف أزواجه من بعده .

ومن آداب الاعتكاف أنه لو ذهب إلى منزله لحاجة لابد له منها فليس له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك وليس له أن يقبل امرأته ، ولا أن يضمها إليه ، ولا أن يشتغل بشيء سوى اعتكافه .

ثم نهانا الله - سبحانه وتعالى - عن أن نقرب حدوده ، فكيف بانتهاكها ؟ . إن الله سبحانه يأمرنا أن نبتعد عن حدوده ، وألا نحوم حولها فمن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه ، والتقوى هى أن تدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس .

فنهى الصائم طهر كله ، ما بين ذكر ، وعمل لجمع الرزق ، وتأدية صلاة أو إصلاح فى الأهل وأخوة الإسلام . والصائم يتم صيامه باعتزال كل منكر ، فلا غيبة ولا نسيمة ولا حقد ، ولا حسد ولا عقوق للوالدين ، ولا ظلم لضعيف ، ولا كيد لقوى ، ولا مودة لفاسق إلا للعتة والتنبيه لأمر الله ، وبذلك يخرج الصائم من شهر الصيام وقد صهرته بوتقته ، فجعلت منه نمطاً فريداً فى الكمال . وهذا ما يحدث لمن عرف الصيام كما يجب ، وأداه بالكيفية التى يراد بها وجه الله ، فأعانه الله عليه ، وأمدّه بما يجعله يؤديه بحب وطاقه متدفقة .

وإن للصائم حياة فى الليل إذا أتم صيامه بالنهار تختلف عن غفلة الذين لا يدرون عن الصيام ، إلا أن يجوعوا ويعطشوا ، فإذا غربت الشمس انطلقوا إلى شهوة البطن

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

والفرج ، وهم لا يعون إلا أنهم انفكوا من قيد كان يحجزهم عن شهواتهم . إنهم يصومون صياماً يسقط عنهم الفرض ، وشتان بين عبادة تسقط ما علينا الله من دين ، وعبادة تفتح بيننا وبين الله أبواب القرب ومعاني العطاء ، من عالم الحب في الله والعيش فيه . نعم شتان بين عبادة المحب وعبادة المكلف المتململ مما كلف به . . شتان . . شتان بين الصائمين الحاضرين في حضرة الله ، يذكرونه ويذكروهم ، وبين صائمين متململين بجوعهم وعطشهم ، يطلبون ليلهم ليهيموا فيه على وجوههم في ملاهى الشهوات .

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا
مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِآلِئِمٍ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

نزلت هذه الآية في الرجل يكون عليه لصاحبه حق ولم يكتبه عليه ، وليس عليك فيه برهان ولا بينة ، فيجحد الحق ، فربما يذهب صاحب الحق والذي عليه الحق ليتخاصما إلى الحاكم ، أو القاضى ، فيقضى الحاكم أو القاضى للذى ليس له الحق ، ويهضم الذى له الحق ، فيضيع حقه بحكم القاضى وعلم خصمه . ﴿ وتدلوا بها ﴾ أى تقدموا بعضها إلى الحكام .

وقد ورد في الصحيحين ، عن أم سلمة : أن رسول الله - ﷺ - قال : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » (١) .

فالحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، فليس ما يثبت من حق بأمر القاضى حقاً حلالاً ، إلا إذا كان هو في الأصل كذلك ، والحرام مثله ، والقاضى يقضى برواية البشر وشهادة الشهود ، فويل لمحل الحرام بزور الشهود وبلاغة الحجة !!

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ
تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَآتَىٰ الْبُيُوتَ مِنْ
أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

(١) رواه البخارى : كتاب الأحكام ، باب : مرعظة الامام للخصوم .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : سأل الناس رسول الله - ﷺ - عن الأهلة ، فنزلت هذه الآية ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ يعلمون بها حل دينهم وعدة نسائهم ، ووقت حجهم .

فالله - سبحانه وتعالى - خلق الأهلة مواقيت ، تفصل بين الأزمان ، ويتبين بها الإنسان أوقات الليل والنهار ، والأيام والأشهر والأعوام ، وبها يتعرف مواقيت العبادة المختلفة ، من : صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج .

ولما كانت الأشهر والأيام محددة بمواقيت ، تعتمد على الأهلة ، فإن الأهلة ذات منفعة دينية - كما بينا - ودنيوية .

وقد رأينا في هذا المشهد المتكرر لسؤال الصحابة للرسول - ﷺ - عن الأمور التي تتعلق بحياتهم المختلفة عدة مسائل :

منها : حيوية المجتمع المسلم ، وعلاقته الوثيقة برسوله - ﷺ - ورسالته ، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة تمر عليه دون أن يربطها بهذا الدين الذى صار منهج حياتهم .

ومنها أيضاً : تخلى الصحابة - رضوان الله عليهم - عن كل علم تعلموه وكل خبرة مروا بها فى الجاهلية ، وكأنما هم للوهلة : يولدون وتولد معهم تصورات إسلامية ، وعلوم علوية ، ينسخون بها حياتهم ومعارفهم السابقة ، متحولين إلى حياة الإسلام ومعارفه .

ومنها أيضاً : حرص المجتمع المسلم على تعلم أمور دينه ، كحرصه على طعامه وشرابه وأكثر ، فلم ينتظر المسلمون أن يبلغهم الرسول - ﷺ - بكل ما يأمر به الله تعالى ، أو ما يتعلق بشئون حياتهم الجديدة ، فينفذونه عن حب وخضوع فقط ، ولكن كانوا يطلبون بأنفسهم أن يفصل فى أمر كذا وأمر كذا حتى تستقيم أحوالهم ، ويهدأ شوقهم ، وتطمئن قلوبهم إلى الحق المنزل من عند الله .

إنهم كانوا يسارعون فى الخير ويسعون إليه ، وفى هذا بيان لمدى تعلقهم بالله سبحانه ، وحبهم له ، وإيمانهم الوثائق به جل وعلا ، وكأنما راق لهم أن يكون بينهم وبينه رسول ونبي يوحى إليه من ربه ، وهم يسألون فيجيبهم وهو - ﷺ - ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى ﴾ ^(١) .

(١) النجم : ٣ ، ٤ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ .

وهكذا يبين الله لهم آياته ، فيجيبهم عما سألوا عنه من أمر الأهل ، فنسخ عادات الجاهلية بأحكام الإسلام في شتى أمور الحياة ، فلا يجيب السؤال وكفى ، ولكن يعطى المزيد والمزيد . فهو سبحانه بصير بأحوال عباده وحاجاتهم المتكررة لمعرفة أمور الإسلام ، فيعلمهم أن ليس من البر في شيء تلك التقاليد والخرافات ، إنما البر في الاعتدال وترك الأمور المريبة في مظهرها ، وملازمة تقوى الله ومخافته .

وفي حكمة عامة ، لا تزال تتداول بين الألسن ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ ، فتصرف النفوس الخبيثة عن كل فعل يؤتى من خلف الظهور ، ويسار فيه من غير الطريق المعروف المشروع ، فيتحايل من أجل الوصول إليه .

وبتقوى الله يكون الفلاح والتوفيق من الله تعالى : فاتقوا الله في كل أموركم ، وإياكم والابتداع أو التقليد ، لعلكم بذلك تفلحون وتصيبون الحق في أعمالكم ، فتنالون رضا الله - سبحانه وتعالى - عليكم .

ولقد كان المسلمون الأوائل يسألون عما يجهلون ، ويطيعون فيما يؤمرون ، كانوا يأخذون الأمر من الله في شتى شئون حياتهم اليومية بروح التسليم والإذعان ، ولذلك نجد الأمر بالقتال يأتى للمسلم وهو يرتل القرآن على سريره ، فيقوم وهو يرفع ثمرات إلى فمه فيلقفها ليسرع وينادى حى على الجهاد ، متنسماً روح الجنة عند مواقع النزال ، حتى لنرى أحدهم يقول : « إني لأجد ريح الجنة عند جبل أحد » .

يقول تعالى :

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمُ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ
أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمُ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمُ
فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِن أَنهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِن أَنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾

في هذه الآيات يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بقتال الكفار الذين يقاتلونهم ويخرجونهم

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

من ديارهم ، وقوله ﴿ في سبيل الله ﴾ تركيز على أمر النية ومشروعية القتال ، فليس القتال إلا من أجل عقيدة الإسلام وإعلاء كلمة الله في الأرض . وليس في سبيل الهوى وغاية الشيطان .

قاتلوا أهل الإسلام ، وأهل سبيل الله ، من صد عن دين الله ، وهاجمكم في عقر دياركم ، وأخرجكم منها ، وكمم أفواهكم ، ومنعكم من إقامة شريعة الله في أرضه . وكاد لكم كيذاً مكرّاً ليخرجكم عن دينكم ويصدكم عن سبيل الله . لا تتركبوا - خلال ذلك - المناهى التى تتعارض مع نيتكم الخالصة .

ومن المناهى : التمثيل بجثث الموتى ، والغلول ، يعنى السرقة من الغنائم ، وقتل الصبيان والشيوخ ، الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم ، والرهبان ، وأصحاب الصوامع ، وتحريق الأشجار ، وقتل الحيوان لغير مصلحة ، كما قال ذلك ابن عباس ، وعمر بن عبد العزيز ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم .

ويجاهد فيغزو في سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا فى كل مكان على وجه الأرض ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعتدوا ﴾ ليس معناه ، لا تبدءوا بالقتال ، ولكن لا تعتدوا على الذين اجتنبوا قتالكم ، أو التدبير له .

وعلى هذا يجب أن يفهم النهى المذكور .

ويدل على ذلك الجمع بين الآيات والأحاديث الواردة فى مشروعية القتال ، وهى كثيرة ولا يتسع الموضع لذكرها ، وفى الآيات التى نحن بصددِها الآن ما يؤيد ذلك .

والأمر بالقتال شديد على بعض النفوس ، وإن يكن محبباً إلى بعضها ، إلا أن الله - سبحانه وتعالى - يبين أن ما يقع فيه المسلمون من عدوان على حقوقهم فى الحياة واغتصاب لديارهم وأموالهم ، والكثير من الأذى الذى يحيق بهم : لا يحسمه إلا الجهاد ، فى سبيل الله ، ومقاومة كل من أراد الإسلام والمسلمين بسوء .

بل إن الذى وقع فيه المسلمون اليوم من فتنة فى الدين ، وتخبط فى الأمر ، إنما هو بسبب تركهم لهذه الفريضة ، التى يستقيم بها كل اعوجاج ، فقد صدق الله إذ قال : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ .

يقول الله تعالى للمقاتلين من المسلمين : حيثما وجدتم الكفار الذين يحاربون الله

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

ورسوله والمؤمنين ، وأخرجوكم من دياركم وخربوا منازلكم ، وفرغوا منكم أماكن جهادكم وساحات قتالكم ، ليحلوا فيها محلكم ، حق عليكم أن تتبعوهم حيث كانوا فتقتلوهم » وتخرجوهم وتشرذموهم ، حتى يتم القضاء عليهم » .

وأى فتنة أعظم من أن تكون العزة للكافرين على المؤمنين ، فيبدلوا دين الله ، ويعطلوا شريعته ، ويبغوا الفساد فى الأرض ، ويصدوا عن سبيل الله ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ .

ولذلك قال الله تعالى بعد ذلك ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ . وقد منع الله سبحانه المسلمين أن يبدءوا الكفار بالقتال عند المسجد الحرام ، فدل ذلك على أنه غير ممنوع فى غيره ، بل هو مشروع ومطلوب .

ولا تبدءوهم بالقتال عند المسجد الحرام ، حتى يكونوا هم البادئين لترتد عليهم فتنتهم عند البيت ويرتدوا إن شاء الله على أعقابهم خاسرين . وقوله تعالى : ﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾ .

ومن الانتهاء هنا : أن يتركوا القتال ويدخلوا فى الإسلام تائبين إلى الله ، والله غفور رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ، وقال إننى من المسلمين ، يرشده الله إلى صراط مستقيم ، فإن الله سبحانه لا يتعاضمه ذنب ، فلو ارتكب الكفار أبشع ما يستبشع فى حق الله سبحانه ، ثم عادوا إليه تائبين مستغفرين لغفر الله لهم على ما كان منهم ولايبالى .

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ
مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

عن ابن عباس وغيره : ^(١) أنه لما سار رسول الله - ﷺ - معتمراً فى سنة ست من الهجرة ، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة ، وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها فى السنة الآتية هو ومن معه من المسلمين ، وأقصه الله منهم ، فنزلت فى ذلك هذه الآية ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ﴾ .

(١) ابن كثير ، ٢٢٨/١ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فالأشهر الحرم : حرام القتال فيها ، ومنهى عنه إلا أن يبدأ غير المسلمين بالقتال فيها ، فعند ذلك يجب عليهم ردّ الاعتداء . وبين أعين المسلمين دائماً قول الله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ لأن تقوى الله تستوجب نصره ، فهم عباده الموحدون الذين قلوبهم بين يديه ، هو وليهم ومعهم ، وناصرهم ومؤيدهم .

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

هذه الآية تحث على النفقة في سبيل الله ، والتهلكة هي نتيجة الإمساك عن الإنفاق ، فالإنسان عندما يمسك عن النفقة على الجهاد في سبيل نشر الدين ، ومقاتلة المشركين ، ففي هذا هلاك ودمار لحياة المسلمين ، والإحسان هو الدعوة إلى الله ، والبذل فيه بذل النفس ، وبذل المال .

حيث يجب الله تعالى الذين يتقنون أعمالهم كلها ، سواء كان ذلك العمل بذلاً في سبيل الله ، أو جهاداً أو أمانة على أوامر الله بالفعل أو بالترك .

فالإحسان هو : الإتيان لكل ما يطلب من الإنسان لدينه أو آخرته بكل صورته الواسعة المتعددة ، حتى يكون بذلاً تارة بالمال ، وأخرى بالنفس أو بالعلم والمعارف في خدمة الدين وأهله في سبيل الله ، وكل ذلك إحسان يجب الله أهله ، ويغفر لهم ، ويكفر عنهم ، ويجزل لهم من عطائه وإحسانه ، قال تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ (١) ؟ .

وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١٦﴾

يبين الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآية الكريمة : أحكام الحج للذين أحصروا ، ومنعوا عن إتمام مناسكه ، وكذلك الأحكام لمن ﴿ تمتع بالعمرة إلى الحج ﴾ .

(١) الرحمن : ٦٠ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

ثم عقب تعالى على هذه وتلك بقوله ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾
أى : لمن خالف ما تبين ، أو ارتكب ما نهى عنه ، أو قصر فيما أمر به .

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ
وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَإِنْ خِذَ
الزَّادِ الْتَقَوْا وَأَتَّقُوا يَتَأْخُذَ الْآلَبُ ۖ

وهذه الأشهر هي « شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة » .

« فمن فرض فيهن الحج » فأحرم ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾ .

والرفث الجماع ، قال تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾^(١) وهو
يشمل مقدمات الجماع من الترغيب فيه والدعوة إليه بالكلام والتقبيل والمعانقة
والمداعبة .

والفسوق هو : ارتكاب ما نهى الله عنه .

والجدال هو : كل ما يدعو إلى نزاع ، وينتهى إلى مخاصمة أو مكابرة فيما أمر الله ،
سواء أكان ذلك في مناسك الحج أم غيرها .

وذلك لكمال صورة المحرم ، وجعلها في إطار التقوى واليقظة ، فالمُهِلُّ بالإحرام في
شهور الحج إنما هو كميت راحل عن الدنيا بين يدي مغسله ، فلا يرهب الخلق
ولا ينصرف إليهم ، بل ينصرف عنهم ليعيش أيام إحرامه في حضرة الله سبحانه ، يستمع
إليه ويدعوه ويستغفره ، ويرجوه ويكبره ويلبیه ، قلبه يستشعر وجود ربه ورقابته على
جوارحه من الدقيقة الأولى في إحرامه .

قال ابن عباس : « كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون نحن المتوكلون ،
فأنزل الله ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ يعنى لا تنسوا في سفركم هذا الزاد ،
وتذكروا سفر الآخرة واحملوا إليه خير زاد ، وهو التقوى ، والتقوى زاد المتقين ، الذين
يخافون الله ، ويخافون فيه الناس ، فيعملون دائماً على مرضاته ومرضاة الناس فيه ، فلا
يظلمون أحداً حتى لا يسألهم الله عنه ، ولا يصح أن يخرج قادر إلى الحج موفراً لماله

(١) البقرة : ١٨٧ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

معتمدًا على زاد غيره وعطائه ، وذلك أمر يقع فيه بعض أهل الإسلام . والله سبحانه يدعوهم إلى أن يستعملوا ما حباهم الله به من فهم وعلم وعقل ومال في تقواه ، حتى يكونوا حقًا من أولى الألباب وذوى الأفهام .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١١٨﴾

عن ابن عباس ، قال كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا في الموسم ، فنزلت ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم ﴾ أى فى موسم الحج .

ويجزئ الوقوف فى أى مكان من عرفة ، أما الوقوف عند الصخرات التى وقف عندها حضرة الرسول - ﷺ - فليس حتمًا ولا شرطًا لصحة الوقوف بعرفة ، وإن أمكن فهو حسن . وعلى الحاج فقط أن يصل إلى أى موضع من عرفات فى وقت محدد ، وهو مع أو بعد الزوال ، فيصلى الظهر والعصر جمع تقديم ، ويؤجل صلاة المغرب والعشاء ليصليهما فى مزدلفة لا بعرفة ، فالحاج يقف بعرفة من وقت الزوال إلى الغروب ، ثم يفيض من عرفات إلى مزدلفة ، لصلاة المغرب والعشاء ، ويبىث بها ليصلى الفجر عقب الأذان ، ثم يفيض مع الحجاج إلى منى لرمى جمرة العقبة .

والذكر هنا بمعنى استدامة الحضور بالقلب فى أداء المناسك : حاضرًا فى حضرة الله ، فى الصلاة ، وأثناء جمع الحصى ، يتأمل حكمة الأمر ، وجلال وجمال الامتثال ، ويظل مستغرقًا فى حضرة الله بالتكبير والتهليل والتعظيم والدعاء .

إن الإنسان - وخاصة الحاج - حين يتأمل نعمة الله عليه بالتوحيد ، وذلك الاجتناب الإلهى باعتراف الإسلام ، الذى لولاه لعاش الإنسان فى ضلاله القديم ، الذى سبق رسالة نوح بارتداد ذرية آدم عن الإسلام ، وكذلك الضلال الذى عاشه الكثير من ذرية إبراهيم بارتدادهم عن الإسلام ، وتحريفهم له فى صورة اليهودية والنصرانية ، ليعرف نعمة الله تعالى عليه ؛ إذ إن الحق تبارك وتعالى كرم أمة محمد - ﷺ - وأنقذها من الضلال ، ولم يكتبه عليها ، حتى لو ضل منها فريق قام آخر بالحق يذكر ، وله يجاهد ،

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فرضاً واجباً عليه ، حتى يقوم الدين كما كان بين يدي محمد - ﷺ - وأصحابه رسالة توحيد وعلم ، بدولته الحاكمة بما أنزل الله ، وأمتة العابدة النقية من الضلال ، ولعرف كذلك أن الإسلام سيظل بإذن الله تعالى واضحة طرقه وسبله ، خفاقة رايته ، عالية حكمته .

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

عن عائشة قالت : « كانت قريش ومن دان دينها : يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات . فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه - ﷺ - أن يأتي عرفات ، ثم يقف ، ثم يفيض منها . فذلك قوله ﴿ من حيث أفاض الناس ﴾ . وبذلك سوى الله سبحانه بين أهل مكة وغيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ^(١) .

وكما أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، كذلك لا فضل لقريشي على غيره من العرب ، ولا من الناس إلا بالتقوى .

فموقف الجميع : عرفات ، وإفاضتهم جميعاً إلى مزدلفة ، لا تمييز بينهم إلا بالأعمال ، ومراقبة الله وحبه وامثال أمره .

إن الله يربي عباده على شكر النعم ، وليس من نعمة أكبر من الطاعة .

والآن وقد تمت نعمة أداء المناسك والاقتراب من نهايتها برمي جمرة العقبة في صبيحة يوم العيد ، علينا أن نشكر الله تعالى على توفيقه . ومن أجمل الشكر - لغة وذكرا - الاستغفار ، لأنه مصحوب بتعظيم الله ، والاعتذار عما بدر من تقصير ، وإن لم يلحظه العبد أثناء نسكه ، وذلك عطاء من الله سبحانه لكل عباده ، والترغيب في الاستغفار في ذلك الوقت إشارة إلى أنه وقت رضا ، وإجابة للعبد من الله الغفور الرحيم .

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي

(١) الأنبياء : ٩٢ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٦﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا
وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٨﴾

كان الحجيج يقفون في مواسم الحج في ساحات التجمعات ، كعرفات والمزدلفة ،
وكل منهم يذكر مآثر آبائه وأجداده ، فيقول الرجل منهم : كان أبى يطعم ويحمل
الحملات ويحمل الديات ، كان أبى يقاتل فلا يهزمه أحد ، كان أبى كذا . . . إلخ
وليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فنهى الله عن ذلك التباهي ، وقال لهم : ﴿ فاذكروا
الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾ . اذكروا الله الذى خلقكم فسواكم ، فرزقكم حسن
الفهم والتقدير ، حتى أسلمتم له وجوهكم وقمتم له قانتين ، اذكروه أشد ذكراً من
ذكركم آباءكم ؛ فأباؤكم عباد أمثالكم لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً ، فالأولى بكم حين
تفرغون من أداء مناسككم : أن تذكروا الله بدل ذكركم لأبائكم .

وإن الذين تنسيهم الدنيا حياة الآخرة ، ليس لهم فى الآخرة من نصيب وذلك بما
نسيها وشغل عنها . أما الذين قالوا ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا
عذاب النار ﴾ ، فأولئك هم الناجون ، بطلبهم النجاة من الله ؛ طلبوا من الكريم
حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة ، فأعطاهم فى الدنيا طاعته ، وكل ما يعين عليها
وسيعطيهم فى الآخرة من النعيم والرضوان ما يستحقون .

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ
وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴾ ﴿٢٩﴾

الأيام المحدودات هى : أيام التشريق ، تبدأ بعد الإفاضة من المزدلفة ، فيرمى
الحجيج جمرة العقبة ، ثم يقيمون بمنى يومين ، ثم يفيضون إلى مكة فى اليوم الثالث .
ومن الحجيج من يرغب فى الإقامة بمنى حتى اليوم الرابع ، ثم يفيض إلى مكة .
وهذه الأيام يستحب فيها الذكر والعبادة . فهى أيام مباركة لمن تعجل ولمن تأخر .
وهى أيام رمى الجمار .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قال ابن عباس : « الأيام المعدودات ، أيام التشريق ، والأيام المعلومات ، أيام العشر » .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ
وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ
الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ
بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلَهَ الْهَادِ ﴿٢٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُشْرِي
نَفْسَهُ أَتَيْغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٧﴾

في هذه الآيات : صنف آخر من الناس ، يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد
الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام .

ونقول : إن الناس تجاه الله صنفان . . مؤمن بالله مصدق ، يعجبك قوله وعمله ،
وهو على ذلك الذي أعجبك منه ، وهو طيب ، يحبه الله ، ثم يحبه رسول الله - ﷺ -
وهو كذلك يحب الله ورسوله .

أما الثاني فمنافق ، أمره إلى الله ، لأننا لا نعلم بالتحديد مستور طويته ، ولسنا
بأنبياء يعلمنا الله بهم ويدلنا عليهم ، ولكن لنا منهم ما أظهروه ، ونكل بواطنهم إلى
علم الله ، إلا إذا عطلوا حدوده ، أو جاروا على أهل دينه ، أو أنكروا معلوما من الدين
بالضرورة .

وربما يعجبنا قول المنافق ، لأنه صاحب صنعة في الكلام ، وصاحب لحن بالحجة ،
وقدرة على الإقناع ، ولذلك فإن الله تعالى يحذرنا - في هذه الآيات - من أن نغتر بهم .

وقد تكررت مشاهد المنافقين من هذا اللون في عصرنا هذا ، غير أن الله تعالى ميزهم
بعلامات ، فنحن نعرفهم بها ، وفي الصحيح عن رسول - ﷺ - أنه قال : أربع من كن
فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى
يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر^(١) .

(١) رواه البخارى ، كتاب الإيمان باب علاقة المنافق .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إن هؤلاء المنافقين إذا انصرف أحدهم من حديثه ، سعى في الأرض بالفساد والتخريب .

وعلامات إفسادهم تظهر في الحرث والنسل ، حيث إن الله سبحانه بسبب إفسادهم يمحق من الحرث بركته ، أو يمنع القطر ويسلط الحشرات والديدان فيهلك الحرث والنسل (١) .

وهؤلاء لا يقبلون نصيحة ، ولا يتقون الله تعالى ، ولا يتواضعون لجنابه ؛ وذلك بما زين لهم الشيطان من سوء عملهم ، وبما تكبروا وتجبروا في الأرض بغير الحق ، فحسبهم ﴿ جهنم ولبئس المهاد ﴾ .

ومن سمات القرآن : إنه حين يتعرض لمواقف الظالمين نراه يجدد الحياة بعد ذلك ، ويشحذ الهمم وينتشل النفس المكدودة برحمة منه إلى عوالم الحق والخير ، وكما أن أولئك اعوجّوا عن الطريق ، فقد أقبل آخرون عليه يبيعون أرواحهم ابتغاء مرضات الله ، وهم لا يزالون يفعلون ذلك في جميع أنحاء العالم وعبر مراحل التاريخ ، وحتى تقوم الساعة ، يؤيدون دين الله .

والله رءوف بأولئك الطيبين الأخيار المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم ، العاملين على رفع راية الإسلام خفاقة في العالمين .

إنه رءوف بالعباد . . يغفر ما يقع منهم من سهو أو خطأ أو نسيان . بل ما يمتحنون به من الوقوع في معصية ما فيسارعون بالتوبة ، وهو سبحانه يعاجلهم بالمغفرة ، ويعالجهم بالندم ، فهم من بنى آدم ومعرضون بفطرتهم للإساءة والإحسان .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٨﴾

ومادام الخطاب قد وجه للذين آمنوا ، فمعنى ذلك : أن الله - سبحانه وتعالى - يدعو المؤمنين به للدخول في شرائع الإسلام جميعا .

كما يلاحظ أن معنى السلم هنا ليس المراد به الخروج من حالة الحرب ، أو عقد

(١) وانظر ابن كثير ، ١ / ٢٤٦ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الهدنات والمعاهدات والمصالحات بين المسلمين والكفار ، ولكن المعنى : أن على المسلمين أن يدخلوا في الإسلام ككل ، ولا يخلطوا بأعمال الإسلام عملاً من أعمال الجاهلية . فالسُّلم يعنى الإسلام ، وكافة أى اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر .

وكذلك على أهل الكتاب - الذين آمنوا وأسلموا - ألا يخلطوا بعقيدة الإسلام عقيدة من الإنجيل أو التوراة ، فقد نسخت جميع الشرائع بالإسلام ، وأصبح المطلوب من كل مؤمن هو الأحكام القرآنية فقط ، والأحكام القرآنية كلها .

واعلموا أن الشيطان يزين لكم الأهواء ، ويحسن لكم الأعمال ، ويزخرف الباطل ، وفى اتباعه الهلكة لكم فى دينكم ودنياكم ، فلا تتبعوه ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ .

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢١﴾

يعنى فإن رجعتكم عن الحق ، وغرتكم أمانى الشيطان من بعد ما بين الله لكم الحق من الباطل ، وعرفتكم عداوة الشيطان لكم ، فلا تلوموا إلا أنفسكم ، واعلموا أن الله ﴿ عزيز ﴾ لا يقهر ، قادر على أن يصيبكم بعذابه ويذيقكم أليم عقابه ، ﴿ حكيم ﴾ فى قضائه ، فلا يعذب جوراً ، ولا يحكم إلا عدلاً ، فىأيها الذين آمنوا أسلموا وجوهكم وقلوبكم لله رب العالمين بصحة الاعتقاد وصحة الاقتداء . .

وأقول : إن المسلمين اليوم مدعوون للدخول فى السلم كافة ، فقد صنع بهم الاستعمار والغزو الفكرى ما جعلهم يأخذون من الإسلام جانب العبادات فقط ، ثم يعطلون الأحكام . فليدخلوا فى وحدة إسلامية شاملة تعيد لهم مجدهم الغابر .

إن المسلمين فى أنحاء الأرض كافة : مدعوون إلى الدخول فى السلم ﴿ كافة ﴾ أى فى الإسلام كله ، لا يعطلون منه أمراً . . ولا حكماً . . ولكن يقيمونه كله ، كما أقامه محمد - ﷺ - وكما أقامه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وكما أقامه عمر بن عبد العزيز ، وكما أقامه الخلفاء الذين غزوا وفتحوا وانتصروا لله سبحانه .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ
الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وهكذا بعد كل إعلام عن الدخول في الإسلام ، أو الذود عنه أو الانتصار له ، يذكر الله سبحانه بالآخرة ، وأنه محاسب خلقه ومجزى المسيء منهم بإساءته والمحسن بإحسانه .

قوله تعالى :

سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١٤﴾

اسأل بنى إسرائيل عما جاءهم من آيات الترغيب في الله والترهيب من هيبته جلالة . إن الله - سبحانه وتعالى - أكرم موسى - عليه السلام - ليشهدوا على يديه بيان القدرة الإلهية بشق البحر - على سبيل المثال - إلى فرقين عظيمين ، كل فرق منهما يمثل جبلا من الموج تمسك به يد القدرة حتى اجتاز موسى وقومه .

لقد جاء الله سبحانه بذكر بنى إسرائيل في هذا الموقف ، لأنهم هم المثل البين في الإصرار على الكفر ، بعد العلم واليقين والشهود للآيات التي تخر لها الجبال سجدا . . من حين كانوا مع موسى ، وإلى يومنا هذا يضرب بهم المثل لكل إصرار على الباطل ، وعناد للحق . فقد أعرض كثير منهم عن الآيات البينات ، أى الحجج القاطعة ، وبدلوا نعمة الله كفرا ، أى استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها . وهذا حال القلوب المغلفة بظلمة الضلال والكفر : لا تعى ولا ترى ، ولا تحس أنها آيات بينات .

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١١٥﴾

لقد زين الشيطان ، وزينت القلوب الفاسدة والعقول المريضة للذين كفروا الحياة الدنيا ، وظنوا أنهم بعلوهم فيها وتجبرهم وسلطانهم الزائف الزائل : أنهم على شيء ، وألهاهم التكاثر والتفاخر بالأموال والأولاد .

هؤلاء جعلوا الدنيا أكبر همهم . ولم يكتفوا بإهلاكهم أنفسهم ، فراحوا يستهزئون ويسخرون بالمؤمنين وسعيهم من أجل الآخرة ، وإنفاقهم المال رخيصة في سبيل رضوان الله ، وهم لا يعلمون أن هؤلاء هم العقلاء حقا . . وهم الفطناء صدقا . وذلك لأنهم

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

محصنون بكتاب سماوى يتبعونه ، ويأتيهم رزقهم حلالا طيبا بأمر الله ، وإذا ابتلاهم ربهم بشيء من الخوف أو الجوع أو نقص من الأموال والأنفس والثمرات : تراهم في ظل صلوات الله عليهم ورحمته ، في سكينه واطمئنان ، راضين بقدر الله ، صابرين على ما قضى به .

هذا . . . و الله تعالى لا يعطى الشيء بالشيء . . . فهو منزّه عن مثل أعمال الخلق ، ولكن يعطى بغير حساب ولا مسألة ، ولا مبادلة ولا مكافأة . فإذا خاطب الخلق خاطبهم بما يمكن لهم تصوره بأن الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف الله إلى سبعمائة ضعف .

أما إذا جاء يوم الحساب ، رأوا « ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وأهل اليقين حين يعملون العمل لا يعملونه من أجل حسنة أو عشر حسنات ، ولكنهم يعملون العمل ابتغاء وجه الله ، وهم مشفقون .

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

خلاصة قصة الخلق والإيمان . . . وبيان لفضل الله سبحانه على عباده عامة بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وعلى المؤمنين خاصة بالهداية والانتشال من الضلالات والفتن . وذلك حين أمر الله تعالى آدم وزوجه بالهبوط من الجنة إلى الأرض ، قائلا : ﴿ اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾^(١) فلما هبطا إلى الأرض وسكن معهما فيها إبليس لعنه الله ، وتكاثر ذريتهما ، كانت أمة واحدة تعبد الله بما علمها آدم وحفظته عنه من الكلمات التى كانت دينه وشريعته

(١) البقرة : ٣٨ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

ومنهجه ، واستقامت الذرية في جماعة مسلمة منتظمة في طاعة الله - عز وجل - تحذر غضبه وتقوم بأمره . حتى جاءت جاهلية غالبية على منهج آدم الذي عاش به ، ووقع الشرك بالله .

وشاء الله أن يجدد للحق دولته ، ويزود عن منهجه ، فأرسل نوحا ، الذي عاش ألف سنة إلا خمسين يدعو للحق ويذكر به ، ثم جاء الطوفان ليزيل الباطل وأهله ، وليبقى الحق في نداء نوح وجماعته المؤمنة .

ومضت السنون ، وتراجع الناس عن الحق مرة أخرى ، وجاءت رسل تعقبها رسل تنادى الناس أن يدخلوا في ﴿ السلم كافة ﴾ كما كانوا مع نوح ، حتى جاء إبراهيم ، فأقامها حنيفية سمحاء ، ويأتى موسى ، ويعقبه عيسى ، والكل ينادى الناس كافة ، أن يسلموا وجوههم لله رب العالمين .

لقد انتكست أمة موسى ، وارتدت عن الحق ، وبعث الله عيسى لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة ، فخرجوا بدورهم على تعاليمه التي جاء بها لإصلاح ما أفسدوه من تعاليم التوراة . وقاوموا الإنجيل الذي أحل لهم بعض الذي حرم عليهم ، وبين لهم ما انحرفوا عنه من التوراة ، وبشرهم بالنبي الخاتم « الذي يفتح الله به قلوبا غلطا وأعينا عميا وآذانا صما » فحاربوه وأرادوا قتله ، فنجاه الله منهم ، ورفعهم إليه ، حتى جاء منتصف القرن السادس الميلادي ، وكان لابد من إيقاف اليهود عن إثمهم ، وإيقاف النصارى عن بغيتهم . . . فأرسل محمد - ﷺ - ﴿ شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ الكتاب ﴾ بصيغة المفرد إشارة إلى أن جميع كتب الأنبياء ذات مضمون واحد ، هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، ومهمة الكتاب مهمة واحدة وهى : ﴿ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ . فهو الحق الذي يجب اتباعه ، وهو الهدى . إنه كتاب ينادى باتباع الرسالات السابقة ، في غير تحريف ولا تبديل ، ثم جميع الخلق للدخول في ﴿ السلم كافة ﴾ والإيمان بأن الحكم لله وحده . . . وليحكم بالقرآن من آمن بالله ، فإن كلمة الله هى العليا . . . وكلمة الذين كفروا السفلى .

إن وظيفة الكتاب الأولى هى : الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف في

(١) الأحزاب : ٤٥ - ٤٦ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الكتاب إلا الذين جاءتهم رسلهم بمنهج الله . . مصحوبا بالآيات الدالة على صدقهم . وهم أهل الكتاب الذين نراهم اليوم يختلفون على القرآن المتمم والمهيمن على جميع الكتب والرسالات السابقة .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ
الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ
إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

بعد أن يسير المسلم في طريق الإيمان بالله تعالى ربا ، والاعتقاد بمحمد - ﷺ - نبيا ورسولا ، مراعيًا ما في الكتاب من الأوامر فيقيمها . . والنواهي فيجتنبها . . يبتلى بتمحيص الإيمان ، فمن صدق في إيمانه وإخلاصه لله ثبته وهداه ، ومن كان عابدا الله على حرف أوشك ، تبين زيفه وضعفه . .

قال ابن عباس ﴿ البأساء ﴾ الفقر ، و ﴿ الضراء ﴾ السقم ، و ﴿ زلزلوا ﴾ خوفوا من الأعداء .

وقد ورد في الحديث الصحيح عن خباب بن الارت ، قال : « قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدع الله لنا ؟ فقال : « إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه ، فيخلص إلى قدميه ، لا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ، لا يصرفه ذلك عن دينه » . ثم قال : « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تستعجلون » (١) .

فالمؤمنون بفرضية الجهاد ووجوبه ، لتطهير الأرض من وثنية المشركين ، وتمكين المؤمنين من العدل فيها . . لا يتعجلون النصر . . فالنصر مقدر من عند الله بأجل ، وثمرته اليقين بالله .

والذين كانوا على يقين بالله من الأمم السابقة ، علموا ذلك ، وقد كان الله سبحانه قادراً على نصرهم منذ اللحظة الأولى التي قالوا فيها مع أنبيائهم « لا إله إلا الله » ولكن مستهم كما مستكم البأساء والضراء ، وزلزلوا ؛ فالله سبحانه لا يعطى النصر والفوز

(١) رواه البخارى ، كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إلا بعد تمحيص وابتلاء ، فدخلوا معارك مع أعدائهم ، حتى قالوا رسلهم ﴿ متى نصر الله ﴾ . فنأتى الإجابة ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ .

وتلك سنة الله تعالى في الرسل ، وأتباعهم إلى أن تقوم الساعة .

وقد حكى الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم من أخبار الرسل وابتلاءاتهم وصبرهم عليها وعلى شدتها . . . هذا هو نوح يقول الله عنه : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ (١) .

وكذلك الأنبياء حين تحيط بهم عوالم البأساء والضراء والزلازل ، وعندها تتجلى قدرات الله ؛ فيناديهم ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

وهذه الآية توجب النفقة أولا على الوالدين ، ثم الأقرب فالأقرب مادام هناك سعة ومقدرة ، والله أعلم .

ثم ينبه المولى سبحانه على أن الإنفاق أعم من أن يكون بالمال فقط قائلاً ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أى فيجزىكم عليه أوفى الجزاء ، إذ يخلف عليكم في الدنيا ، ويكتب ذلك في ميزان حسناتكم . . ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ (٢) .

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

كتب الجهاد على المسلمين : فرضا واجبا لحماية حدود الأرض ، وحماية العقيدة ، والذود عن الإسلام ، وللتبشير به .

وقد ورد في الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، فقد مات على شعبة من نفاق » (٣) .

(١) القمر : ١٠ .

(٢) الشعراء : ٨٨ .

(٣) رواه البخارى في « كتاب الجهاد باب : لا هجرة بعد الفتح » .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وقال : « لا هجرة بعد الفتح . : ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » ^(١) .
 وقوله تعالى : ﴿ وهو كره لكم ﴾ إذ ربما تخافون الموت أو الأسر ، أو الهزيمة . ولكن
 ما أدراكم أنه ربما يكون لكم النصر ، فتفوزوا بالحسينين . .
 ثم يعقب تعالى بقوله : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ .
 فالإنسان لا يدرى أين الخير وأين الشر ؟ فقد يهزم ويفوز برضوان الله ، وقد ينتصر
 فيغتر ، فيقع فيما يهلكه من المعاصي بسبب غروره .
 والمؤمن التقى النقى يجعل اختياره دائما في اختيار الله ، وغضبه دائما في غضب الله ،
 وحينذاك يبلغه الله سبحانه ما يرضى ويختار ، ومن كان كذلك فهو في رضوان وعطاء
 عظيم .
 والله سبحانه يعلم وعباده لا يعلمون .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ
 أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا
 وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
 أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
 ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ
 رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

أورد الإمام ابن كثير ^(٢) . - رحمه الله - في سبب نزول هذه الآيات أكثر من رواية ،
 ونحن نختار منها ما قال العوفي عن ابن عباس « أن المشركين صدوا رسول الله - ﷺ -
 وردوه عن المسجد في شهر حرام ، قال ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام
 المقبل ، فعاب المشركون على رسول الله - ﷺ - القتال في شهر حرام ، فقال الله : ﴿ وصد

(١) رواه البخارى في « كتاب الجهاد باب : لا هجرة بعد الفتح » .

(٢) تفسير ابن كثير / ١ / ٢٥٢ - ٢٥٤ .

سُورَةُ التَّقْوَةِ

عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخرج أهله منه أكبر عند الله ﴿ من القتال فيه ﴾ .
 فالفتنة في البيت الحرام ، وإخراج أهله منه - أى الموحدين الذين دخلوا في عقيدة الله
 واستقروا على دينه ، وأرادوا تعظيمه في البيت الحرام - أكبر من القتل .
 وهؤلاء مصرون على قتالكم حتى ترتدوا على أعقابكم ، وتعودوا إلى الكفر بعد إذ
 هداكم الله سبحانه إلى الإسلام ؛ فاحذروا غضب الله .
 والذين يرتدون عن الإسلام منكم بعد الايمان به ، فيموتون على ذلك ، قد ﴿ حبطت
 أعمالهم ﴾ التى عملوها ﴿ في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .
 ثم يبشر الله - سبحانه وتعالى - الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا وقتلوا وأسروا : أنهم
 أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ
 وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ
 يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

أول آية تشير إلى الخمر في القرآن الكريم ، ولم تسبقها أية إشارة من قبل . فقد مرت
 فترة تربية العقيدة في مكة ، وتمكنت من القلوب ، وكان وقت نزول هذه الآية في المدينة ،
 حيث كان الحكم بالإسلام ، والحاكم فيها محمد - ﷺ - وأمته من حوله ، ودولته
 الحاكمة بما أنزل الله ، وبما يوحى إليه من الحكمة ، والمسلمون يسألون النبی - ﷺ -
 عما يعرض لهم من أمور دينهم ودنياهم . .

في هذه الفترة بالذات : تتفتح مدارك المسلمين كى يعوا أن الخمر والميسر ليسا من
 مصلحة الدولة المسلمة ، ولا الجماعة المسلمة ، فيسألون عنها من قبل أن ينزل الله -
 سبحانه وتعالى - فيها حكما ، ويأتى الجواب من الله تعالى : أن في الخمر والميسر إثما
 كبيرا . وفيهما منافع للناس ، إلا أن إثمهما أكبر من نفعهما . . .

أما الإثم الكبير ، فإيقاع الشيطان بهما بين المسلمين العداوة والبغضاء ، والصد عن
 ذكر الله وعن الصلاة ، وهذا أكبر إثم في الدين . .
 وأما نفعهما ، فدنيوى ^(١) . مثل بيعها والانتفاع بثمنها ، وما كان يكسبه بعضهم من

(١) انظر ابن كثير : ١ / ٢٥٥ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الميسر ، فينفقه على نفسه أو عياله ، ولكن هذه المصالح لا توازي المضرة والمفسدة الراجعة ، لتعلقها بالعقل والدين . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ (١) . قال الإمام أحمد عن عمر ، أنه قال : « لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت هذه الآية التي في البقرة ﴾ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ﴾ فدعى عمر ، فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التي في النساء ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ فكان منادى رسول الله - ﷺ - إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن الصلاة سكران .

فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التي في المائدة فدعى عمر ، فقرئت عليه ، فلما بلغ ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ قال عمر : انتهينا . . انتهينا » (٢) .

وهنا نقف مع ابتداء تحريم الحق - تبارك وتعالى - للخمر ، فقد كانت داء متمكنا من نفوس الناس ، فلما أصبحت هذه النفوس مستجيبة لما أنزل الله من الحق أخذوا يسألون رسولهم - ﷺ - عن أمر الخمر التي تذهب بعقولهم وبأموالهم ، وبصحتهم كذلك . فلما كانت هذه هي الإجابة . . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ ﴾ اندفع المؤمنون إلى التسابق في كسر أواني الخمر وإراقتها مقررين أن لا يقربوها . .

كانت قلوبا ندية . . تأخذ الأمر بتسليم يرتقى بالنفوس إلى عليين ، وكانوا صادقين في التلقى وفي العمل . . وما أجمل قولة عمر عند نزول آية المائدة : « انتهينا . . انتهينا » . والعفو . . الفضل . . وهو ما زاد عن معاش الإنسان ، عند المتقين الأخيار من ضرورات الحياة . . حياتهم ، وحياة من حولهم من المحتاجين . .

﴿ كَذَلِكَ يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ في الدنيا والآخرة . لعلكم تحسنون التقرب إلى الله بما لكم من خصال الخير .

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ أَنْ اللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ

(١) خلاصة ما قال ابن كثير في تفسيره : ٢٥٥ / ١ . (٢) المرجع السابق .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

« عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ^(١) و ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾ ^(٢) انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه ، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله - ﷺ - فأنزل الله ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم ^(٣) .

وفي هذه الآية جعلهم الله - سبحانه وتعالى - إخوانهم حين المخالطة ، فلا بأس من الأكل والشرب معهم ، مع التزام التقوى والجبر بخاطرهم وإشعارهم أنهم منكم ، والمحافظة على أموالهم . . وبين الله - سبحانه وتعالى - أن ما أخذ به المسلمون من قبل من التحرز عن مخالطتهم بنية الإصلاح فيه الخير ، ومن خالطهم كذلك بنية الإصلاح ، فلا بأس ولا جور . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمَفْسَدَ مِنَ الْمُصْلَحِ ﴾ . فهو سبحانه عليم بمن أراد لهم الإصلاح . . وبمن أراد بهم الإضرار ، وهو العزيز الحكيم ، الذي لا يظلم ولا يحب الظلم ، فكان حقا على عباده أن يتحروا العدل في اليتامى ، ويحرصوا على كرامتهم وجبر خاطرهم في أمر ما لهم وتعليمهم ، وتربيتهم وسلوكهم ودينهم ، ولهم بذلك أجر . .

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾

إنه تحريم صريح من الله سبحانه للزواج من المشركين من عبدة الأوثان ، فالمرأة والرجل على السواء . وإن كان الإجماع على إباحة التزويج بالكتابات .
وإني لأعجب للرجل من المسلمين ، يأتمن عدو دينه وعقيدته ، على فلذة كبده !!
والمسلم بزواجه من الكتابية (النصرانية أو اليهودية) يعرض ولده لتضارب شديد

(٢) النساء : ١٠ .

(١) الاسراء : ٣٤ .

(٣) ابن كثير : ١ / ٢٥٦ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

في الفكر ، حين تذهب أمه إلى الكنيسة ويذهب أبوه - إن ذهب - إلى المسجد .
ولذلك يخبر الله تعالى عن المشركين ويحذر منهم بقوله : ﴿ أولئك يدعون إلى النار ﴾
بفتنتهم في الدين وترغيبهم في الدنيا . . ﴿ والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ﴾ وذلك
لايتم إلا بخليل ناصح ، إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ
وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

يقرر الحق - سبحانه وتعالى - أن مدة الحيض : ﴿ أذى ﴾ للصحة ، والنفس ،
والمشاعر .

ولما كان الإسلام حريصا على سلامة المشاعر للزوجين ، والمحافظة على إحساسهما
النفسى ، فقد قرر أن يعتزل الرجل مباشرة زوجته الحائض ، ولتقتصر المعاشرة في هذه
الفترة على الحديث المتبادل ، والملاطفة والمداعبة ، دون الجماع .
﴿ ولا تقربوهن ﴾ معناها القرب الجنسي ، ولكن كل شيء في المعاشرة ما خلا ذلك
مباح ، خلافا لليهود الذين يعتزلون الحائض ، فلا يجالسونها ولا يؤاكلونها . ﴿ حتى
يطهرن ﴾ والطهر يكون بالاغتسال ، وليس فقط بانقطاع الحيض ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن
من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ .

نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأْتُوا حُرَّتْكُمْ أَنْ يَشْتُمْ وَقَدِمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

والنساء حرث لأنهن موضع الولد ، وهى متاع حلال للزوج يأتيها متى شاء وكيف
شاء ، على ألا يكون ذلك إلا في الموضع الذى أحله الله وفي الزمن الذى حدده الله .
﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ بفعل الطاعات ، وامتنال مانهاكم عنه من ترك المحرمات . .
فذلك يكون ذخرا في الآخرة . . ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ وسيحاسبكم على
أعمالكم . . ما أسررتم وما أعلنتم . ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الذين التزموا منهج الله في شئون
حياتهم كلها .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ
النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ
بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

يرغبنا الحق - تبارك وتعالى - في ألا نجعل الأيمان حائلا بيننا وبين وجوه الخير ،
فيقول تعالى لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من وجوه البر وصلة الرحم إذا حلفتكم
على تركها . فيجب أولا أن نتقى اليمين إلا إذا كان هناك ضرورة شرعية لها . . . وإذا
حلف المؤمن وجب عليه أن يبر بيمينه ، إلا إذا كان فيه قطع رحم أو منع خير عن
مستحقه ، فالأولى هنا التكفير عن اليمين ، حيث إن الاستمرار على اليمين آثم
لصاحبها من الخروج منها بالتكفير (١) .

وليس في لغو اليمين كفارة . . . ولغو اليمين هو مالا يعقد الحالف له نية ، ولكن
يأتى في حديثه دون قصد ، مثل قوله « لا والله . . . بلى والله . . . » يريد بذلك أنه صادق
فيما يقول .

﴿ والله غفور حلیم ﴾ سبقت رحمته غضبه ، وسبق حلمه بطشه . .

لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ
عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

والإيلاء لغة : الحلف ، وشرعا أن يحلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة .
ومدة الإيلاء : قد تكون فوق أربعة أشهر أو دون ذلك . فإن كانت أقل فله ذلك ،
وعلى الزوجة أن تصبر وليس لها مطالبة بالفيئة في هذه المدة . أما إن كانت أربعة أشهر ،
فما فوق ، فللزوجة حق التضرر وطلب الطلاق إن لم يفئ الزوج . . . فإن فاء الزوج وعاد
إلى مجامعة زوجته ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ لما سلف من التقصير في حقها بسبب
اليمين . ﴿ فاءوا ﴾ أى رجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهو كناية عن الجماع .

وإن أصروا على الإيلاء بنية الطلاق ، أو بتضرر الزوجة وتطليق القاضى إياها ﴿ فإن
الله سميع عليم ﴾ .

(١) ابن كثير : ١ / ٢٦٥ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وقد جعل الله سبحانه فرصة - للحالف - في العودة عن إيلائه أربعة أشهر ، لأنها أقصى مدة يمكن أن تحملها الزوجة في الصبر عن زوجها .

وعن عبد الله بن دينار ، قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه وأرقنى ألا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله أنى أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة - رضى الله عنها - ما أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت ستة أشهر ، أو أربعة أشهر ، فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك .

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

﴿ والمطلقات ﴾ اللاتي قد دخل بهن أزواجهن : عليهن العدة ، وهى الفترة التى لايجل هن الزواج قبل انقضائها . وعدة المطلقة ثلاثة قروء . . والقرء هو : الفترة ما بين الحيضتين من الطهر ، أو أن القرء هو الحيضة . والعرب تسمى الحيض قرءا ، وتسمى الطهر قرءا .

﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴾ قال ابن عباس وغير واحد^(١) المقصود هو « الحمل أو الحيض » ولما كان هذا الأمر يتعذر معرفته إلا منهن ، فقد أكد الله عليهن الأمر بعدم الكتمان ، وذلك بقوله : ﴿ إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ . وفى فترة العدة : بعولتهن أحق بردهن ﴿ إن أرادوا إصلاحا ﴾ ، للحياة فيما بينهما . وقانون الحياة الزوجية السعيدة : أن للنساء حقوقا وعليهن واجبات ، وكذلك الرجال . . ﴿ بالمعروف ﴾ أى دون تعنت ولا تكلف .

وعن جابر أن رسول الله - ﷺ - قال فى خطبته فى حجة الوداع : « فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألاّ

(١) وبه قال ابن عمر ، ومجاهد ، والشعبي ، والحكم بن عيينة ، والربيع وابن أنس ، والضحاك ، وغيرهم . انظر ابن كثير ١ / ٢٧٠ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن : ضربا غير مبرِّح ^(١) ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ^(٢) .

ويقول ابن عباس « إنى أحب أن أترين للمرأة كما أحب أن تتزين لى المرأة ، لأن الله يقول : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾ ^(٣) . ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ وهى الطاعة فيما لا معصية فيه . ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ عزيز فى انتقامه ممن عصاه ، وحكيم فيما أمر ونهى ، وشرع وحكم .

الطَّلَقُ مَرَّتَيْنِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢﴾

كان الرجل - فى أول العهد بالإسلام - يحق له أن يراجع امرأته فى عدتها وإن طلقها مائة مرة . . فكانت النساء يتضررن من ذلك . . فقصر الله الطلاق إلى مرتين ، يحل للزوج أن يراجع زوجته خلال فترتى العدة المتعلقة بهما . . فإن طلقها الثالثة ، فلا يحل له أن يراجعها فى فترة العدة .

فسمى المرتين الأوليين « طلاقا » وسمى الثالثة « تسريحا » وجعل الإمساك بالمعروف والتسريح مصحوبين بالإحسان مادام الزوج هو الذى قرر الطلاق .
ولا يحل للزوج أن يطلق زوجته مقابل مال يأخذها منها - من المال الذى أعطاه إياها كله أو بعضه - إلا أن يخاف ألا يقيم حدود الله فى زوجته ، من حسن العشرة والإمساك بالمعروف ، وذلك حال نشوزها عليه . . أو تخاف هى حدود الله ، فلا تؤدى حق زوجها ، وذلك مفهوم من قوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ وهذا مايسميه الشارع بالخُلْع ^(٤) . . وهو أن تطلب الزوجة الطلاق من زوجها نظير مال تدفعه إليه ، وهو « الافتداء » المذكور فى الآية .

(١) بتشديد الراء المكسورة : أى ضرباً لا يهشم اللحم أو يكسر العظم .

(٢) رواه مسلم . كتاب الحج ، باب : حجة النبي ﷺ .

(٣) ابن جرير . جامع البيان ٤٥٣ / ٢ .

(٤) بضم الخاء ، وباب الخلع فى الفقه غنى بالتفصيلات .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وقد حدث في زمن النبي - ﷺ - « أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي - ﷺ - فقالت : يا رسول الله ما أعيب عليه في خلق ولا دين ، ولكن أكره الكفر في الإسلام » . فقال رسول الله - ﷺ - « أتردين عليه حديقته » ؟ قالت : نعم . قال رسول الله - ﷺ - « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » (١) .

والأولى ألا يأخذ الزوج من زوجه أكثر مما أعطاه ، ولا أن يعضلها فيما لا تملك . طالما أنها قد طلبت الطلاق : مخافة ألا يقيما حدود الله .

﴿ تلك حدود الله ﴾ وشرائعه في أمر الطلاق ، ﴿ فلا تعتدوها ﴾ بغير ما أمر الله ، أو باقتراف ما نهى عنه ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾

أى إذا طلق الزوج زوجته الطلقة الثالثة ، فليس له أن يراجعها ، لأنها بانت منه بينونة كبرى . . إلا أن تتزوج هى بأخر بعد انقضاء عدتها ثم يطلقها من تلقاء نفسه ، كما يطلقها الأول . وحينذاك يرجع حكمها كما كان قبل أن يطلقها ، أى أنها تحل له إن طلقها زوجها الثانى .

ولا يكون ذلك إلا بأن يدخل بها زوجها الثانى ، ويجامعها بعقد صحيح . ومعنى أن يكون العقد صحيحا : أن يكون الزوج الثانى راغبا فى المرأة ، قاصدا لدوام عشتها ، كما هو المعروف والمشروع من التزوج ، وكذلك نية المرأة . . أما إذا نوى الطرفان أو أحدهما أن يحلل رجوع الزوجة لزوجها الأول ، فتكون باطلة فى حقه شرعا ، وإذا تم التصريح بذلك لا يحكم بصحة العقد ، ولا يجوز إبرامه . فإن طلقت المرأة بعد الزواج الثانى ، طلاقا عاديا ، لاستحالة الحياة بينهما . فلها أن ترجع إلى زوجها الأول ، وله أن يراجعها إن ظن كل منهما أنه سيعاشر الآخر بالمعروف ، وبما يرضى الله ، من إقامة حدوده المشروعة بين الزوجين .

وتلك هى أحكام الله وحدوده يبينها لقوم يعلمهم الله ، فيعلمون . . ويسمعهم فيسمعون ، ويأمرهم فيعملون .

(١) رواه البخارى . كتاب الطلاق باب الخلع .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِ أَجَلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدُوْهُنَّ أَوْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ
اللَّهِ هُزُوًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
يَعْظُمُ عَلَيْكُمْ يَدِّيرَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾

إذا طلق الرجل امرأته ، وقاربت العدة على الانتهاء ، فعليه أحد أمرين :
إما أن يمسكها بالمعروف ، فينوي عسرتها بما يرضى الله تعالى ، والقيام بحقوقها
كاملة . وإما أن يطلقها بالمعروف ، فيؤدى إليها متاعها ، ويرعى لها أولادها .
فلا ينبغي أن تراجعوا النساء فى عدتهن بنية الإضرار بهن ، ويكون ذلك لمنعهن من
التزوج بآخر ، أو الاعتداء عليهن ودفعهن إلى طلب الخلع ، لتعفوا أنفسكم من المتاع
عند الطلاق ، أو للحصول منهن على ماليس لكم فيه حق ، وغير ذلك من النوايا
السيئة المخالفة للقصد السليم من الرجعة ، وهو معاشرتهن بالمعروف ، وإقامة حدود
الله ؛ إذ إن ﴿ من يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ بمخالفته أمر الله ، وبتعريض نفسه
للعذاب الأليم .

ولا ينبغي - كذلك - أن تتحايلوا على أوامر الله أو تضعوها موضع الهزل .
وإنها لنعمة عظيمة : أن ينزل الله تعالى عليكم كتابا ويلهم نبيكم حكمة وسنة بها
تهتدون ، وعلى نورها تسيرون ، فاتقوا الله ﴿ واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ فهو عليم
بما أعلنتم فأخلصوا له ، وعليم بما أخفيتم فآخشوه ، يوم يحاسبكم على ما كسبت
قلوبكم وأيديكم .

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِ أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا
بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَُمْ أَزْكَى
لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

عن معقل بن يسار ، أنه زوج أخته رجلا من المسلمين ، على عهد رسول الله - ﷺ -
فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة ، ولم يراجعها حتى انقضت العدة ، فهو بها
وهويته ، ثم خطبها مع الخطاب ، فقال له : يالكع !! أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ،

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

والله لا ترجع إليك أبدا ، آخر ما عليك . قال : فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلاها ، فأنزل الله ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ﴾ إلى قوله ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ فلما سمعها معقل ، قال : سمعاً لربى وطاعة .^(١)

وذلك شرع الله فيمن آمن به وباليوم الآخر ﴿ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴾ من أن تأخذكم الحمية فتمنعوا الزوجة من زوجها ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ فكلوا أمركم كله إليه واستجيبوا له ، واعلموا أن الخير والحكمة فيما أمر الله تعالى به .

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا بِوَلَدِكُمُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلُ اللَّهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٢٣ ﴾

يقرر الحق تبارك وتعالى أن رضاعة الطفل تتم بحولين كاملين ، لمن أراد أن يتمها . وفي آية أخرى يقول تعالى ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ .

والإرضاع واجب على الأم لأولادها ، وحق الزوج على زوجته ، مادامت في عصمته . في حين أن الواجب على المولود له - وهو الأب - النفقة على الأمهات وكسوتهن بالمعروف ، وهو ما جرت عليه عادة مثيلاتهن من غير إسراف ولا إقتار ، على قدر طاقته وقدرته المادية . وإن لم تكن تحته وفي عصمته ، وأرضعت له مولوده وجب عليه رزقها وكسوتها أيضا . . وفي هذا قمة الرعاية لحقوق المرأة في الإسلام . .

ويقرر الإسلام : أنه لا يقر الضرر للوالدين أو أحدهما بسبب الأولاد ويضع قاعدة إسلامية غالية بهذه المناسبة وهي أنه ﴿ لا تكلف نفس إلا وسعها ﴾ .

وإذا أراد الأب أو ورثته الفطام ، أو اعتذرت الأم عن الإرضاع لمرض أو لأي سبب طارئ ، فلا جناح عليهما إن اتفقا على ذلك بعد تشاور وتراض بينهما . وانفراد أحدهما بالرأي لا يصح ولا يكفي في الفطام أو الفصال .

(١) رواه : الترمذی ، كتاب التفسير باب (٣) وقال أبو عيسى : حديث حسن صحيح .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وإذا أراد كذلك ولى أمر الطفل بالاتفاق مع أمه ، أن تقوم أى امرأة أخرى غير الأم بإرضاع الصغير ، فلا جناح على الأم ، ولا على ولى الأمر فى ذلك ، على أن يعطيها ولى الأمر أجر مدة الرضاع التى أَرْضَعَتْ فيها الطفل ، أو تعطيه الأم ما أخذت مقدما من مال الرضاع الذى لم توفه بعد .

والله سبحانه مطلع عليكم ، ومعاقبكم ومجازيكم فاتقوه واخشوا لقاءه ، فهو الذى يعلم ما تخفون وما تعلنون .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا
فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

وتقرر هذه الآية أن المرأة التى يتوفى عنها زوجها لابد وأن تعتد أربعة أشهر وعشرة أيام ، لا تكتحل ولا تتعطر ، ولا ترتدى ألوانا لافتة للنظر ، ولا تتزين بخاتم ولا قرط ولا عقد ، بمعنى أنها تترك ما يسمى بزينة المرأة ؛ فهى تستحم وتنظف نفسها ، إلا أنها لا تظهر بمظهر تبدو فيه أنها سعيدة منسرحة .

وبعد انقضاء عدتها ، لا جناح عليها إذا تزينت للخطاب ، وأعلنت رغبتها فى الزواج .

وهذا الحكم فى الزوجة التى دخل بها زوجها ، وكذلك التى لم يدخل بها زوجها .
ويسأل الناس عن أسباب كون العدة أربعة أشهر وعشرة أيام .

وهناك أسباب كثيرة ، منها تقدير العشرة والوفاء للرجل ، وتقدير بأن الإنسانية تدعو الإنسان إلى حفظ الذكرى والوفاء لها .

وهذه المدة بالذات محددة من الله تعالى لاحتمال اشتغال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجودا .

فإذا كانت حاملا ، ووضعت ولو بعد وفاة زوجها بثلاثة أيام ، فقد انتهت عدتها ، وعندها يحق لها الزواج . ولهذا فلا يحق لنا أن نعترض على المرأة التى تقضى فترة عدتها ، ثم تتزين بعدها وتخلع عنها ملابس الحزن ، أو أعلنت عن رغبتها فى الزواج . ولهذا فقد قال تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بالمعروف . . ﴿ الآية . وقد قال الرسول - ﷺ - : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت ، فوق ثلاث ، إلا على زوج : أربعة أشهر وعشرا » ^(١) .

وفي حديث سُبَيْعَةَ ^(٢) الأسلمية « أنها توفى عنها زوجها سعد بن خولة ، وهى حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، وفى رواية ، « فوضعت حملها بعده بليال » . فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك ، فقال لها : مالى أراك متجملة ، لعلك ترجين النكاح ؟ إنك والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابى حين أمسيت ، فأتيت رسول الله - ﷺ - فسألته عن ذلك ، فأفتانى بأنى حللت حين وضعت حملى ، وأمرنى بالتزويج إن بدالى » ^(٣) .

وسبحان الله العليم الخبير ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، يعلم أن للمرأة طاقة تحدد لها أمر العدة ، على قدر احتماها ، وربما تشد بعض النساء عن هذه القاعدة ، إلا أن القواعد لا تبنى على الشواذ ، والقاعدة هى ما قرر الله سبحانه وتعالى .

وفى قوله - ﷺ - فى الحديث السابق : « تزوجى إن بدالك » حكمة بليغة ، فلاحرج على من صبرت عاما أو أكثر أو العمر كله ، إلا أن القاعدة التى يجب الأخذ والتقيد بها ، ما قرره الله سبحانه وتعالى ونبيه - ﷺ - .

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ
عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا
مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

لا يجوز لأحد أن يعرض على المطلقة طلاق رجعية - فى فترة العدة - الزواج بها ، أو الرغبة فيها ، لأنها ما تزال فى عصمة زوجها .

(١) رواه البخارى ، « كتاب الجنائز باب إحيال المرأة . . » ، وكذا رواه مسلم .

(٢) بضم السين وفتح الباء ، وسكون الياء .

(٣) رواه : مسلم ، كتاب : الطلاق ، باب : انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

والتي توفي عنها زوجها لا يحل لأحد أن يصرح بخطبتها في فترة عدتها . إلا أنه يجوز له أن يعرض بالخطبة تعريضا . . . يعنى أن يلمح دون أن يصرح ، ومن أمثلة التعريض أن يقول : وددت لو رزقني الله امرأة صالحة . ويكون ذلك في حضرتها أو في حضرة أهلها . أو يقول لوليها لاتزوجها حتى تعلمنى ، وغير ذلك مما يمكن أن يتاح له من القول دون تصريح .

ولا جناح عليكم - كذلك - إن ﴿ أكنتم في أنفسكم ﴾ فلم تصرحوا ولم تلمحوا . بالنسبة لهذه وتلك . قد علم الله - سبحانه وتعالى - أنكم ستذكرونهن في أنفسكم ، أو لذويكم . . . فرفع الحرج عنكم فيما أخبرتموه ، ولكن حذرکم من أن تواعدوهن في السر . والمواعدة في السر مثل أن يصرح لها برغبته في الزواج منها في وقت العدة : سرا ، بعيدا عن أهلها وأوليائها . ومن أمثلة المواعدة في السر أيضا : أن يقول لها : عاهدينى ألا تتزوجى من غيرى ، ونحو هذا . . . فنهى الله عن ذلك .

ولا يجوز عقد الزواج إلا أن تنقضى العدة ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ فهو مطلع على سرائركم ، فاحذروا أن يقع عليكم غضبه أو يحل بكم سخطه . ﴿ واعلموا أن الله غفور حلیم ﴾ . بمن وقع في خطأ أو زل في معصية فليتب إلى الله ، وليعلم أن الله غفور حلیم .

أما وقد أصبحت الأحكام مفصلة والآيات واضحة وبينة فقد أصبحتم مسئولين عما فرض الله عليكم .

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُنَّ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُنَّ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

إذا طلق الرجل امرأته بعد العقد عليها ، وقبل الدخول بها ، . . . فهذا أمر جائز شرعا ، لا حرمة فيه .

ولكن نظرا لأن هذا الأمر فيه انكسار لقلب المرأة ، أمر الله تعالى بتعويضها وجبر خاطرها بشيء من المتعة ، على قدر المستطاع ، فمن كان قادرا متعها على قدر سعته وقدرته . وقيل أعلى شيء أن يمتعها بخادم ، وأقل منه الورق ^(١) [الفضة] ، ودون ذلك الكسوة . وقد متع بعضهم بخمسمائة ، وبعضهم بعشرة آلاف ، وهو الحسن بن على .

(١) بفتح الواو ، وكسر الراء .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وإذا اختلف الطرفان حول المتعة التي فرضها الله سبحانه ﴿ بالمعروف ﴾ وجب لها عليه نصف مهر مثلها . ولا يصح هنا أن نحدد ما لم يحدده الله ، وجعله متروكا للعرف الذي يسرى على الناس في زمانهم .

وهذا للمطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها مهرا ، فإن كان قد فرض لها . . فلها نصف ما فرض .
يقول تعالى :

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢٧﴾

فنصف المهر حق للزوجة التي تم العقد عليها ، وسمى صداقها ، ولم يمسها زوجها ، ثم طلقها ، إلا أن تعفو المرأة ، فتقول « لا أريد شيئا من مهرى » أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ، وهو الزوج فعفو المرأة وأهلها بالتنازل عن نصف المهر أو الرضا بأقل منه . وعفو الزوج بالعطاء والفضل « وذلك على أحد القولين ، أما القول الآخر أن من بيده عقدة النكاح هو الولي » ، فمعنى ذلك أن يسامح ويتفضل ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ .

وقد رغب الله في العفو ، لأنه الأتقى والأقرب إلى رضوان الله تعالى :
وهكذا يكون الإسلام قد ضرب المثل الأعلى في الوفاء ، حيث يأمرنا هنا بأن نذكر الفضل ولا ننساه ، حين يدب خلاف في الحياة الزوجية ، كما سبق أن أمر الزوجة بأن تعتد على زوجها : : « أربعة أشهر وعشرا » رعاية لحسن العشرة الزوجية السابقة ، فلا تنسوا ما كان بينكم من شعور طيب في لحظات المرض والفرح والألم . . حتى وإن دب الخلاف بينكم ، فارتفعوا فوقه بالفضل والإحسان ، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ .

وينتقل بنا الرحمن من قضية الطلاق وما يتعلق بها إلى الحديث الذي تطمئن به القلوب ، وتهدأ إليه النفوس ، وهو الحديث عن « الصلاة » بقوله :

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

سُورَةُ التَّوْبَةِ

جاءت هذه الآية التي توصى بالصلاة الوسطى ، لتتوسط الحديث عن الأحكام من قبلها ومن بعدها بما يرطب القلوب بندى رحمته ، وينظر إلى أحوالهم ويحفظهم بقيوميته .

وقد أوصى الله - سبحانه وتعالى - بالمحافظة على الصلوات كلها ، في أوقاتها وطهورها ، وقيامها ، وركوعها ، وسجودها ، وخشوعها .
ولكنه سبحانه خص الصلاة الوسطى بمزيد التأكيد .
واختلف حولها فقليل :

إنها صلاة الصبح ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ والقنوت إنما لزمه رسول الله - ﷺ - في صلاة الصبح .

وقيل : هي صلاة العصر ، واستدلوا بقوله - ﷺ - يوم الأحزاب : « شغلونا عن الصلاة الوسطى - صلاة العصر - ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا » ^(١) .

وقيل : هي صلاة الظهر ، وقيل : صلاة المغرب .

ونقول : إن الله تركها كذلك دون تسمية ، حتى يحافظ المسلمون على الصلاة كلها ، وأن بعضها أفضل من بعض ، والله أعلم .

والقنوت هو القيام واللبوء إلى الله ، والاستغراق في ذكره ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ^(٢) وهو انصراف كل بالروح والجسد والمشاعر ، واستغراق بالحس والوجدان بين يدي الله تعالى . ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ أى خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه .

والصلاة الصحيحة تشعر العبد بأنه قائم لله وذاكر له ومراقب لمرضاته ، وهي انخلاع الإنسان من صورة المادة التي حوله ، والتفرغ لذكر الله ومناجاته وعبادته ، فإن سجد سجد بقلبه وروحه وجسده ، وإن قام قام بقلبه متعلق بالله ، ويرتل ويسبح ، وكل كلمة تشق في قلبه طريقا شعوريا ووجدانيا يعيش من خلاله معنى ما يقول لله سبحانه .

وفي قوله تعالى ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ بيان أن القيام للتعظيم والتوقير والتقديس ، لا ينبغي أن يكون إلا « لله » سبحانه وتعالى ، فقد جعل الله سبحانه القيام والقنوت له وحده ، وذلك لأن فيه نوعا من العبادة التي لا يجب أن تكون إلا لله . وكما أن السجود

(٢) الرعد : ٢٨ .

(١) رواه البخارى كتاب المغازى باب غزوة الخندق .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

في الإسلام لا يكون إلا لله وليس لشجر ولا حجر ولا بشر ، ولا وثن ، ولا صورة ، فكذلك القيام والركوع والقعود الذي يحمل معنى التقديس والتعظيم . إذ كل ذلك من ألوان « الوثنية » التي نهى عنها الإسلام ومحاهها محوا . وأمثلة ذلك في مجتمعاتنا : القيام للقبور والطواف حولها والقيام لتحية أى رمز من رموز الوثنية القديمة والحديثة . ومن أمثلة في ذلك الانحناء لكبراء القوم ، أو بتحية الجمهور ، وغير ذلك من أنواع المبالغة في التعظيم والتوقير في الفعل أو القول ، وهو ما يتنافى مع قول « لا إله إلا الله » ويخالف قوله تعالى ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ .

فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَآلًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾

والخوف يكون أكثر ما يكون في حال الحرب والقتال .

وقوله « رجالا » يعنى على أرجلكم « أو ركبانا » يعنى على دوابكم ، أى فصلوا على أى حال كان رجالا أو ركبانا ، يعنى مستقبلى القبلة وغير مستقبليها . وليكن ذلك - أى صلاة الخوف - فى اتجاه القبلة إن أمكن ، وإلا ففى أى اتجاه ، وعلى أى حال تمكنكم من أداء الصلاة .

ولما كانت أهمية الصلاة بالغة الخطورة فى حياة المسلم ، نجد أنه يجب أن يصليها حتى وهو يحمل السلاح ، أو يقاتل ، يصلى ما دام قد حان وقت الصلاة . على أى حال . . وعلى قدر استطاعته ، ولو بركعة واحدة ، ولو بإيماءة .

وإذا حل الأمن ، وذهب الخوف فأتموا صلاتكم وأقيموها كما أمرتم ، فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وركوعها وخشوعها وهجودها ، واطمئنوا فيها ، كما علمكم الله وهداكم إلى ما به تبلغون رضاه ومحبه . فأدوا صلاتكم شكرا لله على ما علمكم ما لم تكونوا تعلمون .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦٧﴾

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

واختلف حول هذه الآية هل هى منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا . . ﴾ الآية وبآيات الميراث ، حيث « لا وصية لوارث » أو إنها غير منسوخة ، فيكون من حق الزوجة على زوجها بعد أن يتوفى أن تمكث فى بيته حولا كاملا ، ينفق عليها أهله إن أرادت ، ولها الخروج ، ولأجناح عليها ، ولها أيضا الزواج إذا انقضت عدتها ، إلا أن القول بالنسخ أقوى^(١) .

وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾

بهذه الآية : أصبح واجبا على كل عبد يخشى الله ويخافه أن يجعل لمطلقة متاعا بالمعروف ، وهو ما حكم به العرف الجارى فى زمانها ، وعلى مثيلاتها ، وهذا الحكم يسرى على جميع المطلقات ، سواء منهن المدخول بها ، أو غير المدخول بها ، من أنجبت ومن لم تنجب .

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

ها هى ذى الأحكام مفصلة ، والآيات مبينة بحكم الله بينكم فى الأمور التى قد تحكمون أنتم فيها عواطفكم ، قد تتسرعون فيها بغير الحق ، فسبحان الله الذى جعلنا حاكمين بأمره ، عادلين بحكمه ، محسنين بفضله .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

هذا الربع من سورة البقرة يحكى لنا فترة من الزمن عاش فيها بنو إسرائيل أمة مستعبدة ، مضطهدة ، منهارة ، فى قواها وفى حياتها النفسية ، بسبب ارتدادها عن الإسلام ، الذى هو دين الله .

وهذه الآية حول قصة من قصصهم ، حين ابتلوا بمرض الطاعون ، فخرجوا من ديارهم هاربين من الموت الذى يسوقهم إليه الطاعون .

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٩٦ ط الحلبي .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

والله - سبحانه وتعالى - يأمر عباده « أن يواجهوا المصائب إذا نزلت ، ويواجهوا المسئوليات التي ألقيت على عاتقهم » .
وقد هرب بنو إسرائيل من شدة نزلت بهم ، فعاقبهم الحق - تبارك وتعالى - ليريبهم ، فأراهم الموت موتاً كاملاً ، ثم أحياهم بفضلهم سبحانه ، فشاهدوا بالموت قدرته على الإفناء بكلمة « كن » وشاهدوا بالإحياء قدرته على البعث .
وكان حريّاً بنى إسرائيل - بعد أن رأوا هذه الآية العظيمة - أن يستجيبوا لأمر الله حين خاطبهم بقوله :

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

وإذا كان الفرار من الطاعون لم ينجهم من الموت . فإن القعود عن الجهاد : لا يطيل العمر . . . لكنهم لم يفعلوا .

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

وفي هذه الآية يحث الله عباده على الإنفاق في سبيله دون خوف من الفقر ، لأن الله هو الذى يقدر الأرزاق .

وهذا مشهد آخر لقصة أخرى من قصص بنى إسرائيل بعدما نودوا ليعيشوا يقظة الضمير المسلم والروح المسلمة :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

وكلها أمثلة تدفع إلى ذم الجبن والخوف من الموت ، وتقوى يقين المؤمنين بأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وتدعو إلى الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وهذا المثل للملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، قالوا لنبي من أنبيائها بعدما انقضت فترة من الحياة عاشوها بغير نبي يعلمهم : ﴿ ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ﴾ . فقال لهم نبيهم ﴿ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ . . هل عسيتم إن استجاب الله لكم ، فبعث فيكم ملكا وكتب عليكم القتال ألا تقاتلوا فتراجعوا وتخلفوا وعدكم مع الله ؟ .

قالوا : ﴿ ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ .
فماذا كان منهم بعد ؟ وما المتوقع ؟ :

﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ﴾ .
لقد أحسوا الأمن ، فقالوا نحن مع الحق ، ولما أحسوا بالخطر على أموالهم وأنفسهم هربوا من ساحة الواجب ، وتقاعسوا ، وتأخروا وبدت صورة الجبن تطغى على وجوههم وعلى قلوبهم ، وعلى ضمائرهم . لقد تراجعت الكثرة وبقيت جماعة مباركة رغم قلتها حول النبي .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

أى لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكا منهم ، فعين لهم (طالوت) ، وكان رجلاً من أجنادهم ولم يكن من بيت الملك فيهم ، فأخذوا يناقشون النبي فيما اختاره الله لهم : لماذا طالوت بالذات ؟ إن فينا من هو أعرق نسباً منه ، ومن هو أغنى وأحق منه ، كيف تؤمر علينا رجلاً من دون مقام بسط الملك فينا .

لقد كانوا يحسبون للعدو الدنيوى شأنًا ، والنبي فيهم يذكرهم بأن الله - تبارك وتعالى - إنما هو صاحب الأمر ، وهو الآن يأخذكم إلى تجربة تربوية ، فليس العبرة بالجاه ولا بالمال ، ولا بالشهرة ولا بالأصل . إنما الأمر يقوم عند الله على حقائق النفوس المتعلقة بالله ، وبشريعته وحكمه ، ولقد أنعم الله على طالوت فاصطفاه من بينكم ، واختاره - على علم بأنسابكم وأموالكم - وزاده بسطة في العلم : زاده علماً لم تفوزوا أنتم به ، وفي الجسم وهبه قوة لا تغريه فتزديه .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

بعدما أخبرهم نبيهم بأن طالوت هو الملك ، أخبرهم أن آية ملكه أن يرد الله عليكم التابوت ، الذى كان قد سلب منكم حين سلبت مقدساتكم عندما افترقتم عن الحق وانتكستم عن الطريق ، بهجركم لشريعة التوراة ، وترك الحكم بينكم بما أنزل الله . وإن من بركة طالوت : أن يأتيكم التابوت ، وهو أقدس مقدساتكم ، محمولا على رؤوس الملائكة ، وبه الألواح التى نزلت على موسى بالوصايا . وبقية من صحائف التوراة ، وبعض ملابس موسى وهارون - عليهما السلام - ، وحينذاك تمتلئ قلوبكم بالسكينة والهدوء والطمأنينة ، وستسكنون إلى الله سكونا يجعلكم لا تخافون الدنيا كلها مجتمعة عليكم ، وأنتم تحت قيادة طالوت الملك ، الذى اصطفاه الله عليكم ، وستخاف الدنيا كلها منكم ، ذلك أنكم الآن معكم الدليل على أن الله معكم .

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةٌ يَّاذِنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

إنه ابتلاء آخر ، للجيش ، إن الله لا يريد الكثرة لذات الكثرة ولكن يريد القلة المبارك فيها ، القلة المخلصة ، وبها يهزم الكثرة الكثيرة ، إذ كان يمكن أن يسير الجند إلى القتال بلامشاكل ، بلا بلاء ، ولكن قدر الله أن يصفىهم ويميز الفئة الصابرة التى تستحق محبة الله وتأيده . لقد اطمأنت الجماعة - وخاصة بعدما جاءهم التابوت واستقر في وسطهم محمولا بأجنحة القدرة لا يرون من يحمله ، ولكن يأتى محمولا من السماء ثم يكون في وسطهم - لقد استكانوا وعلموا أن كلام النبی إنما هو الحق ، وأن

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

طالوت هو العبد الملك المختار ليقودهم ببركة من الله - سبحانه وتعالى - فقيادته لهم ستكون مباركة . ولكن طالوت بما أوتي من علم لم يكتف منهم بهذا ، فلما اتجه بهم إلى ساحة النزال مع العدو أخذهم إلى درس تربوي جديد في اختبار الإرادة .

إذ قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَبْتَليكُمْ بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم ﴾ .

وقد ارتقى الكثير منهم على الماء باشتهاء ونهم ، تدفع إليه نفوس لا تقدر على الثبات عند القتال ، إنهم يضررون بالجيش أكثر مما ينفعونه . لابد إذن أن ينفصل هؤلاء عن صفوف الجيش تطهيرا له ! وفعلا كانت هذه التصفية الأخيرة في الجماعة المسلمة !

وحينذاك أصبح جند طالوت عددا قليلا . فلما جاوزه هو ومن معه ، صار جيش جالوت الظالم في مواجهة جيش طالوت . . . القلة التي اجتازت كل الاختبارات ، كما اجتازت النهر . . . إنهم الخواص ، فماذا قال الخواص ؟ : ﴿ قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ . إننا اليوم عدد قليل ، قد أنهكه السفر والتعب والجوع والعطش ، أنى لنا اليوم بجالوت وجنوده ؟

وهنا تظهر صفوة الصفوة ، وينكشف خواص الخواص ، الذين تعلق قلوبهم بالله ولقائه ، والذين يعتقدون أن المؤمن لا يقاتل بنفسه ، وإنما يقاتل ونور الله في يديه وفي عينيه . المؤمن يقاتل وتقواه تدفع به إلى الأمام ، والله معه .

الصفوة هؤلاء ، قال الله عنهم : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين ﴾ .

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

ثم ماذا قال صفوة الصفوة ، حين برزوا لجالوت وجنوده . . ؟ ولنتخيل إنسانا اشتد عليه الحر ، فأخذ بقربة ماء فأفرغها على نفسه ، لقد قالوا ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا ﴾ فأفرغ الله عليهم الصبر وحب الجهاد في سبيل الله .

ثم قالوا ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ أى في لقاء الأعداء ، وجنبنا الفرار والعجز ، ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ أصحاب تلك الجحافل من جيوش المعتدين على شريعتك ودينك وأرضك ، فانصرنا عليهم نصرا مؤزرا ، وثبت أقدامنا وأهلكهم يارب العالمين .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

هكذا دعت الجماعة المؤمنة من بنى إسرائيل على جالوت وجنده ، فماذا حدث ؟

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ
وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾

إنهم قد هزموهم بإذن الله ، أى غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم . وليس هذا وكفى .
لقد قتلوا قائدهم . ومن الذى قتله . عبد من عباد الله ، كرمهم الله جميعا باصطفائه
من بينهم ، ليكون أول ملك نبى . إننا فجأة نرى داود ، نراه معنا منذ بداية الرحلة إلى
نهايتها فتى فى ريعان شبابه . . . يتدفق منه النور والإيمان ، وسط هذه القلة
المؤمنة ، التى حاسبت نفسها من قبل ، فقالت : لن نعيش أذلاء فى أرضنا ، مفارقين
لشريعتنا . والحق أنه نابغة القلة المؤمنة ، التى جردت بابتلاء النهر ، وصفوة الصفوة
التي نصحت لله . ثم قتل داود جالوت القائد فكافأه الله تعالى ، بأن آتاه الحكم
والحكمة ، والعلم الربانى ، والعلم الدنيوى ، وعلمه مما يشاء .

لقد وقع جالوت قتيلا ، واقتحم جيش التوحيد صفوف جالوت وجيشه . انتصر
شباب الإيمان المعتدى عليه ، على الطاغوت وجنوده ، وطهر الأرض من رجس الشرك
وأهله ، والظلم وأعوانه . وقام الإسلام شامخا قويا حاكما فى ظل نبوة وملك داود - عليه
السلام - .

ولولا أن الناس منهم من ينتكس ، ومنهم من يصحو ، منهم من يأخذه الشيطان
إلى عوالم ظلماته ، ومنهم من يأخذه الرحمن إلى عوالم الحق ، لفسدت الأرض ،
ولضاعت معانى الحياة وسمات الإنسانية فيها . ولبطلت دواعى الشجاعة والصدق
والمروءة والجرأة والإرادة ، ولكن الله يدفع الحق بالباطل تارة ، ثم يدفع الباطل بالحق
أخرى ، أو يدفع الباطل بالباطل ، ليعلم أهله إثم منابعه وقبح مصدره ، ثم يريهم
الحق ليعيشوه وليؤمنوا به ، ويحاربوا فى سبيله .

ثم تنتهى القصة - كما بدأت - بالقول الموجه لرسول الله - ﷺ - :

تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

تلك الآيات نتلوها عليك بالحق ، لنريك ونرى من خلفك من أمتك : كيف عاش أصحاب الإسلام على مر العصور ، يحاربون الباطل وهو يحاربهم ؟ وكيف كانت مشابرتهم وصبرهم حتى يحصلوا على النصر المؤيد من الله عز وجل - ويستحقوا أن يكونوا عباد الله المخلصين .

هذه القصة تحكى لنا حياة بنى إسرائيل في فترة عصيبة من فترات الزمن ، وتبين - كذلك - رضوان الله عليهم ، ومعايشة أجمل فترات حياتهم وأسعدها ، في ظل حكم داود ثم سليمان ، العصر الذهبي لأمة الإسلام في بنى إسرائيل ، مكافأة من الله لهم على صحتهم ، وأدائهم لفريضة غابت عنهم ، فغابوا هم عن رضوان الله «الجهاد» .
وإذا كان ذلك كذلك ، فإننى لأحس أن المسلمين اليوم يعيشون فترة الانتكاس التي عاشتها القلة المؤمنة في ذلك العهد البعيد ، لقد كان بين هذه القلة المؤمنة ، وبين عهد موسى - عليه السلام - ثلاثة آلاف سنة تقريبا انتكست بعدها هذه الانتكاسة ، ولكن الله بعثها من جديد ، وبعث فيها النبوة والعزة والكرامة .

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٥٣﴾

يخبر الله تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض ، وقد جعل الله لكل منهم ميزة في التفضيل والعطاء والاجتباء .

وعباد الله جميعا يجتهدون في الوصول إلى الله ، وإلى أعلى المراتب . إلا أن الرسل جميعهم مقربون محبوبون يصطفاهم الحق سبحانه - تبارك وتعالى - ويغدق عليهم من علمه وعطائه ، ويؤهلهم لحمل الرسالة منه إلى خلقه ، وقيمهم في مقامات ومنازل من منازل العبادة والطاعة ، ويكلفهم ويفرض عليهم مالا يفرض على غيرهم من أمور تستوجبها طبيعة الرسالة ، وطبيعة المرسل إليهم .

والبينات هي الآيات التي صحبتها ، والآيات التي أقامها الله على يديه ، فأقام بها الحجة على بنى إسرائيل ، ودلل بها على صحة نبوته وعبوديته لله تعالى ، وأيده الله

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

سبحانه بروح القدس ، وهو جبريل - عليه السلام - فهذه ميزة تفضيل عيسى - عليه السلام - .

وقد رفع الله سبحانه إبراهيم بالخلقة ^(١) فنال مرتبة الخليل ، كما رفع الله موسى بالتكليم ، فنال مرتبة الكلیم . وجمع محمد - ﷺ - بين مرتبة الخليل والكلیم والحبيب . والرسول جميعا ذوو رسالة واحدة هي : « التوحيد » ولم يأت رسول ليخالف رسولا آخر ، ولكن متمما لرسالته ، وداعيا بدعوته ، وهم جميعا على صراط واحد ، ويعبدون الله الواحد . وما كان عيسى إلا مسلما ، وما كان موسى إلا مسلما ، فكل الأنبياء مسلمون ، ولهم درجات ومنازل عند الله تعالى هو يعلمها .

ولذلك لم يختلف الرسل ، ولكن الذين أرسلوا إليهم - وهم بنو إسرائيل - قد اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ، واقتتلوا .

فما الأسباب التي دعته إلى الاختلاف ، ثم الاقتتال ، والانحراف عن طريق رسلهم ؟ خاصة وأن الله تعالى بين لهم في كتبهم كل صغيرة وكبيرة من شئون حياتهم .

لقد تمرد قوم موسى على شريعته ، كما اختلف قوم عيسى على ماهيته ، وضل جمع من بنى يعقوب عن الحق الذي تركهم عليه أبوهم . وجاء محمد - ﷺ - بالدين الكامل الخاتم لجميع الرسالات السابقة ، من لدن آدم ، عليه الصلاة والسلام .

لقد دعا محمد - ﷺ - كل الأمم المختلفة المنقسمة على بعضها البعض ، المنشقة على رسالاتها ، دعاهم ليوحد صفهم وجماعتهم ، ويوحد التعاليم التي فرضت عليهم ، فجاءهم بالإسلام في : منهج قد أراد الله أن يكون هو المتمم والمهيمن والمستوعب لكل ما سبقه من مناهج وأحكام وشرائع .

واختلاف الأمم بعد ذلك ليس لقصور في المنهج ، ولا لعجز فيه ، ولكن الخلاف الذي قد يتصعد إلى القتال : سببه اتباعهم لطرق الشيطان الذي أقسم ليضلنهم وليغوينهم .

فالبينات قد جاءتهم ودلتهم على الطريق الواحد المستقيم ، وأنه طريق الأنبياء قاطبة ، إلا أنهم اختلفوا ، فانقسموا فريقين فريق مؤمن ، وفريق كافر .

(١) بضم الخاء ، وفتح اللام المشددة .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ۚ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

إن الله - سبحانه وتعالى - يناشد أهل الإسلام : أن يعلموا أن هذه الحياة الدنيا المختلف عليها فانية زائلة .

ويأمرهم قائلاً أنفقوا من أنفسكم وأموالكم فيها جهاداً في سبيل الله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلما الذين كفروا : المختلفين المنقسمين على الحق هي السفلى .

ويذكرهم الحق بيوم لا ينفعهم فيه شيء - إذ لم ينفقوا في سبيل الله ما لهم الذي كدسوه وألهتهم تجارتهم ويبيعهم عن إنفاقه في سبيل الله ، فيومئذ ليس من بيع ولا تجارة ، وليس من خلة ولا صداقة ، ولا شفاعاة .

فالإنفاق من رزق الله في الدنيا هو السبيل إلى النجاة يوم القيامة ، وامتناعكم عن الإنفاق في الدنيا هو الإلقاء بأنفسكم في العذاب والتهلكة .

﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾^(١) .

﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ الذين كفروا وحادوا عن الطريق ، وانقسموا واختلفوا منشقين عن الحق : ما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ويظلمون غيرهم بمجانبتهم لتقوى الله فيهم ، وهم محاسبون يوم القيام على ظلمهم أنفسهم وغيرهم .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله .

(١) البقرة : ١٩٥ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أورد البخارى فى فضل آية الكرسي بسنده عن أبى هريرة ، قال : وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته ، وقلت : والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ - قال : إنى محتاج وعلى عيال ، ولى حاجة شديدة . قال : فخليت عنه . فأصبحت ، فقال النبى ﷺ - يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ قال قلت : يا رسول الله شكنا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته ، فخليت سبيله . قال : أما إنه قد كذبتك ، وسيعود . فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ - إنه سيعود . فرصدته ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ - قال : دعنى فإنى محتاج ، وعلى عيال ، لا أعود . فرحمته فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال لى رسول الله ﷺ - يا أبا هريرة ما فعل أسيرك ؟ قلت : يا رسول الله شكنا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته فخليت سبيله . قال أما إنه قد كذبتك ، وسيعود . فرصدته الثالثة فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ - وهذا آخر ثلاث مرات ، إنك تزعم لا تعود ثم تعود . قال : دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها .

قلت : ما هن ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ حتى تختتم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح . فخليت سبيله . فأصبحت ، فقال لى رسول الله ﷺ - : ما فعل أسيرك البارحة ؟ قلت : يا رسول الله زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله .

قال : ما هى ؟

قلت : قال لى : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختتم الآية ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ . وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شىء على الخير .

فقال النبى ﷺ - أما إنه قد صدقتك ، وهو كذوب . تعلم من تخاطب مذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟

قلت : لا .

قال : « ذاك شيطان » ^(١) .

(١) رواه البخارى كتاب الوكالة باب « إذا وكل رجلاً فترك . » إلخ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وآية الكرسي سيدة آى القرآن .

فهى الآية العظيمة الجامعة ، لمعانى التوحيد ومعانى حق الحق سبحانه - تبارك وتعالى - المنزه عن الكيف والمثل .

﴿ الله ﴾ لفظ الجلالة الأعظم : مقرونا بالكلمة العظمى وهى : ﴿ الذى لا إله إلا هو ﴾ مختارا لصفتين من أعظم صفات الله سبحانه - تبارك وتعالى - وأسمائه ، وهما «الحى» و« القيوم » .

فهو ﴿ الحى القيوم ﴾ لا يموت : حياته سرمدية أبدية ، لامثيل لها فى حياة المخلوقات . . .

وهو : قيوم الدنيا . . . قائم على هذا العالم الحاضر المحسوس الذى نعيشه ، بسماواته وأراضيه ، مطلع على سر الخلق وجهرهم جميعا ، قائم بكل أمرهم ، وهو قيوم الآخرة : القائم على العالم الغائب عنا ، والمستور الذى سنعيشه مستقبلا .

ومن تمام قيوميته سبحانه أنه : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ والسَّنة^(١) مقدمة النوم ، وتكون لمن يعجز عن القيومية والمتابعة ، والله سبحانه لا يعترية عجز ولا نوم . وهل ينبغى لمن لا يغفل أن ينام ؟ وهل يليق به ذلك ؟

وحق له أن يكون هو المالك لكل ما فى السموات والأرض ، ذلك أنه الله الخالق الحى القيوم ، يتصرف فى ملكه كيف شاء ، ومتى شاء ، وبما شاء ، وإليه يرجع الأمر كله .

ولا يستطيع عبد من عباده ، ولا مخلوق من مخلوقاته ، مهما عظم شأنه وبلغت كرامته ، أن يشفع عنده إلا من بعد إذنه - سبحانه وتعالى - فلن ينال الشفاعة إلا من أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يرحمه بها ، ولن يتشفع أحد فى أحد إلا بإذن من الله ، ليشفعه فيمن يريد أن يشفعه فيه .

صحيح أن رسول الله - ﷺ - له الشفاعة فى أمته ، بل فى خلق الله جميعا ، إلا أن هذه الشفاعة مرهونة بإذن من الله تعالى^(٢) .

(١) بكسر السين المشددة وفتح النون .

(٢) حديث الشفاعة أخرجه : البخارى : كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل مع الأنبياء وغيرهم . مسلم : كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . الترمذى : كتاب صفة القيامة باب ما جاء فى الشفاعة .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وبعلمه وحكمه يسير كل شيء في سمواته وأراضيه ، يظهر الحكمة أحيانا ويخفيها أحيانا ، أو يخص بهما بعض خلقه دون بعض ، وكذلك علم ذاته وأسمائه وصفاته .
وهو سبحانه صاحب العرش ، وصاحب الكرسي ، يسع علمه وحكمه سمواته وأرضه ، فحكمه لدائرة من خلقه كحكمه للكون كله ، وحفظه لدائرة من خلقه كحفظه للخلق كله ، لا يثقله ذلك ، ولا يعجزه .

وهكذا في آية واحدة جمع الله سبحانه من الفوائد : عن معاني عظمة الله الخالق وملكه وقدرته وسيطرته الشيء الكثير .

وتأتي الآية التالية لها كي تحول هذه العقيدة ، التي خالطت قلوب المؤمنين الحاملين لتلك العقيدة ، وهذا التصور لله العلي العظيم : إلى سلوك .

فالذين أحسوا بوجوب العبودية له : خضعوا له ، وعملوا جاهدين على إخضاع من في الأرض لله العلي العظيم ، الذي لا يجوز أن يتعالى فيه أحد ، ولا يتعاضم أحد ، إلا أن الله سبحانه لا يريد من عباده أن يساقوا إليه سوق البهم ، ولكنه أراد قلوبا شاكرة ، وألسنا بذكره وحبه ذاكرة ، ولذلك فقد قال :

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ
بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾

فما الدين ؟ إن الدين - عند الله - الإسلام ، مهما اختلف مفهوم الدين عند البشر ، ومهما تعددت أشكاله وتصوراته . لا يرضى غيره ، ولا يقبل سواه ، والإسلام كل لا يتجزأ والله سبحانه قد دعا الناس جميعا للدخول في دينه ، دين الملك الأعظم الأكبر ، دعاهم إليه بعدما بين لهم أنه الحق ، وأن لا حق سواه ، وأراد منهم أن يدخلوا هذا الدين طواعية بقلوب واعية ، تنظر فتتدبر فتعقل ، فتخضع لله - سبحانه وتعالى - ومعنى ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ أى ليس فيه من الأوامر والنواهي ما يصعب تنفيذه ، لكن لابد من دعوة الناس إليه كما قيل : يكاد أهل الحق يجرون الناس إلى الجنة بسلاسل .

وقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - الكفر بالطاغوت مقدما على الإيمان بالله ، وهذه هي القضية الكبرى :

إن الإيمان بالله أمر فطرى ، تستجيب له القلوب بسهولة ، ولا يعوق العملية الإيمانية أن تتم ، إلا « الكفر بالطاغوت » .

ومعنى الكفر بالطاغوت ، هو رفض كل ما عدا الإسلام ، فكل ما عدا الحق

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

باطل ، وكل إيمان بباطل يعنى الكفر بحق ، والنفس تحتاج إلى مزيد من الجهد والمشقة ، للتخلص مما تشتهيه وتميل إليه من باطل .

ولهذا فقد جاءت كلمة التوحيد نافية للألوهية عما سوى الله « لا إله إلا الله » ولم تأت لتثبت الألوهية لله فإن الألوهية لله ثابتة .

« لا إله إلا الله » ، فلا دين إلا الإسلام . طريق الحق واحد ، فمن شاء فليؤمن فله الجنة ، ومن شاء فليكفر فله النار ، وذلك منتهى التهديد والوعيد .

إن رسالة الأنبياء واحدة ، هى التوحيد ، ووظيفة الرسل واحدة ، هى : التبليغ . والأنبياء قد جردوا الألوهية لله وحده ، وكل نبي قد جاء فى قومه : دعاهم للكفر بالطاغوت والإيمان بالله وحده .

لقد جاء إبراهيم فى قومه والنمرود طاغوت يحكم بغير الإسلام حياة الناس ، يقول ﴿أنا أحيى وأميت﴾ .

وجاء موسى فى قومه والفرعون طاغوت يحكم بغير الإسلام حياة الناس يقول : ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ و ﴿أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى﴾ .

وجاء محمد - ﷺ - وركام العادات والتقاليد والتصورات وعبادة الأوثان طاغوت ، يحكم بغير الإسلام حياة الناس . وبمجيء محمد - ﷺ - بدعوته ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ فتلاشى الغمام ، وذاب الركام ، وتميز الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، والحقيقة من الزيف ، والإله من الطاغوت .

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾

فمن يكفر إذن بكل من يدعى من البشر أن من حقه أن يُعبد أو يعظم ، أو غير ذلك من الأمور التى لا تكون إلا لله وحده من تحليل وتحريم ، وإنشاء شرائع ، وقوانين للحكم - من يكفر بكل ما سوى الله ، ويؤمن بالله وحده : فقد ﴿استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ حيث إنه قد سلك سبيل الإيمان الصحيح ، فقد شبه الله إيمانه هذا بـ «العروة الوثقى لا انفصام لها» فهى لا تنفصم أبداً ، ومن ثم فلا سبيل لأن يعود إلى الكفر بعد أن خالطت بشاشة الإيمان قلبه ، وهذه بشارة بحسن خاتمة من صح إسلامه وولاه الله تعالى .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

والله سميع بكل من قال « لا إله إلا الله » عليم بمن قالها صادقا فيها ، علما بها ومن قالها لأن الناس يقولون ذلك .

وهو سميع عليم بالذين يؤمنون بخالق السموات والأرض إلهها واحدا ، مالكا للكون كله ، وصاحب الحكم فيه ، أولئك الذين بلغوا ذروة الإسلام ، واستمسكوا بالعروة الوثقى ، بالحق المتين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا يزيفون أبدا .

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
أُولَئِكَ ءَهُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

الولاء هو المحبة ، والنصرة ، وبمحبتهم لله ونصرتهم له ، أحبهم الله ونصرهم .
والذين آمنوا هم : الذين كفروا بالطاغوت ، وآمنوا بالله ، واستمسكوا بالعروة الوثقى ،
والله سبحانه قدّر أن يحفظ على هؤلاء إيمانهم حتى الممات ، باستمسكهم بالعروة الوثقى
التي لا تنفصم ، وذلك بإخراجهم المستمر من الظلمات إلى النور . ولذلك فقد جاءت
الآية بالفعل ﴿ يخرجهم ﴾ في حالة المضارع الذى يفيد الاستمرار، حتى تكون عملية
إخراجهم من الظلمات إلى النور مستمرة طوال حياتهم ، وحتى الممات . إخراجهم إلى
عالم المهتدين السائرين فى نور الله - عز وجل - .

ويأتى قصص القرآن مرة أخرى . . ليحكى لنا مواقف إيمانية تشهد بتواجد الكفاح
والجهاد ، وتؤكد ما سبقت الإشارة إليه من الفصل بين الفريقين ، فريق من لم يعبد
إلا الله وحده ، وفريق من اتخذ طواغيت تعبد من دون الله .

ومن الفريق الأول : تأتى قصة إبراهيم التى تقول الآيات عنها :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّى
الَّذِى يُحَىِّ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحَىِّ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى
بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

هذا موقف إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - الذي حاجه النمرود ملك أرض العراق آنئذ ، وهو لا يقل في ظلمه وجبروته عن الفرعون لعنهما الله .

إنه يقول لإبراهيم عليه السلام : هل لك رب سواي ؟! وكيف تعبد إلهاً من دوني ، وأنا الحاكم القادر على العطاء والمنع ، والحياة والموت ، والعذاب والعفو . . ؟! فأنا أحق بالعبودية من إلهك هذا الذي تعبد .

ولكن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قد واجهه بحقيقة أمره ، ووضعه في حجمه الذي لا يصلح أن يعول عليه أو يتنكر له ، فقال له : أنت والناس عباد لإله واحد ، وهو الخالق الرازق ، المحيي المميت ، فهل تملك أنت ذلك ؟ قال : أنا أحيى وأميت .

وذلك أنه اغتر بالأسباب التي أجراها الله - سبحانه وتعالى - على يديه ، فتوهم - في ظل غفوته وغفلته عن الحق - أنه هو المسبب .

قال قتادة وغير واحد ، قال النمرود « وذلك أني أوتى بالرجلين ، قد استحقا القتل ، فأمر بقتل أحدهما فيقتل ، وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل ، فذلك معنى الإحياء والإماتة » . ومع هذا الجحود من النمرود : لم ييأس إبراهيم من حاجته ، فهو يعلم أنه على الحق . إذ قال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ ، ولأنه لا يستطيع بنفسه أن يتحكم في الشمس - كما توهم أنه يتحكم في البشر - فقد بهت واحتار ، ولم يستطع أن يرد أو يتكلم ، وقامت عليه الحاجة .

والله لا يهدى هؤلاء الذين أسرفوا في ظلمهم وبغيهم ، وتجرهم واستكبارهم ، فطبع على قلوبهم ، فهم لا يهتدون . .

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥١﴾

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وهذا موقف رجل من بنى إسرائيل كان يمتطى حمارا يحمل طعامه وشرابه ، مر على قرية خربة خاوية ، وهى بيت المقدس بعد تخريب بختنصر الحاكم الظالم لها .
وأثناء مروره قال : لقد خربت وسقطت جدرانها وسقوفها وبقايا الأموات متناثرة فى الأرض ، ترى متى تحيا هذه القرية مرة أخرى ؟
﴿ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ﴾ .

لقد مات الرجل مائة عام ليصحو بعد ذلك من موته ، فيظن أنه نام بما بين الضحى إلى غروب الشمس ، فسير الله له ملكا قال له : ﴿ كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام ﴾ إذ أماتك الله موت الجثث التى كنت لا تدري متى إحيائها ، فانظر إلى طعامك : إنه كما هو ، لم يتسنَّ ولم يتعفن ، فاللبن كما هو ، والماء كما هو ، والطعام كما هو . فلما قام وجد عظام الحمار متناثرة نخرة بالية .
ثم قال له الملك ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ﴾ فنظر إلى عظام الحمار فوجدها تحيا من جديد ، وتلتحم ويكسوها اللحم ، فلما تبين له الأمر ، وأصبح على يقين من غيبته عن الدنيا مائة عام - وظهرت له آيات الإنشاء بعد العدم ، قال : ﴿ أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ ^(١) .

ونخرج من هذه القصة إلى قصة أخرى مع إبراهيم عليه السلام مرة أخرى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمَّا تُوْمِنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

لقد شهدنا لإبراهيم من قبل مع النمرود ما يدل على إيمانه الواثق بأن الله يحيى ويميت ، وها هو ذا هنا يجب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين ، أرقى مراتب العلم من الله .

إنه الشوق لرؤية الحقائق المستورة . إنها أشواق قلب وروح لتشهد آية من آيات القدرة تزيد القلب على نجاح الدعوة اطمئناناً ، وتعطى الحجة على المخالفين قوة وسلطاناً ، وتضيف إلى الدلائل الكثيرة برهاناً جديداً . بل إن إبراهيم يطلب درساً عملياً باعتباره معلماً ، ولابد من تربية عملية تسبق العملية التعليمية .

(١) انظر تفسير ابن كثير ، ١ / ٣١٤ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قال : ﴿ فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ﴾ أى ضمنهن إليك فاذبحهن واجعل على كل جبل مما اختلط من لحمهن وعظمهن جزءا ﴿ ثم ادعهن يأتينك سعيًا ﴾ .
فدعاهن كما أمره الله - عز وجل - فإذا بالريش يطير إلى الريش والدم يطير إلى الدم ، واللحم يطير إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ، حتى قام كل طائر على حدة ، وأتينه يمشين جريا وسعيًا وهو شاهد . ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ . عزيز في قدرته ، حكيم في فعله ، قادر إن شاء قال كن فيكون ، وسبحانه من عزيز حكيم ، وسلام على إبراهيم .

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾

ابتداء من هذه الآية الكريمة وإلى قرب انتهاء السورة العظيمة يشرع الحق - سبحانه وتعالى - في بيان علاقة الإنسان المسلم بالمال ، وأسلوبه في المعاملات المادية .
فيبدأ ذلك بالحديث عن الإنفاق في سبيل الله ، ثم بالتحذير من الربا ، ثم بالعلاقة المشروعة بين الدائن والمدين ، وآداب الدَّيْن ، وكيفية التعاقد ، وما يتعلق بذلك من أمور الشهادة والكتابة والائتمان في التجارة والسفر والرهان .
نشرع أولا بإذن الله في بيان القسم الأول منها ، وهو: الحديث عن الإنفاق في سبيل الله .

إن الإسلام دين يعالج مشاكل الإنسان ، ويعايش حاجاته من واقع حياة الإنسان مع نفسه وأهله وبيئته ، وذلك من منطلق تعايشه - أولا - كعبد مع خالقه وخالق الكون كله من حوله .

حيث يتعامل الإسلام مع الإنسان كأشرف مخلوق ، باعتباره كائنا حيا له مواجيدته ومشاعره البشرية ، ويعالج دائما حاجاته من خلال الواقع الذي يعيش فيه .

ولما كان المال هو قوام الحياة للإنسان ، ومن أكبر زينتها !!

ولما كان الإنسان متعلقا به جذريا ، وقد جبل على ذلك ، كما قالت الآية : ﴿ وإنه

لحب الخير لشديد ﴾ ^(١) !!

(١) العاديات : الآية ٨ والمقصود بالخير هنا : المال والنشب ، وكل ما يورث ، قال تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين ﴾ الآية : ١٨٠ من سورة البقرة .

سُورَةُ التَّقْوَةِ

لذلك بدأ الله - سبحانه وتعالى - في معالجة هذا الأمر في نفس الإنسان بحيث يجعل المال وسيلة للعيش ، وليس غاية ، فوضع القاعدة الأولى في ذلك والتي قوامها أن مهمة الإنسان هي العبادة ، وأن رزقه على الله ، حيث يقول سبحانه : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿ (١) .

ثم بدأ يربّي هذا المخلوق ، ويقيم علاقته بالمال : على التوازن والسواء . ولننظر معا في هذا التصوير الجميل الذي ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته : درهم ، تثمر منه الصدقة سبعمائة درهم . مثل السنبلة تنبت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة . وليس هذا وكفى . بل تتضاعف بعد ذلك إلى ما شاء الله ، لمن شاء .

فكما أنك ترمى بالحبة في الأرض فتختبئ فيها ، لا ترى لها أثرا ولا تعرف كيف نمت وأثمرت ، ولكنك فجأة تراها تشق الأرض وتخرج شجيرة فيها سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، كذلك إذا أنفقت درهما في سبيل الله واستتر عنك بخروجه عن يدك ، إلا أنه يقع أولا في يد الله الذي أمرك أن تبذل ، فبذلت إرضاء له ، فهو منمّيه ، ومثمره ، وهو مخرجه شجرة طيبة لك ﴿ أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴿ إنها حقا خرجت من بين يديك يا ابن آدم ، ولكنها اختفت في عالم الإنماء الرباني كما اختفت الحبة في باطن الأرض .

فما أبدع ذلك التصوير . إنه دعوة من الله لابن آدم ألا يمسك ماله . . . ألا يحتزنه . . . فليس في الإمساك زيادته ولا نهاؤه . بل عليه أن يترك الفضل في قبضته إلى يد الرحمن الرحيم

فالمسلم حين يضع المال في يد من يستحقه من المسلمين ، إنما هو بذلك يحرث حرثا ، ويبذر حبا . يجنيه ويحصده يوم لا ينفع مال ولا بنون ، حيث يضاعف له أضعافا كثيرة ، ويصرف عنه من سوء كثيرا ، ويرفعه في أعلى الدرجات وأرفع المنازل ﴿ والله واسع عليم ﴾ .

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

(١) الذاريات : ٥٦ - ٥٨ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

يمدح الله تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منّا على من أعطوه ولا مكروها مع من أحسنوا إليه . فالذين ينفقون أموالهم - مع اعتقادهم أنها وديعة عندهم ، وأمانة في أعناقهم ، فلا يرون لهم بالإِنفاق على الفقراء منّة ولا تفضلاً ، ولذلك فهم لا يتبعون ما أنفقوا كلمات المنّ والأذى ، لأنهم يعلمون أن « ليس لهم من مالهم إلّا ما أكلوا فأفنوا ، ومالبسوا فأبلوا ، أو تصدقوا فأبقوا » - إن الله سبحانه ينمى لهم أموالهم . ويوم الفزع الأكبر نراهم لا يخافون حيث يخاف الناس ولا يحزنون حين يحزن الناس .

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾

إن الله سبحانه يخاطب هؤلاء الناس ، كرماء الظاهر في نظر بعض الخلق ، بخلاء الباطن عند رب الخلق ، إن الأولى بكم أن تضعوا أنفسكم موضع الآخذ ، فتنظروا ماذا تحبون أن يكون الذي يعطيكم ؟

إن الأولى بكم والخير ، ألا تعطوا إن كان العطاء متبوعاً بالمن والأذى ، ولكن كفوا أذاكم عن المحتاجين المبتلين ، واحفظوا لهم كرامتهم وماء وجوههم ، ووجودهم الإنساني ؛ فقول لّين معروف ، ودعاء طيب وعفو ومغفرة ، خير من عطاء يتبعه أذى ، ولتعلموا أن الله ﴿ غنى ﴾ عن هذه الصدقة ، حتى وإن كنتم قادرين وعندكم فضل من المال ، ﴿ حلیم ﴾ يعفو ويصفح ويجزى بالחסنة أضعافاً مضاعفة ، ولا يجزى بالسيئة إلا مثلاً ، ويعفو عن كثير .

وليكن خلقكم أيها الأغنياء : متوجاً بالحلم ، حتى وإن أساء الآخذ ، فتخلقوا بأخلاق الله ، ﴿ والله غنى حلیم ﴾ . واحذروا من قول رسول الله - ﷺ - : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة : المنان الذي لا يعطى شيئاً إلا منّة ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره »^(١) يعنى خيلاء وتكبراً .

ولذلك فنحن ننصح المعطى بعدم الإساءة إلى الآخذ ، حتى وإن أساء الآخذ ، ولنا في سيدنا أبى بكر أسوة حسنة حيث سامح وغفر لمن أساء إليه ، رغم كثرة إنفاقه إليه وعليه حيث كان ممن أشاع على السيدة عائشة حديث الإفك ، فعزم سيدنا أبو بكر على قطع النفقة عنه ، فأنزل الله عز وجل :

(١) رواه مسلم عن أبى ذر الغفارى كتاب الإيمان باب غلط تحريم إسبال الإزار . . . إلخ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) .
فقال أبو بكر : بلى يا رب ، أحب أن تغفر لى ، وزاد له فى العطاء .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوهَا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ
النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ
وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١٤﴾

حقا ، فإن أجر الصدقة عظيم إلا أن ثواب الصدقة لا يفى بإثم المنّ والأذى ،
ولذلك فإن المنّ والأذى يحرم الصدقة من القبول عند الله ، ويبطل ثوابها تماما ، كما
يبطلها الرياء .

وهنا إشارة لطيفة ، فيها ضوء كاشف سلط على قلوب الذين يُتَّبَعُونَ الصدقات
بالمُنِّ والأذى ، فيعريها ويظهر حقيقتها : لمن تنفقون هذه الصدقات ؟ ولماذا ؟ .

إن كانت لله وفى الله لا رياء ولا سمعة ولا رغبة فى مدح ولا ثناء ، فأى شىء هذا
الذى دفعكم للإحساس بالفضل عليهم ، فأتبعتم صدقاتكم بالمنّ والأذى ، أليس
المال مال الله ؟ والأغنياء وكلاء الله وأمناءه على هذا المال ؟ وما عليهم إلا أن يضعوا المال
فى يد من يستحقونه ، فيجزئهم ربهم على ما صنعوا ، فالفضل والمنة - أولا - وآخرًا - لله
رب العالمين ، فلم المن ؟ ولم الأذى ؟ ولم الفخر والكبرياء ؟ .

إن اعتقادكم بالله المالك الحق ، وباليوم الآخر الذى تؤجرون فيه على ما أدبتم فى
سبيل الله ، يمنعكم من أن تفعلوا ذلك حتى لا تكونوا كالمرائى : الذى لا ينفق المال
إلا ليراه الناس ، وهو فى إنفاقه لا يعتقد فى الله ، ولا فى اليوم الآخر .

والصفوان : جمع صفوانة ، ويقال : إنه يستعمل للمفرد أيضًا ، وهو الصفا ،
والصفا : هو الصخر الأملس . فمثل هذا المرائى : الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر -
فى الإنفاق - كمثل الصخر الأملس كساه الريح بالتراب فأصابه مطر غزير فتركه أملس
كما كان ، يابسًا قاسيًا فلم يمسه ماء ولم ينبت كلاً . وكما أن الصخر الأملس لا يقدر

(١) النور : ٢٢ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

على إمساك التراب حين يأتيه الوابل ، كذلك هم لا يقدرّون على الانتفاع بشيء من أعمالهم ﴿ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْطَلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِْبْهَا
وَابِلٌ فَطُلٌّ ۖ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٦٥﴾

وكما عرض القرآن صورة من أنفق ماله ابتغاء مرضات الناس : نرى الجانب الآخر ، صورة من أنفق ماله ابتغاء مرضات الله ، وما أجمل التصوير ، ولكن شتان ما بين الصورتين . والتى أمامنا الآن صورة الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ، وكسرًا لحدة شهوة المال في نفوسهم ، وطلبًا لمزيد من اليقين والقرب من الله ، إنها صورة خضراء بعد صورة جرداء ، صورة مشرقة مزهرة ، بعد صورة جامدة منفرة . إنها صورة مثل الله فيها عمل المنفقين في سبيله ومثوبتهم عنده ببستان مزهر مثمر ، على ربوة عالية عن الأرض أصابها مطر غزير فأتت أكلها ضعفين ، إنها وإن لم يصبها وابل فهي بارتفاعها عن الأرض معرضة للطل في كل وقت وحين ، والطل هو : الندى ، فهي دائمة الإثمار والإزهار ، قل ذلك أو كثر ، أو تضاعف . كذلك العمل إذا كان ابتغاء وجه الله ، فإنه لا يضيع عند الله أبدًا ، مهما كان قليلاً ، فإن الله غفور شكور .

وينتقل بنا سياق الآيات إلى موقف عظيم ، وتساؤل من الله ، يحتاج إلى مزيد من التفكير والتدبر :

أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ
فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٦٦﴾

وما كان ذلك إلا لإفسادهم أعمالهم الطيبة بالمن والأذى ، وما حدث لهم هو النهاية السيئة التي أعدها الله لهؤلاء الممتنين بالصدقات ، المؤذنين لمن أحوجتهم الضرورة إليهم ، المتشبهين بهؤلاء ، الذين يراءون بأعمالهم ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر .

إنه سوء الخاتمة ، التي يفزع كل مؤمن لذكرها ، ويضع يده على قلبه مشفقًا منها ،

سُورَةُ التَّوْبَةِ

إنها تنتظر هؤلاء المتصدقين والدنيا بين أعينهم ، المنفقين وحب الشهرة والثناء في قلوبهم .

أترضون أن تكونوا كذلك ؟ أيود أحدكم أن يكون من هؤلاء . صاحب أرض طيبة . ثمرة ، له فيها من كل الثمرات ، تجري الأنهار من تحتها ، ويحفها النخيل من كل جانب ، حتى إذا كبرت سنه وضعف عظمه ، وخارت قواه ، واحتاج إلى الراحة والسكون ، ولم يعد يستطيع أن يتعهد هذه الأرض بالرعاية ، نظر إلى ذريته فوجدهم ذرية ضعيفة ، لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فهم لا يعينون أباهم ، ولا يملكون لأنفسهم عوناً ، وبينما هو على ذلك ، إذ جاءت ريح عاصف ، فيها إعصار من نار ، أحرقت الأرض بما فيها ، ولم تترك منه شيئاً ، وهو أحوج ما يكون إليها ، فلا نراها إلا قاعاً صفصفاً ، فأى حسرة تعصر قلبه !! وأى ندم يحيط به ، وهو أشد ما يكون احتياجاً ، وأى عذاب يلم به وهو يرى ذريته الضعيفة وحاجتهم : جزاء ما كان يفعل من قبل ، مع ذوى الحاجة من من وأذى ؟

ثم يتخيل مصير هؤلاء الأبناء الضعاف الصغار من بعده ، والناس يفعلون بهم ما كان يفعل هو في المحتاجين ، ويعلم حينذاك أن ما أعطاه لكى ينتفع به لن ينفعه ، وإنما ينفعه ما أعطاه كى ينفع به غيره ، فهو الذى يبقى ، وهو الذى ينفع ، إنه يندم الآن ، ولكن حيث لا ينفع الندم ، ولا يجدى ، وتلك عاقبة من عمل العمل على غير ما يحب الله ويرضى .

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ . فتتقون الله وتعملون ليوم لا مرد لكم فيه من الله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ
الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٧﴾

تنبيه آخر للذين لا يحسنون أدب الإنفاق لله ، وابتغاء مرضاته ، هؤلاء الذين يجعلون لله ما يكرهون من كسبهم ، ويتخيرون أخبث ما عندهم ليعطوه للناس . . ولو أعطاه الناس لهم لرفضوه ، إلا أن يتغاضوا ويأخذوه على حياء .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وفي هذه الآية يأمرهم ربهم - تبارك وتعالى - بالإنفاق من طيب كسبهم ، من مال أو غير ذلك ، مما كسبوا أو أخرج الله لهم من الأرض ، مما كان معروفاً لدى المسلمين الأوائل وما لم يكن معروفاً لديهم من خيرات الأرض على مر العصور والأزمان .

والله الذى أعطاكم هذا المال ، وجعلكم مسئولين عن إعطائهم : قادر على أن يجعلكم فى مكانهم ، ويجعلهم فى مكانكم ، وهو غنى عنكم وعمّا تنفقون من أموالكم التى وهبكم إياها ، إلا أنه يشرككم على ما أنفقتم من طيب كسبكم ، يجزيكم عنه خيراً كثيراً .

ونجد المسلمين - فى كل وقت - فى حاجة إلى فهم هذه الآية ، حيث اعتاد الكثيرون المسلمون الإنفاق مما لاحاجة لهم به ، والواجب على المسلم الإنفاق من طعامه عند نضجه ، وحين يأكل منه هو ، فلا ينتظر حتى يصير الطعام عنده غير صالح للأكل منه فيعطيه ، ولكن حين يغترف لنفسه عليه أن يغترف أيضاً للمساكين ليأكلوا ، وحين يعطى الكساء لا ينبغي أن ينتظر حتى يصير مهلهلاً أو باهتاً ، فيعطيه . كلا إن هذا السلوك لا يصدر عن قلوب تتصل بالله ، وإنما ينشأ عن قلوب أعمتها وساوس الشيطان وتهاويله التى يلقىها فى قلب ابن آدم بالحرص وخوف الفقر ، فتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون ، ويرضونه ويقتربون ما هم مقتربون ، ولذلك يعقب الله تعالى قائلاً :

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٨﴾

إن الشيطان يخيفكم الفقر والخسارة ، حتى تمسكوا بالجيد من أموالكم ، وعسى الله أن يخلف ظنكم فيفسد ما عندكم ، أو تنخفض أسعاره دون استفادة به ، ولو أعطيتكم الله الطيب مما تأكلون ومما تلبسون ، ومما تدخرون لأنفسكم لأخلف عليكم أضعافاً مضاعفة .

إن الشيطان يوحى إليكم أن « أمسكوا » فترد الملائكة « اللهم أعط ممسكاً تلفاً » والله - سبحانه وتعالى - يقول : « أنفقوا » والملائكة تدعو ربها « اللهم أعط منفقاً خلفاً » فبالنفقة يكثر ما بين أيديكم ويظهر ، وبها تخلفون من عند الله لا من عند الخلق ، ولامن عند أنفسكم ، ولا بجهدكم ، ولكن من الله الذى يعطى بغير حساب .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إن الذي أعطى إنما هو رب العالمين « والله واسع عليم » .

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا
وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْأَلْبَابِ ﴿١٢٦﴾

إن العقلاء من المسلمين هم الذين أنعم الله عليهم بالحكمة ، وجماع الحكمة « العلم والفهم والتقوى » .

لقد عاشوا معرفة الحق ، ولهم من الله سلطان يعينهم على فهم الأمور على وجهها السليم ، وإدراك كلياتها وأصولها .

إنهم ينفقون ابتغاء رضوان الله ، إذ هم على نور من الله . فيجعلون الطيب المختار لديهم لله ، وما ذاك إلا لأن الله تعالى آتاهم الحكمة وحسن التقدير ، فقدروا ^(١) الدنيا قدرها ، وقدروا الآخرة حق قدرها ، وعرفوا مقام كل منهما ، فأحسنوا العبادة لله وأجلّوه وكبروه في أنفسهم . . . قدروا الله حق قدره ، فهانت عليهم الدنيا بما فيها وبمن فيها . هان عليهم ما يكسبون . وهان عليهم ما ينفقون من حطام زائل . وحبب إليهم أن يكون لهم حسن المقام بين يدي ربهم .

والذين ينعم عليهم الحق بالحكمة ، قد أنعم عليهم بخير كثير أكثر من المال ومن المتاع .

عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلط على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها » ^(٢) .

ولا يستطيع أحد أن يذكر الحق في موضعه ويعلم أن الحكمة خير عطاء إلا أولو الأبواب ، وذوو العقول السليمة والقلوب الطاهرة والأرواح الذكية ، الذين يذكرون الله ذكراً كثيراً ، ويتدبرون ويتفكرون في أمر الدنيا والآخرة ، وفي حكمة الله الخالق البارئ المصور ، فيضعون كل شيء في موضعه ، ويقدرّون لكل قدره ، وأولئك هم حكماء الخلق .

(١) بفتح الفاء والقاف والذال .

(٢) رواه الشيخان ، واللفظ له ، كتاب العلم باب « الفهم في العلم » ، ورواه مسلم كتاب المسافرين باب « فضل من يقوم بالقرآن . . إلخ » .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧﴾

يخبرنا الله تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات والنفقات والمنذورات .

﴿ وما أنفقتم من نفقة ﴾ صغيرة كانت أو كبيرة ، زكاة مفروضة أو صدقة تطوع ، أو نذرتم من نذر لله فإن الله يجزى عليه بالحسنى إن أحسستم فيه وفى أدائه . والنذر يقع موقع الفرض مادام فى اعادة الله ، وفى مقدور صاحبه ، ولا نذر إلا لله . ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ هل أدبتموه على ما يحب الله ويرضى وما بين لكم من قبل فى آياته ؟ وإن لم تفعلوا فما ﴿ للظالمين من أنصار ﴾ ينصرونهم من الله يوم يجازيهم على ما أساءوا وما فرطوا . وفى الآية معنى الوعد والوعيد ، أى من كان خالص النية فهو مثاب ، ومن أنفق رياءً أو لمعنى آخر مما يكسبه المن والأذى ونحو ذلك فهو ظالم ، يذهب فعله باطلاً ولا يجده ناصراً فيه ^(١) .

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٨﴾

إن أبديتم الصدقات فرضاً كانت أو تطوعاً ، فهى مقبولة عند الله ومجزى عنها ، ما لم تكن بقصد الرياء والسمعة ؛ فهى مقيدة لكم عند ربكم . وإن أخفيتموها وأعطيتموها للفقراء دون علم من الناس ، ولا بمن بلغتكم الصدقة ، أو فى صورة تخالف صورة الصدقة الصريحة . . كالهدي . . والتواذ . . والتأخى . . من غير إعلان ولا إشهار ، فهذا عند الله له مقام كبير . .

وصدقة السر لا تعادها ولا تزنها صدقة أخرى . فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : وذكر منهم » . . . ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه . . . » ^(٢) .

والفارق كبير بين من تصدق فأعلن للخلق . . ومن تصدق فأخفى ، قائلاً : « رب إن هذه الصدقة فيما بينى وبينك ، أرجو بها وجهك سيدى وصفحك عما تعلمه ،

(١) انظر القرطبي : ٣ / ٣٣١ .

(٢) رواه البخارى كتاب الأذان باب « من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة . . . إلخ » . .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

والنار . لا تعلمه ، فتقبلها منى واجعلها تكفيراً لسيئاتى . . يا من أصلحت نفسى حتى مكنتها من بذل الصدقة ابتغاء وجهك وحدك أنت سبحانك » .
إن الله يعلم السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فإذا أعلن العبد فهو يعلم نيته من الإعلان . . كما يعلم نية عبده المسر ، وهو العليم الخبير .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

كان الصحابة رضى الله عنهم يتخرجون من إعطاء الصدقات لأقاربهم المشركين من ذوى الأرحام والأنساب وغيرهم ، فجاء القرآن ليلفت نظرهم إلى قضية عامة وكلية - وهى أن الهداية : إنما تأتى بإذن ومشئته ، وهى من الله وحده . ومادام التصديق خالصاً لوجه الله تعالى فلا يضررك إلى أين يذهب وفى يد من وقع ، فقد وقع أجرك على الله . المهم أن يكون الإنفاق ابتغاء مرضات الله ، فحينئذ أنت مثاب على قصدك .
إن مهمة الرسول - ﷺ - هى : دعوة الخلق إلى الخالق . . والمرزوقين إلى الرازق . . دعوة العصاة إلى الغفار . . دعوة الشاردين إلى رب العالمين .

أما أمر الرزق . . فالله وحده هو صاحبه . . وإليه وحده يرجع الأمر فيه . . يطعم الجائع ويكسو العارى . . مسلماً كان أو غير مسلم . . وقد أمر الله تعالى نبيه محمداً - ﷺ - أن يعطى ويدعو . . وأن يحنو ويبين .

إنكم لن تنفقوا شيئاً تبغون به وجه ربكم إلا وجدتموه مكتوباً لكم عنده . . فالنفقة تبذل من يد المسلم ، لتكتب عند الله أضعافاً مضاعفة . . سواء كانت للمسلم أو للمشرك . . للطائع أو للعاصى ، مادامت لوجه الله ومقيدة بقيود الشرع .
وقد نبّه الله نبيه إبراهيم على ذلك من قبل ، كما نبّه رسول الله - ﷺ - وذلك لما دعا إبراهيم - عليه السلام - ربه قائلاً : ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ (١) .

(١) البقرة : ١٢٦ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فلمن يترك الكافر في الدنيا ؟ وهل سمي الكافر كافراً إلا لبحوده نعمة ربه عليه وربوبيته له ، وإن الله - سبحانه وتعالى - ليعطي العبد ابتلاء منه أيشكر أم يكفر؟ ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾^(١).

والمؤمن لا يضر أبداً بنفقة أنفقها لوجه الله تعالى . . ومادام الأمر كذلك ، فقد فتح الله سبحانه باب النفقات ولم يجعل عليها إلا قيداً واحداً - أن يكون ابتغاء وجه الله - . . وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية ! فأصبح الناس يتحدثون : تصدق على زانية ! فقال اللهم لك الحمد ، على زانية ؟ لأتصدقن الليلة بصدقة ، فوضعها في يد غني ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غني ، قال : اللهم لك الحمد : على غني ! ! لأتصدقن الليلة بصدقة ، فوضعها في يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد : على زانية ، وعلى غني ، وعلى سارق ! ! فأتى فقيل له أما صدقتك فقد قبلت ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها ، ولعل الغني يعتبر ، فينفق مما أعطاه الله ، ولعل السارق يستعف بها عن سرقة »^(٢).

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا
فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ
بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ
عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

وهذا تنبيه من الله تعالى للملاحظة أحوال المسلمين واستنباط حوائجهم وأدائها إليهم دون أن يحوجوهم إلى السؤال ومذلتة . . وخاصة هؤلاء الذين يبدو عليهم من ظواهر أحوالهم وتعبيرات وجوههم ، فيعرفون حاجتهم دون تلميح أو سؤال أو إلحاح .
وهم الفقراء الذين حبسوا وحصرُوا في دائرة الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية ولمحاربة الكفار .

(١) النمل : ٤٠ .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « ثبوت أجر المتصدق . . إلخ » .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أو هم : الذين حبسوا أنفسهم في طلب العلم لخدمة دولة الإسلام الحاكمة بما أنزل الله . .

أو هم : المهاجرون في سبيل الله ، الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسول الله - ﷺ - وليس لهم سبب يردون به عن أنفسهم غائلة الجوع ، وهم لا يستطيعون ضرباً في الأرض .
يعنى لا يسافرون بحثاً عن الرزق ، لأن غيرهم لا يستطيع أن يحل محلهم . وكل هؤلاء أحصروا في سبيل الله ، وعلى رأسهم المقاتلون .
فالجاهل بحالهم ، يظنهم من الأغنياء لتعففهم في اللباس والمقال . . فلا يحاولون إبداء فاقة للناس ، أو إظهار حاجة إليهم .

وتعرفهم بسيماهم . أى بما يظهر لأولى الأبواب من سماتهم ، من غير أن يتكلموا هم ، أو يسألوا الناس شيئاً ، وهنا تغنى فراسة المؤمن الذى يتصل بالله ، وله من الله نور ، والذى يكون على استعداد للإنفاق في سبيل الله ، يستشعر حاجة المحتاج ويلمحها ، حتى وإن لم يقطن إليها الكثير والكثير من الناس .

والله سبحانه عليم بالخير . . ويمجى عليه بالخير . . إنه يشب بعلمه ، وبما هو مطلع عليه من قلوب المعطين . عليم بعباده الذين يجدون سعادتهم ولذتهم في الحياة حين يقضون حاجات الخلق آناء الليل وأطراف النهار ، يسعون لبذل المعروف . . وإغاثة الملهوف سرا حين يرون أن في السر صلاح العمل ، وعلنا حين يرون أن العلانية أولى وأجمل .

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتْمَانِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل أو نهار والأحوال من سر وجهار ، فهم لا يخافون يوم يخاف الناس ، ولا يحزنهم الفزع الأكبر . وفي الدنيا يؤمن الله خوفهم ، ويثبت قلوبهم ، وينصرهم على أعدائهم ، ويصبرهم على الطاعة ، ويوفيههم أجورهم بغير حساب .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

جَاءَهُمْ عِظَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ فَأَنْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

بعد عرضه - سبحانه وتعالى - لأهل الصدقة الذين أقرضوا الله قرضًا حسنًا ، وهو يضاعفه لهم أضعافًا كثيرة . هؤلاء الذين اعتقدوا أن الدنيا طريق للآخرة وقنطرة إليها ، نأتى إلى القسم الثانى وهو : التحذير من الربا ، فقد شرعت الآيات فى ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات ، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم .

إذ يعرض القرآن صورة من صور المقرضين . . وهم أهل الربا . . وأنهم ينفقون أموالهم بالليل والنهار . . ولكن الصورة قد اختلفت عن سابقاتها الخاصة بالذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًا وعلانية ، والتي انتهت بقوله تعالى : ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . وكما اختلفت صورة الإنفاق اختلف المصير لكل من الفريقين .

وهنا لا نكاد ننتهى من قراءة الآية إلا ونرى أمام أعيننا مشهد هذا الذى لا يقوم إلا قيام الذى يتخبطه الشيطان من المس ، وأنى له أن يقوم إلا قيامًا منكراً بشعًا ؟ ! إنه مشهد مؤلم . . مفرع . . مشهد المصروع حال صرعه . . والمسوس فى أشد حالاته . وقيامهم بهذه الطريقة البشعة ، ليس مقصورًا على الآخرة فقط ، ولكنه أيضًا فى الدنيا . . قيام اقتصادهم . . قيام حياتهم . . قيام كياناتهم كلة . . إنها هو قيام الذى يتخبطه الشيطان من المس .

وقد وافقنا سيد قطب - رحمه الله تعالى ورضى عنه - فى هذا المعنى ، حين قال : « إن العالم الذى نعيش فيه اليوم - فى أنحاء الأرض - هو عالم القلق والاضطراب والخوف ، والأمراض العصبية والنفسية - باعتراف عقلاء أهله ومفكره وعلمائه ودارسيه ، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية . وذلك على الرغم من كل ما بلغت الحضارة المادية ، والإنتاج الصناعى فى مجموعه من الضخامة فى هذه الأقطار . وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادى التى تأخذ بالأبصار . ثم هو عالم الحروب الشاملة ، والتهديد الدائم بالحروب المبيدة ، وحرب الأعصاب ، والاضطرابات التى لاتنقطع هنا وهناك . »

سُؤَالَةُ الْبَقِيَّةِ

« إنها الشقوة البائسة المنكودة ، التي لا تزيلها الحضارة المادية ، ولا الرخاء المادى ، ولايسر الحياة المادية وخفضها ولينها فى بقاع كثيرة . وما قيمة هذا كله إذا لم ينشئ فى النفوس السعادة والرضا والاستقرار والطمأنينة؟

« إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى ، ولا يضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه ، كى لا يرى . حقيقة أن الناس فى أكثر بلاد الأرض رخاء عاما . . فى أمريكا ، وفى السويد ، وفى غيرهما من الأقطار التى تفيض رخاء مادياً . . أن الناس ليسوا سعداء . . أنهم قلقون ، يطل القلق من عيونهم وهم أغنياء ! وأن الملل يأكل حياتهم ، وهم مستغرقون فى الإنتاج ، وأنهم يغرقون هذا الملل فى العريضة والصخب تارة ، وفى «التقاليع» الغربية الشاذة تارة ، وفى الشذوذ الجنسى والنفسى تارة ، ثم يحسون بالحاجة إلى الهرب . . الهرب من أنفسهم ومن الخواء الذى يعيش فيها ! ومن الشقاء الذى ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها . . فيهربون بالانتحار . . ويهربون بالجنون . . ويهربون بالشذوذ ! ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ، ولا يدعمهم يستريحون أبداً ! لماذا ؟

« السبب الرئيسى - طبعاً - هو خواء هذه الأرواح البشرية الهائلة المعذبة الضالة المنكودة - على كل ما لديها من الرخاء المادى - من زاد الروح ، من الإيمان . . من الاطمئنان إلى الله . . وخواؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التى ينشئها ويرسمها الإيمان بالله . . وخلافة الأرض وفق عهده وشرطه .

« ويتفرع من ذلك السبب الرئيسى الكبير : بلاء الربا . . بلاء الاقتصاد الذى ينمو، ولكنه لا ينمو سويًا معتدلاً بحيث تتوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها . . إنما ينمو مائلاً جانباً إلى حفنة الممولين المرابين ، القابعين وراء المكاتب الضخمة فى المصارف ، يقرضون الصناعة والتجارة بالفائدة . . المحددة . . المضمونة ، ويجبرون الصناعة والتجارة على أن تسير فى طريق معين ، ليس هدفه الأول سد مصالح البشر وحاجاتهم التى يسعد بها الجميع ، والتى تكفل عملاً منتظماً ، ورزقاً مضموناً للجميع ، والتى تهين طمأنينة نفسية ، وضمانات اجتماعية للجميع . . ولكن هدفه هو إنتاج ما يحقق أعلى قدر من الربح - ولو حطم الملايين وحرّم الملايين وأفسد حياة الملايين ، وزرع الشك والقلق والخوف فى حياة البشرية جميعاً !

« وصدق الله العظيم : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

« وما نحن أولاء نرى مصداق هذه الحقيقة في واقعنا العالمى اليوم ^(١) » اهـ .

فما الذى أوقع المرابين فى هذه النتيجة المخزية المؤلمة ؟!

إنهم نظروا للأمر من زاوية المنفعة الشخصية والفائدة ، فقالوا : ﴿ إنما البيع مثل الربا ﴾ وليس البيع مثل الربا ، فالبيع قابل للمكسب والخسارة ، مكسب غير محدد ، وخسارة غير متوقعة ، ولكن الربا ليس قابلاً للخسارة . . أما المكسب فمحدد مسبقاً .
إن الذين يقنعون بحكم الله فى الربا ، فيتوبون ويتتهون ، فلهم ما سلف من مال جمعوه من الربا ، ولم يؤمروا برد الزيادات الربوية السالفة ، وذلك تشجيعاً للقلوب المحبة للمال على التوبة وتيسيراً عليها .

وقوله تعالى : ﴿ وأمره إلى الله ﴾ يعنى فيما اكتسبوه من قبل من طريق الربا . . وفى ذلك إشعار بالإثم العظيم ، الذى وقع فيه هؤلاء ، حتى إنهم ينتهون فلا يبشرهم بالمغفرة صراحة ، ولكن يكل أمرهم إليه وحده ، يفعل ما يشاء ، حتى إذا همت النفوس الضعيفة بالارتكان إلى ذلك الانتهاء غير المصحوب بالتبشير فتجد عذراً يسوغ لهم الاستمرار على ما هم عليه : لا يجدون أمامهم إلا هذا التهديد العنيف ، والمصير المحقق .

فلا مفر من التوبة ، ولو على وجل من هذا الرصيد المأثوم المجموع من أكل أموال الناس بالباطل .

والتائب الصادق ، أقرب إلى عفو الله - تبارك وتعالى - من عذابه .

ولكن . . . ما يزال من الناس من عبد قلبه للمال ، حتى إن الموعظة لا تنفعه ، والترغيب لا يحفز ، والترهيب لا يفزعه . . ويبقى بعد ذلك كله متمسكاً بقلبه بالمال . فأخبر الله آكل الربا المتعلق به بأنه إما أن يذهبه بالكلية ، أو يحرمه البركة فيه .

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾

ينجر الله تعالى أنه يمحى الربا أى يذهبه ، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه ، وإما أن يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به فى الدنيا ويعاقبه الله عليه يوم القيامة .
إن الله الذى حرم الربا . . يمحى كل ما يظن العبد أنه نفع بالربا أو نهاء منه .

(١) فى ظلال القرآن الطبعة الحادية عشرة دار الشروق ١ / ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أما الصدقات التي يقرضها المرء لله تعالى فإن الله تعالى يريها عنده . . . ويزكيها . . . ويزيدها . . . وفي الحديث الذي رواه البخارى : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يريها لصاحبه كما يربى أحدكم فلوله ^(١) حتى يكون مثل الجبل » ^(٢) .

والذين يخوضون في حدود الله ، ويعتدون على ما أمر به ، ويحرفون ما أراد منهم الاستقامة عليه . . . فإن الله يمحى أعمالهم ، فيذهب جُفَاءً ما اعتقدوا أن فيه نماء أموالهم .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

وبعد ما بين الله لنا بشاعة صور الذين يقومون ويقوم مجتمعهم على الربا . صور كريمة مستبشعة . . . وأموال ممحوقة . . . ضائعة . . . مبدورة . . . يظهر لنا الجانب الآخر . . . جانب حياة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة . . .

« والزكاة » هى الركن الثالث من أركان الإسلام ، والأساس الاقتصادى الذى وضعه الله - سبحانه وتعالى - ليقوم عليه النظام المالى فى الإسلام . . . وقد ضاعت بيننا - من بين ما ضاع - فريضة الزكاة . حتى إنها لم تعد إلا سلوكاً فردياً ، يقوم به الصالحون المحسنون من الناس : سرّاً أو جهراً . وشاعت مرارة المحق والتخبط فى ظلمة نظام ربوى ساحق . . . غاص الناس فيه إلى أمهات رهوسهم ، ثم صاروا إلى أحد أمرين : إما أكل الربا ، وإما مصيب من غباره المثار . . . غبار الحرب من الله ورسوله . وأصبح هذا المجتمع أهلاً لأن يناديه ربه :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

(١) بكسر الفاء وسكون اللام ، أو بفتح الفاء وضم اللام وتضبط بضم الفاء واللام ، والواو المشددة ، وهـو : « الجحش ، والمهر : فطماً أو بلغاً السنة » .

(٢) رواه البخارى - واللفظ له - كتاب الزكاة باب « الصدقة من كسب طيب » ، ورواه مسلم كتاب الزكاة باب « قبول الصدقة من الكسب الطيب » . . إلخ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

والشريعة توضح بجلاء أن كل حرام فالوسيلة إليه مثله ، لأن ما أفضى إلى حرام فهو حرام ، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .
وبعد أيها الأخ المسلم ألا يكفي هذا الإنذار . . ؟ ألا يكفي المخالف التهديد بالحرب من الله ورسوله ؟ وأينا يقدر على ذلك ؟ وأنى للضعيف المتخاذل أن يقف أمام حرب القوى القاهر ؟ .
يقول سيد قطب - رحمه الله تعالى - (١) .

« إنها الحرب المشبوبة دائماً ، وقد أعلنها الله على المتعاملين بالربا ، وهي مسعرة الآن ، تأكل الأخضر واليابس في حياة البشرية الضالة ، وهي غافلة تحسب أنها تكسب وتتقدم كلما رأت تلال الإنتاج المادى الذى تخرجه المصانع . وكانت هذه التلال حرة أن تسعد البشرية لو أنها نشأت من منبت زكى طاهر، ولكنها - وهي تخرج من منبع الربا الملوث - لا تمثل سوى ركाम يخنق أنفاس البشرية ويسحقها سحقاً ، في حين تجلس فوقه شردمة المرايين العالميين ، لا تحس آلام البشرية المسحوقة تحت هذا الركام الملعون ! » أهـ .
أيها المتعاشون مع الربا : إن اتعظتم وانتهيتم ، ﴿ فلكم رءوس أموالكم ﴾ لا يظلم دائن مدينًا ولا يظلم مدين دائنًا .

وَإِنْ كَانَتْ ذُوْعُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لا يجد وفاء ، وهذا استعلاء بالذين آمنوا وتابوا عن التعامل بالربا ، ولا يزال لهم عند الناس مال ، وقد ألغوا ما زادوه من الربا ، ولم يبق لهم إلا أصل المبلغ : أن يمهلوا المدين المعسر إلى وقت الميسرة .
وهو تجديد للمعاملات بصورة ذكية ، يرضاها الله تعالى .
كما أن الآية قد احتوت على بشارة للمدين المقترض ، الذى وقع فى عسر وضيق - بشارة بالميسرة التى تعقب كل عسر . . وكما قال تعالى : ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ (٢) . وعلى الدائن أن يصبر حتى يفرج الله كربة المدين . وهذا فضل ، وإن تصدق الدائن على المدين بما اقترض فهو خير وأفضل ، وله من الله على ذلك أجر كبير . ﴿ وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

(٢) (الطلاق : ٧ .

(١) فى ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ٣٣١ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وعن حذيفة قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتى الله بعبد من عباده ، آتاه الله مالاً ، فقال له : ماذا عملت في الدنيا ؟ - ﴿ ولا يكتُمون الله حديثاً ﴾ - قال : يارب ! آتيتنى مالك ، فكنت أبايع الناس ، وكان من خلقى الجواز ، فكنت أتيّسّر على الموسر وأنظر المعسر ، فقال الله : أنا أحق بذا منك ، تجاوزوا عن عبدى » (١) .

وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

هذا خطاب من الله تعالى للمتعاملين بالربا خاصة ، وللمؤمنين عامة يعظهم ويذكرهم بزوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها ، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا . . يقول لهم فكروا جيداً . . إنكم تعيشون في الدنيا ، إلا أنها حتماً ستنتهى . . لتأتى آخرتكم التى تخلدون فيها . فيومئذ يوفيكُم الله حسابكم ، ويجزيكم أعمالكم وما كسبتم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فاتقوا يوماً لا الأموال ولا الأولاد ، ولا الأزواج تنفعكم أو تغنى عنكم من الله شيئاً . . . إلا طاعة الله وتقواه . . . وذلك حين آمركم أن تفعلوا ففعلتم ، وأن تنتهوا فانتهيتم .

وبعد ، فإن مفسدة الربا عظيمة ، فهى تفوق كونها معاملة استغلالية . . . طبقة عاطلة من الناس ، تستفيد بغير بذل أو تعب . .

فالتجارة مثلاً : حركة يشعر صاحبها أنه يبذل جهداً ما ، ويدفع من عرقه وفكره ما يستحق أن ينال معه الأجر والنفع .

وتحت مظلة الإسلام ، يمكن أن يكون المال فى حركة دائمة . . تتيح للأيدى العاملة أن تعمل فتكسب فتستفيد وتفيد .

كما أن الشريك فى المعاملة الربوية لا يعرف ما مقدار الربح الذى حصله ماله . . حتى وإن عرفه ، فهو محروم منه ، لا يحصل منه إلا نسبة ضئيلة . . وهذا الشريك قد وقع تحت أسر الحاجة ولا شك . . وقد أصابه ظلم شديد ، فإن كان هو المقرض للهيئة المستثمرة للمال ، ويتقاضى على ذلك نسبة معينة ، فتدخل هذه المعاملة تحت باب الربا . . وأما إن قلنا : إنه شريك بالمال : تبين لنا أن الطرف الآخر هو الطرف المستغل

(١) البخارى ، ومسلم ، وفى الفتح الكبير بلفظ « أنا أحق بذلك منك ، تجاوزوا عن عبدى » .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الظالم ، وما فيه استغلال أو احتكار فهو محرم شرعاً ، وليس مما أباح الإسلام ، لأن القاعدة في الإسلام « لا تظالموا » (١) .

وهكذا يمكنك القياس في كل شيء . . ﴿ لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ فلتنظر فيما استجد من المعاملات . . في البنوك . . شركات التأمين . . وشركات الاستثمار . . وشركات الإسكان . وغير ذلك من الأشكال المختلفة لشيء واحد ، هو : « الربا » الذي نهى الله - سبحانه وتعالى - عنه ، وسماه الناس بغير اسمه .

إن لدينا مصدراً للتشريع ، يفتقده الذين نتلقى عنهم تشريعاتنا الاقتصادية وغيرها ونحن لا نعلم أو نعلم أن مجرد التلقى عن غير كتاب الله وسنة رسوله مرفوض في الإسلام . . ذلك أن مشروعية التلقى عند من اعتقد بـ « لا إله إلا الله » ينبغي أن لا تكون إلا من الله وحده . .

ثم نأتى إلى القسم الثالث : حيث يوضح المولى العلاقة المشروعة بين الدائن والمدين ، ويأخذ سبحانه في تهذيب النفوس المسلمة المتعاملة بالمال بأطول آية في كتاب الله فيقول :

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً

(١) من حديث قدسى شريف طويل رواه أبو ذر - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - وفيه « يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا . . » الحديث كما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده من حديث أبى ذر .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

حَاضِرَةٌ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا
تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

في الآية : مشروعية السلف ، والاقتراض المضمون إلى أجل مسمى .
يقول ابن عباس « أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أحله الله وأذن فيه » .
ثم قرأ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .
وعنه أن رسول الله - ﷺ - قدم إلى المدينة ، وهم يسلفون في الثمار : السنة والستين .
فقال رسول الله - ﷺ - : « من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل
معلوم » (١) .

وفيهما أمر من الله تعالى بكتابة القرض المؤجل .
﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ طرف ثالث في العقد ، وهو الكاتب الذي
يكتب بالقسط والحق ﴿ ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ﴾ وتكون استجابته
للكتابة ، وعدم إبطائه شكراً لله على نعمته عليه ، إذ علمه ما لم يكن يعلم ﴿ فليكتب ﴾ ،
﴿ ولا يأب ﴾ وهذا أمر من الله ، أما كيفية الكتابة ، فتكون كما يلي :
﴿ وليملل الذي عليه الحق ﴾ وهو المدين . فيقول : أنا فلان لفلان ، وفي
ذمتي حق وقدره كذا . . إلى أجل قدره كذا . . .
﴿ وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئاً ﴾ يعنى يتقى الله في الإملاء ، ولا ينقص من
حق الدائن شيئاً . ﴿ فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل
هو فليملل وليه بالعدل ﴾ .
وهنا يأتي طرف رابع . . وهو ولي المدين السفيه ، أو الضعيف ، أو الذي
لا يستطيع الإملاء .

والسفيه : هو المحجور عليه بالتبذير أو نحوه . والضعيف : ضعفاً عقلياً أو جسمياً .
والذى لا يستطيع الإملاء : هو المريض أو الجاهل ، وكذلك الغائب .
وفي الشهادة على المداينات : اشترط الإسلام ضرورة توافر شاهدين من الرجال . ثم
جعل احتمال وقوع الضلال أو النسيان سبباً في كون شهادة المرأتين تعادل شهادة

(١) رواه البخارى كتاب السلم باب « السلم في كيل معلوم » ورواه مسلم ، كتاب : المساقاة ، باب :
« السلم » .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الرجل . . وجعل عموم الحكم على ذلك . . فأوقعه على عموم النساء ، وإن كان الأمر لا يخلو من وجود من لا تغفل ولا تنسى . . ثم اشترط المولى : الرضا بالشهود ، وذلك يعنى أن الرضا بالشهود يرجع لأحد سببين :

إما رضا المجتمع المسلم « ويرى الإمام الشافعى - من هنا - وجوب اشتراط العدالة في الشهود » . . وقد يكون سبب الرضا راجعاً إلى طرفي التعاقد ، لا تشتط العدالة في الشهود .

﴿ ولا يَأْبُ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ لأداء الشهادة ببيان ما شهدوه من قبل .
﴿ ولا تَسْأَمُوا ﴾ أى تملّوا : أن تكتبوا الدين صغيراً كان أو كبيراً ، بل اكتبوه وبينوا الأجل المستحق عنده . . وهو الميعاد المضروب مسبقاً لسداد الدين .

إن الله - سبحانه وتعالى - لا يستحى من الحق ، وهذا الذى أمركم به إنما هو أقسط وأعدل عند الله ﴿ وأَقُومُوا لِلشَّهَادَةِ ﴾ أى أنه أوفى أن تقوم الشهادة بالحق ، فلا يجترئ شاهد على قول الزور ، لعلمه بأمر الكتابة ، وكذلك إن كان الشاهد ناسياً لطول الأجل . . فرأى خطه في المكتوب : أيقن وشهد بالحق .

﴿ وأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ أى لا يرتاب بعضكم في بعض ، ولا يشك أحدكم في حسن نية الآخر ، فيكون الرجوع للكتاب في أى وقت ، هو الأمر الذى تطمئن إليه قلوبكم ، وينزع ما فيها من شكوك وريب .

أما في التجارة : فينتفى وقوع ما يحذر ويكره من عدم الأداء أو البخس فيه ، وذلك إن كانت حاضرة يداً بيد . وهذا في الكتابة . أما بالنسبة للشهادة فيقول تعالى : ﴿ وأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ .

وحمله الجمهور^(١) على الندب والإرشاد ، لا الوجوب .
والاحتياط أولى ، وخاصة إذا لم يكن الأداء في الحال : يداً بيد .

﴿ ولا يَضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ لا يضر الكاتب فيكتب خلاف ما يملى ، ولا يضر الشهيد فيشهد بغير ما سمع ، أو يكتم الشهادة . وكذلك لا يضار المتعاقدان : الكاتب ، ولا الشهيد فيؤخر أداء حقيهما والوفاء بأجرهما على الكتابة وعلى الشهادة ، إذا طلبا منهم أجراً ، وكذلك لا يضار الكاتب لكتابته ، ولا الشهيد لشهادته .

(١) انظر ابن كثير في التفسير ٣٣٦ / ١ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أى أن هذا الإضرار بالكاتب والشهيد من أعمال الفسق التى نهى الله عنها . يعنى
اعملوا واتقوا الله ويعلمكم الله بما علمتم بتقوى الله فيه ، يبارك لكم فى عملكم ،
ويزيدكم علماً على علم ، والله بكل شىء عليم .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم
بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ
وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٢٨٣ ﴾

إذا كان طرفا العقد على سفر ، وليس من كاتب يكتب بينهم ﴿ فرهان مقبوضة ﴾ .
والرهان : أى شىء يمتلكه المدين ، ويمكنه الاستغناء عنه لفترة من الوقت ،
تنتهى : إما بالكتابة وإما بالأداء . . ومعنى « مقبوضة » أن الدائن يتسلمها فى يده حين
إعطائه للمدين : ما يريد من مال أو متاع .

فإن كان بينكم من الثقة ما يدعو إلى أن يأمن بعضكم بعضاً . ﴿ فليؤد الذى أؤتمن
أمانته وليتق الله ربه ﴾ .

يقول ابن عباس : كتمان الشهادة من أكبر الكبائر ، وشهادة الزور كذلك .
﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وخص القلب بالإثم لأنه محل الكتمان . فلا تزال
الشهادة تتردد فيه وتؤرقه ، وكما قال - ﷺ - فى حديث صحيح « الإثم ما حاك فى
صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » (١) .

وسمى الكتمان عملاً لأن الأعمال ليست قاصرة على الجوارح ، بل من أهم الأعمال
فى الإسلام الأعمال القلبية . . وعليها يحاسب المرء كما يحاسب على أعمال الجوارح . .
ومن أعمال القلب التوحيد . . والإخلاص . . والخوف ، والرجاء ، والرضا ،
والشوق ، والندم ، والعزم ، والإصرار ، والحب ، والبغض ، والحسد ، والحقد ،
والجزع ، والحرص ، والغفلة ، وغير ذلك وقد كان رسول الله - ﷺ - يكثّر من قول :
« يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك » (٢) .

(١) رواه مسلم كتاب البر باب تفسير البر والإثم . ورواه الترمذى كتاب الزهد باب ٥٢ ، والإمام أحمد فى
مسنده .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده والترمذى فى كتاب القدر باب ما جاء فى أن القلوب بين أصبعى الرحمن ، وقال
هذا حديث حسن . ورواه ابن ماجه فى المقدمة باب فيما أنكرت الجماعة ، وفى الزوائد إسناده صحيح .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِؕ وَاِنْ تَبَدُّوْا مَا فِىْ اَنْفُسِكُمْ اَوْ تَخَفُوْهُ
يُحَاسِبْكُمْ بِهٖ اللّٰهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَّشَآءُؕ وَاللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيْرٌ ﴿٢٨٤﴾

يخبرنا الله تعالى أن له ملك السموات والأرض ، ما فيهن وما بينهن ، وأنه المطلع على ما فيهن لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت . وأخبر سبحانه أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم . إن الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض مطلع على قلوبكم وأنفسكم فمنها أخفيتم فيها فإن الله عليم بما فيها . ثم هو يحاسبكم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فلو أنكم كنتم شراً فالله يعلمه ، أو خيراً فهو يعلمه ، وهو سبحانه القادر على أن يغفر لكم ذلك ، أو يعذبكم عليه إن كان شراً ، له ما يشاء وهو على كل شيء قدير .
ولما نزلت^(١) هذه الآية شقت على أصحاب رسول الله - ﷺ - .

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : « لما نزلت على رسول الله - ﷺ - ﴿ الله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله - ﷺ - ، فأتوا رسول الله - ﷺ - ثم بركوا على الركب فقالوا : أى رسول الله : كلفنا من الأعمال ما نطبق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطبقها . فقال رسول الله - ﷺ - أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله فى إثرها :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (٢٨٥) ﴿ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ قال نعم ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ قال : نعم ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ قال : نعم

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٣٣٨ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦) قال : نعم ^(١) .

ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ ۚ وَكُتِبَ عَلَيْهِ
وَرُسُلُهُ ۚ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفِرَ لَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا
مَا اكْتَسَبَتْ ۚ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا
إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ ۚ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا
بِهِ ۚ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

وقد اختار الله - سبحانه وتعالى - هاتين الآيتين خاتمة لسورة البقرة بعد بيان أحوال
أهل الكتاب مع رسلهم ، ثم بيان شرائع الإسلام تشريفاً للمسلم باتباع محمد - ﷺ -
وشهادة لهم وتكريماً ما بعده تكريم .

وشرف الله المؤمنين ، حين عطفهم في الإيمان على رسوله ، فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾
وزادهم شرفاً حين جمعهم مع رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم في الإيمان به ،
فقال : ﴿ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ ﴾ .
وقالوا ﴿ لَا تَفْرِقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ الآية .

وقولهم هذا هو النتيجة الطبيعية لما سبق أن شهد لهم ربهم به من الإيمان . . . وذلك
خلاف بنى إسرائيل . فالمسلمون قالوا أولاً : ﴿ آمنا ﴾ ثم قالوا ﴿ سمعنا وأطعنا
غفرانك ربنا ﴾ لما وقعنا فيه ببشريتنا من معاص وذنوب .

وعن عبد الله بن مسعود ، عن رسول الله - ﷺ - : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة
البقرة في ليلة كفتاه » ^(٢) .

وعن ابن عباس قال : قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : « أبشر بنورين

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان باب « بيان أن الله تعالى لم يكلف إلا ما يطاق » .

(٢) البخارى كتاب فضائل القرآن باب « فضل سورة البقرة » .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أوتيتهما ، لم يؤتتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته» ^(١) . ولقد كافأهم الله تعالى فجعل التكليف منوطاً بالوسع والطاقة والاستطاعة . .

ونحن نرى أن كل ما أمر به الله تعالى تكليفاً للمؤمنين : إنما هو مما يطيقون . ويسقط الله - سبحانه وتعالى - بعض التكاليف ، أو يؤجلها إذا عرض عليهم عارض لا يؤهلهم لذاتها في حدود اليسر والطاقة . ثم جعل الجزاء بالقباب على الكسب ، لا على مجرد النية ، وما تخفى الصدور ، مهما عظم .

وجعل الجزاء بالثواب على النية والكسب معاً أو منفردين . وفي الحديث ^(٢) « . . . قال الله : إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرًا » .

وفي رواية لمسلم يقول : « ولا يهلك على الله إلا هالك » . ويستمر دعاء المؤمن الصادق الوجل الراجى . . الذى يرتكن إلى ربه الذى خلقه ، والذى يتولاه بما كسب وبما اكتسب ، وتكرر كلمة (ربنا) فيقول : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ .

والمؤمن يدعو ربه بذلك ليكون الدعاء سبباً من أسباب رفع إثم الخطأ والنسيان ، وعدم المؤاخذة عليه .

﴿ ربنا لا تؤاخذنا ﴾ بذنوبنا ، فتغضب علينا وتعاقبنا ، كما عاقبت الأمم قبلنا بالعقوبات القاسية أو التكاليف الشديدة .

﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ واجعلنا قادرين على أداء ما أمرتنا به . ولم يبق بعد ذلك من تمام الخير إلا العفو والمغفرة ، والرحمة والنصرة على الكافرين في الدنيا والآخرة .

﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ﴾ .

(١) مسلم كتاب المسافرين باب « فضل الفاتحة . . إلخ » .

(٢) رواه البخارى كتاب الرقاق ، باب « من هم بحسنة أو سيئة » ، ورواه مسلم كتاب الإيمان باب « إذا هم العبد بحسنة . . إلخ » .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وهكذا يكون دعاء المسلم الذى وعى قلبه الإسلام . . إنه دعاء نابع من عقيدة سليمة . . رأسها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وعمودها السمع والطاعة ، وذروة سنامها الجهاد من أجل الله وليّنا وناصرنا . . الذى لا مولى لنا غيره . . فيه نحب . . وفيه نبغض . . وفيه نعادى وفيه نوالى . . وفيه نعاهد . . وفيه نجاهد .

ويختار الله سبحانه ختامًا لهذه السور الكريمة هذا الدعاء الإيمانى الموحى بما يعيش به وله كل مسلم فى هذا الوجود ، وبما يحيش به قلبه . . وما يحرك ويؤرق . . ويسكن ويطمئن به فؤاد وكيان كل مسلم مجاهد قد تم إيمانه ، وكمل إسلامه ، ووعى دينه . . ووجد ربه . . واتبع رسوله . . وعاهد فوفى . . وأعطى فأبقى . .

﴿ أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

فالولاء لك وحدك ربنا . . والعداء - كل العداء - للقوم الكافرين أعداء الإسلام . . فاجعلنا اللهم ربنا دائماً فى مقام العزة والنصر والتمكين والكرامة .

اللهم زيننا بالجهاد فى سبيلك حتى يكتمل لنا ديننا ويتم لنا نورنا بمعاداة الكافرين الذين يحاربون الحق والإسلام ، فانصرنا عليهم نصرًا مؤزرًا ، ورد عليهم كيدهم ، وتقبل شهداءنا وأيد دعوتنا واكتبنا فى عبادك الصالحين .

وتنتهى سورة البقرة وقد حملت للأمة الإسلامية الكثير والكثير من الآيات والأحكام والعبر والنظم التى تصلح بها حياة الأمة الإسلامية .

سُورَةُ آلِ عَمْرٍاءَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

روى الإمام مسلم بسنده عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرءوا الزهراوين ^(١) ، (البقرة وآل عمران) فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ^(٢) أو كأنهما فرقان ^(٣) من طير صواف ^(٤) تحاجان عن أصحابهما » .

وروى الإمام مسلم أيضاً عن جبير بن نفير قال : سمعت النواس بن سمعان الكلابي يقول : « سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران ^(٥) » .

سبب نزول صدر السورة إلى الآية الثالثة والثمانين :

صدر هذه السورة نزل بسبب وفد نجران ^(٦) . . وكانوا نصارى ، وفدوا على رسول الله - ﷺ - بالمدينة سنة تسع من الهجرة . وكان قدومهم في ستين ركباً ، فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلاً ، في الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يرجع أمرهم ، وهم العاقب واسمه عبد المسيح والسيد وهو الأيهم وأبو حارثة بن علقمة وكان عالمهم - كما ذكرهم جميعاً ابن كثير . فدخلوا على رسول الله - ﷺ - إثر صلاة العصر ، عليهم ثياب الحبرات وهي جيب وأردية . فقال أصحاب النبي - ﷺ - : ما رأينا وفداً مثلهم جمالاً وجلالة . وحانت صلاتهم فقاموا في مسجد النبي - ﷺ - فقال النبي - ﷺ - : دعوهم ، فصلوا إلى المشرق . ثم أقاموا بها أياماً يناظرون رسول الله - ﷺ - في عيسى ويزعمون أنه ابن الله إلى غير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة ، ورسول الله - ﷺ -

(١) الزهراوين : المنيرين .

(٢) الغاية : ما أظلك من فوقك .

(٣) الفرق : القطعة من الشيء .

(٤) الصواف المصطفة المتضامة .

(٥) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين - باب : فضل قراءة القرآن .

(٦) الجامع لأحكام القرآن (باختصار يسير) .

سُورَةُ الْغَاثِ

يرد عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يبصرون ، ونزل فيهم صدر هذه السورة إلى نبيّ وثمانين آية . وقد آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله - ﷺ - إلى المباهلة ^(١) ، لكنهم أبوا منها ، ورضوا بالجزية ، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك ، وعادوا إلى بلادهم . من هذا : نجد أن الله تعالى قد جعل من واجب المسلمين أن يقوموا بدعوة الناس جميعاً إلى الإسلام ، سواء كانوا يهودا ، أو نصارى ، أو على أى دين كانوا . وهذا ما كان يقوم به رسول الله - ﷺ - والمسلمون من بعده .

وفي ذلك دليل وحجة واضحة على أن الإسلام جاء ناسخاً لكل ما سبقه من شرائع ودساتير يقول الله تعالى :

﴿ إِن الدّين عند الله الإسلام ﴾ ^(٢) . ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ^(٣) .

الْحَىُّ الْقَيُّومُ

سبق أن تكلمنا في [الم] في سورة البقرة وكذلك عن قوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) بما يغنى عن إعادة القول هنا والله الحمد والمئة .

ولكن الله سبحانه وتعالى حكمة في إعادة قوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ في هذا الموضع وهذه المناسبة ، حيث تجابه الآية مزاعم الذين يدّعون ألوهية عيسى - عليه السلام - .

إذ في قوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ نفى قاطع لألوهية أحد أيّا كان - غير الله سبحانه وتعالى . وقوله تعالى ﴿ الحى ﴾ أى الذى لا يموت وقد مات عيسى - عليه السلام - فى زعمهم - فهى تنفى ألوهية عيسى ﴿ القيوم ﴾ فالقيوم أى القائم على سلطانه لا يزول وقد زال عيسى فكيف يكون إلها ؟

وقد اعترف نصارى نجران بذلك كما سبق فى سبب نزول الآيات ، ولكن الدنيا استعبدتهم فلم يؤمنوا برسول الله - ﷺ - . وكفرهم بمحمد - ﷺ - كفر بعيسى - عليه السلام - ومثلهم فى ذلك اليهود ولعنهم الله .

(١) أن يجتمع القوم إذا اختلفوا فى شىء فيقول كل منهم (لعنة الله على الظالم منّا) . وذلك بعد المناظرة

(٢) آل عمران : ٨٥ .

(٣) آل عمران : ٨٥ .

سُورَةُ الْغَاثِ

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو
 أَنْتِقَامٍ ﴿٤﴾

تقرير من الله أن القرآن هو الكتاب ، كأنه هو الحقيق أن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه . فهو الكتاب الذي لا يعلوه كتاب وهو فوق كل ما سبقه من كتب . والقرآن الكريم نفسه جعل للتوراة والإنجيل قيمة تاريخية حينما اعترف بنزولهما من عند الله . ولكنه قرر، وقراره حق ، ما يفيد أن أيدي اليهود قد عبثت بهما . انظروا ماذا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾^(١) .

وقوله : ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ أى من الكتب السابقة ، فقد أنزل الله سبحانه التوراة على موسى - عليه السلام - والإنجيل على عيسى - عليه السلام - وكان فيهما هدى للناس من قبل نزول القرآن ، وقبل عبث المغرضين الذين حرفوهما وطمسوا ما فيهما من هدى . فتكرم الله عز وجل وأنزل القرآن العظيم على محمد - ﷺ - الذى حوى بين آياته ما تحتاجه البشرية من نظم تشريعية ، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية أم أخلاقية إلى قيام الساعة .

ولقد اشتمل القرآن على ما يحتاجه البشر فى كل نواحي حياتهم ، من حلال وحرام ، وعلى كل ما تقوم به حاجة الإنسان فى هذه الحياة ، ليقوم بوظيفته التى خلق من أجلها ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾^(٢) . ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾^(٣) ولذلك فقد تعهد سبحانه بحفظ هذا الكتاب فلا يستطيع أحد أن يحرف منه شيئا ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾^(٤) . فهو الكتاب الوحيد الباقي على مر الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وذلك بحفظ الله له ، وبقيام المؤمنين به فى العالمين يبلغونه ويدعون إلى هديه .

(١) سورة البقرة : ٧٩ .

(٢) سورة البقرة : ٣٠ .

(٣) الذاريات : ٥٦ .

(٤) الحجر : ٩ .

سُورَةُ الْغَاثِ

فالقُرآن كتاب الله . والعالم كله مدعو للإيمان به وبالنبي الذي أنزل عليه . والناس أمام هذا الكتاب ونبيه - ﷺ - فريقان : مؤمنون وكافرون فالمؤمنون من آمنوا بمحمد - ﷺ - وبالكتاب الذي أنزل عليه .

يقول الله تعالى في سورة محمد ﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾^(١).

والكفار هم الذين لم يؤمنوا بمحمد - ﷺ - وهم : فريقان : أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى الذين كفروا بمحمد - ﷺ - وبكتاب الله . والفريق الآخر الذين لم يؤمنوا بنبي أصلاً ولا بكتاب نزل .

يقول تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾^(٢) . فالآية الكريمة حكمت على من كفر برسول الله محمد - ﷺ - من أهل الكتاب بالكفر .

وهذا هو حكم القرآن ، وأجمعت على ذلك الآية سلفاً وخلفاً ، وليس بعد حكم الله حكم وليس بعد قول الله قول .

والكفار بجميع فرقهم هم المقصودون بقول الله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ فانتقام الله شديد ، وخصوصاً من أولئك الذين عرفوا الحق وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق . فمن يؤمن بالتوراة أو بالإنجيل أو بهما معاً فإن إيمانه مردود غير مقبول حتى يؤمن بخاتم المرسلين محمد - ﷺ - وكتابه . فمن آمن من الناس بنبي وكفر بنبي فهو كافر بالأنبياء جميعاً . وإيمانه بالبعض لا ينفعه شيئاً يوم القيامة .

إن دعوى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنهم مؤمنون بالتوراة مردودة عليهم حتى يسلموا وجوههم لله ، ويؤمنوا بخاتم رسله - ﷺ - وكتابه .

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾^(٣) . فالأمة الوحيدة على ظهر الأرض التي آمنت بالله بحق ، ولم تفرق بين أحد من رسله ، إذ تؤمن

(٣) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) البينة : ١ / ٢ .

(١) محمد ، ٢ .

سُورَةُ الْغَاثِ

بالأنبياء جميعا ، وبكتب الله المنزلة كلها - هي الأمة المسلمة التي تشرفت بالتسليم والتصديق بما أنزل على محمد - ﷺ - ، فاستحقت أن يقول الله في شأنها : ﴿ كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ^(١) .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾

إن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه كفر من كفر ، ولا إيمان من آمن ، فهو مطلع على كل شيء . فعلمه سبحانه محيط بكل شيء في الأرض والسماء لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ ^(٢) ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ ^(٣) . فهو سبحانه وتعالى العالم بما كان وما يكون . فكيف يكون غيره إلها وهو لا يتصف بشيء من ذلك ؟ هو الخالق القادر الحكيم ، خلق من النطفة علة ومن العلة مضغة ومن المضغة عظاما ، فكسا - سبحانه جلّت قدرته - العظام لحما ثم صوره فأبدع صورته . ﴿ الذي خلقك فسواك فعدلك ﴾ في أي صورة ما شاء ركبك ﴿ ^(٤) . ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ أي هو الذي خلق وهو المستحق للألوهية وحده لا شريك له ، وله العزة التي لا ترام ، والحكمة والأحكام . وهذه الآية دليل على أن عيسى بن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر ، لأن الله صورته في الرحم وخلقها كيف يشاء ، فكيف يكون إلها كما زعمته النصارى ؟ ^(٥) .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ۚ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْآلِ الْبَيْتِ ﴿٣﴾

أنزل الله عز وجل القرآن ﴿ منه آيات محكمات ﴾ واضحات الدلالة ومنه ﴿ آخر متشابهات ﴾ وهي ما استأثر الله بعلمها دون خلقه .

(١) آل عمران : ١١٠ . (٢) غافر : ١٩ . (٣) لقمان : ١٦ . (٤) الانفطار : ٧ ، ٨ . (٥) ابن كثير : ١ / ٣٤٤ .

سُورَةُ الْغَاثِ

وجعل سبحانه الآيات المحكمات ﴿ هن أم الكتاب ﴾ فإذا رددنا التشابه إلى المحكم صار القرآن كله محكما .

وللعلماء كثير من الكلام في معنى التشابه :

يقول القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن في هذا الموضع ما نصّه ^(١) : « اختلف العلماء في المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة ، (منها أن) . . . المحكمات من آى القرآن ما عرف تأويله وفُهم معناه وتفسيره . والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه . . . وذلك مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والدجال ، وعيسى ، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور ^(٢) . قلت : هذا أحسن ما قيل في التشابه . » إلى غير ذلك من الأقوال ^(٣) .

وعندما أخبرنا الله تعالى عن القرآن كله بأنه محكم ، كما في قوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ ^(٤) فإن هذا الإخبار لا يعارض قوله ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ لأن الإخبار بالأحكام في الآية الأولى معناه كما يقول القرطبي أيضا : إحكام « في النظم والرصف وأنه حق من عند الله » . ومعنى ﴿ كتابا متشابهات ﴾ ^(٥) التى وردت في موضع آخر من القرآن أى يشبه بعضه بعضا ، ويصدق بعضه بعضا ، فهى لا تتعارض أبدا مع قول الله ﴿ وأخر متشابهات ﴾

ولزائغى العقيدة فى اتباع ماتشابه منه أسلوب متميز من التشكيك فى هذا الكتاب العزيز ؛ فمنهم من شكك فى بعض آياته بسبب عدم نقطه وشكله ، يريد أن يحرف الكلم عن مواضعه كما حدث فى التوراة والإنجيل ، ومنهم من قال باختلاف بعض كلماته ، وما علم أنه اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تناقض وتضاد ، ولكنهم لم يحققوا ما ربههم لسبق عناية الله بكتابه وحفظه له .

﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ .
فالله سبحانه وتعالى يبين لعباده موقف الراسخين فى العلم من التشابه من الآيات ليكونوا مصابيح هداية لهم . إنهم يقولون ﴿ آمنا به ﴾ أى بالتشابه ﴿ كل من عند

(١) تفسير القرطبي : ٩ / ٤ . (٢) وهو قول : جابر بن عبد الله ومقتضى قول الشعبى وسفيان الثورى وغيرهما .

(٣) انظر : تفسير القرطبي : ٩ / ٤ - ١٠ . (٤) هود : ١ .

(٥) الزمر : ٢٣ ، وانظر : القرطبي ٤ - ١٠ .

سُورَةُ الرِّعْدِ

ربنا ﴿ القرآن كله ، محكمه ومتشابهه ، من عند ربنا حق وصدق وكلام الله لا يتناقض ولذلك قال ربنا ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ ^(١) أى إنما يعقل ويفهم عن الله ، ويتدبر المعانى على وجهها ذوو العقول السليمة والفهوم المستقيمة . فهم يؤمنون به كله ويقفون حيث وقف ويكلون علم ما جهلوه إلى الله تعالى .

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾

الراسخون في العلم ، الصادقون ، المصدقون بالله وبكلماته ، يخافون على أنفسهم أن تزيع قلوبهم عن الهدى بعد أن هداهم الله ، ولذلك : يدعون ربهم في تواضع وانكسار وخوف ووجل بهذا الدعاء راجين أن يثبت الله به قلوبهم ويجمع به شملهم ويزيدهم به إيماناً و يقينا .

لذا ينبغي للمسلم أن ينهج نهج الراسخين في العلم ، ويتخذهم قدوة في موقفهم من المتشابه ، وفي خوفهم على أنفسهم أن تزيع قلوبهم ، فيتضرع إلى الله دائماً ، قائلاً ، مثلما يقولون :

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾

هذا من تنمة دعاء الراسخين في العلم وذلك بعد أن دعوا ربهم أن يصونهم من الزيغ عن الهوى بعد أن تفضل الله سبحانه بهدايتهم ، إذ ليس الغرض من هذا الدعاء : ما يتعلق بمصالح الدنيا فإنها زائلة ، وإنما الغرض الأعظم ما يتعلق بالآخرة ، فإنها المقصد والمآب . يقولون في دعائهم : إنك ياربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم ، وتفصل بينهم ، وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه وتجزى كلا بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾

يقرر الحق سبحانه أن الذين كفروا بطوائفهم كلها على ما سبق تفصيلهم في الآية الرابعة في هذه السورة ﴿ لن تغنى عنهم أموالهم ﴾ التى يجلبون بها المنافع لأنفسهم ،

(١) الرعد : ١٩ .

سُورَةُ آلِ عَمْرٍاءِ

والتي كانوا ينفقونها في محاربة دين الله ، وليصدوا عن سبيل الله ﴿ولا أولادهم﴾ الذين كانوا يتناصرون بهم في الدنيا ﴿من الله شيئاً﴾ أى من عذاب الله تعالى شيئاً . وهم حطب جهنم الذى توقد به .

﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ ^(١) ويقول تعالى أيضاً ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ ^(٢) .

هذا مصير الذين كفروا وكذبوا رسله ، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ، بل جعلوا لحياتهم منهجاً غير منهج الله وكانوا يضعون العقبات أمام دعوة الله حتى لا تصل نقيه كما أنزلها الله إلى خلق الله . هذا حالهم يوم القيامة . اللهم إنا نعوذ بك من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ

شَدِيدُ الْعِقَابِ

إن موقف المعادين للرسول واحد لا يختلف . فدأب المعادين لسيدنا محمد - ﷺ - ، بدءاً من كفار مكة إلى قيام الساعة ، كدأب آل فرعون تظاهروا على موسى - عليه السلام - ، وادعى فرعون الألوهية ودعا الناس إلى عبادته من دون الله إلى آخر ما فعل . ﴿والذين من قبلهم﴾ من الأمم الكافرة ﴿كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب﴾ هذا وعيد وتهديد لمن يقف من دعوة رسول الله - ﷺ - موقف المكابر المعاند المحارب . وهو وعيد وتهديد لمن لا يتجاوب مع الحق الذى جاء به محمد - ﷺ - . فكما فعل الله ما فعل بالأمم السابقة على ما فصلته آية (العنكبوت) ^(٣) . فإن الله - القوى الجبار المنتقم - يوشك أن ينزل بمن تشابهت مواقفهم من دعوة خاتم المرسلين ، من عناد وجحود وإعراض ومحاربة ، مثل ما أنزل على كفار الأمم السابقة .

يقول ابن كثير في هذا الشأن : « إن الكافرين لا تغنى عنهم الأموال ولا الأولاد ، بل يهلكون ويعذبون ، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسول فيما جاءوا به من آيات الله وحججه » ^(٤) .

(٢) التوبة : ٨٥ .

(١) غافر : ٥٢ .

(٣) وهى قوله تعالى ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ آية - ٤٠ .

(٤) تفسير ابن كثير : ١ - ٣٤٩ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾

قل يا محمد للكافرين ﴿ ستغلبون ﴾ أى فى الدنيا ، ﴿ وتحشرون ﴾ أى يوم القيامة ﴿ إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ . فيا من تكفرون برسول الله - ﷺ - ، ويا من تعارضون وتحاربون دعوة الله ، آمنوا خيرا لكم من قبل أن يحقق الله فيكم وعيده ، فلن تغنى عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئا وخذوا العبرة من أسلافكم ، كيف فعل الله بهم ﴿ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ (١) . ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٢) .

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ الْأَتَقَاتِ فُتِّلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ
كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

فى موقعة بدر الكبرى انتصر المسلمون على الكفار ، وكانت معركة غير متكافئة من ناحية العدد فى الطرفين إذ إن عدد جيش المسلمين كان قليلاً جداً ، رجالاً وعتاداً وأسلحة ، إذا قارنا ذلك بالمشرىين .

وهذا النصر الإسلامى : يضربه الله مثلاً وعبرة للماديين ، المغترىين بقوتهم وعتادهم ، الظانين أنهم يستطيعون استئصال شأفة هذا الدين .

وفى الآية : تقوية لمعنويات المسلمين على مدار التاريخ . فإن الله ناصرهم ، إن عاجلاً أو آجلاً ، ما دافعوا عن دين الله وفى سبيل الله ، مهما قلّ عددهم ، بشرط أن يكون جهادهم فى سبيل إعلاء دين الله وحده .

﴿ قد كان لكم ﴾ أيها المشركون كافة واليهود خاصة ﴿ آية ﴾ عبرة وعظة ودرس لا ينسى على أن الله ناصر دينه مهما تعاونتم وتآمرتم على هذا الدين ﴿ فى فتن التقتا ﴾ فئة مؤمنة ، هم المسلمون بقيادة رسول الله - ﷺ - فى غزوة بدر ، وفئة كافرة بقيادة أبى جهل ، ﴿ فئة تقاتل فى سبيل الله ﴾ وهى الفئة المؤمنة ﴿ وأخرى كافرة ﴾ تقاتل فى سبيل الطاغوت ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ (٣) . ﴿ يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ أى يرى المشركون المسلمين ضعف

(٣) النساء : ٧٦ .

(٢) ق : ٣٧ .

(١) النور : ٤٤ .

سُورَةُ الْغَاثِ

عددهم قذفا للرعب في قلوبهم حتى يرهبوه ويحبسوا عن قتالهم ، وهذا مدد من الله تعالى . ﴿ إن في ذلك لعبرة ﴾ لمن له بصيرة وفهم ليهتدى به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجارى بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . .

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾

يبين الله سبحانه وتعالى حقيقة الدنيا في هذه الآية وأنها لا تنفع أصحابها الذين يدورون في فلکها ، بعد أن ذكر ذلك في آية سابقة .

ولله حكمة بالغة في تزيين هذه الشهوات لكل الناس ؛ فمن أخذها بحققها ، وابتغى بها الدار الآخرة ، فله عند الله حسن المآب .

ومن أخذها بغير حقها ، وعاش لأجلها ، وألهته عن آخرته ، فسيكون وقوداً لجهنم .

فمن آمن بالله ورسوله وسار على منهجه يعرف حقيقة هذه الشهوات كلها ، ويعلم أن في تزيينها للناس فتنة لهم ولن ينجو من غوائلها إلا إذا عرف حق الله وقام به في هذه الأشياء كلها ، ولم ينشغل بها عن آخرته .

وهذه الشهوات : تارة تكون فتنة ، وتارة تكون نعمة على صاحبها .

والنساء : أول من قُدِّم في الذكر ، يقول الرسول - ﷺ - « ما تركت بعدى فتنة أضرَّ على الرجال من النساء » (١) .

إذ إن المرأة التي بعدت عن الإسلام : هي الفتنة الكبرى على الأمة في كل أمورها ، في خروجها فتنة ، وعلى زوجها فتنة ، وعلى أبنائها فتنة .

وإذا لم تفق الأمة من غفلتها عن نسائها ، فلا يقومون بتربيتهن على منهج : فإنه بداية الدمار ، وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » (٢) .

(١) رواه : البخارى كتاب النكاح باب ما يتقى من شؤم المرأة - واللفظ له - وكذا : مسلم في صحيحه ، والإمام أحمد في مسنده ، والترمذى والنسائى في سننهما .

(٢) كتاب الذكر باب أكثر أهل الجنة . الخ .

سُورَةُ الْغُفْرِ

وعليه : إذا صلحت المرأة : فلا يكون الأولاد فتنة ، ولن يكون المال فتنة ، ولا يكون أى شىء من شهوات الدنيا فتنة على صاحبه ، لأن المرأة الصالحة عماد البيت المسلم ، وهى التى تربي أبناءها على الإسلام ، فكيف تأتى الفتنة منهم وهم عناصر صالحة فى المجتمع لا معاول هدم ، وستكون وزيرا لزوجها مخلصا إذا خرج إلى عمله تذكره : « اتق الله ولا تأكل حراما فإننا نصبر على الجوع فى الدنيا ولا نصبر على النار يوم القيامة » .

إن صلاح المرأة صلاح للمجتمع كله ، فليعتبر أصحاب العقول الراشدة هذه القضية وليعلموا من أين يأتى البناء ومن أين يأتى الهدم .
ثم . . حب البنين .

يقول ابن كثير « وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة ، فهو داخل فى هذا . وتارة يكون لتكثير النسل ، وتكثير أمة محمد ﷺ - ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محمود ممدوح » (١) .

﴿ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ ۝١٥﴾

بعد ما ذكر الله عز وجل عاقبة من نجا من شهوات الدنيا ونعمها ، واستعملها فيما يرضيه سبحانه ، بأن لهم عنده حسن المآب : ذكر عز وجل بعض ما أعده الله لهؤلاء العباد الصالحين .

يقول الحق تبارك وتعالى لنبيه - ﷺ - ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ﴾ الشهوات المزيّنة للناس فى الدنيا ؟ ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ . يقول ابن كثير « أى تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار ، من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء ، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (٢) . ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أى من الدنس والفحش ومن كل عيب خُلِقَ أو خُلِقَ وفوق هذا كله ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ وذلك بالتزامهم بشريعة الله فى حياتهم . ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أى يعطى كلا بحسب ما يستحقه من العطاء .

(١) تفسير ابن كثير : ٣٥١ / ١ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٣٥٢ / ١ .

سُورَةُ الْغُفْرِ

ثم فصل الله عز وجل في وصف هؤلاء المتقين الذين استحقوا من الله تعالى هذا الثواب الجزيل برحمته وفضله ، فقال جل شأنه :

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾
الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

إنهم المؤمنون بالله ، وبكل ما أنزل من كتب ، وما أرسل من رسل ، إيماناً راسخاً ، فهم يتوسلون إلى الله سبحانه بهذا الإيمان أن يغفر لهم ذنوبهم ، ويقيهم عذاب النار ، الذي كانوا يحذرونه بأعمالهم الصالحة في الدنيا .

يذكر القرطبي أنه اختلف في معنى قوله تعالى ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ فقال أنس ابن مالك : هم السائلون المغفرة . وقال قتادة : المصلون . ثم يقول القرطبي « ولا تناقض فإنهم يصلون ويستغفرون » ^(١) .

قال الحاكم : في الآية دلالة على أنه يجوز للداعي أن يذكر طاعاته وما تقرب به إلى الله ثم يدعو ، ويؤيده ما ورد في الصحيحين من حديث الثلاثة الذين التجئوا إلى غار فوقعت على باب الغار صخرة فسدت عليهم الباب فتوسل كل واحد منهم بشيء من صالح عمله ^(٢) .

إن هؤلاء المؤمنين الذين يفوزون بنعيم الله الخالد هم من برهنت أعمالهم على إيمانهم . روى البخاري عن النبي - ﷺ - قال : سيد الاستغفار أن تقول « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . قال : من قالها بالنهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة . ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة » ^(٣) .

(١) القرطبي : ٣٨ / ٤ .

(٢) انظر : القصة في صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار .

(٣) كتاب الدعوات باب لكل نبي دعوة مستجابة .

سُورَةُ الْاٰلِ اِمْرَانٍ

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

شهد الله تعالى - وكفى به شهيدًا ﴿﴾ أنه لا إله إلا هو ﴿﴾ أى المنفرد بالالوهية لكل المخلوقات ﴿﴾ والملائكة ﴿﴾ المقربون ﴿﴾ وأولوا العلم ﴿﴾ يقول ابن كثير : « وهذه خصوصية عظيمة للعلماء فى هذا المقام » (١) . ﴿﴾ قائما بالقسط ﴿﴾ أى قائما بين خلقه بالعدل التام من أحكامه ﴿﴾ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴿﴾ (٢) .

إنها أكبر قضية وهى قضية الوجدانية . ولعظيم شأنها شهد الله عليها والملائكة وأولو العلم . إنها القضية التى جاءت الكتب السماوية كلها لتقررهما وتؤكداهما للناس .

إِنَّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ أَلَّا يُسَلَّمَ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَأْتِ اللَّهَ فَاِتَّ اللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

إن دين الله واحد ، وقد بعث الله به جميع أنبيائه . ولا يقبل الله من البشر ديناً غير الإسلام : ﴿﴾ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴿﴾ (٣) .
فهذا نوح - عليه السلام - يقول ﴿﴾ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴿﴾ (٤) .
وهذا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ﴿﴾ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴿﴾ (٥) .

وهذا يعقوب - عليه السلام - يوصى أبناءه ﴿﴾ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴿﴾ (٦) .
وهذا موسى - عليه السلام - ﴿﴾ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴿﴾ (٧) - ﴿﴾ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا . ﴿﴾ (٨) .

وهذا يوسف - عليه السلام - ﴿﴾ توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴿﴾ (٩) .

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٥٣ .	(٢) النساء : ٤٠ .	(٣) آل عمران : ٨٥ .
(٤) يونس : ٧٢ .	(٥) البقرة : ١٢٨ .	(٦) البقرة : ١٣٢ .
(٧) يونس : ٨٤ .	(٨) المائدة : ٤٤ .	(٩) يوسف : ١٠١ .

سُورَةُ الْغَاثِ

وهؤلاء سحرة فرعون وقد آمنوا بموسى - عليه السلام يقولون ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا
وتوفنا مسلمين﴾ (١).

وهذه ملكة سبا وقد آمنت بسليمان - عليه السلام - ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب
العالمين﴾ (٢).

وكل هذه دلائل واضحة على أن الدين الذي تعبد الله به البشرية من يوم هبوط آدم
إلى الأرض إلى قيام الساعة هو الإسلام .

يقول الإمام القرطبي « الدين في هذا الآية : الطاعة والملة ، والإسلام بمعنى :
الإيمان والطاعات » (٣).

والإسلام : ليس فقط مجرد دعوى تدعى ، وليس مجرد كلمة تقال باللسان ، ولا
حتى تصورا في القلب ، وليس شعائر فردية يؤديها الأفراد في صلاة وحج وصيام ،
وليس إقرارا في الدساتير بأنه هو الدين الرسمي .

إنما الإسلام : هو الاستسلام .

فالإسلام : هو الطاعة والانقياد لله ورسوله ، وهو تحكيم شريعة الله في العباد ،
وهو منهج يقوم حياة الناس .

هذا هو الإسلام الذي بُعث به الرسل . .

وما اختلف أهل الكتاب في عقيدة الإسلام ، من توحيد الألوهية ، وإفراد الله وحده
بالانقياد له والطاعة له - عن جهل منهم بالحق ، ولكن اختلفوا عن علم .

وهذا تشنيع فظيع من الله عليهم ﴿ بغيا بينهم ﴾ حسدا وحقدا . فقد أخبر الله
عنهم بأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

ثم يهددهم الله تعالى بسرعة حسابهم إذا استمروا على عنادهم وكفرهم .

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ

ءَاسَلَّمْتُ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٢٦﴾

(١) الأعراف : ١٢٦ .

(٢) النمل : ٤٤ .

(٣) القرطبي ج ٤ ص ٤٣ .

سُورَةُ الْغُفْرِ

فإن جادلوك في التوحيد يا محمد بعد أن أقمت عليهم الحجة واضحة جلية ، فاجعل جوابك عليهم ، أسلمت نفسي لأوامره وآياته ، وأخلصت لطاعته وحده لاشريك له ، ومن اتبعنى كذلك .

﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم جميعاً . وهو الذى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة . ولهذا قال الله تعالى ﴿والله بصير بالعباد﴾ أى هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة ، وهو الذى ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون﴾^(١) وما ذلك إلا لحكمته ورحمته كما يقول ابن كثير^(٢) .

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دلّ عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿قل يأياها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾^(٣) - ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾^(٤) .

والهداية تتمثل في صورة واحدة ، هى صورة الإسلام الذى أنت عليه ومن اتبعك . وهذه الآية كذلك - مع غيرها - أبلغ رد على دعوى عدم عموم رسالته - ﷺ - التى يقوم بحمل لوائها بين حين وآخر أفراد لا يرجون لهذا الدين أن تشرق شمس على العالم ، ويريدون أن يصيبوا الإسلام في مقتل ، ويلصقوا به تهمة القصور . وهيئات هيهات أن يصل هؤلاء الأفاكون إلى غرضهم ، والله من ورائهم محيط ، وإن ربك لبالمرصاد .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّكَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١﴾

في هذه الآية يعرض الله سبحانه وتعالى موقف الكافرين بالله وآياته من الأنبياء ومن الذين يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر بين الناس .

إذ إن هؤلاء الكفار لم يقاتلوا أفراداً من الناس ولكنهم يقتلون صفوة الخلق لأنهم يريدون أن يعلو باطلهم وكفرهم ، ويظهر في الأرض ، ولكن هذى الأنبياء يبدد هذه الآمال ، ودعوة الأنبياء تزهد باطلهم .

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥٤

(١) الأنبياء : ٢٣ .

(٤) الفرقان : ١ .

(٣) الأعراف : ١٥٨ .

سُورَةُ الْعَمَّارِ

إن مواقف الكفار من دعوة الله واحدة على مر الزمان : إنهم لا يواجهون الحجة بالحجة ، ولكن يواجهون الحجة بالعنف ، وبالقتل وبالتعذيب ، وبالتشريد لأصحاب الدعاوات الربانية .

والمستقرئ لمواقف الطغاة مع الأنبياء في كتاب الله يرى ذلك واضحاً :
فهذا موقف نوح - عليه السلام - منه ، إذ قالوا له ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ ^(١) وهذا موقف أبى إبراهيم - عليه السلام - ، يقول له ﴿ لئن لم تنته لأرجنك وأهجرني ملياً ﴾ ^(٢) وهذا موقف قومه منه : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ﴾ ^(٣) وهذا موقف أهل مدين من شعيب - عليه السلام - ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ ^(٤) .

وهذا موقف فرعون من موسى - عليه السلام - : ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه ﴾ ^(٥) وهذا موقف الكافرين من أصحاب الكهف : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ ^(٦) .

وهؤلاء كفار مكة يمكرون برسول - ﷺ - : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ ^(٧) .

ولخص الله مواقف الكافرين من رسلهم في آية واحدة فقال : ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ ^(٨) .

إنها سياسة واحدة ، في القديم والحديث ، للذين يكفرون بآيات الله ، من دعوة الرسل ، كما ذكرت الآيات .

إن الصراع قائم إلى قيام الساعة ، ما دام على الأرض حق يجاهد في سبيله مسلمون ، وما دام هناك باطل له سدنة يحمونه ويحرسونه ويحاربون في سبيله .

وما تزال هناك أساليب من تضليل الناس ومحاربة أهل الحق قائمة في عصرنا الحديث ، إذ تعلق المشانق في بلاد المسلمين بين الحين والحين ، وتفتح السجون

(٣) العنكبوت : ٢٤ .

(٦) سورة الكهف : ٢٠ .

(٢) مريم : ٤٦ .

(٥) سورة غافر : ٢٦ .

(٨) سورة إبراهيم : ١٣ .

(١) الشعراء : ١١٦ .

(٤) الأعراف : ٨٨ .

(٧) سورة الأنفال : ٣٠ .

سُورَةُ الْغَنَاقِ

للمسلمين - وللمسلمين ﴿ الذين يأمرون بالقسط ﴾ فقط - يسامون فيها أشد العذاب .
 ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾
 مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وأنذر الناس يوم يأتهم
 العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل أو لم
 تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم
 وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن
 كان مكروهم لتزول منه الجبال * فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو
 انتقام ﴿ (١) .

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَیْطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِنَ
 نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

الذين يجاربون أهل الحق ويضيقون عليهم ، ويجاربون الفضيلة وأهلها ؛ هؤلاء
 بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، فخسروا دنياهم وأخراهم ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ في
 الآخرة ، بعد أن كان لهم من ينصرهم ورهن إشارتهم في الدنيا ، ينفذون أوامرهم في فتنة
 المسلمين ، عن دينهم ، وفي سجن علماء المسلمين وتعذيبهم . أين هم وقت
 احتياجهم إليهم ؟ هل ينفعونهم ؟ هل يحملون عنهم قسطا من العذاب ؟ كلا !! .
 ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ (٢) .

سيتبرأ بعضهم من بعض : الحاكم والمحكوم ، والتابع والمتبوع ﴿ إذ تبرأ الذين اتَّبَعُوا
 من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ وقال الذين اتَّبَعُوا لو أن لنا كرةً
 فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من
 النار ﴿ (٣) .

أما أنتم يا أهل الحق فكفاكم فخرا ما تلاقونه في سبيل الله ، وسبيل مرضاته ، وأن
 طريقكم الذي تسرون عليه هو طريق رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .
 واعلموا أن في ذلك تمحيصا لإيمانكم ، وهذه سنة الله في المؤمنين اقرءوا قول الله تعالى :

(١) إبراهيم : ٤٢-٤٧ .

(٢) فاطر : ١٨ .

(٣) البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧ .

سُورَةُ الْغُثَرَانِ

﴿ أَلَمْ * أَحْسَبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾^(٣).

ولكم في إبراهيم - عليه السلام - أسوة حسنة ، ولكم في أصحاب الأخدود أسوة حسنة ، ولكم في أتباع عيسى - عليه السلام - أسوة حسنة ، ولكم في بلال وآل ياسر وصهيب وغيرهم وغيرهم على طريق الإسلام قبلكم أسوة حسنة . أما أعداؤكم !! أما من يحاربونكم !! فكفاهم خزيا وذلة أن قدوتهم فيما يقومون به : هم أعداء الرسالات على مر العصور .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مَّا مَرَّضُونَ ﴿٣٤﴾

إنه سؤال للتعجب والتشهير من المواقف المتناقضة لأهل الكتاب .
اليهود : أوتوا التوراة ، وهو نصيب من الكتاب .
والنصارى : أوتوا الإنجيل ، وهو نصيب من الكتاب .
كل يدعى الإيمان بالكتاب الذى عنده ، وإذا دعوا إلى تحكيم كتاب الله الذى بأيديهم من إيمان بمحمد - ﷺ - : ﴿ يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾ ، ويؤمن فريق آخر .

يقول ابن كثير: ينكر الله تعالى «على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابتهم للذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد - ﷺ - تولوا وهم معرضون عنها . وهذا في غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد»^(١).

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسُقَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٥﴾

إنهم ليسوا صادقين في إيمانهم بقاء الله . ومن أين علموا أن النار لن تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات ؟ إنهم هم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم ، واختلفوا ، ولم ينزل الله به سلطانا . ومن أين يأتيهم صدق الإيمان وهم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون ؟

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥٥ .

(١) العنكبوت : ١ - ٣ .

سُورَةُ الْغَاثِ

ولا يجتمع - في قلب واحد - إيمان بالآخرة وخوف من الله ، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله في كل شئون الحياة .

هذه هي عقيدتهم باليوم الآخر ، وهذا ما جرأهم على الإعراض عن دعوة من يدعوهم إلى كتاب الله ليحكم بينهم وهذا فضح من الله لا فتراءاتهم . فهل نتعظ ؟!!!

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

فكيف إذا جمعهم الله هم ومن سار على طريقهم ، بل الناس جميعا ﴿ ليوم لا ريب فيه ﴾ ويجرى العدل الإلهي مجراه ، ويحاسبون عن كل ما فعلوه ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت ﴾ بلا ظلم ولا محابة ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ ؟

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

يقرر الحق تبارك وتعالى درسًا للرسول - ﷺ - ولكل مسلم صادق يفيد : أن مُدَبِّرَ الكون وما فيه ومن فيه ، ومالكه الحقيقي : هو الله وحده لا شريك له .

فأنت وحدك يا الله الذي بيدك الملك كله ، فتؤتيه من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، اختبارًا منك ، وابتلاءً لخلقك . فلا يظنَّ جبار من جبابرة الأرض : أن ملكه لا يزول ، ولا يظنَّ محارب لله وهديه : أنه سيخلد في الدنيا .

إن الناس : يختبرون بالملك ، ويختبرون بنزعه ، فإن سار الإنسان على هدى ربه فيما ملك ، وخاف مقام ربه : فله العزة في الدنيا والآخرة . ومن تجبر على خلق الله بملكه ، ولم يرفق بهم ، وافترى ، وظلم ، وبغى : ينزع الله تعالى منه الملك ، إما : بموته ، وإما بخلعه هو منه . إذ هو على كل شيء قدير !

﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ﴾ في الآية : تصوير جميل بديع ، عندما يجلس الإنسان وقت الغروب ، ويشاهد الليل ينسدل ، والنهار ينسحب ببطء

سُورَةُ الْغَاثِ

وئيد ، ويرى إقبال الليل بالتدرج ، ثم يأتي الليل كله ويمشى ويأتى النهار كذلك فى هدوء . .

بلا ضجة وبلا ارتجاف تكون نهاية النهار أو نهاية الليل . إنها القدرة المبدعة سبحانه تجلت قدرتك وتعالى عظمتك . وكما تسير حركة الليل والنهار فى هدوء وتدرج : فكذلك حركة الحياة والموت تسير فى ببطء وتدرج .

يقول ابن كثير « وقوله تعالى ﴿ وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ﴾ أى : تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء . » (١)

هذا . . وإن المالك الحقيقى للكون وما فيه : هو الله وحده ، وإن المعطى والمانع : هو الله وحده ، فأنى يحاول البشر المفتونون بعقولهم أن يعزلوا بتدبير شئونهم عن المالك الأوحد ، عن اللطيف المدبر ؟

كيف يختارون لأنفسهم أنظمة من صنع عقولهم القاصرة ، وما هم إلا خلق من خلق الله فى هذا الكون الفسيح ، فأنى يصرفون ؟ إنها حكمة الله فى أن يرزق من يشاء بغير حساب ، مع إعراض بعضهم أحيانا عن المنهج والطاعة .

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ

الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

إنها قضية من أهم القضايا فى حياة المسلمين ، (قضية الولاء) لمن يعطيه المسلم ؟ وعمن يحجبه ؟

وهذه القضية ، لأهميتها وخطورتها ، تولى الله عز وجل بيانها ، وتوضيح معالمها فى أكثر من آية ، وجاءت أحاديث وفيرة من السنة الصحيحة تزيد هذا الأمر توضيحا وبيانا .

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥٦ .

سُورَةُ الْغُثَرِ

إنها قضية يجب أن تأخذ حيزها في حياتنا ، إذ إن ولاء المؤمنين لا يكون إلا للمؤمنين لا غير .

وقد جاءت آيات أخرى بتهديدات تدور في هذا المعنى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١) . ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾^(٢) .

هذه الآية : تنبئ أن الإيمان الحقيقي وهو الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر يتنافى مع مودة الكافرين .

وكيف يكون هناك ولاء من المؤمنين للكافرين وحالهم على مر الأجيال والأزمان كما أخبر الله عنهم ؟

ويقول ابن كثير^(٣) في بيان الاستثناء المذكور في الآية : « أى إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، كما قال البخارى عن أبى الدرداء أنه قال : إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم . وقال الثورى : قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان . ويؤيده قول الله تعالى ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾^(٤) . الآية . ثم قال تعالى ﴿ وَيَحْذَرُكَمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ أى : يحذركم نعمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن وإلى أعداءه وعادى أوليائه . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : إليه المرجع والمنقلب ليجازى كل عامل بعمله »^(٥) .

وسبب نزول هذه الآية - فيما يذكر الإمامان القرطبي والرازي - هو أن عبادة بن الصامت الأنصارى « كان له حلف من اليهود ؛ فلما خرج النبى - ﷺ - يوم الأحزاب قال عبادة : يا نبى الله : إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدو . فأنزل الله هذه الآية »^(٦) .

ولا يظن ظان : أن الإسلام يمنع المسلم أن يعامل بالحسنى من لا يحاربه في دينه من أهل الكتاب . كلا . فالله عز وجل يقول : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾^(٧) .

(١) المائدة : ٥١ (٢) المجادلة : ٢٢ (٣) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥٧
(٤) النحل : ١٠٦ (٥) تفسير ابن كثير : ١ - ٣٥٧ (٦) تفسير القرطبي : ٤ / ٥٨
(٧) سورة الممتحنة : ٨

سُورَةُ الْغُفْرِ

ولكن التعامل بالحسنى شيء والولاء شيء آخر وشتان بين الأمرين .

قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوعِلْمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٩﴾

يعلم الله تعالى السرائر والضمائر والظواهر ، ولا يخفى عليه خافية في سائر الأحوال والأزمان والأماكن ، وقدرته نافذة في جميع ذلك . وهذا تنبيه من الله تعالى لعباده على خوفه وخشيته .

إن المسلم حينما يستشعر اطلاع الله سبحانه وتعالى على ما تكنه نفسه وعلى ما يضمرة في داخله : سراقب الله - حتماً - ويخشاه .

إنه حينئذ يعيش في معية الله ، يلاحظ ببصيرته عين الله على قلبه ، فكيف يتخفى عن أعين الناس ويغفل عن رؤية الله له ؟

إننا في حاجة إلى إيقاظ هذا الفهم في قلوبنا . ويوم أن يستيقظ هذا الفهم في القلوب ستترفع النفس عن الاهتمام برؤية الناس واطلاعهم ، وتسمو في علياء ملكوت الله تعالى . يوم أن تحيا هذه المعاني في القلوب سراقب الرجل ربّه في كل حركاته وفي كل أقواله وأعماله .

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٥٠﴾

« هذه الآية من باب : الترغيب والترهيب ، ومن تمام الكلام الذي تقدم » ^(١) .

إذ « يوم القيامة » ^(٢) يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر ، كما قال تعالى : ﴿ يُنْبَأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ ^(٣) ، فما رأى من أعماله حسناً سرّه ذلك وأفرحه ، وما رأى من قبيح ساءه وغصه ، وودّ لو أنه تبرأ منه ، وأن يكون بينهما أمد بعيد ، كما يقول لشیطانہ الذی کان مقرونًا به فی الدنیا وهو الذی جرّاه علی فعل السوء : ﴿ یا لیت بینی وبينک بعد المشرقین فبئس القرین ﴾ ^(٤) .

فالآية : تنقل الإنسان من عالمه الدنيوي إلى عالم الآخرة .

(٢) ابن كثير : ١ / ٣٥٧ .

(١) تفسير الرازي : ٢ / ٤٣١ .

(٤) الزخرف : ٣٨ .

(٣) القيامة : ١٣ .

سُورَةُ الْغُفْرِ

وبعد توضيح هذه الحقائق : يأتى التحذير ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أى يخوفكم عقابه فليحذر العاقل عذاب الله وغضبه . ﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ . ومن رأفته بنا أن بلغنا بهذه الحقائق الغيبية ومن رحمته بنا هذا التحذير .

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾

يقول ابن كثير : « هذه الآية الكريمة » حكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية : فإنه كاذب على دعواه فى نفس الأمر ، حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى ، فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله - ﷺ - « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ^(١) . . . وقال الحسن البصرى وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية ^(٢) .

إنه سبحانه وتعالى يأمر رسوله أن يبلغ البشرية كلها والمسلمين خاصة بأن برهان محبة الله الصادقة : هو فى اتباع خاتم رسله محمد - ﷺ - ، وفى الإيمان به ، وفى الدخول فى دينه (الإسلام) ثم فى اتخاذ قدوة فى كل شأن من شئون الحياة . وجزاء هؤلاء من جنس العمل ﴿ يحببكم الله ﴾ وليس هذا فحسب بل كذلك ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

المطلوب من البشرية كلها والمسلمين خاصة أن يفرغوا قلوبهم من الأغيار حتى لا يكون فيها غير حب الله ورسوله .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

(١) رواه البخارى - عن عائشة - كتاب « الصلح » ، باب « إذا اصطلحوا على صلح جور . . الخ » .

(٢) تفسير ابن كثير ١ - ٣٥٨ ومسلم فى صحيحه والإمام أحمد فى المسند .

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

بيان من الله سبحانه وتعالى بأنه جلت قدرته وحكمته : يصطفى من عباده من يشاء ، لحمل رسالته إلى خلقه ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾^(١) كما اصطفى (آل عمران) على عالمي زمانهم .

وقد خصّ الله عزّ وجلّ هؤلاء الأنبياء بالذكر ، دون غيرهم من الأنبياء ، لأن الأنبياء والرسل جميعا من نسلهم . وآل عمران تفرع منهم أنبياء بنى إسرائيل جميعهم هذه الذرية الطاهرة بعضها من بعض في وراثة الاصطفاء ليبلغوا دعوة الله إلى الناس ، كلّ في امته وفي عصره .

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

يقول ابن كثير « امرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام ، وهي حنة بنت فاقوذ . قال محمد بن إسحاق : وكانت امرأة لا تحمل فرأت يوما طائرا يزق فرخه ، فاشتتهت الولد ، فدعت الله تعالى أن يهبها ولدا فاستجاب الله دعاءها فواقعها زوجها فحملت منه ، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محررا ، أي خالصا مفرغا للعبادة لخدمة بيت المقدس^(٢) . »

ولم تكن رضى الله عنها تعلم ما في بطنها أذكرا كان أم أنثى .

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

هو سبحانه الذى خلقها فى رحمها واختارها أنثى لحكمته ، ليجعلها وابنها آية للعالمين ، وهى غافلة عن ذلك .

ثم تدعو الله عزّ وجلّ أن يجيرها وذريتها من الشيطان الرجيم ، فاستجاب الله دعاءها .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥٩ .

(١) الحج : ٧٥ .

سُورَةُ الزُّكْرِ

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤُا أَنَّى لَكَ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

يخبر المولى عز وجل أنه تقبلها من أمها بقبول حسن ، جعلها فوق كثير من الأولياء ، ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ فكانت - رضى الله عنها - تنمو نموا حسنا ، وجعل ابنها من أولى العزم من الرسل ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أى جعله كافلا لها يقوم على رعاية مصالحها ، وكان زكريا زوج خالتها .
هذا . .

وكانت السيدة مريم - عليها السلام - وهى فى كفالة زكريا - عليه السلام - تعيش وتتعبد فى حجرة لا يدخل عليها فيها أحد إلا زكريا - عليه السلام - .
فقد انقطعت عن الدنيا لتعيش مع الله ، وفى ملكوت الله تسبح بروحها وبكيانها كله مع الله سبحانه وتعالى . إنها محبرة من كل شواغل الدنيا فلا عجب أن يأتيها رزقها من عند الله بعيدا عن حواجز الزمان ، وهى كرامة من الله عز وجل لها ، فهى لم تكن معجزة لأنها لم تكن من الأنبياء . فإذا رأى زكريا هذا عندها ، تساءل : من أين لك هذا الطعام يا مريم وهو ليس موجودا فى مثل هذه الأوقات ؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهكذا يفعل الله بأوليائه .

هَٰذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٨﴾

لما عاين زكريا - عليه السلام - ما يجريه الله تعالى من رزق كريم لمريم فى غير زمانه ، وهو شيخ كبير وهن منه العظم ، واشتعل رأسه شيئا ، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا ، طمع حينئذ فى الولد وسأل ربه وناداه نداء خفيا ، ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فكانت الاستجابة التى لا تتقيد بسن ولا تقيد بمألوف الناس .

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الْغَاثِ

يقول صاحب الظلال : « لقد استجيبَت الدعوة المنطلقة من القلب الطاهر ، الذى علق رجاءه بمن يسمع الدعاء ، ويملك الإجابة حين يشاء ، وبشرت الملائكة زكريا بمولود ذكر ، اسمه معروف قبل مولده ، (يحيى) ، وصفته معروفة كذلك : سيدا كريما ، وحصورا يحصر نفسه عن الشهوات ، ويملك زمام نزعاته من الانفلات ، ومؤمنا مصدقا بكلمة تأتية من الله تعالى ، ونبيا صالحا فى موكب الصالحين .
« لقد استجيبَت الدعوة ولم يَحُلْ دونها مألوف البشر الذى يحسبونه قانونا ، ثم يحسبون أن مشيئة الله سبحانه مقيدة بهذا القانون ^(١) . »

إننا فى حياتنا المعاصرة كثيرا ما نرى أفرادا استمرت حياتهم الزوجية عشرين سنة وثلاثين سنة بلا إنجاب ، ثم يشاء العلى القدير أن يرزقهم من فضله سبحانه . . . !!

قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَآمَرَنِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ
يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١﴾

ولنا أن نتساءل : هل أراد زكريا واشتاق أن يعرف من ربه سبحانه كيف تقع هذه الحارقة بالقياس إلى مألوف البشر ؟
إذ تأتى الإجابة من الله سهلة يسيرة بأن الأمر كله لله بلا صعوبة وبلا عسر ، إنها قدرة الله ومشيتته ، وهذه سنة الله تسير فى إطاره .
ولدهشة المفاجأة التى انتابت زكريا - عليه السلام - طلب من الله آية على هذه البشرى ولشدة لهفته على تحقيقها :

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَنَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَآذَنًا
رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَكِينًا بِالنَّبِيِّ وَالْإِنْبِئَاتِ ﴿٢﴾

إن الله سبحانه وتعالى يوجه زكريا - عليه السلام - إلى طريق الاطمئنان الحقيقى فيخرجه عن مألوفه فى ذات نفسه . فزكريا يحتبس لسانه عن كلام البشر ولا يستطيع أن يكلمهم إلا رمزا . أما إذا أراد ذكر الله فينطلق لسانه بلا احتباس ﴿ واذكر ربك كثيرا

(١) ظلال القرآن : ١ / ٣٩٤ .

سُورَةُ الْغَاثِ

وسبح بالعشى والإبكار ﴿ إن لسانه المحتبس المسوك عن محادثة الناس هو نفسه اللسان المنطلق في مناجاة الله تعالى ، فأى قانون يحكم هذه الظاهرة ؟ إنها مشيئة الله المطلقة .

وكانت ولادة يحيى من عجوزين ، واحتباس لسان زكريا عليه السلام خوارق جعلها الله مقدمة للخارقة الكبرى وهى ولادة عيسى من غير أب ، ولكن بنى إسرائيل لم يتعظوا ولم يفقهوا .

إنه ما من نعمة ينعم الله بها على عبد إلا ويجب أن يقابلها بشكر الله بالليل والنهار ، ويذكر الله بالعشى والإبكار ؛ فإن ذكر الله وشكره يديم النعمة على صاحبها .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ

الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرَيْمُ اقْنِطِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

إنها منزلة سامية . تلك المنزلة التى يحدث الملائكة فيها مريم بأن الله اصطفاها اصطفاءً كلياً ، وأنها قد خلص قلبها من الأغيار ، وأنها محرة لله ، ومحرة من كل صوارف الدنيا ، وقد كررت الملائكة هذا الخبر ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ إنه اصطفاء بعد اصطفاء . إنها منحة الله وعطاؤه وفضله ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ تطهير لها من كل ما يعيب ، وله مغزى لا يغيب عن اللبيب . وذلك لما لابس ولادة عيسى - عليه السلام - (ولدها) من شبهات لم يتورع اليهود - عليهم لعنة الله - من إثارتها على مريم الطاهرة .

ثم يأمرها الله أن تزداد فى خضوعها لله ، فتسجد مع الساجدين ، وتركع لله مع الراكعين . وقد كانت مريم - عليها السلام - تقوم فى صلاتها حتى يتورم قدمها تقرباً إلى الله تعالى .

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ

يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

وقبل ذكر الحدث الأكبر - بشارة مريم بعيسى - عليه السلام - يذكر الله تعالى الحكمة من ذكر هذه القصص فى القرآن ، إن ﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾ والإشارة هنا إلى موقف الكهنة حينئذ من مريم - عليها السلام - .

فمن أين جاء به محمد - ﷺ - . . ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هل كان - صلوات ربي وتسليماته عليه - معهم حين اختصموا وألقوا أقلامهم واقترعوا وخرج قلم زكريا - عليه السلام - ؟ . كلا !!
هل اطلع الرسول - ﷺ - على التوراة أو الإنجيل فاستقى هذا الحديث منها ؟
كلا !! فقد خلت التوراة والإنجيل تماما من ذكره .
فمن أين جاء رسول - ﷺ - بذلك يا من تكفرون بنبوة رسول الله ؟ !!!
والإجابة : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ .

إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٥١﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٢﴾

بعد أن أعد الله عز وجل مريم - عليها السلام - إعداداً ربانياً ، وأصبحت مؤهلة للمهمة العظيمة ، وتأملت بالتطهر والقنوت والعبادة الخالصة ، جاءها البشير يبشرها بغلام تحمله من غير أب ، ليكون معجزة كبرى على مر السنين ، يحمل رسالة الله إلى بنى إسرائيل .

إنه عيسى - عليه السلام - : كلمة الله وروح منه . إنها قدرة الله عز وجل ، وقد تهيأ بنو إسرائيل قبل ميلاده - عليه السلام - لتصديق هذه المعجزة ، معجزة مولده من غير أب . فقد سبقته بشارة زكريا بيحيى - عليها السلام - رغم انعدام الأسباب التى يمكن أن يترتب عليها هذا المولود . والله يمهد نفوس بنى إسرائيل لقبول مولد عيسى - عليه السلام - من غير أب . ثم سيرة السيدة مريم فى الناس كانت مشهورة بالعفاف والتقوى والورع .

إنها مشيئة الله وتدبيره بسبق الحدث العظيم والله الحكمة البالغة ، إن البشارة إلى مريم - عليها السلام - تضمنت اسم ولدها وهو منسوب إليها وتضمنت صفته ومنزلته عند الله .

يقول ابن كثير : « ﴿ وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ أى له وجاهة ومكانة عند الله فى الدنيا بما يوحى الله إليه من الشريعة ، وينزله عليه من الكتاب ، وغير ذلك

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

مما منحه الله . وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه ، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولى العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين » (١) .
كما أنّ البشارة لمريم عليها السلام بشارة مفصلة عن جوانب حياة هذا المولود المعجزة .

إن الله سينطقه وهو طفل في المهد ليدافع عنك يا مريم فلا تفزعى . كما سيتكلم وهو كهل بما يوحيه الله إليه ، وبما ينزله عليه ، وتلك بشارة أخرى : أنه سيعيش حتى يصير كهلاً .

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

إنها لا تسأل سؤال إنكار واعتراض ، ولكن سؤال الدهشة والتعجب ، فبعد أن تحققت أن الذى يحدثها ويبلغها البشارة هو ملك من قبل الله تعالى : سلمت وآمنت .

إن إيمانها وقوة علاقتها بالله تعالى يمنعانها أن تعترض على أمر قدره الله تعالى ، ولكنها الدهشة والتعجب ، واستعظام قدره لا للتشكيك .

إن الله عز وجل يرفع عنها التعجب . فالله لا يعجزه شيء . فخلق إنسان من أم بلا أب أمر ممكن . وإذا حكم الله حكماً فإنما تتوجه إرادته سبحانه إلى ما يريد ﴿ أن يقول له كن فيكون ﴾ (٢) .

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾

إن الله عز وجل يخبر السيدة مريم - عليها السلام - . . بأنه سبحانه هو الذى سيتولى تربيته وتعليمه ، فسوف يعلمه الله الكتاب . وقد نزل عيسى - عليه السلام - متمماً للتوراة لا ناسخاً لها إلا فى بعض الأحكام .

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٦٤ .

(٢) يس : ٨٢ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَآ تَأْكُلُونَ وَمِمَّا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

سوف يبعث الله عيسى رسولا نبيا إلى بني إسرائيل ، وكفى بهذه البشارة فخرا لمريم - عليها وعلى ابنها السلام - . إن قلبها قد اطمأن ، وسوف تصبر على أذى قومها ، لأن العليم الخبير قد أعلمها بمستقبل هذا الغلام . . إنه سيحمل رسالة الله إلى بني إسرائيل ، إنه رسول الله .

وزيادة في تفصيل البشارة تفضلاً من الله الرءوف الرحيم على الأم الصالحة البارة بطاعة ربها - يخبرها الله عز وجل عن بعض المعجزات التي سيؤيد بها غلامها المنتظر ، فتأتي البشارة متحدثة على لسانه كما قرأنا الآيات سابقا . وكل ما فيها من معجزات دلائل صدق رسالة عيسى .

يقول ابن كثير « قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى - عليه السلام - السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار . وأما عيسى - عليه السلام - فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجهاد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد ١٩ » (١) .

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

إنه عليه السلام بُعث مصدقا للتوراة فهي شريعة بني إسرائيل ولم يأت بشرع جديد إليهم . اللهم إلا بعض الأحكام . كإباحته العمل في يوم السبت إذ كان محرما على بني إسرائيل فيه وجاء عيسى - عليه السلام - وأباح العمل في هذا اليوم . وكذلك كثير مما

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٦٤ - ٣٦٥ .

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

كان يعد نجسا في شريعة موسى - عليه السلام - جاء عيسى - عليه السلام - وحكم بطهارته . وكذلك الذبائح والأطعمة مثل لحوم الإبل وشحومها فقد كانت محرمة في شريعة موسى - عليه السلام - .

فلا عذر لأحد منكم بعد هذه الآيات الدالة على صدقه - عليه السلام - .

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

وهذه الآية قاطعة بعدم إلهيته ، فعيسى ليس برب ، وإنما هو مخلوق ككل المخلوقات . وهذه هي دعوة كل رسل الله إلى البشر ، وعيسى واحد منهم ، وهذا هو الصراط المستقيم ، أما غيره فهو العوج والكفر والضلال والزيغ .

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾

إن الآيات قد انتقلت مباشرة من بشارة مريم بابنها المنتظر وصفاته ومعجزاته ودعوته إلى إحساس عيسى بالكفر من بنى إسرائيل وطلب الأنصار لإبلاغ دين الله . فلم يذكر هنا مولد عيسى بالفعل ، ولا موقف بنى إسرائيل من مولده ، ولا كلامه في المهد حين واجهت أمه القوم ، ولا دعوة قومه وهو كهل ، وكل هذا سيرد مفصلاً في سورة مريم .

إذ إن عيسى - عليه السلام - لما وجد بنى إسرائيل قد تظاهروا على الكفر استحث من في قلبه شيء من الإيمان ليناصره ، فأجابه نفر قليل منهم ، هم الحواريون ، وهم الناصرون المبالغون في النصرة .

ولابد لصاحب كل دعوة من أنصار يحملون دعوته إلى الله ، وهم المؤمنون به ، الذين يدينون بدينه ، والذين سيحملونه للناس ريتفون مع نبيهم أمام كل شدة ، وأمام كل بلاء .

وقد توجه الحواريون إلى الله متضرعين إليه متذللين له قائلين .

رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾

سُورَةُ الْغَاثِ

«والمعنى : أثبت أسماءنا مع أسمائهم ، واجعلنا من جملتهم . وقيل : المعنى فاكتبنا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق» (١) .

إن المسلم على مر الأزمان مطلوب منه أن يقيم شهادة الحق من نفسه وسلوكه لهذا الدين . إذ إنه على المسلم الذى بايع الله على هذا الدين أن يجعل من نفسه ومن سلوكه ومن حياته كلها بكل جوانبها صورة حية لهذا الدين . . صورة يراها الناس مثلاً عالياً رفيعاً فى كل شئونه ، فيشهدون بأفضلية هذا الدين على سائر الأديان والملل الأرضية . يقول صاحب الظلال الأستاذ الشهيد سيد قطب (٢) :

« وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل من يدعى لنفسه الإسلام ، فهذا هو الإسلام ، كما فهمه الحواريون ، وكما هو فى ضمير المسلمين الحقيقيين . ومن لم يؤد هذه الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه . فأما إذا ادعى الإسلام ثم سار فى نفسه غير سيرة الإسلام ، أو حاولها فى نفسه ، ولكنه لم يؤدها فى المجال العام ، ولم يجاهد لإقامة منهج الله فى الحياة إيثاراً للعافية وإيثاراً لحياته على حياة هذا الدين : فقد قصر فى شهادته أو أدى شهادة ضد هذا الدين ، شهادة تصد الآخرين عنه ، وهم يرون أهله يشهدون عليه لا له ! وويل لمن يصد الناس عن دين الله عن طريق ادعائه أنه مؤمن بهذا الدين ، وماهو من المؤمنين !! » .

وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ

لقد مكر الذين أحس عيسى منهم الكفر مكراً شديداً ، فقد قذفوا أمه الطاهرة . واتهموه بالكذب والسحر ، ووشوا به إلى الحاكم ، وحرصوا عليه ليتخلصوا منه ولكن الله أحبط مكرهم ، ورد كيدهم فى نحورهم .

إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ سَلَامٌ عَلَيْكَ وَإِنِّي مُؤَقِّبُكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

إن الله سبحانه وتعالى يُعَلِّمُ رسوله سيدنا عيسى - عليه السلام - بما سيقع له من

(١) تفسير القرطبي : ٩٨ / ٤ .

(٢) فى ظلال القرآن : ١ / ٤٠٢ - ٤٠٣ .

سُورَةُ الْغُفْرِ

أعدائه اليهود مواساة له وتثبيتاً . فهو مقبل على شدة وامتحان شاق واليهود هم أصحاب هذه الفتنة .

يقول ابن كثير: « اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مَتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَى ﴾ فقال قتادة وغيره : هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إلى ومتوفيك يعنى بعد ذلك . وقال ابن عباس : إني متوفيك أى مميتك . وقال وهب بن منبه : توفاه الله ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه إليه . قال مطر الوراق: إني متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت . وكذا قال ابن جرير: توفيه هو رفعه . وقال الأكثرون : المراد بالوفاة ههنا النوم^(١) .

فلا تفزع يا عيسى مما يمكرون ، ولا ترهبهم مهما تأمروا عليك ليقتلوك فإنى رافعك إلىّ ، ولن يصلوا إليك بأذى ، ولن يتمكنوا منك ، فإنى سأطهرك من عنادهم ، وجورهم على الحق ، الذى بعثت به لتصالح ما أفسدوه ، وتقيمهم على صراط الله المستقيم .

والذين اتبعوا عيسى - عليه السلام - : هم الموعودون من الله أن يجعلهم فوق الذين كفروا ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ ، هم الذين آمنوا به على أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فلما بُعث رسول الله محمد - ﷺ - آمنوا به واتبعوا النور الذى أنزل معه ، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض .

فهذه الآية ليست فى كل من ادعى الإيمان بعيسى - عليه السلام - من النصارى ، ولكنها لا تشمل إلا من آمن به على نحو ما ذكرنا . أما غيرهم من الطوائف المتعددة ، فمرجعهم جميعاً إلى الله يوم القيامة فهو سبحانه الذى سيتولى الحكم بينهم .

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾

فأما الذين كفروا من اليهود الذين همّوا بقتل عيسى - عليه السلام - وهذا المعنى على القول بأن الخطاب لعيسى - عليه السلام - . أما على القول بأن الخطاب لرسولنا - ﷺ - فإن المراد بالذين كفروا : جميع طوائف الكفر ﴿ فأعذبهم عذاباً شديداً ﴾ «يعنى بالقتل والصلب والسبى والجزية ، وفى الآخرة بالنار»^(٢) .

(١) تفسير ابن كثير : ٣٦٦ / ١ (باختصار) . (٢) تفسير القرطبي : ١٠٢ / ٤ .

سُورَةُ الْغَنَاقِ

وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾

وأما الذين اتبعوا الرسول - ﷺ - وصابروا ورابطوا فلم يرهبهم بطش المحاربين لهم ، بل لازموا اتباع الحق في جميع جوانب حياتهم فيوفيههم الله أجورهم في الدنيا والآخرة ؛ في الدنيا بالنصر المبين ، وفي الآخرة بالجنات العاليات ، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ .

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

إن هذه الآيات التي نتلوها عليك يا محمد من أخبار زكريا وبشارته ومريم وإبنها ، وموقف اليهود منه ، ذلك كله من الآيات الدالة على صدق نبوتك وكذلك : هو دليل على أن هذا القرآن محكم معصوم من تطرق الخلل إليه .

إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

إن الله عز وجل الذي خلق آدم من تراب ، من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى : خلق عيسى - عليه السلام - من أنثى بلا ذكر . فإذا جاز ادعاء البُتوة لعيسى - عليه السلام - : فادعائها لآدم أولى ، وهذا ما لم يقل به أحد من البشر .

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

أى هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا يحيد عنه ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟!

إن الذي قصصناه عليك يا محمد من خبر عيسى : هو الحق ، لا ما قالت النصارى واليهود . فلا تكن أيها المسلم من الشاكين في هذا الحق ؛ لأنه نزل من عند الله الذي خلق عيسى - عليه السلام - ، وكفى بالله علما .

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ
وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَقَنتَ اللَّهُ عَلَى
الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان الواضح . ويقول الإمام القرطبي في تفسيره :

« هذه الآية : من أعلام نبوة محمد - ﷺ - ؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منها ، ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادى نارا ، فإن محمدا نبى مرسل ، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل في أمر عيسى ؛ فتركوا المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم ، على أن يؤدوا في كل عام ألف حلة في صفر وألف حلة في رجب ، فصالحهم رسول الله - ﷺ - على ذلك » (١) .

والمباهلة هي ما ذكرنا قصتها في تفسير أول السورة وسبب نزولها في وفد من نصارى نجران (٢) .

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٣﴾

إن هذا الذى تقدم وقصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى - عليه السلام - : هو الحق الذى لا معدل عنه ولا محيد ، وما من إله إلا الله - وهو رد على النصارى المدعين بالوهية عيسى والقائلين بالتثليث - وإن الله هو العزيز الذى لا يشاركه فى ألوهيته ولا فى حكمه أحد .

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

فإن أعرضوا عن الإيمان بالله ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، وأبوا إلا الإصرار على الكفر بنسبة الشريك والولد إلى الله ، أى إن عدلوا عن الحق إلى الباطل : فإنهم هم المفسدون ، والله عليم بهم وسيجازيهم على فسادهم وإفسادهم .

قُلْ يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ

وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا

فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٥﴾

يقول الله تعالى مخاطبا رسوله - ﷺ - : ﴿ قل يأهل الكتاب ﴾ يهودا كانوا أو نصارى ومن جرى مجراهم ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ ادعهم إلى كلمة عدل لا يختلف عليها شرع ، وقد أجمع الرسل كلهم على دعوة الناس إليها . والكلمة تطلق

(١) تفسير القرطبي ٤ / ١٠٤ . (٢) راجع كلامنا عن سبب نزول سورة آل عمران وفيها حديث عن المباهلة .

سُورَةُ الْغَاثِ

على الجملة المفيدة ، ثم فسرنا بأنها الدعوة إلى التوحيد .
 إن رسول الله - ﷺ - لم يكتف من نصارى نجران بدفع الجزية ، ويتركهم وما هم عليه ، بل طرق عليهم بابا آخر من الدعوة إلى الله ، والدعوة إلى كلمة لا يختلف عليها كتاب سماوى . وهى ﴿ ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ﴾ هذه الكلمة هى دعوة جميع الرسل . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ^(١) . إنها الدعوة إلى التوحيد - توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، ولا نتوجه بالعبادة إلى وثن أو نار أو صليب ، بل نفرد الله سبحانه وتعالى وحده بكل أنواع عبادتنا ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾ كعزير والمسيح ابن مريم والأخبار والرهبان .

يقول ابن كثير : « قال ابن جرير : يعنى يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله . وقال عكرمة : يسجد بعضنا لبعض » ^(٢) . ويقول القرطبي : « أى لا نتبعه فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما حله الله تعالى » ^(٣) .

فإن تولوا وأعرضوا عن هذه الدعوة العادلة التى لا عوج فيها ، وأبوا إلا اتخاذ آلهة من دون الله ، وعبادة الأخبار والرهبان : ﴿ فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون ﴾ فقد لزمتمكم الحجة وعليكم أن تعترفوا بأنا مسلمون دونكم وأشهدوا على أنفسكم بالكفر .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

لما اجتمع نصارى نجران وأخبار اليهود عند رسول الله - ﷺ - وتنازعوا فى إبراهيم - عليه السلام - : فاليهود يقولون : كان إبراهيم يهوديا ، والنصارى يقولون : بل كان إبراهيم نصرانيا ، أنكر الله عز وجل عليهم هذه المجادلات والمنازعات ، قائلا لهم : على أى شىء نسجتُم مزاعمكم الباطلة وما نزلت كتبكم إلا من بعد إبراهيم - عليه السلام - ﴿ أفلا تعقلون ﴾ !! ؟

هَتَأْتُمْ هَتُؤَاءَ حُجَجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِدْءٍ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

(١) الأنبياء : ٢٥ . (٢) تفسير ابن كثير : ٣٧١ / ١ . (٣) تفسير القرطبي : ١٠٦ / ٤ .

سُورَةُ الْغُثَرِ

هذا إنكار على من يحاج فيما لاعلم له به . فإن أهل الكتاب : جادلوا في رسول الله - ﷺ - وهو مذكور عندهم في التوراة والإنجيل ، وجادلوا في عيسى - عليه السلام - ، وجادلوا في الأحكام التي لها أصل في كتبهم ، واستطاعوا أن يحرفوا الحق فيها ، ويلوؤوا أعناق النصوص الصريحة ، وجادلوا في إبراهيم عليه السلام بدون علم . فأنكر الله عليهم ذلك ، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى الله عالم الغيب والشهادة .

وهذا اللون من الجدل : قد يقبل شكلا ، مع بطلان حججهم في حقيقة الأمر ، أما أن يجادلوا فيما ليس لهم به علم ، ويقحموا أنفسهم فيما لا يعلمونه ، فهذا منطق لا يقبله عاقل وإنما دفعهم إليه الهوى الذي ينطلقون منه في بناء عقائدهم وحب الدنيا .

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾

«نزهه تعالى من دعاويهم الكاذبة وبيّن أنه كان على الحنيفية الإسلامية ولم يكن مشركًا . والحنيف : الذي يوحد ويحج ويضحى ويختن ويستقبل القبلة . . والمسلم في اللغة المتدلل لأمر الله تعالى المنطاع له » (١) .

إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾

إن الذين هم أولى بإبراهيم - عليه السلام - : من اتبعوه في زمانه على دينه ، وساروا على إسلامه ، أو من اتبعوه مطلقًا .

﴿ وهذا النبي ﴾ يعنى النبي محمدًا - ﷺ - : من أولى الناس بإبراهيم ؛ لموافقته لشريعته أكثر من أى نبي آخر ، والذين آمنوا بهذا النبي من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان بعدهم هم تبع له .

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَو يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾

يكشف الله تعالى : لهذا الأمة المسلمة ما تنطوى عليه نفوس أهل الكتاب من حقد دفين ، وكرهية ، وإن تظاهروا بصدافتهم ومودتهم .

(١) تفسير القرطبي : ١٠٩ / ٤ .

سُورَةُ الْغُثَرِ

إن الله سبحانه الذى خلقهم ويعلم ما توسوس به نفوسهم يخبرنا عما تحمله قلوبهم لهذه الأمة من الحسد الذى ملأ صدورهم والذى لا يضر المسلمين شيئاً ولكن ضررهم مردود عليهم يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم مكمور بهم .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧١﴾

ثم يفضحهم الله تعالى : على سمع الزمن قائلاً ﴿ لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ « بصحة الآيات التى عندكم فى كتبكم . . . وقيل : المعنى وأنتم تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء التى أنتم مقرؤون بها » ^(١) . حقاً : إنه الهوى ، وحب التضليل ، والحسد الذى يملأ القلوب . . . !

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾

أى : تكتُموت ما تعرفونه عن محمد وصفاته - ﷺ - ، وأنتم تعلمون ذلك جيداً وتعرفونه وتتحققون منه .

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ
وَكَفَرُوا بآخِرِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٣﴾

هذه الآية : تكشف للأمة المسلمة بعضاً من مكائد أهل الكتاب عامة واليهود خاصة ضد هذا الدين .

وهذه المكيدة تتمثل فى : أن يؤمنوا برسول الله - ﷺ - أول النهار ، وفى آخر النهار يرتدون عن الإسلام ، وهى مكيدة قد تدخل على الأميين من العرب الذين كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم . ولكن سرعان ما يسلط الله عز وجل من الآيات ما يفضح به أمرهم .

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ
مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّا فَضَّلْنَا بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٧٤﴾

إن الله عز وجل يكشف لرسوله - ﷺ - ما يدور بينهم فى الخفاء من مؤامرات ضد

(١) القرطبي : ١١٠ / ٤ .

سُورَةُ الْغُثَرِ

هذا الدين ، ليفضحهم على مسمع من العالم .

يقول ابن كثير : « يقولون لا تطمئنوا أو تظهروا سروركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم ، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين ، فيؤمنوا به ، ويحتجوا به عليكم » (١) .
إن البيان الحق : هو بيان الله عز وجل ، وإن الأمور كلها تحت تصرفه وحده سبحانه وتعالى ، والإيمان والعلم من فضل الله الذي يملكهما . فأنتم لا فضل عندكم بل أنتم كفرتم بما جاءكم من فضل وفاقد الشيء لا يعطيه لغيره .

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

الله سبحانه يختص برحمته من يشاء ، فيهدى أحبائه إلى صراطه المستقيم ، ويضل من كابر وعاند من صراطه .
يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾

يبين الله تعالى في هذه الآية نقيصة أخرى من نقائص أهل الكتاب - وما أكثرها - وبخاصة اليهود ، فيخبرنا الله تعالى عنهم بأن منهم الخونة ، ويحذرنا من الاغترار بهم .
فنحن أمام نموذجين من نماذج أهل الكتاب في تعاملهم ونظرتهم إلى مال الغير :
نموذج أمين ، إن ائتمنه إنسان على شيء من المال - وإن كان قنطاراً من الذهب - فهو يؤديه إليه ، وهو أمين عليه ، لا يبخس منه شيئاً . والثاني : فئة إن تأمنها بدينار واحد لا تؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ، أى مطالباً ملجأً في طلبك ، وإلا ضاع حَقُّك عندها . ثم يبررون هذه المماطلة في ردّ الأمانات إلى أهلها بالكذب على الله فيقولون : إن الأمانة عندهم محصورة بين اليهودى واليهودى ، فإذا خرجوا في تعاملهم عن دائرة اليهود فلا مسئولية عليهم . فقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ سَبِيلٌ ﴾ أى إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا في ديننا حرج في

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٧٣

سُورَةُ الْغُفْرِ

أكل أموال الأُميين وهم العرب فإن الله قد أحلها لنا . ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ أى أنهم قد اختلقوا هذه المقالة ، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال بالباطل^(١).

ويَتَذَوُّونَ أَنْ مَبْدَأُ ﴿ ليس علينا في الأُميين سبيل ﴾ : قد انسحب على كل شىء يتعلق بغيرهم .

فهذا هو تلمودهم - المصدر الثانى الذى يعتمدون عليه فى التشريع - يقول : « إن الله لا يغفر ذنبا لليهودى يرد للأُمى ماله المفقود » . ويقول : « غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى إلا بالربا » . ويقول التلمود أيضا : « اقتل الصالح من غير الإسرائيليين ، ومحرم على اليهودى أن ينجى أحدا من باقى الأُمم من الهلاك ، أو يخرج من حفرة يقع فيها ، لأنه بذلك يكون قد حفظ حياة أحد الوثنيين » .

هذه هى عقلية اليهود من قديم الزمان إلى اليوم ، إنهم أعداء الفضيلة ، يحاربونها أينما كانت .

ويقول القرطبى فى هذه الآية : « أخبر تعالى أن فى أهل الكتاب الخائن والأُميين . والمؤمنون لا يميزون ذلك ، فينبغى اجتناب جميعهم . وخصَّ أهل الكتاب بالذكر - وإن كان المؤمنون كذلك - لأن الخيانة فيهم أكثر »^(٢).

ثم يقرر الله تعالى قاعدة خلقية عامة وميزانا خلقيا فيقول :

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

فالوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى لمن حافظ على حقوق غيره ، أيّا كان هذا الغير ، وليست القضية قضية مصالح شخصية ، إنه تعامل مع الله وليس مع الناس . يقول الله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

يقول ابن كثير « إن الذين يُعتاضون^(٣) عما عاهدوا الله عليه ، من اتباع محمد ﷺ ، وذكر صفته للناس ، وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة ، بالأثمان القليلة .

(١) ابن كثير : ٣٧٤ / ١ (٢) المصدر : تفسير القرطبى : ١١٦ / ٤ . (٣) يرضون بديلا وعوضا .

سُورَةُ الْغَاثِ

الزهدية ، وهى عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ﴿ أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ﴾ أى لانصيب لهم فيها ولا حظ لهم عنها ﴿ ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ﴾ أى برحمة منه لهم ، يعنى لا يكلمهم الله كلام لطف بهم ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ ولا يزكيهم ﴾ أى من الذنوب والأدناس ، بل يأمر بهم إلى النار ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾^(١).

ثم يعرض الله سبحانه نموذجاً آخر من نماذج أهل الكتاب المضللين ، الذين يسخرون ما بأيديهم من كتاب الله خدمةً لأهوائهم ، فيؤولون النصوص على غير مرادها ، ابتغاء ثمن قليل من أعراض الدنيا . يقول تعالى :

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَاهُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَاهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

قوله ﴿ يلوون ألسنتهم ﴾ معناه : أنهم يعمدون إلى اللفظة فيحرفونها فى حركات الإعراب تحريفاً يتغير به المعنى ، وهذا كثير فى لسان العرب . فلا يبعد مثله فى العبرانية . فلما فعلوا مثل ذلك فى الآيات الدالة على نبوة محمد - ﷺ - من التوراة ، كان ذلك هو المراد من قوله تعالى (يلوون ألسنتهم) وهذا تأويل فى غاية الحسن^(٢).

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

والربانى : نسبة إلى الرب سبحانه . فمن صفا قلبه عن الأغيار ، واستنارت بصيرته ، وكان شغله - ليله ونهاره - طاعة الله سبحانه ، فيتوجه إلى الله فى القصد والعمل ، فهو ربانى .

وإذا كانت دعوة الرسل الذين اصطفاهم الله عز وجل هى عبادة الله وحده : فما ينبغى أن يصدر منهم شىء يصادم ذلك ، لأنهم بعثوا لتنقية الأرض من الشرك ،

(٢) تفسير الرازى : ٤٧٨ / ٢ .

(١) تفسير ابن كثير : ٣٧٥ / ١ .

سُورَةُ الْغَاثِ

وتطهير الجنان من أدران الاعتقادات الفاسدة ، فكيف يدعون الناس إلى الشرك ؟

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

إن رسل الله أرسلوا لدعوة الناس إلى الإسلام . والإسلام لا يلتقى مع عبادة غير الله .
إنهما لا يجتمعان أبداً . فكيف يتناقض الرسل في دعوتهم ، يدعونهم إلى الإسلام
وفي الوقت نفسه يقومون بدعوتهم إلى اتخاذ الملائكة أو النبيين أرباباً من دون الله ؟ فهل
هذا يُعقل ؟ ٨٠ أيأمرونكم بطريق كله ضلال وكفر بعد أن وضعتم أيديكم على طريق
النور والهدى ، وهل يستوى الطريقان ؟ كلا .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مَصْدِقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى
ذَلِكَ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

لقد أخذ الله ميثاق جميع الأنبياء ، أن يصدقوا ويؤمنوا بمحمد - ﷺ - وينصروه إن
لحقوه ، وأمرهم أن يأخذوا ذلك الميثاق على شعوبهم وأممهم .
ولذلك نجد في التوراة والإنجيل - رغم تحريفهما - بشارات بمحمد - ﷺ - ،
لا ينكرها إلا جاحد مكابر . ﴿إصرى﴾ أى عهدى . إن الله عز وجل أشهد الأنبياء
على أنفسهم من ميثاقهم الذى أخذه عليهم ، وشهد الله بذلك عليهم ، وكفى بالله
شهيداً .

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾

فمن أعرض ونأى بجانبه عما جاء به الأنبياء ، وعن الميثاق الذى أخذه الله عليهم ،
ولم يؤمن برسول الله - ﷺ - ، وأنكر أنه قد بشرت به الكتب التى نزلت من عند الله :
فأولئك هم الكافرون ، الخارجون عن دين الله الحق .

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

سُورَةُ الْغَاثِ

ينكر الله عز وجل على من يبتغى لنفسه ديناً غير دين الله ، ويشذ عن الحق ، خاصة وأن من في السموات والأرض قد أسلم لله . المؤمنون أسلموا لله طوعاً . والكافرون يسلمون لله كرها ، فلا يخرج واحد منهم عن سنن الكون التي وضعها الله . فالكل محكوم في إطار هذه السنن .

إن البشرية الآن تعاني مشاكل معقدة من قلق واضطراب ، لأنها خرجت عن ناموس الكون . ولذا : فالحضارة البشرية المعاصرة تسير بخطى مسرعة نحو الهاوية ، وما من إنسان يزور أية دولة من الدول الغنية الثرية إلا ويصدم من كثرة الأمراض العصبية والنفسية ، والشذوذ والقلق والجنون ، والسكر والجرائم . إنهم لا يجدون سعادتهم في هذه الحياة ، رغم الثراء الفاحش . لأنهم بعدوا عن الله ، وعن طريق الإسلام الذي فيه سعادة البشرية .

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

﴿قل﴾ لهم يا محمد إننا ﴿آمنا بالله﴾ ، وبالقرآن ، وما أنزل على جميع الأنبياء ، ومنهم : الأسباط ، وهم بطون بنى إسرائيل المتشعبة من أبناء يعقوب ، وكانوا اثني عشر - آمنا بهؤلاء وما أنزل إليهم من وحى . وهذا ما ندين به ، ونموت عليه ، ﴿لأنفرك بين أحد﴾ من الأنبياء ، ولا نكفر ببعضهم ﴿ونحن له﴾ تعالى ﴿مسلمون﴾ .

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

يقرر الله سبحانه وتعالى بأبلغ أسلوب ، وأوضح بيان ، للبشرية كلها : أن من يبتغى لنفسه ديناً غير دين الإسلام ﴿فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ . لا يهودية ولا نصرانية ، ولا أى دين من أديان البشر ، أو العقائد . كل ذلك : لا ينال القبول عند الله .

الإسلام الذى أرسل به جميع الرسل فقط : هو الدين الوحيد الذى يقبل عند الله .

سُورَةُ الْغَاثِ

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ
الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾

يستبعد الله سبحانه وتعالى هدايته على أهل الكتاب ، وذلك بسبب كفرهم المتعمد ،
بعد إيمانهم وتصديقهم بما جاء به محمد - ﷺ - ، وشهادتهم بأنه حق وما جاء به
صدق ، وقد جاءتهم البينات بذلك في كتبهم التي بين أيديهم . وإن موقفهم هذا : هو
عين الظلم ، ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾

اللعن هنا : بمعنى الطرد من رحمة الله ، وهذه اللعنات بسبب إعراضهم عن الهدى
بعد إذ جاءهم ، ومصيرهم الخلود الأبدى في نار جهنم . ثم يستثنى الله عز وجل من
هذا الحكم من يتوب إليه ، ويصلح من شأنه . فمن تاب من أهل الكتاب ورجع عما
كان عليه من كفر وردّة ، وآمن بالله ورسوله ، وكذلك من تاب : ممن ارتد بعد إسلامه
﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ . ونلاحظ في مغفرة الله بقبول توبة التائبين أنه لا بد مع التوبة
من عمل صالح ، فإن التوبة وحدها لا تكفى بل لا بد من أن يضاف إليها العمل
الصالح ، فيتفضل الله حينئذ على التائب بقبول توبته ، رحمة منه وفضلاً . لأن الله
سبحانه وتعالى لا يغلق باب توبته في وجه أحد ، حتى وإن كان كافراً ، إذا رجع إلى الله
تائباً نادماً عازماً على السير في طريق مرضاة الله تعالى . وفي الآية تشويق لكل كافر وكل
عاصٍ ألا ييأس من رحمة الله ، بل إنه عز وجل يشد فرحه بتوبة عبده العاصي . أما
من عاند وكابر فلم يرجع إلى الحق ولم يتب إلى الله من كفره وردته ، وازداد في كفره ،
وعاند وطغى ، فهذا الصنف يقول الله عنه :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾

سُورَةُ الْغَاثِ

إن هذا النوع من المرتدين لن تقبل توبتهم إذا تاب أحدهم عند الاحتضار ، كما يقول سبحانه في موضع آخر من القرآن :

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ^(١).

وعلى ذلك فالمرتدون على نوعين : نوع رسخ في قلوبهم الكفر ، واستولى على نفوسهم ، لعمق بعدهم عن الله ، وقبول الهدى الذى جاء به محمد - ﷺ - ونوع زلت أقدامهم ، ولكن لم يرسخ الكفر في قلوبهم ، ولم يتبادوا في غيهم حتى تداركتهم رحمة الله ، فندموا على ما فعلوا ، وتابوا إلى الله تعالى ، وهم الذين قال الله فيهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ . إلخ الآية .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلٌّ أَرْضٍ ذَهَبًا وَلَوْ آفَتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿١﴾

تهديد شديد لكل كافر على ظهر الأرض إلى قيام الساعة كى لا يستمر على ما هو فيه من كفر وعناد ، حتى لا يأتى يوم القيامة ويتمنى أن يفدى نفسه بملء الأرض ذهبًا فلا يتحقق له . وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ^(٢).

أخرج البخارى في صحيحه عن أنس بن مالك يرفعه : « إن الله يقول لأهون أهل النار عذابا : لو أن لك ما فى الأرض من شىء كنت تفتدى به ؟ قال : نعم . قال : فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم : أن لا تشرك بى ، فأبيت إلا الشرك» ^(٣) . إن عمر الإنسان مهما طال فهو قصير ، فكيف يبيع عاقل جنة عرضها السموات والأرض بدنيا قصيرة حقيرة فانية ؟ ألا فليعقل الإنسان الحكمة من خلقه ، وليستعد ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم :

لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢﴾

(١) النساء : ١٨ . (٢) المائدة : ٣٦

(٣) كتاب أحاديث الأنبياء . باب خلق آدم وذريته .

سُورَةُ آلِ عَمْرٍاءِ

يوجه الله عز وجل خطابه للمؤمنين ، لبيان ما ينفعهم من العمل ، وما يُقبل منهم ، بعد ذكر مالا ينفع الكفرة ، ولا يقبل منهم ، فيقول إن جنة الله ورضاءه ورضوانه لا ينالها إلا من أنفق مما يحب من أموال . فلا يجعل الله ما يكره ، بل يتخير من الأموال أحسنها ، وينفق منها في سبيل الله .

وفي الصحيحين : عن أنس بن مالك أنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا . وكان أحب أمواله إليه (بيرحاء) ^(١) وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله - ﷺ - يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس : فلما نزلت هذه الآية ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن الله تبارك وتعالى يقول ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ وإن أحب أموالى إلى : (بيرحاء) وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله - ﷺ - : بخ ، ذاك مال رابح . ذاك مال رابح . وقد سمعت ما قلت ، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين . فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه « ^(٢) .

ولم يكن أبو طلحة وحده من الصحابة على هذا الخلق بل كانوا كلهم كذلك .

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

يقول الله عز وجل مفندا مطاعن اليهود في هذا الدين ، حين عابوا على الرسول - ﷺ - أكل لحوم الإبل وألبانها وهى محرمة عليهم ، وقالوا كما أورد النيسابورى في أسباب النزول حين قال النبى - ﷺ - : إنه على ملة إبراهيم - عليه السلام - فقالت اليهود : كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها ، فقال النبى - ﷺ - : كان ذلك حلالا لإبراهيم - عليه السلام - فنحن نُحِلُّه . فقالت اليهود : كل شئ أصبحنا نحرمه فإنه كان على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا . فأنزل الله عز وجل تكذيبا لهم ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا... ﴾ إلخ الآية ^(٣)

(١) اسم مال وموضع بالمدينة وهى : بفتح الباء بعدها سكون ثم راء مفتوحة ، (انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر مادة « برح ») .

(٢) البخارى كتاب الزكاة ، باب « الزكاة على الأقارب » ومسلم كتاب الزكاة ، باب « فضل النفقة على الأقربين . . . إلخ » .

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٦٥ ط الحلبي - مصر .

سُورَةُ الْغُثَّةِ

فَالْقُرْآنَ يُخْبِرُ الْيَهُودَ بِمَا يَكْتُمُونَهُ مِنْ أَنَّ كُلَّ الْمَطْعُومَاتِ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ يَعْقُوبُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى نَفْسِهِ . وَالْيَهُودَ قَالُوا ذَلِكَ طَعْنَا فِي رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ، وَفِي دِينِهِ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ كُتُمَ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ أَنَّ لَحُومَ الْإِبِلِ كَانَتْ حَرَامًا مِنْ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، ﴿ فَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا ﴾ . فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِذَلِكَ لَعَلَّهُمْ يَصْدُقُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَبِهِتُوا وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ .

فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾

فَمَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ وَادْعَى أَنَّ كَلَامَهُ هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ بَعْدِ مَا قَدَّمْنَا لَكُمْ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

أَيُّ صَدَقَ اللَّهُ فِيمَا أَنْزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَإِنْ ادَّعَيْتُمْ أَنَّكُمْ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَنْكُمْ وَرَثَتُهُ ، فَإِنَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هِيَ مَا جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ - ﷺ - ، وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمَفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، فَانظُرُوا إِلَى مِلَّةٍ تَتَسَبَّبُونَ .

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾

يَقُولُ ابْنُ كَثِيرٍ: « يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، أَيُّ لِعُمُومِ النَّاسِ ، لِعِبَادَتِهِمْ وَنَسْكِهِمْ ، يَطُوفُونَ بِهِ ، وَيَصْلُونَ إِلَيْهِ ، وَيَعْتَكِفُونَ عِنْدَهُ ﴾ لِلَّذِي بِبَكَّةَ ﴿ يَعْنِي الْكَعْبَةَ الَّتِي بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ . . . ﴾ مُبَارَكًا ﴿ أَيُّ هُوَ بَيْتُ وَضِعَ مُبَارَكًا لِكُلِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

فِيهِ ءَايَتٌ يُبَيِّنُ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ
مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

(١) تفسير ابن كثير: ١ / ٣٨٣ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

إن من مظاهر بركة هذا البيت أن فيه آيات بينات دالة على فضله وشرفه . وأكبر هذه الدلائل أن من دخله كان آمناً . فهو مأمّن كل خائف . حتى في جاهلية العرب المنحرفين عن دين إبراهيم ، بقيت حرمة هذا البيت مصونة بينهم . بل إن حرمة هذا البيت وأمنه امتدا إلى الصيد والطيور التي بالحرم ، ومن دلائل بركته أيضا أن فيه مقام إبراهيم - عليه السلام - .

ثم يقرر الله فريضة الحج إلى هذا البيت على الناس جميعا ، فلم يشرّع عزّ وجلّ الحج إلى أى بيت من بيوت الله إلا إلى البيت الحرام . ومن رحمة الله بهذه الأمة أن علق الفريضة على الاستطاعة . وجعل فريضة الحج مرة في العمر .

وأخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : «خطبنا رسول الله - ﷺ - فقال : أيها الناس : قد فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكلّ عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله - ﷺ - : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» (١) .

﴿ومن كفر﴾ أى ومن أنكر فريضة الحج ﴿فإن الله غنى عن العالمين﴾ ، وضرر كفره على نفسه .
ثم يقول الله عزّ وجلّ .

قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيٰتِ اللّٰهِ وَاللّٰهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

أى : ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ الدالة على صدق نبوة محمد - ﷺ - ؟
وهذا وعيد آخر بعد ما سبق في السورة من وعيد وتعنيف - يفيد أن الله مطلع على أعمالهم ، ما ظهر منها وما خفى ، وسيجازيهم عليها جزاءً وفاقا .
ثم يؤنبهم الله تأنيباً آخر حيث يقول سبحانه :

قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّٰهِ مَنۢ ءَامَنَ تَبَغُّوْهَا عِوَجًا وَّأَنْتُمْ شٰهَدَآءُ ۚ وَمَا اللّٰهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

إن وسائل أهل الكتاب في صد المؤمنين عن دين الإسلام كثيرة ، عددت السورة

(١) كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر .

سُورَةُ الْغَاثِ

بعضها منها : كاللباس الحق بالباطل ، وكتمان الحق الذي يعرفونه من صفات رسول الله ﷺ - الموجودة في كتبهم ، والإيمان بهذا الدين أول النهار والردة عنه في آخره . . . وغيرها . . . وقد عاب القرآن عليهم هذا الصد وهذه الوسائل ، كما عاب أن تكون سبيل الله المستقيمة معوجة عن الحق في الوقت الذي هم فيه شهداء عند أهل ملتهم أن دين الله الحق هو الإسلام .

ثم يتوعدهم الله ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ .
وعند هذه الآية : ينتهى الجدل مع أهل الكتاب ، بعد فضح عقائدهم ، المنحرفة .
ثم تتوجه الآيات إلى : نصيحة وتوجيه الأمة المسلمة ، محذرة من أعدائها ، مبينة لهم وسائل تحقيق منهج الله في حياتهم . يقول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
كَافِرِينَ ﴿١﴾

تحذر الآية الكريمة الأمة المسلمة إلى قيام الساعة ، من طاعة أى فريق من أهل الكتاب ، فى أى شأن من شئون الحياة ، مهما قلَّ هذا الأمر ، لأنهم لا يريدون لهذه الأمة إلا الانحراف عن سبيل الله .
إنهم قد يلبسون لهذه الأمة لباس الناصحين المخلصين ، فليحذر المسلمون من خداعهم .

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ
بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾

يقول ابن كثير: « يعنى أن الكفر بعيد منكم - وحاشاكم منه - فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهارا ، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم »^(١) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٣﴾

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٨٧ .

سُورَةُ الْغَاثِ

يأمر الله تعالى المؤمنين بتقوى الله حق تقاته ، وهذا تنبيه ، على أهمية التقوى في حياة المسلمين ، خصوصاً أن التقوى هي وصية الله للأمم كلها . إن تقوى الله حق تقاته كما ورد عن عبد الله بن مسعود: أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يُكفر ، ويذكر فلا ينسى^(١) .

ولما نزلت الآية شق ذلك على المسلمين وقالوا يا رسول الله : ومن يقوى على ذلك فأنزل الله ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾^(٢) .

إن للتقوى أهمية خاصة في بناء هذه الأمة وهدايتها . ولو أننا اتقينا الله حق تقاته ، لحلت جميع مشاكلنا الدنيوية والأخروية ، فعندنا : مشكلة الرزق - مثلاً ، ومشكلة الغذاء ، وحلها في تقوى الله ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾^(٣) . ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾^(٤) .

وتأمين مستقبل الذرية في تقوى الله في تلك الآية الجميلة ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾^(٥) .

ويقول سبحانه : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾^(٦) .

هذه هي التقوى وهذه هي أهميتها في بناء الشخصية المسلمة ، وفي بناء المجتمع المسلم . ولو أن التقوى أخذت محلها في القلوب لأمن الناس على أعراضهم ودمائهم .

وفي قولي تعالى : ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ يقول ابن كثير : «أى حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بعث عليه فعياداً بالله من خلاف ذلك»^(٧) .

ثم تأتي الآيات بعد ذلك وتركز على الأخوة في الله فيقول الحق سبحانه وتعالى :

(١) ابن كثير : ٣٨٧ / ١ . (٢) التغابن : ١٦ . (٣) الأعراف : ٩٦ .

(٤) الطلاق : ٢ - ٣ . (٥) النساء : الآية ٩ . (٦) مريم : ٦٣ .

(٧) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٨٨ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ
أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ
فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١﴾

يأمر الله عز وجل الأمة المسلمة بالاعتصام بحبل الله ، وحبل الله هو القرآن ، كما
ورد بذلك أكثر من حديث عن سيدنا رسول الله - ﷺ - . فالأمة مطالبة بالاعتصام
بالقرآن وتحكيمه فيما بينهم ، لإقامة مجتمع قرآنى ربانى ، لأنه هو الكتاب والدستور
الذى تتوحد عليه الأمة . وإن اعتصمت الأمة بكتاب الله : بآء عدوها بالفشل ، ولا يفلح
فى تفريقها أبدا . أما إذا تركوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واتخذوه مهجورا ، فإن أعداءها
سيتداعون عليها كما تتداعى الأكلة على قصعتها . فكونوا أيها المؤمنون فى دين الله
إخوانا ، حتى لا يجد عدو هذه الأمة ثغرة ينفذ منها لاستئصال شأفتنا ، واذكروا إنعام
الله عليكم : حيث كانت العداوات والحروب تطحن البلاد والعباد ، ﴿ وكنتم على
شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ بالإسلام .

هذه هى آيات الله الواضحة لإنقاذ الناس مما هم فيه من ضلال ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ .
وكما أنقذكم الله عز وجل من النار بالإسلام ، وبالكتاب الذى نزل على رسوله
ﷺ ، فليكن منكم من يعمل على إنقاذ الآخرين مما هم فيه :

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢﴾

إن الله سبحانه وتعالى : يربى الفرد المسلم على أن يكون داعيا إلى الخير فى مجتمعه ،
وهذه الأمة ما فضلت على غيرها من الأمم إلا لأنها تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهى
عن المنكر ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون
بالله ﴾ ^(١) . ولقد كان من الأسباب الأساسية فى استحقاق بنى إسرائيل لعنة الله تركهم
واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان

(١) آل عمران : ١١٠ .

سُورَةُ الْغَاثِ

داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴿١﴾

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

ثم يحذر الله عز وجل الأمة من التفرق ، بعد التوحد ، أى : لا تتفرقوا ، فتختلفوا ، فتكونوا كالذين ﴿ تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ فيكون لكم عذاب عظيم ، كما ﴿ لهم عذاب عظيم ﴾ .

ويقول القرطبي : المراد من الذين ﴿ تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ اليهود والنصارى فى قول جمهور المفسرين . وقال بعضهم : هم المبتدعة من هذه الأمة (٢) .

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

أى يوم القيامة حين تبيض وجوه المؤمنين ، الذين اعتصموا بحبل الله ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولم يتفرقوا فى دين الله تعالى . . يوم تسود وجوه الكافرين والمنافقين ، فيقال لهم ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

وبعد أن ذكر الله عز وجل مصير الكافرين والمنافقين بين سبحانه وتعالى نهاية المؤمنين الذين ابيضت وجوههم بطاعة الله تعالى ، واتباعهم لرسوله ﷺ ﴿ فى رحمة الله ﴾ وهى الجنة هم خالدون فيها لا ييغون عنها حولا ، فضلا من الله ونعمة .

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾

أى هذه آيات القرآن الكريم ، تليت عليك يا محمد بالحق ، ليختار كل إنسان المصير الذى يرضاه لنفسه ، والله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

(١) المائدة : ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) تفسير القرطبي : ٤ - ١٦٦ .

سُورَةُ الْغَاثِ

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠١﴾

إن ما في السموات وما في الأرض ملك لله وحده لا شريك له ، أى الجميع ملك له وعبيد له ، وإليه وحده ترجع أمورهم ، فيجازى كلا بعمله ، فكيف يظلم وهو الغنى عن كل خلقه ، وكيف يظلم وقد حرّم الظلم على نفسه . إنه تعالى هو وحده الحاكم المتصرف فى الدنيا والآخرة .

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٢﴾

إن الآية الكريمة تحدد بوضوح وظيفة هذه الأمة فى الأرض ، والتى بها استحققت أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، يعنى خير الناس للناس . والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ، ولهذا قال ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فالخيرية هنا معلقة بقيام هذه الأمة بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ بما أنزل على محمد ﷺ ، وصدقوا ما ورد على لسان رسلهم من البشارة به : ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ فى الدنيا ، مما هم فيه من مناصب زائلة وزخارف عارضة . وأخبر الله سبحانه عنهم فقال ﴿ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ بما أنزل على رسلهم ، وبما أنزل على محمد ﷺ . وقليل ما هم ، ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الكافرون الخارجون عن دائرة الإيمان .

ثم طمأن الله عز وجل هذه الأمة ، حتى لا ترهبهم كثرة الكافرين من أهل الكتاب ، فقال عز من قائل :

لَنْ يَضُرَّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَاذِبَارْثُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٠٣﴾

فى الآية : بشارة لهذه الأمة بالنصر على أهل الكتاب فى كل موقعة تكون بينهم ، وكل ما يمكن أن يناله أهل الكتاب من المسلمين هو أذى قليل ، أى ضرر يسير لا يذكر .

وقد يقول قائل : كيف تخبر الآية بالنصر الدائم للمسلمين على أهل الكتاب مهما يحدث من حروب بينهما ؟ ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَاذِبَارْثُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ وواقع

سُورَةُ الْغُفْرِ

المسلمين المرير يدل على غير ذلك !!؟ والجواب أن أهل الكتاب لا يمكن أن يتحقق لهم نصر على جيش توفرت فيه شروط هذه الأمة ، من اتباع الله ورسوله ، وتحكيم شرع الله في مجتمعهم . فإذا تخلت الأمة عن واقع خيريتها ، فلا يتحقق نصر إلا للأقوى مادياً . والتاريخ خير شاهد على ذلك .

ثم يبين الله عز وجل سبب هزائمهم المتوالية أمام جيش المسلمين القائمين بدين الله المدافعين عنه فيقول : -

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ
مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

ينخر الله عز وجل أنه - جلّت حكمته - قد كتب الذلة والمسكنة على اليهود أينما كانوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ إلا إذا اعتصموا بحبل الله تعالى ﴿وحبل من الناس﴾ فلا عزّ لهم ولا كرامة إلا إذا دخلوا في ذمة المسلمين .

وهذه الذلة التي كتبها الله عليهم ما فرضت عليهم إلا لأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق .

يقول ابن كثير « إنما حملهم على ذلك الكبر والبغى والحسد ، فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً متصلاً بذل الآخرة . . . ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله . . . أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله والغشيان لمعاصي الله والاعتداء في شرع الله » (١) .

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ
يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

لما أسلم من أحبار أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم ، قالت أحبار اليهود : ما آمن لمحمد إلا شرارنا . ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم ، وقالوا لهم : أنتم ختمتم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره ، فأنزل الله تعالى ﴿ليسوا سواء﴾ (٢) .

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٩٦-٣٩٧ .

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٩٧ .

سُورَةُ الْغَاثِ

فآية تخبر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء في الكفر والظلم والإعراض عن الحق ولكن ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون ﴾ وهم من آمن بمحمد ، واستقام على شرعه ، واهتدى بهدى الله تعالى .
ثم يبين الله عز وجل العقيدة التي دفعتهم إلى هذا الاجتهاد في طاعة الله وقت غفلة الناس :

يَوْمِنُوبِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾

إنهم آمنوا بالله سبحانه وتعالى وبكل ما يتطلبه هذا الإيمان من اتباع لرسول الله - ﷺ . كيف لا وهم قد دخلوا في هذا الدين عن علم عندهم بأنه هو دين الله الوحيد الذي جاء به محمد - ﷺ . هؤلاء دخلوا الإسلام عن حب له وكذلك كانوا يسارعون في الخيرات ، فاستحقوا شهادة الله سبحانه وتعالى لهم بقوله ﴿ وأولئك من الصالحين ﴾ .

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

ويعدهم تعالى بجزيل الثواب على ما يقدمونه لأنفسهم من خير .
ثم يبين الله سبحانه الصنف الآخر من أهل الكتاب وما لهم في الآخرة بعد إعراضهم عن الإيمان برسول الله - ﷺ . فيقول سبحانه :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾

هؤلاء هم الصنف المقابل للطائفة المؤمنة من أهل الكتاب ، وهم الأكثر عددا ، فلن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا ، يوم يخلدون في جهنم جزاء لعنادهم وكفرهم بالله ورسوله .
ثم يقطع الله عز وجل كل أمل لهم في النجاة إذ إن من يتصدق منهم وينفق من ماله عسى أن ينفعه ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون ، يذهب عمله هباء منثورا ، فيقول :

سُورَةُ الْغَاثِ

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

إن الذين كفروا مهما قدموا من أعمال صالحة ، ومهما أنفقوا من أموالهم ، فلن
تنفعهم ، ما داموا لا يؤمنون بمحمد - ﷺ . إن ما تفعله الريح الشديدة بالحرث : من
إهلاك للثمر والنبات ، مثل ما يفعله الله سبحانه وتعالى بنفقتهم .

وبعد أن كشفت الآيات الكريمة عن حقيقة أهل الكتاب من الجدل الباطل
والانحراف عن الحق : ، يأتي تحذير رباني للأمة المسلمة من أن تتخذ من أعدائها
بطانة ، يأتمنونهم على أسرارهم ، أو يجعلون من بعضهم مستشارين في أمور حياتهم إذ
يقول تعالى :

يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا
مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتْ أَلْبَعُضُهُمْ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَاتُ خَفِيَ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ
الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

وهذا إخبار من العليم الخبير العليم بذات الصدور .
﴿وما تخفى صدورهم﴾ للأمة المسلمة من كل ما سبق الحديث عنه ﴿أكبر﴾ مما
ظهر من أفواههم ، وليس بعد هذا البيان بيان !!
فهل من تفكير في هذه الآيات ١١٩

هَآأَنُتُمْ ءَوَّلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقُوكُم قَالُوا ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَوْآ عَصُوا عَلَيْكُمُ الْآنَآمِلَ مِّنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

إن المسلم مأمور أن يعامل الناس على أساس ظاهرهم ، ولقد كان المنافقون يظهرون
الإيمان للمسلمين ، ولذلك كانوا يحبونهم ، فبينت الآيات ما في ضمايرهم : ﴿ها أنتم﴾
أيها المؤمنون ﴿تحبونهم ولا يحبونكم﴾ .
والمؤمن : يؤمن بكتب السماء كلها ، أما هم : فلا إيمان عندهم ، إنما : الحقد

سُورَةُ الْغَمِّ

والبغض والكفر ، وبيان ذلك : أنهم ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ وهذا : كناية عن شدة حقدهم على هذه الأمة ، ويرد الله عليهم بقوله : ﴿ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ أى : مهما اشتد غيظكم على المسلمين ودينهم فالله متم نوره . وهذا الحقد سيعود وباله عليكم أنتم فموتوا على ما أنتم عليه . ولم يكتف أعداء الأمة المسلمة بهذه المواقف الظالمة بل هم :

إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

بذلك : يرشد الله عز وجل الأمة المسلمة إلى طريق النجاة من كيد أعدائها ، مهما كان هذا الكيد ، ومهما اشتدت قوته ؛ فطريق النجاة : الصبر والتقوى . ثم تأتى الآيات التالية لتبين أن المسلمين حين التزموا بالصبر والتقوى فى بدر نصرهم الله ، وساء ذلك أعداءهم ، ولما فرطوا قليلا فى غزوة أحد دارت الدائرة عليهم ، لتردهم إلى التمسك الكامل بطريق النصر والصبر والتقوى . إذ يقول تعالى :

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

هاتان الآيتان الكريمتان : تتحدثان عن غزوة أحد ، التى كانت فى شوال سنة ٣ هـ . وسببها : أن أهل مكة لما قتل منهم من رؤسائهم ونجت العير وقائدها أبو سفيان ؛ قال أبناء من قتلوا لأبى سفيان : أرصد أموال هذه القافلة لقتل محمد ، فأنفقوها وجمعوا الجموع ونزلوا قريبا من أحد ، القريب من المدينة ، وخرجت نساؤهم معهم حتى يحرضن الجيش على القتال ، ووصل الخبر النبى - ﷺ - يوم الجمعة ، فصلى الجمعة بالمسلمين ، واستشار أصحابه : هل نخرج إلى الكفار فنقاتلهم خارج المدينة أو نقاتلهم داخلها ؟ . وكان أسبق الناس إلى إعطاء رأى : « عبد الله بن أبى » رأس المنافقين ، الذى رأى أن يمكث الرسول - ﷺ - بالمدينة ، فهى خير حصن ، وإن دخل الكفار عليهم : قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من

سُورَةُ الْغَنَةِ

فوقهم . وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهدوا بدرًا : بالخروج إليهم . ولم يجب الرسول - أحدًا من الفريقين ، بل دخل - ﷺ - فلبس لأُمته وخرج عليهم ، وقد ندم بعضهم ، وقالوا : لعلنا استكرهنا رسول الله - ﷺ - ، فقالوا يا رسول الله : إن شئت أن نمكث ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأُمته أن يرجع حتى يحكم الله له . فسار عليه الصلاة والسلام في ألف من أصحابه . . . ورجع عبد الله بن أبي بثلث الجيش . . . واستمر رسول الله - ﷺ - سائرًا حتى نزل الشَّعب من أحد في عدوة الوادي ، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال : « لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال . ويكمل ابن كثير القصة فيقول ^(١) وتنبأ رسول الله - ﷺ - للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه وأمر على الرماة (عبد الله بن جبير) أخا بني عمرو بن عوف ، والرماة يومئذ خمسون رجلًا فقال لهم - ﷺ - « . . . الزموا مكانكم . . . »

وتهيات قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائة فرس . . . وبدأت المعركة وبدأ النصر يلوح للمسلمين ، ولكن الله عز وجل أراد شيئًا آخر وهو أن يلحق الأمة دروسا ما كانت لتعلمها لو انتهت المعركة بالنصر على المشركين ، وهي تربية المؤمنين على الصبر والتقوى ، والجنديّة الكاملة ، والتزام الطاعة لأوامر الله ورسوله ، ولأوامر القيادة ، مهما كانت هذه الأوامر تتعارض مع وجهة نظر الجندي . هذه الدروس تبدأ من رؤية الرماة لجيش المسلمين وهو يجمع الغنائم . فنسوا أوامر القيادة : « لا تؤتين من قبلكم والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم » .

هذه الأوامر الصارمة القاطعة التي لا تقبل التأويل ، ولكن الله قدر ما قدر . ونسى الرماة أوامر القائد ولم يصبروا ، وفارقوا مكانهم ، وشغلوا بجمع الغنائم ، فاستغل خالد بن الوليد - ولم يكن قد أسلم بعد - الفرصة وعلا الجبل بجيشه وظل يرمى المسلمين من أعلى الجبل ، وأبلى المؤمنون بلاءً شديدًا ، وكان يوما عصيبا عليهم ، وكان درسًا قاسيًا يجب أن نستفيد منه في كل مرحلة من مراحل دعوتنا .

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

إن الله سبحانه وتعالى يضع أمام المسلمين نصره لهم يوم بدر بجوار ما حدث لهم يوم

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٤٠٠ - ٤٠١ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

أحد ، وذلك ليستعرضوا أسباب النصر في بدر وأسباب الانهزام في أحد . وبعد أن وعوا الدرس جيداً يأتى التوجيه الإلهى ﴿ فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ أى سارعوا إلى تقوى الله وارجعوا إليه وتوبوا عما بدر منكم يوم أحد لعل الله يقبل توبتكم ويكتبكم من الشاكرين له .

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾

أخلص المسلمون التوجه إلى الله ، والتفوا حول نبيهم ، وأيقنوا أن النصر لا يكون إلا من الله وحده ، فلم ترهبهم كثرة عدوهم ومهارتهم القتالية ، لأنهم يحتمون بجناب الله ، ويدافعون عن دين الله ، لا لأجل مغنم أو مأرب من مأرب الدنيا ، ولكن لتمكين دين الله في أرض الله . فحق أن تنزل عليهم الملائكة ، ألفا ، فثلاثة ، فخمسة آلاف من الملائكة .

بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

يقول ابن عباس رضى الله عنه : أتت الملائكة محمدا - ﷺ - مسومين بالصوف فسوم محمد وأصحابه أنفسهم وخيلهم على سيماهم بالصوف . وقال قتادة وعكرمة (مسومين) أى بسيما القتال و«عن ابن عباس قال : كان سيما الملائكة يوم بدر عمام بيض قد أرسلوها في ظهورهم ، ويوم حنين عمام حمر ، ولم تضرب الملائكة فى يوم سوى يوم بدر» (١) .

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئَنَّا قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

وما جعل الله عز وجل إمداد المسلمين بالملائكة في بدر إلا بشرى لهم ، وطمأنه لقلوبهم . ولو شاء ربنا لانتصر منهم بلا قتال منكم لهم ولكن لله الحكمة البالغة .

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٤٠٢ .

سُورَةُ الْغُفْرِ

وهذه الآية تشتمل على دروس السماء ، فعلى الأمة أن توقن بهذا الدرس وتتعلم أنها بنفسها لا تجلب النصر .

إن النصر غير مرتبط بكثرة العدد والعدة . وإن النصر ليس بالتفوق المادى وإن كانت الأمة مطالبة به أشد المطالبة . ولكنه سبب من الأسباب . والأسباب لا تؤثر في النتائج بنفسها ، ولكن خالق الأسباب وحده هو الذى يملك النصر .

إن المؤمن حينما يوقن بهذا الدرس ينطلق فى جهاده لأعداء الله بعد ألا يدخر جهدا فى إعداد العدة ، ولا يهاب عدوا مهما كانت عدته ، فهو فى كل حال من أحواله يحقق إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . إنه درس حينما تعيه الأمة تجلب النصر المؤزر، وحينما تغفل عنه تحمل بها الهزائم والنكسات ، والتاريخ خير شاهد على ذلك .

لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾

إن الله عز وجل لو شاء لأهلك المشركين وهم فى ديارهم ، ولم يجر أى تقابل بينهم وبين المسلمين ، ولكن حكمة الله البالغة شاءت ذلك ، ليهلك جزءا منهم أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة تقوية للمؤمنين .

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾

عن أنس رضى الله عنه أن النبى - ﷺ - كُتِرَ رباعيته يوم أحد ، وشج فى وجهه حتى سال منه الدم فقال : « كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل » ؟ فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(١).

وبعد نزول الآية : ترك رسول الله - ﷺ - الدعاء على مَنْ كان يدعو عليهم . وبذلك : يربى الله عز وجل نبيه - ﷺ - ، والأمة كلها على عدم الدعاء على الظالمين - وهى منزلة رفيعة فى تفويض الأمر كله لله - فلعل فيهم من سيقلع عن ظلمه ويفىء إلى الإسلام ويكون جندياً لله .

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٤٠٣ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

وهي في الوقت نفسه : تربية على عدم التدخل فيما هو من اختصاص المولى عز وجل .

وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ يَغْفِرْ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبْ مَن يَشَآءُ وَاللّٰهُ
غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿١٢٦﴾

يبين الله عز وجل أن ما في السموات والأرض ملك لله وحده .
فإذا كان الأمر كذلك ، وهو حقا كذلك فمن يملك ، ومن يغفر ، أو يعذب ،
وهو وحده - ولا أحد غيره - الذي يملك هذا الحق ؟
وبهذه الآية وأمثالها : يقضى الإسلام على كراسي الاعتراف ، وصكوك الغفران
ومهزلتها ، والحرمان التي ابتدعتها الأحزاب والرهبان . . .
وفي الآية ملمح يجب أن نتلمسه : هو تقديم المغفرة في الآية على العذاب . وهذا من
رحمة الله تعالى الواسعة .

يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا لَا تَأْكُلُوْا الرِّبٰۤىۤاۤ اَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُوْنَ ﴿١٢٧﴾

قبل أن نتحدث الآيات عن التعقيب على غزوتي بدر وأحد تأتي هذه الآيات
لتحدث معركة في داخل النفس المؤمنة ، وهي معركة التطهير من المعاملات الآثمة ،
مثل الربا ، انطلاقا من تقوى الله - ليحل محله الإنفاق في سبيل الله ، في السراء
والضراء ، ليتم بناء المجتمع المسلم المتكامل على الخير .
كان العرب في الجاهلية يقرضون بعضهم البعض إلى أجل محدود بزيادة يتفقون
عليها . فإذا حل ميقات سداد الدين ولم يستطع المدين أن يقضى ما عليه ضوعف عليه
مقدار ما كان سيدفعه من زيادة . ولأن الله عز وجل يريد أن يطهر المجتمع المسلم من
هذا الإثم : فقد نهاهم هنا أن يتعاملوا به .
وقوله تعالى : ﴿مضاعفة﴾ إشارة إلى تكرير التضعيف عاما بعد عام ، كما كانوا
يضعّفون .

وفيه : توبيخ للفعل ، لا تقييد للحرمة ، بمعنى : أنه ليس المراد من قوله تعالى
﴿أضعافا مضاعفة﴾ أن هذا النوع من الربا حرام دون غيره . وتخصيص هذا النوع
بالذكر في الآية : إما لمزيد التوبيخ لهم على فعله وإما بحسب الواقع ، فيكون قيّدًا للنهي

سُورَةُ الْغَاثِ

بحسب ما كانوا عليه ، وليس قيذا للنهى مطلقا ، حتى لا يفهم منه ، أو يستدل به ، على أن الربا بدون هذا القيد جائز^(١) . . . إنه في الحقيقة ليس وصفاً تاريخياً فقط للعمليات الربوية التي كانت واقعة في الجزيرة ، والتي قصد إليها النهى هنا بالذات ، إنما هو وصف ملازم للنظام الربوي المقيت ، أيّا كان سعر الفائدة .^(٢)

هذا : وقد ذكرت سورة البقرة النهى المطلق عن الربا أيّا كان قدره في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) .

ولا تزال أصوات شاذة تخرج على المسلمين بين الحين والحين ، تدعى : أن الله تعالى ما حرم من الربا إلا إذا كان أضعافا مضاعفة ، أما العشرة في المائة أو العشرون في المائة : فلا حرمة فيها . وهؤلاء إما جهلاء : وإما أنهم يفهمون الإسلام ويريدون هدمه عمالة لأعدائه .

وأعداء الإسلام في كل مكان : لا يروقههم أن يتحرر المسلمون اقتصاديا ، ويبنوا اقتصادهم على منهج شريعتهم ، لذلك فهم يحاربون أي نظام اقتصادي يقوم على غير الربا ، وعلى المسلمين أن يعيدوا حساباتهم ويعرفوا مكر أعدائهم بهم . فالربا مدمر لاقتصاد أية أمة مهما كان قويا ، وانظر إلى ما تدفعه الدول الفقيرة من الربا على قروضها . إن فلاح الأمة معلق على تقوى الله . ومن مستلزمات التقوى ترك الربا والخوف من الله تعالى ، ولذلك يقول تعالى :

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾

الذين لم يؤمنوا برسول الله - ﷺ ، ولم يحكموا كتاب الله بينهم ، هؤلاء أعداء الله لهم نارا يصلونها .

وإن الخروج عن طاعة الله ، والخروج عن الانقياد لأمره ، سواء في ترك الربا أو غيره من المحرمات ، يوصل إلى الكفر ، ويدخل في النار .

وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

إن رحمة الله سبحانه تنزل على : من كانت طاعة الله وطاعة رسوله ، منهجاً له في حياته ، فمن أراد رحمة الله فعليه بمفتاحها .

(١) انظر : الفتوحات الإلهية (بتصرف) ١ / ٣١٣ . (٢) في ظلال القرآن : ١ / ٤٧٣ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٨ .

سُورَةُ الْغَفَةِ

وانظر إلى حكمه ىء هذه الآية بعد النهى عن الربا إذ يفيد ذلك أن من يأكل الربا لا يمكن أن يحيا الطاعة من نفسه لله ورسوله .

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

أى : سارعوا إلى كل ما يؤدي إلى المغفرة ، ولا تحقروا من المعروف شيئا .
وينبغي أن يلحظ : من في قوله تعالى ﴿ وسارعوا ﴾ : هذه الحركة السريعة - التى لا تلوأ فيها ولا تسويف - حى طاعة الله فى كل ما أمر من عبادات ومعاملات وأخلاق ، فى إطار استقامة كاملة على منهج الله عز وجل .
وهذه هى المسارعة الحققة : التى يستحق أصحابها بسببها وصف المتقين .
فلينظر كل منا إلى حاله مع مطالب الدنيا ومغانمها وحاله مع طاعة الله ا

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

ثم ذكر الله تعالى صفات أهل الجنة ، وأول وصف ذكره الله تعالى لأهل الجنة : أنهم ينفقون من أموالهم فى كل أحوالهم من السراء والضراء ، أى فى الشدة والرخاء والمنشط والمكره ، والصحة والمرض . وحال الإنسان يدور بين هذين الأمرين ، فإن كانوا فى نعمة : فإن الإنفاق يذكرهم بالمنعم دائما ، وإن كانوا فى ضراء : لا يسخطهم ما هم فيه من ضرر، وينسيهم حق الآخرين ، بل يوقنون أن النفقة ترفع البلاء . والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى ، والإنفاق فى مرضيه ، والإحسان إلى خلقه بأنواع البر .

ونلاحظ أن الوصف بالإنفاق : جاء فى مقابل النهى عن الربا .
ومعنى هذا : أن النفقة فى السراء والضراء ، هى البديل الشافى عن الربا المدمر للمجتمعات ، ولو وجد المقترض من يقرضه قرضا حسنا ، فضلا عن أن ينفق عليه ابتغاء مرضاة الله ، فما الذى يدعو إلى الاقتراض بالربا ؟
إن ترك المسلمين لهذا الخلق السامى : هو الذى جعل الربا يسرى فى دماء المجتمع .
ثم يذكر لنا المولى سبحانه وتعالى من صفاتهم - كذلك - لتتحلى بها : كظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، والإحسان إليهم .

سُورَةُ الْغَافِرِ

إذ يجب أن تكون هذه الأخلاق من سماتنا ، فكم من الآثام ترتكب في غضبة عابرة؟
وكم من خير حرم الإنسان من نفسه حين انساق في طريق غضبه ؟
وانظر معي إلى ثمرة من ثمار العفو عن الناس ! إن الإنسان الذي يعصى الله فيك ؛
فيؤذيك ، أو يعذبك بشيء يضرّك ، أو يسلط عليك من قبل عدوك ، حينما تعفو عنه
وتحسن إليه : قد ينتقل من عالم المعصية إلى عالم الطاعة والتوبة إلى الله ؛ بسبب ما لمسه
منك من حسن خلق .

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ
وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوْا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

وهذا وصف آخر لهؤلاء المتقين المحسنين ، فتقواهم الله ليس معناها العصمة من
المعاصي ، لأن العصمة ليست إلا للأنبياء فقط - فهم متقون ، وقد يقعون في معصية ،
أو يغفلون عن طاعة ، ولكنهم إذا وقعوا في غير ما يرضى الله ؛ لا يصرون على
معصيتهم ، بل يذكرون الله ، ويستغفرون من ذنوبهم . يقول عز وجل : ﴿ إن الذين
اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ ^(١) . فإذا صدر منهم
ذنوب أتبعوه بالتوبة والاستغفار .

أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

أولئك على ما تخلقوا من أخلاق ، وعلى ما صبروا على الأذى ، وعلى ما أنفقوا من
أموالهم وأوقاتهم في سبيل الله في السراء والضراء وعلى ذكرهم الدائم ، وكثرة توبتهم : لهم
من الله مغفرة تحو جميع ذنوبهم ، بل يجزيهم الله الجزاء الأوفى .
بعد هذه الآيات الكريمة : يقود السياق إلى التعقيب على معركة أحد ، فيقول عز
شأنه :

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

(١) الأعراف : ٢٠١ .

سُورَةُ الْغُفْرِ

وفي الآية تسليية من الله تعالى . أى قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ، ولهذا قال تعالى ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .
والسنن : جمع سنة ، وهى الطريق المستقيم ، وفلان على السنة ، أى على طريق الاستواء ، لا يميل إلى شىء من الأهواء .

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

يعنى القرآن ، فيه بيان الأمور على جليتها ، وفيه خبر ما قبلكم ، وهدى لقلوبكم وموعظة . (١)

فيأهل أحد ، ويا أتباع محمد - ﷺ - ، ويا من تحملون مشعل هدايته في العالمين !! لا بأس عليكم إن أصبتم في أحد أو في معركة من المعارك ؛ فالهزيمة ما هى إلا اختبار وتربية وتمحيص ، وإعداد لانتصارات جديدة .

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

هذه الآية : ترفع من عزائم الجماعة المسلمة دائما . ومعناها : لا تضعفوا عن مواصلة الجهاد ، لنيل إحدى الحسينين ، النصر أو الشهادة ، ولا تحزنوا على من استشهد منكم ، أو يستشهد ، في أية معركة مع الأعداء ، فأنتم الأعْلَوْنَ ؛ لأنكم وحدكم المؤمنون .

ونلاحظ : أن الآية قررت حكما ، هو أن الجماعة المسلمة هى الأعلى دائما ؛ ما تمسكت بمقتضيات الإيمان .

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ يَحْمِلُ أَمْعَالَكُمُ
النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

«أى إن كنتم قد أصابتم جراح ، وقُتل منكم طائفة ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح» (٢)

(١) تفسير القرطبي : ٢١٦ / ٤ .

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٤٠٨ .

سُورَةُ الْغُفْرِ

والأيام تداول بين المؤمنين والكافرين . « تكون مرة للمؤمنين لينصر الله عز وجل دينه ، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون لبيبتليهم ويمحص ذنوبهم ، فأما إذا لم يعصوا فإن حزب الله هم الغالبون . » (١) .

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾

وهذه : حكمة أخرى من مداولة الأيام بين الناس ، وهى تمحيص الله للمؤمنين ، تمحيص تربية ، وتطهير ، وإعداد لهم ، ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ أى : يهلكهم على أيدي من قامت العناية الربانية بتربيتهم وتمحيصهم ، وذلك بعد إصرارهم على الكفر ، وعنادهم للحق .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾

لقد أنكر الله عز وجل حسابان بعض المؤمنين دخولهم الجنة بلا جهاد وصبر في سبيل الدعوة إلى الله ؛ ويقول لهم : لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا بالقتال والشدائد ، ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء . إن دخول الجنة ليس سهلاً ، إنه طريق شاق ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ (٢) .

إن الجنة التى ينشدها المؤمنون : طريقها الجهاد ، والصبر على مشقاته ، وكذلك : تحمل تبعات الدعوة وتكاليفها ، والصبر على مشقات ذلك .

وما أعذب الآلام على من يذوق حلاوة الطاعة ، وحلاوة القرب من الله عز وجل !! إن كل شىء حينذاك يهون فى سبيل مرضاة الله عز وجل .

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

لقد تمنى الصحابة قتالا يستشهدون فيه لما سمعوا رسول الله ﷺ يحدث عما أعد الله من كرامة لشهداء بدر ، فأراهم الله عز وجل ما تمنوه بأعينهم فى أحد . وفى

(٢) العنكبوت : ٢

(١) القرطبي : ٤ / ٢١٨ .

سُورَةُ الْغَمْرِ

الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموه : فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » .

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

روى : أنها نزلت بسبب انهزام المسلمين يوم أحد ، ويقول القرطبي « قال بعض الناس : قد أصيب محمد ، فأعطوهم بأيديكم ، فإنما هم إخوانكم . وقال بعضهم : إن كان محمد قد أصيب ، ألا تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ إلى قوله : ﴿ فاتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ . . » ثم يقول بعد قليل : « فهذه الآية من تنمة العتاب مع المنهزمين ، أى لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمد ، والنبوة لا تدرا الموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء ، والله أعلم » ^(١) .

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

يقرر الله تعالى أن الآجال مقدرة ، أى لا يموت أحد إلا بقدر الله ، وحتى يستوفى المدة التى ضربها الله له ، ولهذا قال ﴿ كتابًا مَوْجَلًّا ﴾ ، وقال : ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ ^(٢) .

وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء ، وترغيب لهم فى القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه ، ولا علاقة للموت بالقتال أو اقتحام المخاطر فـ ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ ^(٣) - ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ ^(٤) . وكم من مجاهد ما ترك معركة إلا وكان فى مقدمتها ، ثم مات على فراشه . إن الجهاد لا يقدم الأجل ، والتقهر والتخلف عن المعارك لا يطيل العمر ، وهذه قضية يجب أن ترسخ فى قلوبنا جيدًا .

وقد عرض الله فى الآية بمن حضر المعركة فى أحد طلبا للغنائم ، وامتدح ووعد من حضرها طاعة الله ، وابتغاء ثواب الآخرة .

(٢) النحل : ٦١ .

(٤) الجمعة : ٨ .

(١) القرطبي : ٢٢١-٢٢٢ .

(٣) النساء : ٧٨ .

سُورَةُ الْغَمِّ

ونظير هذه الآية : قوله تعالى ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾ (١).
ثم يعاتب الله عز وجل الذين ضعفوا عن القتال يوم أحد بعد ما أشاع المشركون كذبا خبر استشهاد رسول الله قائلا :

وَكَايْنِ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾

كم من نبي قاتل وقاتلت معه جموع كثيرة ! فما ضعفوا لما أصابهم ، وما تركوا جهادهم ، بل صبروا وصابروا ، فكونوا مثلهم ، لتكونوا نماذج مضيئة لمن بعدكم من المؤمنين ، والله يحب الصابرين .

وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾

علموا أن النصر لا يكون إلا بالطاعة ، فدعوا ربهم أن يغفر ذنوبهم . وعلموا أيضا أن ثباتهم في المعركة لا يكون إلا بتوفيق الله وعونه : فقالوا ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ وطلبوا النصر منه وحده . فالنصر لا يملكه أحد إلا الله .

وهذا أدب المسلم مع ربه : حيث ينبغي أن يتوجه إلى الله دائما في كل نوائبه .

فَقَالَتْ لَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

لبى الله دعاءهم فغنموا في الدنيا وقهروا عدوهم ، ونالوا الدرجات العلا في الجنة ، لأنهم أحسنوا طاعة ربهم ، وساروا على منهجه في حياتهم ، وحملوا لواء الدعوة إلى دينه ، ففازوا وسعدوا في الدارين .

ويذكر الإمام الرازي رحمه الله تفسيرا جميلا في هذا الشأن فيقول : « إن هؤلاء اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا : ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴾ . فلما اعترفوا بذلك ، ساهم الله محسنين ، كأن الله تعالى يقول لهم : إذا اعترفت

(١) الشورى : ٢٠ .

سُورَةُ الْغَاثَةِ

بإساءتك وعجزك ، فأنا أصفك بالإحسان ، وأجعلك حبيبا لنفسى ، حتى تعلم أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز^(١).

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ
أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

لما أمر الله تعالى بالاعتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء : حذر من طاعة الكافرين ،
يعنى : مشركى العرب : أباسفيان وأصحابه ، وقيل : اليهود والنصارى وقيل : يعنى
المنافقين^(٢) ، وقيل : عام فى مطاوعة الكفرة والنزول على أحكامهم ، فإنه يجر إلى
موافقتهم^(٣) . والمعنى أن الله تعالى يحذر عباده المؤمنين من طاعة الكافرين والمنافقين ،
فإن طاعتهم تورث الردى فى الدنيا والآخرة .

بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

إن مولاكم هو الله : فلا تطيعوا غيره ، لأنه هو وحده الذى سيتولى نصركم على
عدوكم بإلقاء الرعب فى قلوبهم ، وهو سلاح لا يملكه أحد سواه سبحانه وتعالى .
سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ۖ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَهُمْ يَنْزِلُ
بِهِ سُلْطَانٌ ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

بعد أن أمر الله المؤمنين بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه ، بشرهم بأنه
سيلقى فى قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم ، مع ما
ادّخره لهم فى الدار الآخرة من العذاب والنكال .
روى أنه لما ارتحل جيش المشركين إلى مكة يوم أحد حتى بلغوا بعض الطريق ندموا
وقالوا : سترجع نقتل منهم ما تركناه ونستأصله ، فألقى الله فى قلوبهم الرعب ، فرجعوا
عما عزموا عليه .

وقد ثبت فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت
خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى
الأرض مسجدا وطهورا . وأحلت لى الغنائم ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث

(١) تفسير الفخر الرازى : ٢٥ / ٩ . (٢) تفسير القرطبى : ٤ - ٢٣٢ .

(٣) انظر : الفتوحات الإلهية : ١ - ٣٢٣ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة « (١) » .

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا
فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَيْنَكُم
مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ
ثُمَّ صَرَفَكُم عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

روى أنه « لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أحد وقد أصيبوا ، قال بعضهم لبعض : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ؟ فنزلت هذه الآية . وذلك أنهم قتلوا صاحب لواء المشركين وسبعة نفر منهم بعده على اللواء ، وكان الظفر ابتداءً للمسلمين ، غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة ، وترك بعض الرماة أيضا مركزهم طلبا للغنيمة ، فكان ذلك سبب الهزيمة « (٢) » ، وهو عدم سماعهم أوامر الرسول للرماة بالآلا يتركوا مكانهم أبدا ولو قتل الجيش كله ، إذ لا بد للجيش كله من هدف واحد ، حتى يخلص لهم النصر ، أما إذا تعددت أهدافهم : فإن الهزيمة تكون من نصيبهم . ثم يمنّ عليهم أرحم الراحمين بعد استيعاب الدرس . بعفوه سبحانه عنهم ، فضلا منه تعالى عليهم .

﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ
فِي أَخْرَابِكُمْ فَاقْبَلْكُمْ غَمًّا يَغْمِرُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى
مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرُ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٥٣﴾

لقد صرف الله النصر عن المؤمنين : لما فشلوا ، وتنازعوا في الأمر ، وترك الرماة مراكزهم ، وظهرت فيهم طائفة تؤثر الدنيا على الآخرة . كما أنه تعالى كافأهم على كل ذلك : غما على غم ، أى : هزيمة ، وضياع غنيمة ،

(١) رواه : البخارى كتاب الصلاة باب قول النبي ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » ورواه : مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة .

(٢) تفسير القرطبي : ٢٣٣ / ٤ - ٢٣٤ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

وسقوط قتلى وجرحى ، تمحيصا لهم وتدريباً على الطاعة ، لكيلا ينشغلوا بعد ذلك عن مهامهم الأساسية التي نيطت بهم - بالغنائم والاختلاف عليها .

وفي ختام الآية الكريمة : يهدد المولى ويتوعد من يعود لمثل هذه المخالفات ، قائلاً ﴿والله خير بما تعملون﴾ . وفيها - كذلك - وعد بالخير والنصر : لمن يمثل ويطيع أوامر الله تعالى ، وقادته .

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِّنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ قُلْ إِنَّا أَلَمْرُكُ اللَّهُ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِّنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

ثم بعد هذا الدرس تفضل الله على المؤمنين الذين ثابوا إلى رسول الله ﷺ ، ورجعوا إلى ربهم : فغشاهم - من فضله - نعاس ، عاد إليهم به الأمن والأمان .

أما طائفة المنافقين ، وهم الذين ﴿قد أهتمهم أنفسهم﴾ : فلم يتفضل الله عليهم بهذه العناية ، إذ لم يكن لهم هم إلا نجاة أنفسهم ، حيث ظنوا أنه لن ينصر الله رسوله ، وظنوا أنه لن يعود الرسول والمؤمنون إلى المدينة .

ثم أشارت الآية إلى الكلام الذي صدر عن ظنهم الجاهلي الباطل ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾ ؟ إنهم يلقون باللائمة على رسول الله ﷺ - ، حيث لم يأخذ بمشورتهم ورأيهم . ولو عمل بمشورتنا ، وأخذ برأينا ، ومكثنا في المدينة ولم نخرج إليهم ﴿ما قتلنا ها هنا﴾ .

وهذا جهل منهم ، وزعرة ، وعدم رسوخ إيمان ، فلا يمنع حذر من قدر . ويرد الله عليهم جهلهم بأنه سبحانه يشرح صدور من كتب عليه القتل إلى الخروج من بيته ، تنفيذاً لقدره عز وجل ، الغالب ، المحتوم ، الذي لا يفر منه أحد ، كما أن ما يجريه الله على عباده المسلمين من ابتلاء ومصاعب ومشاق ليس إلا ليخرج ما في الصدور ،

سُورَةُ الْغُفْرِ

ويظهر ما فيها من إيمان وإخلاص أو نفاق وارتياب والله عليم بذات الصدور .

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

يعنى من هرب إلى المدينة في وقت الهزيمة من أمام جيش المشركين دون من صعد الجبل ، إنما استذلهم الشيطان فكرهوا البقاء في المعركة لكي لا يُقتلوا .
ثم أخبر الله عز وجل عن جزيل لطفه ورحمته بمن أثمر درس أحد في قلوبهم ، ورجعوا إلى ربهم تائبين نادمين ، وذلك بالعفو عنهم والمغفرة لهم . . . فسبحانك يا غفور يا حلیم .

يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

في هذه الآية : ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب : لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم ، فقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا مثل هذا الصنف الكافر .
إنما هي أقدار وأجال ، والله يتخذ ويصطفى من عباده الصالحين شهداء في سبيله . أما أقوالهم هذه فما وجدت في قلوبهم إلا لتكون حسرة على ما أصابهم .
واعلم أن الذى بيده الحياة والموت هو الله ، ولا دخل للضرب في الأرض بالسفر إلى التجارة أو غيرها من غزو ونحوه فيما يعتقدونه .

وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتْتُمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

إن الموت في سبيل الله أو القتل : خير من الدنيا وما فيها ، إذ هو الموت الذى لا يدانيه شرف ، إنه رحمة من الله ومغفرة للذنوب ، فهل بعد هذا الخير من خير ؟

وَلَيْنَ مِّتْمٍ أَوْ قُتِلْتُمْ إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

إن موتكم أو قتلكم مرجعه إلى الله ، فالذى بيده هذا كله هو خالقكم ، وستحشرون

فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَوَ كُنْتَ فَرْطًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

إن رحمته ﷻ ولين جانبه هما اللذان جمعا الناس عليه - ﷺ ، ولو كان على غير
 هذا الخلق : لانفض الناس من حوله .

وبعد التشاور في الأمر : ، إذا عزمتم على شيء يا محمد وكذلك - أمتك - ﴿فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ أي : بعد الأخذ بأسباب اختيار أصوب الأمور، اعزم، ثم توكل على الله .

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُ لَكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

۲۶۱

سُورَةُ الْغَنَةِ

من غير الله إن خذلكم ، وإن نصركم الله فلن يستطيع أحد أن يغلبكم .
وهذا هو الدرس الذى يجب ألا يغيب عنا فى حياتنا ونحن نواجه الكفر والجاهلية :
وهو توثيق علاقتنا بالله تعالى .

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ
مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١﴾

« لما أخلّ الرماة يوم أحد بمراكزهم خوفاً من أن يستولى غيرهم من المسلمين على الغنيمة ، فلا يصرف إليهم شيء : بين الله سبحانه أن النبى - ﷺ لا يجوز فى القسمة ولا ينجون فما كان من حَقِّكم أن تتهموه (١) » .

إن أنبياء الله كلهم معصومون ، فلا يمكن أن يتأتى من واحد منهم خيانة فى شيء ،
وكيف يخونون وهم المؤمنون على وحى السماء ، وقد اشتهروا بالأمانة بين الناس ؟

أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٢﴾

إن الله عز وجل لا يسوى بين من اتبع رضوان الله ، - فلم يغُلْ ، ولم يجعل لنفسه هدفاً غير اتباع مرضاة الله - وبين من تولى عن النبى - ﷺ ، وأراد الكفر والغلول ؛
فالأول له رضوان الله فى الدنيا والآخرة ، والثانى مأواه جهنم وبئس المصير . ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ ما لكم كيف تحكمون ﴿٢﴾ .

﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لآقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ (٣) .

هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرُكُمْ يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾

يعنى أهل الخير وأهل الشر درجات ، أى متفاوتون فى منازلهم ؛ فمن اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله كل منهما له مكانته عند ربه ، فاحذروا اطلاع الله على قلوبكم وأعمالكم .

(٢) القلم : ٣٥ - ٣٦ .

(١) تفسير القرطبي : ٤ / ٢٥٤ .

(٣) القصص : ٦١ .

سُورَةُ الْغَاثِ

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾

يمتنّ الله سبحانه على المؤمنين بأعظم نعمة أنعمها عليهم ، وهى نعمة الرسالة التى أرسل بها النبى محمدًا ﷺ ، والتى أخرجتهم من الظلمات إلى النور، وأعادت إليهم إنسانيتهم ، وعرفوا طريق التوحيد والاستقامة بسببها ، حيث أرسل إليهم هذا النبى ﷺ بالقرآن والسنة ، فأرشدتهم بعد أن كانوا من قبله فى ضلال كبير، وجهل مطلق . ﴿من أنفسهم﴾ أى من جنسهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به .

أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

إن الحديث عن غزوة أحد وما لحق المسلمين فيها من إصابات : لم ينته ، بل ما تزال الآيات تذكر المسلمين بفضل الله عليهم يوم بدر، وتضع أسباب الانهزام يوم أحد أمام أعينهم ، وتربيههم على أن يرجع كل مسلم عند أية مصيبة إلى نفسه ، ليفتش وينقب عما اقترف من ذنوب . ﴿قد أصبتم مثلها﴾ أى يوم بدر؛ فلقد أصاب المسلمون من المشركين يوم بدر ضعف ما أصاب المشركون منهم يوم أحد ؛ فلم تستغربون وتقولون : من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ؟ ونحن نقاتل من أجل الله ، ونحن مسلمون ، وفينا رسول الله ، وأعداؤنا مشركون ؟ ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ يعنى : مخالفة الرماة لأوامر رسول الله ﷺ كما سبق القول .

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّحِيٍّ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾

يبين الله سبحانه فى هذه الآية : أن كل ما يحدث فى الكون بإذن الله . أى أن «فراركم بين يدى عدوكم، وقتلهم لجماعة منكم، وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة فى ذلك ، ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أى الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا»^(١) .

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٤٢٥ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ
قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

إن من حكم إنزال الهزيمة بالمسلمين في أحد : إظهار علم الله الأزلي في واقع الناس ،
ليكون علم مشاهدة ؛ إذ يُميز الله المؤمنين وهم الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ
واستشهدوا ، من المنافقين وهم فئة عبد الله بن أبي بن سلول ، الذين رجعوا معه في
أثناء الطريق عن نصره النبي ﷺ فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرصونهم على الإتيان
والقتال والمساعدة ، ولهذا قال ﴿أو ادفعوا﴾ أي : كونوا معنا دون أن تقاتلوا ، ليكثر
سوادنا ، أمام أعدائنا ، فيكون ذلك دفعا وقمعا ، فتعلموا قائلين ﴿لو نعلم قتالا
لا تبعنكم﴾ قال مجاهد : « يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم ؛ ولكن لا تلقون
قتالا »^(١) ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ أي : قد بان حالهم ، وانكشف
سترهم وظهر نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون ؛ فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر
الحال ، وإن كانوا كافرين في الحقيقة ، وواقع الحال^(٢) .

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلَّ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمْ
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

لما انتهت المعركة ، وأسفرت عما أسفرت عنه : نفث المنافقون سمومهم فيما بينهم ،
فقالوا : لو أطاعونا وقبلوا مشورتنا ، فلم يخرجوا من المدينة ، ما قتل من قتل من
المسلمين .

ويأتى الرد ليصحح هذه العقائد الفاسدة ﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت﴾ أي :
فادفعوا وامنعوا عن أنفسكم الموت حين يأتيكم الملك الموكل بكم ، لقبض أرواحكم في
غير وقت القتال ، ودون الخروج ، إن كنتم صادقين في مشورتكم وزعمكم . !!
وهيهات . . هيات . . !!

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

(٢) انظر : القرطبي ٤ / ٢٦٧ .

(١) انظر ابن كثير : ١ / ٤٢٥ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

بعد أن ميّز الله عز وجل المؤمنين من المنافقين ، وكشف أباطيل المنافقين ، وردّ مكائدهم إلى نحورهم ، طمأن الله عز وجل قلوب المؤمنين على مصير الشهداء ، فأنزل الله هذه الآية مصححاً بعض المفاهيم عن الشهيد ، فيخبرنا تعالى أن الشهداء وإن قتلوا في هذه الدار ، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار .

إذ لما بينت الآية السابقة : أن الحذر لا ينجى من القدر ، وأن الشجاعة في مواجهة المخاطر لا تقدم أجلاً ، وأن الجبن والتخاذل لا يؤخر موتاً ، أو يطيل عمراً ، بين سبحانه في هذه الآية : أن من قتل في سبيل الله لم يمت ، بل هو حيّ عند الله في جنة عرضها السموات والأرض ، تجري عليه أرزاق الخالق ، كما كانت تجري عليه في الدنيا - وحياته حيث أكمل وأفضل من حياته في دار الدنيا .

والآية : في شهداء أحد ، وقيل : بل هي عامة في جميع الشهداء ^(١) .

وقد اختلف العلماء حول معنى هذه الحياة . فالذي عليه المعظم هو «أن حياة الشهداء محققة» ^(٢) . ثم منهم من يقول : تُرد إليهم الأرواح في قبورهم ، فينعمون ، كما يحيا الكفار في قبورهم ، فيعذبون . وقال مجاهد : يرزقون من ثمر الجنة ، أى يجدون ريحها وليسوا فيها . وصار قوم إلى أن هذا تجاوز . والمعنى أنهم في حكم الله مستحقون للتنعم في الجنة وهو كما يقال : ما مات فلان ، أى : ذكره حى ؛ كما قيل :
مَوْتُ التَّقَى حَيَاةٌ لَا فَنَاءَ لَهَا

قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء» ^(٣)

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ
أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾

إن هؤلاء الشهداء الذين قتلوا في سبيل إعلاء كلمة الله ، فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة . ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله ، أنهم يقدمون عليهم ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم . وبعد أن أخبر الله عز وجل أنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، يخبر تعالى كذلك أنهم يتمنون أن يردوا إلى الدنيا فيقتلوا عشر مرات .

(١) القرطبي : ٢٦٨ / ٤ .

(٢) للتوسع انظر : مبحث « الحياة البرزخية » من كتاب « زاد الدعاة » ٢ / ٩٥ الطبعة الثالثة للمراجع .

(٣) تفسير القرطبي : ٢٦٩ / ٤ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

روى البخارى ومسلم - واللفظ له - عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أنها ترجع إلى الدنيا ولا أن لها الدنيا وما فيها إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل في الدنيا لما يرى من فضل الشهادة» (١) .

إن الشهداء يستبشرون بإخوانهم الذين يسيرون على درب الجهاد في سبيل الله حتى إنهم يقولون لما رأوا ما أعد لهم في الجنة : يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة .

وكفى بهذه الآية ترغيباً في الشهادة في سبيل الله .

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

إنهم في بشارات متعددة من ربهم الكريم ، وفضائل لا تحصى . وهذا هو كرم الله عز وجل .

فهل من مشمر عن ساعديه لينال الشهادة في سبيل الله ؟ .

فما تأخرت الأمة إلا بعد أن تركت الجهاد ! وما تداعت عليها الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها إلا بعد أن هابت عدوها ، ورغبت في الدنيا واشترتها بالآخرة !!

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ

وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ

كان هذا يوم حمراء الأسد . فبعد أن عزى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ والمؤمنين عمن قتل منهم يوم أحد في سبيله بأفضل أنواع التعزية والطفها ، بأن ذكر ما أعد لهم من الكرامة والفضل : ذكر سبحانه وتعالى حال من رجع من أحد ، وموقفهم من إرهاب عدوهم ، وتجمعهم لاستئصالهم .

وسبب ذلك : «أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد ، وبلغوا الروحاء ، ندموا، وقالوا : إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل ، فلم تركناهم ؟ بل الواجب أن نرجع ونستأصلهم . فهموا بالرجوع . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فأراد أن يرهب

(١) رواه البخارى كتاب الجهاد باب : تمنى المجاهد أن يرجع إلى الدنيا ورواه مسلم كتاب الإمارة باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى .

سُورَةُ الْغَنَةِ

الكفار ، ويريهم . من نفسه ومن أصحابه قوة ، فندب أصحابه إلى الخروج في طلب أبي سفيان وقال : « أريد أن يخرج الآن معي إلا من كان معي في القتال . فخرج الرسول ﷺ مع قوم من أصحابه ، قيل كانوا سبعين رجلا ، حتى بلغوا حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثلاثة أميال ، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين ، فانهزموا . »^(١) وانصرفوا إلى مكة مسرعين . وكانت غزوة حمراء الأسد صبيحة يوم أحد ، فأقام بها الرسول ﷺ الاثنى والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة ، مما يؤكد أنه لم يكن هناك هزيمة واضحة في هذه الغزوة ، لأن للهزيمة معالم لا تنطبق على هذه المعركة ، منها الاستيلاء على الأرض أو قتل القائد أو سبي الساء وغير ذلك .

هذا وقد وعد الله عز وجل الذين استجابوا لرسول الله ﷺ على ما هم من جهد ومشقة أجراً عظيماً فقال سبحانه ﴿ للذين أحسنوا منهم واثقوا أجرٌ عظيم ﴾ .

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا
حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

وهذه الآية أيضاً وإن كان نزولها للسبب نفسه : إلا أنها تدعو المسلمين في كل الأزمان ألا يخافوا جموع أعدائهم ، وأن يحسبوا عليهم ربهم ، فهو حسبهم ونعم الوكيل .
إن تجمع الجموع لحرب المسلمين لا يزيد المسلمين الصادقين إلا إيماناً ، ولا يزيدهم إلا اعتصاماً بحبل الله ، وثقة في دينهم ، واطمئناناً إلى مولاهم ، حيث إن النبي ﷺ وصحابته لم يضعفوا حين ﴿ قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ ، بل كان ذلك عاملاً قوياً من عوامل اطمئنانهم ، واعتزازهم ، وتمسكهم بدينهم !!
وهذا هو السبيل إلى النصر ، لا ترهبنا الجموع ، ولا ترهبنا الأحلاف ، ولا ترهبنا الاتحادات المعادية بل لا يزيدنا ذلك إلا استمسكاً بديننا ، واعتصاماً به ، والتجاء إلى الله .

عن ابن عباس : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى في النار ، وقالها محمد - ﷺ - حين قال الناس ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾^(٢) .
« » وهذه الواقعة تدل دلالة ظاهرة على أن كل أمر بقضاء الله وقدره .

(١) تفسير الرازي : ٩ - ٧٩ الطبعة الثالثة - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٤٣٠ .

سُورَةُ الْغَنَاقِ

«وذلك لأن المسلمين لما انهزموا عسكريا من المشركين يوم أحد : كان المقتضى - بحكم العادة - أن يحصل لهم ذل وانكسار وضعف ، إلا أن الله سبحانه وتعالى : قلب القضية ههنا ، حيث قذف في قلوب الغالبيين ، وهم المشركون ، الخوف والرعب ، وأودع قلوب المغلوبين القوة والحمية والصلابة .
«وذلك يدل على أن الدواعي والصوارف من الله تعالى ، وأنها متى حدثت في القلوب وقعت الأفعال على وفقها» (١) .

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

«قال علماؤنا : لما فوضوا أمورهم إليه ، واعتمدوا بقلوبهم عليه ، أعطاهم من الجزاء أربعة معان : النعمة ، والفضل ، وصرف السوء ، واتباع الرضا . فرضاهم عنه ورضى عنهم» (٢) .

وبعد . . فإن آلام أحد قد زالت ، وجراحها قد برئت ، وآثارها قد محيت ، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء . وقد أخذ تعالى يبين مكر الشيطان وأوليائه ، ويحث المؤمنين على خوفهم منه تعالى فقط فيقول :

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

فلا تخافوا أحداً إلا الله ، وهو من تمام الإيمان . وهذا يكمن في قوله ﴿إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ .

وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يَسْتَرْعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنِ يُضِلُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَّافٍ فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

يأمر الله عز وجل رسوله والأمة كلها من خلاله ﷺ : ألا يحزنوا على كفر من كفر ، وعناد من يعاند ، وإن كثروا وانتشر باطلهم ، فإنهم لن يضلوا الله شيئا ، ولن ينقصوا من ملك الله شيئا ، ولا من سلطانه سبحانه .

(١) انظر تفسير الرازي : ٨١ / ٩ - ٨٢ بتصرف . (٢) تفسير القرطبي : ٢٨٢ / ٤ .

سُورَةُ الْغَاثِ

أخرج الإمام مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : «يا عبادى : إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا . يا عبادى : كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم . يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم . يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم . يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا . يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى : إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (١) .

وكما أن الله يريد ألا يجعل للذين يسارعون في الكفر حظا ونصيبا في الآخرة ، فإنه يتوعدهم - كذلك - بالعذاب العظيم .

نعم لابد من الاختبار والابتلاء بالأوامر والنواهي :

فمن التزم وآمن ، فقد نجا ، ومن أعرض ونأى بجانبه ، فقد هلك .

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

إن الذين يسارعون في الكفر : هم الذين اشتروا الكفر بالإيمان ، وهل يشتري الكفر بالإيمان ، عاقل ؟ وهل يشتري الكفر بالإيمان إنسان يحب الخير لنفسه ؟ إنه عمى البصيرة وطمس الفطرة ، نعوذ بالله من الخذلان .

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَالَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

(١) رواه مسلم كتاب البر باب تحريم الظلم .

سُورَةُ الْغَاثِ

إن هذه الآية الكريمة ، تجيب عن بعض ما يدور في الصدور : كيف يترك الله الباطل يصول ويجول ويظهر في بعض الأحيان ؟ وكيف يتمكن أهل الباطل من إنزال الأذى بأولياء الله ؟ حيث تعالج هذه التساؤلات بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ ليزدادوا في غيهم وضلالهم ، وهذا هو كيد الله لهم ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ ^(١) - ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وأملى لهم إن كيدى متين ﴿ ^(٢) . هؤلاء لهم عذاب مهين يوم القيامة .

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَإِنْ تَوَلَّوْا وَتَقَرَّبُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾

«أى : ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه - أيها الكفار والمنافقون - من : الكفر ، والنفاق ، وعداوة النبي ﷺ .

بل إنه سبحانه يفرق بين الخبيث والطيب : بالحنة والتكليف .
وكذلك : ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ أى : على من يستحق النبوة ، حتى يكون الوحي باختياركم .

بل إنه سبحانه يختار من رسله من يشاء ليطلعه على غيبه تعالى .
ولذلك : فعليكم الإيمان والتصديق لا التشوف إلى اطلاع الغيب ، الذى لا يعلمه إلا الله .

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا وَتَقَرَّبُوا ﴾ : فلکم الجنة ، وهو ﴿ أجر عظيم ﴾ ، وهذا هو الطريق الوحيد : للنجاة ^(٣) .

وإلى هنا ينتهى الحديث عن غزوة أحد بعد بيان ما فيها من دروس .
ثم يبدأ درس آخر من دروس المعركة ، بين الأمة المسلمة وبين أعدائها ، وبخاصة اليهود . فيقول الله تعالى :

(١) الطارق : ١٧ . (٢) القلم : ٤٤ - ٤٥

(٣) انظر : تفسير القرطبي : ٤ - ٢٩٠ (بتصرف واختصار) .

سُورَةُ الْغَنَةِ

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءٍ أَنَّهُمْ لِلَّهِ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ
سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨﴾

تعالج هذه الآية : قضية البخل ، وتبين أن إمساك المال عن أهله ، ممن لهم حق فيه ، سيعود بالهلاك على صاحبه في الآخرة .

إن المالك الحقيقي للمال - في نظر الإسلام - هو الله وحده ، والناس مستخلفون فيه . يقول الله : ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ ^(١) - ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ ^(٢) .

وقد بين الإسلام معالم هذه القضية بما لا خفاء فيه . وقد وعى المسلمون هذه الحقيقة : فكانوا يقومون في أموالهم بما يرضى الله سبحانه - المالك الحقيقي - فنجدهم ﴿ يُوَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . ونجدهم يجاهدون بأموالهم في سبيل الله ، كما يجاهدون بأنفسهم هم ، ونجدهم يحسنون القيام بواجب الوكالة عن الله في الأموال ، .

ولقد كان الرسول ﷺ القدوة للأمة في ذلك ، إذ كان أجود من الريح المرسلة ، كما كان ﷺ يحث المسلمين دائما على القيام في أموالهم بما يرضى مولاهم . وأخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل له يوم القيامة شجاعا ^(٣) أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعنى شذقية - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ، ثم تلا ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ . . . ﴾ الآية ^(٤) .

نعم : فالكل سترك ما تحت يده ، وكلنا راحلون عن أموالنا وأهلينا ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨﴾

(١) الحديد : ٧ .

(٢) النور : ٣٣ .

(٣) شجاعا : نوع من الحيات .

(٤) كتاب الزكاة باب إثم مانع الزكاة .

سُورَةُ الْغَنَاءِ

«لما نزل قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾^(١) قالت اليهود : يا محمد : افتقر ربك فسأل عباده القرض !! ؟ فأنزل الله ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾^(٢) .

وهذا هو دأب اليهود والمعروف عنهم من سوابق سوء الخلق ، وعدم التأدب مع الله ، وتحدى المؤمنين ، وسلطة ألسنتهم ، وتشبيه يد الله بالغل . - غُلَّت أيديهم - فليس بعيداً عليهم أن يقولوا هذا القول ﴿سنكتب ما قالوا﴾ ونقدمه لهم في صحائف أعمالهم ، ونكتب ﴿قتلهم الأنبياء﴾ السابقين بدون حق .

وهذه هي بعض جرائمهم . . . !! فعلياً أن نعتبر من هذه الجرائم التي ينسبها الخالق إليهم ، فهم هكذا ، ودائماً يكونون !!

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

سنقول لهم ذوقوا العذاب الشديد بما أسلفتم من جرائم بشعة . وهذا من عدل الله . ولا يظلم ربك أحداً .

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾

نزلت في وفد من اليهود أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : «إننا في كتبنا قد عهد الله إلينا ألا نؤمن بأى رسول حتى يأتينا بقربان (صدقة) تأكله النار ، وهذه دلالة من دلالات النبوة التي نصدق بها أى نبي ، وأنت يا محمد ما فعلت ذلك ، ولا رأينا ذلك عندك . فإن جئتنا به صدقناك ، وإلا فلست من الأنبياء^(٣) .

وكان ذلك منهم على سبيل التعنت ، لا على سبيل الاسترشاد^(٤) .

ولذلك : قل لهم يا محمد ﴿قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات﴾ الدالة على صدقهم ، وكذلك ﴿وبالذى قلتم﴾ أى جاءوكم بالذى طلبتم منهم قبلاً ، وتطلبونه الآن ﴿فلم قتلتموهم﴾ إذن . . . ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تطلبون !!

(٢) تفسير ابن كثير : ٤٣٣ / ١ .

(٤) الفخر الرازى : ١٢١ / ١ .

(١) البقرة : ٢٤٥ .

(٣) القرطبي : ٢٩٥ / ٤ .

سُورَةُ الْغَاثِ

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ
الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

فإن كذبوك بعد هذا الذى بينته ، فلا تحزن ، ولا تغتم ، فهذا هو دأبهم ومسلكهم .
فقد كذب رسلٌ كثيرون قبلك مع مجيئهم بالدلالات الواضحة . منهم نوح وهود
وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى ولوط وغيرهم . (الزبر) يعنى الكتب ، فكتاب
مزبور أى مكتوب . ﴿ والكتاب المنير ﴾ أى الواضح الجلى .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ
عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾

«المقصود من هذه الآية : تأكيد تسلية الرسل ﷺ ، والمبالغة فى إزالة الحزن من
قلبه ، وذلك من وجهين : أحدهما : أن عاقبة الكل الموت . وهذه الغموم والأحزان
تذهب وتزول ، ولا يبقى شىء منها ، والحزن متى كان كذلك لم يلتفت العاقل إليه .
والثانى : أن بعد هذه الدار داراً يميز فيها المحسن عن المسىء » (١) .
فالفائز برضوان الله : هو الذى سيبتعد عن النار ، ويدخل الجنة برحمة الله ورضوانه ،
وما هذه الحياة : إلا غمضة من الدهر تمر ، وإن طالت : فهى دنيئة حقيرة .

﴿ تَتَّبَلُّونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا
وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزَمِ الْأُمُورِ ﴾ ﴿١٨٦﴾

الخطاب هنا موجه إلى النبى ﷺ والمعنى : لتختبرن ولتمتحنن فى متاعكم
وأموالكم ، وذلك بالمصائب التى تحمل عليها ، أو بالإلفاق منها فى سبيل الله وبقية
تكاليف الإسلام الموجهة إلى المال .
أما الابتلاء فى النفس فيكون بالمرض وألمه ، والموت وصعوبة الفراق .

(١) تفسير الرازى : ٩ : ١٠١ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

وللهمال وظيفة كبرى في الإسلام ، فهو : وكل ما يملك المرء ، ملك لله سبحانه وتعالى ، وهو الرازق ، والمسبب للأرزاق . فللفقراء نصيب من أموالنا ، فمنه تخرج الصدقات ، وتؤدي الزكاة ، وإن لم يسخر المال لأعمال الخير : فهو نقمة على صاحبه وابتلاء .

نعم إن المال ييسر حوائج الإنسان في الدنيا ، ولكن إذا كان جمعه في حد ذاته : خرج عن مفهوم وظيفته . وقد تكلمنا عن قيمة المال ووظيفته وأهميته في تفسير سورة البقرة . والبلاء : هو ما قد بينه الله تعالى في موقف آخر ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾^(١) .

إن الله يسلي عباده المؤمنين عند مقدمهم المدينة المنورة قبل غزوة بدر الشهيرة . يسليهم عما يصيبهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين . أمراً إياهم بالصفح والعفو، فإن لكل ذلك جزاء عظيماً .

ثم يشد على أيديهم ، ويشحذ همهم ، ويقوى عزائمهم ، بقوله تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ
وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِمْ قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ

هذه الآية : تنعى على أهل الكتاب مسلكهم وتصرفاتهم ، فهي توبخهم وتهتددهم حيث إنهم أمروا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وبيان أمره ، وما أنزل عليه ، وذلك بأن الله أخذ عليهم العهد على السنة أنبيائهم بذلك ، وألا يكتُموا شيئاً من ذلك العلم ، وهذا العهد الذي يعرفون بمقتضاه صفة محمد ونعته . لكنهم خالفوا العهد ونبدوه وراء ظهورهم واستبدلوا به قيمة رخيصه وثماناً بخساً ، فبُئِست الصفقة صفقتهم ! وبُئِست البيعة بيعتهم كما يقول ابن كثير !!^(٢) .

وهذا هو عهد اليهود دائماً وما يزالون : بارعون في نقض العهود والمواثيق ، ولِ

(١) البقرة : ١٥٥ .

(٢) ١ (٢) / ٤٣٦ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

الحقائق ، والهروب من الواقع ، خبثاء في أنفسهم ، غادرون على من حولهم ، ناقضون كل بناء عتيد .

وفي هذا درس من الله سبحانه لكل إنسان ، ولكل أمة ، أن يحذر - وأن تحذر - منهم .
« قال الحسن وقتادة : هي - الآية - في كل من أوتى علم شيء من الكتاب ، فمن علم شيئا فليعلمه ، وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة . وقال محمد بن كعب .
لا يحلّ لعالم أن يسكت على علمه ولا للجاهل أن يسكت على جهله ^(١) .
وفي هذا : تأكيد لقيمة العلم ، وأثره بين الناس ، وقيمة نقله وإشاعته وتعليمه .

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ
بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

كان رجال من المنافقين « إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزو : تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم النبي ﷺ : اعتذروا إليه ، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت الآية » ^(٢) .

وفي رواية للضحاک أوردھا القرطبي كذلك : « أن اليهود كانوا يقولون للملوك إنا نجد في كتابنا أن الله يبعث نبيا في آخر الزمان ينحتم به النبوة ، فلما بعثه الله سألهم الملوك أهو هذا الذي تجدونه في كتابكم ؟ فقال اليهود طمعا في أموال الملوك : هو غير هذا فأعطاهم الملوك الخزائن ، فقال الله تعالى ؛ ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ﴾ الملوك من الكذب ، حتى يأخذوا عرض الدنيا . ^(٣) » فلا تحسب يا محمد أن هؤلاء الملاء الملاعين ناجون من النار .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

وهذا احتجاج على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء وتكذيب لهم ^(٤) .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾

(٢) ، (٣) تفسير القرطبي : ٣٠٦ / ٤ .

(١) انظر تفسير القرطبي : ٣٠٤ / ١ .

(٤) القرطبي : ٣٠٨ / ٤ .

سُورَةُ الْغَاثِ

في هذه الآية الكريمة : دعوة واضحة إلى النظر في خلق الله تعالى ، وإعمال الفكر في ملكوته سبحانه ، وذلك للاستدلال بآياته المبثوثة : ﴿ السموات والأرض ﴾ ، وفي كيفية خلقهما ، وكذلك في ﴿ اختلاف الليل والنهار ﴾ وما ينتج عن ذلك ، وما يدل عليه ذلك . !!

إذ لا يصدر كل ذلك ، أو بعض ذلك ، إلا عن : حى ، قيوم ، قدير ، قدوس ، سلام ، غنى عن العالمين .

وبهذا : يكون إيمانهم مستندًا إلى اليقين ، لا إلى التقليد ، ووراثه الدين .
وأولو الألباب : هم أصحاب العقول الزكية ، التي تدرك الحق فتتبعه ، والباطل فتتجنبه .

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾

هذه صفات أولى الألباب . وكأن الله تبارك وتعالى يقول لنبيه ﷺ : إني أريد بك فتحًا جديدًا في عالم الإنسان . نعم إن الله يريد بمحمد أن تتفتح العقول ، وتنشرح القلوب ، وتطرب الصدور بفهم جديد في عالم الأرضين والسموات .
إن محمدا ينادى بتوحيد الله وعبادته ، كما ينادى بدراسة الأرض ودراسة الإنسان .
يقول تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ^(١) . ويقول كذلك ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ ^(٢) .

إذ إن الإسلام ليس دين عبادة وتقديس للخالق الأعلى بغيبات غير منظورة فقط ؛ بل هو إدراك للحقيقة ، يقذف به الحق سبحانه في قلوب الذين قالوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فتتفتح أنفاس المعرفة فيهم ، فينظرون في ملكوت السموات والأرض .

وهنا مجال واسع لدراسة علم طبقات الأرض ، وطبقات الجو ، لكى يخوض الباحثون من المسلمين في طبقات الجو العليا حتى يصلوا - أو يكادوا أن يخترقوا غلاف الأرض - إلى عوالم أخرى كونية .

(١) الذاريات : ٢١ .

(٢) الذاريات : ٢٠ .

سُورَةُ الْغَاثِ

وهذا مطلوب منهم .

ولكن السؤال : لِمَ تعطلت ملكات البحث عند المسلمين ؟
وهذه وقفة مهمة يجب أن : نسأل فيها كثيرا ، وأن نبحث في دائرتها طويلا ، عن
سبب تقدم الغرب وتأخر الشرق الإسلامى فى هذا المضمار ؟!!!

رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِّنْ أَنْصَارٍ ﴿١١٢﴾

يا ربنا إنك من تدخله النار فقد «أخريته» وأظهرت خزيه لأهل الجمع . . . ويوم القيامة
لا مجير لهم منك ، ولا مجيد لهم عما أردت بهم «(١)» .

رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا

أى داعياً يدعو إلى الإيمان - وهو الرسول ﷺ قائلا ﴿ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا ﴾ فاستجبنا
له واتبعناه . وبشوت إيمانهم دعوا الله مخلصين صادقين قائلين :

رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١١٣﴾

الذين استمعوا لعبدك ونبيك فأصبحوا فى طريقك وعلى طريقك .
ولما عاشت هذه النفوس ، وتلك الضمائر ، وتلك الأرواح فى سبحاتها القدسية التى
نورت الأرواح ، وأخذت بالقلوب والضمائر فرققتها وزكيتها ، فعاشت تتذاكر وتدرس
معانى الآيات ومقاصدها ، وما تريده بالإنسان الذى آمن وسلم ، بالوجود والقدرة ،
ووجدت أن الله يطلب من عباده التفكير فيه : طلبت هذه النفوس غفران الله لها ،
وتكفير سيئاتها ، وصفح الله الدائم عن ذنوبها ؛ حيث إنه باستغراق الإنسان فى صورة
الكون يصبح حريصا على أن ينال كل ما وعدت به الرسل والأنبياء من قبل محمد فتهب
الأرواح داعية :

رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١١٤﴾

وهذا : طلب الواثق من عبوديته ، المطمئن لكرم ربه وسخائه .

(١) تفسير ابن كثير : ٤٣٩ / ١ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

وتتجلى عليهم أنوار الإشراق بالاستجابة . سبحان الله ! قلوب تدعو . . ورب فرد صمد يستمع لعباده !

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنسِيَّ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۖ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلْنَاهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

إن من إكرام الله سبحانه وتعالى أنه العدل الحق لا يضيع عمل عامل من خلقه ، ذكرا كان أو أنثى .

وفي قوله تعالى ﴿ بعضكم من بعض ﴾ : منتهى الإنصاف والتكريم للمرأة والرجل معًا ، فهو يجعلها حقيقة إنسانية واحدة . . ناطق بها أمانة التدبير في الخلق ، وكلفها بالتلقى عن رسول الله ﷺ ، ومشاركته حمل الأمانة ، وتأدية الرسالة .
ثم رفع الدين تقدموا للجهاد من الرجال والنساء فهاجروا في سبيل الله ، واحتملوا في سبيله أن يخرجوا من ديارهم ، ويلقوا أذى كثيرا من الكافرين الظالمين .
ثم كانت المكافأة من الله سبحانه وتعالى : أن كفر عنهم سيئاتهم ، وأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأثابهم من عنده حسن الثواب .

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾

يقول القرطبي : « قيل الخطاب للنبي ﷺ والمراد الأمة ، وقيل : للجميع . وذلك أن المسلمين قالوا : هؤلاء الكفار لهم تجائر^(١) وأموال . . . وقد هلكنا نحن من الجوع ، فنزلت هذه الآية أي لا يغرنكم سلامتهم بتقلبهم في أسفارهم »^(٢) .
إنهم لا يحوزون من الدنيا إلا متاعًا قليلا يساقون بعده إلى جحيم أبدي ، فبشت النهاية .

(٢) تفسير القرطبي : ٣١٩ / ٤ .

(١) جمع تجارة .

سُورَةُ الْغَنَةِ

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا
مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١١٨﴾

إنهم كانوا صادقين فيما اعتقدوا ، فرزقهم الله علما ومعارف ، برّوا بها آباءهم وأبناءهم .

عن عبد الله بن عمرو قال : إنما سماهم الله الأبرار ، لأنهم برّوا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق .
والبار : هو الذى لا يسيء وإن أسىء إليه ، وهو الذى يعطف على كل ضعيف منكسر ، ويحسن إلى من أساء إليه ، ولا ينسى الفضيلة لمن أكرمه .

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ
خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١٩﴾

يقرر الله سبحانه وتعالى : أنه ليس كل أهل الكتاب فى شر وكفر وقسوة وغلظة قلب وظلمة نفس ، ولكن منهم من يؤمن بالله ، فيخشع قلبه ، وترق مشاعره ، فيصدق بمحمد ﷺ . وهم الذين أيقنوا بالكلمات التى أنزلها الله على آدم ، وبرسالة نوح ، وأن إبراهيم وموسى وعيسى امتداد لآدم عليه السلام ، وأن محمدا جاء خاتما ومتمما لكل الحق من لدن هبوط آدم - عليه السلام من الجنة .

أخرج البخارى فى صحيحه عن أبى بردة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لهم أجران : . . » الحديث وذكر منهم رجلا من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى ^(١) .
«لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا» أى لا يكتمون ما بأيديهم من العلم ، كما فعلته الطائفة المردولة منهم ، بل يبذلون ذلك مجانا ، ولهذا قال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قال مجاهد : يعنى سريع الإحصاء ^(٢) .

(١) كتاب العلم باب تعليم الرجل أمته وأهله . (٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٤٤٤ .

سُورَةُ الْغَنَةِ

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١﴾

يأمر الله سبحانه عباده بالصبر على العبادة ، وإقامتها في مواقيتها . فإن فعلوا فقد أفلحوا . والمرابطة : بمعنى القتال في سبيل الله وحراسة ثغور المسلمين . أما الصبر فهو على أشياء كثيرة ، منها : العبادة والنفقة ، والمصابرة على إقامة الصلوات في أوقاتها ، والصيام إذا حضر الشهر ، والحج إذا توافرت النفقة والأمن والصحة ، وأداء الزكاة ، كل ذلك يعد رباطا في سبيل الله . والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا .
واليوم وقد غابت دولة الإسلام : فقد وجب الجهاد ، والجهاد اليوم هو الرباط ، وقد ربط الله سبحانه تبارك وتعالى بين الصبر والرباط والتقوى والفلاح .
فالذين يقيمون الصلاة ويصابرون على إقامتها وعلى الرباط في سبيل الله هم الذين مُنحوا الفلاح جائزة من الله .

إن من أوجب الواجبات على المسلمين أن يصبروا ويصابروا ويرابطوا ويتقوا الله في العمل المستمر الدءوب على عودة دولة الإسلام رشيدة مسترشدة بكتاب الله وسنة رسوله . فذلك هو الرباط المعهود .

وإنى لأرى اليوم أن المرابطة هنا لا تنصب فقط على المداومة على العبادات : ولكنها أصبحت ضرورة تتحقق بأنها مرابطة دفاع وحماية لحدود المسلمين . ثم مرابطة عمل وإرشاد وتعليم للأمة المسلمة التي فقدت هويتها ، وأصبح واجبا على المسلمين الدراسة والبحث لعلاج هذا الأمر الذي أفقدنا هويتنا الإيمانية .

ندعو الله في ختام هذه السورة الكريمة : أن يكتبنا من الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . وضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . مرابطين من أجل إعلاء كلمة الله . لا ينحشون فيه سبحانه لومة لائم ، ولا يحميدون عن صراطه . لا يرهبهم عدو فينحيهم عن الجهاد ، ولا ظالم فيغريهم جبروته أن يخلدوا إلى السكينة .

اللهم اجعلنا من المجاهدين فيك الداعين إليك المرابطين الصابرين على السراء والضراء ، حتى تقوم الدولة والأمة على شريعة الله وأمره . سبحانه توكلنا عليك واستعنا بك وإليك المصير .

سُورَةُ النِّسَاءِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا
كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

إن الرجل والمرأة هما معا نفس واحدة . . كانت الرجل فشطر منها نفس ثانية هي المرأة . ومعنى ذلك أن حياة أحدهما بغير صاحبه حياة غير مكتملة . وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يثرى العالم بالحياة والوجود ؛ فبث من آدم وحواء كثرة كثيرة من الرجال والنساء ؛ وبذلك كانت حركة الخلق في إنماء الأرض .
فالأية : تقرر حياة قائمة بين رجل وامرأة ، تتكاثر بهما الذرية بإنجاب شرعى ، وهو الزواج . فالزواج شريعة الله ، ونظام تقوم به الحياة ، منذ بدء الخلق إلى أن ينتهى العالم ، تلك حكمة الله وإرادته .
ويأمرنا الحق تبارك وتعالى ، نحن أولاد آدم ، بأن نتقى الله الذى أوجدنا من عدم ، ويوصينا بالأرحام ، كما ينبهنا تعالى : إلى رقابته الدائمة للإنسان ، وأنه يحصى عليه عمله ، وهو رقيب عليه ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ ^(١) .

وَمَا أَتُوا أَلْيَمَ أَمْوَالِهِمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَيْثُ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ
خُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

كما يأمر الله سبحانه وتعالى ، ويوصى عباده الذين أسلموا وصدقوا به ، أن يجعلوا سعيهم لجمع الرزق فى العمل الحلال . فإن كانوا أوصياء على أيتام كان خوفهم من الله أشد ، وحبهم للعدل أصلاً فى ضمائرهم ، فلا يجورون على يتيم ، ولا يأكلون من ماله

(١) البروج : ٩ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

إلا بالحق ، فهو من أمانات الله لديهم ، فهم مسئولون عنه ، ومحاسبون عن ماله إن كان يملك . فالله تعالى يأمر يدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة ، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم .

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرَبْعٌ
فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴿٣﴾

روى عن عروة أنه قال : قلت لعائشة ما معنى قول الله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ فقالت يا ابن أختي : هي اليتيمة تكون في حجر وليها : فيرغب في مالها وجمالها ، إلا أنه يريد أن ينكحها بأدنى من صداقها ، ثم إذا تزوج بها عاملها معاملة رديئة لعلمه بأنه ليس لها من يذب عنها ويدفع شر ذلك الزوج عنها ^(١) .
فاليتيمة : أمانة في حجر وليها حتى تتنقل من رعايته إلى وليها بالزواج .
وإن خفتم - حال تعداد النساء - أن لا تعدلوا بينهن كما بين ذلك الحق في موضع آخر ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ ^(٢) ، فليقتصر على واحدة .

وَأَنكِحُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُنَّ نَفْسًا فَكُلُوهُ هِنًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾

« قال ابن عباس : النحلة : المهر . وعن عائشة نحلة : فريضة . وقال ابن زيد : النحلة في كلام العرب : الواجب . يقول : لا تنكحها إلا بشيء واجب لها ، وليس ينبغي لأحد أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب . ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتما ، وأن يكون طيب النفس بذلك .
فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً » ^(٣) .

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْغُوفًا ﴿٥﴾

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً ، أى تقوم بهامعاشهم من التجارة وغيرها . ويوصينا الله سبحانه وتعالى أن

(١) تفسير الرازى ٩ - ١٧١ طبعة دار إحياء التراث المعدلة .

(٢) النساء : ١٢٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ - ٤٥١ باختصار .

سُورَةُ النِّسَاءِ

نكون حكماء في تصرف ما نملك من المال فلا نتركه بين أيدي من لا يُحسِن التصرف فيه ، ولكن نصره . بأنفسنا ، ونأتمن عليه الأتقياء ، الذين يخافون الله ، ويحذرون لقاءه ، وأن يكون الإنسان حكيماً في تصرف ماله ، فلا يبذر ، ولا يعطيه لسفيه غير أمين ، ولا يمنعه عن فقير ذي مخمصة وشدة وفقر وحاجة إلى المال . يرب به الأيتام ، ويصل ذا القربى ويقضى - اجة إخوانه المؤمنين .

وَابْنُلُوا إِلَيْكُمْ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ
وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا بَدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا
فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

اعلم أن الله قد ضمن حق اليتيم كاملاً في هذه الآية التي رسم فيها سبحانه خط سير التصرف في مال اليتيم وكيفيته . والخطاب فيها واضح يبدأ من بدء تسلّم مال اليتيم ماراً بمراحل نموه ورشده حتى يبلغ الحلم . ومعنى ﴿إسرافاً وبداراً﴾ هو ألا تأكلوا مال اليتيم من غير حاجة ضرورية .

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾

«كان المشركون : يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا ، فأنزل الله هذه الآية . . أى الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى يستوون في أصل الوراثة ، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم» (١) . وكانت هذه الفئات المشتركة من العرب قبل الإسلام لا تورث إلا حامل سلاح ، فأصبحت المرأة وارثة ، والأطفال أيضا .

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا
لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾

والمعنى ، أنه إذا حضر قسمة الميراث هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون ، واليتامى ، والمساكين ، وكانت قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء

(١) تفسير ابن كثير : ١ - ٤٥٤ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

منه ، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهم يائسون لا شيء يعطونه ، فأمر الله تعالى وهو الرؤوف الرحيم ، أن يرضخ لهم شيء من الوسط ، يكون برا بهم وصدقة عليهم ، وإحسانا إليهم ، وجبرا لكسرهم^(١) .

وقدم الله تعالى اليتامى على المساكين في الآية لأن ضعف اليتامى أكثر ، وحاجتهم أشد ، فكان وضع الصدقات فيهم أفضل وأعظم في الأجر^(٢) .

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ
وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١٠﴾

واجب على من يوصى ألا يظلم ورثته ، وألا يوصى بأكثر من الثلث ، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعودده ، قال : يا رسول الله إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا . قال : فالشطر ؟ قال : لا . قال فالثلث قال - ﷺ - « الثلث والثلث كثير » . ثم قال صلوات ربي وتسليياته عليه « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس »^(٣) . ويقول الإمام الرازي : « والآية توجب الاحتياط للذرية الضعاف . وللمفسرين فيها وجوه :

الأول : أن هذا خطاب مع الذين يجلسون عند المريض فيقولون : إن ذريتك لا يغنون عنك من الله شيئا ، فأوص بمالك لفلان وفلان . ولا يزالون يأمرونه بالوصية إلى الأجانب إلى أن لا يبقى من ماله للورثة شيء أصلاً ، فقليل لهم : كما أنكم تكرهون بقاء أولادكم في الضعف والجوع من غير مال ، فاحشوا الله ولا تحملوا المريض على أن يحرم أولاده الضعفاء من ماله .

وحاصل الكلام أنك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك فلا ترضه لأخيك المسلم والقول الثاني : هو الرجل الذي يحضره الموت ويريد الوصية للأجانب فيقول له من كان عنده : اتق الله وأمسك على ولدك مالك

ففي القول الأول الآية محمولة على نهى الحاضرين عن الترغيب في الوصية . وفي

(١) تفسير ابن كثير : ١ - ٤٥٥ . (٢) تفسير الرازي ٩ - ١٩٨ طبعة دار إحياء التراث العربي . (٣) البخاري كتاب « الجنائز » باب « رثاء النبي - ﷺ - سعد بن خولة » - مسلم كتاب « الوصية » باب « الوصية : بالثلث » .

سُورَةُ النَّسَاءِ

القول الثانى محمولة على نهى الحاضرين عن النهى عن الوصية ، والأول أولى ، لأن قوله ﴿لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةَ ضِعَافٍ﴾ أشبه بالوجه الأول وأقرب إليه . (١) .

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

من يأكل مال اليتيم بدون حق فإنها هو فى الحقيقة يأكل سحتًا ونارًا ، ومصيره عسير
يوم القيامة ، ويقذف به فى نار السعير .

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ
اِثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثَا مَرَكٌ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ
وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ
فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ
ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

هذه الآية والتى بعدها بالإضافة إلى الآية ١٧٦ التى هى خاتمة سورة النساء قد
أجملت أحكام الموارث ، بل إن مجمل علم الموارث أو الفرائض مستنبط من هذه
الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة فى ذلك مما هو كالتفسير لذلك .

والآيات تأمرنا بالعدل فى الأولاد بعد أن كان كل الميراث يذهب فى الجاهلية القديمة
إلى الذكر دون الأنثى . فأمر الله تعالى بالمساواة بينهما ، والتسوية فى أصل الميراث .

و ﴿لِلَّذِ كَرِمِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ فى الآية لعله يعلمها الحكيم الخبير مؤداها ، والله
أعلم ، احتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ، ومصاعب العمل ، والتكسب ،
والتجارة ، وتحمل المشاق ، فكان حقا أن يأخذ ضعف ما تأخذه الأنثى .

قوله ﴿إِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اِثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثَا مَرَكٌ﴾ قال بعض الناس : قوله «فوق»
زائدة ، وتقديره فإن كن نساء اثنتين ، كما فى قوله ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ ، وهذا غير
مسلم به ، لا هنا ولا هناك ، فإنه ليس فى القرآن شىء زائد لا فائدة فيه ، وهذا ممتنع . ثم
قوله : ﴿فَلَهُنَّ ثُلَاثَا مَرَكٌ﴾ لو كان المراد ما قالوه ، لقال : فلها ثلثا مَرَكٌ . .

(١) تفسير الإمام الرازى ١٩٨ ، ١٩٩ طبعة دار إحياء التراث .

سُورَةُ النِّسَاءِ

ولكنه سبحانه قال ﴿ فلهن ﴾ . وإنما استفيد كون الثلثين للبنتين من حكم الأختين في الآية الأخيرة ؛ فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين . وإذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى .

وأيضاً ، فإنه قال : ﴿ وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾ فلو كان للبنتين النصف لنص عليه أيضاً ، فلما حكم به للواحدة على انفرادها دلّ على أن البنتين في حكم الثلاث والله أعلم . .

قوله تعالى ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس ﴾ إلى آخره . الأبوان لهما في الإرث أحوال :

أحدهما : أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس ، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة : فرض لها النصف ، ولأبوين لكل واحد منهما السدس ، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب . .

والثاني : أن ينفرد الأبوان بالميراث ، فيفرض للأم الثلث ، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض ، فيكون قد أخذ ضعفى ما حصل للأم وهو الثلثان ، فلو كان معهما زوج أو زوجة ، أخذ الزوج النصف ، والزوجة الربع .

والثالث من أحوال الأبوين ، وهو اجتماعهما مع الإخوة ، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم ، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً ، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس ، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب ، أخذ الأب الباقي . وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الأخوة عند الجمهور .

وقوله ﴿ فإن كان له إخوة فلأمه السدس ﴾ . . . لا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث ، ويحجبها ما فوق ذلك . وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجّبوا أمهم عن الثلث أن أباهم يلى إنكاحهم ونفقتهم عليه دون أمهم .

وقوله ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدّين مقدم على الوصية . . .

وقوله ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ﴾ أى إنما فرضنا للآباء والأبناء وساويناً بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية ، لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوى أو الأخرى أو هما من أبيه مالا يأتيه من ابنه ، وقد يكون العكس ، ولذا قال ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ﴾ ، أى أن

سُورَةُ النِّسَاءِ

النفع متوقع ومرجو من . ذا . كما هو متوقع ومرجو من الآخر ، فلهذا فرضنا لهذا وهذا ، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث والله أعلم .

وقوله ﴿ فريضة من الله ﴾ أى هذا الذى ذكرناه من تفصيل الميراث ، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض ، هو فرض من الله حكم به وقضاه . وهو الحكيم الذى يضع الأشياء فى محالها ، ويعطى كلاً ما يستحقه ، بحساب ودقة ، ولهذا قال ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ أ. هـ (١)

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوَصُّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ١٢ ﴾

يبين الحق فى هذه الآية : أن للزوج النصف ما دامت المرأة لم تنجب وتوفاها الله . ولها كذلك الربع ما دام الزوج لم ينجب وتوفاها الله .

وإذا كان أخ أو أخت وتوفاها الله ، وللواحد منهما أخ أو أخت فلهما الثلث مناصفة ، وإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث . ولصاحب المال أن يوصى بثلث ماله أو رבעه فقد قال عليه الصلاة والسلام الثلث والثلث كثير كما سبق .

أما قوله ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار ﴾ فيقول ابن كثير : أى لتكن وصيته على العدل لا على الإضرار والجور والحيف ، بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة ، فمن سعى فى ذلك كان كمن ضاد الله فى حكمه وشرعه .

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٤٥٧ وما بعدها .

سُورَةُ النِّسَاءِ

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾

أى هذه الفرائض والمقادير التى جعلها الله للورثة، هى حدود الله ، فلا تعتدوها ولا تتجاوزوها . وفى هذا تنبيه للعبد المسلم أن لا يظلم فى الموارث ، فذلك أمر عظيم عند الله .

ثم يبشر الذين يخشون الله ، ويرجون رحمته بعدلهم فى مسائل الميراث والوصية ، سواء كانوا وارثين أو موروثين .

وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا
وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

ثم ينذر الذين لا يخافون الله ، ويجورون على حدوده ويعطلون أوامره بأنه سبحانه يدخلهم نارا خالدين فيها ولهم عذاب مهين ، وذلك بسبب عدم العدل بين الورثة والجور فى الوصية .

وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً
مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ
يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

كانت المرأة فى ابتداء الإسلام إذا ثبت عليها الزنا بالبينة العادلة حبست حتى الموت ، إلى أن أنزل الله سورة النور ، فنسخت هذا الحكم . روى مسلم عن عبادة بن الصامت عن النبى - ﷺ - قال : خذوا عني ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ^(١) .

«لما ذكر تعالى فى الآيات المتقدمة الأمر بالإحسان إلى النساء ، ومعاشرتهن بالجميل ، وما يتصل بهذا الباب ، ضم إلى ذلك التغليظ عليهن فيما يأتينه من الفاحشة ، فإن ذلك فى الحقيقة إحسان إليهن ، ونظر لهن فى أمر آخرتهن . وأيضا ففيه فائدة أخرى : وهو ألا يكون الأمر بالإحسان إليهن سببا لترك إقامة الحدود عليهن ، فيصير ذلك سببا

(١) كتاب « الحدود » باب « حد الزنى » . والحديث أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه .

سُورَةُ النَّسَاءِ

لوقوعهن في أنواع المفسد والمهالك . وأيضاً فيه فائدة ثالثة ، وهى بيان أن الله تعالى كما يستوفى لخلقه فكذلك يستوفى عليهم ، وأنه ليس في أحكامه محاباة ، ولا بينه وبين أحد قرابة . وأن مدار هذا الشرع الإنصاف والاحتراز - في كل باب - عن طرفى الإفراط والتفريط ^(١) .

وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَاتَّابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾

أى واللذان يقومان بالفاحشة فأذوهما . قال ابن عباس أى : بالشتم والتعير والضرب بالنعال . وكان الحكم كذلك حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم ^(٢) .

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ
فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُبْتُ
أَلَّنَّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٨﴾

يبلغ الحق سبحانه وتعالى عباده بأنه لن يغلق باب رحمته عن تائب قبل الغرغرة ، وخصوصاً الذين ﴿يعملون السوء بجهالة﴾ . والسوء : بمعنى الذنوب . والعبد يقسو على نفسه بمعصيته لله ، والله يرحمه بتوبته عليه قبل الغرغرة ، ما دام الصدق مصدرها ، وذلك فضل العليم الحكيم . ﴿وليس التوبة﴾ لأهل الكبر الغارقين في السيئات . الذين تحتضنهم الغفلة ، لأن وليهم الشيطان . قال مجاهد : كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب . وقال قتادة : كان أصحاب رسوله - ﷺ - يقولون : كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة ^(٣) .

(٢) تفسير ابن كثير ١ - ٤٦٢ .

(١) تفسير الفخر الرازى ٩ ، ٢٢٩ طبعة دار إحياء التراث .

(٣) تفسير ابن كثير : ١ - ٤٦٣ .

سُورَةُ النِّسَاءِ

ولما ذكر تعالى « في الآية الأولى أن المرتكبين للفاحشة إذا تابا وأصلحا زال الأذى عنهما ، وأخبر على الإطلاق أيضا أنه ثواب رحيم ، ذكر وقت التوبة وشرطها ، ورغبهم في تعجيلها ، لئلا يأتيهم الموت وهم مصرون فلا تنفعهم التوبة » (١) .

إن كل ذنب أصابه عبد هو جهالة . وكل شيء عصى العبد به ربه فهو جهالة - كما قلنا من قبل - وكل عاص لله متمرّد على أوامره ، فهو واقع في جهالة وغفلة عن الحق ، وبالتوبة تتلبس به صحوة تجعله مع الله على يقظة لأداء أوامره على أكمل وجه ، فيحيا في يقظة التوبة ، فلا يزال يراجع نفسه ويحاسبها حتى يصبح عبدا ربانيا ، قد غطت توبته على ذنوبه ، حتى غدا وكأن لا ذنب له .

والتوبة لا تقبل إذا غرغر العبد ، والله غفور رحيم . والأولى أن يسارع العبد إلى التوبة في يقظة حياته وحيويته ، لتستغرقه أنوار التوبة . فمن يفعل غير ذلك تدركه نيران جهنم .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَقْضُوا عَنْهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآءِ اتِّتِمُّوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ الْمَعْرُوفَ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا
كَثِيرًا ﴿١١﴾

كانت العرب في الجاهلية تُورث ابن المتوفى زوجة أبيه . فكانت امرأة الأب متاعاً من ضمن أمتعة المتوفى . يرثها أولياء الرجل أو ابنه ، ويتصرف فيها كيف يشاء . إن شاء تزوجها ، وإن شاء زوّجها وأخذ صداقها . وكان هذا نوعاً من أنواع إيذاء النساء في الجاهلية حتى جاء الإسلام ، وأنزل الله هذه الآية .

فلا تضاروهن ولا تؤذوهن في المعيشة ، ليتركن لكم صداقهن ، لتتمتعوا به . فهذا حيف وظلم وجور كبير . وهذا من ضمن أنواع إيذاء النساء في الجاهلية الذي نهى عنه الإسلام ، وجاء وحسم الأمور وأعاد لها حقها وسودها وشرفها وكرمها . ذلك لأنهم في الجاهلية كذلك : كان الرجل منهم إذا كره زوجته وأراد أن يفارقها أساء العشرة معها ،

(٢) تفسير الرازي ج ١٠ ص ٢ طبعة دار إحياء التراث - الطبعة الثالثة .

سُورَةُ النِّسَاءِ

وضيق عليها حتى تفتدى نفسها منه ، وترك له المهر . جاء الإسلام فأبطل هذا الصنيع المعيب المشين ، الذي لا يرضاه عاقل ، فجعل للمرأة حقوقاً كما جعل عليها واجبات ، وجعل أمر زواجها بأمرها ورغبتها . ووليها وكيل عنها لا مالك لها . وجعل مهرها لها ، وميراثها لها ، وهى حرة فيما تملك . هل هناك أكثر من ذلك تكريم وإكرام للمرأة ؟ فالمرأة كانت كما مهملاً . كان عليها ولم يكن لها . وجاء الإسلام وصانها ، وصان كرامتها ، وعززها ، وأغناها بتعاليمه وحدوده الحاسمة .

أما قوله ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ فيقول فيه ابن كثير :

« فَعَسَى أَنْ يَكُونَ صَبْرُكُمْ فِي إِسْكَانِهِنَّ مَعَ الْكَرَاهَةِ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » (١).

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمُوهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

. وإذا أراد الرجل أن يطلق زوجته ليستبدل بها زوجة ثانية وقد أعطاها قنطاراً من الذهب ، لا يحل له أن يأخذ منه شيئاً . وإذا شاء أن يأخذ منها شيئاً فذلك بهتان وإثم عظيم .

فكيف أيها الناس تستردون المهر ، ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾؟ أى جامع بعضكم بعضاً كما يقول ابن عباس . وكيف تأخذون صداقهن وبينكم عقد وميثاق متين مقدس .

وفى صحيح مسلم عن جابر فى خطبة حجة الوداع أن النبى ﷺ قال فيها «واتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» (٢) .

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

(١) ابن كثير : ٤٦٦/١ . (٢) الحديث بطوله رواه : مسلم كتاب « الحج » باب « حجة النبى ﷺ - » . انظر ابن كثير : ٤٦٧-١ . ورواه الإمام أحمد وأهل السنن (انظر ابن كثير : ١-٤٦٧) .

سُورَةُ النَّسَاءِ

كان أهل الجاهلية يبيحون لأنفسهم زواج امرأة الأب بعد وفاته فنهاهم الله عن ذلك بهذه الآية ، وذلك تكرامة لها وإعظاما واحتراما أن توطأ من بعده . كما يقول ابن كثير حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها . كما يقول الحق تبارك وتعالى في موطن آخر ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ كل ذلك لو تم ولو استمررت عليه لكان فاحشة وذنبا كبيرا عند الله ، وبئس السبيل والطريق هو .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ
وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي
فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا
دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ
أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٤٣﴾

هذه الآية الكريمة قرر فيها الله سبحانه وتعالى تحريم المحارم ، سواء بالنسب أو الرضاع أو المصاهرة . فبدأ الحق بتحريم الأمهات ، ثم البنات ، ثم الأخوات ، ثم العمات ثم الخالات ، ثم بنات الأخ ، وبنات الأخت ، ثم الأمهات اللائي أرضعنكم ، ثم الأخوات من الرضاع ، ثم أمهات نسائكم ، ثم ربائكم - والربائب جمع ربيبة ، وهى بنت امرأة الرجل من غيره ، ومعناها مربوبة ، لأن الرجل هو الذى يربيهها - ثم حلائل آبائكم الذين من أصلابكم ، أى وحرمت عليكم زوجات آبائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم ، ثم الفئة المحرمة من النسب الأخرى ، وهى ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ﴾ فى الزواج منهما إلا ما كان منكم فى الجاهلية فقد عفونا عنكم وغفرنا لكم .

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا

سُورَةُ النَّسَاءِ

أَسْتَمْتَعُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرْضَوْنَ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

والمحصنات معطوفة على المحرمات السابقة ، وهن المتزوجات ، إلا ما ملكتموهن بالسبى أو الشراء ، « فكأنهن كلهن ملك يمين وما عدا ذلك فزنا » ^(١).

فهذا هو حكم الله ارتضاه لكم فاتبعوه ولا تخالفوه ، وهذه هى محرماته التى حرمها عليكم . فما عدا كل ما ذكر فهو حلال لكم ، فلا حرام إلا ما حُرِّم . فقد أحل لكم أن تنكحوا الأزواج نكاحا شرعيا بالطريق الذى رسمه الله من واحدة إلى أربع ، تستمتعون بهن بعد أن تؤتوهن مهورهن فى مقابل ذلك .

وإذا فرض الزوج لزوجته مهراً صداقا لها فأبرأته منه أو عن شىء منه ، فلا جناح على الاثنين فى قبول ذلك .

وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مَنْ فَبَيْتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِفَحِشَةٍ فَقَلْبُهُنَّ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾

ومن لم يكن عنده القدرة والسعة أن يتزوج المؤمنات المسلمات ، وهن الحررات العفيفات ، فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللائى يملكنهن المؤمنون ، فالله قد أحل لكم هذا النوع من المؤمنات - وهذا غير موجود الآن - والله عليم ببواطن وحقائق الأمور وسرائرها ، ولا تعرفون أنتم أيها الناس أين الخير ؟ وأين الشر ؟ وعندما تنكحون الإماء المؤمنات لاتتزوجوهن إلا بإذن سادتهن ، فالسيد « هو ولي أمته ، لاتزوج إلا بإذنه ، وكذلك هو ولي عبده ، ليس له أن يتزوج بغير إذنه . » ^(٢).

وادفعوا لهن مهورهن بالمعروف ، ولا تبخسوا منه شيئا ، وتزوجوهن محصنات عفيفات غير زوان ، أو متخذات خدنا ، أى صديقا يزنى بهن ؛ لأن الزنا فى الجاهلية كان على حالين : جهرا وسرا .

(١) تفسير القرطبي : ٥ / ١٢٣ طبعة دار إحياء التراث . (٢) ابن كثير : ١ / ٤٧٥ .

سُورَةُ النِّسَاءِ

فالمسافحات هن الزانيات جهراً ، أى اللاتى لا يمتنعن أحداً أرادهن بالفاحشة . أما المتخذات أخدان فهن ذوات الخدن - أى الخليل - اللاتى يزينن سرا . فإن زُوجن وزنت الأمة المسلمة بعد ذلك ، جُلدت نصف ما تُجلد به الحرة . فذلك لمن خشى أن يقع فى الزنا نتيجة العزوبة .

ولكن الصبر على الزواج من الإماء إلى أن يجد طويلاً يتزوج بمقتضاه الحرة العفيفة : أفضل .

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

يريد الله سبحانه وتعالى رحمة بعباده أن يبين ما أحل لهم وما حرم عليهم ، رحمة بهم ، وإشفاقاً عليهم ، ويعرفهم طريق الذين اهتدوا به ، واتبعوا كتابه العزيز ، فيما أحل الله لهم ، وما حرم عليهم ، فهداهم إلى الطريق المستقيم ، الذى أنعم عليهم باتباعه ، والانتفاء عن طريق المغضوب عليهم ، وهو العليم الحكيم ، يعدل فى خلقه بحكمته ، ويرشدهم بعلمه .

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

فتوبته عليكم ، يطهركم من ذنوبكم ، ويهديكم صراطاً مستقيماً . ولكن أهل الأهواء والعلل يميلون بكم عن طريق الله بما يزينونه لكم من المعاصى والشهوات والمغريات ، التى تشغلكم عن طريق الله المستقيم ، الذى ينتهى بكم إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

فاحذروا يا أهل الإسلام والإيمان من فتنة الذين لا يخافون الله ، واحذروا أن تميلوا إليهم ميلاً عظيماً ، فيغضب الله عليكم كذلك غضباً عظيماً . إذ الإنسان بطبيعته خلق ضعيفاً ، وركبت فيه الشهوة ، فزادته ضعفاً أمام المغريات فى المال والنساء ومفاخر الدنيا ، وزيتها . ولكن الله يريد برحمته وإحسانه أن يجعل ابن آدم قوياً راشداً - رجلاً كان أو امرأة - فيخفف عنه ، أى : يحجز نفسه برحمته عن شهوات الدنيا ، بتحصيله بالإيمان بالله ، والخوف من الله ، والرغبة فى الجنة .

وقد سهّل الله للإنسان وخفف عنه من أجل أن يقضى شهوته فى متاع حلال ، حتى ولو كانت أمة .

سُورَةُ النَّسَاءِ

فالإسلام يريد العفة والعفاف للعالم كله ، ويريد حماية العرض ، ويحذر من اختلاط النسب والأنساب ، ويريد أن يحفظ للمجتمع هويته وذاتيته ، فيصبح مجتمعا قويا متين الوشائج ، قوى الصلة بالله ، فينطلق في الأرض ساعيا بأبنائه منتشرا ، يبعث وجه الله ، والرزق الحلال ، وإقامة المهمة العظيمة التي شرفه المولى بحملها ، وهى الخلافة فى الأرض ، لتعميرها وبنائها .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾

يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من أن يأكلوا أموال بعضهم بعضا بالباطل ، أى بأنواع المكاسب التى هى غير شرعية ، كأكل الربا ، والغش فى التجارة ، وأكل مال الضعفاء . فلا تأكلوا أموالكم بينكم باطلا ، إلا أن يكون هذا المال بينكم نتيجة بيع وشراء ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ (١) .

فالتعاون فيما بينكم فى تنمية أموالكم بالتجارة أمر مباح غير محرم ، بتراضٍ منكم ، وأمانة شديدة ، وحرص على مصالحكم المشتركة بين بعضكم البعض . وذلك لا يتحقق إلا بالخوف والخشية من الله .

والبيع والشراء لابد أن يكون بالقبول والرضا المتبادل . وعن رسول الله - ﷺ - قال : «إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا» (٢) . ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ نهى عن أن يقتل الناس بعضهم بعضا . واللفظ يتناول النهى عن أن يقتل الرجل نفسه كذلك . والآية كذلك : تشتمل على النهى عن ارتكاب محارم الله ، وتعاطى معاصيه ، وأكل الأموال بالباطل . وما أقسى الإنسان وهو يحكم على نفسه بغضب الله عليه وذلك عندما يتجرأ على حد من حدود الله ، أو يرتكب كبيرة من الكبائر ، لذلك يقول الحق :

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، فليحذر منه كل عاقل لبيب ، ممن ألقى السمع وهو شهيد (٣)

(١) البقرة : ٢٧٥ . (٢) رواه البخارى كتاب « البيوع » باب « إذا خير أحدهما صاحبه . . إلخ »

(٣) تفسير ابن كثير : ١ / ٤٨٠ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ
مُدْخَلَ كَرِيمٍ ﴿٣١﴾

فإذا تجنبتم الآثام الكبيرة ، التى هى ذنوب عظيمة ، غفرنا لكم صغائرهما
وأدخلناكم الجنة .

والآثام الكبيرة هى كما وضحتها رسول الإنسانية محمد - ﷺ - فى الحديث الذى ثبت
فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا يارسول الله وما
هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ،
وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات « (١) .
ويعلق ابن كثير على هذا الحديث فيقول : فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لا
ينفى ما عداهن (٢) .

وموضوع الكبائر موضوع طويل (٣) .

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا
كَتَسَبَوْا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

لا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، ولا تتمنوا ما قسم الله من أموال
الميراث بأن للرجل مثل امرأتين ، فذلك تنظيم للنفقة ، إذ أعطى الله الرجل بقدر ما
كلفه ، وأعطى المرأة بقدر ما كلفها ، فاسألوا الله أن يمن عليكم من فضله الواسع .
وفى الآية دلالة على أن الأمر بالسؤال لله تعالى واجب . وقد أخذ بعض العلماء هذا
المعنى فنظمه فقال :

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب (٤)

(١) رواه البخارى كتاب « الوصايا » باب « قول الله تعالى ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ﴾ » ورواه مسلم
كتاب « الإيمان » باب « بيان الكبائر وأكبرها » . (٢) تفسير ابن كثير : ١ - ٤٨١ .
(٣) ومن أراد التوسع ، فعليه بكتب السنة وكتب التفسير عند هذه الآية ، وكتاب الكبائر للإمام الذهبى مثلاً .
(٤) القرطبي : ٣ - ١٦٤ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ
أَيْمَانُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

لكل إنسان جعلنا موالى : أى ورثا لما ترك . فليستفد كل واحد منكم بما فرض الله له
أو عليه من الميراث ، ولا يتمنى ويطمع فى مال أحد غيره . ويشترك فى الإرث معهم
الذين عقدت أيمانكم ، على اعتبار أنه كان فى الماضى يرث المهاجرى الانصارى ، وكما
يقول جمهور العلماء أن هذه الآية قد نسخت بعد ذلك ^(١) .

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا
أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِلَّا فَضَّلَ أَحَدُكُمْ عَلَى الْآخَرِ فَلْيَاْتِ بِمَا حَفِظَ
اللَّهُ وَالَّذِي يَتَخِفُونَ نُسُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ
وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

فى هذه الآية الكريمة قرار من الله بأن الرجال قوامون على النساء ، وأن لهم حق
القيادة فى الأسرة . وذلك لا ينفى ولاية المرأة فى بيتها ، وكونها أميرة تتصرف فى شئونه ،
لحفظ مصالح الأسرة ، وسلامة وحدتها .

والأصل فى القوامة : المسئولية ، بمعنى أن الرجل هو صاحب النفقة على الزوجة
والأولاد ، ومسئول كذلك عن مشاركة زوجته فى كل شئون البيت ، متخذين من القرآن
الكريم ، وسنة الحبيب المصطفى - ﷺ - ، نهجا وقدوة وسلوكا . فالأسرة هى مدرسة
الأمة الأولى . والزوجة هى ولية أمرها داخل البيت . وهى محاسبة أمام الله على سلامة
الزوج والأولاد . وذلك كله لا يتأتى إلا بتسليم المرأة عن رضا وحب وطاعة لله بأن قوامة
الرجل عليها هى عين العدل ، وفى صالحها . لأن القوامة تكلف الرجل حسن المعاملة
والإنصاف تجاهها فى كل ما تحتاج إليه من خدمة ، وحفظ لكرامتها وعزتها
وإنسانيتها ؛ لأنها بولايته عليها أصبحت أمانة بين يديه .

(١) انظر : تفسير القرطبى ٥- ١٦٥ ، ١٦٦

سُورَةُ النِّسَاءِ

وذلك الفهم السليم للقوامة يعطى المرأة ثقةً بزوجها ، واطمئنانا إليه ، فتصبح الحياة الزوجية مستقرة آمنة ، وبذلك تتفرغ المرأة لتدبير بيتها ، وتربية أولادها .
كذلك يريد الإسلام بالزوجين إقامة دوحة من الزهور المتناسقة ، فى حديقة غنية بمعطياتها ، لإسعاد المستظلين بأريجها . تلك هى الزوجية فى الإسلام . وتلك هى درجة الرجل فى ميزان الأسرة ، لتقييم بنجاح صرح سعادة أسرته ، فيستقر البيت ، ويرقى المجتمع ، وذلك بما أحسنوا فى فهم كتاب الله ، الذى هو عدل مطلق .
وفى هذا يقول ابن كثير : « الرجل قيم على المرأة أى هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت » (١) .

وأخبرنا الحق أن النساء اللاتى يُخاف منهن النشوز على أزواجهن - والنشوز هو الارتفاع ، فالمرأة الناشز هى التى ترتفع على زوجها تاركة لأمره ، كارهة له - فلنا أن نعظهن ، وأن نخوفهن عقاب الله فى عصيانه .

فإن لم تقبل العظة والتذكير بحق الزوج ، فاهجر لها أولى - أى يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره ولا يجامعها ، كما قال ابن عباس - وإن لم ينفع معها ذلك : فاضربوهن ضرباً خفيفاً غير مُبرِّح . لأن الهدف هو إرجاعها عما هى فيه من عصيان ونشوز ، ويكفى الضرب الخفيف . لأن عملية الضرب سبقها موعظة وهجران ، وذلك عليهن شديد . ومع ذلك ، فقد قال ﷺ وهو يتلو هذه الآية : « ولا يضرب إلا شراركم » . لكن سوء معاملة بعض الرجال لأزواجهم هو تخلف ناتج عن قصور شديد فى فهم حقائق الإسلام وروحها . فإن أطاعت المرأة - سواء قبل هذه الخطوات أو بعدها - بما يرضى الله ورسوله ، فلا سبيل له عليها بعد ذلك ، وليس له أن يضربها أو يهجرها . ﴿ إن الله كان عليا كبيرا ﴾ تهديد من الحق لمن يخالف أمره ، سواء فى عصيان المرأة لزوجها ، أو لظلم الرجل لزوجته ، فالله مطلع وعليم ببواطن الأمور .

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

إن من رقى الإسلام ، وطهارة مقاصده أن فى شريعته بذل قصارى الجهد من أجل الحفاظ على أمن واستقرار الأسرة والحياة الزوجية ، وألا تغرس فيها بذور الشقاق والخلاف والشقاء .

(١) تفسير ابن كثير ١-٤٩١ .

سُورَةُ النِّسَاءِ

يقول الإمام الرازي : « اعلم أنه تعالى لما ذكر عند نشوز المرأة أن الزوج يعظها ، ثم يهجرها ، ثم يضربها ، بين أنه لم يبق بعد الضرب إلا المحاكمة إلى من ينصف المظلوم من الظالم فقال هذه الآية » (١).

فيقوم الحكمان هنا بالحكم والتصالح بينهما ، والحكمان من قبل الطرفين ينظران في أمرهما ، ويمنعان الظلم بينهما ، ويفعلان ما فيه الخير والصلاح للطرفين ، ويقومان بنصح الزوجين معاً ، أو كل منهما على انفراد ؛ إن كان ذلك أصح . وللحكّمين أن يفرقا إذا أبى الزوجان إلا التفرقة ، أو ظهر من أحدهما ذلك بعد محاولات التوفيق . وقرار الحكّمين معتبر وناخذ حسب ما يقع بين أيديهم من أدلة وأسباب للإصلاح أو التفريق .

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

لما أرشد الله تعالى كل واحد من الزوجين إلى المعاملة الحسنة مع الآخر ، وإلى إزالة الخصومة والخشونة ، أرشد في هذه الآية إلى سائر الأخلاق الحسنة ، وذكر منها عشرة أنواع (٢) . وهي ما تحدثت عنها الآية من أوامر ونواه .

والعبودية هي التدلل والافتقار لمن له الحكم والاختيار ، فأمر الله تعالى عباده بالتدلل له والاخلاص له ، وعلى هذا فالآية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى ، وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - « قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » (٣) .

ثم أوصى الله تعالى - بعد وصيته بعدم الإشراك به مباشرة - بالوالدين لأنها سبب في الخروج إلى الحياة . وكثيراً ما نجد الحق تبارك وتعالى يقرن بين الأمر بعبادته وبين الإحسان

(٢) انظر تفسير الرازي ١٠-٩٤ .

(١) تفسير الرازي ١٠-٩٢ .

(٣) كتاب « الزهد والرقائق » باب « من أشرك في عمله غير الله » .

سُورَةُ النَّسَاءِ

بالوالدين ، لما لهذا الأمر - والإحسان إليهما - من أهمية عظمى . ثم أوصى بالإحسان إلى ذى القربى والإحسان إلى اليتامى والمساكين . واليتامى هم من فقدوا عائلهم الذى يقوم بمصالحهم وينفق عليهم . أما المساكين فهم الذين يحتاجون إلى من يقوم بكفائتهم وسد ضروريات حياتهم . وأوصى بالجار ذى القربى أى الجار المسلم الذى بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب أى الجار الغريب ولو كان يهوديا أو نصرانيا .

وعن عائشة ، وابن عمر : رضى الله عنهما أن رسول الله - ﷺ - قال : ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ^(١) .

أما قوله (الصاحب بالجنب) فهو الرفيق فى السفر كما أجمع على ذلك جمهور العلماء . وقال الإمام الرازى : « هو الذى صحبتك بأن حصل بجنبك إما رفيقا فى سفر ، وإما جارا ملاصقا ، وإما شريكا فى تعلم أو حرفة ، وإما قاعدا إلى جنبك فى مجلس أو مسجد أو غير ذلك ، من أذننى صحبة التأممت بينك وبينه ، فعليك أن ترعى ذلك الحق » ^(٢) .

وابن السبيل وهو المار بك مسافرا فى طريق ويحتاج إلى عون ومساعدة . كما وصى الله تعالى على الرقيق الممالك لأنهم ضعيفو الحيلة ، وهذا ما عبر عنه المولى فى ﴿ ما ملكت أيمانكم ﴾ .

﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ ، « أى مختالا فى نفسه ، معجبا متكبرا فخورا على الناس ، يرى أنه خير منهم ، فهو فى نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغيض » . هكذا يقول ابن كثير ^(٣) .

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَاءً آتَاهُمُ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾

وكان سياق الآية يقول : إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا الذى يبخل ويأمر الناس بالبخل . . إلخ .

والبخل المذموم فى الشرع : هو الامتناع من أداء ما أوجب الله تعالى عليه . والشارع سبحانه : يذم البخل وأهله ، الذين يبخلون ولا يكتفون بأنهم على ذلك القبح طبعوا ، ولكن يأمرهم غيرهم بالبخل أيضا .

(١) رواه البخارى كتاب « الأدب » باب « الوصاة بالجار » وكذا رواه : الإمام مسلم والإمام أحمد وأصحاب السنن .

(٢) تفسير القرآن العظيم ١ - ٤٩٥ .

(٣) انظر تفسير الرازى ١٠ - ٩٩ .

سُورَةُ النَّاسِ

والبخل في الآية عام في البخل بالعلم والدين ، وفي البخل بالمال ؛ لأن اللفظ عام ، والكل مذموم ، فوجب كون اللفظ متناولاً للكل .

وقد ذم الله أيضا فريقا آخر غير بخيل ، ولكن به مذمة أخرى ، وهى إنفاق المال رثاء الناس ، متقربين به إلى الحكام أو كبار القوم ، من منصب أوجاه وخلافه ، لجلب مصالح الدنيا . فهم لا ينفقون في سبيل الله ، ولكن في سبيل دنيا يصيبونها ، أو مركز يجوزونه ، فنفقتهم مردودة عليهم ، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . فهؤلاء الناس لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فهم من أولياء الشيطان ، والشيطان ولي لهم ، فبئس القرين . وكل هذا عبر عنه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٢٨﴾

ثم يبين الله تعالى الطريق المستقيم مبينا لهم أن من يفعل ذلك ، فهو من المؤمنين حقا بالله واليوم الآخر فيقول سبحانه :

وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ
عَلِيمًا ﴿٢٩﴾

وهو استفهام إنكار : يعنى ماذا عليهم لو عدلوا إلى الإيمان ، وإلى البعد عن الرياء ، وإلى الإخلاص لله ، حيث إن الله عليم بنياتهم الصالحة والفسادة التى تتبع أعمالهم .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٣٠﴾

يخبر جل ثناؤه عباده بأنه سيوفيهم أجورهم ، وأنه « لا يظلم أحدا من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ، ولا مثقال ذرة ، بل يوفيها له ، ويضاعفها له »^(١) . وهناك آيات كثيرة تدل على هذا المعنى . نذكر منها قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي أَخْرَجْتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ الْمِصْرَ لَأَقْبِلَ بَيْنَ يَدَيْكُمْ إِلَى الْعَرْضِ الْكَبِيرِ ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير ١- ٤٩٧ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ﴿١﴾ ، وقوله ﴿ونضع الموازين القسط﴾ ﴿٢﴾ ، وقوله ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ ﴿٣﴾ .

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤﴾

روى البخارى عن عمرو بن مرة قال قال لى النبي - ﷺ - : « اقرأ على » قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : فإننى أحب أن أسمعه من غيرى . فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال : أمسك ﴿٤﴾ : فإذا عيناه تذرفان ﴿٥﴾ .

قال علماؤنا ﴿٦﴾ : بكاء النبي - ﷺ - إنما كان لعظم ما تضمنته هذه الآية من هول المطلاع ، وشدة الأمر ؛ إذ يؤتى بالأنبياء شهداء على أعمهم بالتصديق والتكذيب ، ويؤتى به - ﷺ - يوم القيامة شهيدا على الجميع .

يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ

حَدِيثًا ﴿٥﴾

أى في هذا اليوم الذى يحى فيه - ﷺ - شهيدا على كل شهداء الأمم . يتمنى الذين كفروا وخالفوا الرسول أن تنشق بهم الأرض وتبلعهم ، فذلك أهون عليهم من أن ينكروا على الله ما وقع منهم من كفر ومنكر . إنه هول الموقف ، وعدل الله فيهم بما ظلموا ، يجعلهم يكذبون على الله فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين . وهنا يختم الله على أفواههم ، ويتمنون أن لو تسوى بهم الأرض إذ تتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، كما يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وبصفة عامة لا يكتُمون الله حديثا . . فسبحان الله !

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٦﴾

(١) لقمان ١٦ . (٢) الأنبياء ٤٧ . (٣) الزلزلة ٧ ، ٨ . (٤) أمسك : أى قف عن القراءة . (٥) كتاب التفسير « سورة النساء » . (٦) القرطبي ٣ - ١٩٧ .

سُورَةُ النَّبَاِ

سبحان الله الرحمن الرحيم ، يأخذ بعباده إلى ما يصلح به أمرهم بتؤدة وروية ، لايتعجلهم فيرهقهم بتشريعاته مرة واحدة ، فهو الرؤوف الرحيم . وفي هذه الآية الكريمة ثلاثة أحكام من الله .

أولها : اجتناب شرب الخمر في أوقات الصلاة حتى يدخلوا في الصلاة بكامل عقلهم . وقد كان هذا قبل أن تنزل آية تحريم الخمر في سورة البقرة .

ثانيها : اجتناب القرب إلى الصلاة في حالة الجنابة ، إلا المسافرون فيتميمون إن لم يجدوا ماءً . وهذا مذهب أبى حنيفة رحمه الله .

ثالثها : الاغتسال والتطهر من الجنابة ، وإن لم يجدوا ماءً فعليهم أن يتيمموا من الصعيد الطيب ، أى التراب أو الرمل الطاهر ، فيمسحوا به أيديهم ووجوههم .

ذلك من عفوه لكم وغفرانه ورحمته بكم أن جعل لكم التيمم ، وتلك رخصة من الله سبحانه لعباده ، حتى لا يضيق أحد ولا يتحرج ، لأن الدين الإسلامى يسر سمح في شرائعه .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٥﴾

نزلت هذه الآية في يهود المدينة ، عليهم لعنة الله إلى يوم القيامة ، الذين هم على شرك وضلال دائم ، منكسة قلوبهم يستغرقها الباطل ، مطموسة قلوبهم يشترون الضلالة بالهدى فتستغرقهم ظلمتها ، ويعملون على إضلال الناس ، يخفون عنهم الهداية فهم قد ضلوا وأضلوا .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾

أى هو أعلم بهم ويحذرهم منهم ، وكفى به وليا ونصيرا لمن لجأ إليه من عباده واستنصر به .

مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

سُورَةُ النَّسَاءِ

من اليهود من يحرفون النصوص والمعاني عن مواضعها قصداً منهم وافتراءً ، ويقولون لقد سمعنا يا محمد ولكننا لا نطيعك ، ويتأولون القرآن حسب عللهم وأمراضهم النفسية والقلبية ، يحقدون على رسول الله - ﷺ - ، ويبغضون أمته . وكانوا يلوون ألسنتهم بالألفاظ والكلمات حتى يوهموا محمداً - ﷺ - بالانتباه والسماع لهم ، فإذا بهم أقدر خلق الله خُلُقاً . والأفضل لهم أن يسمعوا ويطيعوا لمحمد ، فهو الخير لهم ولكن الله لعنهم بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا منهم .

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ؕ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

يا أهل التوراة - الكتاب الذي نزل على موسى - أنتم أولى بالتصديق بما أنزل على محمد من غيركم ، وأنتم على يقين بأن محمداً رسول الله ، ونبي من عند الله ، ولكنكم كنتم تودون أن يكون هذا الرسول من ولد إسحاق ، فلما جاء من ولد إسماعيل انتكست رءوسكم ، وضاعت أمانيتكم ، فازددتم كفرا على كفركم بما في التوراة من الحق ، فأبدلتهم فيها ، وغيرتم منها ، وسترتم الكثير من أحكامها ، فالأولى أن تؤمنوا ، لنكفر عنكم سيئاتكم ، وإلا فأنتم ملعونون .

وأمر الله نافذ على عباده ، بالإحسان لمن صدق وآمن ، وبالعذاب لمن كذب وتولى عن الحق . والطمس في الآية - كما قال بعضهم - هو ردها إلى الوراء وأبصارهم تنظر من خلفهم . أعادنا الله من ذلك .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

إن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من عبده أن يلقاه مشركا به ، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب لمن يشاء من عباده .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾

سُورَةُ النَّبَاِ

قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية . . في اليهود والنصارى عندما قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وفي قولهم ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾^(١). وقال مجاهد كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمنونهم ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم^(٢).

وفي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : « أمرنا رسول الله - ﷺ - أن نحشى في وجوه المداحين التراب »^(٣) وفي الصحيحين عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال « مدح رجل رجلاً ، عند النبي - ﷺ - فقال « وَيْحَكَ ، قطعت عنق صاحبك ، قطعت عنق صاحبك (مراراً) . ثم قال : « إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلانا ، والله حسبي ، ولا أزكى على الله أحدا . أحسبه كذا وكذا . »^(٤) . . وفي هذا درس عظيم لنا في هذا العصر المليء بصور المدح والنفاق ، والمليء بأوجه العلاقات الاجتماعية المتشابكة بين الناس ، التي قوامها الغش وقضاء المصلحة فقط . وليس لله فيها نصيب .

والناظر في شرائح العلاقات الاجتماعية في هذه الأيام يجد معظمها من هذا النوع إلا من رحم ربك . وما دخل الرياء عملاً إلا فسد هذا العمل ولم يدم . وما دخل النفاق أعمال الناس إلا أجهضها .

وهل العمل في الآية هو العمل السيئ ؟ لا إنه العمل الصالح الخالي من وجه الله وإلا ما احتاج الأمر من الله أن يذكر نتيجة العمل السيئ ، لأن العمل السيئ بالطبع نتيجته الأخروية معروفة .

ويقول الحق أيضاً ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾^(٥).

أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥١﴾

(١) البقرة : ١١١ . (٢) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٥١١ .

(٣) كتاب « الزهد » باب « النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط » .

(٤) رواه البخاري كتاب « الشهادات » باب « إذا زكى رجل رجلاً كفاه » . رواه مسلم - واللفظ له - كتاب

« الزهد » النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط . . .

(٥) النحل : ٩٧ .

سُورَةُ النَّسَبِ

هذا تعجيب للنبي - ﷺ - من فريتهم على الله ، وهى تزكيتهم أنفسهم ، وافترائهم على الله وهو قولهم ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ وقولهم ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ وقولهم : ما عملناه بالنهار يكفر عنا بالليل ^(١) .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ
وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۚ

إن الله سبحانه وتعالى يحكى نوعاً آخر من مكر اليهود الملاحين ، وهو أنهم كانوا يفضلون عبدة الأصنام على الموحدين المؤمنين ، مع علمهم من كتابهم التوراة أن ذلك باطل وغير حق .

اختلف أهل التأويل في تأويل الجبت والطاغوت، ومما روى : الجبت السحر والطاغوت الشيطان . وأياً ما كان معنى الجبت والطاغوت ^(٢) فقوام كل هذه المعانى يدور حول الرضا بالحاكمة إلى غير الله ، وارتضاء كل ما عدا تشريعات المولى سبحانه وتعالى . وما أحوجنا في هذا العصر إلى أن نعود إلى الله ، وإلى كتابه الهادى المنير ، بعد أن تنفشى في مجتمعاتنا الطاغوت ، وسبر الظلم أعماق الأمة ، وساد الفساد في قلوب الناس من جراء ما ارتضوه من حكم غير الله .

إن حكامنا - هداهم الله - إن لم يحسنوا النية ، سواء اليوم أو غدا ، ويحكموا كتاب الله فيما بينهم ، ويولوا عمالاً أمناء على الرعية ، ويقضوا على مفسد البشر بالدعوة والترشيد ، وسد مآرب الشيطان ، وسد أبواب الغواية ، ثم إقامة حكم الله فى الرعية والمجتمع ، باتباع أحكام القرآن ، وهدى السنة النبوية ، ثم إقامة المثل الأعلى فى عيون الناس ، وذلك بإبراز عامل القدوة الحسنة فى الحاكمين أنفسهم . . .

إن لم يفعلوا كل ذلك وغير ذلك : فاهلاك موعدهم ، والفساد رائدهم ، وكل أنواع الرذائل تنفشى فى مجتمع ظلّم بسياسة حكم الطاغوت .

ندعو الله أن يعين حكامنا على الاحتكام إلى كتاب الله ويكتب الله حتى يعلنوها خالصة لا إله إلا الله بكل مقتضياتها .

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۚ

(١) تفسير الرازى ١٠-١٢٧ . (٢) انظر تفسير القرطبي ٥-٢٤٨ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

هؤلاء الذين يحتكمون إلى الجبت والطاغوت عليهم لعنات الله . ولعنة الله ليس لها من مرد ، وليس لصاحبها من نصير .

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾

هذا استفهام إنكار ، أى ليس لهم نصيب من الملك . ثم وصفهم الله سبحانه وتعالى بالبخل والحسد من عند أنفسهم ، وذلك بأن ساق لهم الكلام على طريق الإنكار والتقريع ، يعنى : أَلَمْ نَصِيبْ مِنَ الْمُلْكِ ؟ والمعنى : ليس لهم من الملك شيئاً ، حتى ولو كان لهم لم يعطوا أحداً من الناس منه شيئاً لبخلهم وحسدهم . والنقير هو النقطة في ظهر النواة . وهو تعبير يدل على أدق الأشياء وأتفها وأصغرها .

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

أم في الآية بمعنى بل ، أى بل اليهود يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . والحسد مذموم ، وصاحبه مغموم ، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، والله درّ قول الشاعر :

ألا قل لمن ظلّ لي حاسداً أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه إذا أنت لم ترض لي ما وهب
ويقول آخر :

اصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

ويخبر الله عز وجل أنه أعطى الحكم والنبوة لآل إبراهيم ، وجعل النبوة فيهم وفي أسباطهم ، فمنهم من آمن بهذا الفضل وهذا الإيتاء ، ومنهم من صدّ عنه وانحرف عن المنهج .

واليهود قد اختلفوا على أنبيائهم وملوكهم ، فإن اختلفوا اليوم في أمرك يا محمد فذلك ليس بغريب عليهم ، فهم قتلوا أنبيائهم ، وهم أصحاب السبت ، وهم سراق الذهب ، الذى صنعوا منه العجل ، الذى عبدوه ، لذلك يقول الحق سبحانه :

سُورَةُ النَّاسِ

فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِءٍ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

أى كفى بالنار عقوبة لهؤلاء الذين كفروا وعاندوا وخالفوا كتب الله ورسله . أعاذنا الله من نار جهنم .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا فَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾

إن الذين كفروا وحاربوا الرسول محمدا - ﷺ - سنعاقبهم بنار جهنم ، يدخلون فيها مساقين إليها بكفرهم وضلالهم عن الحق ، تصلى - أى تشوى - فيها أجسامهم . كلما فضجت جلودهم بدلت بجلودٍ غيرها ، لاستمرار عملية العذاب .

« والمراد من العزيز : القادر الغالب ، ومن الحكيم : الذى لا يفعل إلا الصواب ، وذكرهما فى هذا الموضع فى غاية الحسن ، لأنه يقع فى القلب تعجبٌ من أنه كيف يمكن بقاء الإنسان فى النار الشديدة أبد الأبادا فقليل : هذا ليس بعجيب من الله ، لأنه القادر الغالب على جميع الممكنات ، يقدر على إزالة طبيعة النار . ويقع فى القلب أنه كريم رحيم ، فكيف يليق برحمته تعذيب هذا الشخص الضعيف إلى هذا الحد العظيم؟ فقليل كما أنه رحيم فهو أيضا حكيم ، والحكمة تقتضى ذلك . ^(١) » .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلِيلًا ﴿٥٧﴾

ذلك مقام المتقين الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا على ما جاء به محمد - ﷺ - ، فنفذوا أركان الإسلام قولا وعملا وجوها ، ولم يحتكموا إلى طاغوت . والطاغوت يحكم بغير ما أنزل الله .

هؤلاء المتقون سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، منعمة قلوبهم ، تطوف على أرواحهم الملائكة ، تحييهم وتؤنسهم صباحا ومساء ﴿ وتحييهم فيها سلام ﴾ ^(٢) - ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ ^(٣) . هؤلاء الصالحون لهم فى الجنة أزواج مطهرة

(١) تفسير الرازى ١٠-١٣٦ . (٢) يونس : ١٠ . (٣) الرعد : ٢٤ .

سُورَةُ النَّسَبِ

يعيشون معهن في سعادة وأمان ، في ظلال الجنة الوارفة المغدقة ، بجمال رحمة الله ، وإحسانه إليهم . مطهرة : أى من الحيض ، والنفاس ، والأذى ، والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة ، طاهرات مطهرات .

فهل يعتبر من لم يحكم بكتاب الله ؟ وهل فكر في مصيره الأخرى ؟ أو أنه ارتضى ذلك الطاغوت حكماً ؟ .

هيا يا حكام الشعوب إلى كتاب الله ، ونحن معكم ووراءكم وهيا أعلنوها صادقة وقودوا الأمم إلى طريق الله بدلا من طرق الفساد والدمار . لا نقول شيئا في إسلامكم ، ولكن كونوا صادقين في قول لا إله إلا الله . وها هي ذى مذاهب الشيوعية العتيدة تهوى من صرحها الكبير إلى مدارك الأرض ، وتهوى أمام قوى الإسلام ودروب الصحوة الإسلامية ، وفي ذلك عبرة للمنحرف عن الحق وعن الله ، وها هي ذى المذاهب الفكرية الأخرى في طريقها إلى الاندثار والسقوط .

الله الله في شعوبكم ومحكوميتكم . الله الله في مناصبكم ورعيتكم . الله الله ، حكموا فينا كتاب الله . وارعوا الناس بحكم خلافتكم في الأرض . فأنتم وعباد الله ظل الله في أرضه . ارتضى لكم الحق أن تحكموا وأن تكونوا خلفاء . فكيف يتمرد المحكوم المعين من قبل الله على حاكمه المختار له ؟

أرجو الله أن يعينكم على تحكيم كتاب الله ، ونبذ الطاغوت وحكمه ، حتى ترتقى أمتنا ، وتسيروا بدون حراس ، لأن الشعب ساعته سيحرسكم ويحميكم بفضل الله وكرمه . وتلك هي كل آمياتي لحكام المسلمين دونما تعسف أو كره أو تعصب . فما أريد بذلك إلا وجه الله عز وجل .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ٥٨﴾

يقول القرطبي : إن « هذه الآية من أمهات الأحكام تضمنت جميع الدين والشرع . وقد اختلف من المخاطب بها . . . فقل . . . هذا خطاب لولاة المسلمين خاصة ، فهي للنبي - ﷺ - وأمرائه ، ثم تناول من بعدهم »^(١) .
وفي ذلك إخبار من الله العلي الكبير بأن الأمانة لها عند الله منزلة كبيرة وخطيرة .

(١) تفسير القرطبي ٣ / ٢٥٥ - ٢٥٦ .

سُورَةُ النَّسَبِ

ورأس الأمر في الأمانة أن يوفى الإنسان بكل أوامر الله المفروضة عليه : من توحيد عبادته بإخلاص ، والخوف منه بيقين ، والصلاة أمانة إذا حضر ميعادها ، والزكاة إذا بلغ نصابها ، وكذا الصيام ، والحج إذا حضرت نفقته مع صحة البدن ، والأمن في الطريق أمانة ، وأسرار الغير ما داموا قد أسروا بها إليك ، والخدام في بيتك أمانة ، والعامل والمحكومون والشركاء في التجارة ، وأمانة الحاكم في المحكومين : أن ينصف ضعيفهم من قويهم ، ويعطى كل ذي حق حقه . . إلى غير ذلك .

إذن الآية حكمها عام في الأمانة . فليست الأمانة مقصورة فقط على الودائع كما يفهم الكثيرون ، ولكنها تتجاوز حدود الودائع والأشياء العينية إلى مفاهيم وقيم دينية أوسع وأعمق ، تعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

لما أمر الله سبحانه وتعالى - في الآية السابقة - الحكام بالعدل في أحكامهم ، ولما أمر الدعاة والولاة بالعدل في أمر رعاياهم ، أمر سبحانه وتعالى في هذه الآية المحكومين بطاعة حكامهم .

وهذا ترتيب في الخطاب عادل حيث إن الله أمر الحكام بالعدل أولاً ، فإذا حكموا بالعدل كما يريد المولى فمن غير الجائز مخالفة أمرهم . لذلك يقول الإمام على كرم الله وجهه : حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ، ويؤدي الأمانة ، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا^(١) .

ويستنتج الإمام الرازي رضي الله عنه من تفسيره لهذه الآية على أنها «مشملة على أكثر علم أصول الفقه ، وذلك لأن الفقهاء زعموا أن أصول الشريعة أربع : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وهذه الآية مشتملة على تقرير هذه الأصول الأربعة بهذا

(١) انظر تفسير الرازي ١٠/١١٥-١١٧ .

سُورَةُ النَّبَاِ

الترتيب . أما الكتاب والسنة ، فقد وقعت الإشارة إليهما بقوله ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرِّسُولَ ﴾ . . . وقوله ﴿ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ يدل عندنا على أن إجماع الأمة حجة . . . وقوله ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ يدل عندنا على أن القياس حجة .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١﴾

«هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله . كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار ، ورجل من اليهود تخاصما . فجعل اليهودي يقول : بينى وبينك محمد ، وذاك يقول : بينى وبينك كعب بن الأشرف . وقيل : في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية» (١).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٢﴾

أى يعرضون عنك يا محمد ويستكبرون على طاعة الله بمجرد دعوتهم إلى حكم الله . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٣﴾

فها هم أولاء عند الشدائد والمصائب احتاجوا إليك . . . يعتذرون إليك يا محمد ، ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى أعدائك ، إلا الإحسان والتوفيق ، أى المدارة والمصانعة ، لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة ، وهم بذلك يقرون رسميا أنهم منافقون .

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٤﴾

هذا النوع من الناس يا محمد : منافقون ، والله سبحانه يعلم ما في قلوبهم ، ومدى

(١) تفسير ابن كثير ١ - ٥١٩

سُورَةُ النَّبَاِ

صدقهم وكذبهم ، وسيحاسبهم على ذلك فإنه ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ (١) فأعرض عنهم ، وانهم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ، وانصحهم بالهودة والموعظة فيما بينك وبينهم بما تتمتع به من كلام بليغ مؤثر يردعهم ويرجعهم عما هم فيه .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾

« لما أمر بطاعة الرسول في قوله ﴿ وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ ثم حكى أن بعضهم تحاكم إلى الطاغوت ولم يتحاكم إلى الرسول ، وبين قبح طريقه وفساد منهجه ، رغب في هذه الآية مرة أخرى في طاعة الرسول فقال هذه الآية » (٢) .
 أى : وما أرسلنا من رسول إلا وفرضت طاعته على من أرسله الله إليهم ، فلا يطيعه أحد إلا بإذنى وتوفيقى إياه إلى أمر تلك الطاعة .

ثم يوجه الحق سبحانه وتعالى العصاة المذنبين ، ويفتح أمامهم طريق الأمل والخلاص من بريق المعاصى ، ببيان أن الواحد منهم إذا وقع في المعصية يمكنه أن يأتى إلى الرسول - ﷺ - فيستغفر الله عنده ويسأل الرسول أن يستغفر له الله . إنه لو فعل ذلك عن صدق ويقين ، وعزم على عدم الرجوع في المعصية والذنب ، لوجد الله توابا رحيمًا . سبحانه هو القائل ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ (٣) . وهو القائل ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ (٤) . وسبحانه هو القائل ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ (٥) . فكيف تغلق أبواب الرحمة والتوبة أمام الأوابين الراجعين إلى الله ؟

إن مفاتيح رحمة الله ، ومفاتيح جنته ، ليست ملكا لأحد . ولكن العمل الصالح ، والعزم الأكيد على عدم الرجوع إلى المعاصى ، والتوبة النصوح ، هى طريق المراء إلى الجنة . ومشكلة كبرى أن يذنب الإنسان ، ولكن المصيبة الأكبر أن يشعر فى لحظة ما أن ذنوبه أكبر من عفو الله . . !

(١) آل عمران ٥ .

(٢) تفسير الرازى : ١٠ / ١٢٨ .

(٣) الكهف : ٥٨ .

(٤) الزمر : ٥٣ .

(٥) غافر : ٣ .

سُورَةُ النَّبَاِ

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

إنه قسم عظيم من الله سبحانه بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور. فيا محمد إن إيمان الخلق لا يعترف به لدينا ولا يصلح ولا يعتمد إلا إذا حكموك أنت فيما شجر بينهم ووقع من شقاق وخصام واختلاف في شئون حياتهم وما يملكون. فإن حكموك ورضوا حكمك : كانوا مؤمنين حقا . يقول الإمام الرازي في تفسيره العظيم في هذه الآية (١) :

«اعلم أن قوله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾ قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيـمان إلا عند حصول شرائط : أولها : قوله تعالى ﴿ حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول - ﷺ - لا يكون مؤمنا واعلم أن الراضى بحكم الرسول ﷺ قد يكون راضيا به في الظاهر دون القلب ، فبين في هذه الآية أنه لابد من حصول الرضا به في القلب . واعلم أن ميل القلب ونفرته شيء خارج عن وسع البشر ، فليس المراد من الآية ذلك . بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذى يحكم به الرسول هو الحق والصدق وبين الحق أنه كما لابد في الإيـمان من حصول ذلك اليقين في القلب ، فلا بد أيضا من التسليم معه في الظاهر، فقوله ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ﴾ المراد به الانقياد في الباطن ، وقوله ﴿ ويسلموا تسليما ﴾ المراد منه الانقياد في الظاهر. والله أعلم.»
ثم يقول الرازي : « دلت هذه الآية على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الخطأ في الفتوى وفي الأحكام ، لأنه تعالى أوجب الانقياد لحكمهم ، وبالغ في ذلك الإيجاب ، وبين أنه لابد من حصول ذلك الانقياد في الظاهر وفي القلب ، وذلك ينفي صدور الخطأ عنهم . . . »

وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْثًا ﴿٦٦﴾

والمراد أننا لو شددنا التكليف على هؤلاء المنافقين بأن نأمرهم بقتل أنفسهم ، أو

(١) انظر : ١٠ / ١٣١ (بتصرف يسير) .

سُورَةُ النَّبَاِ

بالخروج من أوطانهم ، لصعب ذلك الأمر عليهم ، ولما فعله إلا قليل منهم ، فليقبلوا الأمور السهلة الميسرة الأخرى التى أمرناهم بها حتى ينالوا رضا الله ، ويفوزوا بجنته لذلك يقول الحق :

وَإِذَا لَاتَيْنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

أى فى الدنيا والآخرة . اللهم اجعلنا ممن اتبعوا صراطك وسبيلك ، وحاسبنا برحمتك ، واهدنا الصراط المستقيم .

وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

أى من عمل بما أنزل فى كتاب الله ، وأرضى الله ورسوله ، وترك كل ما نهى الله عنه ، فإنه سبحانه يسكنه مع النبيين ، ومع من بعدهم فى الرتبة - كما يقول ابن كثير - وهم الصديقون والشهداء والصالحون ، وهم عموم المؤمنين الذين صلحت سرائرهم وعلايتهم ، وذلك فضل من الله تعالى وليس نظير أعمالكم ، فلو حاسبكم الله على نعمة واحدة من نعمه عليكم ما استطعتم أن توفوه حقه أو شكره .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾

يأيا الذين آمنوا بمحمد وما أنزل عليه من الحق احذروا المنافقين والكافرين معا ، فهم لكم أعداء ، وإن أظهروا السكينة لبعض الوقت ، فاعلموا أنهم يرصدون حركاتكم ، ويحصون عليكم خطاكم ، ويتجسسون عليكم لمعرفة عدديكم وعدديكم ، من معاش وعلم وسلاح . فتسلحوا بالإيمان وبعده القتال فذلك من الإيمان . ﴿ثُبَاتٍ﴾ أى : جماعة بعد جماعة ، وفرقة بعد فرقة ، وسرية بعد سرية ﴿أو انفروا جميعا﴾ أى كلكم .

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لِّيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾

سُورَةُ النَّبَاِ

﴿ لِيُطْغَن ﴾ أى ليتخلفن عن الجهاد ، وذلك لا يكون إلا من منافقين ، فهم لا يسارعون إلى الله وإلى الجهاد فى سبيله ، فيتخلف المنافق عن الجهاد حتى يسمع ويرى ما حدث من غلبة العدو للمؤمنين مثلاً ، فيدعى أن تخلفه عن القتال كان له الحق فيه ، إذ إنه لو ذهب معهم لناله القتل مع من قتل . هذا من وجهة نظره ، وقد فاتته أنه خسر الأجر فى الصبر أو الشهادة إن قتل هو معهم . وإن أصاب المؤمنين الفوز على الأعداء كان كأنه ليس من أهل دينهم ويقول ياليتنى كنت معهم ، فأضرب بسهمى معهم ، وأفوز بنصيبى فى الغنائم والمكاسب ، وهذا هو غاية قصده وأهدافه . فهم عبّاد دنيا فقط ولا ينظرون إلى مرضاة الله ورضاه . فالفوز الحقيقى عند المؤمنين إنما هو الإيمان بالله ، والتصديق بكتبه ورسوله واليوم الآخر .

لذلك يقول الحق فى هذا النوع المنافق الطالب للدنيا والناظر إلى مغانمها فقط :

وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي
كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

وهذا هو النوع المنافق المخادع ، فاحذروهم أيها المؤمنون ، وخالفوا أمرهم .

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ
وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

فلا حق يضيع عند الله ، والذين يفضلون الآخرة على الدنيا هم الذين يقاتلون فى سبيله . والفائز والمغلوب فى ساحة الجهاد له أجر عظيم .

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ
لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يحرص الله تعالى عباده المؤمنين على الجهاد فى سبيله و على السعى فى سبيل إنقاذ من لا حيلة لهم ، وهم المستضعفون بمكة من الرجال والنساء والولدان ، الذين يدعون

سُورَةُ النَّسَبِ

رَبِّهِمْ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ - أَيْ مَكَّةَ - وَيَقُولُونَ : سَخَّرَ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ يَا رَبُّ وَلِيًّا وَنَاصِرًا .

وهنا ملحوظة لطيفة في قوله تعالى ﴿ أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلَهَا ﴾ فلم تنسب مكة للظلم ولم ينسب الظلم إلى مكة ، ولكنَّ الظلمة من سكانها هم المنسوبون إلى الظلم . ومادام في القرية نفس مسلمة واحدة وجبت الإقامة فيها لا الخروج منها بدعوى الهجرة . أهـ .

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا
أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

يبين الحق أن المؤمنين يقاتلون في سبيل الله ، والكافرين يقاتلون في سبيل الطاغوت - أى الباطل - الذى يزينه الشيطان لأتباعه وأعوانه . ويقرر الحق أن كيد الشيطان هزيل تذرؤه رياح الباطل .

ونفهم من الآيتين السابقتين أن المؤمنين أمتهم واحدة ، ومستولون بعضهم عن بعض ، حتى تستقر سفينة النجاة بهم جميعا ، فلا يصح لمسلم أن يتمتع بالأمن وأخوه المسلم مشرد معذب بأيدي الظالمين المقتربين .

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا
أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

هذه الآية والتي بعدها تتحدث عن جماعات من المسلمين كانوا يتعجلون القتال مع الكافرين ، فلما كتب عليهم القتال جزعوا منه ، وخافوا من مواجهة الناس يقول ابن كثير :

« كان المؤمنون ، في ابتداء الإسلام وهم بمكة ، مأمورين بالصلاة والزكاة . . . وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم . ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبا لأسباب

سُورَةُ النَّبَاِ

كثيرة . . . منها : كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض . فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال ، فلهذا لم يؤمروا بالجهاد إلا بالمدينة . . . ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه ، جزع بعضهم منه ، وخافوا من مواجهة الناس خوفا شديدا^(١) .
وتمنوا ساعتها أن يؤجل القتال ، ولكن آخرة المتقين خير من دنياهم ، ولا يظلم ربك أحدا .

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

أى أنتم صائرون إلى الموت لامحالة ، ولاينجو منه أحد منكم . والمقصود من هذا الكلام ، كما يقول الرازى ، هو تبكيت من حكى عنهم أنهم عند فرض القتال ﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال﴾ ؟ فقال تعالى : ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ فبين الله تعالى أنه لاخلص لهم من الموت^(٢) . وحقا قول الله : ﴿كل من عليها فان﴾^(٣) وقوله : ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾^(٤) وقوله : ﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لاتمتعون إلا قليلا﴾^(٥) . وفى الآية خصلة أخرى من الخصال الرذيلة عند المنافقين فوق تخاذلهم وتخلفهم عن القتال : وهى أنهم إن أصابهم الفوز ولحققتهم الغنيمة قالوا هذه من عند الله ، وإن أصابهم شر ومكروه قالوا هذا من شؤم مصاحبة محمد (ﷺ) ، وهذا يدل على غاية حمقهم ، وجهلهم ، وشدة عنادهم .

إن خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه قال : لقد شهدت كذا وكذا موقفا وما من عضو من أعضائى إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية وهأنا ذا أموت على فراشى كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء^(٦) .

(١) تفسير ابن كثير: ١-٥٢٥ . (٢) تفسير الرازى: ١٠/١٨٧ . (٣) الرحمن: ٢٦ .
(٤) الأعراف: ٣٤ . (٥) الأحزاب: ١٦ . (٦) تفسير ابن كثير: ١-٥٢٦ .

سُورَةُ النَّبَاِ

وقد روى في الصحيحين عن النبي (ﷺ) :

« ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها » (١).

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾

يخبر الله تعالى عن عبده ورسوله محمد (ﷺ) بأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .
يقرر الحق أن بداية الخير للعبد أن يستمع لحضرة الرسول - (ﷺ) - ، فإذا شرح الله صدره ، ونور قلبه ، ورفع الغشاوة عن بصره وبصيرته ، أصبح يعقل كلام الله المتلو على لسان سيد الخلق محمد - (ﷺ) - ، فيصدق بكل ما جاء به رسول الله ، وينتهى عما نهى عنه . وبهذه الطاعة يوثق الله الصلة بينه وبين عبده . وجلّ قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ (١) .

وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ
وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

هؤلاء المنافقون الذين يقولون لك يا محمد أطعناك ، إذا خرجوا من مجلسك غيروا كلامهم وعصوك . كلا ! إننا كاتبون كل ما قالوه ونخبرك به يا محمد ، فاصفح عنهم وكن حليماً ، ولا تؤاخذهم ، ولا تخف منهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلاً .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

إنهم لو تدبروا القرآن تدبراً يليق بجلاله وقديسيته ، وبإخلاص النية لله ، فقرءوه بقلوب مفتوحة ، لكانوا مع المتقين إذ لو كان هذا القرآن من صنع وتأليف غير الله تعالى لما كان بهذه الدقة والبلاغة .

ومع التمعن في قوله تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ نجد أن القراءة وحدها بدون تدبر ونظر وتأمل في المعنى لا تفيد . ولو تدبر الإنسان مقاصد الآيات ، ودقة نظمها ،

(١) رواه البخاري - واللفظ له - كتاب « المرضى » باب « ما جاء في كفارة المرضى » ، ورواه مسلم كتاب « البر » باب « ثواب المؤمن فيما يرضيه - إلخ » .

(٢) آل عمران : ٣١ .

سُورَةُ النَّبَاِ

وجمال تدفقها ، لوقف على حقائق القرآن ومقاصده ، وشعر أنه لا يمل ولا يسأم منه ، بل يفارقه وهو في شوق إليه ، وكلما استغرقت تلاوته اشتاق إليه ، وبذلك يخرج من التلاوة وهو منشرح الصدر ، فنجده في معاملاته وتعايشه مع الآخرين قرآنا يمشى على الأرض ، كل حركته عطاء وإحسان وإنشاء وتجديد في الحياة بحق وعدل ومساواة .
نعم إن المتمعن العارف المدقق في تلاوته لكتاب الله ، هو الإنسان الذي يُكنّ كل معاني الحب والعطاء والبذل والتضحية في سبيل إسعاد الغير لوجه الله ، لا يرجو بذلك عرضاً من الدنيا ، ولكنه الحب في الله .

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها ، فيخبر بها ويفشيها وينشرها ، وقد لا يكون لها صحة .

سبحانه العزيز الحكيم ، بعد أن دعا عباده المؤمنين الموحدين إلى أن يتدبروا القرآن ، الذي هو حق اليقين من الله ، دعاهم ألا يستسلموا لخلافات يوسوس بها الشيطان ، ليفرق بها بين المؤمنين . وإذا وقع بينهم خلاف في أمر ولكل منهم وجهة نظر فيه ، كان عليهم أن يرجعوا في بحثه ومعرفته إلى كتاب الله ، وسنة رسوله ، وإلى الدارسين الباحثين المتفقهين في توضيح وتبيين شريعة الله ، الذين هم قوم من العلماء الأتقياء الحاكمين العادلين ، الذين لديهم حلول مستنبطة من أصول شريعتنا الإسلامية الحكيمة . هذا موقف الذين أنعم الله عليهم من المؤمنين ، لا يرون في القرآن اختلافا ولا تضادا ، ولكنه الحق والنور والهدى ، وهم دائما مع الذين يرددون قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١) .

فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

(١) آل عمران : ٨ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

« لما أمر تعالى بالجهاد ورغب فيه أشد الترغيب في الآيات المتقدمة ، وذكر في المنافقين قلة رغبتهم في الجهاد ، بل ذكر عنهم شدة سعيهم في تثبيت المسلمين عن الجهاد ، عاد في هذه الآية إلى الأمر بالجهاد . . » (١)

إذ يأمر الحق تبارك وتعالى نبيه بالقتال في سبيل الله ، لرفع كلمة الله - أى دينه وشريعته . وهنا نلاحظ قول الحق ﴿ لا تكلف إلا نفسك ﴾ وفى نفس الأمر : المؤمنون مكلفون بالقتال ومرغبون فيه ، وإذا رجعنا إلى قول الحق : ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ ، ودققنا النظر في هذه الآية والآية التى نحن بصدددها ، نجد وكأن الله سبحانه يقول لنبيه ما عليك من الذين يتقاعسون عن القتال ، فالله سبحانه مؤيدك بالمؤمنين ، الذين صدقوا بكلمات الله ، فتقدم يا محمد فعندما يراك أهل الصدق والإيمان سيسارعون إلى الجهاد ، ولن يتركوك .

ولما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ثقة ويقين بأن النصر من عند الله ، فقد أطاع الله ، وخرج للقتال غير متوان مادام الله قد أمره ، وكانت ثقتهم بنصر الله هى التى تدفعهم للقتال دائماً .

مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا ﴿٨٥﴾

الشفاعة هى شفاعات الناس بعضهم لبعض وتقديم الخير لأنفسهم . فمن يشفع فى الخير يأخذ أجره من هذا الخير ، ومن يشفع فى الشر يناله جزء من هذا الشر ، ويكون على وزر من تلك الشفاعة . ووجوه الشفاعة كثيرة ، منها معاونة الإخوان فى الخير، وتقديم المصلحة لهم ، ودرء المفسدة عنهم . والحسنة بعشرة أمثالها ، وجزاء سيئة سيئة مثلها . ﴿ مقيتا ﴾ أى حفيظا ، وهو قول ابن عباس ، وشهيدا على قول مجاهد ، والرزاق على قول الضحاك (٢) .

وَإِذَا حُيِّيْتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

(١) تفسير الرازى : ١٠-١٦٢ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ١-٥٣١ .

سُورَةُ النَّبَاِ

التحية تقع من الوافد على غيره ، أو من طارق ، أو من مار في الطريق على جماعة .
وهي من القادم سنة وردّها فرض . وإذا قال القادم : السلام عليكم يحياه الذي ألقى
عليه السلام بقوله : وعليكم السلام ورحمة الله . وإذا قال المبتدئ : السلام عليكم
ورحمة الله ، قال المجيب : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فإذا قال الوافد :
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته قال المجيب وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .
وفي الحديث : عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله - ﷺ - « لا تدخلوا الجنة حتى
تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم . . ؟ أفشوا
السلام بينكم » (١) .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ
حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

سبحانه هو المتفرد بالالوهية وحده ، وهو الذي يجمع الخلائق كلها إلى يوم القيامة ،
الذي لا ريب في حدوثه وقيامه ، وعندها يكون الحساب لكل عبد عما قدمت يداه .
فذلك حق واقع لا محالة ، فالفوز لمن احتاط له وأعد له عدته وحسابه .

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكُسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ ﴿٨٨﴾

اعتراض من الحق العزيز الحكيم موجه إلى الأمة المسلمة في المدينة .
ذكر أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أنها نزلت في قوم جاءوا إلى المدينة ، وأظهروا
الإسلام ، فأصابهم وباء المدينة ومُحَامَاها ، فأركسوا ، فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر
من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا مالكم رجعتكم ؟ فقالوا : أصابنا وباء
المدينة فاجتويناهما (٢) فقالوا : مالكم في رسول الله - ﷺ - أسوة ؟
قال بعضهم عن هؤلاء القوم : نافقوا ، وقال بعضهم لم ينافقوا هم مسلمون ،
فأنزل الله الآية (٣) . وأركسهم أي ردهم إلى الكفر (٤) ، أو أهلكهم على قول قتادة بما
كسبوا أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل (٥) .

(١) رواه مسلم . كتاب الإيمان ، باب « بيان أنه لن يدخل الجنة إلا . . . إلخ »

(٢) أي كرهنا المقام فيها وإن كنا في نعمة . (٣) انظر القرطبي : ٣-٣٠٦ .

(٤) نفس المرجع . (٥) تفسير ابن كثير : ١-٥٣٣ .

سُورَةُ النَّبَاِ

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾

هؤلاء القوم المنافقون يودون لكم الضلال والهلاك ، لتكونوا أنتم وإياهم سواء في الكفر والضلال ، وما ذلك إلا لشدة كرههم وبغضهم لكم .
وهذه الآية تدل على أنه لا يجوز موالة المشركين والمنافقين والمشتهرين بالزندقة والإلحاد . . . والسبب فيه أن أعز الأشياء وأعظمها عند جميع الخلق هو الدين ، لأن ذلك هو الأمر الذي به يتقرب الإنسان إلى الله تعالى ، ويتوسل به إلى طلب السعادة في الآخرة^(١) .

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَغْلِبُوكُمْ وَقَوْمُهُمْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَاءَ إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾

يقول ابن كثير « أى إلا الذين لجثوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة ، أو عقد ذمة ، فاجعلوا حكمهم كحكمهم . »^(٢) وهذا استثناء من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء القوم الذين تحدث عنهم الآية السابقة .

سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُّوْنَ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعَزِّلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾

(١) تفسير الرازى : ١٠- ٢٢١ .

(٢) ابن كثير : ١ / ٥٣٣

سُورَةُ النِّسَاءِ

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : « هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم ، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك فإن هؤلاء قوم منافقون ، يظاهرون النبي ﷺ - ولأصحابه الإسلام ، ليأمنوا بذلك عندهم على «مائهم وأمرهم» ودرارهم ، ويصانعون الكفار في الباطن ، فيعبدون معهم ما يعبدون ، ليأمنوا بذلك عندهم ، وهم في الباطن مع أولئك كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَاوا إِلَى شياطينهم قالوا إنا معكم ﴾^(١) . ﴿ أركسوا فيها ﴾ أى انهمكوا فيها . وحكى ابن جرير عن مجاهد : أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء ، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان ، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا ، فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا .

وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاؤًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ بِكَرَامٍ يَكْفُرُونَ سَلَامَةٌ إِلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ
عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَكَتَا يَعْنِي تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٢

سبحانه وتعالى حرّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرما ، فالقاتل بغير موجب للقتل : ظالم وقاس القالب ، والمؤمن لا يقسو ، فليس لإنسان مؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بأى وجه من الوجوه .

روى في الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ - قال : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس والشيب الزانى والتارك لدينه المفارق للجماعة^(٢) . ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله ، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه^(٣) .

(١) البقرة : ١٤ . وانظر ابن كثير : ٥٣٣/١ .

(٢) رواه البخارى كتاب « الديات » باب قوله تعالى « النفس بالنفس » . إلخ . ورواه مسلم كتاب « القسامة » باب « ما يباح به دم المسلم » .

(٣) انظر تفسير ابن كثير : ٥٣٤-١ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

وسبب نزول هذه الآية ما قال مجاهد : إنها نزلت في عياش ابن أبي ربيعة وذلك أنه قتل رجلاً كان يعذبه مع أخيه على الإسلام ، وهو « الحارث بن يزيد الغامدي » ، فأسلم ذلك الرجل وهاجر ، وعياش لا يشعر ، فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه ، فحمل عليه فقتله ، فأنزل الله هذه الآية . وهناك آراء أخرى في سبب نزول آية قتل المؤمن للمؤمن خطأ .

فالقتل كما يذكر الإمام الشافعي على ثلاثة أقسام : عمد ، وشبه عمد ، وخطأ . فجزاء قتل المؤمن خطأ تحرير رقبة ثم دية مسلمة إلى أهل القتل ، وهما واجبان : كفارة ما ارتكبه من ذنب عظيم ، والثاني عوض لأهل القتل .

ومن لم يجد تقديم الكفارة ، أو الواجب ، فصيام شهرين متتابعين بدلاً من الرقبة .

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَسُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ بِكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٥﴾

هذه الآية - كما قال ابن كثير والقرطبي - «نزلت في قوم من المسلمين مروا في سفرهم برجل معه جمل وغنيمة يبيعها فسلم على القوم وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فحمل عليه أحدُهم فقتله . فلما ذكر ذلك للنبي - ﷺ - شق عليه ونزلت الآية » (١) .

فمتاع الدنيا متاع قليل إذا قسناه بمتاع الآخرة الدائم الخالد . فلا تتعجلوا أيها المؤمنون في أحكامكم على الناس ، واتقوا الله ، وحاسبوا أنفسكم ، وارحموا الناس ، فأنتم مسئولون عنهم وعن أنفسكم ، وما ارتكبتموه من ذنوب يغفرها لكم ربكم إذا تبتتم وندمتم ثم استقمتم . وأما حق الناس فأنتم مسئولون عنه ومحاسبون عليه ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

(١) القرطبي : ٣/ ٣٣٦ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ
الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً
وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾

نعم . لا يستوى المجاهد المقاتل المقدم ماله وولده وزوجه في سبيل الله ، لتكون
كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، والقاعدون ﴿١٥﴾ من المؤمنين غير أولى
الضرر ﴿١٦﴾ . نعم يتميز الذين قالوا ربنا الله ، ثم وحدوه وعبدوه ، وأقاموا أمره ، ودافعوا
بأنفسهم وأموالهم عن حدود الله ، وإقامتها ، وعن أرض الله وصيانتها ، وأقاموا دولة
الإسلام في قلوبهم ، وفي أرض الله التي هم تاركوها إلى جنة عرضها السموات والأرض
أعدت للمتقين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ومهدوا أرض الدنيا
للتوحيد ، فمهد الله لهم في الجنات قصورا وبحارا وأنهارا وحورا وعينا وأزواجا مطهرة
ورضوانا من الله أكبر . إنها نفوس تبذل ، وأرواح تدفع ، وأموال تنفق ﴿١٥﴾ إن الله اشترى
من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴿١٥﴾ ،
وجلّ قول الحق ﴿١٦﴾ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من
عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير
لكم إن كنتم تعلمون ﴿١٦﴾ ، نعم . . كيف يستوى هؤلاء والقاعدون ﴿١٥﴾ من المؤمنين
غير أولى الضرر ﴿١٦﴾ ؟ وأولو الضرر في الآية : هم الذين حبسهم عذرهم عن الجهاد مع
السالمين الأصحاء .

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ
قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً
وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا ﴿١٩﴾

(٢) الصف : ١٠ ، ١١ .

(١) التوبة : ١١١ .

سُورَةُ النَّبَاِ

يعتذر الحليم الكريم العدل سبحانه عن المستضعفين الذين كانوا لا حيلة ولا قوة لهم فيشعرنا الله سبحانه وتعالى بعدله وإنصافه ، فالذين لم يهاجروا نتيجة عجز أو ضعف : لهم عذرهم المقبول ، وشي سبحانه بهام السم والجر وما تخفى الصدور ، فيمجازى ويحاسب كل ما في القلوب ، يا أيها الناس : انتم الذين لم يهاجروا وهم قادرون عليها فهم المستعجزون فيها فهاجروا .

ويوضح ذلك موقف النبي - صلى الله عليه وسلم - من عمه العباس : وذلك صورة تحسب للإسلام من خلال عمل النبي المعصوم - ﷺ - ، فقد عامل أحب الناس إليه بذلك الحق والعدل كما يعامل أى أسير من الأعداء .

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغْمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

في هذه الآية يقرر الحق سبحانه أن الذين يهاجرون في سبيل الله يوسع الله عليهم أرزاقهم ، ويكفيهم بعزته وقدرته شر أعدائهم ، ويجعل لهم من كل ضيق فرجا ومخرجا ومراغما (عطاء وسعة) في العطاء .
يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الذى رواه البخارى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه) (١) .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّ خِفَافًا أَنْ يَفِينَكُمْ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾

وإذا ضربتم في الأرض - أى سافرتم في البلاد - سواء كان سفر جهاد ، أو حاج أو عمرة ، أو طلب علم من بلاد بعيدة ، أو زيارة ، إلى غير ذلك ، فإنه يسن في هذه

(١) صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب « ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة »

سُورَةُ النَّسَاءِ

الحالة القصر في الصلاة ، وهى الرباعية إلى ركعتين فقط ، تخفيفاً من الله ، ورحمة منه لعباده . أخرج الإمام مسلم عن يعلى بن أمية قال : قلت لعمر بن الخطاب قوله ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ وقد أمن الناس ؛ فقال لى : عجبْتُ مما عجبْت منه فسألت رسول الله عن ذلك فقال : «صدقةٌ تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» (١) .

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى
لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ
وَتَخْذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠﴾

هذا بيان تفصيلي مشروح عن صلاة الخوف وكيفيةها التى وضعها الله للمسلمين المتقين المجاهدين العابدين ، حتى يضرب المثل الأعلى فى اتخاذ كافة الأسباب فى جميع الأعمال ، فإن الله سبحانه وتعالى كفى بأن يحمى ظهور المصلين أثناء الجهاد أو الحرب ، ولكن الحق سبحانه يعطينا مثلاً واضحاً على أن لنا أسباباً وله مشيئة . ولاتقارن أفعاله بأفعال العباد . فسبحانه هو خالق الأسباب والمسببات ، وسبحانه تختلف مقاييس أسبابه عن مقاييس البشر .

فها هى ذى صلاة الخوف التى تنتقص يصلحها الإمام ركعتين يأتى المصلون بالإمام فى الركعة الأولى ويكونون النصف - أى نصف العدد الموجود - والنصف الآخر يقف خلفهم حاملاً السلاح ، ومستعداً لأية خيانة أو غدر من العدو . وبعد الركعة الأولى يتبادل النصفان المكان خلف الإمام ، أى أن الفريق المصلى يخلى المكان بعد الركعة الأولى ، ويقف حاملاً السلاح ، ويحل محله الفريق أو النصف الآخر الذى كان يحمل

(١) انظر تفسير ابن كثير : ١ - ٥٤٤

سُورَةُ النَّسَبِ

السلاح ليصلى الركعة الأولى بالنسبة له وراء الإمام ، وتعتبر هذه الركعة هي الثانية بالنسبة للإمام . فتكون بذلك صلاة الإمام ركعتين وصلاة المأمومين ركعة واحدة ^(١) . وبذلك لا يستطيع الكافرون المتربصون للمؤمنين أن يباغثوهم .

يقول الإمام القرطبي : « واختلفوا في صلاة الخوف عند التحام الحرب وشدة القتال وخيف خروج الوقت ، فقال مالك والثوري والأوزاعي والشافعي وعامة العلماء : يصلى كيفما أمكن لقول ابن عمر : فإن كان خوف أكثر من ذلك فإنه يصلى راكبا أو قائما يومئ إيماء » ^(٢) .

وكل ذلك يدل على مدى الحرص على الصلاة ، وعلى عدم تركها حتى وإن صعب الوقت والموقف ، وهل هناك أكثر من مواجهة العدو ؟!

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا أُطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٣﴾

يقول ابن كثير: « يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف ، وإن كان مشروعا مرغبا فيه أيضا في كل وقت . ولكن هاهنا أكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب ، وغير ذلك مما لا يوجد في غيرها . » ^(٣) ﴿موقوتا﴾ عن ابن عباس ، أى : مفروضا ، ويقول ابن مسعود : إن للصلاة وقتا كوقت الحج ^(٤) .

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٤﴾

أى لاتضعفوا أبدا في النيل من عدوكم ومن طلبه ، بل جدوا في ذلك ولا تقصروا فيه ، فإن ما يصيبكم يصيبهم ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ ^(٥) . ولكن اهل ماتتظرونه من الله هو مثل ما ينتظرونه من الله ؟ كلا . إنهم قوم كفروا بالله

(١) للتوسع في معرفة الأقوال في هيئة صلاة الخوف راجع - على سبيل المثال - تفسير القرطبي ٣٦٣/٣ وما بعدها .
(٢) القرطبي : ٣٦٩-٣ . (٣) ابن كثير : : ٥٤٩/١ .
(٤) تفسير ابن كثير : ١-٥٥٠ . (٥) آل عمران : ١٤٠ .

سُورَةُ النَّبَاِ

وبرسوله فهم مطرودون من رحمة الله معذبون بغضبه ، لا يحيون ولا يموتون ، غير مأجورين . فهل ترقى رجاءاتهم إلى درجة رقى رجاءاتكم ؟ كلا إنكم ترجون النصر أو الشهادة . وفي حالة الهزيمة أو النصر لكم رضوان من الله أكبر ، أما هم فعبادٌ للدنيا ، مصيرهم جهنم ، ومطالبهم دنيوية خالصة ، ولا يعرفون لله حقاً ، ولا لرسوله طاعة . والله حكيم فيما يفرضه ويقرره وينفذه من أحكامه العادلة الكونية والشرعية ، وهو المحمود على كل حال كما يقول ابن كثير .

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٥﴾

نعم . لقد أنزل الله الكتاب أى القرآن الكريم الموصى به من عنده ، ثم السنة الملهمة لرسول الله - ﷺ - بمثابة مذكرة تفسيرية لهذا القرآن ، وذلك يا محمد لتحكم بين الناس بما سطر في القرآن الكريم حكماً عادلاً لا جور فيه ولا ظلم ، يسعد من تمسك به ، من جعله أمامه : قاده إلى الجنة ، ومن تمسك بغيره قاده إلى النار . فأيها الذين آمنوا احذروا أن تحيدوا عن طريق الحكم بما أنزل الله وبما بين رسول الله في سنته ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (١) .

فالحكم بكتاب الله أمر من الله ينبغى أن لا يختلف عليه من أمة محمد - ﷺ - إنسان . فكونوا ي أهل الإسلام موازين قسط وعدل . حكمكم إنصاف وأمركم حق . فأنتم موازين الله في الأرض ، واعلموا أن كتابكم « القرآن » هو بيان لعدل الله وقسطه ، وأنتم حراسه ، فاحذروا ألا تكونوا مقسطين . واعلموا أنكم خلفاء الله في الأرض . والخلافة من مقتضياتها الحكم بما أنزل الله . حكماً يعتمد على هديه في كتابه وسنة رسوله .

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾

فاستغفر الله يا محمد للمذنبين من أمتك . والمتخاصمين بغير وجه حق .

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٧﴾

(١) النجم : ٣ .

سُورَةُ النَّاسِ

«أى لا تحتاج عن الذين يخونون أنفسهم» (١).

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى
مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٨﴾

وهذا إنكار من الله سبحانه ، ، جلّ في علاه ، على المنافقين الذين يستخفون بأفعالهم المنكرة من الناس لشدة قبحها . ولكنهم يجاهرون الله بها مع أنه مطلع على السرائر والنفوس والضمائر ، لذلك يهددهم الله بقوله (وهو معهم إذ يبيتون - أى يضمرون - ما لا يرضى - أى الله - من القول) .

وهناك نوعيات كثيرة في كل العصور من هؤلاء . ذنوب تقترب وآثام تفعل من الأشخاص ، ويخافون من إظهارها أمام الناس ، لكن الله هو آخر شيء عندهم في ذلك الأمر . كلا . إن الله مطلع ، وهو ذو الطول ، شديد العقاب ، يمهّل ، ولكنه لا يهمل .

هَآأَنَآ هَآؤَآءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٩﴾

وفرضا إن كانوا منتصرين في الدنيا التى لم يقصدوا فيها وجه الله بأى شيء من أفعالهم ، والتى ظنوا أن الله غائب عنهم فيها ، وأنه يهمل مواقفهم وحسابهم ، وتجادلون عنهم الآن ، وتبررون أفعالهم بحجج واهية فيما بينكم ، فمن يبادلنى الحجة عنهم يوم القيامة ، ويتحمل مسئوليتهم الأخروية في يوم شديد عسير على الكافرين غير يسير ؟

وليعلم المنافقون المدلسون : أن الله من ورائهم محيط ، وهو الحارس والحفيظ على نبيه عليه الصلاة والسلام ، فليطمئن المؤمنون ، فهم كذلك بصدق اتباعهم لنبيه وإخلاصهم لربه محفوظون برعاية الله ورحمته .

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾

(١) القرطبي ٣- ٣٧٨ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

تصوير لإشراق الرحمة الإلهية . إنها رحمة الله من فيض حبه لخلقه سبحانه الذي يعلم تراكيب النفس البشرية ، فيخبرنا الله تعالى عن كرمه وجوده أن كل من يتوب إليه ويخلص النية في ذلك ، عازما على عدم الرجوع ، يجد الله غفورا رحيمًا .

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

وهنا يعلن الحق عبده باقتضاء حكمته بأن صاحب الذنب يؤذى به نفسه ، فيحملها فوق طاقتها من المسؤولية أمام الله ؛ فلا يغني أحد عن أحد ، وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها . والإنسان العاقل هو الذي يشفق على نفسه ، ويعمل على صيانتها مما يهلكها . والله سبحانه العليم الحكيم يحذر عباده أن يفعلوا الإثم ، فذلك أمر يهلكهم .

وهو سبحانه لا يؤاخذ العبد بما يقول عنه الخلق ، ولكنه مطلع على سريره وضميره ونفسه . والعبد يحاسب بنيته ، والنية السليمة يشهد لها العمل السليم ، والله ينجي عباده الذين لا يخشون الناس ، ولكن يخشونه هو ، ويجعلون عملهم لوجهه . فمن يعمل إثما أو خطيئة - ولم يتق الله - ويتهم به بريئا فقد وقع في دائرة الظالمين ، وإثمه على نفسه ، وليتحمل نتيجة هذا الظلم .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

ولولا فضل الله وإنعامه عليك يا محمد ، لَهَمَّ كثير من الناس أن يضلوك عن طريق الهداية والصراط المستقيم ، ولكنك بعين الله وحفظه ، والله سبحانه وليك وجبريل وصالح المؤمنين ، ولن يستطيع أحد من البشر أن يغير مما قضاه الله لك من الكمال

سُورَةُ النَّبَاِ

والصدق في اتباع ما أنزل عليك من الكتاب والحكمة فأنت في فضل الله ورحمته ،
وهؤلاء الذين يضلونك ما يضلون إلا أنفسهم ، ولا يضرّون إلا أنفسهم .

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ۝۱۴﴾

يقرر الحق سبحانه أن أناساً يكثرّون من لغو الحديث في غير ما يفيد ، فلا خير في
ما يتحدثون فيه .

ثم يستثنى من هذا النوع قوما يكون حديثهم محصوراً في الأمر بالمعروف ، والنهي عن
المنكر ، والإصلاح بين المتخاصمين أو المختلفين من الناس ، فيهدونهم إلى الخير
بإرشادهم إلى صالح العمل والقول .

والمهم في كل ذلك أن يبتغى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أو المصلح بين
الناس بعمله وجه الله ، وإلا صار عمله هذا هباءً منثوراً .

وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ
نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝۱۵﴾

بين الله تعالى خلقه طريق هدايتهم وفوزهم ونجاحهم في كتابه العزيز الذي جاء
الرسول وشرحه بسنته الشريفة ، فمن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها القرآن
والرسول وصار في عداوة ومشاقة لهذه الشريعة : جازاه الله على ذلك ، بأن يزين له
عمله ويستدرجه في فعله وعمله الخطأ ، كما يقول الحق : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا
الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ (١) . ويقول سبحانه : ﴿ ونذرهم في
طغيانهم يعمهون ﴾ (٢) .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝۱۶﴾

سُورَةُ النَّاسِ

إن من أكبر الكبائر الشرك بالله ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضللاً بعيداً ﴾ .

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَنْثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾

والشيطان هو الذى يملئ عليهم هذه التصورات الفاسدة ، وإنما هم فى الحقيقة يعبدون إبليس اللعين .

لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا تُلْزِمْنَهُمْ وَلَا تُمْسِكْنَهُمْ فَلَيُبْتَلِئَنَّ أَزْوَاجُ الْأَنْعَامِ وَلَا مُرْتَبَهُمْ فَلَیُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾

إن الله سبحانه وتعالى قد حكم على إبليس باللعنة وبطرده من رحمته ، وقد تصور الشيطان اللعين أنه يتحدى المولى فقال سوف يكون لى من عبادك من يطيعوننى ويمشون ورائى ، وسوف يكون لى فيهم نصيباً مقدراً معلوماً ، وسوف أبعدهم وأضلهم عن الحق ، وأزين لهم الأمانى ، وأمرهم بالتسويق .

﴿ فليبتكن آذان الأنعام ﴾ قال قتادة يعنى تشويقها ، وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة ﴿ ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ . قال الحسن البصرى يعنى بذلك الوشم . ومن يجعل الشيطان قريناً وصاحباً له : فقد خسر الدنيا والآخرة .

يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾

« وهذا إخبار عن الواقع ، فإن الشيطان يعد أوليائه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون فى الدنيا والآخرة . وقد كذب وافترى فى ذلك ^(١) ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ كما قال تعالى : مخبراً عن إبليس يوم الميعاد ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى . . ﴾ ^(٢) .

(١) تفسير ابن كثير ١- ٥٥٦

(٢) سورة إبراهيم : ٢٢ .

سُورَةُ النَّبَاِ

فالمُتَّبِعُونَ لِلشَّيْطَانِ مَاوَاهُمْ وَمَصِيرُهُمْ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .
وهذا هو الوعيد الحق من الله ، والله تعالى صادق في وعده ووعيده .

أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

إن مصير هؤلاء الذين وعدهم الشيطان ومناهم ، واتبعوه : جهنم ، لانخلاص لهم منها ، ولا مأوى لهم في غيرها أبداً .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

الذين صدقت نياتهم ، فكانت قلوبهم هي موضع عقيدتهم وولاتهم لله سبحانه وتعالى ، وقالوا صدقا ، وعملوا حقا ، وعاشوا بإخلاص نية ، وصفاء ضمير، لا يجادلون في ما أمروا به ، وما نهوا عنه ، وعدهم الله بالجنة ، والله صادق في وعده ، ومن أصدق من الله إذا قال ١١٩

لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ
وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم . وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، ونبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضى على الكتب التي كانت قبله . فأنزل الله هذه الآية (١) .

إن العبرة دائما بطاعة الله سبحانه ، والتعامل لا يكون إلا مع الله ، ولا يغترن عابد بعبادته ، فإن منكم من يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع : فيسبق عليه القول ، فيصير من أهل النار . وإن منكم من يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع : فيسبق عليه القول ، فيصير من أهل الجنة .

(١) انظر تفسير ابن كثير ١-٥٥٧ .

سُورَةُ النَّاسِ

فالعبرة بالطاعة والامثال بالمنهج وإسلام الوجه لله . فليست العملية بالافتخار والتمنى والتحلى ، لكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل . من يعمل سوءا يجز به كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴿ (١) .

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٤﴾

يطئمن الله تعالى ويربط على قلوب المؤمنين ويبشرهم ﴿ ومن يعمل من الصالحات . . . ﴾ بعد قوله السابق ﴿ ليس بآمانيكم ﴾ وسبحانه ما أخاف ولا أفزع إلا وطمان وسكن ، فهو الرؤوف الرحيم ، فبعد أن أربب من عمل السوء ، أعلن السلام والأمن والسكينة لمن يعمل الصالحات ، ويتحرى الطاعة ، وينفذ أركان الإسلام قولاً وعملاً ، يقينا وصدقا . فهؤلاء يدخلون الجنة ولا يظلمون قدر نقير في ظهر نواة التمرة ، وهو شيء ضئيل جدا . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٥﴾

هل هناك أحسن ممن يسلم وجهه لله ، ويعتمد عليه اعتمادا حقيقيا ، ويؤمن بإيمانا صادقا ، قاصدا وجه الله في كل مايفعل ، مخلصا النية له ؟ هل هناك أحسن من ذلك ؟

إذا لم يعد الإنسان في دنياه بإيمانه فلا فائدة في تدينه وإيمانه هذا ، فالإيمان صدق وعيش ومعاملة ، ورحمة من الله للإنسان .

الإيمان راحة مطلقة ، وظل ظليل ، وبرد جميل ، وواحة غناء ، يفىء إليها المرء هاربا من هيب الحياة الحار .

اللهم ارزقنا الإيمان والعمل الصالح . . . !

(١) الزلزلة : ٨ . (٢) النحل : ٩٧ .

سُورَةُ النِّسَاءِ

وشرط قبول العمل الصالح : الإيمان وتسليم الوجه لله ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن . . . ﴾ وإلا ضاع العمل هباءً منثورا ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا ﴾ (١) .

﴿ واتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾ وهم محمد وأتباعه المسلمون ، كما يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ﴾ (٢) والحنيف كما يقول ابن كثير هو المائل عن الشرك قصدا ، أى : تاركا له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكلية ، لا يصدده عنه صاد ، ولا يرده عنه راد ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ . وهذا ترغيب للكلام السابق الذى أوحاه الحق لعباده ﴿ واتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾ . ومكانة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ربه تكاد تكون معلومة عن كل العباد ، وحسبه شرفا ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ﴾ (٣) .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ۝١٦١

أى الجميع ملكه وعبيده وخلقه ، وهو المتصرف فى جميع ذلك ، لاراد لما قضى ، ولا معقب لما حكم ، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته . وقوله ﴿ وكان الله بكل شىء محيطا ﴾ أى : إن علمه نافذ فى جميع خلقه ، وكيف لا وهو لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، سبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ولا يخفى عليه من الأمر شىء .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تَوْثُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ۝١٦٢

(١) الفرقان : ٢٣ . (٢) آل عمران : ٦٨ .

(٣) النحل : ١٢٠ .

سُورَةُ النِّسَاءِ

إن بعضا من المسلمين كانوا يستفتون رسول الله - ﷺ - في أمر النساء .
 إذ كان في الجاهلية إذا مات الرجل أو الزوج : وضع أخوه ، أو ابنه من امرأة أخرى ،
 أو أولياؤه ، أو وارثه ثوبه على زوجة المتوفى ، وبذلك يمنع عنها طلاب الزواج منها ،
 وإن كانت جميلة : تزوجها وأخذ مالها ، وفي ذلك ظلم للنساء . وهضم لحقوقهن حتى
 أنزل الله أحكامه الصارمة الحكيمة ، وعزّز المرأة ، وجعلها كفيلة بحقوقها ، وأمينه على
 مستقبلها وحياتها .

وأیضا كان الجور والظلم قد امتد في الجاهلية إلى الصغار ، فكانوا لا يورثون الصغار
 والبنات ، فنهى الله عن ذلك ، وبين أسهم الورثة ، وأعطى كل ذي حق حقه .
 إن الله خبير مطلع على أفعالنا وأعمالنا ، وهذا تحفيز من الله يرد الحقوق إلى أهلها ،
 وترغيب باتقاء الله في النساء والمستضعفين منهن والولدان .
 وفي مقدمة سورة النساء حديث مفصل عن هذا الموضوع لمن أراد المزيد .

وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا
 بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا
 فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

إذا أحست الزوجة من زوجها جفاءً وسوء معاملة ، فلا مانع أن يستعينا بالأهل
 والعلماء من أهل التقوى والصلاح ، ليتدخلوا في الصلح بعد أن تنفذ حيل الزوجين
 من أجل الصلح بينهما .
 والله سبحانه وتعالى المطلع على مافي القلوب ، وسيجزي من يتحمل من الزوجين ،
 ويبدل من الخير ويؤثر على نفسه ، لتبقى العشرة ، وتدوم تربية الأبناء معهم ، وتحت
 رعاية أبوين .

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ
 الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا
 رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾

سُورَةُ النَّسَبِ

نقول بداية إذا كان الزوج قد أثقلته متاعب الحياة ومسئولياتها فعلى الزوجة أن تخفف عنه ، بتيسير مسئولياته بالتعاون والمشاركة ، حتى يشعر الزوج بحنانها وعطفها ومشاركتها ، فيجاهد في الحياة بقلب مفتوح ، وصدر مشروح ، ليوفر لها مطالب الأسرة وتكاليف الحياة .

والمرأة العاقلة صاحبة التصرف الحسن والعقل الراجح ، تعالج قلب زوجها ، بإظهار الانشغال بأمره ، والحرص على سعادته وراحته ، وبالسهر على مصالحه ، وإشعاره دائماً أن ما يعنيه يعنيه ، إذ الزوجة العاقلة : يريحها ما يريح زوجها ، ويقلقها ما يقلقه .

وزوجان على هذا النمط : سوف يتمتعان ويسعدان ، وتسعد بهما الحياة والأبناء من حولهما ، فلا بد أن تحمل المودة والرحمة بين الزوجين ، بدلاً من الشحناء والبغضاء ، والتركيز على الصغيرة والكبيرة والتوافه في عداد الحياة اليومية . وكان الله واسعاً حكيماً .

وَإِنْ يَنْفَرَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾

إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه ، بأن يعوض الله كلا منهما عن الآخر بمن هو خير منه ، فإن الله واسع الفضل ، عظيم المن ، حكيم في جميع أفعاله وأقداره وشرعه كما يقول الإمام ابن كثير .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣﴾

إن الله سبحانه وتعالى له الحق المطلق في أن يعطى أو يمنع ، والإنسان العاقل هو الذى يقول باعتقاد ويقين لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خلق الخلق ، وصور الوجود ، وأبرز الظاهر ، وستر الباطن ، وهو بالجملة مالك السموات والأرض ، وهو الحاكم فيها ، له التصرف كيفما يشاء ، فيجب علينا تقوى الله ، والخوف منه ، والعمل بمقتضى قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له حقاً وصدقاً ويقيناً وتلك وصية الله لنا ،

سُورَةُ النَّبَاِ

التي وصاها لمن قبلنا ، وهو نداء لكل العالمين ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴿^(١) .

سبحانه لا تنفعه عبادة ولا تضره معصية . سبحانه لو أن أولنا وآخرنا وإنسنا وجننا اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد منّا مانقص ذلك من ملكه شيئاً جل قوله : ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾^(٢) .

وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَكَفَى بِاللّٰهِ وَكِيلًا ۝١٣٢

التكرار في هذه الآية والتي قبلها بقوله ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ : (ليتنبه العباد وينظروا ما في ملكوته وملكه وأنه غني عن العالمين)^(٣) .

سبحانه يعطى عن غنى ، ويمنع عن قدرة ، ويعفو عن إحسان ، إن شاء أغنى كل ما في الوجود ، وهو قيوم السموات والأرض ليس كمثله شيء ، وكان الله على كل شيء قديراً .

نعم . . اكتفينا بالله وكيلاً .

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ قَدِيرًا ۝١٣٣

هو القادر على الإفناء ثم الإيجاد ، وذاك أمر يسير على الله ، فهو قادر على محونا من الدنيا ، والإتيان بآخرين ، كما قال في موضع آخر : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾^(٤) يخلق أقواماً آخرين يشتغلون بتقديسه وعبادته ، ولكن الله حق رحيم له في خلقه شؤون .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝١٣٤

(٢) سورة الإخلاص : ٤ .

(١) سورة : محمد ٣٨ .

(١) سورة الزمر : ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) تفسير القرطبي : ٣ - ٤٠٩ .

سُورَةُ النَّبَاِ

فيا من ليس له شغل يشغله إلا الدنيا ، والجمع لها ، والإعداد لها ، والتمتع بها :
هاهى الدنيا أمامك ، يامن تريد الدنيا : تمتعْ ولك فيها كل أنواع النعيم ، لكنك
خاسر فى الآخرة مالك فيها من خلاق ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها
مانشأ لمن نريد ﴾ ^(١) - ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتينا فى الدنيا وماله فى الآخرة
من خلاق ﴾ ^(٢) - ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ﴾ ^(٣) - ﴿ بل تؤثرون الحياة
الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ ^(٤) - ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ ^(٥) .

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ
الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ
تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانِ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

« يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط - أى بالعدل - فلا يعدلوا
عنه يمينا ولا شمالا ، ولا تأخذهم من الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنها صارف ، وأن
يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه » ^(٦) . ويأمرنا الله أن نكون
شهداء لله نؤدى الشهادة ابتغاء وجهه الكريم ولو على أنفسنا ، وهذا قمة العدل فى
النسق القرآنى ، حتى ولو عاد ضرر الشهادة علينا ، فإن كنا نريد وجه الله فعلاً فى
الشهادة : فلا خوف من ضرر ، أو أى ردّ فعل قد تحدثه هذا الشهادة التى شهدنا بها
على أنفسنا أو على غيرنا ، والله حق كريم فلم تخاف ضرراً أو ألماً يقع من جراء تلك
الشهادة ؟ سبحانه هو القائل : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو
أقرب للتقوى ﴾ ^(٧) - وإن كانت الشهادة على الوالدين أو أحد الأقربين : فلا طاعة
لمخلوق فى معصية الخالق . ومن هنا يقول الحق ﴿ وإن تلّوا أو تعرضوا فإن الله كان بما
تعملون خبيراً ﴾ أى إن حرفتم فى الشهادة وغيرتموها ، فإن الله سيجازيكم بذلك .
واللّٰهُ كما يقول ابن كثير : هو التحريف وتعمد الكذب .

(١) الإسراء : ١٨ . (٢) سورة البقرة : ٢٠٠ . (٣) سورة الشورى : ٢٠ .
(٤) سورة الأعلى : ١٦ ، ١٧ . (٥) النحل : ٩٦ . (٦) تفسير ابن كثير : ١ - ٥٦٥ .
(٧) سورة المائدة : ٨ .

سُورَةُ النَّبَاِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِى أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٧﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول فى جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه
ودعائمه . وليس هذا من باب تحصيل الحاصل ، بل من باب تكميل الكامل وتقريره
وتثبيته والاستمرار عليه .

الجميل فى هذه الآية أن النداء للذين آمنوا ، ومضمون النداء هو الأمر بالإيمان
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ فكيف نأمر الذين آمنوا بأن نقول لهم آمنوا فى نفس الوقت؟ !
وهذا من الإعجاز البيانى فى القرآن .

يقول القرطبى : «نزلت هذه الآية فى جميع المؤمنين والمعنى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا
أَقِيمُوا عَلَى تَصَدِيقِكُمْ وَاثْبَتُوا عَلَيْهِ» ^(١) .

ويقول الرازى : « والمعنى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا دَاوَمُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَاثْبَتُوا عَلَيْهِ . . . يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا فِى الْمَاضِىِّ وَالْحَاضِرِ آمِنُوا فِى الْمُسْتَقْبَلِ » ^(٢) .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّٰهُ لِيَغْفِرْ
لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٨﴾

سبغ الله الغنى ، لم يرض من عباده الكفر ، لأنه خلقهم ، وأنعم عليهم بالحياة ،
فكان حقا عليهم أن يعبدوه ، ويمثلوا لأمره ، ويشكروا له . فالذين آمنوا منهم ثم
لعب بهم الشيطان فسؤل لهم طريق الضلال فكفروا ، ثم آمنوا ثم لعب بهم مرة أخرى
فكفروا : لم يكن الله بعد ذلك ليغفر لهم . إذ طمس على قلوبهم فازدادوا كفرا وصاروا
من أصحاب الجحيم . والمنافقون من هذا النوع ، لذلك قال الله عنهم :

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٩﴾

وهم من المذبذبين غير المستقرين على حال واحدة .

(١) القرطبى : ٤١٥-٣ .

(٢) تفسير الرازى : ١١-٧٥ .

سُورَةُ النَّبَاِ

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنَبُغُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ
الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٦﴾

يكلف الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يجتنبوا الذين يخوضون بالباطل في آيات الله
بغير الحق ، وليس لديهم من حجة على باطلهم إلا أنهم يحقدون على المؤمنين ،
ويجسدونهم على أن الله هداهم للإيمان ، ويتخذونهم أولياء من دون المؤمنين بحثا عن
العزة والنصرة عندهم .

يقول تعالى لهم : احذروا مجالستهم ، وانتهجوا طريقا غير طريقهم ، واحذروا
طريق المغضوب عليهم ، وهم اليهود . وطريق الضالين ، وهم النصارى .
إذ العزة والغلبة لله ﴿١﴾ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴿١﴾ .

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ مِمَّنْ تُبْغِضُونَ إِنْ اللَّهُ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

إن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن ويستهزئون به في مجالسهم ، وكان أخبار
اليهود بالمدينة يفعلون ذلك أيضا ، وجاراهم المنافقون على فعلهم هذا ، فوعدهم الله
جميعا بعذاب أليم . فمن يجاريهم ويخوض في الحديث معهم فهو مشارك لهم ، وراض
عن كلامهم ، ومعذب معهم ، وداخل في زميرهم .

يقول الرازى « هذا يدل على أن من رضى بالكفر فهو كافر ، ومن رضى بمنكر يراه
ونخالط أهله وإن لم يباشر كان في الإثم بمنزلة المباشر » (٢) .

وفي هذا درس عظيم لنا . فما أكثر أن يُنال كتابُ الله بالسوء والخوض فيه
والاستهزاء به من بعض الجهلة المنافقين ، الذين يجاربون الله ورسوله بطرق خبيثة حتى
يستهووا ضعف الإيمان .

(٢) تفسير الرازى : ١١ - ٨١ .

(١) سورة محمد : ٧ .

سُورَةُ النَّبَاِ

فتنبهوا أيها المسلمون لأعدائكم وخصوصا هؤلاء المنافقين الذين هم أخطر من الكفار الظاهرين . فما أكثر الجدل العقيم بين عامة الناس وما أكثر المفاهيم الخاطئة التي يجب أن تصحح في أذهان الناس ، وما أكثر المتفلسفين المستعلمين ، حتى إن العامة يخوضون في الحديث معهم ، وكل أصبح يدلي برأيه في الموضوع ، وكأن القرآن والرسول أصبحا لعبة في يد الناس يتقاذفها كل غادٍ ورائح .

إن الله ورسوله لأكبر وأقدس من أن يُخاض بالحديث فيهما وتلوكهما الألسنة الحداد بأدنى أنواع قلة الأدب والذوق . فلتأدب مع الله . ولتأدب مع الرسول ، ولنحترم القرآن . فلقد خلقت الجنة من أجله ، وبه ندخلها ، ومن غيره لن نراها . نسأل الله الهداية

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

إن حصل للمؤمنين نصرٌ وفوز قال المنافقون الذين يتربصون بهم : ألم نكن معكم؟ وهم في الوقت نفسه يتمنون لدولة الإسلام عدم الظهور ، وإن ظهرت فهم يتمنون لها الزوال والهزيمة ، وإذا حدثت هزيمة للمؤمنين ، قالوا : لقد ساعدناكم في الباطن وما كنتم تشعرون .

وهم في حقيقة الأمر يرجون في سريرتهم المظلمة الآثمة انتصار الكافرين على المؤمنين ، فهؤلاء قوم منافقون مذذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وهو سبحانه وتعالى يحكم بينهم يوم القيامة . ولن يكون هناك للكافرين على المؤمنين سبيل في الدنيا حتى وإن حدث لهم انتصار على المؤمنين في بعض الأحيان ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة ، كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرَ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (١) .

إِنَّ الْمُتَفِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

(١) سورة غافر : ٥١ .

سُورَةُ النِّسَاءِ

« لاشك أن الله لا يخادع فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون ذلك »^(١). وقوله ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ أى هو الذى يستدرجهم فى طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق والوصول إليه فى الدنيا وكذلك يوم القيامة . والآية توضح صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهى الصلاة إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها لأنهم لانية لهم فيها . وواقع الأمر أن الصلاة هى أشرف علاقة بين الإنسان وخالقه ، فهى مناجاة مباشرة بين الله والإنسان ، تملأ عواطفك بها ، وترقى بها أخلاقك ، وتقوى جوانب التقوى فى نفسك ، وتملأها خشية من روعة هذا اللقاء الربانى الكريم .

وفى هذه الأيام يكثر الكسالى عن الصلاة حيث تراهم يقومون لأدائها دونما رغبة أو فرح أو شوق ، وكأنها شىء ثقیل أو هو عبء كبير نفعله بغير رضا . فنعوذ بالله من أن نكون من المنافقين الذين يكسلون عن أداء الصلاة فى أوقاتها ، أو أن نؤديها ناقصة نكرة نكرة .

والمنافقون عادة يصلون الصلوات التى بالنهار، ويتخلفون عادة عن صلاة العشاء والصبح وقتى العتمة والغلس ، لأن الناس لا يشهدونهم فى هذين الوقتين .

مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ

سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

هؤلاء المنافقون محيرون بين الإيوان والكفر، فلا هم مع المؤمنين من أصحاب محمد، ولا مع الكافرين ظاهرا أو باطنا، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين ، وهذا نوع سيئ جدا من الناس .

وموقفهم هذا ضال لا يصح فى عملية الإيوان والعقيدة . ومن صرفه الله عن طريق الهدى ، فلا هادى له ، ولا منقذ له مما هو فيه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ

يَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾

(١) تفسير ابن كثير ١- ٥٦٨ .

سُورَةُ النَّاسِ

ينهانا المولى سبحانه وتعالى عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أو أن نصاحبهم أو نصادقهم أو نناصحهم أو نوادهم . كما قال الحق في موضع سابق :

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

وإنكم أيها المؤمنون إن لم تنتهوا عن ذلك تجعلوا لله حجة عليكم عند عذابكم على هذا الأمر . وفي هذا تنفير شديد من مصاحبة ومصادقة الكافرين .

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْدَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

أى جزأهم يوم القيامة النار بل أسفل النار كما يقول ابن عباس ، وقال ابن كثير النار دركات كما أن الجنة درجات .

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ
مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾

يخبرنا الحق سبحانه بأن العذاب واقع على المنافقين ، إلا الذين يتوبون بشرط الإخلاص ، والنية الحسنة ، وعمل الصالحات ، والتمسك بدين الله ، فهؤلاء مع المؤمنين ، وفي زمرة كلهم جميعا في رضوان الله ونعيمه .
والإخلاص سرٌّ من أسرار الله تعالى وهداية منه ومنحة .

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا
عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

الله غنى عن كل العالمين . وهل هو محتاج إلى تعذيبنا ، أو أن القضية قضية اختبار ، فنجاح ، أو زلل ؟ !
الله يعذبنا لمجرد إرادته العذاب ؟ أو أن القضية قضية ابتلاء واختبار ؟ ابتلاء فصبر ، أو رزق كريم فشكر ؟ وهل إذا آمننا وشكرنا المولى : يكون لله حاجة في تعذيبنا . . ؟ !
كلا . .

(١) آل عمران : ٢٨ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

إن الله يجازى كل شكور ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ فالاستفهام في الآية يعنى التقرير، والخطاب للمنافقين ، فإن تعذيب الله للناس لايزيد في ملكه . وتركه لذنوبهم لاينقص من شأنه وملكه سبحانه

وهذا قول جميل لمكحول رضى الله عنه : (*)

أربع من كنَّ فيه كن له ، وثلاث من كنَّ فيه كن عليه . فالأربع اللاتى له هى :

(أ) الشكر ، (ب) والإيمان ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾^(١) .

(ج) الاستغفار ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم

يستغفرون ﴾^(٢)

(د) الدعاء ﴿ قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾^(٣) . يعنى لولا دعاؤكم

المستمر لله وضراعاتكم إليه ما اهتم بكم الله ولاهملكم .

والثلاث اللاتى عليه هى :

(أ) المكر ﴿ ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله ﴾^(٤) .

(ب) البغى ﴿ إنما بغيتكم على أنفسكم ﴾^(٥) .

(ج) النَّكْث ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾^(٦)

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٨ ﴾

إن من آداب الإسلام ألا يؤذى المسلم مسلما . وإن دخل عليه ضيف كان عليه أن يكرمه ، وعندما يعتدى المسلم على أخيه فأفضلها الذى يعفو ، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

ومن أذى اللسان : الجهر بالقول السيئ ، والجهر بفحش الكلام أيًا كانت صور هذا القول السيئ أو الكلام الفاحش .

فمن الناس من يؤذى الآخرين متسلطا عليه بأقذع العبارات والسب ، ومنهم من يلوك لسانه سيرة الناس بالباطل ، ومنهم من لايرحم لسانه أعراض الآخرين ، ومنهم

(*) انظر : تفسير القرطبي ٣-٤٢٧ . (١) النساء : ١٤٧ . (٢) سورة الأنفال : ٣٣ .

(٣) سورة الفرقان : ٧٧ . (٤) سورة فاطر : ٤٣ . (٥) سورة يونس : ٢٣ .

(٦) سورة الفتح : ١٠ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

من يواجه الآخر ، بأساليب السب واللعان . وإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . ومن طيب الأشياء الدول الحسن الذي يحب الآخرين إليك . وحسن الكلام يوثق العلاقات بين المؤمنين . بل إن من مقومات الأخلاق : القول الحسن ، واللسان الطاهر النظيف ، ولنا في رسولنا - ﷺ - أسوة حسنة ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾^(١) .

ووالله ما أحوجنا اليوم إلى هذه القيم التي كادت أن تتفوق في قلب مجتمعاتنا التي قضى عليها الغزو الأجنبي . الذي لا يحترم قيمة ولا يحفظ فضيلة . ما كان للمسلمين أبدا أن يلقوا بأنفسهم ، نحدروا إلى قاع بعيد عن الحصن الأخلاقي المتين ، الذي رسمه الحق وطبقه المصطفى - ﷺ - وما نهضت أمتنا الإسلامية في عصورها الأولى إلا بسلاح الأخلاق المتين . فالخلق الطيب باب كبير ، وجواز سفر تتفوق به في الدنيا . والمتبصر في قواعد وشرائع الإسلام يجد أنها تقوم على أسس أخلاقية متينة يحكمها العمل الصالح المخلص بإيمان بالله عميق .

هذه الأسس إن لم توجد فمصير هذا العمل قصير وإن طال ، ومصير أية حضارة إلى الانهيار وإن علت لأنها في الأساس مبنية على غير أسس أخلاقية .
إننا لو بقينا نرتمى في أحضان الغير بهذه الطريقة لخسرنا الدنيا والآخرة . نعوذ بالله من ذلك .

ولو بقينا نقبل هذا الغزو الفكري اللعين الذي يتشر به شبابنا تشريا : لضلت عقول أبنائنا ، ولهبطنا إلى الهاوية ، ولجنت الأمة أشواكا من الكفر والضلال الذي يحاول الأجانب الذين يبدون لنا الصداقة وهم الد أعداء الله - أن يغرّسوه في عقول أمة كانت الخيرية فيها من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الإسلام أيها السادة جميل . تمسكوا به . وعضوا عليه بالنواجذ ، فوالله ماهو إلا كرم منه سبحانه أن هداانا له وخلقنا مسلمين . نسأل الله أن نكون مخلصين للإسلام قولاً وعملاً .

إِنْ بُدِّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

« أي إن أظهرتم أيها الناس خيرا ، أو أخفيتموه ، أو عفوتهم عمن أساء إليكم ، فإن

(١) سورة القلم : ٤ .

سُورَةُ النَّبَاِ

ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه ، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم .

ولهذا ورد في الأثر : أن حملة العرش يسبحون الله فيقول بعضهم : سبحانك على حلمك بعد علمك ، ويقول بعضهم : سبحانك على عفوك بعد قدرتك .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾

خلق الله آدم وهو أول الأنبياء ، وجاء محمد - ﷺ - وهو خاتم الأنبياء ، وما بين آدم عليه السلام ومحمد كوكبة مشرقة من الرسل والأنبياء ، المذكور منهم في القرآن ثمانية وعشرون .

وأهل الإسلام أصحاب محمد - ﷺ - وأمتة لا يفرقون بين أحد من رسله ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾^(١) . يؤمنون بهم جميعا ويصدقون برسالاتهم .

والله سبحانه وتعالى يتوعد الكافرين به ويرسله وأنبيائه ، وخصوصا اليهود والنصارى ، الذين فرقوا بين الأنبياء ، وآمنوا ببعضهم وكفروا بالبعض الآخر . لا عن دليل ولكن بعنجهية وجهل مطلق ران على قلوبهم .

فاليهود الشرذمة الحقيرة عليهم اللعنات : آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمدا عليهما السلام والصلاة من الله .

والنصارى : آمنوا بالأنبياء وكفروا بمحمد - ﷺ - والذي يكفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر النبيين .

هؤلاء بنص القرآن : هم الكافرون حقا ، وقد أعد الله لهم عذابا أليما مهينا .

(١) سورة البقرة : ٢٨٥ .

سُورَةُ النَّسَبِ

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ^{١٥٢} وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

هؤلاء قوم آخرون هم المؤمنون حقا لا يفرقون بين أحد من رسله ، ولهم جزاء عند الله كبير ، والمقصود بهم أمة محمد - ﷺ - .

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا^{١٥٣}

هذا نوع من جهالات اليهود وعتتهم وضلالهم ، مازال الحق سبحانه يفضح أهواءهم للعالمين ضمن آيات من القرآن تتلى إلى يوم الدين .
والمقصود من الآية بيان ما طبعوا عليه من جهل وعناد .
فقد سأل اليهود محمداً - ﷺ - وطلبوا منه أن يصعد إلى السماء وينزل عليهم كتابا وصحفاً إلى فلان وفلان وفلان ، وذلك على سبيل التعنت والكفر والإلحاد .

والحق سبحانه وتعالى يقرر أن صنيعهم هذا ليس غريباً منهم ، لأنهم - قديماً - سألوا سيدنا موسى عليه السلام أكبر من ذلك ، وأشد إنكاراً ﴿ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ بكفرهم وطغيانهم .

وقد فسرنا ذلك في سورة البقرة عندما قال الحق ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾^(١) .

ومن مواقف جهلهم وعتتهم قصة اتخاذهم العجل الذي عبدوه ، وقصته مشروحة في سورة الأعراف بعد أن ذهب موسى عليه السلام إلى مناجاة ربه ورجع ووجدهم يعبدون العجل . . إلخ هذه القصة .

(١) سورة البقرة : ٥٥ .

سُورَةُ النَّبَاِ

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

وقد وضح معنى الآية من مواقف هؤلاء اليهود المتعنتين الجاهال عليهم لعنات الله .

فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلُوا الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

إن اليهود قوم غضب الله عليهم ولعنهم وطردهم من رحمته ، بسبب نقضهم المواثيق والعهود ، وعصيانهم ، وقتلهم كثيرا من الأنبياء طغيانا منهم على حدود الله وأوامره ، وقد طبع الله على قلوبهم غضبا وسخطا لدرجة أن قلوبهم طبعت على العصيان والتمرد ، فلم تعد مستعدة لقبول الحق ولتلقى الإيمان .

وَيَكْفُرُ بِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بِهِتْنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

قال ابن عباس (يعنى أنهم رموها بالزنا) ﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾ (١) .

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾

ويذكر ابن كثير قصة صلب عيسى عليه السلام ، ونرى أنه من باب الأمانة نقلها هنا كي ترسخ قصة صلب عيسى في أذهان الناس ، ونقضى على الاختلاف الوارد في صلبه ، والقرآن الكريم وضح ذلك بيانا عيانا بصريح القول وصدق الحديث . يقول ابن كثير :

(١) سورة مريم : ٢٨ .

سُورَةُ النَّسَبِ

« وكان من خبر اليهود، عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه، أنه لما بعث الله عيسى بن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات (المعروفة) . . . ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلدة بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام. ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان. وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب؛ . . . وأنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه عن الناس. فلما وصل الكتاب امتثل، وإلى بيت المقدس لذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه، اثني عشر أو ثلاثة عشر وقيل سبعة عشر نفراً. وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت - فحصره هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخلوهم عليه أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيكم يُلقَى عليه شبهى وهو رفيقى في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم، فكانه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب. فقال: أنت هو! وألقى الله عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو وفتحت روزنة^(١) من سقف البيت. وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم فرفع إلى السماء، وهو كذلك كما قال الله تعالى ﴿إِذ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصَّلَافَ وَارْفَعْكَ إِلَى﴾^(٢). فلما رُفِعَ خرج أولئك النفر. فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل، وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه. وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه، وتبجحوا بذلك. وسلم لهم طوائف من النصارى بذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ماعداً من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا - كما ظن اليهود - أن المصلوب هو المسيح بن مريم . . . وهذا كله من امتحان الله لعباده، لما له في ذلك من الحكمة البالغة. وقد أوضح الله الأمر وجلاله وبينه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات، فقال تعالى وهو أصدق القائلين . . . : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أى رأوا

(١) روزنة أى فتحة دائرية في سقف البيت. (٢) سورة آل عمران: ٥٥.

سُورَةُ النَّاسِ

شبهه ، فظنوه إياه ، ولهذا قال : ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ يعنى بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلمه إليهم من جهال النصارى كلهم فى شك من ذلك وحيرة وضلال ، ولهذا قال ﴿ وما قتلوه يقينا ﴾ أى وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين « (١) » .

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾

هذه هى القصة كما أوردها ابن كثير، ومعها روايات من طرق أخرى عن قصة صلب المسيح ورفعته إلى الله . والغريب أن نصارى اليوم أو كما يسمون أنفسهم المسيحيين يعتقدون كما كان يعتقد يهود عيسى أنه قتل وصلب ، ويلبسون الصليب ، ويباشرون - إلى اليوم - نسكا غريبة ما أنزل الله بها من سلطان . نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا - اهدنا يارب صراطك المستقيم ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴿١٥٩﴾

قال بعض العلماء ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ أى قبل موت عيسى عليه السلام . فكلهم جميعا يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال فتصير الملل واحدة ، وهى ملة الإسلام الحنيفية .

فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوعَنَّهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

يُبغى الذين ظلموا : كان سبحانه عدلاً فى الأخذ على أيديهم بما ظلموا . حرم عليهم طيبات أحلت لهم ، لأنهم سلكوا غير طريق الحق الذى بُيِّن لهم فى التوراة ، وصدوا الناس عن سبيل الله . وهذه صفاتهم من قديم الزمن إلى الآن .

(١) انظر هذه القصة وروايات أخرى فى تفسير ابن كثير ١- ٥٧٣ وما بعدها .

سُورَةُ النَّسَبِ

وانظر إليهم في هذا العصر تجد أن سياساتهم هي بالضبط كما وصفهم الله بها ، هم ألعن ذرية في الأرض ، لما يارسونه من محاطلات وبذاءات وجهالات .
ذلك أنهم يحتالون بشتى الطرق ، فقد أكلوا الربا بعد أن نهوا عنه ، وأكلوا أموال الناس بالباطل ، ولذا : أعد الله لهم عذابا أليما .

لَنَكِينِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ
سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٢﴾

أما المتمكنون في الدين ، الواثقون بإيمانهم ، الذين لهم قدم راسخة في العلم من أهل الكتاب ، ومع هؤلاء الراسخين في العلم ، المؤمنون بالله واليوم الآخر ، كل هؤلاء أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما .

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ
وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ ﴿١١٣﴾

يقول القرطبي : «نزلت في قوم من اليهود - منهم سُكَيْنٌ وعدى بن زيد - قالوا للنبي ﷺ - ما أوحى الله إلى أحد من بعد موسى ، فكذبهم الله » (١) وأنزل هذه الآية . والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام .
والله سبحانه وتعالى ذكر في القرآن أسماء بعض الأنبياء ولم يذكر فيه البعض الآخر .
وهذه أسماء الأنبياء التي ورد ذكرها في القرآن وهم (آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى وذو الكفل) عند كثير من المفسرين (ثم محمد ﷺ - لذلك يقول الحق :

(١) تفسير القرطبي .

سُورَةُ النَّبَاِ

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾
رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

فهناك رسلٌ لم يذكرهم الله في القرآن لمحمد . ويذكر الله في الآية تشريفه لموسى بكلامه إياه ، ولذلك يقال على سيدنا موسى (كليم الله) وهى صيغة مبالغة فعيل من كلم .

هؤلاء الرسل بعثهم الله يبشرون عباد الله الطائعين المخلصين بالجنة والرضوان ، وينذرون المنافقين الفاسقين ، والكافرين ، وكل من خالف أمره وشرعه ، وبالعقاب والجزاء الأخرى ، وهو نار جهنم ، كى لا يكون هناك لشخص عذر أو حجة .

لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ
وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

إن ربّ العزة يُشهد نفسه - جل علاه - بأنك يا محمد رسول الله ، وأنزل عليك الكتاب بالحق . هذا الكتاب الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ومعه الملائكة وكفى به شهيدا . وكلمة ﴿ أنزله بعلمه ﴾ يقول ابن كثير « أى فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان ، وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضى والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التى لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يُعلمه الله به . كما قال تعالى ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ ^(١) - ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ ^(٢) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٢) سورة طه : ١١٠ .

سُورَةُ النَّبَاِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا
طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

إن الذين كفروا ، وسترنا نعمة الله عليهم ، واتبعوا طرائق الشيطان وأهواءهم ، ولم يتبعوا الحق الذى بيناه لهم ، ورضوا بالكفر والضلال ، وجاهدوا فى سبيل صد غيرهم عن الإيمان والهدى ، بأن سعوا مفسدين فى الأرض ، يغوون الناس ، ويرسمون لهم طريق الغواية والكفر: هؤلاء كفار بآيات الله ورسوله ، ظلموا أنفسهم باتباعهم هذا الطريق ، وارتكبوا أبشع وأنكر الجرائم ، وقد أخبر الله عنهم بأنه لا يغفر لهم ولا يرشدهم إلى طريق إلا طريق جهنم فقط .

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ
تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

وهذا نداء لكل الناس وإعلام بأن محمدا قد جاء من عند ربه بالحق ، فإن آمنتم فذلك هو الخير ، وإن كفرتم فقد أهلكتم أنفسكم ، فسارعوا إلى طريق الإيمان . هذا هو الخير لكم وأنا ربكم وأعلم مصلحتكم . وبعثة محمد إنما كانت إيذانا بأن الله أسبغ على الدنيا نورا جديداً ، يبدد ظلمات الضالين والمغضوب عليهم . فمن قال لا إله إلا الله مسلماً عاملاً بمقتضاها كان له فى الجنة مكان عال . وإن كفرتم فإن الله غنى عن العالمين - سبحانه لا تنفعه عبادة ولا تضره معصية .

السعداء هم أهل طاعته ، والأشقياء هم أهل الكفر به ، وهو سبحانه فيما قضى عليهم حكيم .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ
فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمْ خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ
سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

سُورَةُ النَّبَاِ

ينهى ربُّ العزة - سبحانه وتعالى - أهل الكتاب وخصوصا النصارى عن الغلو في الدين ، والشطح فيه إلى ما لا تحتمله النصوص ، أو البعد تماما عن مرادات الحق من الدين المنزل . فالغلو هو المبالغة ، ومن المبالغة والغلو : الإطراء والثناء المطلق . وهذا موجود في النصارى الضالين الذين ألَّهوا نبيهم عيسى بن مريم . مرة جعلوه شريكا ، وجعلوه ابنا مرة أخرى ، وفي كل ذلك كفر وشرك ، وتجاوز لحدود الأدب والتعامل مع الله ، فظلوا يرفعون من قدر عيسى حتى وضعوه في منزلة أكبر من منزلته ، بل أكثر من ذلك ، حيث قد غالوا في أتباعه وأشياعه حتى جعلوهم من المعصومين ، ولذلك فإن المتتبع لتاريخ أوروبا في العصور الوسطى المظلمة يجد أن هؤلاء المعصومين الذين نصَّبوا أنفسهم حماة للنصرانية وولاءة للشعوب قد ارتكبوا حماقات كنسية كبيرة . منها قتل العلماء وهو ما عرف بمحاربة الكنيسة للعلم ، وصكوك الغفران ومهزلتها المعروفة ، ثم الهيمنة الروحية التي كانوا يخيفون بها الناس ، من أن رضاهم عن فلان هو عين رضا الله سبحانه وتعالى ، وما ترتب على هذه الهيمنة من إلقاء أوامر وإجراء محاكم إلى آخر هذه الأشياء .

نقول إن المتتبع لخط سير هذه العصور الوسطى المظلمة ، يجد أن أوروبا قامت بالثورة على الدين ، وعلى التخلص من موروثاته الحمقاء ، التي أودت بهم في هوة سحيقة من التخلف . ثورة جعلت أوروبا تتمرد على الأديان وتجعل الدين - أى دين - بمعزل تام عن فكرة الثورة ، وفكرة التحضر ، وهمشته جانبا ، وجعلته نسكا يؤدي داخل المعابد فقط ، مما انبثقت عنه «العلمانية» التي مازال العالم كله اليوم يجنى ويلات شراستها وانتشارها .

إذن العيب ليس في الدين المسيحى النصرانى ذاته ، لكن العيب في أتباعه وأصحابه وأشياعه ، الذين حرفوا وانحرفوا ، وبدلوا وادَّعوا أشياء خطيرة ، ما أنزل الله بها من سلطان . ومن الطبيعى أن يكون دين كهذا وبهذه الصورة جديرا بأن تطيح به أوروبا عند قيام ثورتها ، وإن كانت مخطئة في تقديرها للأمور عند القيام بالثورة^(١) .

والحق سبحانه وتعالى ينهى هؤلاء الحمقى عن الغلو في دينهم ، وتصوير مكانة

(١) لمعرفة المزيد من هذا الموضوع اقرأ «جاهلية القرن العشرين» و «مذاهب فكرية معاصرة» للأستاذ محمد قطب .

سُورَةُ النَّسَاءِ

نبيهم ، ويبين لهم أن عيسى بن مريم هو عبدٌ لله ورسوله ، وكلمته - أى أمره - الذى أودعه الله جبريل إلى مريم نافخا فيها لتحمل بعيسى ، فلا تقولوا عنه ثلاثة ، أى : لا تجعلوه شريكا هو وأمه مع الله ، فهو الذى يقول عنه : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ ^(١) - ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ ^(٢) - ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا ﴾ ^(٣) . فلا تزيدوا من إطرائكم عليه .

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

يخاطب الحق جلّ في علاه هذه الفئة ، بل كل الناس ، بأن عيسى ابن مريم لم يستنكف - أى لم يستكبر - ولم يتعال أن يكون عبدا لله ورسوله ، بل قد أرسله الله خصوصا لتوحيد كلمة الله ، وإخراج الناس من عبادة المادة إلى سمو الروح ، وصفاء النفوس ، كما أن الملائكة شرفوا بأن يكونوا عبادا لله ، لا يستنكفون هم الآخرون عن عبادته ، ولأنهم يعلمون أن من يستنكف عن عبادته فقد خسر خسرانا مبينا ، وهم قد شهدوا ضلال إبليس ساعة استنكف عن عبادة ربه ، فأخذ جزاءه ، وهو الطرد من رحمة الله ، ويوم القيامة توزن الأعمال ولا يظلم ربك أحدا .

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ
لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فتعطى لهم حقوقهم من الله كاملة ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾ ^(٤) ويزيدهم فضلا من عنده على حسن أعمالهم ، وكثرة إحسانهم .

(٢) سورة الزخرف : ٥٩ .

(٤) سورة الكهف : ٤٩ .

(١) سورة المائدة : ٧٥ .

(٣) سورة مريم : ٨٨-٨٩ .

سُورَةُ النَّبَاِ

وذلك على العكس من المستنكفين المستكبرين على الله ، فلهم الويل مما يصنعون ،
وحقا قوله : ﴿ إِن الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ^(١) .

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾

ينادى الحق خلقه منها إياهم ، ومفهما لهم ، بأنه قد نزل القرآن على سيد البشر
محمد - ﷺ - وهو برهان منه بأن محمدا نبيه ورسوله ، والقرآن نور تتبينون به طريق الهدى
والفوز بالجنة . فهو صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين . من جعله أمامه قاده إلى
الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار .

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

فهؤلاء في رحمة الله ، لأنهم كما يقول ابن كثير: « جمعوا بين مقامى العبادة والتوكل على
الله » ^(٢) في جميع أمورهم .

فسيرحمهم ربهم ويدخلهم الجنة ويزيدهم ثوابا ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم من
فضله عليهم وإحسانه إليهم . ﴿ ويهديهم إليه صراطا مستقيما ﴾ أى طريقا واضحا
قصداً قواما لا اعوجاج فيه ولا انحراف . وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ؛ فهم في
الدنيا على منهاج الاستقامة ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضى إلى الجنة .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ أَهْلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ
فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا
الْثُلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

(٢) تفسير ابن كثير : ١-٥٩٢ .

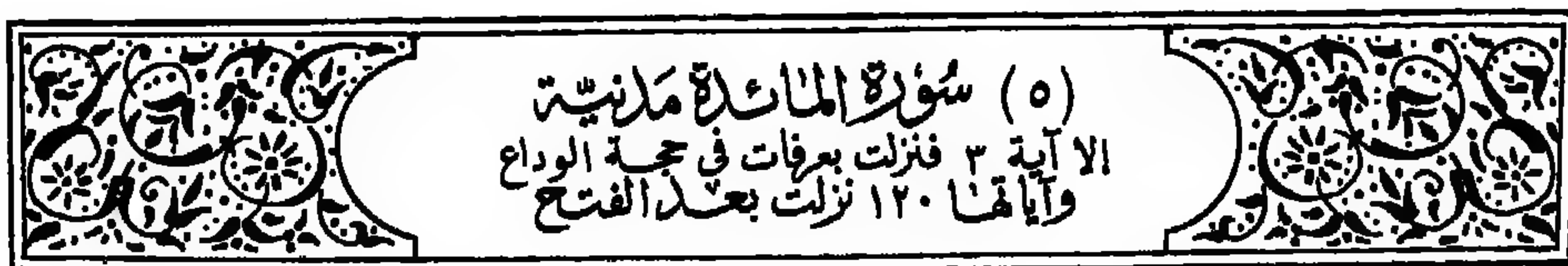
(١) سورة : غافر : ٦٠ .

سُورَةُ النَّسَاءِ

من يرجع إلى أول سورة النساء يجد أن الله تكلم عن الكلاله . وقد تكلم الله عنها مرة أخرى هنا في نهاية السورة . ولذلك يطلق على الآية الأولى آية الشتاء ، وعلى الآية الأخيرة آية الصيف لنزولها في الصيف كما يقول العلماء .

وهنا نلاحظ أن الله تكلم في أول السورة عن أحكام الموارث والأموال ، ثم في نهايتها أيضا ، ولكنه تكلم في وسط السورة عن الفرق المخالفة للدين بعد أن استمتعنا بمناظرة ربانية بينه - سبحانه - وبين هذه الفرق التي فضح الله فيها أمرهم ، وكشف سترهم وخبث نواياهم .

هذه هي حدود الله بينها لكم في شرعه وحكمه ، لكي لا تضل عن رد وإعطاء كل ذي حق حقه . والله بكل شيء قدير وشرعه عليم . وهو عليم بما في نفوس عباده العادلين أو الظالمين من الناس ، وهذا ختام مناسب ينضم إلى أول السورة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ تذكير بأن الله من أول الأمر إلى نهايته عليم بكل شيء علما يتناسب مع قدرته على خلقنا نفسا واحدة . هذا وبالله التوفيق ، والله أعلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ
غَيْرِ مُحْلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

نداء من الحق العزيز الحكيم لخلقه الذين آمنوا أن يفوا إذا باعوا وإذا اشتروا . ومن مقتضيات البيع والشراء إجراء العقود ، ومن شروط العقود التراضى والوفاء بالعهود الموثوقة بينهما . لذا يقول الرسول - ﷺ - : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ^(١) » وفي رواية تكملة للحديث : « فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كذبا وغشا مُحِقَّتْ بركة بيعهما » .

فعلى المؤمن أن يلتزم بما باع أو اشترى إن لم يجد في الآخر مخالفة لشرع الله فيما اتفق عليه . والعقود : العهود . وتشمل العقود أيضا ما أحل الله وحرّم ، فعلى المؤمنين أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام . والمقصود بقوله ﴿ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ الإبل والبقر والغنم .

أما قوله ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ فالمراد بها الميتة والدم ولحم الخنزير وما لم يذكر اسم الله عليه . أى فيما يتلى عليكم سواء الآن أو المستقبل ، وكل ذلك إلا الصيد وأنتم محرمون . وقوله تعالى ﴿ غَيْرِ مُحْلَى الصَّيْدِ ﴾ أى ما كان صيدا فهو حلال في الإحلال دون الإحرام ، وما لم يكن صيدا فهو حلال في الحالين .

يقول الإمام القرطبي : « وهذه الآية الكريمة مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذى بصيرة بالكلام ؛ فإنها تضمنت خمسة أحكام : الأول : الأمر

(١) رواه البخارى - وألفظ له - كتاب « البيوع » باب « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا » . ورواه مسلم كتاب « البيوع » باب « ثبوت خيار المجلس للمتبايعين » . ورواه : أحمد فى مسنده ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بالوفاء بالعقود ؛ الثاني : تحليل بهيمة الأنعام ؛ الثالث : استثناء ما يلي بعد ذلك ؛
الرابع : استثناء حال الإحرام فيما يُضطاد ؛ الخامس : ما تقتضيه الآية من إباحة الصيد
لمن ليس بمحرم^(١) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ
وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَنْبَغُونَ فَضُلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا
وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾

قيل إن الشعائر في الآية : هي مناسك الحج ، وقال آخرون : هي كل محارم الله ،
أى لا تحلوا محارم الله التى حرمها تعالى . ولهذا قال تعالى ﴿ ولا الشهر الحرام ﴾ ، يعنى
بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه .

فقد نهى الله عن القتال في الشهر الحرام ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل
قتال فيه كبير^(٢) ﴾ . والأشهر الحرم في القرآن : أربعة ، ثلاثة متوالية : ذو العقدة وذو
الحجة والمحرم ، وشهر واحد بغيد عنها هو رجب .
ثم نهى الحق عن ترك الإهداء إلى البيت الحرام أثناء الحج ، فإنها من شعائر الله
العظيمة .

والقلائد : جمع قلادة ، وهى التى تشد حول عنق البعير وغيره .
والمعنى لا تتركوا تقليدها في أعناقها لتمييز به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها
هدى إلى الكعبة ، فيجتنبها من يريد بها بسوء وتبعث من يراها على الإتيان بمثل ، كما
يقول ابن كثير^(٣) .

﴿ ولا آمين البيت الحرام ﴾ أى ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذى

(٢) البقرة ٢١٧ .

(١) تفسير القرطبي ٣١ / ٦ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٤ / ٢ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

من دخله كان آمناً ، ولا تحلوا قتل قومٍ قاصدين وجه الله في ذهابهم للحج ، ولزيارة الكعبة ، والطواف بها . فهؤلاء القوم جاءوا يسترضون الله ، ويريدون وجهه . وإذا فرغتم أيها المؤمنون من الإحرام ، وأحللتم منه ، فمباح لكم ما كان محرماً عليكم في أثناء الإحرام .

﴿ ولا يجرمكم شئان قوم أن صدوكم . . . ﴾ إلخ ، يعنى : لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل ، فإن العدل واجب في كل حال . فلا ينبغي - بسبب أن صدكم هؤلاء القوم عن المسجد الحرام يوماً ما فأبغضتموهم لذلك - أن تدفعكم هذه العداوة للاعتداء عليهم ، فتمنعوهم أنتم من الدخول في المسجد الحرام .
وقوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات وهو التقوى ، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم .^(١)

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿الميتة﴾ الحيوان أو الطير الذى مات بغير تذكية - أى ذبح - ﴿والدم﴾ أى السائل النازل من الحيوان أو الطير . ويبدو أن الجاهليين كانوا يشربونه . وأيضاً حرم علينا (لحم الخنزير) وكل متعلقاته ، وقد أثبت البحث العلمى الحديث مدى خبائثة لحم الخنزير . وأيضاً حُرِّم علينا كل ما ذبح ولم يذكر عليه اسم الله ، فهو حرام لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم^(٢) . ﴿والمنخنقة﴾ وهى التى تموت خنقاً ،

(١) ابن كثير ٦/٢ . (٢) تفسير ابن كثير ٨/٢ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

﴿والموقودة﴾ وهى التى تضرب بشئٍ ثَقِيلٍ حتى تموت ؛ لما ورد عن أهل الجاهلية أنهم كانوا يضربونها بعضا حتى تموت . أما ﴿المرتدية﴾ فهى التى تموت هلاكا بوقوعها من مكان عال أو جبل ، ﴿والنطيحة﴾ التى تموت نتيجة عراك بينها وبين أخرى نطحا حتى الموت . ﴿وما أكل السبع﴾ أى وما افترسته الحيوانات المتوحشة كأسد أو نمر أو ثعلب فأكلت منه ثم تركته إلا إذا لحقتموه بسكين فذبحتموه قبل طلوع روحه ، فذلك حلال ، وهذا معنى ﴿إلا ما ذكيتم﴾ . وحرم الحق أيضا ﴿ما ذبح على النصب﴾ ، قال مجاهد : هى حجارة كانت حول الكعبة يذبحون عندها فحرم الله هذا النوع من الذبح ، ثم حَرَّمَ الاستقسام ﴿بالأزلام﴾ ، ومفرد الأزلام : زلم ، والزلم : هو القدح ، والاستقسام بالأزلام هو نوع من ضرب القسمة ^(١) كل ذلك يخبرنا الحق أن فعله فسق وغى وضلالة وجهالة وشرك .

فها هو ذا الشيطان وأولياؤه قد يئسوا من اتباع الذين آمنوا بالحق ، فلا تخافوهم أيها المؤمنون أو تخشوهم واخشون ، فها هى ذى نعمتى وشريعتى أهديها إليكم ، وأصلحت بها شأن دينكم ودنياكم ، ورضيت لكم أن تسلموا الوجه لله غير ساجدين لأحد غيرى .

ومن رحمة الله بنا : أن رخص لنا أن نأكل هذه المحرمات حالة الاضطرار والتعذر ، فالمضطر ليس أمامه سبيل وقد نفدت أمامه كل الأسباب . والمخمصة هى الجوع الشديد وفراغ الأحشاء من الطعام ﴿غير متجانف﴾ أى غير مائل إلى حرام ، والجنف هو الميل .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ
تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ

والطيّبات : المقصود بها كل حلال أريق دمه بذبح شرعى ، ويكون مباحا فى أصله ونوعه . ﴿وما علّمتكم من الجوارح﴾ أى من كلاب الصيد أو أدواته من طير وخلافه ،

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١١/٢ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

فكلوا مما أمسكن عليكم ، ولا تأكلوا مامات ، فذلك يكون محرما . كالمنخقة وغيرها .
ولقد وصى الحق سبحانه وتعالى معاشر المسلمين أن يكون طعامهم مما ذكر اسم الله عليه ، ثم يوصيهم بالتقوى ، فالله سريع الحساب ، فواجب المسلم أن يكون على حذر من نفسه ومن الشيطان .

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ
وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِالْآيَاتِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ يعنى ذبائحهم حلال للمسلمين ، فإن ذبائح أهل الكتاب حلال لنا ، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله .

ثم تكلمت الآية بعد ذلك : عن فضل الله تعالى ورحمته في تشريعه بأن أحل لنا النكاح بالمحصنات المؤمنات والمحصنات من أهل الكتاب ، وبناء عليها يحل زواج المسلم من النصرانية أو اليهودية وليس العكس .

ولكن الأولى : الزواج بالمسلمة حفاظا على سلامة الأسرة المسلمة وصيانتها .

وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ، ولم يروا بذلك بأسا ، أخذا بهذه الآية .

وقوله تعالى ﴿ اذا آتيتموهن أجورهن ﴾ - أى مهورهن - عن طيب نفس وحب .
﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ يقول ابن كثير : ^(١) فكما شرط الإحصان في النساء وهى العفة عن الزنا ، كذلك شرطها في الرجال ، وهو أن يكون الرجل أيضا محصنا عفيفا .
ولهذا قال ﴿ غير مسافحين ﴾ وهم الزناة . ﴿ ولا متخذى أخدان ﴾ وهو الزنا فى السر .

يقول الشعبى : « الزنا ضربان : السفاح وهو الزنا على سبيل الإعلان . واتخاذ

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٢١ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

الخدن وهو الزنا في السر . والله تعالى حرمهما في هذه الآية ، وأباح التمتع بالمرأة على جهة الإحصان وهو التزوج^(١) . والمقصود بالزنا في السر اتخاذ الخليلات والصواحب .
ذلك . . ومن يكفر بالإيمان - فقد كفر بالله لأنه هو رب الإيمان - فقد راح عمله هباءً منثورا .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥﴾

الآية : آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المحدث واجب ، وفي حق المتطهر ندب .

ويستحب : أن يزيد الإنسان في أماكن وضوئه بإتمام العضو المغسول ، وزيادة فوق ما هو مفروض من غسل الوجه واليدين إلى العضد ، والرجلين إلى مافوق الكعبين .
ولذلك يقول الرسول - ﷺ - : إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعله^(٢) .

وغسل الوجه : فرض ، والسنة أن تستنشقوا مع المضمضة بعد غسل الأيدي ، والوجه يجب أن يغسل من منبت الشعر في الرأس إلى أسفل الذقن .

ثم تمسحون برءوسكم إلى الربع أو النصف أو الكل ، فالْمُؤْمِنُ يسعى يوم القيامة نوره في أعضاء الوضوء فيفرق بين أمة محمد وباقي الأمم بهذا النور ، لذلك سمّاهم الرسول الغرّ المحجلين ، ولذلك أثره الكبير في غسل الخطايا والذنوب .

(١) تفسير الرازي ج ١١ ص ١٤٨ .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة كتاب «الوضوء» باب «فضل الوضوء» .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

والجنابة : تأتي بالاحتلام أو الاتصال الجنسي بين الزوجين .

﴿ فاطهروا ﴾ أمرٌ بالاغتسال بالماء .

ويسهل الله علينا دائما ولا يعسر فأباح التيمم عند المرض ، وعند فقد الماء ، توسعة منه علينا ، ورحمة بنا ، لعلنا نشكر نعمه وفضله .

● والقراءة بنصب ﴿ أرجلكم ﴾ تفيد وجوب الغسل كما قاله السلف ، ومن هنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما هو مذهب الجمهور .^(١)

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

إن تشريع الحق لهذا الدين ، وارتضائه لنا ، وإرساله لهذا الرسول ، وما أخذه علينا في عالم الذر من موثيق غلاظٍ على مبايعة واتباع هذا الرسول الأُمى ، كل ذلك فضل ونعمة من الله سبحانه ، تستدعى الشكر له والعمل بمقتضى ذلك الشكر .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

أى كونوا أيها المؤمنون قوامين بالحق لله ، يعنى من أجل الله خالصى النية له ، ومن أجله لا من أجل السمعة والمدح . حتى لاتصبح أعمالكم الصالحة هباءً منثورًا يوم القيامة .

وكونوا شهداء بالعدل ، لا بالظلم والجور .

﴿ ولا يجرمنكم ﴾ يعنى لا يدفعنكم ولا يحملنكم كرهكم لقوم على أن تظلموهم ، فاعدلوا معهم حتى ولو كنتم تبغضونهم ، فالبغض شىء وإقامة العدل شىء آخر . فاستعملوا العدل مع كل الناس أصدقاء كانوا أو أعداء ، فذلك أقرب للخوف والتقوى من الله ، وسيجزىكم الله على عملكم هذا ، لأنه خير بما فى النفوس ، عليم بما يدور فى خلجاتها .

(١) انظر ابن كثير : ٢ / ٢٥ وما بعدها .

سُورَةُ الْبَنَاتِ

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢﴾

إنه تشریف و تکریم لمن ترك طريق المعصية ، و اتبع طريق الطاعة و استقام على صراط الله المستقیم ، طريق الصدق و الأمانة و الحياء من الله و الحب في الله . إن هؤلاء الأخيار مغفرةً و أجراً عظيماً ، أى الجنة التى هى من رحمته على عباده .

ومن عدله - سبحانه و تعالى - و حكمته و حكمه الذى لا يجوز فيه ، أنه يجازى كل واحد حسب عمله ، و لا يستوى الأعمى و البصير فى ذلك ، و من عدله أنه يعاقب الكفار و المكذبين ، الذين هم أصحاب الجحيم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ يَبْسُطُونَ
إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

نداء من الله عز و جل لخلقه الذين آمنوا يعلمهم فيه - و قد منَّ عليهم بالإيمان - بأنه سبحانه البارئ المعطى الوهاب الذى أنعم عليهم بنصره و توفيقه . إذ وفقهم لاتباع رسوله - ﷺ - و التصديق بما أنزل عليه من كلام الله ، و أكرمهم الله بأن جعل لهم الغلبة على أعداء الإسلام ، الذين عادوهم و حاربوهم . و الحمد لله الحفيظ الذى أنعم على نبيه بأن جعل له حفظة من ملائكته ، و كان - ﷺ - بعين الله و حفظه ، فلم يتمكن منه الأعداء حين أرادوا أن يغدروا به ، سواء من اليهود أو من العرب .

وفى الآية : ما يجعل المؤمنين على ثقة دائمة بأن الله معهم ماداموا متمسكين بكتاب الله و سنته - ﷺ - قائمين على الدين ، و بذلك لن يتركهم الله لعدو ، ولكنه هو الحفيظ الذى يدافع عن الذين آمنوا ، و من توكل على الله كفاه الله ما أهمه و حفظه من شر الناس .

❖ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا
وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ
بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ

سُورَةُ الْاِنْتَانَةِ

سَيِّئَاتِكُمْ وَلَادْخِلَنَّكُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ
بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٤﴾

يعرض الله تعالى صورة أخرى عندما أخذ ميثاق بنى إسرائيل ، وجعل منهم نقباء
اثني عشر يتولون الأمر فيهم ، ويبينون لهم أمر الشريعة التي بينها لهم موسى عليه
السلام ، ووعدهم سبحانه : أن يكون معهم ، متوليا أمرهم ، محسنا إليهم ، إن هم
أقاموا الصلاة ، وأخرجوا الزكاة ، وآمنوا بكل رسله ، وأنه سوف يؤتيهم أجرهم ،
ويجزئهم بفضله . كما أُنذِرهم إن كفروا بعد ذلك : أن يعذبهم عذابا شديدا لأنهم قد
ضلوا سواء السبيل .

فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ
الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى
خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

لقد نسى بنو إسرائيل المواثيق التي أخذها الله عليهم ، ونقضوها نقضا شديداً ،
فبسبب ذلك لعنهم الله ، وجعل قلوبهم قاسية بما ظلموا . ونتيجة لذلك : حرفوا كلام
الله عن مواضعه ومراميه وأهدافه ، ولا يزالون على خيانة ونقض لأوامر الحق . فيا محمد
اعف عنهم ، واصفح ، إن الله يحب المحسنين . إن موعدهم يوم لاتضيع فيه الحقوق ،
وسيكون الإنسان فيه رهين عمله ، محاسباً على كل صغيرة وكبيرة .

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

يقول ابن كثير : أى : ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن
مريم عليه السلام وليسوا كذلك أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ
ومناصرتة ومؤازرتة واقتفاء آثاره ، وعلى الإيمان بكل نبى يرسله الله إلى أهل الأرض ،
ففعّلوا كما فعل اليهود : خالفوا المواثيق ونقضوا العهود . . . فألقينا بينهم العداوة

سُورَةُ النُّورِ

والبغضاء لبعضهم بعضا ، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة .
وفي الآية : تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه ، من الكذب على الله
ورسوله ، ومانسبوه إلى الرب عز وجل وتقدس عن قولهم علوا كبيرا من جعلهم له
صاحبة وولدا^(١) .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا
مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ
جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾

يأهل الكتاب قد جاء محمد - ﷺ - بما يهدي به الخلق إلى النور والكتاب المبين ،
يهدى به الله من يستمع إلى محمد فيهدى إلى طريق مستقيم ، وسوف تعرفون ما كنتم
تخفونه من حقائق في توراة موسى عليه السلام .

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

هذا إخبار من الله - سبحانه وتعالى - عن منزلة القرآن العظيم ، الذي نزل على نبيه .
أى إن هذا القرآن هو طريق النجاة ، وهو منهج الاستقامة يخرجكم أيها الناس من
المهالك ، ويوضح لكم أبين وأظهر المسالك ، وينفى عنكم الضلالة ، ويهديكم إلى
الطريق المستقيم . وفي قوله « يهدي به الله » عودة ضمير الواحد على الاثنين يفيد أن
الثاني عين الأول فكأن النور والكتاب شيء واحد وقد اجتمعا في الرسول - ﷺ - لأن
كتاب الله فيه الهدى والنور ورسول الله يدعو به إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه . أهـ .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن
يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٣٣ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَأَمَّا مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

لقد حكم الله تعالى على من قال ذلك بالكفر ، وبين تعالى أن ما قالوه محض افتراء على الله وكذب وبهتان . فما المسيح إلا عبد أنعم الله عليه ، فضرب به المثل الأعلى للخلق على مطلق القدرة .

ثم قال تعالى مخبراً عن قدرته على كل الموجودات ، وأنها تحت قوته وقدرته وسلطانه ، لأنه لو أراد الهلاك للجميع ، فمن يمنعه من ذلك ؟ ومن الذى يستطيع إيقاف قدرته ؟ والله يخلق الموجودات كلها على ظهر الدنيا التى هى ملك له وحده . وهذا فيه رد على النصارى

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

خَوَّفَ رسول الله - ﷺ - قوما من اليهود العقاب فقالوا : لانخاف ؛ فإننا أبناء الله وأحباؤه ، فنزلت الآية : وهذا من مواضع افتراءهم وتحريفهم الكلم عن مواضعه : فلو كنتم كما تدعون أنكم أبناء الله وأحباؤه : فلماذا أعد الله لكم نارا على كذبكم وافتراءكم ؟ ولم يعذبكم الله بذنوبكم إن كنتم صادقين فى ذلك ؟

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

إن هذه الآية لا تترك للذين لم يؤمنوا بمحمد حجة يحتجون بها ، فقد أقام الله حجته على عباده برسالة محمد ، فدعاهم إلى الإيمان ، فهو البشير النذير ، يبشر بالجنة ، وينذر بالنار ، ويهذى إلى صراط مستقيم ، وليست للعباد حجة يعتذرون بها أمام الله - سبحانه وتعالى - ومعنى (على فترة من الرسل) أى بعد مدة طويلة ما بين إرساله وما بين عيسى بن مريم .

سُورَةُ الْمُنَاذِرَةِ

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا أَدْعُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ
وَجَعَلَ لَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٤٠﴾

وكان الحق يقول لنبيه محمد - ﷺ - يا محمد لا تبتس من مخالفة اليهود لك ، وذكرهم
بما أنعمنا عليهم به على يد عبدنا موسى عليه السلام ، وقل لهم هل تعاملونني بالسوء ،
وإنكار الحق الذي جئت به إلا كما عاملتم نبيكم موسى ؟ !

وكان الرجل في بنى إسرائيل إذا ملك داراً أو زوجة ومعاشا يسمى « ملكا » ويعنى
ذلك أنه ليس في حاجة إلى أن يسأل غيره .

وفي هذا الكلام تسلية لمحمد - ﷺ - كذلك .

يَتَقَوَّمُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا
خَاسِرِينَ ﴿٤١﴾

يأمر الله تعالى اليهود أن يدخلوا الأرض المقدسة ، التي وعدهم الله إياها على لسان
أبيهم إسرائيل ، ولكنهم يأبون النزول على أمر الله تعالى وطاعته ، إذ اعتدروا بأن في هذه
البلاد قوما جبارين لا يقدرّون على مقاومتهم :

قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ خَلْهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن
يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٤٢﴾

ولو أطاعوا موسى لنصرهم الله ، ولكن اليهود اعتادوا دائما التمرد على الحق ،
والخروج على أمر الله ، وكذلك دائما يفعلون . وها هو ذا تاريخهم لا يزال تؤصله
الأحداث في هذا العصر ، التي إن دلت على شيء فإنما تدل على أنهم مجبولون على ذاك
التمرد ، وهذا العناد اللثيم الأزلى فيهم منذ خلقوا إلى يوم القيامة .

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنِعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا
دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

عند نكوص بنى إسرائيل عن طاعة موسى قال رجلان من أسباط بنى إسرائيل :

سُورَةُ الْاِنشَاءِ

﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾
ولكنّ بنى إسرائيل أصروا على معصية موسى ولم يستمعوا لنصح الرجلين ، بل فى صلفٍ وكبرياء :

قَالُوايَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا
إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾

وهذا موقف لبنى إسرائيل يدينهم ، ويقرر أنهم دائماً فى صلفهم يفترون ، وعلى الحق يتعالون .

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾
أى لا أحد يطيعنى منهم ، فافرق بيننا يارب وبينهم لأنى لا أملك إلا نفسى وأخى .
قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

يستجيب الله - سبحانه وتعالى - لدعوة هذا النبى الكريم المرسل موسى عليه السلام
على قومه ، فعاقبهم بالتيه فى الأرض أربعين سنة .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ
يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

خلق الله - سبحانه وتعالى - آدم ، وخلق زوجه حواء من ضلعه ، لتبدأ البشرية سيرها
بالرجل والمرأة معا ، واللذين بهما تتكاثر الأبناء ، وتستمر البشرية .
وكان لابد من قانون - أى شريعة - ترسم كيف تبدأ خطاهما على الأرض فى تكاثر
شرعى بقانون إلهى . وصارت سفينة البشرية الأولى بأحفادهما وأبنائهما مسيرة السلامة
والطاعة ، بينما كان الشيطان اللعين يرقب المسيرة الهادئة المهدية بنور الله وطاعته ،
وهو يدبر فى حقد غليظ وحسدٍ أسود كيف وبم يوسوس لهما ، فيعكر مجرى الحياة ،
ويعوّق المسيرة المهدية الهادئة .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

ويبين - سبحانه وتعالى - وخيم عاقبة الحسد والبغى والظلم في سيرة ابنى آدم ، وهما قابيل وهابيل ، وكيف تعدى الأول على الثانى ، فقتله بغير حق لما وهبه الله من النعمة والفضل العظيم .

يقول ابن كثير « أى اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة ، إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم ، خبر ابنى آدم وهما قابيل وهابيل » (١) .

وفيها « التنبيه من الله تعالى على أن ظلم اليهود ، ونقضهم المواثيق والعهود ، كظلم ابن آدم لأخيه . والمعنى : إنهم هؤلاء اليهود بالفتك بك يا محمد ، فقد قتلوا قبلك الأنبياء ، وقتل قابيل هابيل ، فالشر قديم . أى ذكرهم بهذه القصة فهى قصة صدق . . . وفى ذلك تبيكت لمن خالف الإسلام ، وتسلية للنبي - ﷺ - » (٢) .

وقد وردت فى قصة قابيل وهابيل روايات كثيرة لانستطيع أن نحصرها كلها فى هذا الموضوع . ومن أراد التوسع فعليه بالمطولات .

لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِنَقُتْلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾

يقول له أخوه : لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله ، بل أصبر واحتسب ، ولكن قابيل لم يرتدع ، وقتل أخاه ، وتلوثت الأرض بأول دم أريق ظلماً وغدراً من الإنسان لأخيه الإنسان وتوأمه .

وكان درساً خالداً يحكيه ركب البشرية للعظة وللترية والإنشاء والتكوين . بعيداً عن العدوان على أمر الله .

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاُ
الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول الإمام القرطبي : « قيل معناه هو معنى حديث « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل يارسول الله : هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه

(٢) تفسير القرطبي ١٣٣/٦ .

(١) تفسير ابن كثير ٤١/٢ .

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

كان حريصا على قتل صاحبه»^(١) . وكان هابيل أراد أن يقول : إني لست بحريص على قتلك ؛ فالإثم الذى كان يلحقنى لو كنت حريصا على قتلك أريد أن تحمله أنت مع إثمك فى قتلى .

« وقيل المعنى ﴿ياثمى﴾ الذى يختص بى فيما فرطت ؛ أى يؤخذ من سيئاتى فتطرح عليك بسبب ظلمك لى ، وتبوء بإثمك فى قتلى»^(٢) .

وعلى الرغم من ذلك ، سولت له نفسه قتل أخيه ، فقتله بعد هذه الموعظة وهذا الزجر :

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾

أى فى الدنيا والآخرة . واحتار قابيل بعد ذلك كيف يوارى سوءة أخيه ؟

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُكَذِّبُ بِأَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ

النَّدَامِينَ ﴿٣١﴾

يقول الرازى : « قيل : لما قتله تركه لايدرى مايصنع به ، ثم خاف عليه السباع فحمله فى جراب على ظهره ، حتى تغير ، فبعث الله غرابا . (وكان هذا الغراب فى عراك مع غراب آخر فقتله) . . . فحفر له بمنقاره ورجليه ، ثم ألقاه فى الحفرة . فتعلم قابيل ذلك من الغراب »^(٣) .

وانصرف قابيل كالمعتوه خاسرا الدنيا والآخرة ، وأى خسارة أعظم من هذه ؟!

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ
أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا
أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

(٢) تفسير الرازى ٢٠٩/١١ .

(١) تفسير القرطبي ١٣٧/٥ .

(٣) رواه البخارى كتاب « الإيمان » باب « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . . إلخ » . ورواه مسلم كتاب « الفتن » باب « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما » .

سُورَةُ الْمُنَاذِرَةِ

من أجل قتل ابن آدم أخاه بغيا وظلما وعدوانا ، شرعنا لهؤلاء اليهود وأعلمناهم أن من قتل نفسا بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض ، وحلل لنفسه قتلها بلا أسباب ، فكأنما قتل كل الناس ، لأن الله سبحانه لا فرق عنده بين نفس ونفس . ولقد جاءتهم رسل الله بالشرائع ، والبراهين ، والحجج الواضحة ، والدلائل البينة . وبرغم ذلك ، يفسد كثير منهم في الأرض ، ويسرف في القتل .

وهذا تقريع من الله لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها .

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

هذه الآية في قطاع الطريق ، والذين يشيعون في الأرض الفساد ، بتفريع الناس ، عن طريق نهب أموالهم ، وقتل الأنفس بغير حق ، إلى غير ذلك من صور نشر الإرهاب ، والفساد .

قال فريق من العلماء إن (أو) في الآية للتخيير ، أى للحاكم اختياره الحر في فرض أى من هذه العقوبات .

ولكن ابن عباس يقول في رواية عطاء : « كلمة « أو » ههنا ليست للتخيير ، بل هي لبيان أن الأحكام تختلف باختلاف الجنايات ، فمن اقتصر على القتل قُتل ، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب ، ومن اقتصر على أخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف . ومن أخاف السبل ولم يأخذ المال نفى من الأرض » ^(١) .

وفي الآيات استثناء الذين تابوا من قبل القدرة عليهم من تنفيذ هذه الأحكام . أى سقطت عنهم الحدود وأخذوا بالحقوق ، فلا يسقط عنهم ولا عن غيرهم بالتوبة قود

(١) تفسير الرازي ١١ / ٢١٥ .

سُورَةُ الْمُنَاذِرَةِ

ولأمال ولا باقى الحدود من حد زنا وسرقه وشرب خمر وقذف ؛ لأن العمومات الواردة فيها لم تفصل بين ما قبل التوبة وما بعدها . والمعنى « أن ما يتعلق من تلك الأحكام بحقوق الله تعالى ، فإنه يسقط بعد هذه التوبة ؛ وما يتعلق منها بحقوق الأدميين ، فإنه لا يسقط » (١) .

فاعلموا أيها الناس أن الله غفور ، للتائبين الذين يرجعون ولا يفعلون مثل هذه الآثام ، رحيم بعباده ، يقدر لهم الأحكام العادلة ولا يظلم ريبك أحدا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾

يأيها الذين آمنوا خافوا لقاءه وحسابه ، واعملوا بما أمركم به ، وانتهوا عما نهاكم عنه وحذركم منه ، تفوزوا برضاه ورضوانه ، ويغفر لكم ذنوبكم .
﴿الوسيلة﴾ درجة عند الله .

قال - ﷺ - من قال حين يسمع النداء (أى الأذان) اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمد أ الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » (٢) .

ويقول - ﷺ - إذا سمعتم الأذان فقولوا مثل ما يقول المؤذن ، ثم صلّوا علىّ فإنه من صلّى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة ، لا تكون إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، ومن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » (٣) .

وقال ابن عباس الوسيلة : أى القرية .

وقال قتادة : أى تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ

(١) تفسير الرازى : ١١ / ٢١٧ . (٢) رواه البخارى كتاب « الأذان » باب « الدعاء عند النداء » .

(٣) رواه : الإمام أحمد فى مسنده ، و الإمام مسلم ، وأبوداود ، والترمذى : كتاب المناقب ، باب « فى فضل النبى ﷺ » - وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى فى سننه .

سُورَةُ الْمُنَاذِرَةِ

مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَعَذَابُ الْيَمِّ ۖ يُرِيدُونَ أَنْ
يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۖ

وتنتقل بنا الآيات من ظلال أنوار الوسيلة والجهاد إلى الحديث عن عالم مظلم بغض
إلى الذين لم يؤمنوا بمحمد - ﷺ - ولم يؤمنوا بكتابه، وحاربوا الله ورسوله ، وعبدوا،
الدنيا وزينتها ، فخرجوا منها عرايا ، لا يملكون لإعارة المعصية ، وذلل المساءلة ، يود
الواحد منهم أن يفتدى نفسه بأمه وبنيه ، وصاحبه (امرأته) وأخيه ، وكل ما يملك
وبكل ما في الأرض ، ومن فيها ، ولكن هيهات هيهات يريدون أن يخرجوا من النار
ولكنهم ليسوا بخارجين ، وهم سجناء أعمالهم في عرصات جهنم ، خالدين فيها أبدا .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۖ

ولما كانت خيانة النفس والمال من أقبح الخصال ، فقد جعل الله العقاب عليها
شديدا .

وخيانة النفس ألا يهذبها صاحبها ، ولا يربيهها على الصدق والأمانة في الكلمة ، وفي
الأخلاق ، والستر على الناس .

أما الخيانة في المال : فهي السرقة ، وإنكار الأمانة وتبديدها .

ومن هنا يقول الحق هذه الآية حاكما وأمرًا بقطع يد السارق والساqrقة . ثم قال تعالى :

فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۖ

أى من تاب بعد سرقة ورجع إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، بشرط : أن
ترد أموال الناس إليهم .

وهنا يفرض سؤال نفسه : إذا تاب السارق قبل القطع تاب الله عليه فهل يسقط عنه

الحد ؟

يذكر الرازى أن بعض العلماء التابعين قالوا : يسقط عنه الحد لأن ذكر الله بأنه

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

الغفور الرحيم في نهاية الآية يدل على سقوط الحد عنه . وقال الجمهور : لا يسقط عنه هذا الحد بل يقام عليه على سبيل الامتحان^(١) .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

سبحانك ياربنا نعلم أنك أنت المالك لجميع ذلك ، وأنت أنت الحاكم المدبر ، لامعقب لحكمك ، وأنت الفعّال لما تريد ﴿١﴾ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴿٢﴾ .

﴿١﴾ يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمِعُوا لِلْكَذِبِ سَمْعًا لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِتُورٍ وَلَا بِإِنْجِيلٍ وَلَا بِمُؤَاتَاةٍ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾

يخاطب الله - سبحانه وتعالى - رسوله محمداً - ﷺ - ليعلمه أن اليهود قوم ظالمون ، لا يخافون الله ، ولكنهم يراءون الناس ، لا يستمعون إلى الله ، ولكنهم يستمعون إلى شياطين الجن والإنس ، الضالين عن أمر الله ، الكافرين المترصدين للمؤمنين ، ليصرفوا عن الله عباده .

يقول ابن كثير : : نزلت هذه الآيات الكريهات في المسارعين في الكفر ، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل . . . فإن هؤلاء المسارعين بالكفر أظهروا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وهؤلاء هم المنافقون ﴿١﴾ ومن الذين هادوا ﴿٢﴾ أعداء الإسلام ، وهؤلاء كلهم ﴿٣﴾ سماعون للكذب ﴿٤﴾ أي مستجيبون له

(١) تفسير الرازي ١١ / ٢٣٠ .

(٢) آل عمران ٢٦ .

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

منفعلون عنه ، ويستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد ^(١) .
وهؤلاء لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من أدناسها ، فلهم خزي وعار في الدنيا ، أما في
الآخرة فلهم عذاب عظيم .

سَمِعُوا لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ
عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ
بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾

هذه الفئة يا محمد ساعة للكذب ، أكالة للسحت ، يأكلون حراما ، ويقولون
حراما . فإذا طلبوا منك أن تحكم بينهم ، فأنت بخيارك أن تحكم أو لا تحكم ،
واحذرهم أن يفتنوك ، فهم لا يريدون لك ولا لأمتك الخير .
وإن حكمت : فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين .
والسحت في الآية هو الحرام ، وهو الرشوة كما قال ابن مسعود ، ومن كانت هذه
صفته فكيف يطهر الله قلبه ، وكيف تستجاب له الدعوات ؟

وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

إنكار عليهم في آرائهم الفاسدة ، وأهدافهم الخبيثة ، لأنهم تركوا ما يعتقدون صحته
من الكتاب ، وحرفوه عن موضعه ، وخرجوا عن حكمه ، وعدلوا إلى غيره .

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ
هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ
شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَالَّذِينَ يَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ
لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

كما أنزلنا إليك القرآن لتهتدى به البشرية على يدك ، فقد أنزلنا على موسى التوراة
ليتهتدى بها اليهود ، فيتبعون موسى ، ولكنهم باءوا بغضب من الله ، فعصوا موسى ،

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٨ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وخالفوا هارون ، وقتلوا أنبياءهم ، ولم يحكموا بالتوراة كما أمروا وضلُّوا وأضلُّوا .
وفي هذه الآية : يندد الله بالذين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا . والثلثون القليل هو الدنيا هؤلاء لا يحكمون بما أنزل الله ، ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ، أى ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فتركه عمداً ، أو جار وهو يعلم ، فهو من الكافرين .

وهنا لنا وقفة مع أمتنا أمة الإسلام : إذا كان الله قد حكم على بنى إسرائيل بالكفر عندما هجروا حكمه الذى أنزله فى كتابه ، فماذا مع أمة الإسلام عندما لا تحكم بالقرآن ؟! والله - سبحانه وتعالى - يقول : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ؟! أو بعدها بقليل يقول ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ وبعدها بقليل ﴿ الفاسقون ﴾ . وإن كانت الآيات قد نزلت سياقاً فى أهل الكتاب ، فهل نحن لأنسأل عندما نحكم بغير ما أنزل الله ؟!

إن الفهم السليم يقرر أن الحق الواجب اعتقاده هو ما كان عليه الرسول - ﷺ - وخلفاؤه ، لأن أهل الإسلام أشد إدانة عندما يهجرون كتاب الله ويحكمون بحكم الطاغوت .

إنها قضية المسلمين اليوم : كيف تستقر أمور الحاكمين فينا ، وهم يهجرون كتاب الله والحكم به . . ؟

قال الامام القرطبي : نزلت كلها فى الكفار ^(١) .

وقال البراء بن عازب وابن عباس والحسن البصرى وغيرهم : « نزلت فى أهل الكتاب وهى علينا واجبة » ، وقال عبد الرزاق عن إبراهيم قال : « نزلت هذه الآيات فى بنى إسرائيل ورضى الله لهذه الأمة بها » ^(٢) .

وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ
وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ
فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٥﴾

(٢) انظر : ابن كثير ٢ / ٦١ .

(١) انظر : القرطبي ٦ / ١٩٠ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وهذا أيضا مما وبخت به اليهود ، وقرعوا عليه ، فإن عندهم في التوراة أن النفس بالنفس وهم يخالفون ذلك عمداً وعناداً . ويبين الحق - سبحانه وتعالى - أن من قتل نفسا فيها يقتل ، ومن فقأ عينا فيها تفقأ عينه ، ومن جدد أنفا فيها تجدد أنفه ، ومن خلع سنا فيها تخلع سنه ، وأن الجرح بالجرح .

فمن عفا عمن أذاه : فعفوه له عند الله وله به أجر .

كما يبين أن الذين يتعدون على قرارات الله وأحكامه فيحكمون بغيرها : ظالمون ؛ لعدم تسليمهم بالحاكمية لله - سبحانه وتعالى - .

فالمسلم الذي لا يحتكم إلى كتاب الله ظالم لنفسه ، ويوصف بالكفر - أى كفر بالأمر - وهل الشر والكفر إلا معصية ؟ فالكفر والظلم والفسق في الآيات واحد . وقيل : الكفر يتعلق بالأمور العقائدية ، والفسق يتعلق بالعبادات ، أما الظلم فيتعلق بالمعاملات . لذلك كان الفاسق والظالم في دائرة الإيمان ، خلافاً للكافر فإنه قد خرج منها . وقد وصفهم الله بأنهم ظالمون : لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله به بالعدل والتسوية .

يقول - ﷺ - : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . فقالوا يا رسول الله : هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : تأخذ فوق يديه »^(١) .

وعن عبادة بن الصامت قال : مامن رجل يخرج من جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به .

ومن عفا عن أخيه ، أو صفح عنه ، فهذا الصفح وهذا التصديق كفارة لتلك الذنوب .

وَقَفَيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾

وجئنا بعيسى بن مريم على آثار النبيين الذين أسلموا ، مصدقا بالتوراة التي وجدها

(١) رواه البخارى كتاب « المظالم » باب « أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً » . وكذا رواه : الإمام أحمد في مسنده ، والترمذى في سننه .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وحكم بما فيها ، وآتيناه الإنجيل ، فيه هدى ونور ، كما للتوراة هدى ونور
 بهما في محو الشبهات ، والقضاء على مشكلات زمانهم .
 وقد قرر الحق هنا أنه من أصول مهمة عيسى بن مريم - عليه السلام -
 لبنى إسرائيل مسيرتهم المنحرفة عن تعاليم الله ، فهو كما يعلم بالإنجيل يعلم
 والحلال والحرام في شريعة التوراة هو الحلال والحرام في شريعة الإنجيل ، و
 التوراة يحكمون بما أنزل فيها ، فكذلك أهل الإنجيل يحكمون بما أنزل لهم في
 لذلك يأمرهم الحق قائلا :

وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَ
 هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

اللام في ﴿ وليحكم ﴾ لام الأمر ، أى ليؤمنوا بجميع ما فيه ، ﴿ الف
 الخارجون عن طاعة مولاهم ، التاركون للحق . وقد تقدم أن هذه الآيات
 النصارى ، وهو ظاهر من السياق ، ولكن القاعدة الفقهية « أن العبرة بع
 لا بخصوص السبب » .

نسأل الله أن يعين حكامنا على الحكم بما أنزل الله حتى نعلنها عالية « لا إله

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ
 عَلَيْهِ قَاحُكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ
 لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
 لَيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ اتِّكُمُ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيهِ
 بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

إنما أنزلنا كتبنا من قبلك يا محمد على الأنبياء ، فبشروا وأنذروا ، وجاهد
 ما استطاعوا ، وأنعمنا عليك ، فاحكم بين أمتك التى اتبعتك ، وصدقت با
 أنزلنا فيه ، وبين لهم أن القرآن مهيمن على كل الكتب السابقة ، إذ هو أمين
 على ما قبله من الكتب ، بما حمل من الحق .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

والقرآن هو الدليل على أن التوراة والإنجيل من عند الله ، وليس لدى اليهود والنصارى من يشهد للتوراة والإنجيل غيره . فمن لم يؤمن به فقد أهلك نفسه .

فلا تتبع أهواءهم يا محمد ، ولا تمس وراء رغباتهم ، إنهم يريدون هلاكك ، وهلاك أمتك . هم لهم شرائع ومناهج في كتابهم ، وأنت لك شريعتك ومنهجك في كتابك . لا تتبع منهج اليهود أو النصارى الذي نُسخ بالقرآن ، ولن يُقبل منهم ، وسيأتون إلى الآخرة خاسرين ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ ولكن شاء أن يبلوكم ليجزى من ينجح في اختباره أجرا عظيما ، ويوم القيامة الذي لا ريب فيه آتٍ لا محالة ، وساعتها سيحكم بينكم فيما اختلفتم فيه . والفوز الكبير يومها لمن آمن بكل رسله ، ولم يفرق بينهم ، واحتكم إلى القرآن ، ورضى حكمه . ويوم القيامة : موعدا جميعا لتبأ كل نفس بما عملت وبما كنا فيه نختلف .

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾

إعادة وتأكيد لقرارات الله السابقة وتأكيد لنهيه بالاتباع أهواء اليهود والنصارى في الحكم بغير ما أنزل الله .

واحذر يا محمد أن يفتنوك عن بعض أحكام الله أو مقرراته في قرآنه الحكيم . فإن أعرضوا عنك ولم يسمعوا كلامك ، فاعلم أنها أراد الله أن يعاقبهم ببعض ذنوبهم . واعلم يا محمد أن كثيرا من الناس فاسقون ، خارجون عن طاعة مولاهم ، مفارقون للحق ؛ فلا تبتس عليهم ، ولا تحزن ، فعند الله العاقبة . وجلّ قول الحق ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ ^(١) ويقول تعالى ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ ^(٢) .

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

(٢) الأنعام ١١٦ .

(١) يوسف ١٠٣ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

أى يبتغون ويريدون العدول عن الإسلام ، والحكم بغير القرآن . ولم يقل المولى أفحكم الجاهلية يحبون أو يريدون أو غير ذلك من الألفاظ . وإنما جاء بكلمة يبتغون - وهى من البغى والظلم - وراء المنكر يفعلونه وهو حكمهم بالجاهلية لذلك قال : ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ ؟

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥١﴾

يحذرنا الله - سبحانه وتعالى - أن نتخذ اليهود والنصارى أولياء ، فمهما عدلنا فيهم حسب شريعتنا ، فإنهم لا يصدقوننا ، ولا يأمنون لنا ، اللهم إلا قليلاً منهم ، وهذا القليل من الخطر أن يكون المرجع إليه فى تحمل مستقبل الأمم .
ويُعلمنا الله أن اليهود والنصارى يتولى بعضهم بعضاً . ولكن عندما يكون الأمر للمسلمين فإنه يصعب عليهم أن يكون ولاؤهم للمسلمين صادقاً .
ولذلك وجب على المسلمين الحذر والحيلة حتى لا يُخدعوا بالكلمة السهلة المغلفة بالمخادعة ، لأن قلوبهم سليمة على عكس أولئك .
والذين يسارعون فى صحبة الكافرين من اليهود والنصارى وكل أهل الضلال المحاربين لله وللرسول لن يتقبل الله معذرتهم ، عن موالاتهم هؤلاء الضالين ، والمغضوب عليهم .

وها هو ذا الحق - سبحانه وتعالى - يقول : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ﴾ ^(٢) .

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ٥٢﴾

وهناك فئة من الناس يبادرون إلى موالة ومودة النصارى واليهود ، ويتذرعون فى ذلك بحجج واهية ، منها : أنهم يخافون أن تدور الدوائر على المسلمين يوماً ما وبذلك يأمنون شرهم ساعتها ، لأنهم كانوا موالين لدولتهم . إلى غير ذلك مما يستحدث فى

(٢) آية ١١٨ سورة آل عمران .

(١) آية ٢٨ سورة آل عمران .

سُورَةُ الْبَنَاتِ

هذه العصور من موالاة هؤلاء وهؤلاء والصداقة معهم ، على صور مختلفة من تطبيع العلاقات ، وتغليب المصالح ، والتبادل السلعي ، بل الفكرى أحيانا . كل ذلك داخل في عموم لفظ الآية .

والفتح في الآية الكريمة هو فتح مكة ، وقيل هو القضاء والفصل . أما أو أمر من عنده ﴿ قال السدى : يعنى ضرب الجزية وفرضها على اليهود والنصارى ، وساعتها يندم الذين والوا اليهود والنصارى على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئا ، ولادفع عنهم محذورا ، بل كان عين المفسدة . فبدلاً من خشيتهم أن تدور الدائرة عليهم من انتصار الكفار على المسلمين ، فسوف تدور عليهم أيضا عندما يُذل الكفار ، وتفرض على اليهود والنصارى الجزية ، فهم في الحالتين خاسرون ، لأنهم قدّروا واحتملوا طريقا واحدا ولم يقدرُوا الطرفين ، وهو نفاق وجبن صريحان .

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾

يتعجب المؤمنون من حال المنافقين عندما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى وقالوا : إنهم يقسمون بالله جهد أيمانهم : «إنهم معنا ومن أنصارنا ، فالآن كيف صاروا موالين لأعدائنا محبين للاختلاط والاعتضاد بهم ؟» (١) .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

تهديد من الله ووعيد بأن الذين آمنوا ثم خانوا الله ، فارتدوا على أدبارهم إلى الكفر ، قد خسروا الدنيا والآخرة ، ولن يضرُوا الله ولا رسوله ولا المؤمنين شيئا . وهو سبحانه قادر على أن يستبدل بمن يرتد عن دينه ويخونه قوما آخرين ، لا يمنعهم عن عبادة الله شيء ، بل هم خيرٌ منهم ، وأشد منعة وأقوم طريقا . يكون الواحد منهم

(١) تفسير الرازى ١٢ / ١٨ .

سُورَةُ الْمُنَافِقَاتِ

«متواضعا لأخيه ووليه ، متعزلاً على خصمه وعدوه» ^(١) . كما قال الحق ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ ^(٢) .

فالله - سبحانه وتعالى - قادر على الإتيان بمثل هؤلاء يحبونه ويحبهم ، يرجون عفوه ونصره ، يحاربون أعداءه ، لا يخافون إلا الله ، يجاهدون بأنفسهم وأموالهم وأولادهم في سبيله . هؤلاء عباد الله الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا يردنهم عن طاعة الله مخلوق على ظهر الأرض . .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾

يبين الله - سبحانه وتعالى - للمؤمنين أن وليهم الله ، ومن كان الله وليه فقد ملك الدنيا والآخرة . وتعلموا يا أهل الإسلام أن الله وليُّ الذين آمنوا بمحمد وبالكتاب الذي أنزل عليه ، الذين أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وحجوا بيت الله إن استطاعوا ، وصاموا شهرهم . والذين هم على صلة بالله دائمة ، فقلوبهم وضائرتهم ومشاعرهم وكل مواجيدهم في خشوع مستمر بين يدي الله ، يراقبونه في السر والعلن .

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾

ذلك أن كل من رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين ، فهو مفلح ومنصور في الدنيا والآخرة ، ومن بعد عن طريق الله ، فإنه خاسر دنياه وآخرته . وليعلم أن طريق الله هو الصحيح ، وسبحان من لا تخفى عليه خافية في الأرض أو في السماء . اللهم اجعلنا من حزب الله المفلح ، و ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴿

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٧٠ . (٢) الفتح ٢٩ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

شرائع الإسلام المطهرة المحكمة هزواً ولعباً . والآية نداء للذين آمنوا يحذرهم الله به من كيد الكفار والمنافقين ، الذين يتخذون دين الله - أى الإسلام - ليهزؤوا به ، ويتركوا الالتزام به واتباع أوامره واجتناب نواهيه . هؤلاء منافقون من المسلمين ، وجماعة من الكفار أهل الكتاب ، وكذلك الذين لا يؤمنون بأى دين ، وهم فى عصرنا كثيرون ، ومنهم : الذين يحكمون بالطاغوت ويهجرون كتاب الله ، وإن كانوا يتلونونه فهم يعطلون أحكامه وتعاليمه . فالعبرة بالاتباع والالتزام بمقتضى شرع الله . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون الفاسقون .

فاتقوا الله أيها الناس ولا تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين حقاً بشرع الله وبالدين الإسلامى الحنيف .

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

وكذلك من خصال هؤلاء الخاسرين ، أنهم إذا سمعوا الأذان داعياً إلى الصلاة ، أظلمت قلوبهم ووجوههم ، وملاهم الغيظ وصاروا يهزءون بالحق وندائه ، لعنة الله عليهم .

قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّا أَكْثَرُكُمْ فَنَسِقُونَ ﴿٥٩﴾

أى قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب : هل لكم علينا مطعن أو عيب ؟ إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة . هل ترفضون أن تؤمنوا بالله ، وبما أنزل علينا من عنده سبحانه ؟ أو لم ينزل على موسى من قبل وكذلك على عيسى ؟ ! ألم تعلموا - وتكتموا الحق الذى تعرفونه - بأن الذى أوحى إلى محمد هو الله الواحد الأحد ، الذى أنزل على موسى التوراة وعلى عيسى الإنجيل ؟ إنكم تعلمون ذلك ولكن فى فطرتكم الكذب على الله وعلى رسوله ، وأنتم تعلمون أن عيسى عبد الله ورسوله فلم تنكروا ؟ وتعلمون أن محمداً عبد الله ورسوله فلم تنكروا ؟ إن يوم القيامة لآت !! ويومها سوف تحذلون ، ولن يغنى عنكم ما تمكرون ، وستكونون فى شر مكان ، وأضل طريق ، لاسبيل لكم إلا النار تستغيثون

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

فيها فلا مغيث لكم ! فلم تنقمون من هذا الدين ؟ أى تنكرونه ، وما الذى تجدون فيه
بما يجعلكم تتخذونه هزوا ولعبا ؟

قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ
الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦﴾

أى هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنون به بنا ؟ وهم أنتم الذين هم
متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله ﴿ من لعنه الله ﴾ أى أبعده من رحمته ﴿ وغضب ﴾ عليه
أى غضبا لا يرضى بعده أبدا ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ (١) . يقول أهل
التفسير : القردة يعنى أصحاب السبت ، أما الخنازير فالمقصود بهم كفار مائدة
عيسى . وقيل إن عبدة الطاغوت هم أصحاب العجل ، وقيل الطاغوت الأحبار ، وكل
من أطاع أحدا فى معصية الله فقد عبده . ﴿ أولئك شرٌّ مكانا ﴾ أى أولئك الملعونون
المسوخون شرٌّ مكانا ، لأن مكانهم النار ، وأما المؤمنون : فلا شر فى مكانهم (٢) .

وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا
يَكْتُمُونَ ﴿٧﴾

إن من خصال اليهود وطبيعتهم الهابطة فى حضيض الفسق أنهم جاءوا إلى أهل
الإسلام وأهل الحق يقولون آمنا ، ويدعون التصديق بالله وكتبه ورسله ، ولكنهم
كذابون مخادعون ، فهم كما دخلوا على أهل الإيمان مخادعين ، خرجوا وهم على
خداعهم ، مصرين على باطلهم وكفرهم بالله وبرسوله ، والله أعلم بما فى صدورهم
وبما يكتُمون من الحق ، ليظلوا عبداً للدين ، يخنزنونها ، وهم لا يسارعون لخير
أبدا . ولكنهم منغمسون فى ظلمات العدوان . لبئس ما كانوا يعملون . فهذه هى صفة
المنافقين يصانعون المؤمنين فى الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر .

وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي آلَائِهِمُ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

(٢) انظر : القرطبي ٦ / ٢٣٦ .

(١) ابن كثير : ٧٣ / ٢ .

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

أى يسارعون إلى اقتراف الآثام ، والذنوب ، والمحارم ، والاعتداء على الناس ، وأكلهم الحرام . لبس العمل كان عملهم ولبس الاعتداء اعتداؤهم .

لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

يقول ابن عباس : « ما فى القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية » ويقول الضحاك : ما فى القرآن آية أخوف عندى منها .

ومعنى الآية : هلا ينهاكم ، أى ألم ينهكم الربانيون - أى العلماء أصحاب الولايات عليكم - والأحبار وعن كل ماتقترفونه من آثام ومعاصي ، من قول الإثم ، والزور وأكلكم الحرام . ؟ لبس ماكانوا يصنعون . . !

وهنا لفظة كريمة للإمام الرازى فى تفسيره يقول : « والمعنى أن الله تعالى استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصي .
« وذلك يدل على أن تارك النهى عن المنكر بمنزلة مرتكبه ، لأنه تعالى ذم الفريقين فى هذه الآية على لفظ واحد .

« بل نقول - والكلام مازال للرازى - إن ذم تارك النهى عن المنكر أقوى لأنه تعالى قال فى المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت ﴿ لبس ماكانوا يعملون ﴾ . وقال فى العلماء التاركين للنهى عن المنكر ﴿ لبس ماكانوا يصنعون ﴾ والصنع أقوى من العمل ، لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار مستقراً راسخاً متمكناً ، فجعل جرم العاملين ذنباً غير راسخ ، وذنب التاركين للنهى عن المنكر ذنباً راسخاً . والأمر فى الحقيقة كذلك .^(١) .

وفى هذا توجيه لنا نحن أمة الإسلام ، التى هى خير أمة أخرجت للناس . ومن مقتضيات الخيرية فى أمة محمد أننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر .
فإذا عطلت الأمة على مدى العصور هذا التكليف الربانى : يكون إيذاناً بالهلاك ، وبانتشار الشر ، وبانكسار الخير وتنحيته جانباً .

(١) تفسير الرازى ١٢ / ٣٩ .

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

وإذا أصابنا جذبٌ أو هلاك : فلا نأسى ولا نندم على ما يصيبنا ، إذ يكون نتيجة ابتعادنا عن قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
وفي الآية : توبيخ وتهديد وإنكار من الله على أهل الكتاب ، الذين لم يقوموا بدورهم الفعّال في تذكير الناس ، وردّهم إلى الصواب .
وقال ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر قال : خطب عليّ بن أبي طالب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس : إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ، ولم ينههم الربانيون والأحبار ، فلما تمادوا في المعاصي : أخذتهم العقوبات . فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم ، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقا ولا يقرب أجلا » (١) .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدْعِي اللَّهُ مَغْلُوبَةً عَلَى أَيْدِيهِمْ وَلَعَنَّوْا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

اشتدت سفاهة اليهود حتى قالوا على الله ما لا يليق بمقام كرمه وإحسانه ، فادّعوا أن الله بخيل - حاش لله - وما ذلك إلا لجهلهم بذات الله ، وما هو عليه سبحانه من الكمال ، وبأن من أسمائه وصفاته الكريم المحسن المعطي الوهاب .
واعلم يا محمد أن اليهود لم يكفوا عن كيدهم لك ، وسيبلغ بهم الحقد مداه . لأن النفوس مظلمة آثمة .

إذ بسبب إكرام الله - سبحانه وتعالى - لك يا محمد بإنزاله عليك القرآن الكريم ، قد حسدوك على ذلك ، وامتلات قلوبهم حقدا عليك ، وازدادوا غما وحسدا ، وإنه جزاء حقدهم وحسدهم : ابتليناهم بما صنعوا من الشر ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة .

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٧٤ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

نعم . سيظلون إلى يوم القيامة يحقدون ، ولكن الله من ورائهم محيط ، فكلما ازدادوا طغيانا وكفرا وبغيا : سلط الله عليهم أنفسهم بالحقد والبغضاء ، فتآكل من القسوة قلوبهم ، ومن الظلمة أنفسهم .

وها هو ذا وعد الحق - سبحانه وتعالى - يتحقق في كل العصور ، فهم لما أفسدوا وخالفوا كتاب الله (التوراة) أرسل الله عليهم (بختنصر) ، ثم أفسدوا فأرسل عليهم بطرس الرومى ، ثم المجوس ، ثم المسلمين من بعد ذلك . ومنذ عهد الرسول - ﷺ - وإلى اليوم ، كلما استقر أمرهم واستقام ، وقويت دولتهم شتتهم الله . وكلما أجمعوا أمرا على حرب المسلمين أطفأها الله . وهم دائما يسعون في إبطال الإسلام . وذلك من أعظم الفساد كما يصف القرطبي .

وها نحن أولاء اليوم في حاجة ماسة إلى تجمع ووحدة المسلمين لمحو هذه الفئة الضالة الكاذبة المنافقة ، عبدة الطاغوت منشئ الربا ، وآكل السحت ، وتطهير بيت المقدس وذلك بالجهاد ضدهم وبكل ما نملك ؛ حيث إنهم أصل الفساد في الأرض .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ
جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ
لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ
مَا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾

أى لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ، لأزلنا عنهم المحذور ، وأنلناهم المقصود . ولو أنهم استعملوا عقولهم ، ونظروا في ما أنزل الله من الحق ، بنفوس طاهرة ، خالية من الحقد والحسد ، لكفر الله عنهم ما ارتكبه من ذنوب في حق محمد وأتباعه ، وكفر عنهم آثامهم التي حاربوا بها الله ورسوله والمؤمنين .
وفي قول الحق سبحانه ﴿ ولو أنهم ﴾ : ما يفيد أنهم لم يكونوا طائعين لله في نبوة موسى وعيسى ، وأنهم كانوا عند بعثته - ﷺ - غير مسلمين ، أى غير مؤمنين بما أنزل في الإسلام الذى هو موجود عندهم في التوراة والإنجيل .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

لذلك يقول الحق ﴿ولو أنهم آمنوا﴾ من قبل محمد ومن بعده ، لأغدقنا عليهم من نعمنا ، فأكلوا حلالاً طيباً ، ولكانت نعم الله عليهم غامرة ، وأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، لأننى أنا الله المعطى الكريم الوهاب غير متصف بالبخل والغل كما قالوا . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا .

ثم أخبر الله تعالى أن منهم مقتصدًا كالنجاشى وسلمان وعبد الله بن سلام ، كما يذكر القرطبى . هؤلاء اقتصدوا فلم يقولوا فى عيسى ومحمد إلا ما يستحقانه .

والاقتصاد: هو الاعتدال. و﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أى ساء صنيعهم هذا وعملهم هذا، من تكذيبهم للرسول ، وأكلهم الربا ، وأكلهم السحت ، وتحريفهم للكتب .

﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

﴿يأتياها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ من الوحي الذى أتاك به رسولنا جبريل عليه السلام ، وإن لم تفعل فذلك أمر عظيم .

إن الله - سبحانه وتعالى - اختارك وأعدك لتكون أمينه وصفيه وإمام رسله وأنبيائه . فلا تخف يا محمد على نفسك من أعدائك ؛ لأنك بأعيننا .

واعلم : أن الله يعصمك من الناس : ويحفظك من شرورهم .

قال البخارى عند تفسير هذه الآية عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب ، والله يقول ﴿يأتياها الرسول بلغ﴾^(١) .

وهذا تأديب للنبي ﷺ وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته . وقد امثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، فأبلغ جميع ما أرسله الله به ، وقام به أتم القيام . وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة .

قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ

(١) رواه البخارى كتاب « التفسير » باب « يأتياها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » .

سُورَةُ الْبَنَاتِ

إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلِيَزِيدَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

يقول - الله تعالى - لليهود والنصارى لستم على شيء من دين موسى وعيسى ، ولو كان عندكم من يقين ولو قليل من التوراة والإنجيل ، لعلمتم بأن محمدا عبداً الله ورسوله ، لأن ذلك مكتوب عندكم في التوراة والإنجيل .
﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ (١) .

فلا تحزن يا محمد عليهم ، واعلم أن الله على كل شيء قدير .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

الذين آمنوا هم أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله . وهم المسلمون ، وهم الذين آمنوا بكافة رسل الله ، من لدن آدم حتى جاء محمد - ﷺ - .
والذين هادوا : هم أهل التوراة .

والصابثون : فرقة من النصارى والمجوس ، وقيل من اليهود ومن المجوس .

والنصارى : هم أهل الإنجيل .

كل هذه الفرق إذا أرادوا أن ينجوا من النار : فلا بد لهم من إيمانهم بمحمد - ﷺ -
واتباع شريعته ، والعمل بكتابه وسنته .

ومن مقتضيات اتباع محمد ، والسير على نهجه وسنته وكتابه الذي أنزل عليه :
الإيمانُ بالله واليوم الآخر ، وعملُ الصالحات ، لأن ذلك هو ما نادى به محمد - ﷺ -
نفسه . وما محمد إلا رسول جاء ليهدى الناس بأمر ربه ، ويخرجهم من الظلمات إلى
النور ، ويرشدهم إلى العمل الصالح .

فإن فعلت هذه الفرق كل ذلك ، فلا خوف عليهم في مستقبلهم الآخري ، ولا هم
يحزنون على ما فاتهم ، من ترك عاداتهم وعقائدهم القديمة .

(١) الصف : ٦ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

ولقد أخذنا عليهم الميثاق ، وهو ألا يعبدوا إلا الله وما يتصل به ، فلا تأس يا محمد
على القوم الكافرين ، ولا تحزن ، فإننا قد أعدنا إليهم ، وبعثنا لهم الرسل ، وأخذنا
عليهم المواثيق ، فنقضوا هذه العهود ، وساروا حسب أهوائهم ، وقدموها على
الشرائع ، فما وافقهم منها قبلوه ، وما خالفهم ردّوه .

وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُوتَ فِتْنَةٍ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا
وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

أى وحسبوا ألا يترتب لهم شر على ما صنعوا ، فترتب ، وهو أنهم عموا عن الحق
وصموا . إن هؤلاء الأغبياء قد ظنوا أن إمهال الله لهم ، وتركه إياهم دون عقاب على
أفعالهم ، ينجيهم من غضب الله ، كما ظنوا أنه لا يقع من الله عز وجل اختبار لهم ،
وابتلاء بالشدائد ، لأنهم مغترون أصلاً عندما قالوا ﴿نعن أبناء الله وأحباؤه﴾^(١) . ولذلك :
عموا وصموا ، ونقضوا المواثيق والعهود ، ثم تابوا إلى الله ، ثم عموا وصموا مرة أخرى ،
والله تعالى ﴿بصير بما يعملون﴾ أى مطلع عليهم وعليم بهم وسيجازيهم ؛ فهو يمهل
ولا يهمل .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي
إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
وَمَا وَهُ مِنَ النَّارِ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ
لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ
وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾

(١) آية ١٨ سورة المائدة .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ . . . ﴾ حكم واضح بتكفير الذين قالوا إن الله هو المسيح ، والذير قالوا إن الله ثالث ثلاثة أى واحد من هؤلاء الثلاثة .
والتثليث عندهم يتكون من أن الابن إله ، والأب إله ، وروح القدس إله .
ويرد عليهم سبحانه : قائلًا ﴿ وما من إله إلا إله واحد ﴾ أى : إن إله لايتكاثر ولايتعدد ، بل هو وحده لا شريك له . وقد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله ، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير فى المهد ﴿ إني عبد الله ﴾ ولم يقل إني أنا الله ولا ابن الله .
﴿ وإن لم ينتهوا ﴾ ، هذه الأكاذيب وهذه الأقوال ليمسنهم عذاب شديد فى الدنيا والآخرة .

ويوبخهم الله - سبحانه وتعالى - فى نهاية الآيات فيقول : ﴿ أفلا يتوبون ﴾ أفلا يسألون ربهم ستر ذنوبهم ، ويستغفرونه ، ويعودون إليه ؟ . إنه هو الغفور الرحيم .

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ
صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ
ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

أى له أسوة أمثلة من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، وأنه عبد من عباد الله ،
ورسول من رسله الكرام ، وأمه مؤمنة به مصدقة له . وكانا يحتاجان إلى التغذية بالطعام
وإلى خروجه منهما ، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين . وليس المسيح ابن مريم إلا
رسولاً شاء الله سبحانه أن يجعله آية للناس فحملت به أمه مريم الصديقة بغير زواج ،
ليكون آية إعجاز مماثلة لآية خلق آدم من غير أبوين ، وليضرب به المثل أمام بنى
إسرائيل ، الذين كانوا يعبدون المادة ، ولا يجعلون للروحانيات نصيباً فى تفسيرهم
للأشياء . فكل شئ عندهم مادي ، يقيسونه بمقاييس مادية بحتة ، ولا يؤمنون بالمعجزة
أو الإعجاز . فضرب الله - سبحانه وتعالى - المثل الأعلى فى اختلاف الأسباب
والمقاييس ، فى آية خلق عيسى عليه السلام من غير أب . وكيف يكون المخلوق المحدث
المربوب رباً؟ فالمربوب لا يكون رباً أبداً . والرب منزّه عن الطعام والشراب والجوارح ،
ولا نقيسه بمقاييس بشرية ناقصة ، وهو مهيمن على الكون كله ، ليس كمثله شئ .

سُورَةُ الْمُنَافِقَاتِ

وقيل عن مريم إنها صديقة : لكثرة اعتقادها وتصديقها لكلام ربها وآياته ، وتصديقها بكلام ولدها نفسه الذى نطق وهو على كتفها .

انظر يا محمد كيف يتعد أهل الكتاب عن الحق بعد أن بينا لهم فى الكتاب كل شىء .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

يقول الله - سبحانه وتعالى - لنبيه - منكرا على من عبد غيره تعالى - قل لهم أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ؟ أى لا يستطيع دفع الضر عنكم ولا يستطيع جلب النفع ؟

إن الله هو السميع لأقوالكم والعليم بعبادتكم هذه الأشياء التى لا تنفع ولا تضر .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

يا أمر الله عبده محمدا - أن يقول لليهود والنصارى : يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، أى لا تجاوزوا الحد فى اتباع الحق .

والحقيقة أن الغلو فى الدين نوعان كما يقول الرازى : « غلو حق ، وهو أن يبالغ فى تقريره وتأكيده ، وغلو باطل ، وهو أن يتكلف فى تقرير الشبه ، وإخفاء الدلائل » (١) . وقد غالى اليهود فى ذلك فرموا مريم بالزنا فى عيسى .

أما النصارى فقد ادّعوا فى عيسى الألوهية . « وما ذاك إلا لا قتدائهم بمن ضل قديما ، وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال ، إلى طريق الغواية والضلال » (٢) .

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

يبين الحق أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود وعلى

(١) تفسير الرازى ٦٣ / ١٢ . (٢) تفسير ابن كثير ٨٢ / ٢ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

عيسى بن مريم ، بسبب عصيانهم الله ، واعتدائهم على خلقه . فبنو إسرائيل لم يتعظوا ولم يخضعوا لتعاليم الله حتى جاءهم داود عليه السلام ، وناداهم إلى الله ليتوبوا ، ولكنهم لم يتوبوا ولم يسمعوا فلعنوا على لسانه .
وكذلك جاء عيسى بن مريم رسولا لهم ، فلم يستمعوا ولم يطيعوا ، ولعنوا كذلك على لسانه ، بل استغرقتهم المعاصي ، وكان ينصح بعضهم في الصباح ، فإذا جاء المساء اجتمع من وُعط وذُكر بالله وكتبه ورسله مع العصاة الطغاة المرتكبين للإثم ، الظالمين لأنفسهم وغيرهم ، وعاقروا المعاصي معا في غير حياء .

كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾

أى كانوا يبحثون عن المنكر ويفعلونه ولايتناهون عنه ، ويعلمون المعروف ويتجنبونه ولا يأمرن بعضهم بعضا به . فبئس العمل عملهم ، وبئس الصنيع صنيعهم .

كَرِهُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ
أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾

إن اليهود يلدّ لهم أن يتوادوا مع الذين كفروا ، وكذلك مع المنافقين والعصاة .
فهؤلاء سخط الله عليهم وأضلهم بما ظلموا أنفسهم وبما فعلوا ، ولكن لا يشعرون ، ولهم عذاب أليم يوم القيامة .

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ
وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾

يعنى لو أنهم آمنوا بالله وبمحمد - ﷺ - وما أنزل عليه من كتاب ، لما صاحبوا الكافرين ، وما والوهم ، لأن الله ينهى عن ذلك ، ولكن كثيرا منهم - كما يخبر الحق - خارج عن طاعة الله ورسوله مخالف لتعاليم ربه - سبحانه وتعالى - .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّ
ذَلِكَ يَأْنٍ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

لتجدن يا محمد أنت وأمتك أشد الناس بغضا لكم وعداوة : اليهود والمشركين .
والسبب في ذلك : كبر وجحود للحق تربوا عليه ، فقسست قلوبهم فهي كالحجارة ،
بل هي أشد قسوة ، فهم لا يفقهون الحق .
وبين صفحات التاريخ مايد ينهم ، ويسود صحائفهم .
وإني لأعجب في هذه الأيام من ممالآت المسلمين وتراجعهم عن القتال والجهاد
لاسترداد بيت المقدس وفلسطين .
وقد نسب الله البغض والعداوة في الآية لليهود بالذات وعلى وجه الخصوص ، لأنهم
مفطورون على ذلك .

والنصارى في الآية هم الذين جاء عليهم القرآن والإسلام ، وقالوا إنا نصارى بحق ،
أى أنصار المسيح عيسى بن مريم ، الذى على منهاجه نسير ، وبتعاليمه نمشى ، وبما
فيها نؤمن أنك يا محمد آتٍ لا محالة ، وها أنت ذا اليوم أمامنا مبعوث من عند الله نؤمن
بك وبقرآنك .

وما ذاك إلا لما في قلوب هؤلاء القوم من الرقة والرافة لما يوجد فيهم من القسيسين وهم
علمائهم ، والرهبان وهم العبّاد .

من هؤلاء وهؤلاء أقوام بالجملة لا يستكبرون عن عبادة الله والإذعان لمحمد ، والإيمان
بالقرآن ، لأن محمداً مذكور عندهم في التوراة والإنجيل ، وهم لا يستكبرون بل يظهرون
تلك البشائر الموجودة عندهم في توراتهم وإنجيلهم .

وسر إسلام هؤلاء النصارى أن قساوستهم قرءوا وفهموا وصدقوا بأن محمداً رسول الله
فأسلموا . ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾^(١) .

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ
الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ

(١) آل عمران ٨٥

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

﴿مما عرفوا من الحق﴾ أى مما عندهم من البشارة ببعثة محمد - ﷺ - يقولون ﴿ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ ، أى : اكتبنا مع الذين يشهدون لمحمد أنه قد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وجاهد فى الله حق جهاده .
وهاهم أولاء أصحاب النجاشى وأنصاره تفيض أعينهم من الدمع عند سماعهم القرآن من النبى أو من جعفر بن أبى طالب .

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ
الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾

وهؤلاء الذين كانت عيونهم تفيض من الدمع قد أسلموا ، فالذين يدخلون فى الإسلام من النصارى تلك صفاتهم ، يقولون فى خشوع قلب وتجرد ذات : ربنا آمنا بك وبرسلك من لدن آدم حتى إبراهيم فموسى فعيسى ، وتوَّجنا ما اعتقدناه من الحق بدخولنا الإسلام مصدقين بأن محمدا - ﷺ - خاتم رسلك وأنبيائك ، فارزقنا الإيَّان وآتانا الحجة ، ويسِّر لنا الطريق إليك ، ووضحه سهلاً نستقر فى أنواره وحقائقه مع رسولك الذى أرسلت ، فاجعلنا ياربنا من الأبرار الأخيار ، وأدخلنا مع القوم الصالحين فى رحمتك .

فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾

هؤلاء القوم أثابهم الله بما قالوا وصدقوا ، وجعلهم من أصحاب النفس المطمئنة الراضية ، وأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلها ، وتلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار. وقوله : ﴿فَأَثَابَهُمُ﴾ أى فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

هذه فئة الأشقياء ، وهى عكس الفئة الأولى قلوبهم صماء وقاسية كالحجارة ، بل

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

أشد قسوة ، فهم لا يعرفون تفكيراً ولا تدبراً ولا نظراً ، فجحدوا بآيات الله وخالفوها ، وهؤلاء : هم أهل النار . وأصحابها الداخلون فيها .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾

أى : من الطعام والشراب واللباس والنساء الأزواج . يقول لاتسيروا بغير سنة المسلمين ، فالذى حرم عليكم بوحى أو بسنة : هو فقط ما حرم عليكم ، وليس لكم أن تزيدوا غيره ، أو تزيدوا عليه أو تنقصوا منه ؛ إذ ليس من حق العبد أن يضيف إلى ما قرر الله من فروض وسنن ، أو ينقص منها ، وليس له أن يغير فى الكتاب والسنة أو يحذف منها ، فوجوب الالتزام بما فى الكتاب والسنة فرض لازم ، وكذلك كل ما أحل الله للناس من رزق فهو طعام وشراب هنىء .

وقد ذهب بعض الأئمة ، منهم الإمام أحمد بن حنبل ، إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً أو شيئاً من الأشياء : فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين . ﴿ولا تعتدوا﴾ معناها : لاتبالغوا كثيراً فى التحريم على أنفسكم ، وفى التضيق لطيات الله عليكم .

وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

أى زيدوا وكلوا مما أحله الله لكم ، ولا تحرموا حلالاً ولا تضيقوا على أنفسكم ، واتقوا الله فى جميع أموركم ، واتبعوا طاعته ورضوانه ، وأطيعوا نبيه ، واتركوا مخالفته وعصيانه .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ط فَكَفَرْتُمْ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْ أَوْ تَحْرِيرِ رَقَبَةٍ ط فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ط وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

لغو العبد فى الأيمان أن يحلف بالله من غير قصد أن يفعل ثم لا يفعل ، أو ألا يفعل

سُورَةُ الْبَنَاتِ

ثم يفعل ، ولا يلتزم بالدقة فيما حلف له وفيه : لا يحاسب الله عليه مع التحذير من الوقوع فيه .

لكن عندما تعقد الأيمان ، أى يكون اليمين مصحوبا بنية وإصرار ثم يحنث فيه ، أى يقع فيه ، فذلك فيه الكفارة .

والكفارة هنا إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة أى عتقها ، فإذا عجز العبد عن أداء إحدى الكفارات السابقة ، فيصوم ثلاثة أيام .

والأولى والأصلح والأصوب لدينكم ودنياكم أن تحفظوا أيمانكم ، ولا تحنثوا فيها .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

نداء من العزيز الحكيم الرؤوف الرحيم للذين آمنوا ، يبين لهم أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان : ليجتنبوه .

ولما كانت الخمر هى أم الكبائر ، والخمر هى رأس الإثم ، والأنصاب والأزلام رموز للشر والإثم ، فقد سماها الله - سبحانه وتعالى - رجس من عمل الشيطان ، وأمرنا باجتنباب كل ذلك الباطل ، وجعل اجتنابه سببا فى نجاح المؤمنين .

وقد حفلت السنة بأحاديث كثيرة واردة فى بيان تحريم الخمر ، ليس هذا مجال التطويل بها .

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١١﴾

يريد الشيطان بهذه المحرمات أن يفتن بينكم ، ويوقعكم فى الخصام والكراهة والعداوة بسببها ، ويريد أن يصدكم عن ذكر الله ، لأن هذه الأشياء تنسى الإنسان ذكر الله تماما ، والصلاة ﴿ فهل أنتم متتهون ﴾ ؟ .

والأمر الطبيعى للمسلمين أن يحببوا ربهم سمعاً وطاعة .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ
الْمُبِينُ ﴿١٢﴾

في هذا أمر بالطاعة وتهديد عظيم لمن خالف هذه الأوامر وأعرض فيها عن حكم الله .

ومعناها : إن توليتم ، فالحجة قد أقيمت عليكم ، والرسول قد بلغكم ومرجعكم إلى .

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وعاشوا في الحلال الذي أمروا به في مطعمهم وملبسهم ومشربهم ، وسرهم وعلنهم ، وتحروا كل ما في كتاب الله ، وسنة رسوله ، فاتبعوه في يقظة قلب ، وصدق ضمير ، وحب للحق . هؤلاء هم الذين أحسنوا الفهم والعمل . والله يحب المحسنين .

و (إذا) في الآية الكريمة للمستقبل لا للماضي . والمقصود من تكرار التقوى في الآية هو التأكيد والمبالغة في الحث على الإيمان والتقوى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبَّوْا لَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن
يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾

هو الضعيف من الصيد وصغيره ، يبتلى الله به عباده في إحرامهم ، حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم ، فنهاهم الله أن يقربوه . إن الله - سبحانه تعالى - يربى أمة محمد - ﷺ - على خشيته في السر والعلن ، فمن التزم وأطاع أوامره ، واجتنب نواهيه : صدق فيه وعليه قول رب العزة ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرةٌ وأجر كبيرٌ ﴾ (١) . أما من اعتدى بعد ذلك وخالف ﴿ فله عذاب أليم ﴾ .

(١) الملك ١٢ .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٥﴾

هذا تحريمٌ منه - سبحانه تعالى - لقتل الصيد في حالة إحرامكم أيها المؤمنون ، ونهي عن تعاطي هذا الصيد في حالة الإحرام .

يقول ابن كثير : « وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ولو ماتولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر فعند الشافعية يجوز للمحرم قتلها ، والجمهور على تحريم قتلها أيضا ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين » ^(١) . ومن فعل ذلك بعد تحريمه فإن الله سبحانه تعالى ﴿ عزيز ذو انتقام ﴾ إن الحجة قد جاءتكم ، وعليه بعد ذلك الكفارة أيضا .

إنها تربية وإرشاد للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إلى الأصلح . عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله - ﷺ - قال : « خمس من الدواب كلهن فاسق يقتلن في الحرم ، الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » ^(٢) .

أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتَّعَالَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٦﴾

يقرر الله - سبحانه تعالى - أن للمحرم والمحل أن يأكل من صيد البحر ، ميتا وحيًا ، فما صيد منه : فهو حلال للمحرم والمحل والمسافر والمقيم . وأما صيد البر : فمحرم حتى تحلوا إن كنتم محرمين ، ولغير المحرمين حلال في كل الأوقات مادام قد استوفى كل شروطه المشروعة .

(١) تفسير ابن كثير ٩٨ / ٢ .

(٢) رواه البخارى كتاب « جزاء الصيد » باب « ما يقتل المحرم من الدواب » . وكذا رواه : الإمام مسلم في صحيحه ، والترمذى والنسائى في سننهما .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ
ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴾ ١٧ ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ١٨ ﴿ مَا عَلَى
الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ ١٩

أى : خلق الله الكعبة قياما للناس ، أى صلاحاً ومعاشاً ، يأمنون فيها ، ويقومون
بشرائعها .

﴿ والشهر الحرام ﴾ اسم جنس ، والمراد الأشهر الحرم الأربعة وهى : رجب
وذو القعدة وذو الحجة والمحرم . فكان العرب لا يطلبون فيها دماً ، ولا يقتلون فيها
عدواً ، ولا يتوقعون فيها تاراً .

﴿ والهذى ﴾ هو ما يهدى إلى الكعبة ويذبح هناك ، ويفرق لحمه ويوزع على فقراء
الحرم .

وكل ذلك أى : الكعبة ، واحترامكم للأشهر الحرم ، وإقامتكم الهدى والقلائد ،
كل ذلك ، دليل على عظمة هذا البيت ، وغاية تشریفه .

«لما ذكر الله تعالى أنواع رحمته بعباده ، ذكر بعده أنه شديد العقاب ، لأن الإيمان
لا يتم إلا بالرجاء والخوف . . . ثم ذكر عقبيه ما يدل على الرحمة وهو كونه غفورا رحيماً ،
وذلك يدل على أن جانب الرحمة أغلب» (١) .

﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ يعنى أن الرسول - ﷺ - مكلف فقط بالتبليغ ، والله
يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ
أَلَّا تَلْبَسَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿ ٢٠ ﴾

اعلموا أن الله اختار لكم خير رسله ، واختار لكم هذا الدين وارتضاه لكم شريعة
ومنهاجا ، فلا تعجبكم كثرة الخبيث من متاع الدنيا ، فالعبرة بالكيف لا بالكم ،

(١) انظر تفسير الرازى ١٢ / ١٠٢ .

سُورَةُ الْمُنَافِقَاتِ

والقليل من الحلال خير من الكثير وهو حرام ، فاحذروا أن تجمعوا من الدنيا بغير شرع الله ، فالدنيا تغرى وتهلك ، والمؤمن يعرفها بصحبته لكتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - .
﴿فاتقوا الله يا أولى الألباب﴾ أى ياذوى العقول الصحيحة المستقيمة ، وتجنبوا الحرام ودعوه ، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ، لعلكم تفلحون فى الدنيا والآخرة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّلَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ نَسَّأُوا عَنْهَا
حِينَ يُنْزِلُ الْقُرْآنَ إِنْ بُدِّلَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١١﴾

نداء من الله للذين آمنوا بالآيسألوا عن شىء لم يخبر الحق عنه من أخبار الغيب ، فالغيب لله ، يبرز منه ما شاء بها يشاء ، ويستر منه ما شاء بها يشاء ، وهو الستار ، فما أظهره هو الخير ، وماستره فى ستره خير لانعلمه .
وفى « هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهى لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لافائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءت لهم وشق عليهم سماعها . وفى الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : «دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» . . . (١) » .
ولهذا يقول الحق مخبرا :

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٢﴾

فيأيتها الناس أنتم خير أمة أخرجت للناس ، فاذكروا نعمة اختيار الله لكم ، وإحسانه إليكم ، واعلموا أن اليهود والنصارى من قبلكم قد سألوا هذه المسائل المنهى عنها ، فأجيبوا عنها ، ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بسببها كافرين . فاحذروا أن تكونوا كما كانوا ، فتوبوا يتب الله عليكم ، ويجعلكم صالحين .

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾

(١) رواه البخارى كتاب « الاعتصام » باب « الاقتداء بسنن رسول الله - ﷺ - » .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

(البحيرة) هى البهيمة التى يمنع درؤها فلا يجلبها أحد من الناس ، وهو قول سعيد ابن المسيب .

(والسائبة) كانوا يسيبونها لأهتهم لايحمل عليها شيء ، ولا ينتفعون بها حق منفعتها .

أما (الوصيلة) فهى إذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكرا فهو لأهتهم . وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لأهتهم . فالوصيلة بمعنى الموصولة ، كأنها وصلت بغيرها .

أما (الحام) فهو الفحل ، وهو نوع من ذكر البقر ، كان إذا انقضى ضرابه^(١) جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه .

والمعنى مجملا : أن الحيوانات مخلوقة لمنافع المكلفين ، وتركها وإهمالها يقتضى فوات منفعة على مالكها من غير أن يحصل فى مقابلتها فائدة . والبهيمة إذا اعتقت وتركتم لم تقدر على رعاية مصالح نفسها ف وقعت فى أنواع من المحنة أشد وأشق مما كانت فيها حال ما كانت مملوكة .^(٢)

أى إن الله - سبحانه وتعالى - لم يشرع لكم مثل هذه الأفعال التى تفعلونها .

وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ هُم بِآيَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

فهؤلاء الناس إذا دعوا إلى شرع الله وحكمه وتكاليفه قالوا : يكفيننا ما جبلنا عليه من طباع وما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك .

فكيف تتبعون آباءكم وأجدادكم أيها الناس ؟ هل تتبعون الجهل بعينه ؟ والظلام نفسه ؟ أو أنكم لاتفهمون حقا ؟ !

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

(١) أى : نكاحه : انظر « لسان العرب - مادة ضرب » .

(٢) انظر فى ذلك تفسير الرازى ١٢ / ١١٠ .

سُورَةُ الشَّائِدَةِ

ينادى الحق سبحانه الذين آمنوا بأن يقوموا على أنفسهم بالتربية والإرشاد ، وتعلم كتاب الله ، وسنة رسوله ، فإن كملت معارفهم بالدين ، فعليهم بعد ذلك أن يدعوا غيرهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن استمعوا لهم فذلك فضل الله عليهم وعلى من دعوهم . وإن لم يستجيبوا فقد ثبت لهم أجرهم ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾ ^(١) - ﴿ وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ﴾ ^(٢) .

والله - سبحانه وتعالى - سيعطى الذين أقاموا من أنفسهم دعاة إليه ، مذكرين لشرعه ، أجرهم على أنهم بلغوا فقط ، وليس على أنهم قد استجيب لهم ، لأن الهادى هو الله ، ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ ^(٣) .

فالاستجابة لله ومن الله فقط ، ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ الْمَوْتِ تُحْيِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لِّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِضَ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا عَتَدْنَا إِنَّا إِذًا لِّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُونَ أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا اللَّهَ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

يأياها الذين آمنوا : اعلموا أنه إذا كان أحدكم فى سفر وأراد أن يوصى بشىء ، فعليه أن يختار للإشهاد على وصيته ، اثنين عدلين من الأقارب ، فإن لم يجد : فمن غير الأقارب .

(٢) آية ٨١ سورة النمل .

(١) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة الغاشية .

(٣) آية ١٧ سورة الكهف .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

فإذا مات الموصى : فليؤد هذان الشاهدان شهادتهما بما أوصاهما به ، ويكون ذلك عقب الصلاة : التى يجتمع عليها الناس ، ويحلفان بمثل هذه الصيغة « نقسم بالله العظيم ، لانتبدل بيمينه تعالى عوضاً ، ولو كان فيه نفع لنا أو لأحد أقاربنا ، ولانخفى الشهادة التى أمرنا الله تعالى بأدائها صحيحة ، إنا إذا أخفينا الشهادة ، أو قلنا غير الحق : نكون من الظالمين ، المستحقين لعذاب الله .

هذا . . . وإذا ظهر أن الشاهدين قد كذبا فى شهادتهما ، أو أخفيا شيئاً : فإن اثنين من أقرب المستحقين للتركة ، يقومان مقام الشاهدين الأولين - بعد الصلاة كذلك - ليظهرها كذبهما .

حيث يحلفان بالله إن الشاهدين قد كذبا ، وأن يميننا أولى بالقبول من يمينهما ، ولم نتجاوز الحق فى أيماننا ، ولم نتهمهما زورا ، وإلا كنا من الظالمين .
وهذا التشريع : هو أقرب الطرق التى تؤدى الشهادة على وجهها ؛ فتحفظ الحقوق .

واتقوا الله وراقبوه فى وصاياكم وفى شهاداتكم وفى كل أحوالكم ، واسمعوا لشرع الله تعالى وأطيعوه ، وتذكروا اليوم الآخر دائما ، فإن الله لا يهدى القوم الفاسقين .

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ
الْغُيُوبِ﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجبوا به من أمهم الذين أرسلهم إليهم . فاذا ذكر يا محمد أنت وأمتك يوم يجمع الله رسله وأنبياءه فيسألهم بماذا أجابتكم الخلائق ، فتقول الرسل والأنبياء فى أدب وخشوع ، وتواضع لله ، ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ .

إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ
بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُزَيِّجُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذَا
تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذَا كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذَا أَوْحَيْتُ إِلَى
الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام ، مما أجراه
على يديه من المعجزات . فاذكر كذلك يا محمد إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر
نعمتي عليك وعلى والدتك ، إذ جئت خلقة مخالفة لطبيعة الخلق ومألوف العادة - من
غير أب - بنفخة من روح القدس وهو جبريل . وجئت تكلم الناس وأنت طفل في
المهد ، وبرأت أمك بكلماتك المقدسة وأنت مولود لساعتها ، وذلك على خلاف العادة
والمألوف بين الناس ، وجئت تدعو الناس مولوداً إلى توحيد الله وبأنك عبد الله وكلمته
القاها إلى مريم ، وأقدرتك أن تنفخ في الطين فيكون طيراً ، والأكمه والأبرص دعوتني
فشفيتهم بإذني ، تثبيتاً لك وتكريماً ، وأخرجت الموتى من قبورهم أحياء بإذني
وقدرتي ، حتى يعلم المبطلون أنك بعيني رسولاً ونبياً وعبداً مكرماً . وكففت عنك أذى
بنى إسرائيل ، ونجيتك من خبثهم وحقدهم ، إذ جئتهم بالبينات ، فلم يرتدعوا ، ولم
ينزلوا على الحق ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين وبفضلي ألهمت الحواريين فآمنوا بك
واتبعوك ونصروك .

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا
مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

هذه الآية : تعبر عن قصة المائدة ، وبسببها سميت السورة بالمائدة . وأنزل الله آيةً
باهرة وحجة قاطعة ، وهي المائدة على عيسى ، حينما طلب الحواريون ، وهم أوائل
التلاميذ لعيسى عليه السلام ، فقد سأله أن يسأل ربه أن يُنزل عليهم مائدة من
السماء ، عليها طعام ، فقال لهم عيسى خافوا من الله ، أي اتقوه إن كنتم صادقين .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

وهذا دليل على قلة تفكيرهم وقصر نظرهم فالذى رفع السموات بغير عمد ، وبسط الأرضين ، وشق فيها البحار ، وأخرج منها نباتا مختلفا ألوانه ، قادر على طلبهم .

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

رفع عيسى عليه السلام يديه إلى السماء وطلب من ربه ما سأله الحواريون .
والمقصود بكلمة ﴿ عيدا ﴾ في الآية : أنه يريد أن يتخذ من هذا اليوم الذى تنزل فيه المائدة عيدا يعظمه هو ومن بعده من الحواريين ، وقيل : إنه أراد أن يكون هذا اليوم عظة له ولن بعده ، ودليلاً على قدرته - سبحانه وتعالى - وإجابته لنبيه .
﴿ فمن يكفر بعد منكم ﴾ بعيسى وبقدرة الله - سبحانه وتعالى - فإن الله يتوعده بعذاب شديد يوم القيامة .

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

يقول الحق - سبحانه وتعالى - لعيسى عليه السلام ، يوم القيامة : أنت يا عيسى قلت للناس إنك وأمك إلهين ، وناديتما ليعبدكما الناس ؟ فيرد عيسى : ياربّ سبحانه إن كنتُ قلتُ ذلك فأنت رب الكون كله ، تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، أنت

سُورَةُ الْمُنَافِقَاتِ

علام الغيوب . وما قلت لهم إلا ما أمرتني به من عبادتك وحدك : أن الله ربي وربكم أيضا ، وأنا عبد الله ورسوله ، وكنتُ أشهد على عملهم حين كنتُ بينهم فقط ، وهم عبادك ، إن شئت عذبتهم ، وذلك عدل منك فيهم ، وإن شئت صفحت عنهم وذلك فضل منك وإحسان .

وهذه الآية : فيها التوبيخ والتفريع للنصارى يوم القيامة ، وتهديد الله لهم على رؤوس الأشهاد .

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

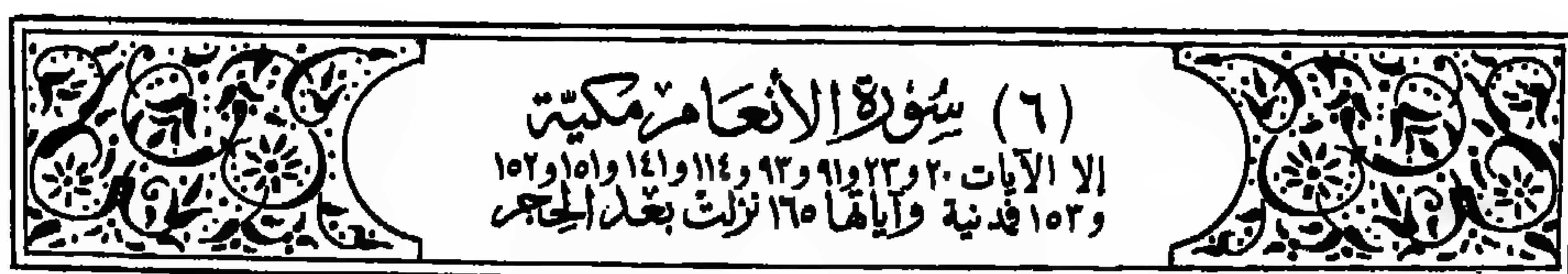
المراد باليوم في هذه الآية هو يوم القيامة . والمعنى أن صدقهم في الدنيا ينفعهم يوم القيامة .

يقول الرازي « اعلم أنه لما أخبر الله أن صدق الصادقين في الدنيا ينفعهم في القيامة ، شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب » ^(١) . وهذا الثواب هو جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . وهذا هو الفوز العظيم الذي لا أعظم منه ولا أحسن ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ ^(٢) وجل قوله ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ ^(٣) . وفي ختام السورة : يصدر العدل الكبير المتعالى قراراً بأن يوم القيامة ينتفع الصادقون بصدقهم ، ولهم فيه رضوان من الله ، وهو أكبر جزاء للصدق ، وسوف تنطفئ ساعتها شعلة الكافرين ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ المتصرف القادر على جميع ملكه ، وتحت قهره وقدرته ومشيتته . فلا نظير ولاوزير ولامعين ولا والد ولا ولد ولاصاحبة ولارب غيرك يارب . ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ .

(٢) آية ٦١ سورة الصافات .

(١) تفسير الرازي ١٣٨/١٢ .

(٣) آية ٢٦ سورة المطففين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِرَبِّهِمْ يَقْدِرُونَ ﴿١﴾

يمدح الله تعالى ذاته الكريمة ، ويحمد لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده ، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليالهم ونهارهم ، أى : أبعد ذلك يكفرون به ويجعلون له شريكاً وعدلاً ويتخذون له صاحبة وولداً ؟ والعدل هنا هو المثل .
أى : تجعلون له مثلاً وندا وعدلاً ؟ سبحان الله العظيم . سبحانك اللهم وبحمدك أنت متزه عن أى شىء وعن أى صاحبة وعن أى ولد . تعاليت يارب عن المثل والنند والشريك علواً كبيراً . .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢٠﴾

ونحن جميعًا نعلم أن أصل خلقتنا آدم الذى خلق من طين . والأجل الأول فى الآية هو الموت ، أما الأجل الثانى فهو الآخرة . فيجب أن نحذر ما بعد الموت من سؤال ثم مصير إلى الجنة أو النار ، كما لا ينبغي أن نتشكك أو نشكك فى ذلك أو فى شىء من ذلك . ﴿ تَمْتَرُونَ ﴾ يعنى تشكون فى أمر الساعة .

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٢﴾

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض من سر وجهه
 ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾^(١).

(۱) غافر : ۱۹ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

ويعلم جميع أعمالكم سواء كانت خيراً أو شراً ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (١) .

وَمَا تَأْنِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٠﴾

يقول الله تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين أنهم كلما أتتهم دلالة على وحدانية الله وصدق رسله الكرام ، فإنهم يعرضون عنها ، فلا ينظرون إليها ، ولا يبالون بها . والإعراض عن الحق : استهزاء ، وتلك صفة من صفات المشركين المكذبين المعاندين ، الذين فضحتهم الآيات ، وكشفت عن نواياهم ومكنون قلوبهم .

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾

هذا تهديد من الله سبحانه وتعالى ، ووعيد شديد منه على تكذيبهم بالحق . ولا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، ثم يعذبون بسبب ذلك عذاباً أليماً .

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ مَّكَّثْتُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿١٢﴾

إننا قد أهلكنا أمماً قبلهم بسبب ذنوبهم ، وبسبب سيئاتهم التي اقترفوها واجترحوها ، وجعلنا سيرتهم أحاديث بين الناس ، وأنشأنا جيلاً آخر ، لكى نختبرهم ، فعملوا مثل صنيعهم ، فأهلكناهم كما أهلكنا الأولين ، وهذه عاقبة من يمكن في الأرض فلا يتبع هدى الله ، ولا يشكر نعمه ، ثم بعد ذلك يفسد في الأرض ، وجل قوله ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ (٢) .

﴿ مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ﴾ أى من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود . ﴿ مدراراً ﴾ أى شيئاً بعد شيء .

فاحذروا أيها الناس أن تقعوا في مثل هذا الصنيع الذى هلك أهله بسببه .

وإلا يستبدل بكم قومًا غيركم ﴿ يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين

(٢) الانعام : ٤٤ .

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع
عليم ﴿١﴾ .

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُبِينٌ ﴿٧﴾

يخبر الله تعالى عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباہتتهم ومنازعتهم فيه ،
فيقول لو أنزلنا عليك كتابًا يا محمد من السماء ، وعاینوه ولمسوه بأيديهم ، وأصبح عيانًا
بيانًا أمامهم ، ما آمنوا ، ولأصروا على مكابرتهم ، وقالوا في غطرسة وكبر وجهل : إن
هذا إلا سحر مبين ، فعليهم لعنة الله .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾

إمعانًا في مكابرتهم ، وجحودًا وإنكارًا منهم للنبي محمد صلى الله عليه وسلم - ، إذ
أرادوا أن يكون مع الرسول ملكٌ ، ليكون معه نذيرًا ، وهذا تعجيز منهم لمهمة محمد -
صلى الله عليه وسلم - ، وعدم تصديق أنه من عند الله ، مع أنه لو أنزل عليهم ملك في
هذه الحال التي هم عليها ، لهلكوا في العذاب المهين ، وجل قول الحق ﴿ ما ننزل
الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين ﴾ ﴿٢﴾ .

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

إننا لو أردنا أن نرسل إلى الناس رسولاً ملكاً لكان على هيئة رجل ، ليتمكنهم
مخاطبته ، والانتفاع بالأخذ عنه . ثم إننا لو فعلنا ذلك ، لالتبس عليهم الأمر ، كما هم
تختلط عليهم الأمور مع أنفسهم في قبول رسالة الرجل البشري ، وهو محمد - صلى الله
عليه وسلم - .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

(٢) الحجر : ٨ .

(١) المائدة : ٥٤ . وارجع إلى تفسيرها في سورة المائدة .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

إن الله - سبحانه وتعالى - يواسي نبيه ، ويخفف عنه من عنت الكافرين المنكرين ، ويسليه في تكذيب من كذبه من قومه ، ويعده بالنصر له وللمؤمنين به ، وأن النصر للنبي لا محالة ، والدائرة السوء على المكذبين . والعاقبة الحسنى للمتقين .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١﴾

أى فكروا فى أنفسكم ، وانظروا عاقبة المكذبين . ألم تسبقكم أمم كذبت كما تكذبون ، وتعالى عن الحق وضلت وأضلت ؟ . أين الذين كذبوا نوحاً ؟ أين النمرود ؟ أين عاد ؟ وثمود ؟ وفرعون ؟ والظالمون ؟ .

انظروا أيها المكذبون ما أحل الله بالقرون الماضية ، الذين عاندوا رسلهم ، وما آتاهم من العذاب والنكال ، والعقوبة فى الدنيا ، وما ينتظرهم فى الآخرة من عذاب مهين ، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين .

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفْرُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾

قل يا محمد للناس كافة : ﴿ لمن ما فى السموات والأرض ﴾ ؟ فإن لم يحبيوك ، فقل لهم : إنها لله ، الذى خلقكم من تراب ، ثم صوركم فى أحسن تصوير ، وبث فىكم العقول والأفهام ، ثم كلفكم بمعرفته ، فمنكم من آمن به ، ومنكم من كفر ، وسوف يجمعكم ليوم القيامة لا ريب فيه ، فالذين خسروا أنفسهم بعدم إيمانهم ، ستقتلهم الحسرة على ما فاتهم من واجب الإيمان بالله ، ولن يجدوا لهم أولياء يدفعون أو يدافعون عنهم .

وكتب على نفسه الرحمة أى وعد بها فضلاً منه وكرماً فلذلك أمهل « وذكر النفس هنا عبارة عن وجوده وتأكيد وعده » (١) .

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٣﴾

(١) تفسير القرطبي ٦ / ٣٩٥ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

أى كل دابة فى السموات والأرض ، الجميع عبادك وخلقك ، وإن من شىء إلا يسبح بحمدك وتحت تصرفك وتدبيرك ، لا إله إلا أنت .

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُوا لِيَا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾

لا أتخذ إلهاً ولا ولياً إلا الله سبحانه ، ولا شريك له ، فإنه خالق الأرض والسماء ومنسقهما ومبدعهما . أما قوله تعالى ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ أى وهو الرزاق لغيره ولا يرزقه أحد دون حاجة إليهم .

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

يعنى عذاب يوم القيامة . قال ابن عباس (أخاف) هنا بمعنى أعلم .

مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ يَفْقَدُ رَحْمَةً وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

أى : من يصرف عنه العذاب ﴿ فقد رحمه ﴾ ، بمعنى قوله تعالى : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ ^(١) الفوز بدخول الجنة والحصول على جزاء الأعمال الصالحة .

وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

سبحان الله ! هو الفعال لما يريد : يمرضك ويشفيك ، يغنيك ويفقرك ، يمنحك القوة البدنية ويختبرك بسلبك إياها ، كل ذلك ؛ لتعلم أنه لا إله هو وحده لا شريك له . نعم . . الفعال لما يريد ، القابض الباسط ، المانع المعطى ، فلم تعبد أيها الإنسان غيره ؟ ولم تخاف سواه ؟ !! وكيف لا تقيم حكمه ؟

إن الله سبحانه وتعالى هو مالك الضر والنفع المتصرف فى خلقه حسبما يريد ولا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه

(١) آل عمران : ١٨٥ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وأخرج البخارى فى صحيحه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول (اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد) (١) .

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

كل الرقاب قد خضعت لله سبحانه ، وعنت له الوجوه ، لأنه هو الحى القيوم الدائم ، وتضاءلت أمام قدرته كل الخلائق ، لأنه هو خالق السموات والأرض ، حكيم فى جميع أفعاله ، خير بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطى إلا من يستحق ، ولا يمنع إلا عمن لا يستحق .

قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

أليس الله الذى خلق الخلق ، فسوى أفهامهم ، وقدر أرزاقهم وأجاهم ، هو المستحق وحده للعبودية والاحتكام إليه ؟ . . . بلى . فمن أولى بالشهادة عليهم منه سبحانه ؟ فإن خالفوه وعصوا أمره : فمن أولى بعقابهم ؟ إنه الله ، ولكن عدله اقتضى أن ينزل عليهم قرآنا ، أوحى به إلى نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فأنذرهم به : أن من أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار ، لأن الله سبحانه وتعالى هو العادل والعليم . وقوله سبحانه ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ ﴾ هو مقول القول فى الآية لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، أى قل يا محمد إنه قد أوحى إلى هذا القرآن وأيدنى به ربى لأنذرهم به ومن بلغ .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

(١) كتاب الدعوات باب الدعاء بعد الصلاة .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

إن الله سبحانه وتعالى يخبر عن أهل الكتاب أنهم يعرفون ويعلمون هذا القرآن جيداً كمعرفتهم لأبنائهم ، وذلك بما عندهم من رصيد الأخبار الموجودة في كتبهم ، والأنبياء عن الرسل المتقدمة ، والأنبياء التي جاءتهم وجاءت لأمم قبلهم ، لذلك : أخبر أنهم قد خسروا كل الخسارة ، وخسروا أنفسهم بسبب إنكارهم هذا .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾

إن الظالم المفترى بكذبه على الله ليس أحد أقطع منه قبحاً وضلالاً وظلماً . والله تبارك وتعالى قضى بأن الظالمين لا يفلحون ، مهما ظنوا أنهم انتصروا بامتلاكهم بعض متاع الدنيا ، ومن ذلك البعض : الحكم بغير ما أنزل الله ، وزخرف الدنيا المكتسب من حرام ، وكل كسب حرمه الله فهو في النار .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾

في يوم القيامة يسأل الحق تبارك وتعالى الذين أشركوا بالله ، فعبدوا الأصنام ، أو اعتقدوا أن في يد البشرية أن تتدخل فيما يضر وينفع بغير مشيئة الله تبارك وتعالى - وذلك شرك - سوف يُسأل هؤلاء المشركون عن الأصنام والأنداد الذين أشركوهم في الحاكمية لله سبحانه وتعالى ونحووا الله جانباً في كل أمور حياتهم ، وفي كل أمور دنياهم . والمقصود من هذا الكلام هو التقرير والتبكي لا السؤال .

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

توبيخ وتقرير لهم كذلك ، لأنهم سوف يتصلون من الإجابة رغم كذبهم ، ورغم فعلهم الحقير ، وشركهم بالله سبحانه ، واتخاذهم الحاكمية لغير الله في الدنيا ، ولتخليهم عن ربوبية الله وحده . لكن هذا اليوم هو يوم تزيغ فيه الأبصار ، ولا ينفع الشركاء شركائهم ، فهم كاذبون في الدنيا وفي الآخرة .

أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

إن في ذلك لعبرة لمن يتوهم أنه يستطيع أن يدلس على الله ، ويفترى عليه جحوداً وظلماً .

سُورَةُ الْأَنْجَافِ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا
كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾

وإذا جاءوك يا محمد لا يستمعون إليك أملاً في التفقه ، ولكن ليجادلوك ، ويهاروا
في الحق ، ليدفعوا عن أنفسهم أنهم مجرمون آثمون لكفرهم بك وبما أنزل عليك من عند
الله . وقد جعلنا على قلوبهم أكنة - أى : أغطية - من ظلمة كثيفة ، وبها لا يستطيعون
أن يفقهوا ما يُلقى إليهم ، ففى آذانهم وق ، أى صم عن السماع النافع .
وبالرغم من ذلك جاءوا يجادلونك يا محمد ، أى يحاجونك وينظرونك في الحق
بالباطل ، ويقولون : إن هذا القرآن من أساطير الأولين المنقولة عنهم .

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

إنهم يجمعون بين الفعلين القبيحين ، فهم يردون الناس عن محمد - صلى الله عليه
وسلم - ويبتعدون بأنفسهم عنه ، وعن اتباع الحق ، وتصديق الرسول ، والانقياد
للقرآن ، وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم ، ولا يعود وباله إلا عليهم وهم لا
يشعرون .

وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا لَيْلَتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من أهوال
بأعينهم . إنهم لا تلين قلوبهم ولا تصحو ضمائرهم ، إلا عندما يرون العذاب . إنهم لما
شاهدوا النار ، ووجدوا أنهم واقعوها ، ورأوا بأعينهم تلك الأغلال والسلاسل
والأهوال العظام ، تمنوا ساعتها أن يُردوا إلى الدار الدنيا ، ليعملوا العمل الصالح ،
ويكونوا من المؤمنين .

بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾

إنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان ، بل خوفاً من العذاب الذى

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

عائنه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ، ولو ردّوا لعادوا لما كانوا عليه من كفر وفسوق . وفي هذا دليل من الله سبحانه وتعالى على مدى فجرهم ، وعنادهم له ، وخروجهم عن طوعه وأمره ، ومروقهم عن الحق .

وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤٩﴾

ظلمة كفرهم قتلت جوهر الإبصار عندهم ، فصاروا ينظرون ولكن لا يبصرون ، وقلوبهم قد طبع عليها في الوقت نفسه ، لا يستطيعون أن يفقهوا بها ، ولا أن يدخل الإيمان فيها . إنهم لا يظنونها إلا حياة واحدة ، فقالوا ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٥٠﴾

إنهم لو وقفوا بين يدي الله وسئلوا : أليس هذا الذي تشهدونه وتروونه بحق ؟ لقالوا : بلى إنه حق يا ربنا . فلما شهدوا على أنفسهم ، وتناقض قلوبهم وفعلهم في الدنيا ، قال لهم سبحانه وتعالى ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفركم في الدنيا . « وفي هذا تقرير وتوبيخ » ^(١) .

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٥١﴾

لما تعالوا على أمره فلم يطيعوه ، أخذتهم الحياة الدنيا بزخرفها ومتاعها ، فاستغرقتهم فتنها ، فعبدوا ذهبها وزخرفها ، وأنفقوا ليلهم ونهارهم في جمعها .

ولما كانت الساعة تأتي بغتة ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ ^(٢) .

(١) انظر : تفسير القرطبي ٦ / ٤١١ .

(٢) المؤمنون : ١٠١ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

فإن كل إنسان ساعتها يندم على ما فرط في جنب الله ، وما قد فاته من فعل الصالحات . . !!

حينئذ ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴿ ^(١) وصاروا يحملون أوزارهم على ظهورهم ، وهى صورة قبيحة لمنظرهم أمام الله يوم القيامة . وكأن الكافر يوم القيامة دابة تحمل عليه أوزاره التى فعلها فى الدنيا .

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

أى إنما غالبها كذلك . والذين اتقوا كان لهم تدبير وحكمة ، خرجوا بهما من الدنيا سعداء . ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ي أهل اللهو والجهل والغرور ؟ ياليتكم تعقلون . !!

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى مسلينا لنبيه صلى الله عليه وسلم فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه ، لا تحزن يا محمد فإنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم ، كما قال أبو جهل للنبي - صلى الله عليه وسلم - : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

إذ يلوح الشيطان لهم بالدنيا فيغرقهم فى ظلماتها فيجحدون بآيات الله ، ويكذبون رسله ، لعدم قدرتهم على استيعاب ما حمل الرسول من حق ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وحرصاً منهم - كذلك على دنياهم أن تُسلب منهم بنبتك . ورسول الله لا يطلب دنيا ، ولكن الله اختاره واجتباه ليكون نوراً يهدى إلى صراط

(١) يس : ٥٢ ، ٥٣ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

مستقيم ، لكنهم في الآخرة سنذيقهم عذاباً مهيناً ، فهم قد كذبوا رسلاً قبلك يا محمد ، وهؤلاء الرسل قد صبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله .

يقول الإمام الرازي رضى الله عنه : « اعلم أنه تعالى أزال الحزن عن قلب رسوله . . . بأن بين أن تكذيبه يجرى مجرى تكذيب الله تعالى . . . ثم بين أن سائر الأمم عاملوا أنبياءهم بمثل هذه المعاملة ، وأن أولئك الأنبياء صبروا على تكذيبهم وإيذائهم حتى أتاهم النصر والفتح والظفر ، فأنت أولى بالتزام هذه الطريقة ، لأنك مبعوث إلى جميع العاملين . فاصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا . » (١)

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٥﴾

« . . . تلك سنتنا يا محمد ، فإن كان قد كبر عليك إعراضهم ، وشق عليك تكذيبهم ، وكنت ترغب في إتيانهم بآية . . . إذن ، فإن استطعت فابتغ لك نفقاً في الأرض ، أو سلماً في السماء فأتهم بآية . إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية ، إذ ليس الذى ينقصهم هو الآية التى تدلهم على الحق فيما تقول . . . ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى (٢) » .

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾

إنما يستجيب لك يا محمد الذين قدروا الله ، ووعوا أمره ، فتفتحت لذكره قلوبهم قبل أسماعهم . أولئك هم الأحياء ، أما الموتى فيبعثهم الله على صورتهم القبيحة المحرومة من رحمة الله ، وهؤلاء هم الذين ماتوا على الكفر أعادنا الله منهم .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

(١) انظر تفسير الرازي ٢٠٦/١٢ .

(٢) انظر ظلال القرآن سيد قطب ج ٢/ ١٠٧٨ طبع دار الشروق .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

إنه سبحانه وتعالى قادر على إنزال ما يطلبون ، ولكن حكمته تقتضى تأخير ذلك ، لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ، كما فهمنا من الآية السابقة ، ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة ، ولكنها رحمة منه أن يمهل ولكنه لا يهمل .

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ
مِنْ شَيْءٍ نُنَمِّرُ إِلَى رَبِّهِمْ يَحْشُرُونَ ﴿٣٨﴾

« يقول مجاهد ﴿إلا أمم أمثالكم﴾ أى : أصناف مصنفة تعرف بأسمائها ، وقال قتادة : الطير أمة ، والإنس أمة ، والجن أمة . وقال السدى : أى خلق أمثالكم » (١) .
إن الله سبحانه وتعالى رغم كثرة هذه المخلوقات : لا ينسى واحداً منها سبحانه هو القائل ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ (٢) .

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُوبَكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

أى مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم ، كمثل أصم لا يسمع ، أبكم لا يتكلم ، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه ؟ إن الله تعالى هو المتصرف في خلقه بما يشاء . من شاء الله أضله بقديم علمه وعدله ، والذين نور قلوبهم إنما كان ذلك عطاءً منه سبحانه لهم ، جزاء صدقهم ، فأنعم عليهم ، وجعلهم على صراط مستقيم ، ولهم عنده مغفرة ورضوان . إنهم أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وأتباع كتاب الله ، وذلك هو الصراط المستقيم .

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾

قل يا محمد لهؤلاء الذى يجادلون : أترجعون إلى غير الله إن أتاكم عذاب الله في

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٣١/٢ .

(٢) هود : ٦ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

الدنيا ، أو أتاكم العذاب يوم القيامة ؛ لكى يدفع عنكم هذا العذاب وهذا الضر الذى يقع بكم !!؟

يقول الحق سبحانه إجابةً على هذا السؤال الاستنكارى :

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

أى إنكم فى وقت الضرورة سوف لا تدعون أحداً إلا الله ، وستنسئون ساعتها أصنامكم وشركاءكم وألهتكم التى كنتم تدعونها من دون الله .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾

وقد أخذهم الله بعذاب شديد ، فأذاقهم بأساء الفقر والمرض والحرمان . الحرمان من فهم حقيقة الإنسان ، لكنهم عندما يصرون على إنكار الله ولا يتضرعون إلى الله ليكشف عنهم ظلمة الجحود والكفر ، فإن الله يأخذهم بهذه البأساء والضراء .

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

وفى ذلك : نفى التضرع منهم ، والتقدير : فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا . وذكر كلمة (لولا) يفيد : أنه ما كان لهم عذر فى ترك التضرع إلا عنادهم وقسوتهم ، وإعجابهم بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم والله أعلم ^(١) .

« والقلب الذى لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة ، ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس ، وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه ، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة التى تنبه القلوب الحية للتلقى والاستجابة » ^(٢) .

إن الشدة ابتلاء من الله للعبد .

فالإنسان المؤمن يتلقى هذه الشدائد بإيمان عميق ، بعيد عن سطحية التدين المنقوص ، الذى يجعل صاحبه يهرع ويجزع ويتألم . هذا إن لم ييأس ويقنط من رحمة الله ، والعياذ بالله .

(٢) ظلال القرآن ج ٢ / ١٠٨٩ .

(١) تفسير الرازى ١٢ / ٢٢٥ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

فمفهوم الشدة والابتلاء في القرآن الكريم هو مفهوم إيماني عميق ، لا يفهمه ولا يتلقاه إلا من في قلبه مضغة حية من الإيمان ، تستجيب لرغبات الله وتعلم أن كل شيء من عنده .

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

هؤلاء القوم قد أعرضوا عن الله ، وجعلوه وراءهم ظهرًا ، فكان هذا اللون من العذاب ، وهو فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون ، استدراجًا لهم ، وإملاءً منه سبحانه ، حتى يفرحوا بهذا الرزق ، وهذا النعيم الذي لا ينتهي ، سواء أكانت أموالاً أم أولاداً أم أرزاقاً أخرى وقد فرحوا . . ثم أخذنا هذه الأشياء بغتة على غفلة ، فإذا هم مبلسون أي يائسون من كل خير .

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - يخافون من إقبال الدنيا عليهم ، لأنها تلهي وتغر ، خشية أن تؤخذ منهم بغتة ، فيقعوا على ما وقعوا فيه نادمين ، وخشية أن تلهيهم عن ذكر الله ، لأن الإنسان عادة يستغنى عن القوة القادرة إذا رأى نفسه في نعيم محيط به . ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ أن رآه استغنى ﴿ ويقول الحق بعدها مباشرة ﴾ إن إلى ربك الرجعى ﴿ وهذا تذكير بأن كل شيء لا محالة زائل ، وأن النهاية في الرجوع إلى الله بالأعمال الصالحة .

فيجب أن يشكر الإنسان دائماً ربه ، وأن يقتنع بكل ما يأتيه من رزق ، ولا يلهث وراء الدنيا لهثاً ، فإن الأرزاق تأتي بمقادير ، فلنطلب الدنيا بعزة وإيمان لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

يقول الإمام القرطبي : « الدابر : الآخر ، يقال دبر القوم يدبرهم دبراً إذا كان آخرهم في المجيء . . . والمعنى هنا قطع خلفهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقية . قال قطرب : يعنى أنهم استصلوا وأهلكوا ^(١) » .

(١) انظر : تفسير القرطبي ٤٢٧/٦ .

سُورَةُ الْاِنْعَامِ

قُلْ اَرَاَيْتُمْ اِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَابْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ اَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْاٰيٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُوْنَ ﴿٤٦﴾

إن الإيمان نعمة ، واكتساب الأفهام نعمة ، وحب الله نعمة ، والتفقه في الدين نعمة ، وارتجاف القلب من ذكر الله نعمة ، والقلب الحى النابض المتلهف دائماً على ذكر الله نعمة . ماذا تفعلون إن سلب الله منكم هذه النعم ، وختم على قلوبكم ؟ هل ستجدون غير الله يعوضكم من هذه النعم التى فيكم : نعمة الحياة ، ونعمة الوجود ، فغير الإبصار والسمع والقلب هل يحيا الإنسان ؟!! .

إنه بغير تلك النعم يصير في الأموات ، الذين ليس لهم في عالم الآخرة كذلك إلا الهلاك . فلينظر أصحاب العقول والقلوب كيف نبين الآيات ، لأن الله خلق الخلق وخلق فيه ما يدل عليه من آيات خلقه وإبداعه ، وكلها شاهدة على أنه الخالق المبدع المصور . فكيف تعبدون من دونه ، وكل ما دونه باطل ؟ فانصفوا أنفسكم ، ولا تعرضوا عن الحق ، وتصدوا الناس عن اتباعه !!

قُلْ اَرَاَيْتُمْ اِنْ اَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً اَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ اِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِيْنَ ﴿٤٧﴾

ماذا سيكون حالكم عندما ييغتكم الموت على حين غفلة منكم ، فتنقلون من زخرفكم في الدنيا وإثمكم ، إلى عذاب أليم ، وهل نهلك إلا القوم الظالمين ؟!!

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِيْنَ اِلَّا مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ فَمَنْ اٰمَنَ وَاَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ﴿٤٨﴾

إن أنبياءنا يبشرون عباد الله المؤمنين بالخيرات ، وينذرون الكافرين بالنقمات والعقوبات . إنهم يأتون بالبشرى بالجنة وبرضوان من الله أكبر لمن قالوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، بقلب تعرف على ربه فأحبه وأطاعه ، وامثل لأوامره ، ولم يشرك معه أحداً في حبه لذاته سبحانه ، ولكنه خصه بتوحيد القلب له ، فهو في ضميره الفعال لما يريد، المحيى المميت ، هذا العبد مع الذين أنعم الله عليهم ، فلا يخاف ولا

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

يحزن ، وهو آمن يوم الفزع الأكبر . إنه في عباد الله المخلصين ، الذين عاشوا في الدنيا ذاكرين لله دائماً ، خاشعين له ، يخافونه ويخافون سوء الحساب . هؤلاء القوم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤١﴾

أولئك الذين في غطرسة وجهل كذبوا بآيات الله : لهم في الآخرة غضب من الله ، يدخلون به النار في انكسار وذلة ، فقد هتكوا في الدنيا ستر الطاعة بانتهاك حرمت الله ، فينالهم العذاب بما كانوا يفسقون .

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَنْتَبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

قل يا محمد للكافرين : أنا عبد الله ورسوله ، لا ملك لي في الأرض ، ولا خزائن لي فيها ، ولا أعلم الغيب ، إنما ذاك من علم الله عز وجل ، وأنا كذلك لست بملك ، أى إننى : بشر ، رسول ، عبد الله ، يُوحى إليّ من ربي ، بأمره أبلغكم إياه . فيه نفعكم في الدنيا والآخرة ، والذي أبلغكم إياه إنما هو الحق من ربكم ، وليس لي فيه مصلحة ، ولا أستطيع أن أحذف أو أضيف . إن هو إلا وحى يوحى إليّ ، أنزله إليّ ربي ، وأنا أمين عليه وعلى تبليغه ، قل هل يستوى الأعمى مع البصير ، في قدراته الحركية ؟ .

ليس الذين يفرقون بين الحق والباطل فيهجرون الباطل ، ويتمسكون بالحق ، يتساوون مع الذين لا يبصرون ، ولا يفقهون ، ولا يفرقون بين الظلمات والنور ، والحق والباطل . أفلا تتفكرون .

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٤٣﴾

فأنذر يا محمد بهذا القرآن الذين هم من خشية ربهم مشفقون .
أنذرهم يا محمد لعلهم يعملون بهذا القرآن في هذه الدار عملاً ينجيهم به الله سبحانه وتعالى من خزي الآخرة .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمِمَّا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾

يا محمد إن الذين جاءوك يقولون لا إله إلا الله محمد عبده ورسوله ، هؤلاء سلموا بها جئت به وهم خلصاؤك ، فقراء وأغنياء . لا تؤثر عليهم كبار القوم ، فأكرم القوم عند الله أتقاهم ، والله يرفع بالإيمان لا بجاه الدنيا ، والذين أعرضوا عنك يا محمد من قومك ما عليك من حسابهم ، إن حسابهم إلا على الله .
والله يزن الناس بموازين الإيمان . وتقوى الله وخشيته ، وحاش لله يا محمد أن تكون نصيراً للظالمين ، إن فعلت ذلك . فلا تذهب نفسك على أهل الدنيا حشرات ، لعل الله يرشدكم للحق ، وتطيب نفسك ، لكن الله لن يجعلك أبداً لهم أو معهم ، ولقد سبقت لك منا الحسنی والعصمة والفوز العظيم .

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾

يا محمد إذا قال لك الكبراء في الدنيا أهؤلاء من الله عليهم وأعطاهم نعماً كثيرة من بيننا وكانوا خدماً لنا وعبداً ، فهذا الذي يقولون يدل على جهلهم ، إذ إن الله يمتن على من يشاء من عباده ، ولو عقلوا ما قالوا ذلك ، كما قال قوم نوح لنوح : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ ^(١) وكقوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ ^(٢) والجواب في قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً ﴾ ^(٣) .

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

(٣) مريم : ٧٤ .

(٢) مريم : ٧٣ .

(١) هود : ٢٧ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

يا محمد إن الذين صدّقوا بك ، ولم يجادلوك في الحق لما جاءهم ، بل آمنوا بآياتنا : هؤلاء خلصاء عقيدة الإسلام يذودون عنها بالروح والمال والولد والزوج ، يعيشون في شوق دائم إلى ما أنزل الله إليك ، قل لهم يا محمد : مادمتم قد ارتديتم أردية لا إله إلا الله محمد عبده ورسوله ، فاعلموا أنكم إذا جهلتم أو أذنبتم أو وقعتم في سهو أو نسيان ، فاعلموا أن الله قد خصكم برحمة من عنده إذ فتح لكم باب التوبة ، وهو الغفور الرحيم ، يغفر لكم الذنوب ، ويقبل منكم التوبة ، ما دمتم قد عزمتم على ألا تعودوا ، وأصلحتم العمل . ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ فأكرمهم يا محمد ، وردّ عليهم السلام ، وبشرهم بهذه البشريات الكبيرة العظيمة ، وبهذه الرحمة التي أوجبها رب العزة على نفسه ، كرماً منه وإحساناً وامتناناً .

وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

يبين النبي - صلى الله عليه وسلم - بما أوحى إليه من ربه لأتمته ما غمض عليها في معرفة الطريق إلى الله ، وآيات الله في كونه شاهدة على قدرته ورحمته وقهره ، فمن شرح الله صدره للإسلام وللإيمان فتعرف على صراط الله فاتبعه ، فقد نجا وأصبح من المنعم عليهم . وأما من ضلّ عن الحق ولم يستب ولم يخلص إلى طريق الله وإلى الصراط المستقيم ، فقد ضلّ ضلالاً بعيداً .

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِئُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذْ أَوْمَأْتُ مِنَ الْهَادِينَ ﴿٥٦﴾

قل لهم يا محمد : إن الله قد عصمك بنهيه عن اتباع طريق الشيطان . والشيطان لا ولن يستطيع أن ينفذ إلى مجالسته - صلى الله عليه وسلم - ، ولا يجرؤ أن يقترب منه . وقل لهم يا محمد كذلك : إني على نور وبصيرة من الله ، لا أتبع طريقكم ولا أهواءكم ، ولو اتبعت ذلك لخسرت الدنيا والآخرة ، وما أنا مأمور بذلك ، وحاش لله أن أفعل ذلك .

قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴿٥٧﴾
الْحُكْمُ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ ﴿٥٧﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

إن الله - سبحانه وتعالى - هو خير من يفصل في القضايا ، وخير الفاصلين في الحكم بين عباده ، فقل لهم يا محمد : إننى على بينة من ربي ، وما عندي من العذاب الذى تستعجلونه إنما يرجع إلى الله ، إن شاء عجله لكم فى الدنيا ، وإن شاء أجله وأنظركم ، لما له فى ذلك من قدرة وحكمة لا يعلمها إلا هو .

قُلْ لَّوْأَنَّ عِنْدِي مَّا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

دلت هذه الآية على أنه لو كان إليه - صلى الله عليه وسلم - وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿٥٩﴾

إن الله - سبحانه وتعالى - وحده يعلم ما هو ظاهر وما هو غائب مستور ، وما من ورقة إلا وهى معلومة مكاناً وزماناً وأجلاً ، والجنة يعلم مستقرها ، ومتى تُستتب ، أو حتى يؤكل ثمرها ، وكل شئ عنده بمقدار ، وكل مفاتيح الغيب هى له ، سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ويروى أن مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ^(١) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَى أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ^(٢) .

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

خلق الله الإنسان بفطرة بشرية ، من خصائص احتياجاتها أن تنام بالليل وتبعث

(١) ابن كثير : ٢ / ١٣٧ .

(٢) لقمان / ٣٤ .

شُكْرُ الْإِنْسَانِ

بالنهار ، بحركة مدركة واعية في تحصيل ما كتب الله لها من رزق تحصله بجهد رزقها الله به ، وقضاه لها بفهم وإدراك .

والإنسان مسئول عما يكتسب في نهاره وليله ، وقد بين الله للإنسان مسار الحلال في ليله ونهاره ، والفتن من يسأل نفسه عند النوم عما حصله من الخير أو من الشر ، فإن كان خيراً شكر الله ، وإن كان شراً تاب واستغفر .

والإنسان ينام في حراسة الملك المكلف بنومه وبعثه ، والله - سبحانه وتعالى - يبعث العبد من نومه لتحصيل رزقه في النهار . ومن فضل الله على المسلمين أن يختتموا يومهم بصلاة قبل أن يناموا ، ثم يفتتحوا يومهم بصلاة الصبح حين يبعثهم من نومهم . وهاتان الصلاتان هما صلاة العشاء وصلاة الفجر . فالمؤمن ينام على صلة بربه ، ويبعث من نومه على صلة بربه .

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿١١﴾

وهناك ملائكة حفظة يحصون عمله نهاراً ، ويحفظونه في نومه ، والأعمال عنده بالنيات ، فليحذر المؤمن غضبه ، وليحرص على مرضاته في ظلمات الليل ووضوح النهار ، حتى إذا رجعنا إليه يكون لنا شرف الطاعة والنجاة من المعصية . فالله هو القاهر بقوته لكل الخلق ، فيجب علينا أن نخافه - سبحانه وتعالى - عن حب وعن علم منا أنه القادر ذو البطش الشديد على من عصاه ، والرءوف الرحيم لمن خاف قهره وغضبه وسلطانه .

وجل قول الحق ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾^(١) وجل قوله ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيد * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد ﴾^(٢) .

أما قوله تعالى ﴿ وَهُمْ لَا يَفْرَطُونَ ﴾ أى إن هؤلاء الملائكة الحفظة الكرام لا يفرطون في

(١) الانفطار : ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٢) ق : ١٧ - ١٨ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

حفظ روح المتوفى بل يحمونها ويحفظونها وينزلونها حيث شاء الله - سبحانه وتعالى - إلى أن يشاء الله .

ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿١٢﴾

يردّ الله سبحانه بقدرته الخلاق كلهم إليه يوم القيامة ، فيحكم فيهم بعدله ، وجل قول الحق ﴿ قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ (١) .

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مَنْ ظَلَمْتِ الْبَرَّ وَالْبِرَّ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾

إن الله سبحانه وتعالى يمتن على عباده في أنه ينجي المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر عندما تقع بهم الشدائد . والعبد كلما استغرقته مصائب الدنيا وابتلاءاتها من ضيق ذات يد ، أو أزمة مرض ، أو مصيبة في ذات نفسه أو ولده ، هل يجد غير الله يستنجد به ؟ وهو في مصيبتة كالغريق ينظر شماله ويمينه وفوقه وتحتة فلا يجد غير الله فينصرف إليه حتى عن نفسه ، فينادى ربه بكل جراحة فيه : ربى ليس لى سواك ، ويجد ربه غفوراً رحيماً كريماً . لهذا يقول الحق :

قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾

فأنتم يا عبادى تعلمون أننى أنا الله العزيز الحكيم الفعال القادر ، بفضلى أنجيكم من أى شدائد تحيط بكم ، ولكنكم ترتدون على أعقابكم عند زوال الشدة ، فتكفرون بنعمى ، وتخافون غيرى ، فتشركون بى ، وذلك لجهلكم أننى الفعال الضار النافع . ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾ (٢) فلو أنصفتكم أنفسكم ما خشيتكم سوى وما شكرتم غيرى ، وما أشركتم بى أحداً .

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۚ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾

(٢) العلق : ٦ ، ٧ .

(١) الواقعة : ٤٩ - ٥٠ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

قل يا محمد إن الله الذى نجاكم من ظلمات البر والبحر ، ثم عصيتم أمره ، هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً لا تدرون من أى مكان يأتى ، من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم ، أو يجعلكم شيعاً - أى جماعات متفرقة مختلفة متقاتلة متناحرة - فيهلك بعضكم بعضاً ، وتصبحون فرقاً متحاسدة ومتفرقة ومتباغضة ، ويذيق كل فريق بأس الآخر ، بكرامية حاقدة .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « سألت ربي ثلاثاً : فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسفه : فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق : فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها » (١) .
والحق سبحانه وتعالى يصرف آياته فى الأرض وفى السماء وفى أنفسكم ، لعلكم تفقهون حقيقة وجودكم ، وضعفكم ، وعظمة الخالق ، الذى خلق فسوى ، وجعل لكم عقلاً يدرك ، ونفساً تفقه ، لعلكم تشكرون نعمته بما فقهتم .

وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾

إن قريشاً قد كذبت بهذا الكتاب الذى هو هدى ورحمة للمؤمنين ، فقل لهم يا محمد لست موكلاً بكم ، إنما عليّ البلاغ ، وما أنا إلا نذير ، ولن أستطيع أن أحصى عليكم أعمالكم ، فمن أطاع فقد أطاع الله ، ومن عصى فقد عصى الله . ولهذا قال ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ أى لكل شىء نهاية ، وعندها سوف تعلمون أن الله حق ، والآخرة حق ، وتؤجرون فيها على ما قدمتم فى الدنيا . ولكن عند ذلك لا يستطيع عبد أن يغير ما سبق . فأهل التقوى والطاعة فى عفو الله ، وأهل المعصية فى غضب الله وشقاء مقيم .

(١) رواه مسلم كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة . . الخ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

كل ذلك سيعلمه المكذبون ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿^(١).

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ ويكذبون بها فلا تقعد معهم . وهذا الخطاب موجّه لكل الأمة المسلمة ، لأن حضرة المخاطب وهو رسولها - عليه الصلاة والسلام - ، وهو وليها ، بعث ليبلغ هذا الذكر وهذا القرآن إلى أمته ، على أكمل وجه وبكل أمانة . وعلى الأمة أفراداً وجماعات أن يقوموا على كتاب الله وسنة نبيه . دونها تغيير أو تشويه أو تبديل . ويجب على المسلم أن يفارق مجلس هؤلاء الظالمين إذا أصروا على إثمهم ، ولم يتوبوا ويرجعوا إلى الحق ، باتباع الإسلام ، فلا يجوز استمرار مودتهم ، والجلوس إليهم . إنهم رجس وظلم عظيم .

﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾^(٢).

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآئِلِهِمَا آلِهَةً وَأَعْرَضُوا عَنْ حَيَاةِ الدُّنْيَا وَذَكَرِ رَبَّهُمْ
أَنْ يُبَسِّلَ نَفْسٌ يَمَّا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ
كُلُّ عَدْلٍ لَا يَأْخُذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ
حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧﴾

يا محمد : اترك الذين نظروا إلى دين الله بما لا يليق ، فاتخذوا هذا الدين هزوا ، وذلك من جهلهم وغرورهم بالدنيا ، واطرك هؤلاء حتى يأتوك صاغرين أو يهلكوا بكفرهم ، وقل إن الله يأخذ النفس فيحاسبها ويعاقبها ويسألها ، فإما إلى الجنة بما عقلت وتدبرت أمرها فأطاعت الله ، وإما أعرضت عن طريق الله فهلكت ولن تجد من دون الله منقذاً ولا شافعاً . ولا يستر العبد غير الله فاحذروا أن تفضحوا بمعاصيكم ، وتعيشوا بلا مُعلِّم ينقذكم في الدنيا من ذلك الضلال الذي استغرقكم وبلا شفيع يوم القيامة لكم حين تُبَسِّل - أى تفضح - ويعلن عن جرائمها ، وأولئك ليس لهم إلا

(١) الشعراء : ٨٨ - ٨٩ .

(٢) النساء : ١٤٠ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . فأعرض عنهم يا محمد ، وأمهلهم قليلاً ، فإنهم لا محالة صائرون إلى .

أما قوله ﴿ وإن تعدل ﴾ يقول ابن كثير ^(١) : « أى ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها » . وذلك يوم القيامة .

﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ . ^(٢) اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل . اللهم إنا نسألك - يارب - رضاك والجنة ، ونعوذ بك من سخطك والنار .

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ
كَأَلَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى
أَتَيْنَا قُلُوبَكَ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا نُسَلِّمُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾

إن الذين لم يستمعوا لمحمد - صلى الله عليه وسلم - قد استمعوا لشياطين الإنس والجن ، فارتدوا على أعقابهم وانكفثوا على وجوههم ، كأنهم لا يسمعون ولا يبصرون ، وقد رانت على قلوبهم ظلمة الجهل ، وغشاوة الضلال ، فدعوا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر ، ولشدة كفرهم في غير حياء . ولكن الذين اتبعوا محمداً فأسلموا لله وجوههم وقلوبهم قالوا لهم : لا ، كيف نرتد على أعقابنا إلى الضلالة وقد هدانا الله ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور . فكيف نستمع لكم وقد أضلكم الشيطان ، واستهوتكم شياطينه ، فاحسبوا إنكم ومن اتبعكم الهالكون . إن هدى الله وإرشاد نبيه ذلك هو الهدى ، وأمرنا فأطعنا ، وأسلمنا وجوهنا لله رب العالمين .

وَأَنْ أَقِمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٣﴾

أى وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال . وأولئك الذين أسلموا وجوههم استطاعوا أن يقيموا الصلاة إقامة سليمة ، منصرفين فيها عن كل ما حولهم من مشاغل الدنيا ، فتصوروا أنهم بين يديه فعاشوها صلاة صلاة ومحبة في الله .

(٢) آل عمران : ٩١ .

(١) ابن كثير : ٢ / ١٤٤ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ
قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

إنه - سبحانه وتعالى - خلق السموات والأرض بالحق ، أى بالعدل ، فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما ، وقد أقام ملكه الظاهر والباطن ، فأبرز منه ما أبرز ، وستر منه ما ستر ليدل على أنه الواحد القهار البر الرحمن ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . يقول للشيء كن فيكون ، ويوم النشور ينادى كل الكون لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . وله وحده سر الكون وبما يقوم وبما ينتهى عليه . بحكمته أقام الوجود ، وهو صاحب البعث والنشور ، وهو الحكيم الخبير .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ رَأَى أَنَّهُ اتَّخَذَ أَصْنَامًا ۖ يَا أَبَتِ إِنَّكَ وَأَنْتَ أَهْلُ الْبَيْتِ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٧٩﴾

خاصم إبراهيم أباه في الله والله ، وتعجب الأب من قول لم يسمع مثله في قومه وفي حياته ، فقد كانوا عبّاد أصنام ، وعباد بشر ، وادّعى حاكمهم النمرود أنه إله ، وجعل الله سبحانه إبراهيم بعينه ، ولفت عقله وبصره إلى آياته في ملكوت السموات والأرض ، ليكون توحيده بيقين وعلى يقين . فلما جاء الليل رأى إبراهيم نجماً فقال هذا ربي ، فلما أفل - أى غاب - قال : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . أى إننى لا أحب رباً يغيب ، فإن الرب

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

دائم لا يختفى ولا يغيب . ﴿ فلما رأى القمر بازغاً ﴾ - أى ظاهراً فى السماء - ﴿ قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ﴾ .
 وكأن سيدنا إبراهيم عليه السلام يقول لربه : إني بحاجة إليك يا من بعثت بتلك الآيات فى سمائك . إني أحس أن خلف ذلك الكون لها أكبر . فلما رأى الشمس بازغة قال لعل ذلك هو أكبر ممن سبقه من الكوكب والقمر ، فلما أفلت الشمس قال ليس كل ما رأيت هو مطلبى . إني أبحث عن الخالق . وقال لقومه ﴿ إني برىء مما تشركون ﴾ . إني وجهت وجهى للذى لا أراه ولكنى أحس أنه أكبر من كل شىء .
 رأيت أنه فاطر السموات والأرض حنيفاً - أى صاحب شرف كبير - ليس له من يماثله ، لابد أن يكون كذلك . وهذا ما أتصوره ، ويحكى لى قلبى عنه : أنه خالق الكون كله بسمائه وأرضه ، إني أحسّه ينادينى . إنه هو مصدر الطهر والعقل والقدرة . إني موجه قلبى وعقلي وكلى إليه . وما أنا من المشركين ، ولن أشرك به شيئاً .
 يقول ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه السلام كان فى هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام .

وَحَاجَّاهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونَنِى فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِى وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٧﴾
 وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٩﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

أخذ قوم إبراهيم فى جداله بحجج باطلة ، فقال لهم فى ثبات ويقين : ﴿ أتُحاجونى فى الله وقد هدان ﴾ . أى تجادلوننى فى أمر الله وأنه لا إله إلا هو ، وقد بصرنى بالحق .
 إنه واحد قهار رازق : هدانى إليه ، وعرفنى عليه . فإن شئتم النجاة فاتركوا الأوثان والأصنام ، واشهدوا له بربوبيته ، وخافوه إن كنتم مؤمنين .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وكيف أخاف ما أشركتم ؟ إنه أمر عجيب !!! أن تتصوروا أننى أخاف أصنامكم من الحجارة والطين ، وأنتم لا تخافون ربّ السموات والأرض ، والظاهر والباطن . وعجائب قدرته المستورة والمتطورة شاهدة على وجوده . ﴿ فَاِىَ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ !!؟ الذين نظروا فى آيات الخالق فاعتبروا بها وآمنوا به ، أم الذين استعبدهم الشيطان ، فعبدوا حجارة وخشباً ؟!! إن أهل الأمان والسكينة والفلاح عند لقاء الله : هم الذين آمنوا بالله وبرسوله ، ولم يخلطوا إيمانهم بظلم - والظلم هو الشرك - .

﴿ إِنْ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) - فهداهم الله إليه ، فصدقوا رسوله ، وعملوا بما أنزل فى كتبه ، فكانوا مهتدين ، فرزقوا الأمن والفلاح ، أما آياتنا وحجتنا التى آتيناهم إبراهيم فهى انتصاره على النمرود ، ونجاته من النار ، وتعمير البيت الحرام بأمر الله . إن ربك حكيم عليم .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْ لَهُمْ أَقْتَدَةُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

يمن الله على إبراهيم - عليه السلام - بأنه وهب له إسحاق بعد أن طعن فى السن وأيس هو وامراته سارة من الولد ، ومن بعد إسحاق يعقوب . أى أن هذا الولد سيكبر

(١) لقمان : ١٣ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

ويرزق بيعقوب . فيعقوب حفيد لإبراهيم . ومن قبل إبراهيم هدينا نوحا ووهبنا له ذرية صالحة أيضًا ، ومن هذه الذرية الصالحة داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكلهم محسنون هم وبقية الذرية الصالحة زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط ، نسل طاهر من نسل طاهر ، اختارناهم وفضلناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم .

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ يا محمد ، وقل للمعاندين المكذبين إني لأسألكم على إبلاغي لكم هذا القرآن أجرًا . إن الأجر على الله ولا أريد منكم شيئًا . وما هذا القرآن إلا ذكرى لمن يريد التذكر ، وهدى لمن يريد الهداية ، والرجوع إلى النور بعد الظلمة ، والرشاد بعد الغي ، والإيمان بعد الكفر .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٦﴾

أى وما عظموا الله حق تعظيمه ، إذ كذبوا رسله إليهم . هكذا يخبر الله سبحانه وتعالى عن اليهود وعن كل من لم يتقبل دعوة الله بصدق . وكأن الله سبحانه يقرر في هذه الآية أن من كذب رسوله فقد كذبه سبحانه وتعالى . ولو قدروا الله لأكرموا رسوله . فيكفيهم نقيصة وعارًا أنهم لم يفقهوا كيف يستقبلون من جاءهم بالحق مبشرًا ونذيرًا ، ونبيًا من الصالحين ، وسراجًا منيرًا ، فحملوا بذلك عارًا وإثماً مبینًا .

ويا محمد قل لهم ولجميع اليهود المنكرين ، الذين يجعلون كتاب موسى قراطيس أى يجعلون جملتها قراطيس أى قطعاً يكتبونها من الكتاب الأصيل الذى بأيديهم ، ويحرفون منها ما يحرفون ، ويخفون كثيرًا مما جاء فيها حسب أهوائهم : من الذى أنزل هذا الكتاب على موسى ؟

وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٧﴾

سُورَةُ الْاِنْجِيلِ

يعنى القرآن . يشهد هذا القرآن يا محمد بأن الله سبحانه قد أرسلك بالحق ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل ليهتدى بهما بنو إسرائيل ، ويشهد كذلك بصحة ما نزل من الكتب ، ويعطى الخلق - كل الخلق - أسودهم وأبيضهم ما يحتاجون إليه زادًا علميًا يعرفون به ما بقى صحيحًا سليماً من الكتب السابقة ، وسيجدون فيه كل ما يحتاجون إليه فى معاشهم ومعادهم حتى تقوم الساعة ، وسيكون الحساب والجزاء فى الآخرة عليه وبه . فهو الكتاب الخاتم والفائزون بنوره ومعارفه هم الذين على صلاتهم يحافظون . والمقصود بـ (أم القرى) فى الآية مكة ، ومن حولها أى كل العالمين ، وذلك كقوله ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ (١) - ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ (٢) .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، وذكر منهن . . وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس عامة » (٣) .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ
مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا
أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى
اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا
خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ
الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿١٤﴾

أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فجعل له شركاء أو ولدًا ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله . وأفجر من كذب : الذين يكذبون على الله ، ويقولون إن

(٢) الفرقان : ١ .

(١) الأعراف : ١٥٨ .

(٣) رواه البخارى كتاب التيمم باب قوله تعالى ﴿ فلم تجدوا ماء ﴾ إلخ - واللفظ له - ومسلم فى صحيحه ، والنسائى فى سننه عن جابر بن عبد الله .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

الله أَوْحَى إِلَيْهِمْ ، والعبد عندما يتلبس به فجوره يدّعى على الله كذباً ، وذلك أكبر الذنب ، وأبشع الكفر . وهؤلاء الظالمون عندما تنتهى آجالهم فى الدنيا ، ويدخلون فى غمرات الموت ، يتمنون أن يهلكوا ، ويتحولوا إلى عدم ليس له من أثر ، وقد شهدوا الحقيقة .

والحاكم الذى ظلم ، والخائن الذى بغى ، والمستبد الذى طغى ، زالت دولهم ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، وانصرف الجاه والسلطان ، وطاقوت الحكم . إنهم مكشوفة عوراتهم . إنهم أذلاء ، والملائكة تلعنهم . إنهم فى عرصات الجحيم يعيشون ، فأين شركاؤهم ؟ إنهم فى النار ، والملائكة قائلة لهم : ﴿أُخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ﴾ ، فكم افترىتم على الله غير الحق ، وكنتم بعباد الله تستهزئون ، فعيشوا الخزى والعار بما عادىتم الله ورسوله والمؤمنين ، فذلك ما قدمتم ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ . وهكذا يقال لهم يوم معادهم ، وجل قوله ﴿وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ (١) لقد تركتم نعيم الدنيا وزخرفها وراء ظهوركم .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « يقول ابن آدم : مالى مالى (قال) وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت (٢) » .

وها هو ذا يوم القيامة لا يجدون شيئاً غير منادٍ من قبل الحق الذى عنت له الوجوه يقول : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَإِنَّ تَوْفَكُونَ ﴿فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾

إن الذى بعث فى الحبة الجافة حياتها من ماء الأرض وطينها وبها أنزل من السماء فأحيا الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة : هو الله . فكيف تكذبون وتضللون ؟

(١) . الكهف : ٤٨ .

(٢) رواه : مسلم كتاب الزهد والرقائق حديث رقم ٣ - واللفظ له - وكذا رواه : الإمام أحمد فى مسنده ، والترمذى والنسائى فى سننهما .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

هو الذى يبعثكم من أرحام أمهاتكم وكذلك يريكى كيف يسوى الحب فى رحم الأرض ثم ينبته فيستوى على سوقه ، أبعد ذلك تكفرون به وتشركون ؟ إنكم إن أنصفتهم أنفسكم لا تكذبوا . فإن الشرك ظلم عظيم . فاعلموا ربكم و وحدوه وتفكروا فى آياته كى تهتدوا ولا تضلوا فوق ضلالكم . وهو بقدرته خالق الضياء والظلام ، فتفكروا كيف ينسلخ الليل من النهار ؟ وماذا لو كان ليلاً دائماً أو نهاراً دائماً ؟ فاذكروا آلاء الله لعلكم تتقون .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

أى أن الله جعلها زينة للسماء ورجوما للشياطين ، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر . وقوله ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أى قد بيناها ووضحناها لقوم يعرفون الحق ويتجنبون الباطل . إنها آيات لو تدبرها الإنسان لعاش يحاسب نفسه ثم يرشدها لطاعة القادر الخالق العزيز الحكيم . إن الله فصل لنا الآيات لنعتبر ، ونعمل على بعث اليقظة فى القلوب ، لعلها تخشع فتلقى الله فترعى أمره . ولا يفعل ذلك إلا قوم يتبعون الحق بعد أن علموه .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾

النفس الواحدة أى آدم عليه السلام . يقول الحق ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسِ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ (١) . أما مستقر : فمعناها الأرحام ، كما يقول ابن مسعود ، والمستودع : معناه الأصلاب ، وهو رأى ابن عباس ومجاهد وعطاء وآخرين كما أوردها ابن كثير . والله تعالى أعلم .

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مَتْرَاقِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ

(١) النساء : ١ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

سبحانه وتعالى أخرج من الأرض نباتات شتى ، كلها يسقى بماء واحد ، حلوه ومره ، ثم يختلف طعاماً وثماناً وقيمة . كل مختص بمادة غذائية يحتاجها الجسد . سبحان المبدع الخالق و ﴿ تراكباً ﴾ أى يركب بعضه بعضاً كالسنابل ونحوها .
﴿ قنوان دانية ﴾ : قنوان : جمع قنو ، وهى عذوق الرطب . دانية : أى قريبة من المتناول . والمقصود بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض ، كما يورده ابن كثير . فتفكروا فى قدرة الخالق العظيم . إن فى كل ذلك دلالات كبيرة على كمال قدرة الحق سبحانه وحكمته .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٢﴾

ردُّ على المشركين الذين أشركوا مع الله غيره فى عبادته ، مثل الجن ، فجعلوهم شركاء له فى العبادة ، تعالى الله عن شركهم وكفرهم .
﴿ وخلقهم ﴾ أى وقد خلقهم ، فهو الخالق وحده لا شريك له ، فكيف يعبد معه غيره ؟! ومعنى خرقوا فى الآية أى اختلقوا واثفكوا وتخرصوا . ﴿ سبحانه ﴾ أى تقدس وتنزه وتعظم .

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَذَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أى خالقهما ومبدعهما ومنشئهما على غير مثال سبق . فكيف يكون لله ولد وصاحبة وشريك ومساعد ومكافئ وهو خالق كل الأشياء ، وعليم بها ؟

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

سُورَةُ الْأَنْجَافِ

شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ ﴿١٣﴾

إنه هو الله الواحد الفرد الصمد ، ليس له من يماثله ، على كبير متعال ، عظيم لا يدرك ، قادر لا يعجزه شيء ، وهو يعجز كل شيء ، وهو وحده المستحق للعبادة ، فاعبدوه مخلصين له الدين ، تفلحوا وتفوزوا فوزاً عظيماً . واعلموا أن الأبصار لا تدركه ولكنه هو سبحانه يدرك كل شيء ، وهو يدرك الأبصار ، ويعلم حركتها ، وما أبصرته ، وما كفت عن إبصاره ، وهو لطيف خبير ، عفو لمن تاب إليه وعليه .

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٤﴾ وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾

قد جاء محمد - صلى الله عليه وسلم - بحقائق واضحة ، ليخرج بها الناس من ظلمات جهلهم إلى نور المعرفة وتوحيد الله .

والبصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن ، ودلّ عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . أما قوله : ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ فهي نظير قوله تعالى ﴿ مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (١) لذلك يقول الله - سبحانه وتعالى - ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي إنما يعود وباله على نفسه جزاء عماه الذي افتعله ، وجزاء إغراقه لقلبه في اللهو والفجور حتى طبع الله عليه .

هذه هي آيات الله - سبحانه وتعالى - التي توضح أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، والتي يفسر بها مواطن جهالة الجاهلين الذين يقولون يا محمد إنك قد دارست أهل الكتاب الذين سبقوك ، وقارأتهم وتعلمت منهم أخبار الأمم السابقة .

نوضحها لقوم يريدون أن يتعلموا الحق ويعلموه فيتبعوه ، ويريدون أن يعرفوا الباطل فيجتنبوه . فالله - سبحانه وتعالى - متصرف بحكمته كيف يشاء في هداية قوم وإضلال آخرين . وهي نظير قوله تعالى ﴿ يَضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ (٢) .

(٢) البقرة : ٢٦ .

(١) الإسراء : ١٥ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٧﴾

اجتنب طريقهم مع بيانك لهم الحق الذي أنت عليه ، وقل اللهم قد بلغت ، حتى لا تكون لهم حجة يوم القيامة . ولو شاء الله سبحانه لهداهم ، فلا يقع في كونه إلا ما أراد .

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

نهى الله سبحانه عن سب آلهة المشركين حتى لا تقع مفسدة فيسبوا الله ويهجووه ، لشدة جهلهم بالله عز وجل .

يقول قتادة كما يذكر ابن كثير « كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عدوا بغير علم ، فأنزل الله ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴾ » .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩﴾

قد أجهدوا أنفسهم تمامًا ، وأقسموا وحلفوا بأيمان مؤكدة صريحة ﴿ لئن جاءتهم ﴾ معجزة خارقة فسوف يصدقونها ، فقل لهم يا محمد ردًا على هذا الزعم وعلى هذا السؤال الذي يسألونه من باب التعنت والكفر ، لا من باب الاسترشاد والهدى مثلاً : إنما مرجع هذه المعجزات والخوارق إلى الله أيها الناس . فهو إن شاء أتاكم بها وإن شاء ترككم .

وهي نظير قوله تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ (١) . أما قوله ﴿ وما يشعركم ﴾ فالخطاب هنا للمشركين ، وقيل إن الخطاب هنا للمؤمنين ، والمعنى : وما يدريكم أيها المؤمنون أنها إذا جاءت لا يؤمنون .

(١) الإسراء : ٥٩ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

يجعل الله تعالى قلوب المشركين في ضلال متقلبة مع أبصارهم لما جحدوا بما أنزل
الله ، فلم يثبت الله قلوبهم على شيء ، ولم يستقروا على الإيمان ، فأحال الله بينهم وبين
أن يؤمنوا حتى ولو جاءتهم كل آية .

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ آلِهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا
مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ ﴿١١١﴾

هؤلاء القوم لا يؤمنون حتى ولو كلمتهم الملائكة قائلة لهم إنه الحق ، أو قام الموتى
من قبورهم وقالوا لهم : إن هذا النبي وما جاء به حق ، إلا أن يشاء الله أن يؤمنوا ؛
وذلك لأن كثرتهم تجهل الحقيقة ، فما عليك منهم إلا البلاغ .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِنَصْغِي
إِلَيْهِ أَفِئْدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ
مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

لكل نبي عدو من الشياطين ، من الجن والإنس ، وهم الذين لا تخشع قلوبهم
لذكر الله ، ولا يخافونه سبحانه ، فيوحى بعضهم لبعض بكل زخرف القول والفعل ،
ولو شاء الله ما فعلوه ، فذهرهم يفترون ، فسوف يعلمون أن ما افتروه باطل ، وأنهم به
مهلكون . . . حيث لا تخضع للباطل إلا قلوب ﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ، الذين لهم
في نار جهنم - بما اقترفوه من باطل - عذاب مهين .

فليقترفوا ما يفترون ، وليكتسبوا من ذنوبهم ما يكتسبون ، وليعملوا ما هم عاملون ،
وليفعلوا ما هم فاعلون . . !!

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن
تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِن
هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

قل لهؤلاء المشركين يا محمد الذين يعبدون غير الله ، أفغير الله أرتضيه حكماً بيني وبينكم وهو أحكم الحاكمين ؟ والقرآن الكريم فيه كل شيء ؟ ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (١) . مع أن الذين آتيناهم الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، أى بما عندهم من بشارات بك من الأنبياء المتقدمين ، وأخبار سابقة في كتبهم أن هناك نبياً في آخر الزمان اسمه محمد ، ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ .

فالله - سبحانه وتعالى - ليس مبدلاً لكلماته ، ولا أحد يعقب على حكمه ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وهو السميع العليم . يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله : « وما يزال أهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق ، وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذى يتلبس به ، ومن هذا الحق الذى يحويه . وما يزالون - من أجل علمهم بهذا كله - يحاربون هذا الدين ، ويحاربون هذا الكتاب ، حرباً لا تهدأ . وأشد هذه الحرب وأنكاسها ، هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب ، إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر ، وجعل غير الله حكماً ، حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود » (٢) .

ثم يخبر الله - سبحانه وتعالى - عن حال أكثر أهل الأرض من البشر أنه الضلال . وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل . فهؤلاء كلهم في ضلال مبين ، وفي ظن . فإن الله - سبحانه وتعالى - أعلم بالفريقين : من يضل عن سبيله ، ومن هو ميسر للإيمان ومستعد له ، وكل ميسر لما خلق له .

(٢) تفسير ظلال القرآن سيد قطب ٣ / ١١٩٤ .

(١) الأنعام : ٣٨ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا
مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ
كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

منحة وإباحة من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر
عليه اسم الله . ومفهوم المخالفة هنا أنه لا يباح أكل ما لم يذكر اسم الله عليه . كما كان
يستبيحه كفار قريش من أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النصب وغيره ،
وكما يفعله من يفعله من الناس الآن .

وَذُرُوا ظَاهِرَ الْأَيْثِمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَيْثِمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا
يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ (١) .
وهؤلاء ممن يقتربون الإثم ، سواء أكان ظاهراً أم خفياً ، سيجزيهم عليه الله سبحانه
وتعالى يوم القيامة .

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى
أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

يقول ابن كثير : « استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم
يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلماً ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه
المسألة (٢) » .

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي
الْظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

(١) (الأعراف : ٣٣) . (٢) لمزيد من المعرفة تراجع في كتب الفقه وكتب تفسير الأحكام .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

يضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً لكافة الخلق أنه : لا يستوى الأعمى والبصير ، إذ هل يستوى العبد الذى كان ميتاً - أى فى الضلالة - وكان حائراً بعيداً عن الإيمان مع نفسه بعد أن أحياه الله - أى أحيا قلبه بنور الإيمان - ثم وفقه ، وشرح صدره للإسلام ، ولا تباع رسله ؟

يقول الإمام الشهيد سيد قطب : « إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية التى لا تفتنى ولا تغيب ولا تغيب ، فهو موت وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة فى الوجود كله . . . أما الإيمان فهو اتصال ، واستمداد ، واستجابة ، فهو حياة . . . إن الصلة بالله ، والصلة فى الله ، لتصل الفرد الفانى بالأزل القديم والأبد الخالد . . . وإن الإنسان الذى يجد فى قلبه هذا النور تتكشف له حقائق هذا الدين ، ومنهجه فى العمل والحركة ، تكشفاً عجيباً . . . إنها عالمان مختلفان شتان بينهما شتان » (١) .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِينَ لِيَمَّكُرُوا فِيهَا وَمَا
يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ
حَتَّىٰ نَأْتِيَ مِثْلَ رَسُولِ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ
الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

إن فى كل قرية أو مدينة أعياناً كبراء أغنياء ، أو كباراً حاكمين ، ومن هؤلاء مجرمون يفسدون ، وينهبون الأموال ، ويخربون البيوت ، ويعذبون البشر ، ولا يخافون الله ، ولا يعتقدون بالحساب ولا بالقيامة .

وإذا جاءتهم آية أو معجزة خارقة ، قالوا لن نؤمن . وهذا القول منهم دليل جهلهم بالله ، وهل يختار الله - سبحانه وتعالى - لرسالته إلا الأخيار المتقون ؟

إن الله سبحانه وتعالى يعلم من المتقون ومن المستحقون لفضل الله وعطائه ، ومن الأمناء على رسالته ، إن هؤلاء المتمردين على الله ، المفترين على اختياره ، سيصيبهم عذاب شديد ، وسوف يحرقون ويعذبون ، وينفون من عالم المؤمنين الذين قالوا : ربنا

(١) ظلال القرآن ٣ / ١٢٠٠ - ١٢٠١ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

الله ، إنهم بجهلهم هذا يتدخلون في قدر الله وشئونه ، ويريدون بذلك أن يعلموا الله كيف ينشر رسالته ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ * أهم يقسمون رحمة ربك ﴿ (١) .

والصغار في الآية هو الذلة الدائمة نتيجة استكبارهم عن عبادة الله .

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد خيراً لعبده شرح صدره له ، ونور فكره ، وزين قلبه لتلقى الخير لما أمر الله ، حتى يكون في أهل الإسلام والإيمان مثلاً يحتذى به . أما الضالون عن نداء الله وطريقه ، فإن الله - سبحانه وتعالى - يضلهم ، ويجعل صدرهم في ضيق ، ويعيشون في حرج معاصيهم وكفرهم بالله وأوامره ، ويكون مثلهم كإنسان صعد في أجواء السماء ، فعاش في أجواء سامة قاتلة ، فتقل نسبة التنفس عنده ، فيعلو وينخفض صدره وقلبه . وتزداد ضرباته ، فتدور عليه الدائرة ، فلا يستطيع التنفس والحياة .

والرجس في الآية كل ما لا فائدة فيه ولا خير .

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

وصراطه المستقيم : فيما أوحى به من الحق لمحمد - صلى الله عليه وسلم . والذين يؤمنون ، ﴿ لهم دار السلام ﴾ ، أى لهم الجنة لا يتخلل حياتها كدر - قد أنعم الله بها عليهم . وهكذا كان وليهم في الدنيا ؛ فلما انتقلوا لدار السؤال كان وليهم كذلك .

(١) الزخرف : ٣١ - ٣٢ .

سُورَةُ الْاِنْعَامِ

فأنعم برضوان من الله بما كانوا يعملون ، و ﴿ وليهم ﴾ أى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم . كما يقول ابن كثير .

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

اذكر يا محمد ، فيما تقصه عليهم وتذرهم به ، يوم يحشرهم الله جميعًا ، يعنى الجن وأولياءهم من الإنس ، الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويعوذون بهم ، ويطيعونهم ، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ، فيقال لهم : يا معشر الجن إنكم قد أضللتكم كثيرًا من الإنس . فيقول أولياء الجن من الإنس : إنه كان بعضنا يستمتع ببعض ، قال الحسن وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس (١) .

وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

قال قتادة فى تفسير هذه الآية « إنما يؤلى الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولى المؤمن أينما كان وحيثما كان . والكافر ولى الكافر أينما كان وحيثما كان . ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى » (٢) .

ويؤلى الله بعض الظالمين بعضا فى النار ، يعنى يتبع بعضهم بعضا ، وجل قوله تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين ﴾ (٣) أى ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس . .

كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم لبعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم .

يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ الْمَرِيَاتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَتَّبِعُونَ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾

(٣) الزخرف : ٣٦ .

(١) ، (٢) ابن كثير : ١٧٦ / ٢ .

سُورَةُ الْاِنْعَامِ

نداء من الله - سبحانه وتعالى - يقرع به كافر الجن والإنس يوم القيامة ، حيث يسألهم ، وهو أعلم : ألم يأتكم رسل منكم يبلغونكم رسالاته ؟ وهذا استفهام تقرير . ومتفق عليه أن الرسل من الإنس فقط ، ولكن أرسلوا للإنس وللجن معاً ، والذين أسلموا من الجن لهم أجرهم ، والرسل من الإنس هم الحجة عليهم ، والله أعلم . ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ أى أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك ، وأنذرونا لقاءك . ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ أى فرطوا في حياتهم الدنيا لما اغتروا به من زخرفها وزينتها . ومرجع الخلق جميعاً من الإنس والجن إليه سبحانه .

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْكُفْرَىٰ ۖ أَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ يَفْصِلُ عَمَّا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٢﴾

إن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً ، وإنه قد أقام الحجة على كل البشر ، وأرسل إليهم الرسل ، وأقام عليهم البراهين ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (١) .

ولكل إنسان درجة في الجنة أو النار ، لأن الله سبحانه وتعالى يدخل من يدخل الجنة برحمته . أما أعمالهم فهي التي تحدد لهم أماكنهم .

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ ۖ كَمَا أَنشَأَكُم مِّنۢ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ ۚ أَخْرَبَ ﴿١٣٣﴾

إن ربك يا محمد هو الغنى عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ، وهو مع ذلك رحيم بهم . إن يشأ سبحانه يذهبكم ، ويأت بخلق جديد يحبهم ويحبونه . وجل قوله تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ (٢) وقوله ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ * وما ذلك على الله بعزيز ﴿ (٣) .

إِن مَّا تَوْعَدُونَ لَأَن يَأْتِيَنَّكُم مِّنۢ بَعْدِكُم مَّا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

(٢) محمد : ٣٨ .

(١) النساء : ١٦٥ .

(٣) إبراهيم : ١٩ - ٢٠ .

سُورَةُ الْاَنْجَمِ

إن الذى توعدون به سيأتى لا محالة ، لأنه ﴿ ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ﴾ (١) .

وأنتم لا تُعجزون الله ، ولا تُثنونه عن أى مشيئة له ، بل هو القادر على إعادتكم وخلقكم مرة أخرى ، وهو أهون عليه .

قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

هذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، أى استمروا على طريقتكم وناحياتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقتى ومنهجى . .

فسوف نرى العاقبة لمن ؟ أتكون لى أم لكم ؟ وقد أنجز الله وعده لرسوله صلوات الله عليه وسلامه ، فإنه تعالى مكنه فى البلاد ، وحكمه فى نواصى مخالفه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناواه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب (٢) .

وكل ذلك فى حياته . وجل قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرَ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم وهم اللعنة وهم سوء الدار ﴿ (٣) .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعا وكفرا ، وجعلوا لله شركاء وجزءا من خلقه ، وهو خالق كل شىء سبحانه وتعالى .

(٢) انظر ابن كثير : ١٧٨ / ٢ .

(١) ق : ٢٩ .

(٣) غافر : ٥١ - ٥٢ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً ، أو كان لهم ثمر جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ، تعالى الله - سبحانه وتعالى - هو رب كل شيء ، ومليكه وخالقه ، وله الملك وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيتته لا إله غيره ولا رب سواه . . وذراً أى خلق ، و (الحرث) أى الزرع والثمار و (نصيباً) أى قسماً . . وهذه سخافة من سخافات تصرفاتهم التى كانوا يعتقدونها فى الجاهلية . وما أكثر الأفعال التى تشابهها فى هذه الأيام وإن اختلف الموضوع ، ولكنه يأخذ أشكالاً أخرى من الوثنية والكفر والشرك ، والعياذ بالله .

وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَاءُهُمْ لِيُرْذَوْهُمْ وَلِيَكْلِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
مَأْفَكُوهُمْ فَذَرُّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

وكما زين لهم الشيطان أن يجعلوا للأوثان نصيباً ويدّعوا أنهم يجعلون لله مثله ، فكذلك زين لهم الشيطان ، وزين لهم الشركاء قتل أولادهم خوفاً من العيلة والفقر ، وواد البنات خشية العار . وادّعوا أنهم يتقربون إلى الأصنام لتقربهم من الله . وكل ذلك كان من تزيين الشيطان لهم ، فدعهم يا محمد ، واجتنبهم وما هم فيه ، فسيحكم الله بينك وبينهم ، وسوف يبين الله لهم سوء صنيعهم وشركهم .

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثُ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ
حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سِيَجَرِيهْمَ بِمَا
كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

هذه الآية نظير قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آتَى اللَّهُ أُمَّةً
عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (١) .

إن الكفار يدّعون على الله الكذب ، ويحلون ويحرمون فى أنعامهم نتيجة ما فى

(١) يونس : ٥٩ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

نفوسهم من مرض ، وما في فهمهم من نقص ، وما في تقديرهم من أخطاء . فهم يتخذون لأنفسهم صفة الحق في التصرف فيما يملكون بهوهم لا بأمر الله سبحانه وتعالى .

وسوف يجازيهم الله سبحانه وتعالى على هذا الافتراء .

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾

ادَّعَوْا : أن ما في بطون أنعامهم هي حق خالص لأبنائهم من الذكور ، ومحرم على الإناث ، وذلك نوع من أنواع الجور والظلم للمرأة في عصر الجاهلية قبل الإسلام . وذلك كذب على الله ، وافتراء ، وسيجزئهم الله بما يصفون من باطل شر الجزاء وأقساه . إنه حكيم عليم .

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤﴾

الذين فعلوا هذه الأفاعيل خسروا في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا عليهم في أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم . وأما في الآخرة : فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافتراءهم . . عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : « إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام » ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ﴾ إلخ (١) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ﴿١٥﴾

(١) انظر ابن كثير : ٢ / ١٨١ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

يبين تعالى أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها وجزئوها فجعلوها حراما وحلالا . إن الله سبحانه وتعالى أنعم على الإنسان بإيجاده وإيجاد ما يستعمله في معاشه ، من زروع تحصد ، وكروم وأشجار تؤكل ، وجنات من نخيل وأعناب وزيتون ورمان ، وفواكه كثيرة متقاربة صورة وطعوماً أو متباعدة ، غير أنها سائغة ومطلوبة . منها خاص بالصيف ، ومنها خاص بالشتاء . والحق - سبحانه وتعالى - يطلب من خلقه أن يأكلوا من هذه النعم الكثيرة ثم يعطوا الفقراء حقهم المعلوم منها يوم الحصاد فتقع البركة والثمار الكثير .

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٤﴾

يحذرنا الله من الشيطان وغروره . حيث يأمرنا بالبخل فنبخل ، ونعطل الزكاة والصدقة وفعل الخير . . إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً .

ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَكَرْتُمْ حَرَّمَ أَمْ الْإِنثَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَكَرْتُمْ حَرَّمَ أَمْ الْإِنثَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا قد حرموا من الأنعام . ويبين الله أصناف الأنعام ، وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ، ولا شيئاً من أولادها ، بل كلها مخلوقة لبنى آدم أكلاً وركوباً وحمولة وحلباً ، وغير ذلك من وجوه المنافع . وفي هاتين الآيتين يعدد الله سبحانه وتعالى أصناف الأنعام ، ثم يقرر حلالها ، ثم يسفه الذين ادعوا كذباً بالتحريم فيقول ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وافترضه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك . وهذه الآيات رد عليهم في قولهم ﴿ ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ . . . أي أخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه ؟

قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً
أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْزِرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

يقرر الحق سبحانه وتعالى أن ما حرم برأى البشر في الجاهلية لا عبرة فيه ، حيث لا عبرة في التحريم إلا بما يحرمه الله تعالى فيما يوحيه إلى رسول الله ﷺ من كتاب أو سنة .

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ
ذَلِكَ جَزَاءُ بَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾

يقرر الله سبحانه وتعالى أنه قد حرم على اليهود هذه الأشياء جزاء بغْيِهِمْ .

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

فإن كذبوك يا محمد ، وكذبوا فعلك وقولك ، فقل إن ربي ذو رحمة واسعة ، وسعت كل شيء ، وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة ، واتباع رسوله . أما قوله - سبحانه وتعالى - :

﴿ ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ فهو ترهيب لهم من عصيانهم له - صلى الله عليه وسلم - وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن .

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

بهذه الشبهة ضل من ضل من آبائهم وأقرانهم ، لأنهم تمسكوا بحجج داحضة باطلة غير مستقيمة ، لأنها لو كانت صحيحة لما ذاقوا وبال أمرهم ، ولما دارت عليهم الدائرة ، وذاقوا ألم الانتقام . وإن كنتم على حق أ تستطيعون أن تظهروه لنا أو تبينوه ؟ لكنكم لا تتبعون حقيقة أبداً . إنكم لا تتبعون إلا وهما وخيالاً واعتقاداً غير صحيح ، وما أنتم إلا كذابون تدعون على الله الكذب فيما ادعيتموه .

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

أى له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من ضل ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ . سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت علام الغيوب . . لا قدرة فوق قدرتك ، ولا مشيئة فوق مشيئتك ، ولا اختيار فوق اختيارك .

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

فإن كانت لديكم حجة أيها المشركون ، فأتوا بها ، وهاتوا شهداءكم الذين يشهدون لكم ، ولن تجدوهم ، فأنتم وهم على غير هدى . وإن شهدوا يا محمد بغير ما أنزلنا إليك فلا تشهد ظلمهم وبغيهم ، إنهم أصحاب أهواء وضلال . إنهم الذين كذبوا بآياتنا ومعهم الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ومن صفات هؤلاء الضالين أنهم لا يؤمنون بالآخرة ﴿ وهم بربهم يعدلون ﴾ أى يشركون بالله رباً ويجعلون له عدلاً ، أى مثلاً وظلاً ، وذلك مستحيل ، فاتركهم في غيهم وجهلهم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ
إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ
لَا تَكِلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ
اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

قل يا محمد للذين يتبدون الطاغوت ويجتنبون حاكمية الله : تعالوا لأقرأ لكم
وأعلمكم ما حرم الله عليكم وما طلب منكم ، وهى هذه المذكورة .
قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - : « من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - التى عليها خاتمه ، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم
ربكم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ » .

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ
سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

يقرر الله تعالى أن الإسلام دينه وصراطه المستقيم . ويأمرنا باتباعه ، ويحذرنا من
الطرق المتفرقة .

وطريق الله واحد ، وسبل الشيطان متعددة . وقد وصى الله عباده بالاستقامة على ما
أمر به الله سبحانه وتعالى ، واجتناب ما نهى عنه ، فالناجون : هم الذين تواصوا
بالحق ، فكانوا على صراط الله المستقيم .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يُلْقَا رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾

بعد أن أخبر الله سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم بقوله ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً
فاتبعوه ﴾ جاء يمدح التوراة ، ويمدح الرسول الذى بُعث بها ، وهو موسى - عليه
السلام - ، وهذا ما نجده دائماً فى القرآن الكريم من مقارنة الحق سبحانه وتعالى بين

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

القرآن والتوراة . أى أننا آتينا موسى هذه التوراة تامة كاملة جامعة لما يحتاج إليه في شريعته ، كى يحكم بها بين قومه بالحق ، وهى هدى ورحمة ﴿ على الذى أحسن ﴾ يقول ابن كثير أى جزاء على إحسانه فى العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله تعالى ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ .

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

ثم يرجع الحق سبحانه وتعالى إلى القرآن الكريم فيقول : وهذا هو كتاب الله أنزلناه على خير وصف وهو البركة لمن يتبعه فى الدنيا والآخرة . وهذه دعوة إلى اتباع القرآن ، فيرغب سبحانه عباده فى كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه ، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به فى الدنيا والآخرة لأنه حبل الله المتين .

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْ عَلَيْهِ الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

إن قال أهل الجاهلية من العرب لك يا محمد إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، أى على اليهود ثم على النصارى ، وكانت لغتهم العبرية ولم تكن نفهمها ، فكنا عن دراسة كتبهم غافلين ، فاعلم أنهم يكذبون عليك ، وما فى قلوبهم ليس هو الذى على ألسنتهم ، وكانوا يقولون لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، وها هو ذا القرآن عربى بليغ وواضح ، وهدى ورحمة ، فمن أعرض عنه بعد ذلك ، ولم يسلم لما جاء من الله فأولئك هم الضالون .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

يتوعد الله الاقرين به والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادقين عن سبيله . إن الذين تعالوا على الله ولم يؤمنوا به ، ماذا يريدون ؟ وماذا ينتظرون ؟ هل يريدون أن يروا الساعة وقد جاء أشراتها ؟ هل يريدون أن تأتي آيات الله ويحضروا العذاب ويشهدوا النار ؟ إن كل ذلك واقع عندما تأتي بعض آيات الله ، ويومها ﴿ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ .

فليتظروا فالله رقيب عليهم .

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

يقول ابن كثير : « نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى . . . ويقول ابن عباس : إن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - ففارقوا ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أنزل الله عليه هذه الآية . . . والظاهر : أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق » (١) .

يقول الشهيد سيد قطب : « إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليس من هؤلاء كلهم في شيء . إن دينه هو الإسلام ، وشريعته هي التي في كتاب الله ، ومنهجه هو منهجه المستقل المتفرد المتميز . وما يمكن أن يختلط هذا الدين بغيره من المعتقدات والتصورات ، ولا أن تختلط شريعته ونظامه بغيره من المذاهب والأوضاع والنظريات . وما يمكن أن يكون هناك وصفان اثنان لأى شريعة ، أو أى وضع أو أى نظام . . . إسلامى . . . وشيء آخر . . . »

إن الإسلام إسلام فحسب ، والشرعة الإسلامية شريعة إسلامية فحسب ، والنظام الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى الإسلامى إسلامى فحسب ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليس فى شيء على الإطلاق من هذا كله إلى آخر الزمان (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٩٦ .

(٢) ظلال القرآن تفسير سورة الأنعام ص ١٢٣٩ سيد قطب .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالٍهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

هذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى ، وهى قوله ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ .

الذين يعملون الخير ، ويتقون الله ، وينفقون أموالهم في سبيل الله ، لهم من إحسان الله سبحانه وتعالى وعطائه الحسنة وزيادة . والحسنة هى الجنة ، والزيادة أن يضاعف لهم ما أنفقوا في سبيل الله . فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف مضاعفة ، والله يعطى عن غنى لا يعقبه فقر . فهو الغنى المالك على الإطلاق ، ومن جاء بالسئنة فلا يجزى إلا مثلها ، والذين بخلوا بما عندهم فلم ينفقوا في سبيل الله لاستحواذ الشيطان عليهم وإيهاهم بالفقر ، هؤلاء يعيشون فقراء على الحقيقة ولو ملكوا الدنيا ، والبخل والإيمان لا يجتمعان في قلب رجل ، وليس للبخل عند الله مقام ، فهو ذميم في الدنيا ، مطرود في الآخرة ، ولا يجتمع الإيمان والبخل في قلب رجل .

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى أمرا نبيه صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف .

يقول الإمام الشهيد سيد قطب - رضى الله عنه - : « فى ختام السورة . . . تجيء التسيحة الندية الرخية فى إيقاع حبيب إلى النفس قريب ، وفى تقرير كذلك حاسم فاصل ، ويتكرر الإيقاع الموحى فى كل آية : « قل » . . « قل » . . « قل » . . ويلمس فى كل آية أعماق القلب البشرى ، لمسات دقيقة عميقة فى مكان التوحيد ، توحيد

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

الصراط والملة ، توحيد المتجه والحركة ، توحيد الإله والرب ، توحيد العبودية والعبادة . . مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسنته ومقوماته « (١) .

يا محمد قل الحمد لله حمداً يليق بجلال عطائه وعظمته ، لقد هداك إلى صراط مستقيم وجعلك على دين أبيك إبراهيم ، ثم أكمل هذا الدين على يديك ، وختم بك النبيين المرسلين ، وجعل شريعتك متممة لكل أحكام الله وتشريعاته حتى تنتهى هذه الدنيا ، وتقوم الساعة ، ثم أعطاك الوسيلة والشفاعة ، ومع مقام إبراهيم وقربه من الله فأنت أكمل من أرسل من الأنبياء والمرسلين ، أعطيت الشفاعة وأكرم ما تدعوه به أمتك أن تقول : « أصبحنا على ملة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين » وهذا الدعاء كان يقوله - صلى الله عليه وسلم - إذا أصبح .

وقل لهم يا محمد : إن صلاتك لله ، وكذلك نسبك ، من صيام وحج وصلاة وذبح وإحسان بالمال الطيب والكلمة الطيبة ، وكذلك حياتك التى ليس فيها عبادة لغير الله ، كل ذلك لله رب العالمين لا شريك له ، شاهداً أنه هو الله الواحد ، وأن محمداً هو عبده ورسوله . . . أخافه ولا أخاف أحداً سواه ، وأنا محمد بن عبد الله على دين أبى إبراهيم ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . . . وقد قال الإمام أحمد عن على - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا كبر استفتح ثم قال : ﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ ﴿ إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾ وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

وقل لهم يا محمد أغير الله أطلب ربا سواه ، وهو رب كل شىء وربى ، ويحفظ ويدبر ؟ فكيف لا أتوكل عليه ، وهو رب العالمين ورب الأشياء كلها ؟ كيف لا أنيب إليه وهو مالك الملك ؟ ، يقول ابن كثير : « فى هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت التى قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً فى القرآن كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (٢) وقوله ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ (٣) وقوله ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ (٤) .

(١) انظر ظلال القرآن ٣ / ١٢٤٠ .

(٢) الفاتحة : ٥ .

(٤) الملك : ٢٩ .

(٣) هود : ١٢٣

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

هو الله سبحانه وتعالى جعلكم خلفاء في الأرض لكم رسالة فيها ، تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وأزماناً بعد أزمان وخلقاً بعد خلق ، وسلفاً بعد سلف . ورسالة الإنسان في الأرض معروفة وواضحة ، إن الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان في الأرض خليفة ، هو ظل له في الأرض ، يحكم بمنهج رسله الذين أرسلهم الله إليه ، ويحكمون بشريعة الله التي ارتضاها لعباده ، ولقد رفع الله سبحانه وتعالى بعض الناس وفاوت بينهم في الأرزاق والأخلاق ؛ لحكم وعلل يعلمها الحق سبحانه وتعالى . كما فاوت في الأخلاق والأشكال والمناظر والألوان والدرجات ، وله الحكمة في ذلك أيضاً ، كقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا ﴾ (١) والله سبحانه وتعالى : القادر المحيي المميت خلقتكم أيها الناس ، وجعلكم قادرين على تعمير الأرض بالإنشاء والزرع والتجارة والصناعة . ولم تفلح أمة إلا بالعمل والإيمان . والإيمان وحده لا يكفي ولا ينفع ، لكن العمل مقروناً بالإيمان هو في النهاية مجموع لتعمير الإنسان في الأرض والكون ، وهو تأدية للرسالة على أكمل وجه ، فالأمة الكسولة لا تتقدم . . والأفراد العاطلون لا يتقدمون ، فاليد العاملة هي يد يحبها الله ورسوله بشرط أن تكون يداً عاملة ، لها صاحب قلبه مطمئن إلى الله ، وراض بقضائه ، يؤدي شعائره ، ويؤدي نسكه ، وينطلق في الأرض يبتغي الرزق ، ويسعى في الأرض إصلاحاً وتعميراً ، بدلاً من الإفساد .

كما جعلكم الله سبحانه وتعالى طبقات ودرجات بعضها فوق بعض مركزاً ومالاً وصناعة وعلماً ، ومعارف ، فذاك غفير ، وآخر وزير ، وذاك ملك ، وآخر أمير ، وذاك حاكم وذاك محكوم ، والكل بالنسبة له سبحانه عبيد مسئولون محاسبون . . أكرمهم عند الله أتقاهم . فالمقياس هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح . .

والله سبحانه وتعالى على ما قدمت أيديهم من عدل يجزي به ، ومن جور يحاسب

(١) الزخرف : ٣٢ .

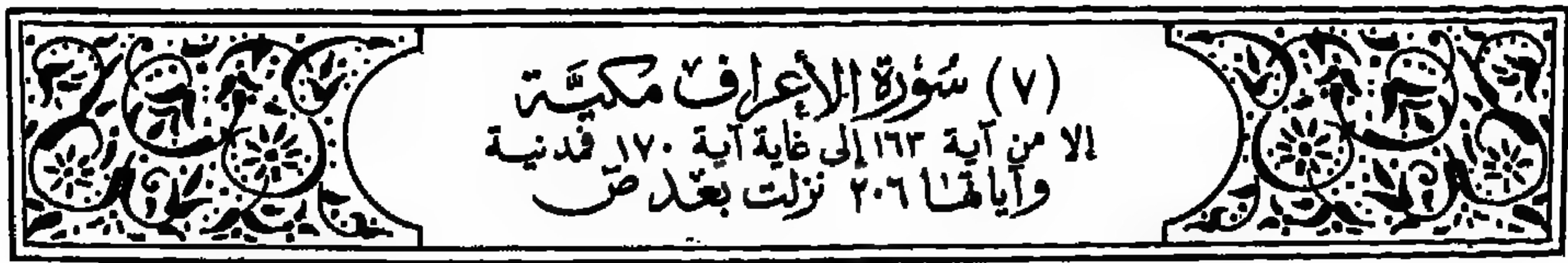
سُورَةُ الْأَنْعَامِ

عليه ، وسبحانه سريع العقاب . إن شاء الله عجل به في الدنيا لعل العبد يتذكر فيتوب ، وذلك منه سبحانه وتعالى إحسان ، وإنه لغفور رحيم لمن راجع نفسه فحاسبها .

إنه بهذه النفس التوبة النادمة المستغفرة لغفور رحيم . سبحانه وتعالى عما يصف المشركون .

هذا هو قرآننا ، وهذا هو هدى الله لعباده المؤمنين ، الذى منحهم أعظم منحة في تاريخ الإنسانية ، وهو الكتاب المبارك « وهذه بلا شك واحدة من بركاته الكثيرة » (١) . والحمد لله رب العالمين .

(١) سيد قطب ٣ / ١٢٤٢ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ

سبق وبيننا في سورة البقرة معنى ما قاله المفسرون في الحروف التي افتتحت بها السور.

كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَيُذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

وهذا الكتاب المين الذي أنزل إليك من ربك إنذار للناس المؤمنين خاصة ،
يتفقهون به ، ويتفقهون في مقاصده وحكمه ، يتبعون أوامره ، ويجتنبون نواهيه . فلا
تتخرج أن تبلغه للناس يا محمد . وهذه الآية فيها نصير للرسول ﷺ ومواساة له .

اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾

الخطاب من الله لكل العالم وذلك بقوله تعالى : ﴿ اتبعوا ﴾ ، أى اقتفوا آثار النبي
الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شىء ومليكه . ثم ينهاكم سبحانه
أن تتبعوا غير طريق محمد ﷺ ، فهو أمين الله في الأرض ، يبلغ كتابه سبحانه وتعالى ،
ويفسره لأتباعه بالسنة المطهرة . فالكتاب والسنة هما مصدرا التشريع في الأرض . .
أما قوله تعالى : ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ فهي نظير قوله تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو
حرصت بمؤمنين ﴾ (١)

وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٣﴾

(١) يوسف : ١٠٣ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

لقد كذبت قرى كثيرة رسلنا ، فماذا كان مصيرهم ؟ أهلكناهم - أى أهل هذه القرى - بما ظلموا وكذبوا رسلهم وخالفوهم ، ولم نهلكهم إلا بعد أن أنظرناهم وبعثنا إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين ومذكرين ، ولكنهم أصروا على كفرهم ، فجاءهم بأسنا - أى قدرتنا - فباءوا بغضب من الله ، فأورثهم الله خزي الدنيا وذل الآخرة ، فى نار يصلونها وبئس المصير.

والبيات المقصود به الليل ، والقيولة هى الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة وهو .

فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِآسَانَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾

عندما وقع عليهم العذاب ، وشاهدوا قدرة الله ، قالوا إنا كنا ظالمين ، وهو اعتراف بباطلهم وظلمهم حين لا ينفع الندم .

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ
وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾

يسأل الله - سبحانه وتعالى - الخلائق يوم القيامة عما أجابوا به رسله فيما أرسلهم به ، كما يسأل رسله أيضاً عن إبلاغ رسالاته . وقال ابن عباس فى قوله تعالى ﴿٦﴾ فلنقصن عليهم بعلم ﴿٧﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون^(١) . ثم يحاسبون ، فيما الجنة بما صدقوا ، وإما النار لتكذيبهم لرسل الله ، سبحانه وتعالى .

وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

يزن الله أعمال العبد بالحق ، وهو الحق العدل ، فمن غلبت أعماله سيئاته فقد فاز ، ومن ثقلت فى الميزان سيئاته ، وخفت حسناته ، فقد أدين لله . والله الحكم العدل ، ولا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ؛ لأن الدنيا غرتهم ، ففتنوا بها ، فضل سعيهم ، وخابت مقاصدهم ، وجاءوا يوم القيامة خزاياء ، ليس لهم شىء ، ولكن عليهم ، فأهلكتهم أنفسهم بما ظلموا وكانوا يعتدون .

(١) ابن كثير ٢ / ٢٠١ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

«والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً ، إلا أن الله - سبحانه وتعالى - يقلبها يوم القيامة أجساماً . وقيل : يوزن كتاب الأعمال ، وقيل : يوزن صاحب العمل . فتارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها»^(١).

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١﴾

مكن الله للإنسان فى الأرض ، فجعل له فيها معاش ، أقامها الإنسان بفضل الله عليه لما منحه من الفهم ، والقدرة على العمل ، والتحصيل ، وبما منحه من صحة فى بدنه ، وقدرة فى فهمه . ولولا ذلك لكان كالدواب يأكل ويشرب ولا يتدبر أمره . ولو أحسن الإنسان إلى نفسه وتدبر وتفقه فى نعم الله عليه لكان خيراً له ، ولكن الشيطان زين له فقل شكره الله .

﴿معاش﴾ أى مكاسب وأسباباً تكون سبباً فى تحصيل الرزق والمعاش .

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا

إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٢﴾

يمتن الله على أبناء آدم بأنه خلقهم ، ثم صورهم ، وجعلهم فى أحسن تقويم . ثم أمر الملائكة أن تسجد لهذا البشر الجديد ، ولهذا الخلق الجديد ، فسمعوا كلهم وأطاعوا عدا إبليس اللعين لم يكن يسمع ، ولم يكن مطيعاً ، ولم يكن من الساجدين .

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٣﴾

يقول تعالى للعين إبليس ما أخرجك وألزمك واضطرك أن لاتسجد لآدم إذ أمرتك؟ فاحتج اللعين بأن الله خلقه من نار وخلق آدم من طين . وفى ظن إبليس أن النار أشرف من الطين ، وذلك لجهله .

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٤﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي

إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ ﴿٥﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٦﴾

بعد تمرد إبليس وعصيانه بعدم سجوده لآدم ، قال الحق - سبحانه وتعالى - لهذا

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ٢٠٢ .

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

اللعين فاهبط منها - أى من الجنة - إنها ليست بدارك . إنها لم تكن للمتكبرين على أمرى . إنها مأوى للطائعين الممثلين لأوامر الله ، وهم المسلمون لأمرى ، السامعون لنهى . إنها محرمة على كل متكبر جبار يتعالى على أن يكون عبداً متواضعاً لما يأمر به الله سبحانه وتعالى ، أو ينهى عنه . فاخرج إنك من الصاغرين ، أى الحقيرين الدليلين ، وأسرع اللعين فسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يبقيه حياً فلا يهلكه حتى يوم القيامة . ولما كان قدراً قديماً فى علمه - سبحانه - فقد استجاب له ، فجعله طريق غواية وإفساد وإهلاك لمن عصاه سبحانه من ذرية آدم .

فالجنة للمتقين بكرمه وعفوه سبحانه لمن أطاعه ، والنار لمن أعرض عن ذكره وعصاه ، فيقول للعين إبليس ﴿ إنك من المنظرين ﴾ .
أى من الممهلين إلى يوم البعث والحساب . لك ألا تموت فيها ، وليس ذلك من باب التكريم ، ولكن لحكمة يعلمها تعالى .

قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَا فِي بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُنَا أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

أى بما ابتليتنى سوف أحسن لهم القبيح ، وأقبح لهم الحسن ، أرغبهم فى المعصية ، أبغضهم فى الطاعة ، أصدهم عن صراطك المستقيم ، أجعلهم بغوايتى يتخبطون فى المعاصى ، حتى أهلكهم بها . سأجعل لهم الدنيا فيظنونها النعيم وهى خيال باطل ، سأظل حتى يوم البعث أجعل لهم طريق النار ، وأبغضهم فى طريق الجنة ، وبجعل أشقيائهم يظنوننى ناصحاً أميناً . فويل لمن أطاع الشيطان .
يقول ابن كثير فى تفسير ﴿ من بين أيديهم ﴾ أى أشككهم فى آخرتهم ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ أى أرغبهم فى دنياهم .

﴿ وعن أيمنهم ﴾ أى أشبه عليهم أمر دينهم .
﴿ وعن شمائلهم ﴾ أى أشهى لهم المعاصى ^(١) .

قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

قرر سبحانه إخراج إبليس من رحمته ومن اتبعه من أولاد آدم .

(١) ابن كثير : ٢٠٤ / ٢ .

سُورَةُ الْاِنْعَامِ

﴿مَذَّةٌ وَمَا مَدْحُورًا﴾ أى حقيرًا صغيرًا قبيحًا .

وَيَتَّكِدُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾

أباح الله تعالى لآدم وزوجته حواء الجنة ، يتمتعان فيها ، ويأكلان منها ومن جميع ثمارها إلا شجرة واحدة - كما تقدم في تفسير ذلك في سورة البقرة - لكن الشيطان لم يتركها وشأنها ، فقد حقد عليها وحسدهما ، ومشى ساعيًا بينهما بالمكر والخديعة ليسلبهما هذه النعم والخيرات .

فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا
عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾

أخذ الشيطان يوسوس لهما ليأكلا من هذه الشجرة التى نهاهما الله عنها .

وَقَاَسَمَهُمَا إِلَىٰ لَكُمَا لَعْنُ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾

وما يزال الشيطان يوسوس لآدم وزوجته وهو يحلف لهما بالله أنه ناصح لهما ، مخلص معهما ، حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله .

فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ
الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا أَنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُبِينٌ ﴿٢٢﴾

نجح الشيطان في إغراء آدم وزوجه حتى أكلا من هذه الشجرة المحرمة ، وبدت لهما سوءاتهما بعد الوقوع في هذه المعصية .

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾

بدأ آدم في الأسف والندم ، واعترف بأنها ظلما أنفسهما ، وإن لم يصفح الله -

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

سبحانه وتعالى - عنهما ويغفر لهما فسيكونان من الخاسرين الهالكين هو وزوجه . «ويقول الضحاك بن مزاحم في قوله ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه » (١).

قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾
فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

وقد أعلمهم الله سبحانه وتعالى كذلك أن لهم في الأرض مستقرا ومتاعا إلى حين - أى إلى أن ينتهى أجلهما الذى قدر لهما فى الدنيا بالموت ، وقيل : إلى قيام الساعة (٢).

يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ
ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

أهم الله تعالى بنى آدم أن يصنعوا لأنفسهم ثيابا ، يسترون بها عوراتهم .
ثم يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ وقد اختلف المفسرون فى معناه . فمنهم من يقول : إنه هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة ، ويقول آخرون : هو الإيمان . ويقول ابن عباس : هو العمل الصالح . وعنه أيضا : أنه السمى الحسن فى الوجه . . . ومنهم من يقول : هو خشية الله . وكل هذه المعانى تصب فى معين واحد .

يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءَ تَهُمَا إِنَّهُ يَرْتِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا
الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

يحذر تعالى بنى آدم من إبليس وقبيله ، مبينا لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم عليه السلام فى سعيه فى إخراجه من الجنة التى هى دار النعيم إلى دار التعب والعناء ، والتسبب فى هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه . فيابنى آدم إن آمتتم بالله ورسوله فاحذروا وسوسة الشيطان ، إنه عدو لكم حاقد عليكم حتى قيام الساعة . وجل قول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾ (٣).

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ٢٠٦ . (٢) انظر : القرطبي ١ / ٣٢١ . (٣) الكهف : ٥٠ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ
بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

احتجوا على أن ما فعلوه ليس قبيحاً لأن آبائهم كانوا كذلك يفعلون ، فكيف تكون
قبيحة وآباؤنا وأجدادنا يفعلونها ؟ هذا هو قولهم .
فقل لهم يا محمد إن الله لا يأمر إلا بالحق لأنه هو الحق . والحق هو طريق الله ،
وطريق الله لا يتخلله باطل ، ولا يدعو إلا إلى صراط مستقيم ، فبعد ذلك تسندون إلى
الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته !

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ
اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

القسط هو العدل والحق . فالذين يقيمون العدل في الناس هم الذين يستطيعون أن
يتجهوا بقلوبهم ووجوههم معا إلى الله تعالى ، وهم الذين يقدرّون مكانة المسجد ،
وقداسة مسئوليته ، وهم أصحاب القلوب الصادقة في محبتها لله ، وبذلك يلهمها
الحق ، وينطقها بما يرضيه ، سواء كانت في بيت الله تدعوه ، وتتضرع إليه ، أو في أي
مكان آخر . وهي التي دائماً تتصور وتذكر رجعتها إلى الله بالعبادة ، أو عند نهاية هذه
الحياة .

والإنسان بين فريقين : فريق هداه الله ، فهو صاحب الطاعة ، المستغرق في
توحيده لله ، وموعده الجنة . وفريق قد استغرقته الدنيا ، واستحوذ عليهم الشيطان ،
فموعدهم النار .

أمر الله تعالى بثلاثة أشياء في هذه الآية . أولاً : أمر بالقسط ، والقسط هنا هو
العدل والاستقامة ، وما القسط إلا شهادة أن لا إله إلا الله . ثانياً : أمر بالصلاة .
والأمر الثالث : وهو أن ندعوه مخلصين له الدين . والدعوة له - سبحانه وتعالى -
وإليه هي جزء من أعمال الصلاة أيضاً ، لأن الصلاة في معناها الأصلي الدعاء .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿يَبْنِيءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُسْرِفِينَ﴾

خطاب لكل العالمين ، يشمل كل مسجد للصلاة في أى بقعة من العالم .
ويقول ابن كثير^(١) : إن العرب رجالاً ونساء كانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، فأمرهم - سبحانه وتعالى - بالزينة ، والزينة هنا معناها اللباس ، وهو ما يوارى السواة .

وهكذا جاء الإسلام وحرم همجية الجاهليين ، وأقام حضارته بمساواة وعدل ، فحدد للمرأة لباسها ، وللرجل لباسه ، وأصبحت عورة المرأة كل بدنائها إلا الوجه والكفين ، وعورة الرجل ما فوق الركبتين إلى ما فوق السرة ، وأباح الله - سبحانه وتعالى - كل أكل حلال ، وكل لباس حلال ، في حدود ما بيّن في كتابه وفي سنة رسوله - ﷺ - التى هى شارحة للكتاب .

ويقول ابن عباس كما يذكر الإمام القرطبي في مسأله : أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة^(٢) .

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾

القاعدة : أن كل شيء حلال إلا ما حرم الله . فكل طيبات الله - سبحانه وتعالى - مخلوقة لمن آمن بالله وعبدته في الحياة الدنيا وإن شاركهم فيها الكفار حبا في الدنيا . لكنها خالصة وخاصة بهم يوم القيامة ، لا يشاركهم فيها أحد من المشركين أو الكفار ، لأن الجنة محرمة على الكافرين .

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

أحل الله تعالى كل شيء ، ثم استثنى القليل القليل فحرمه . ومن أكبر ذلك الزنى ، والخمر ، والميسر ، والسرقه ، وأكل الخنزير ، والقتل بغير حق ، وعقوق الوالدين ،

(٢) القرطبي : ١٩١ / ٧ .

(١) انظر ابن كثير : ٢١٠ / ٢ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

والإفساد بين الناس ، والتكبر على أهل الصلاح ، وإيذاء الجار ، والتجسس عليه ،
ولعب الميسر ، وأكل الربا إلخ ، وأن يبغى الإنسان على أخيه الإنسان ، بغير حق ،
والشرك بالله أكبر الذنوب ، والمشرک بالله هالك لا محالة ، وأن يقول الإنسان ما لا
يعلم ، أو يظن بالله غير الحق ، والخروج على جماعة المسلمين . كل هذه فواحش وآثام
حرمها الله - سبحانه وتعالى - على عباده المخلصين .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَلِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٢٤﴾

وكما أن للأفراد آجالاً فلكل أمة من الأمم أجل . والأمة معناها الجيل أو القرن .
ويطول أجل الأمم بالعدل ، ومخافة الله ، واتباع دينه ، وتنفيذ شرعه . ويقصر بما
اكتسبت من إثم وضلال .

وإذا انتهى الأجل لا يستأخرون ساعة عن أجلهم المحدود ولا يستقدمون كذلك .

يَبْنِيءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٥﴾

يأبى الناس ستاتيكم رسل وأنبياء يدعونكم إلى الله وإلى عبادته وتوحيده ، وسيقصون
عليكم الحرام والحلال بآيات منزلة عليهم من عندى فمن اتقانى وأصلح فلا خوف
عليهم ولا هم يحزنون ، أما من لا يتقى الله ولا يخافه فله جزاؤه . لذلك يقول الحق :

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

هؤلاء المستكبرون عن عبادة الله - سبحانه وتعالى والمكذبون بآياته ، ماكثون في جهنم
مكثاً مخلداً .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُم مِّنَ
الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آيِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
قَالُوا أَضَلُّوْا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

سُورَةُ الْاِنْعَامِ

ليس أظلم ولا أظنى من عبد يفترى على ربه وخالقه ورازقه الكذب . إن هؤلاء المكذبين بالرسل وبالكتب هم المكذبون بالله . أولئك سيحاسبون على ذلك من الله ، وإذا حضرهم الموت ، وجاءتهم رسل ربهم ليقبضوا أرواحهم قالوا لهم : فيم كنتم ؟ وأين الذين دعوتهم من دون الله وهم خلق أمثالكم لا يملكون نفعا ولا ضرا ؟ قالوا وهم في سكرات الموت ﴿ ضلوا عنا ﴾ ، أى ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم - كما يقول الإمام ابن كثير - وقد اعترفوا ساعتها وأقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِثُهُمْ لَأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

يقول الله العزيز الحكيم هؤلاء الذين كفروا به وبرسوله ، ولكل من عصاه وكفر بأوامره بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى : ادخلوا أيها الكافرون في أمم ومع أمم سبقتكم قد ضلت ضلالكم ، وأشركت بالله كما أشركتم ، وأبت إلا أن تكفر بما أنزل الله على رسله . وعندما يجتمعون فيها تقول أخراهم لأولاهم - أى أخراهم دخولا وهم الأتباع لأولاهم دخولا وهم المتبوعون - الذين أضلوهم عن سواء السبيل مشيرين إليهم : ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ﴾ . أى ضعف عليهم العقوبة لأنهم في الجرم أكبر منا ، ولأنهم هم الذين وجهونا إلى هذه الوجهة ، فعصيناك ، وخالفنا أمرك ، وكذبنا بك وبرسولك . فيقول الحق سبحانه وتعالى : لكل صنف منكم ضعف ولكن لا تعلمون .

ولكن الموقف لا ينتهى فى هذه الحال إذ يرد المتبوعون على الأتباع قائلين لهم :

وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لَأُخْرِثُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٦٩﴾

يقولون لهم ما كان لكم علينا من فضل ، لقد ضللتم كما ضللنا ، فنحن وأنتم سواء . وهذه الحال نظير قوله تعالى كما أخبر الحق عنه فى ساعة المحشر ﴿ ولو ترى إذ

شُكْرُ الْإِغْرَافِ

الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين « (١) .

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾

إن الذين استمعوا لآيات الله فاستكبروا وتعالوا على سماعها ، وأبوا أن يعوا معانيها وأوامرها ، هؤلاء لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا لأرواحهم عند موتهم ، ولكن تساق إلى السعير وإلى النار ، لتسأل وتحاسب ، وتظل في العذاب ، والجنة محرمة عليهم . ولنتصور هل من الممكن أن ينفذ الجمل من ثقب الإبرة ؟! هذا مستحيل . فكذلك دخولهم الجنة مستحيل . فإذا دخل الجمل من ثقب الإبرة ، دخل هؤلاء الجنة . كذلك يجزي الله - سبحانه وتعالى - المجرمين ، الذين أبوا أن يوحدوه ، ويصدقوا برسوله . هؤلاء المكذبون ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ أى : فرش . ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ أى اللحف . وكذلك يجزي الله الظالمين .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٣﴾

انتهى المشهد السابق برعبه وقسوته وضغطه على النفوس ، وجاءت تلك الآية تربط على القلوب الندية ، بتوحيدها لله ، وعملها للصالحات ، من توحيد لله ، وصلاة ، وكل سائر العبادات التى كلف بها الإنسان المسلم ، الذى أسلم وجهه لله ، ثم أطاع رسوله ﷺ ، فتلقى الأوامر بنداوة نفس ، واطمئنان قلب . والله رحيم بعباده الذين آمنوا ، وصدقوا رسله . لا يكلف إلا على قدر طاقة الإنسان وبقدر ما يستطيع أن

(١) سبأ : ٣١ .

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

يحتمل من التكاليف الشرعية ، من تبطل واستغراق في العبادات ، ليشعر الإنسان بمعية الله - سبحانه وتعالى - معه . وهؤلاء أصحاب المعية الإلهية هم أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

نزع الله ما في قلوب أهل الجنة مما كان يقع بين الخلق في الدنيا ، من حقد أو حسد ، وأدخلوا الجنة تجرى من تحتها الأنهار . ساعتها قال أصحاب الجنة : الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وقد أخذنا كل ما كنا نتمناه في الدنيا ، ولم يكن عملنا في الدنيا يجازيه ، ولكن فضل الله - سبحانه وتعالى - يؤتيه من يشاء ، وهو ذو الفضل العظيم . ويقولون ساعتها أيضا : الحمد لله الذي جعلنا وألهمنا الاستجابة لرسل ربنا لما جاءتنا ، ففزنا بذلك النعيم . وتحييهم الملائكة : ﴿ أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

أهل الجنة في الجنة قد كشف عن عالمهم الحجاب ، فشاهدوا أهل النار في عرصاتها ، فقالوا لهم : إننا في نعيم مقيم من الله - سبحانه وتعالى - ، وقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل أنتم فيما وعدتم به من الحق في عذاب مقيم ؟ فقالوا - أي أصحاب النار - مجيبين على سؤال أهل الجنة : نعم قد وجدنا ما لم نصدقه في الدنيا . وجدنا نارا وعذابا مقبها . فأذن مؤذن بينهم يعلن في أذانه : أن لعنة الله على الكافرين بما ظلموا .

هذه اللعنة على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة لكي لا يتبعها أحد . وهؤلاء هم الكافرون بقاء الله ، وبالأخرة ،

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وبالبعث . جاحدون لكل ما أنزل الله على رسله بالحق .

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا هُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾

هذا الحجاب الذى ضربه الله بين النار والجنة هو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، وهو السور الذى ذكر فى موضع آخر من القرآن ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ ^(١) ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ أى على أعراف السور (وهى أعلى شىء فيه) .

و يقول ابن كثير : « واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم » ^(٢) . أما قوله تعالى : ﴿ يعرفون كلا بسيماهم ﴾ أى يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه .

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾

إن أصحاب الأعراف ينظرون إلى أهل النار ويعرفونهم بسيماهم - أى بسواد وجوههم - وسرعان ما يتعوذون بالله أن يجعلهم معهم ، ويرفعون أكفهم إلى الله قائلين : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

هذا تقريع أهل الأعراف لرجال من أئمة المشركين وقادتهم ، يعرفهم أهل الأعراف بسيماهم ، ويقولون لهم ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ - أى كثرتكم - فلا تنفعكم هذه الكثرة ولا جموعكم التى كانت فى الدنيا من عذاب الله ، بل تذوقون اليوم ما تذوقون من أشد أنواع النكال والعذاب . ثم يقولون لهم أيضا ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم ﴾ إشارة إلى قوم من المؤمنين الفقراء فى الدنيا أنه لا ينالهم الله فى الآخرة برحمة .

(١) الحديد : ١٣ . (٢) انظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٢١٦ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وفي هذا درس عظيم لمن يستهزئ بعباده ، ويستهزئ بالمؤمنين الضعفاء الفقراء ، وينظر إليهم نظرة حقده واستعلاء وتكبر . فعسى أن يكون هذا الفقير المؤمن المتواضع خيراً عند الله من هذا المتعنت الغني الكافر .

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا لَيْتَ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنَسُّهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥٦﴾

ونادى أهل النار أهل الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء أو نعم الله التي أفاضها عليكم . فأجيبوا من أهل الجنة : أن الله حرمها على الكافرين . فتستغرقهم النار في عرصاتهم ، لأنهم كانوا بأمر الله ونهيه كافرين

وفي الآية : دلالة على أن سقى الماء من أعظم القربات . وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب . فكيف بمن يسقى واحداً من المؤمنين ، موحداً بالله وأنجاه من عطشه؟ وفيها أن أصحاب النار يستدلون يوم القيامة عندما يرفض طلبهم بشربة الماء التي طلبوها من أهل الجنة ، لأن الله حرمها عليهم ، فقد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، وغرتهم الحياة الدنيا وزخرفها ، ونسوا أوامر الله فلم ينفذوها ، ولم ينتهوا عما نهوا عنه .

فاليوم يعاملهم الله سبحانه وتعالى معاملتهم له في الدنيا ، ينساها كما نسوا لقاءه . وجل قوله - سبحانه وتعالى - ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿ (١)

وَلَقَدْ جِئْتَهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِي نَسُوهُ مِن قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ

(١) آيات ١٢٤ : ١٢٦ طه

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا اَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا
اَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

يخبر الله تعالى « عن إعداده إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم ، وبالكتاب الذي جاء به الرسول وأنه كتاب مفصل مبين .^(١) » . لقد أنزل - سبحانه وتعالى - القرآن العظيم ، وفصل فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان في الدنيا ، في كل عصور الدنيا حتى قيام الساعة . ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أى ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار . « والنظر ههنا بمعنى الانتظار والتوقع ، فإن قيل : كيف يتوقعون وينتظرون مع جحدهم له وإنكارهم ؟ قلنا : لعل فيهم أقواماً تشككوا وتوقفوا ، فلهذا السبب انتظروه . وأيضاً إنهم وإن كانوا جاحدين ، إلا أنهم بمنزلة المنتظرين من حيث إن تلك الأحوال تأتيهم لا محالة »^(٢) .

أما قوله تعالى : ﴿ يوم يأتى تأويله ﴾ يريد يوم القيامة . إن الكفار سيرون يوم القيامة عاقبة أمرهم ، وأنهم خسروا كل شىء بعدم تصديقهم لله لما بعث إليهم الرسل والأنبياء . ويوم القيامة يعلمون أن كل ما جاء من عند الله على أيدي الرسل ، وعلى لسان سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد ﷺ كان هو الحق . ويقولون ياليتنا صدقنا برسول ربنا ، إنهم جاءوا بالحق وقد كنا ظالمين . وعندها لا ينفع الندم ، فيبتغون في هذه الساعات شفعاء يخلصونهم ويشفعون لهم عند ربهم مما هم فيه ، ولات حين مناص ، فإنهم ﴿ قد خسروا أنفسهم ﴾ بدخولهم النار ، وذهب عنهم ما كانوا يتخذونه من دون الله ، فلا يشفعون لهم ساعتها ولا ينصرونهم ، ولا يقدر أن يشفعوا لهم .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

إن الله العزيز الحكيم خالق السموات والأرض ، وهو الحكيم الخبير ، وهو الذى استوى على عرش قدرته وحكمه ، بعد أن سوّى السموات والأرض في ستة أيام ، ويغشى الليل النهار - أى يجعله كالغشاء - أى يذهب ظلام الليل بضياء النهار ،

(١) ابن كثير : ٢ / ٢١٩ .

(٢) انظر تفسير الرازى : ١٤ / ٩٥ .

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وضياء النهار بظلام الليل ، وكل من الليل والنهار يطلب الآخر طلبًا حثيثًا - أى سريعًا لا يتأخر عنه - كل منهما يطلب الآخر دائمًا من غير فتور . سبحانه له الخلق والأمر - أى له الملك والتصرف في خلقه كيف يشاء .

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذى هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم ، فاشكروا ما أنعم الله به عليكم ابتداء من الوالدين ، ثم بالصحة والحياة والرزق ، عندما أصبحتم مسئولين عن أنفسكم . فرزقكم القدرة على العمل والكسب . فادعوه مخلصين له الدين ، وثقوا في أنكم إن أحستهم في عبوديتكم له ، أحسن إليكم بالتوفيق والسداد في الأمر ، واحذروا أن تعتدوا على أمر من أوامره وعلى خلقه بغير حق ، إنه لا يحب المعتدين . وقوله تعالى : ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ أى تذللًا واستكانة له سبحانه ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ بقنوت قلب ، وخشوع واعتقاد بوحدانيتها وربوبيته ، لا جهارا أو نفاقا . ثم ينهى الله - سبحانه وتعالى - عن الفساد في الأرض ، والإفساد فيها ، طالبًا أن ندعوه خوفا من عذابه ، وطمعا في ثوابه . لأن رحمته - سبحانه وتعالى - قريبة من المحسنين ، الذين يتبعون أوامره . وجل قوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ (١) .

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ تُخْرَجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

سبحانه الله القادر وبقدرته ﴿ يرسل الرياح بشرا ﴾ أى مبشرة للخلق بأن رحمة الله وفضله ستسوق الرياح بالأرزاق ، فتحمل المطر بإذن الله إلى الأرض الميتة - غير المنبتة -

(١) الأعراف : ١٥٦ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

فتنبت بقدرته - بأسباب يجريها على أيدي العباد ، من بذر الحب في الأرض بعد حرثها وإصلاحها للزراعة وذلك الخير ، اجتباءً وعطاءً على صلاحهم ومعرفتهم ، أو ابتلاءً ليكون عطاؤه في الآخرة لمن شكر وأحسن في تصريف النعم ويكون عقابه لمن أنكر المعروف الذي ساقه إليه الله ، فبدل أن يشكر النعمة عصى بها الله سبحانه وتعالى . .
والله - سبحانه وتعالى - يضرب مثلاً أنه كما يحيى هذه الأرض الميتة بالماء والخصب والنماء ، كذلك يحيى الأجساد بعد أن تصبح رمياً - تراباً - يوم القيامة .

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَذِرُ رِيحَهُ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

إن البلد الطيب - أى الأرض الطيبة - يخرج نباتها سريعاً حسناً مستساغاً .
إن الله سبحانه وتعالى ينمى زراعة هذه البلدة ، ويزيد صلاح أهلها ، فيجعلهم طيبين . ويصلح لهم أرض قريتهم ومزروعاتها ، فيجري لها المطر ، ويشمر شجرها ، وينبت أرضها .
أما البلد الذى خبثت جماعته ، وضل أهله عند عبادة الله وتوحيده ، فهؤلاء يصبح ما تسوقه الأرض لهم من خير نقمة لا نعمة .
إن النعمة لا تتم إلا بطاعة الله ، والعبرة ليست بكثرة الكسب من الأرض ، أو بأعمال أخرى ، ولكنها بطاعة الله فى الكسب ، وفى إنفاقه ، وفى إدخاره . وكذلك - سبحانه وتعالى - يصرف الآيات لقوم يشكرون . فالشكر لله أصل كل نعمة .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَائِكَةُ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِمَّا اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به ، وفرغ منه ، تعود بنا السورة في سياقها إلى القصص عن جماعة الأنبياء ، ابتداءً بنوح - عليه السلام - ، لأنه أول من أُرسل نبيًا ورسولاً بعد آدم عليه السلام .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

فلما أرسل الله نوحًا - عليه السلام - قال لهم ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ فرد عليه الكبراء والسادة من قومه ، الذين يملكون زمام الأمور قائلين : ﴿ إنا لنراك في ضلالٍ مبين ﴾ ، لأنك تدعوننا إلى ترك عبادة هذه الأصنام ، التي وجدنا عليها آبائنا ، فرد عليهم قائلًا : ﴿ يا قوم ليس بى ضلالة ﴾ ولست بمختل ﴿ ولكنى رسول من رب العالمين ﴾ هدانى ربى وما أنا بضال . وقد جئت ﴿ أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ﴾ وأقول لكم ما لاتعلمون .
هكذا كان نوح مع قومه الذين كذبوه واتهموه بالضلال ، وأصروا على عدم تصديقه .

أَوْعِظْهُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

قال نوح لقومه : لا تعجبوا من هذا ، فإننى رجل منكم ، وإرسال الله - سبحانه وتعالى - لرجل منكم رسولاً إليكم لطف منه ورحمة بكم وإحسان لكم ﴿ لينذركم ولتتقوا ﴾ غضب الله ونقمته ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ . لكنهم تمادوا وكذبوا وخالفوا وعصوا . وما آمن معه منهم إلا قليل .

﴿ فأنجيناه ﴾ أى أنجيناه من الغرق هو والذين اتبعوه وركبوا معه السفينة فقط ﴿ وأغرقنا ﴾ الباقين ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وعاندوه .

﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ لا يبصرون الحق ولا يهتدون إليه .

وبذلك نقول إن أمة الإسلام من لدن آدم - عليه السلام - لم تتعدد ، ولكنهم أمة واحدة ، عاشت فى حجر نوح بعد السفينة ، فجاء إبراهيم فنادى الشاردين ، فنجى الذين لبوا وأسلموا من جديد وجوهم لله رب العالمين .

يقول ابن كثير: « وهذه سنة الله فى عباده فى الدنيا والآخرة : أن العاقبة فيها للمتقين ، والظفر والغلب لهم كما أهلك قوم نوح بالغرق ، ونجى نوحًا وأصحابه المؤمنين » (١) .

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ رَبُّكَ مِنَ الْإِنسَانِ سَفَهًا وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ ٦٦ ﴿ قَالَ يَنْقُومِ رَبِّي سَفَاهَةً وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٦٧ ﴿ أَتَلْفُكُم بِرِسَالَتِي ربي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ٦٨ ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ ٦٩ ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنِزْنَا بِمَاعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ٧٠ ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ ٧١ ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ٧٢

يقول تعالى وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحا ، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا . وعاد هي إحدى قبائل العرب موطنها بالأحقاف ، ما بين اليمن وحضرموت . وكان لهم أصنام يعبدونها . وكان هود نبي الله من أشرفهم نسبا ، وأعلاهم منزلة . يعرفونه كبيرا في قومه . إذ عرف بمكارم الأخلاق ، وجيليل المحامد والخصال ، أرسله الله إليهم ليدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، فنادى فيهم ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ تعبدونه ﴿ أفلا تتقون ﴾ قالوا : ﴿ إنا لنراك في سفاهة ﴾ أي في ضلالة . فأجابهم في أدب الأنبياء ، وكمال المختبين ﴿ يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول ﴾ مبعوث من رب العالمين ، رب كل الخلق ، الذي بيده ملكوت السموات والأرض ، وهو الذي يرزقكم الفهم والعقل فأحسنوا النظر والفهم فيما أنتم عليه ، ولما أدعوكم له . ولكنهم لم يهتدوا ، وزادت مقاومتهم له - عليه السلام - وقال لهم : ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ أي أنه يقول لهم : لا تعجبوا أن الله

سُورَةُ الْاِنْشَارِ

بعث إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم عذابه ولقاءه ، بل احمدا الله واشكروه على نعمه الكثيرة : أن جعلكم من ذرية نوح . ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ - أى زاد طول أجسامكم على نظرائكم من أبناء جنسكم - واذكروا يا قوم نعم الله الكثيرة ومننه عليكم لعلكم تفلحون .

لكنهم أعلنوا عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام ، فقالوا له ﴿ أجتئنا لنعبد الله وحده ﴾ ؟ وكأنهم يقرون إقرارا واضحا ظاهرا أن الله وحده لا يكفى لأن نعبد ، وأنه لا بد أن يكون مع الله إله آخر ، ولا بد أن نعبد ونشرك مع الله آلهة أخرى . فازدادوا إثما على إثم وقالوا : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

وهنا أنذرهم هود وقال لهم : قد وقع عليكم غضب من ربكم العلى القدير الكبير ، وسترون عاقبة الظالمين . والرجس معناه السخط والغضب ، فهأنتم أولاء أيها القوم تبادلوننى الحجة ، وتحاجوننى فى هذه الأصنام ، التى سميتوها أنتم وأباؤكم آلهة ، وهى أحجار لا تضر ولا تنفع ﴿ فانتظروا ﴾ عذاب الله ﴿ إنى معكم من المنتظرين ﴾ تهديد من الله - سبحانه وتعالى - لهؤلاء القوم . لذلك يقول الحق : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ .

والمتتبع لقصة هود فى القرآن الكريم وقومه يرى أن عذابهم كان الريح التى أرسلها الله عليهم ، وهى الريح العقيم ، التى وصفها الله فى القرآن بقوله ﴿ ما نذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ (١) .

وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ إِلِيمٍ ﴿٧٤﴾ وَاذْكُرُوا
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ
سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ

(١) الذاريات : ٤٢ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

أَسْتَضِعُّوْا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُوْنَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِمْ قَالُوا
 إِنَّا بِكَ أَزْسِلَبٌ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
 ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا
 يُصَالِحُ اثْنَتَايِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
 فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيحِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰ قَوْمٍ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ
 بِرِسَالَةٍ مِن رَّبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾

يخبر الحق - سبحانه وتعالى - أنه قد أرسل إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا ، فقال لهم
 مثل ما قال نوح وهود : ﴿ اعبدوا الله ﴾ ثم قال : وهذه آيات قد جاءكم بينة من
 ربكم ، أى حجة من الله عليكم ، لأنهم قد طلبوا منه علامة على أنه رسول من عند الله
 فطلبوا منه أن تخرج لهم من صخرة صماء يختارونها بأنفسهم ناقة . ظانين أنه لا يقدر
 على ذلك ، ولا يستطيع تنفيذ ذلك . افتراء منهم وكذبا وإفكا وتعجيزا . فما كان من
 صالح إلا أنه أخذ عليهم الموائيق والعهود والشروط ، إذا جاءهم بهذه الناقة فماذا يكون
 حالهم ؟ أيؤمنون بالله - سبحانه وتعالى - ويعبدونه وحده ؟ فأعطوه على ذلك العهود
 والموائيق . وقام صالح - عليه السلام - ودعا ربه ، وتضرع إليه . فما كان إلا أن تحركت
 الصخرة ، ثم تمخضت عن ناقة يتحرك جنيها بين جنبيها . كما طلب القوم أن تكون
 ناقة عشراء . وخرجت الناقة ومعها ابنها أو وليدها بعد ما وضعت بينهم . وكانوا من
 بجاحتهم يشربون لبنها ، ويحتلبونها ، ويملئون أوعيتهم . فقال لهم صالح : هذه آية
 الله ﴿ فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء ﴾ . فلما اشتد تكذيبهم ، أرادوا أن
 يقتلوا هذه الناقة ، ليستأثروا بالماء الذي تشرب منه . واتفقوا على قتلها . فعقروا الناقة
 وقتلوا .

فلما علم بذلك صالح - عليه السلام - ، جاء إليهم وبكى ، ودعا عليهم
 ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أى صرعى لا أرواح فيهم . ولم يفلت منهم أحد صغيرا
 كان أو كبيرا . ذكرا كان أو أنثى . ولم يبق منهم غير صالح ومن اتبعه رضوان الله
 عليهم .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

ويقول القرطبي ^(١): « كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم ؛ كما في قصة ثمود في سورة هود . . . فأخذتهم الصيحة » . ﴿ فأصبحوا في دارهم ﴾ أى فى بلادهم ﴿ جائمين ﴾ أى لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم . وذلك من شدة الهول والعذاب . وأصل الجثوم هذا يكون للأرنب .

وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٦﴾
وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ
أُنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٨٧﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ ﴿٨٨﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٩﴾

هذه هى القصة الرابعة التى تتكلم عن الأنبياء وفعل أقوامهم معهم .
يقول ابن كثير والقرطبي : إن لوطا هذا هو ابن أخى إبراهيم الخليل - عليها السلام - ، واسمه لوط بن هارون بن آزر .

ويذكر أنه آمن مع إبراهيم - عليه السلام - وهاجر معه إلى الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر .

ولكن سدوم كانت أمة باغية ، وهى أول من عزف عن شرع الله فى زواج الرجال والنساء ، وقد مارسوا فاحشة اللواط وهو إتيان الذكور دون الإناث . وذلك أمر يخالف لسنة العمران ، واستقامة البشرية . قال لهم نبيهم : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ . الإسراف هنا بمعنى الجهل . لأنه استعمال للشئ فى غير مقصده ومحلّه .

ولكنهم لم يتردعوا عن غيهم . بل ماكان جوابهم للوط إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، وقالوا : ﴿ أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ وذلك عهد الظالمين دائما ، يقولونه على سبيل السخرية بهم ، وبتطهرهم من الفواحش . وقد قدر الله للوط ومن اتبعه النجاة من غم المعصية . غير أن امرأته كانت من ثمود ، فلما لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، وكانت تتفق مع هؤلاء القوم الفاعلين للفاحشة بإشارات بينها وبينهم .

(١) القرطبي : ٢٤٢ / ٧ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

فلما جاءهم العذاب أصابها ما أصابهم ، وبقيت معهم ، وأمطر الله عليهم حجارة مسنونة ، هلاكاً لهم على فعلهم هذا . . ويقول الإمام القرطبي :
«سرى لوط بأهله كما وصف الله ﴿ بقطع من الليل ﴾ ، ثم أمر جبريل - عليه السلام - فأدخل جناحه تحت مدائنهم فاقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب ، ثم جعل عاليها سافلها ، وأمطرت عليهم حجارة من سجيل» (١).

وَالِإِن مَّدِينًا أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾
وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكُتِرْكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِّن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَإِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

(١) تفسير القرطبي : ٢٤٧ / ٧ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

جَثِمِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا
كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ
رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾

هذه هي القصة الخامسة في سياق هذه السورة عن الأنبياء فيقول الحق : ﴿ وإلى
مدین أخاهم شعيبا ﴾ كما قال في القصص الأربعة السابقة والتقدير « وأرسلنا إلى قوم
مدین أخاهم شعيبا » . والأخوة هنا كما يقول الإمام الرازی : « أخوة في النسب ولم تكن
أخوة في الدين » .

ومدين اسم بلد وقطر، وقيل اسم قبيلة ، وقيل هم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل
- عليه السلام - . وشعيب كان واحداً منهم ، يذكر المفسرون أنه انتهى بنسبه إلى سيدنا
إبراهيم - عليه السلام - .

وكان يقال له خطيب الأنبياء لبلاغته ، وقوة بيانه ، وحسن رده على قومه الذين
كانوا أهل كفر بالله ، وأهل بخر للمكيال والميزان . ﴿ بينة ﴾ أى بيان ، وهو مجيء
شعيب بالرسالة . والواضح أن رسالة شعيب كانت رسالة جامعة . فكما تدعو إلى
التوحيد ، تدعو كذلك إلى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى .

ونأخذ من ذلك أن رسالة الأنبياء من لدن آدم كانت عقيدة وشريعة . غير أن اكتمال
الشريعة كلية كان على يدى خاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ - . ونلاحظ جزئية
التشريع في الرسائل السابقة في قول شعيب ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس
أشياءهم ﴾ . ثم يدعوهم إلى عدم الفساد فى الأرض بعد إصلاحها ، لأن الأنبياء الذين
سبقوه قد أصلحوا ، ثم لما طال الأجل بعد موتهم عادت الناس إلى الإفساد فى
الأرض ، فأمرهم سيدنا شعيب - عليه السلام - ألا يطففوا فى المكيال والميزان ، أى ألا
يحتالوا فى النقصان منها .

وقوم شعيب كانوا مشهورين بهذه العادة الدنيئة .

والظاهر أن قوم شعيب كانوا يتعقبون المؤمنين ، وكانوا يصدون الناس عن الإيمان
بالله ، ولا يريدون الإصلاح ، بل يصرون على هذا الصّد عن الإيمان بالله ، وعما جاء به
شعيب - عليه السلام - من الخير والتوحيد .

إذ يقول الحق لهم : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ حيث إنهم كانوا يوعدون من آمن
بالله ورسوله بالعذاب والحرب بكل صراط - أى بكل طريق - . وقد كشف الله - سبحانه

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وتعالى - على لسان سيدنا شعيب أنهم يودون أن يكون الطريق إلى الله المؤدى إلى طاعته طريقاً أعوج مائلاً ، فيقول تعالى لهم : لا تفعلوا ذلك أيها القوم ، خصوصاً أنكم كنتم مستضعفين في الأرض ، لقلة عددكم فكثركم الله ، وزاد من أعدادكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ، وانظروا إلى حال الأمم السابقة عليكم الذين كانوا يفعلون فعلكم ، كيف كانت عاقبتهم ؟

ثم دعاهم إلى الالتجاء إلى الله وحكمه عندما قال لهم : إن كنتم قد اختلفتم على ، فهناك طائفة منكم آمنت بما أرسلت به ، وطائفة أخرى لم تؤمن ، فاصبروا - أى انتظروا - حتى يفصل الله بيننا وبين قومنا وهو خير الحاكمين ، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

فما كان جواب المستكبرين عليه من قومه ، وزعماء الشرك ، ورءوس الضلال والكفر إلا أن قالوا : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ أى من أرضنا التى نسكنها ، إن لم تعودوا فى ملتنا - أى فى ديننا - وما نحن عليه من اعتقاد . فقال شعيب لهم ﴿ أولو كنا كارهين ﴾ لهذا الاتباع ، وكارهين للدخول معكم فى ملتكم ، أتجبروننا عليه ؟ إننا إن فعلنا ذلك فإنما نفتري على الله ، نشرك به ، ونجعل له أنداداً ، ونكذب عليه . كل ذلك إن عدنا فى ملتكم بعد أن وهبنا الله أعظم منحة فى البشرية ، وهى الالتجاء إليه ، والعبودية له وحده . لا يحق لنا أن نعود فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . ﴿ وسع ربنا كل شئ علماً ﴾ .

فاحكم يا رب بيننا وبين هؤلاء القوم ، واجعل النصر لنا عليهم . فأنت خير الحاكمين الفاتحين العادلين . وهذا الدعاء هو عين من عيون الحق . ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ أى خير الحاكمين ، فإنه العادل الذى لايجور أبداً . لكن القوم أصروا على كفرهم وقالوا لبقية قومهم : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذن لخاسرون ﴾ وكذلك جثم الشيطان عليهم بظلمات كثيفة . فأخذتهم رجفة شديدة ، وأهلكهم الله بريح عاصفة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين على هيئة هياكل صماء ، عبرة لمن يأتى بعدهم . وكذلك يفعل الله بالظالمين .

وأصبحوا ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى كأن لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ، لما أصابتهم النقم والمصائب .

وتولى عنهم شعيب - أى تركهم ومعه جماعة المؤمنين - هو يقول : يا قوم ما لى ذنب

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾ ، ولذلك فإنني غير آسف عليكم .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
يَضُرَّعُونَ ﴿١٤﴾

إن البأساء هي ما يصيب القوم من أمراض وأسقام . أما الضراء فهي ما يصيب
القوم من فقر وعوز .

وما يفعل الله ذلك إلا اختباراً منه سبحانه وتعالى لهذه الأمم التي يُرسل إليها الرسل .
لعلهم يتضرعون ويخشعون ويبتهلون ولا ينسون الله .

ولما عرفنا الله تعالى أحوال هؤلاء الأنبياء ، وأحوال ما جرى على أممهم ، كان من
الجانز أن يظن أنه تعالى ما أنزل عذاب الاستئصال - أي الخزي والدمار والهلكة - إلا في
زمن هؤلاء الأنبياء فقط .

فبين - في هذه الآية - أن هذا الجنس من الهلاك قد فعله بغيرهم ، وبين العلة التي بها
يفعل ذلك ﴿لعلهم يضرعون﴾^(١) . والتضرع هو الخضوع والانقياد لله ، سبحانه وتعالى .

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَاءُ
وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ ، أي حولنا الحال من شدة إلى رخاء ، ومن مرض
إلى صحة ، ومن عسر إلى يسر ، ومن فقر إلى غنى ، ليذكروا على ذلك ، ﴿حتى عفوا﴾
أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم^(٢) ومع هذا لم يزدتهم كل ذلك إلا طغيانا وكفرا ، ولم
ينيبوا إلى الله سبحانه ويشكروه شأن من يؤمن بالله ، عز وجل .
فكان رد المولى سبحانه وتعالى عليهم أن أخذهم بالعقوبة بغتة على عدم استعداد
منهم .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾

(١) تفسير الرازي : ١٤ / ١٨٣ . (٢) انظر : تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٣٣ .

سُورَةُ الْاِنْعَامِ

ولو أن الخلق من أهل القرى والبلدان آمنوا بالله ، وأرجعوا كل فعل إليه ، وعرفوا أنه الخالق والرازق والمنعم والمتفضل ، وعبدوه وفق هذه المعرفة به سبحانه ، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، أى جعلنا أرزاقهم واسعة عريضة غير محدودة . فيصبحون في نعمة من الله وفضل . ولكن كما كذبوا رسل الله ، وكفروا بالله أخذناهم بما كانوا يكسبون ، من الإثم ، وتكذيب الرسل ، ومعصية الله ، سبحانه وتعالى .
ثم قال تعالى مخوفاً ومحدراً من مخالفة أوامره :

أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾

وأهل القرى ، أى القرى الكافرة . وبأسنا ، أى عذابنا . وبيئاً . أى ليلاً . . . أو أمن الناس أن يأتيهم بأس الله وشدته وعذابه وهم في قراهم نائمون ، أو لاهون في غرورهم وانصرافهم عن أمر الله ورسله ١٧

أَوْ أَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٨﴾

أى أو أمن أهل القرى أن يأتيهم العذاب بغتة في وقت الضحى حال شغلهم وهوهم عن الله ؟ إن الله قادر أن يهلكهم في ذلك الوقت أيضاً ، بل وفي كل وقت وحين .

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

ومكر الله في الآية ، أى بأسه وعذابه ونقمته وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ، ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله : «المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف . والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن» (١) .

إنهم إن كانوا قد آمنوا مكر الله فهم خاسرون ؛ لأن المؤمن لا ينسى الله أبداً ، ولا ينسى نقمه وعذابه ، وأنه في كل الحالات مبتلى .

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ

بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

إننا لو نشاء . . . ومشيئتنا هى الغالبة . . . لأصبناهم بذنوبهم ، وأهلكناهم بكفرهم ، ونطبع على قلوبهم بالكفر والهلاك في عرصات جهنم ، فيدخلون النار لا

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٣٤ .

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

يسمعون إلا حثيثها ، ولا يشهدون إلا دخانها وظلمتها . إنهم كانوا كافرين أفلم يهتدوا إلى معرفة ذلك ؟!

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾

لما قص الحق على نبيه محمد ﷺ تلك القصص تسليية له ، وذكر أنه تعالى قد قدم لهم الحق بالحجج على السنة الرسل صلوات الله وتسليياته عليهم . من أنبائها أى من أخبار أهلها حينما ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ ، أى الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به .

بين سبحانه أنهم ما كانوا ليؤمنوا - بعد هلاكهم - لو أنه - عز وجل - أحياهم ، وذلك كفرا منهم وعنادا . هذه هى أخبارهم يا محمد وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ أى مثل طبعه تعالى على قلوب هؤلاء المذكورين يطبع على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ . (١)

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٢﴾

يقول ابن كثير « أى ما وجدنا لأكثر الأمم الماضية من عهد ، ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين ، خارجين عن الطاعة والامثال والعهد الذى أخذ عليهم فى الأصلاب ، أنه ربههم ومليكنهم ، وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله إلها غيره بلا دليل ولا حجة » (٢) .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنظَرَكِيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٣﴾

يذكر الحق - سبحانه وتعالى - أنه أرسل موسى - عليه السلام - بآيات من ربه ، ورغم كل ذلك ما كان من فرعون وقومه إلا أن كذبوا بالآيات الواضحة الظاهرة ؛ وبدل أن يسلموا لموسى ويؤمنوا كفروا بالله ، وحاربوا موسى ، فنكل الله بهم ، ونجى موسى ومن معه .

(١) انظر تفسير القرطبي : ٢٥٥ / ٧ . (٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٥ .

سُورَةُ الْاِٰنْشِرَافِ

يقول الرازى : « اعلم أن هذه هى القصة السادسة من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة . وذكر فى هذه القصة من الشرح والتفصيل ما لم يذكر فى سائر القصص ، لأن معجزات موسى كانت أقوى من سائر معجزات الأنبياء ، وجهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقسام » (١) .
وقوله تعالى ﴿ فظلموا بها ﴾ أى كفروا بها ولم يصدقوا .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِثَابِتٍ فَآتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تُوكُ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

هذه مناظرة رائعة أوردها الحق - سبحانه وتعالى - بين موسى وفرعون ، مليئة بالحجج والبراهين الحسية والمعنوية ، التى تدحض حجج فرعون وسحرته .

إذ قال موسى لفرعون : ﴿ إني رسول من رب العالمين ﴾ ورب العالمين هورب كل شىء ومليكه ، لا يقول إلا الحق ، وأنا رسول من عند هذا الحق . فأنا لا أقول إلا الحق . لأن رسول الله دائما لا يقول إلا الحق . ﴿ حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ﴾ .

وإني قد جئتكم بية - أى بحجج قاطعة - وهبني الله إياها دليلا على صدقي فيما جئتكم به ، وأطلق معي بنى إسرائيل وخلّهم ليتخلصوا من قهرك وعذابك وطغيانك ،

(١) انظر الرازى : ١٤ / ١٨٩ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

ليتوبوا إلى ربهم ، ويرجعوا إلى عبادته وحده ، فإنهم من سلالة نبي كريم هو إسرائيل ، وهو : «يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن» . فرفض فرعون طلبه وقال له : لست بمصدق لك ، وسوف لا أعطيك بنى إسرائيل ، وإن كانت معك حجج أو بينات أظهرها لنا ، وأرنا إياها إن كنت صادقاً فيما تزعم وتدعى . فألقى موسى عصاه آية ، وإذا بالعصا ﴿ ثعبان مبین ﴾ أى عظيم وواضح . ثم نزع موسى يده من جيبه ﴿ فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ شديدة البياض شديدة النور . يذكر القرطبي أن ابن عباس قال : كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض .

وقيل كانت تخرج يده بيضاء كالثلج تلوح فإذا ردها عادت إلى مثل سائر بدنه^(١) . وهذا هو معنى قوله في آية أخرى ﴿ بيضاء من غير سوء ﴾^(٢) أى من غير مرض أو برص .

﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ والملأ : هم الجمهور والسادة وعلية القوم . قالوا : ﴿ إن هذا ﴾ سحر وإن موسى ﴿ لساحر عليم ﴾ بالسحر ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ بسحره .

فقال فرعون ردا عليهم ﴿ فماذا تأمرون ﴾ ؟ أى أشيروا على . ﴿ قالوا أرجه ﴾ أى أخره أو احبسّه ، وابعث في كل الأقاليم و ﴿ المدائن ﴾ التى هى كلها تحت ملكك وتصرفك ابعثهم ﴿ حاشرين ﴾ أى من يحشرون لك السحرة من جميع البلاد ويجمعونهم . وقد كان السحر فى زمن فرعون غالباً وكثيراً . وأقنعوا الجمهور والعامّة أن موسى فعلا ساحر لا ينفع معه إلا السحر الميين . وجمعوا كبار السحرة المشهورين فى السحر من جميع أطراف البلاد ، وحضروا بين يدي فرعون .

وقالوا له : ﴿ إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ﴾ فأجابهم فرعون بقوله : نعم ، وليس الأجر فقط ، ولكن ستكونون من المقربين إلىّ والمحظوظين برضاى ، وستغرقكم نعمى وعطاياى . وبعد ذلك تبدأ حلبة الصراع وتبدأ الجولة بين الحق والباطل فى تلك الآيات الخالدة :

(١) انظر تفسير القرطبي : ٢٥٧ / ٧ . (٢) طه : ٢٢ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا
 أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
 ﴿١١٧﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ
 وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ
 سَجْدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام ، حين تقدموا أمام الجمع الكبير من
 الناس بحضور فرعون وقالوا لموسى : يا موسى إما أن تبدأ بسحرك وإما أن نبدأ نحن .
 فقال لهم موسى : ألقوا أنتم ﴿ فلما ألقوا ﴾ ما بأيديهم من سحر ﴿ سحروا أعين الناس
 واسترهبوهم ﴾ « أى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج ولم يكن إلا مجرد
 صنعة وخيال » ^(١) ، أدهش الجميع حتى ظنوا أنهم قد انتصروا على موسى ، أو كادوا
 ينتصرون .

وأوحى الله إلى موسى أن يلقي عصاه . فألقى موسى عصاه فإذا بها حية ، أى
 ثعبان ، تسعى ، وتلقف - أى تبتلع - كل ما صنع السحرة .

وكان لذلك وقع كبير سرى فى نفوس السحرة ، وعلموا بأن هذه آية من الله وليست
 من صنع موسى . لأنهم سحرة ماهرون يعرفون السحر فلا يمكن أن يكون ما فعله
 موسى سحرا أبدا . فلا بد أن يكون موسى نبيا موحى إليه من عند الله رب العالمين
 الذى بعثه رسولا نبيا آمينا على الحق .

وتغلب الحق على الباطل ، وانتصر موسى وسجد السحرة كلهم لله رب العالمين ،
 ﴿ قالوا آمنا ﴾ برب موسى وهارون رب العالمين وكفروا بفرعون ، وضربوا بزينته وملكه
 وطغيانه عرض الحائط .

وهنا وفى ثورة عارمة وطغيان بارز :

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَا مَنتُمْ بِهِ قَبْلَ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٣٧ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

مِنْهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنْقِمُ مِنْآلِآتِآءِ آمَنَاتِنَا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارُ رَبِّنَا أَفَرِحَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

يخبر تعالى عما توعد به فرعون السحرة عندما آمنوا . أنكر فرعون على السحرة الذين جمعهم من كل المدائن والأطراف ، أنهم سجدوا لله رب العالمين ، وآمنوا بموسى وبسحره ، ورماهم بالخداع والمكر والخيانة ، وأنهم ما فعلوا ذلك إلا ليخرجوا أهل هذه البلاد منها . ليستولوا على مصر . وهددهم قائلا : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ ما أنا فاعل بكم . ثم فصل تهديده ، زيادة في تخويفهم ، قائلا : ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ أي سوف أقطع يديكم واليمنى ورجلكم اليسرى ، أو يديكم اليسرى ورجلكم اليمنى . ﴿ ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ على جذوع النخل . ويقول ابن كثير على لسان ابن عباس : وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف هو فرعون . لكن هؤلاء القوم كانوا مصممين على رجوعهم إلى الله ﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أي إنا قد تحققنا من رجوعنا إليه ، وإنك مهما فعلت بنا من عذاب فهو أهون علينا من عذاب يوم القيامة .

ثم رفعوا أيديهم إلى الله - سبحانه وتعالى - أن يلهمهم الصبر على دينه ، والثبات على الوجدانية والعقيدة الراسخة . لذلك يقول الحق في موضع آخر على لسان هؤلاء القوم : ﴿ فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرما فإن لهم جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأت مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا ﴾ (١) . يقول ابن كثير : كانوا في أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء برة (٢) .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ

(١) طه : ٧٢ - ٧٥ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٣٨ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه ، وما أضمره لموسى وقومه من الأذى والبغضاء . ففى تحريض وتزلف ونفاق وتزيين للباطل ﴿ قال الملائمة قوم فرعون ﴾ له أترك موسى ومن آمن به ليفسدوا فى الأرض . . ؟

فأجابهم فرعون بأنه سيقول قوم موسى ويذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، انتقاماً منهم ، وقهراً لهم ، وسنكون دائماً فوقهم قاهرين لهم .

ولكن موسى اتجه إلى قومه وقال لهم : ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ واعلموا أن ﴿ الأرض لله ﴾ ليس يملكها أحد ، والله هو العدل ﴿ يورثها من يشاء من عباده ﴾ والأمر فى ذلك له وحده ، وقد وعد أن يورثها لعباده الصالحين ﴿ والعاقبة ﴾ دائماً بالنصر ﴿ للمتقين ﴾ من عباده . وقال قوم موسى له لقد ﴿ أوزينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ .

قال موسى ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ ، وهذا تحضيض لهم على أن يعزموا على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

لقد أخذ الله آل فرعون بشدة ، وابتلاهم بسنى القحط بسبب قلة الزروع ونقص فى ثمرات الأرض ، ونقص فى المال . لعلمهم يعتبرون ، ويتذكرون نعم الله التى لم يشكروها . ولكنهم كانوا لا يعتبرون . فإذا أحسن الله إليهم بالحسنات ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ ولم يشكروا الله .

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ يقولوا يا موسى لقد أوزينا بك وبمن معك ، تشاؤما به ، وتطييراً يحصيه المولى تعالى عليهم ، ولكنهم بجهلهم لا يعلمون الحق .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

وفي صلف وعتو وتمرد وعناد للحق وإصرار على الباطل ، قالوا لموسى - عليه السلام - لن نتبعك ، ولن نؤمن بك مهما فعلت ووعظت وذكرت .
فأرسل الله - سبحانه وتعالى - عليهم عذابه بأن ابتلاهم بالطوفان ليغرقهم ، والجراد يعذبهم بهجومه عليهم ، وبالقممل والضفادع .
وبعد ذلك أرسل الله عليهم الدم ، فسال النيل عليهم دما .
تلك آيات مفصلات أرسلها الله - سبحانه وتعالى - ، وأوردها لبني اليهود الذين خالفوا موسى ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين .

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَأَنْشَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَتِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

الرجز هنا هو اسم من أسماء العذاب وهؤلاء القوم لما عتوا وتمردوا على موسى وعلى ربه ، رغم ما جاءهم من ابتلاءات بالآيات التي ذكرت واحدة بعد الأخرى ، انتقم المولى - عز وجل - منهم بإغراقهم في اليم ، وهو البحر ، بسبب تكذيبهم بآيات الله ، ثم مكّن الله - سبحانه وتعالى - وأورث قوم موسى الذين كانوا مستضعفين في الأرض ، وهم بنو إسرائيل ، أورثهم مشارق الأرض ومغاربها .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وحقا قوله تعالى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ (١).

وهكذا يفعل الله دائما بالظالمين مثل فعله بفرعون وقومه !

وَجَنُوزًا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا
يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا
مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ
فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾

ونجى الله موسى ومن معه من بنى إسرائيل من الغرق في البحر ، فلما خرجوا من البحر وساروا في الأرض اليابسة ، وجدوا قوما يعبدون الأصنام ، فقالوا لموسى : اجعل لنا أصناما نعبدها مثلهم . فقال لهم موسى : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ . إن الذين تريدون مثله باطل ، وهؤلاء القوم باطل ما هم فيه من عمل ، وباطل كل ما يعملون وهكذا تنتكس بنو إسرائيل دائما ، وتهبط من علياء ما يدعوهم إليه موسى بطلبهم . ثم يذكرهم الله تعالى بنعمه التي أسبغها عليهم . . من إنقاذهم من ذل فرعون وأسرهم ، وما كانوا فيه من الهوان والدلة ، والحال التي وصلوا إليها من السعادة والعزة وأنه فضّلهم على العالمين . قائلا :

وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

أى كيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غير الله ؟ ! !

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿١٤٢﴾

(١) القصص : ٦٠ ، ٥ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

قد وعد الله موسى بالمناجاة واللقاء على جبل الطور . فصام موسى ثلاثين يوماً شكراً لله . فكلفه الله أن يتمها أربعين يوماً .

ثم استخلف موسى على قومه أخاه هارون ، وذهب لميقات ربه - أى لموعد ربه المضروب - وقال لأخيه : اخلفنى فى قومى ، وأصلح بينهم ، ولا تتبع طريق المفسدين الضالين منهم .

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

وذهب موسى طاعة لربه إلى الميقات المحدد ، وإلى المكان الموعد بلقاء الله - سبحانه وتعالى - ، وكلمه الله العزيز الحكيم ، ولما سمع موسى ربه سأل أن ينظر إليه ، فقال : يا ﴿ رب أرنى أنظر إليك ﴾ .

فأجابه الله - سبحانه وتعالى - بقوله : ﴿ لن ترانى ولكن ﴾ يا موسى ﴿ انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه ﴾ وظل على حاله ﴿ فسوف ترانى ﴾ . وتجلى نور الله على الجبل ، ولم يطق الجبل جلال التجلى ، فصار دكا ، أى ترابا . أما موسى فخر صعقا أى أغمى عليه ، وتاه عن نفسه ، ولكن الله برحمته أفاقه . فقال موسى : ﴿ سبحانهك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ بأنه لا يراك أحد ، بل وبقدرتك وعفوك .

قَالَ يَكْمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَاءً اتَّيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

اصطفيتك - أى اخترتك على خلقى من الناس ، وجعلتك رسولا لي إليهم تبلغهم رسالتى وكلامى - فخذ ما آمنتك عليه من الحق ، وبلغهم إياه ، وكن من عبادى الشاكرين ، أى على ذلك ، ولا تطلب مالا طاقة لك به .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ
فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

كتب الله تعالى لموسى في هذه الألواح مواعظ وأحكاما، مفصلة مبينة للحلال والحرام.

فخذها يا موسى بعزم وقوة ، وإرادة على الطاعة، وأمر أهلك وقومك أن يعملوا بالأوامر، ويتركوا المعاصي ، وإن خالفتهم : ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ أى سأعاقبكم .

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ
آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا
سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

ينجر تعالى أنه سيفرف الذين يتكبرون على أمر الله وعلى رسل الله عن الاعتبار بآياته ، وفهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتة تعالى وشريعته وأحكامه . أى كما استكبروا بغير حق ، أذلهم الله بالجهل . وهم الذين يتكبرون فى الأرض بغير حق ، وكلما رأوا آية لله ، دالة على وجوده أنكروها .

وعندما يدعون للحق يعرضون عنه ، ويتخذون سبيلا وطريقا غير طريقه ، وذلك لأنهم كذبوا بآيات الله ، وأعرضوا عنها ، وكانوا من الغافلين عن أمر الله ونهيه . وهؤلاء ضاعت منهم الدنيا . وهم فى الآخرة أيضا خاسرون . لأنهم ظنوا أن متاع الدنيا هو الحياة . فخسروا دنياهم وآخرتهم .

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَيَرُوا أَنَّهُ
لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾

ينجر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل الذى اتخذه السامرى لهم من حلى القبط ، إذ لما كان موسى فى لقاء ربه وصى أخاه هارون بالقيام بأمر الأمة حتى يعود . ولكن بنى إسرائيل اتخذوا عجلا جسدا من ذهب قبط مصر

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

وعبدوه. لذلك ينكر الله عليهم جهلهم وضلالهم، وذهولهم عن خالق السموات والأرض ، بقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ ولا يرشدهم إلى خير ؟! ﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ أى ندموا على ما فعلوا ، لجئوا إلى الله عز وجل ، بعد عودة موسى من الميقات اعترافا منهم بذنبهم ، وإقرارا بخطئهم الفادح ، وشركهم الصريح . ولذلك يقول الحق :

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ
لَنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

تعبيرا عن ندمهم وحسرتهم .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَ عَلَيْهِمْ غَضَبَ مَنْ أَسَفَا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَفَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾

ولما رجع موسى من مناجاة ربه تعالى إلى قومه في غضب شديد عليهم ، قال لهم : بشس ما فعلتم من بعدى في عبادة العجل . وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال هارون : يا ابن أُمى : إن القوم من بعدك عصوني ، ولم يطيعوا أمرى ، فلا تعاقبنى بفعلهم وتشميتهم بى . فقال موسى : رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا رحمتك وأنت خير الراحمين .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا
إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

يقرر تعالى غضبه على الذين اتخذوا العجل ، ويسجل عليهم الذل فى الدنيا والآخرة ، وذلك جزاء المفتريين والمفسدين فى الأرض . وأما الذين تابوا وعادوا إلى الله

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

تائبين نادمين ، فإن الله - سبحانه وتعالى - من بعد ذلك غفور رحيم .

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسخِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

وعندما ذهب الغضب عن موسى وسكن ، أخذ الألواح التي ألقاها وقد نسخت فيها التوراة ، وهى كتاب الله إلى بنى إسرائيل ، وفيها الهدى والحق الذى تسير به أمة بنى إسرائيل ، إن أطاعوا موسى واهتدوا بهداه .
والله - سبحانه وتعالى - يقرر هنا أنها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، أى يخافون .

وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّى أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾
❖ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

كان الله تعالى قد أمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلا ، وطاعة من موسى لربه اختارهم ، وذهب لمناجاة ربه وهم ينتظرون رجوعه إليهم . فلما عاد إليهم ، قالوا له أرنا الله بغير حائل بيننا وبينه . فأخذتهم الرجفة وكأنهم قد ماتوا . فاستعطف موسى ربه وقال له : يا ربى لو كنت أهلكتهم من قبل أن آتيك بهم كان ذلك أرحم بى ، وأنت أعرف سبحانه بصلف بنى إسرائيل ، أو تهلكنا يا رب ﴿بما فعل السفهاء منا﴾ ؟ إنك أنت الفعال لما تريد . وقد ابتليتهم بما فعلوا ، ولكنهم سيّدعون أننى الذى أمتهم ، وأنت سبحانه أعرف بهم منى ، فلا تؤاخذنى بفعل السفهاء منا .

إنها ﴿فتنتك يا رب﴾ ، ﴿تضل بها من تشاء وتهدى بها من تشاء﴾ ، وأنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين . ﴿واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

إنا تبنا ورجعنا وأنبنا إليك . ثم يقول تعالى : إننى أفعل ما أشاء ، وأحكم بما أشاء ، ولى التصرف والحكمة والعدل فى كل ذلك ، ورحمتى قد عمّت وشملت كل شىء . هذه الرحمة سيكتبها الله - سبحانه وتعالى - للذين يتقون ويخافون مقامه ، ويفعلون الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بكل آية ينزلها الحق .

وهذه صفات أمة محمد ﷺ ، وأيضاً من صفات هؤلاء المتقين الذين تشملهم رحمة الله وعنايته :

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

يقول ابن كثير «وهذه صفة محمد ﷺ فى كتب الأنبياء . بشروا أمهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم» (١) . وهذا النبى موجود وصفه عندهم فى التوراة والإنجيل ويعرفه علماءهم جيداً . وهو يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم كل طيب ، ويحرم عليهم كل خبيث .

وكل ما أحل الله تعالى من المأكّل فهو طيب نافع فى البدن والدين ، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار فى البدن والدين .

وهناك أشياء مستحدثة تعد من باب الخبائث . كجميع أنواع المخدرات والدخان مثل السجائر وغيرها من سائر الأنواع الحديثة . فهى بهذا النص حرام حرام ، لقوله ﴿ ويحرم عليهم الخبائث ﴾ وقد أثبت العلماء المحدثون الذين ، هم أدرى بمدى خبث هذه الأشياء ، أن هذه الأنواع كلها بما فيها الدخان والسجائر حرام ، لأنها

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٥١ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

خبيثة ، تضر بالجسم . والرسول ﷺ يقول : « لا ضرر ولا ضرار » (١) .
كما يرفع عنهم الأغلال والقيود التي كانت مفروضة عليهم .
وذلك لأن الأمم التي سبقت عصر محمد ﷺ قد ضُيِّقَ عليها ، فوسع الله على أمة محمد ﷺ - أمورها .

يقول ابن كثير « ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ » (٢) .
وهكذا يخبر الحق سبحانه وتعالى عن الذين يؤمنون بمحمد ﷺ ويساندونه ويعزرونه - أي يعظمونه ويوقرونه ، ﴿ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ أي القرآن والوحي ، أنهم هم المفلحون في الدنيا والآخرة .

قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

« هذا خطاب للأحر والأحرار والعجمي » (٣) .
أما الملائكة فقد علموا بذلك وصدقوه . فقل لهم يا محمد : إن الله هو الذي أرسلني إليكم جميعاً ، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة . والله سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض ، واعلموا أنه لا إله إلا هو فاعبدوه ، وأنه يحيي ويميت ، ويبعث بعد الموت للحساب ، فآمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ - النبي الأمي - الذي يصدق قوله عمله ، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ، فاتبعوه ، أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ، تكونوا على الحق والصراط المستقيم ، ولعلكم بذلك تهتدون إلى ما يحب الله ، فتكسبون رضاه .

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه - كتاب الأحكام ، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره عن عبادة بن الصامت ، وفي الزوائد : في حديث عبادة هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع لأن اسحق بن الوليد - قال الترمذي وابن عدي - لم يدرك عبادة بن الصامت ، و - قال البخاري - لم يلق عبادة .
كما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه من طرق أخرى عن ابن عباس ، ورمز السيوطي في الجامع الصغير له بالصحيح .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٥٤ . (٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٥٤ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وقد ورد في حديث رسول الله ﷺ ما يثبت أنه رسول من رب العالمين إلى كل الناس «قال ﷺ أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجلعت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيا رجل من امتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة» (١).

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» (٢).

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

يقرر تعالى أن من اليهود جماعة كانوا يدعون للحق ، ويهتدون به قبل بعثة محمد ﷺ ، فلما جاء محمد آمنوا به ، فأصبحوا من المسلمين . هذه الطائفة تشير إليهم آية أخرى من كتاب الله ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون ﴾ (٣).

وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَمَهُ قَوْمُهُ
 أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ
 كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ
 وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ
 كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

قسم الله - سبحانه وتعالى - بنى إسرائيل إلى اثنتى عشرة جماعة ، على عدد أبناء يعقوب ، لأنهم كانوا اثنتى عشر ، وأصبح لكل جماعة من الاثنتى عشرة أسباط - أى

(١) رواه : البخارى في كتاب التيمم باب . قول الله تعالى «فلم يجدوا ماء . . .»

(٢) كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا . . . والخ . (٣) آل عمران : ١١٣ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

جماعات - كبيرهم أمير عليهم - أى أصبحوا اثنتى عشرة أمة . لها رئيس ومعاونون له ، يقومون على أمر معاشهم ، وقطعناهم فى الآية - أى صيرناهم وجعلناهم قطعاً ، أى فرقا ، وقد قالت هذه الجماعات الاثنتا عشرة لموسى : نريد ماءً عذباً نستقى منه ، ونسقى منه أنعامنا . فأمر الله - سبحانه وتعالى - موسى قائلاً : اضرب يا موسى ذلك الحجر . فضرب موسى الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد هذه الجماعات . وجعل لكل عين من الاثنتى عشرة علامة لأصحابها . وأتم الله عليهم النعمة ، فظل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وقال لهم : كلوا من ذلك الرزق الطيب .

وبدل أن يشكروا لله نعمته ظلموا أنفسهم بمعصيتهم الله .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

بعد أن أنعم الله - سبحانه وتعالى - على هؤلاء الأسباط بهذه النعم السالفة ، يخبر الحق - سبحانه وتعالى - : أنهم لم يشكروا هذه النعمة ، فيذكر أنه إذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية ، وكلوا من خيراتها حيث شئتم ، ﴿قولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم﴾ خطاياكم وسنزيد المحسنين منكم ، بدل فريق منهم ، وهم ظالمون لأنفسهم ، هذه الأقوال ، وفعلوا بعكسها ، فأرسل الله عليهم رجلاً من السماء - أى عذاباً أليماً - بسبب ظلمهم هذا . وقد تقدم تفسير هذه الآيات فى سورة البقرة وإن اختلف موضوع السياق .

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ﴿١٦٤﴾

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

قوله تعالى واسألهم عن القرية - أى عن أهل القرية - لأنها كانت مستقرا لهم ، كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية التى كنا فيها ﴾ - أى اسأل أهل القرية - والمعنى : أى يا محمد اسأل اليهود الذين هم جيران لك عن أخبار المتقدمين من أسلافهم . والسؤال هنا للتقرير والتوبيخ ، اسألهم عن أمر أهل القرية التى كانت بقرب البحر ، وحرم الله عليهم الصيد يوم السبت ، ولكنهم احتالوا وصنعوا آبارا فى البحر تحت الماء وحبسوا فيها الأسماك الجمعة ، فلما جاء السبت لم توجد أسماك فى البحر إلا القليل ، ولما انتهى يوم السبت وجاء يوم الأحد أخذوا الأسماك التى حبسوها فى الأحواض ، احتيالا على أمر الله ، ولكن الله رقيب عتيد ، ففاجأتهم نعمة الله - سبحانه وتعالى - على فعلهم هذا ، واحتياهم فى مخالفة أوامر الله . وقوله تعالى ﴿ إذ يعدون فى السبت ﴾ معناه يعدون فى تعظيم هذا اليوم ، أى يصيدون الحيتان فى يوم السبت وقد نهوا عن ذلك . أما قوله تعالى : ﴿ شرعاً ﴾ أى ظاهرة على الماء كثيرة ، ويقال حيتان شرع أى رافعة رءوسها . يقول الإمام الرازى « وذلك يدل على أن من أطاع الله تعالى خفف الله عنه أحوال الدنيا والآخرة ، ومن عصاه ابتلاه بأنواع البلاء والمحن » (١).

وكانت هناك منهم جماعات صالحة ، تجنبت عملهم ، وحرمت ما حرم الله ، واعتزلتهم وما يفعلون . فوعظوهم ، وسألوهم عن سوء عملهم . فكانوا على حق ، لأن اعتزال المنكر لا يكفى من الصالحين ، فلا بد من الجهاد بالكلمة وباليد ، وإن عجز الإنسان عن الجهاد باليد والمال ، اعتزل أهل الباطل . فالصمت وحده لا يكفى . لذلك كانت مسألة الذين اعتزلوا ونصحوا واجبة . وفى تلك الحالة ، يكون الاعتكاف عن أهل الباطل مع المقاطعة ، حتى يكون الإعلان عن أن هذا حق وهذا باطل . وقد وفينا هذا الموضوع حقه فى سورة البقرة لمن شاء أن يرجع إليه .

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا
بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾

(١) تفسير الرازى : ١٥ / ٣٧ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

لما لم ينته المبطلون عن باطلهم أهلكتهم الله ، ونجا الذين كانوا صالحين منهم . سواء من اعتزلهم في صنعهم ، وهم أعلى مقامًا وإيمانًا ، أو من سكت ولم يفعل ولم ينه ، كما بينا .

وهكذا دائما ، فالحق - سبحانه وتعالى - مع عباده الذين يعيشون يقظة الطاعة ويجتنبون المعصية .

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

أى لما تمادى هؤلاء المجرمون في معصية الله سخط الله - سبحانه وتعالى - عليهم ، وطردهم من رحمته ، ونزل بهم من مرتبة البشر إلى حضيض ما خلق ، فجعلهم قردة خاسئين ، أى ذليلين حقيرين مهانين .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

أذن الله - سبحانه وتعالى - وأعلم أن يظل اليهود حتى يوم القيامة يسلط عليهم من يسومونهم سوء العذاب ، أى بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتياهم على المحارم ؛ فهم اليوم إن ظنوا أن لهم دولة لكنهم لن يطمثوا إلى استقرار هذه الدولة ، لأنها لها أصحابًا سلبت منهم ، وهم لن يتركوا حقهم في أرضهم . فسيظل اليهود في رعب وقلق ، وستعود الأرض التي اغتصبوها من المسلمين إلى أصحابها ، ويعود اليهود إلى شتاتهم وضياعهم ، وذلك كائن إن شاء الله . إن ربك لسريع العقاب لمن عصاه وخالف شرعه ، وإنه لغفور رحيم ، أى لمن تاب إليه وأناب وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس ، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا لتبقى النفوس بين الخوف والرجاء .

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

﴿وقطعناهم في الأرض أُمَمًا﴾ أى فرقناهم في البلاد طوائف وفرقا ، والمراد بهذا المعنى

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

هو تشيت أمرهم ، وعدم جمع كلمة لهم . ﴿ منهم الصالحون ﴾ المراد بهم المؤمنون بمحمد - ﷺ . وقيل المراد بهم القوم الذين كانوا في زمن موسى - عليه السلام - . لأنه كان فيهم أمة يهدون بالحق ، أى فيهم الصالح وغير ذلك . ومنهم قوم دون ذلك أى أقل من ذلك ، وهذه مراتب في كيفية تفريقهم في البلاد ، وقد اختبرهم الحق - سبحانه وتعالى - بالحسنات وبالسيئات « أى بالرخاء وبالشدّة والرغبة والرغبة والعافية والبلاء » (١) لعلهم يرجعون .

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوا أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْدارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

« فخلف من بعد الصالحين منهم - الذين تقدم ذكرهم - خلف » (٢) أى : أولاد . أما قوله تعالى : ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أى ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة . وهؤلاء الخلف جاءوا ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أى يبيعون الحق بالتافه من الدنيا ودناءتها ، ويستغنون بذلك عن نشر الحق وإقامته ، واتباع المعروف . وهذا تحقير لأمر الدنيا وما فيها من ملهيات ومغريات لأنها عرض زائل يأكل منها البر والفاجر . فهؤلاء الخلف يأخذون الأدنى من العمل ، ويطعمون دائماً مع الباطل ، ويقولون في غطرسة الباطل : سيغفر لنا ، ويظنون يحاربون الحق ، وينسون أن الله - سبحانه وتعالى - أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، وقد درسوا هذا الكتاب . ألم يعلموا أن الدار الآخرة آتية ، وهى خير للذين يتقون ؟ ألم يعلموا أن العقلاء هم الذين ينظرون للعاقبة ؟ ولكن اليهود والعياذ بالله لا ينظرون إلا للدنيا ، فهى دارهم وستهلكهم بأعمالهم .

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه ، فقال تعالى :

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجرهم أبداً ﴾

(٢) تفسير الرازى : ٤٣ / ١٥ .

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٦٠ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

من أحسن عملاً ﴿١﴾ . والذين يمسكون بالكتاب - أى بالتوراة - أى بالعمل بها .
« فالتمسك بكتاب الله والدين يحتاج إلى الملازمة والتكرير بفعل ذلك » ﴿٢﴾ .

﴿ وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ١٧١

﴿ نُنَقِّنَا ﴾ معناه رفعنا ، وهذا عذاب الله لهذه الفئة . فكأنه ، أى الجبل ، لارتفاعه بدا
كأنه سحابة تظل فوق اليهود الذين راجعوا موسى بالباطل ، وأصبح الجبل فوق
رءوسهم وكأنه سيقع عليهم . فقال لهم ربهم وهم فى ذلك الحرج ﴿ خذوا ما آتيناكم
بقوة ﴾ أى بجد ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . ولكنهم بعد ما وعدوا بالاستقامة
والتوبة نكثوا عهودهم ، وكانوا فى ضلالهم القديم .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾
أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

بعد ذكر قصة موسى - عليه السلام - وقومه يخبر الحق أنه استخرج ذرية البشر من
أصلاهم - شاهدين على أنفسهم أن الله - سبحانه وتعالى - هو ربهم ، وأنه لا إله إلا هو
وحده لا شريك له . وقال الملائكة : نحن شهدنا على ابن آدم وعلى بنى آدم كلهم
حتى لا يقولوا يوم القيامة - بحجة واهية - ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ .

وبذلك يخبرنا الحق - سبحانه وتعالى - أننا قد شهدنا على أنفسنا أن الله واحد لا
شريك له ، وهو ربنا ، وشهدت علينا الملائكة ، لكى لا نقول يوم القيامة : إنا كنا عن
هذا غافلين ، أو نتذرع بحجة أخرى واهية ونقول : إنما أشركنا لأن آباءنا كانوا
مشركين ، فقلدناهم فى ذلك الشرك .

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

(٢) تفسير القرطبي : ٤ / ٣١٣ .

(١) الكهف : ٣٠ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

هو رجل أتاه الله العلم والمعرفة ، ثم أغواه الشيطان عن علمه ومعرفته ، فضل السبيل ، وانكفأ على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، وقد انسلخ ممن أنعم الله عليهم من علم ومعارف ، كما تنسلخ الحية من جلدها ، فقد استحوذ الشيطان عليه ، فتخلي عن هذه المهمة ، وتناسى هذه المسئولية ، وصار يضل الناس عن دين موسى ، ﴿فكان من الغاوين﴾ أى من الهاكين الحائرين البائسين .

ولعل العلماء يتعظون . فيتوبون عن مجاملة الحكام . إذ إنه لو استمر في إخلاصه لله لرفعه تعالى إلى المنازل العالية .

لذلك يقول الحق - سبحانه وتعالى - :

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

ولهذا فقد أورد ابن كثير أكثر من رواية في معجزة هذا الرجل وتقربه إلى الله وكيف انسلخ من رحمة الله ^(١) .

وقوله : ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ أى « لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التى آتيناه إياها ، ولكنه مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها ، وأقبل على لذاتها ونعيمها ، وغرته كما غرت غيره من أولى البصائر والنهى ^(٢) » .

فمثل هذا الذى انسلخ من الإيمان ، ومن رحمة الله ، مثل الكلب سواء . فالكلب إن زجرته أو تركته فهو فى الحالتين يلهث ، ويندلع لسانه على صدره ، فصار هذا الرجل مثل هذا الكلب فى ضلاله واستمراره فى هذا الكفر ، وهذا الضلال ، وهذا الانسلاخ ، لأنه لم ينتفع بالدعوة إلى الإيمان وعدم الدعاء ، ولا انتفع بالموعظة ، ولا بترك هذه الموعظة .

وهكذا دائماً حال الكافرين المنافقين الضالين الضعفاء ، الفارغة قلوبهم من الإيمان والهدى . فيجب أن يكون لعلمائنا فى ذلك موعظة ، فيفارقوا مجاملة الحاكمين لأنها مهلكة .

(١) لمزيد المعرفة انظر : تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٦٥ . (٢) المرجع السابق .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

إذ إن كل من كذب بآيات الله ، أو أعرض عنها ، أو جامل فيها وبها حاكماً ظالماً ، فقد ساء مثلاً ، وأصبح من الغاوين . فأيها العلماء لا تبيعوا الآخرة بالدنيا ، وقولوا للحكام الظالمين ، الحاكمين بغير ما أنزل الله : توبوا إلى الله يتوب الله عليكم ، ويدخلكم مدخلاً كريماً ، ولا تبيعوا آخرتكم بدنياكم ، لذلك يختم الحق - سبحانه وتعالى - هذه الآية بهذا التذكير المفزع ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ أى قل هذا القصص ، وهذه العبرة لعلماء بنى إسرائيل لعلهم يتفكرون في رحمة الله وعقابه .

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ۝ ١٧٧

حقاً فقد ساء مثلاً هذا الرجل ، وأصبح من الغاوين ، وكل من يتبعه في فعله هذا أو يقلده أو يضل بعد أن هداه الله .

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىُّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ ١٧٨

إن الهدى هدى الله ، فالله يهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم ، ومن ياب أن يهتدى إلى دعوة الله في قرآنه وسنة نبيه فقد خسر خسراناً مبيناً .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۝ ١٧٩

ولقد ذرأنا - أى جعلنا من خلقنا خلقاً هم حطب جهنم - هيأناهم لها ، وجعلناهم يعملون بعمل أهل النار ، لأنه - سبحانه وتعالى - سبق في علمه عندما أراد أن يخلقهم ما هم عاملون ، فكان هذا عنده في الكتاب قبل خلقه السموات والأرض . وقد ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ . كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء (١) .

وفي الصحيحين ثم « يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه

(١) كتاب : القدر ، باب : حجاج آدم وموسى - عليهما السلام - .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وأجله وعمله وشقى أو سعيد»^(١) . فهؤلاء الذين جعلهم الله أهلاً للنار لم ينتفعوا بشيء من الجوارح التي خلقها الله لهم ، التي هي سبب للهداية فهم ﴿صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾^(٢) .

فهؤلاء لا يهتدون بنبي ، ولا يؤمنون بالبعث والنشور ، ولا يتدبرون القول ، فهم كالأنعام بهائم بشرية ، لا تفرق بين الحلال والحرام ، لا تعقل الدين ولا تصدق في اتباع الأنبياء ، هم حطب جهنم وإن كانوا ملوكاً أو رؤساء ، فهم الظالمون لأنفسهم ، الكافرون بالله ، عليهم اللعنة ولهم سوء الدار .

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

إن أسماء الله الحسنى هي أجل الأسماء وأعظمها ، عالية في معانيها ، جليلة في مقاصدها .

أجملت أجمل معاني الوجود ، وفصلت مقاصد العزيز الحميد ، الله الواحد ، المجيد ، الله العظيم المجيب القادر ، فادعوه بأسمائه . فعلى قدر إيمانكم به ، وتسليمكم له ، تكون الإجابة . وأسمائه - سبحانه هي أجل وأحسن وأعظم الأسماء . من دعاه بها وهو صادق في عبوديته له استجاب الله له . .

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أصاب أحدا قط همٌّ ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتي بيدك . ماض في حكمك . عدل في قضاائك . أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله حزنه وهمه ، وأبدل مكانه فرحاً . فقيل : يا رسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال : بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها »^(٣) .

(١) البخارى . . كتاب : بدء الخلق ، باب : ذكر الملائكة . ومسلم . . كتاب القدر ، باب : كيفية الخلق

الآدمي . إلخ . (٢) البقرة : ١٨ .

(٣) رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن مسعود .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

أما قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ أى اتركوا وانصرفوا عن الذين يلحدون ويشركون في أسمائه . لأنهم كانوا قد اشتقوا كلمة اللات من الله ، والعزى من العزيز ، فهم يشركون في أسمائه ، وقد خسروا الدنيا ، وسيجزون في الآخرة بعذاب أليم ، ولن يجدوا لهم من النار مخرجا ، وهم الهالكون .

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

وممن خلقنا أمة صدقوا في إيمانهم بالله ، وفي تصديقهم لمحمد ﷺ - ، فهم يهدون لدين الله على بصيرة بحسن اتباعهم لسيد الرسل ، وخاتم النبيين محمد ﷺ - . وهم سواء في فهمهم وتنفيذهم لأوامر الكتاب ونواهيه ، وللسنة كذلك ، وقد حازوا رضوان الله ومغفرته ، فهم قائمون بالحق قولا وعملا ، يقولونه ويدعون إليه ، ولا يكفون عنه ، ﴿ وبه يعدلون ﴾ أى يعملون ويقضون . وقال رسول الله ﷺ - : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » (١) .

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمَلِّ لَهُمْ آيَاتِىٓ كَيْدِىٓ مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

أما الذين كذبوا محمدا ﷺ - ، وحاربوا الحق الذى نزل عليه ، فسنتدريجهم من حيث لا يعلمون ، أى نفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش والنعيم في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء ، وأنهم قد حازوا الدنيا كلها بحذافيرها . وجل قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ (٢) . لأنهم عمى القلوب وهذا العمى في القلب قد ضلل الطريق أمامهم ، فأنكروا الحق وحاربوه ، وقاوموا الأنبياء والدعاة المذكرين بالحق ، والداعين إلى الصراط المستقيم . وقال الله لرسوله ﷺ - : ﴿ وأملئ لهم إن كيدى متين ﴾ لمن عصانى ، وحاد عن طريق الحق ، وحارب العدل والنور

(١) رواه : البخارى كتاب الاعتصام ، باب « قول النبي ﷺ - : لا تزال طائفة . . إلخ ، ومسلم - واللفظ له - كتاب الإيمان باب « نزول عيسى ابن مريم . . إلخ » . وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، وكذا الإمام أحمد في مسنده .

(٢) الأنعام : ٤٤ .

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

والعلم ، فلهم الويل بما كسبت أيديهم وبما كانوا به مفسدين ، ﴿وَأَمْلى لَهُمْ﴾ أى أطول لهم ما هم فيه ، وأعطاهم وأمهلهم . إن كيدى أقوى وأشد .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

إن محمدا صاحبهم الذى عاش بينهم ، والذى لقبوه بالصادق الأمين ، هو رسول من عند الله . ولما جاءت الرسالة ، ودعاهم لترك عبادة الأصنام ، والتخلص من الباطل ، قالوا عنه إنه مجنون . ولكن الله يدافع عنه ﴿إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى ظاهر بين الحق ، ويدعو للتخلص من الباطل ، ويدعو إلى صراط مستقيم .

لذلك ينبههم الحق - سبحانه وتعالى - لأن يجلسوا مع أنفسهم مشئى وفرادى أى مجتمعين ومتفرقين ، ثم أن يتفكروا فى هذا الذى جاءهم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا ، فإنهم إن فعلوا ذلك دون تعصب أو عناد ، بان لهم وظهر أنه رسول الله حقا وصدقا .

أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

﴿ألم ينظروا﴾ ويفكروا ﴿فى ملكوت السموات والأرض﴾ ؟ إنهم إن فعلوا ذلك ربما يؤمنون بالخالق - سبحانه وتعالى - ، المدبر لهذا الكون العظيم . أو لم يروا من يُحمل منهم إلى المقابر كل يوم ؟ وقد أخبرهم محمد بأنهم مسئولون . وبعد هذا البلاغ المبين ﴿فبأى حديث بعده يؤمنون﴾ ؟ فبأى تخويف وتحذير وترهيب يؤمنون به بعد ذلك ؟ إنهم حقا لفى ضلال قديم .

مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

والله - سبحانه وتعالى - هو الهادى . ومن يضلله سبحانه فلا هادى له . بل يذرهم فى طغيانهم يعمهون . سيظلون فى كبر على الحق حتى تنتهى آجالهم . وعندها سيجدون أنفسهم فى طغيانهم يعمهون فى نار حامية ، لا تبقى منهم ولا تذر ، لواحة للبشر ، كلما هلكوا فيها يعودون ، ثم هم فى العذاب مقيمون . وجل قوله تعالى :

سُورَةُ الْاِنْعَامِ

﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا﴾ (١).

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ
اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

ويسألونك يا محمد عن الساعة كأنك تعلم موعدها ، فقل لهم : إن علمها عند
الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . والذي يبين تجليتها وإظهارها وحده هو الله . أما
الذين آمنوا بالله ورسوله وكتبه فهم دائماً في اطمئنان لموعدها ، وإن لم يعلموها ، لأنهم
يصدقون بها فقط . وقوله تعالى ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ أى أن علم موعدها
ثقل على أهل السموات والأرض - أى صعب على أهل السموات والأرض - ولا يمكن
أن يعلمها إلا الله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ﴾ (٢).

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ
لَا سَتَكُنَّ ثَرَاتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

قل لهم يا محمد : إنك لا تملك لنفسك إلا ما قدر الله لك نفعاً وضراً ، وأنت بما
شاء الله لك راضٍ ومحتسب ذلك عند الله . وقل لهم كذلك : إنك لا تعلم الغيب ،
لأن الغيب من شأن الله فلا ملك يعلمه ولا نبي ، فالخير يأتيني بعلم الله وأنا راض به .
﴿ إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ . وهذا أمر من الله - سبحانه وتعالى - إلى محمد أن
يفوض الأمور إليه ، وأن يخبر البشرية في قرآن يتلى أنه نفسه خاتم المرسلين ، وسيد
المرسلين ، والشفيع يوم القيامة لا يملك لنفسه نفعاً أو ضراً . وسبحان من لا تنفعه
عبادة ، ولا تضره معصية . والنفع والضرر من الله . وفي بعض الحديث : « اعلم أن
الامة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على
أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك » (٣). ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما

(٢) لقمان : ٣٤ .

(١) المائدة : ٤١ .

(٣) رواه الترمذى كتاب صفة القيامة ، وقال : حديث صحيح . ورواه الإمام أحمد في مسنده عن
عبد الله بن عباس .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

كتب الله لنا هو مولانا ﴿١﴾ . فقل يا محمد لو كنت أعلم أشياء عن الغيب لأكثر من عمل الصالحات .

ولو كنت أعلم متى أموت أيضاً لأكثر من عمل الصالحات .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿١٨١﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨٢﴾

هو الذى خلقكم بعظمته وقدرته المنزهة من نفس واحدة ، وهى آدم - عليه السلام - ، ثم خلق منها زوجها حواء ، وذلك ليسكن إليها ، وجل قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (١) .

وجل قوله أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (٢) . ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ أى وطئها وجامعها ، حملت بالجنين الأول . ومعنى ﴿ خَفِيفًا ﴾ يقصد به أول الحمل ، الذى لا تجد المرأة له أى ألم ، إنما هى النطفة ثم العلقة ثم المضغة . كما أخبرنا بها الحق فى مواضع أخرى . فمرت حواء بأشهر الحمل التسعة لحين ميلاد ذلك الحمل ، ودعت الله هى وآدم يا رب إن أتيتنا ابناً صالحاً ذكرنا كان أو أنثى لنكونن من الشاكرين لك فضلك علينا . ورزقت حواء بابن صالح ، أى : سوى الخُلقة .

ومن العجيب أن الله جعل بنى آدم ذرية سوية الخُلقة ، وهم يجعلون لله شركاء فى الخلق .

والمقصود فى الآية : جنس بنى آدم ، أى المشركون من ذرية آدم ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ولم يقل « عما يشركان » .

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) النساء : ١ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١١١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ
يَنْصُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ
صَامِتُونَ ﴿١١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا دُعُوا لِيَكْفُرُوا
بِأَيْدِيهِمْ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ
ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ
يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا
أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١١٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ
وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١١٨﴾

« هذه الآية من أقوى الدلائل على أن المقصود بقوله تعالى ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ هو الرد على عبدة الأوثان . . . والمقصود من هذه الآية إقامة الحجة على أن الأوثان لا تصلح للالهية » (١).

ويقول ابن كثير : « هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان ، وهى مخلوقة لله مربية مصنوعة لا تملك شيئا من الأمر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ، ، ولا تنتصر لعابديها ، بل هى جماد لا تتحرك ، ولا تسمع ، ولا تبصر ، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم » (٢).

إن هذه الأصنام الذين تدعونها من دون الله عباد أمثالكم . وسميت الأوثان عبادا : لأنها مملوكة لله مسخرة . وجل قوله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ (٣) ، أى بحمد الله وهو الخالق . أتعبدون شيئا مخلوقا وتتركون الخالق ؟ وليس فى الخلق من يستطيع أن ينصر أحدا بغير الله . حتى أنفسهم لا يستطيعون نصرها إلا بإذن الله القوى

(١) انظر تفسير الرازى : ١٥ / ٩٠ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٧٦ .

(٣) الإسراء : ٤٤ :

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

العزیز القادر ، الذی یملك كل شیء ، وهو الغنی عن كل شیء . فما بال أصنام صماء من أحجار جماد خلقها الله یعبدھا البشر عبادة جاهلین ؟ إن هذه الأحجار والتماثيل صنعتها ید بشر . فكیف بهذا البشر یعبدھا بعد ما یسویھا بیديه ؟ . إنه الجهل الأسود . إن هذه الأصنام لو دعیت إلى الهدی لا تجیب ، لأنها حجارة صماء ، فكیف تعبدونها وهی لا تسمع ولا تتكلم ، ولا تفعل ، ویفعل بها ناحتھا ما یشاء ، حسب قدرته العاجزة ؟ عجباً أن تكون هذه الأحجار معبودة . وسواء علیها إن تدعوها أو لا تدعوها فهي حجارة كما ترونها ، یقول الحق لنبيه : قل لهم یا محمد ألهذه الأصنام أرجل یمشون بها ؟ أفلا تعقلون ؟ أم لهم أید یبطشون بها ؟ أفلا تعتبرون ؟ . أم لهم أعین یمشون بها ؟ أفلا تبصرون ؟ . قل لهم یا محمد : ﴿ قل ادعوا شركاءكم ﴾ أى استنصروا بها على هل یستجیبون لكم ؟ . ﴿ إن ولی الله ﴾ أى الله حسبى وكافینى ، وعلیه توكلی ، وإلیه ألقأ وأنیب ، وهو ولی فی الدنیا والآخرة ﴿ إنی توكلت على الله ربی وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربی على صراط مستقیم ﴾ (١) .

إن هذه الآلهة المزعومة التى تعبدونها من دون الله لا یستطیعون نصرکم ولا حتى نصر أنفسهم ، وإن دعوتهم لیلاً ونهاراً فلا یسمعونکم ولا یرونکم ، وتراها تنظر إلیك ولكنها نظرات جماد غیر عاقل . فكیف تُعبد من دون الله ؟ وحقا فإنها لا تعمی الأبصار ولكن تعمی القلوب التى فی الصدور . ۱۱

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١١﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

یا محمد إنك عبد الله المختار المجتبى ، فلیس لك إلا العفو طریقاً ، والمعروف سبیلاً . فطوبى لمن صار على هداك ، وامثل خطاك . خذ العفو وأعرض عن الجاهلین ، وأمر بالمعروف والإحسان ، فهو طریقك . أما الجاهلون فهم زرع فی أرض سبخ ، فأصلح الأرض من تحتهم لعلهم یرون آیات الله وقدرته فی إحسانك إلیهم فیهدون ، والجهل مرض فارحم یا محمد مرضاهم بالمسح على قلوبهم بما أنزل الله إلیك ، فأنت رحمة للعالمین .

(١) هود : ٥٦ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وقد وردت أقوال عدة في معنى ﴿العفو﴾ (١). « ويذكر القرطبي أيضا أنه لما نزل قوله تعالى ﴿خذ العفو﴾ قال - عليه السلام - كيف يا رب والغضب » فنزلت : ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ أي عندما يوسوس عليك الشيطان الوحي والتنزيل ، فاستعذ بالله ، إن الله يسمع لك (٢).
وعندما تلجأ إلى الله يا محمد فأنت بعينه ، تحوطك رعايته وحفظه ، إنه سبحانه السميع العليم لكل خلقه .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿٢﴾

إن الذين يخافون الله ويتبعونه بقلوب خاشعة مبصرة إذا مسهم الشيطان - أي وسوس إليهم وزين لهم ما بين أيديهم من زينة الحياة الدنيا - ﴿تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ .
وأسباب التذكر عند المؤمنين كثيرة ، الصلاة لله تذكروا ، والحج لله تذكروا ، والصوم لله تذكروا ، ذكر الله بالله تذكروا .

والمتقون هم أهل الخوف من الله ، يتصورون على الدوام لقاءه وسؤال الملكين والوحدة في قبورهم ، وبذلك هم على حذر دائم من الشيطان . فإذا مسهم بوسوسته ، طغى نور الإيمان على وسوسة الشيطان فيطرد من مجالس الصالحين وخلواتهم بالله . وذلك من إنعام الله وفضله عليهم ، وبدل أن يغويهم فيإيائهم يتذكرون .

﴿فإذا هم مبصرون﴾ إخبار من الله عن المتقين من عباده ، الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما نهى عنه الله - سبحانه وتعالى - أي إذا هم قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه .

أما المقصود من ﴿وإخوانهم يمددوهم في الغي﴾ الجن الذين يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لا يسأمون عن ذلك ، بل يمددوهم بكل أسباب الغواية والضلال ، لأن الشياطين لا تضعف ولا تفتر ولا تمل من فعل المعاصي . وجل قوله تعالى : ﴿ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا﴾ (٣).

(١) للتوسع ومزيد المعرفة انظر : تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٧٧ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي : ٤ / ٣٤٧ .

(٣) مريم : ٨٣ .

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا
بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٣﴾

يقول الإمام الرازي ^(١): بين تعالى في هذه الآية نوعاً من أنواع الإغواء والإضلال ، وهو أنهم كانوا يطلبون آيات معينة ، ومعجزات مخصوصة ، على سبيل التعنت كقبوله : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ [الإسراء : ٩٠] . ثم أعاد أنه عليه - الصلاة والسلام - ما كان يأتيهم ، فعند ذلك قالوا ﴿لولا اجتبيتها﴾ والمعنى لولا تقولتها وافتعلتها ، وجئت بها من عند نفسك ، لأنهم كانوا يقولون ﴿ما هذا إلا إفك مفترى﴾ ^(٢) .

وإن لم تأت بهم يا محمد بمعجزة سخرها منك ، وتهكموا بك ، وقالوا لو اشتريتها - أى أنك تخلق لنا من عندك أقوالاً وأفعالا - وصاروا يتهاكمون ويسخرون من الحق الذي أنزل على محمد . وكلما زود الله نبيه بالآيات والمعجزات لم يزدادوا إلا بغيا وطغيانا على الحق . والرسول حق ، وما ينزل الله عليه هو الحق . ولكن الكافرين لا يعقلون ، وهم في صمم دائم عن الحق . والرسول في نور ربه منصرف عنهم وعن ضلالهم ، يقول الحق : ﴿وهو يهدي السبيل﴾ .
اعلموا أيها الناس أنها ﴿بصائر﴾ أى حقائق من ربكم ، ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ .

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَذْكُرْكَ
فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ
الْغَافِلِينَ ﴿٤٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ
يَسْجُدُونَ ﴿٤٦﴾

خطاب للمؤمنين ، يأمرهم المولى فيه أن يتدبروا القرآن عند سماعه ، ولن يكون ذلك إلا بالتدبر والسماع والتفكير في المعنى وحسن الإنصات . يقول الحق : ﴿لعلكم ترحمون﴾
يقرن الله سبحانه وتعالى الرحمة مع سماع القرآن ، والإنصات له ، والتدبر فيه ، وإن

(٢) سبأ : ٤٣ .

(١) الفخر الرازي : ١٥ / ١٠٦ .

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

رحمة الله قريب للمحسنين ، الذين يستمعون للحق وبه يعملون ، لأن كفار قريش كانوا يتعمدون التشويش على قارئ القرآن ، فكانوا يقولون ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ . واملأ نفسك يا محمد أنت والمؤمنون بذكر الله ، وأشبعوا قلوبكم وجوارحكم وكل حواسكم ونبضاتكم بذكر الله . ﴿ تضرعا وخيفة ﴾ تضرعا إلى الله في دعائه ، وتذللا بين يديه في انكسار لذاته ، وفي إعظام لذاته ، وفي انكسار بين يديه للنفس والقلب والجوارح ، واستغراق مع الله في خضوع ، وامثال لكل أمر منه افعله بقلبك ، بترك وبعثك ، وبحبك وصدقك في عبوديتك له ، إنه هو الله الذي يجب أن نتضرع إليه ونخاف منه .

أما قوله تعالى ﴿ ودون الجهر ﴾ أى دون الرفع في القول أى أسمع نفسك فقط . كما قال الله - سبحانه وتعالى - في موضع آخر ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ أى بين الجهر والسر . ويقول الإمام القرطبي في ذلك : « ودل هذا على أن رفع الصوت بالذكر ممنوع » . والغدو والأصايل مصدران ، الغدو جمع غدوة وهو النهار . أما الأصايل فهي وقت الأصيل - أى العشيات ودخول الليل - أى كن في صورة العاقل العابد الذي يذوب قلبه تحرقا وشوقا إلى الله ، في كل وقت ، وفي كل حين ، صباحا ومساء . واحذر الغفلة عن الله ، أو عن أمره ، فهي القاتلة . عش يقظاً في حضرته ، وأبعد نفسك عن الجهال ، واستر عن الجهال حالك ، فالحسد للمتقين الله أقوى من الحسد للمالكين الدنيا . فامتلاك الدنيا سهل ، أما الآخرة وامتلاكها إنما بحب من الله لعباده ، وحب من العباد لربهم ، وهذا مقام دونه الأرواح والأموال والأولاد والأزواج ، ودونه الدنيا كلها . إنه مقام كريم عند رب كريم . إنما الدنيا متاع ، أما الآخرة فهي دار القرار . فاحذر أيها العبد المسكين الفقير إلى الله ، وإن امتلكت الدنيا كلها ، أن تغفل عنه سبحانه . فما أشقاهم إن ملكوها وهم عن الحق غافلون .

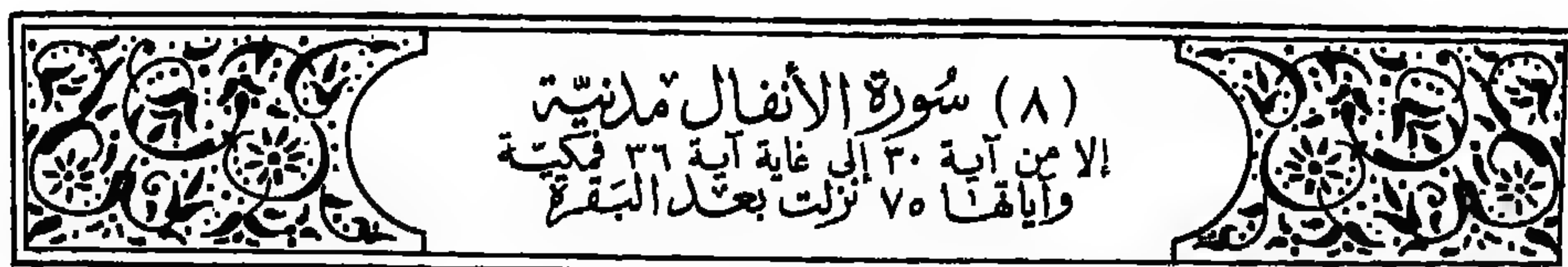
اعلم أيها العبد المؤمن أن الملائكة في ملكوت ربهم الأعلى في سمواته وأرضه يسبحون ربهم بالليل والنهار في كل آن وله يسجدون .

وأما أبناء آدم فهم على أمر ونهى حتى نفخة الصور ، نعم هم في جهاد على إبليس ، فطوبى لمن غلب الشيطان فأطاع ربه - سبحانه وتعالى - ، حتى قبضت روحه . وهو يقول بطاعة ممتدة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، محمد عبده ورسوله ، فيبعث مع

سُورَةُ الْاِغْرَافِ

الساجدين والشهداء ، ويحشر مع النبيين والصديقين ، لأنه عاش محبا عاشقا لذات الله ، فيصحو بذكره ، وينام بذكره ، ويتوب إليه في كل وقت وفي كل حين ، وإن غفل عنه وسها سجد معتذرا راجيا من الله المحسن المتفضل حسن الوقوف ، وحسن الركوع ، وحسن السجود ، وحسن النجاة ، والتبتل والخضوع والانكسار لرب كريم حلیم غفور ثواب ، يمحو الذنوب بدمعات حب فيه . سبحانه . وباستغفار قلب ساجد أغرقته دموعه شوقا للقاء الحق ساجدا عابدا مستغفرا عن لحظات غفلها وعاشها مع زوج أو ولد أو مال يجمعه . فيا غفار الذنوب توبتي بين يديك ، وغفلتي في سجودي وصحوى ونومي بين يديك . لا أدعو أحدا سواك ، ولا أرجو ربا إلا أنت . يا غفار يا رحمن يا رحيم . .

سُورَةُ الْأَنْفَالِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ
بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

السائلون هم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المقاتلين معه في غزوة بدر . والأنفال : هى ما غنمه المقاتلون المسلمون من أعدائهم الكفار . والتساؤل : هل من غنم من الكفار غنيمة تكون له - أى من نصيبه - أو يُجمع كل ما غنم بعد الحرب فينضم إلى الغنائم وتوزع على أصحاب الأنصبة بالتسوية ؟ كان ذلك الحديث يدور بين المؤمنين المقاتلين وبين الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله سبحانه ﴿الأنفال لله والرسول﴾ . ولما أصبحت كذلك قرر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يقسمها على المسلمين المقاتلين ، وهى غير الغنائم التى لرسول الله ﷺ . وإذا حضرت المؤمنات القتال فلهن نصيبهن . ثم يقول الحق ﴿فاتقوا الله﴾ أى خافوا الله . ومن مقومات ذلك الخوف أن تصلحوا ذات بينكم . يقول ابن كثير : « أى اتقوا الله فى أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم ، ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه . ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أى فى القسمة بينكم على ما أَرَادَهُ اللهُ ، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف » (١) .

إن قضية إصلاح ذات البين تحتاج إلى وقفات كثيرة من البشر ، حيث إنها : مناط الود ، وعناق المرحمة ، وانتشار الإسلام .

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٨٥ .

سُورَةُ الْاَنْفَالِ

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾

هؤلاء هم عباد الله ، الذين ترتعد أبدانهم رعدة تتخلل القلوب عند سماعهم ذكر الله فتخيفهم ، وتذكرهم بأمر الله ونهيه .

عن ابن عباس : « المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم . فأخبر الله تعالى بأنهم ليسوا بمؤمنين » (١) .

ولكن المؤمنين في أكثر أوقاتهم إذا استمعوا لآيات الله تتلى عليهم وقع في قلوبهم خوف تخللته رعدة حانية تذكرهم بالله وجنته وناره ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً - أى تصديقاً - وفي هذا دلالة على أن الإيمان قابل للنقص أو الزيادة . هؤلاء المؤمنون يجدون حلاوة الصلة بالله ، وجلال الحضور بين يديه ، فتبهون الدنيا في قلوبهم ، فيتوكلون على الله في ثقة وجب . هؤلاء هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ، ومنازل في الجنة يرتقون فيها ، ويتمتعون بمختلف نعمها .

وكثيراً ما نجد القرآن يصف هؤلاء المؤمنين بالخوف والوجل لقوة إيمانهم ، ومراعاتهم لرب العزة . من ذلك قوله ﴿ وبشر المخبتين ﴾ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴿ (٢) ﴾ وقوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ (٣) وقوله : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ (٤) .

(٢) الحج : ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) المائدة : ٨٣ .

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٨٥ .

(٣) الزمر : ٢٣ .

سُورَةُ الْأَنْفِثَاتِ

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ۝

والمعنى امض لأمرك في الغنائم ونفل من شئت وإن كرهوا ، لأن بعض الصحابة قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً قال : يبقى أكثر الناس بغير شيء .

أى : نفل من شئت من الغنائم وإن كرهوا ذلك ، كما أخرجك ربك من مكة وهم كارهون لترك أموالهم وديارهم (١) .
حيث إن الأمر : عبادة وطاعة .

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝

هم ﴿ يجادلونك ﴾ يا محمد ﴿ في الحق ﴾ أى القتال . لأنهم يعلمون جيداً أنك لاتأمر بباطل ، ولا بإذن نفسك ، وهذا هو معنى ﴿ بعد ما تبين ﴾ . وقيل إن معناها : « بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم إما الظفر بالغير أو بأهل مكة » (٢) . فهم يكرهون تنفيذ أمرك ، ويكرهون لقاء العدو ، وكأن الموت جُسد أمامهم فيرونه رأى العين ، أو أنهم يعلمون ذلك .

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝

لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝

وهذا إنكار من الله على هذا الفريق الذى يكره لقاء العدو . ومن مظاهر كرههم لقاء العدو، أنهم يودون أن يقابلوا الطائفة التى ليس لها قوة أو عتاد أو سلاح ، وهى غير ذات الشوكة . وهذا جبن فى حد ذاته ، لكن الله ، يريد أن يظهر الإسلام ويعليه على

(١) انظر : تفسير القرطبي ٧ / ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٢) انظر تفسير القرطبي جـ ٧ / ص ٣٦٩ .

سُورَةُ الْاِنْفِتَالِ

سائر الأديان ، كما قال ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ (١) . ﴿ بكلماته ﴾ أى بأمره . ويريد الحق أن يستأصل فئة الكفر من الدنيا ، ﴿ ليحق الحق ﴾ أى الإسلام ، ويعدم الكفر ، حتى ولو كره ذلك المجرمون .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أَنِّي مُّمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَكِ
مُرْدِفِينَ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا
مِنَ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾

الاستغاثة هي طلب العون والنصر .

روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله - صلى الله عليه وسلم - القبلة ثم مَدَّ يديه فجعل يهتف بربه « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آت ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » . فهازال يهتف بربه ، ماداً يديه ، مستقبل القبلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم . . . ﴾ فأمد الله بالملائكة (٢) .

ثم التقى الفريقان ، المؤمنون والكافرون ، ونصر الله المؤمنين ، وقتل يومئذ سبعون من المشركين ، وأسر كذلك سبعون ، واستشهد من المسلمين ثلاثة عشر مسلماً . والحمد لله فقتلهم فى النار ، أما شهداؤنا ففى جنات ونهر ، بين فراديس الجنان ، وفى خدمتهم الحور العين والولدان المخلدون . وقوله تعالى : ﴿ مردفين ﴾ أى تابعين للاحقين معاونين معينين .

وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم (٣) . ومع

(١) التوبة : ٣٣ .

(٢) كتاب : « الجهاد والسير » باب : « الإمداد بالملائكة » .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ / ص ٢٩٠ .

سُورَةُ الْأَنْفِثَاتِ

ذلك نبّه الحق سبحانه وتعالى على أن النصر من عنده هو لا من الملائكة ، « فلولا نصر الله لما انتفع بكثرة العدد بالملائكة . والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالحجة » (١) .

إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْغَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ
وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ
يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتْنِي قُلُوبُ الَّذِينَ
كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ كُمْ فَذُوقُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

في هذه الآيات : يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه الغاس عليهم أماناً
أنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم « (٢) » .

وعن علي - رضي الله عنه - قال : « ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد
رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي تحت شجرة ويبكي
حتى أصبح » (٣) .

فيأهل الإيمان والتسليم : ألم تنظروا إلى ما أنعم الله به عليكم إذ أصابكم بالغاس
ليلة اللقاء أماناً منه وتطميناً لقلوبكم وأنزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب
عنكم رجز الشيطان .

ثم يأمر الله الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا على الحق ليتصروا على أعداء الله ، فتكون
لهم الكرامة عند الله والفوز برضوانه تعالى . وهو من عنده سيلقى في قلوب الأعداء
الرعب والفرع الشديد ، فلا يجدون لهم من ملجأ إلا أن يتخبطوا في خيل هزيمتهم ،
فاضربوا أيها المسلمون كل بنان - أي أطرافهم - واقطعوها وافلقوا رؤوسهم ، لأنهم تركوا

(١) تفسير القرطبي ج ٧ / ص ٣٧١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ / ص ٢٩١ .

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

أوامر الله ، وخالفوا الرسول ، وتركوا الشرع ، وجعلوا أنفسهم في جانب المعصية والكفر، والرسول في جانب الله والإيمان به والدعوة له ، وذلك جزاء المفسدين ، المحاربين لله ورسوله ، فليس لهم إلا خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يأيها المؤمنون بمحمد وما أنزل عليه من الحق ، تحصنوا بالله عندما تجدون الذين كفروا قد تجمعوا وتحزبوا ليكونوا عليكم يدًا واحدة . واعلموا أن النصر من عند الله ، فلا بسبب كثرتهم ينتصرون ، ولا بسبب قلتكم تنهزمون ، ولكن الله ينصر الذين آمنوا بإيمانهم ، ويهزم الكافرين بكبرهم على الله ، وحربهم له سبحانه وتعالى ، ومخالفتهم للرسول ولجماعة المؤمنين . ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ أى لا تفروا من أمامهم معطين لهم ظهوركم ، بل استقبلوهم بشجاعة وثبات ، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . فالنصر بكم ، ولكن يلزمه الجهاد والثبات والعمل المستمر الدءوب ، ويكون ذلك لوجه الله ، لا لدنيا يصيبها ، ولا لمجد ينتظره ، ولكن المقصد هو الله . وإياكم أن تولوهم الأدبار، والفرار .

وقوله ﴿ إلا متحرفًا لقتال ﴾ أى « يفر بين يدي قرنه ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله ، فلا بأس عليه » (١) . أما قوله ﴿ أو متحيزًا إلى فئة ﴾ فهو ضمن استثناء الآية للذين نهوا عن أن يفروا من أمام العدو ، فيخرج من هذا الحكم هاتان الفئتان ﴿ إلا متحرفًا لقتال ﴾ و ﴿ متحيزًا إلى فئة ﴾ ، أى فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين ، يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك » (٢) .

ومن يفعل - من غير هاتين الفئتين - غير ذلك ، أى يفر من أمام العدو ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾ ، أى استحق غضب الله وسخطه ، ومقامه جهنم وبئس المصير .

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ / ص ٢٩٣ .

(٢) المرجع السابق .

سُورَةُ الْاَنْفَالِ

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ
وَلِيَسْبِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾
اللَّهُ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

اعلموا أن الله سبحانه وتعالى هو الفعال ، وأن النصر به والهزيمة به .
وروى أن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما صدروا عن بدر ذكر كل
واحد منهم ما فعل : قتلت كذا . فعلت كذا . فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك ،
فنزلت الآية إعلامًا بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما
يشارك بتكسبه وقصده (١) .

فالأصل في الفعل لله سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يبتلى المؤمنين أو يختبرهم ، ثم
ينظر برحمته أي العباد يخشاه ويحذر غضبه ، والسعادة والرضا لمن يخشاه . والله سبحانه
وتعالى يلقي في قلوب الكافرين الرعب حتى يتشتتوا ويتفرق جمعهم فيضعفوا . والكيد
في الآية يعنى المكر .

إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا
نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يقول الله تعالى مخاطبًا الكفار : إن تستفتحوا أو تطلبوا الفتح والنصر فقد جاءكم
الفتح ، ولكنه للمسلمين عليكم . وقد ظهر وانكشف لكم الحق ، وإن تنتهوا - أي
عن الكفر - فهو خير لكم ، وإن تعودوا إلى مثل هذه الأقوال ، ومحاربة محمد وقاتله ،
نعد مرة أخرى إلى نصر المؤمنين ، ولن تغني عنكم فئتك الكثيرة . لكن ما هي أقوالهم
التي كانوا يستفتحون بها أي يطلبون بها الفتح ؟ قالوا : اللهم أقطعنا للرحم وأظلمنا
لصاحبه فانصره عليه . وقال النصر بن الحارث : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من
عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ وهو ممن قتل ببدر .

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٧ / ص ٣٨٤ .

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

كل هذا إذا كان الخطاب للكافرين في الآية . أما إذا كان الخطاب للمؤمنين ، فيكون التأويل كما يلي : إن تستنصروا وتطلبوا النصر والفتح فقد جاءكم الفتح والنصر ، « وإن تنتهوا أى عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى فهو خير لكم ، وإن تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم » (١) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

نداء من الله للمؤمنين بأن يطيعوا الله والرسول ، ففى ذلك سعادتهم ونجاحهم وتوفيقهم للخير والفلاح والفوز على من يعاديه من الكفار والمنافقين ﴿ ولا تولّوا ﴾ أى ولا تعرضوا . وقال عنه ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول هى من طاعة الله ﴿ من بطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (٢) . فاحذروا أن تتولّوا عن رسولكم وأنتم تسمعون نداءه .

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ

عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾

أى لا تكونوا مثل المنافقين واليهود والمشرّكين الذين سمعوا فأعرضوا وضلوا ، فخسروا الدنيا والآخرة . فإنهم يظهرون السماع والاستجابة ولكنهم عند التنفيذ كفروا . وشبههم الله بالأنعام لأنهم صم عن سماع الحق بكم عن الفهم ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ من الأنعام ، لأن الدواب على الأقل مخلوقة لله مطيعة له فيها خلقها له .

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

لقد سبق فى علم الله الأزلّى أنه لو أسمعهم وفتح قلوبهم للفهم والوعى والبصيرة ، للنظر والتأمل ؛ ما حصل منهم - رغم ذلك - خير ، لأنه ليس فيهم خير يرجى نفعه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا

أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۚ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٥﴾

(١) تفسير القرطبي ج ٧ / ص ٣٨٦ .

(٢) النساء : ٨٠ .

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

هذا خطاب للمؤمنين المصدقين وتكليف لهم بأن يجيبوا لما يصلحهم . أما قوله ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾ أى فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه ، ولا يكفر أيضًا إلا بإذنه ومشيتته ، فيحول الله - أى يمنع - بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان . عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » . قال فقلنا يا رسول الله : آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها كيف يشاء (١) .

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

« يحذر الله تعالى عباده المؤمنين فتنة - أى اختبارًا ومحنة - يعم بها المسىء وغيره . لا يخص بها أهل المعاصى ولا من باشر الذنب بل يعمها » . وعن ابن عباس « أمر الله المؤمنين ألا يُقرؤا المنكر بين ظهرائهم فيعمهم الله بالعذاب » (٢) .

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمُ النَّاسُ
فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

نزلت هذه الآية فى المهاجرين - كما يذكر المفسرون - تصف حالهم قبل الهجرة ، حيث كانوا : قليلين فكثرتهم ، ومستضعفين فقواهم ، وقوى شوكتهم ، وفقراء فرزقهم الطيبات .

وكانوا عرضة للخطف من قبل المشركين والمجوس ، فأواهم الله إلى نعمة الإسلام والإيمان وهكذا . . جعلهم الله ملوكًا فى الأرض بدخولهم هذا الدين .

(١) رواه : الترمذى ، كتاب القدر ، باب ما جاء أن القلوب . . إلخ ، قال أبو عيسى : وفى الباب : عن النّاس بن سمعان وأم سلمة وعبد الله بن عمرو وعائشة ، وهذا حديث حسن .

ثم قال : وحديث أبى سفيان عن أنس « أى المذكور » أصح .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ / ص ٢٩٨ .

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

وخيانة الله والرسول تكون بمعصية الله ومخالفة رسوله . وإذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَوَالِكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

واعلموا أيها المسلمون أن المال فتنة - أى اختبار - والولد فتنة ، والزوج فتنة ، كل ذلك أعطاكموه الله سبحانه وتعالى ليعلم أتشكرونه عليه وتطيعونه فيه ، أم تتلهون به فيشغلكم عن الله وذكره ، واتباع أوامره . وجل قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَلْهَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) - وجل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ (٢) - أيها المسلمون اعلموا أن ثواب الله هو الباقي ، وعطاءه هو المستمر ، وهما خير لكم من عرض الدنيا الزائل ، حتى ولو كانت أولاداً أو أموالاً .

كما ثبت في الصحيح أيضاً أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » (٣) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

إن المؤمنين الذين صدقوا بالله وكتبه ورسوله واليوم الآخر ، فخافوا حساب الله وعقابه ، فاجتنبوا ما يغضبه ، وفعلوا ما يرضيه حسب أوامره ونواهيه ، وأقاموا الصلاة ، وأخرجوا الزكاة ، واعتكفوا عن الحرام ، واستظلوا بالحلال ، فاستغرقتهم محبة الله ، واتخذوا من سنة رسول الله مدرسة تعدهم لفهم كتاب الله فهماً يؤهلهم ليكونوا عباد الله الصالحين ، وقيادات الإسلام المصلحين ، ليعيدوا دولته ، ويؤسسوا أمتة على كتاب الله .

(١) المنافقون : ٩ .

(٢) التغابن : ١٤ .

(٣) رواه : البخارى ، واللفظ له ، كتاب الإيمان باب « حب الرسول من الإيمان » .

ورواه : مسلم والنسائى وابن ماجة والدارمى ، عن أنس .

سُورَةُ الْأَنْفِثَاتِ

أين عزة الإسلام فينا إن لم يكن هؤلاء الرجال ؟ أين دولته ؟ أين حكمه ؟ أين خلافته الرشيدة ؟ ومتى يجعل الله لنا فرقاناً - أى نجاةً - لنعلم الحق من الباطل ، فنستقيم على الحق ، ونهجر الباطل ، فتعود لنا ريادة العالم من جديد ؟

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ
وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾

إن الكفار في مكة لما أجمعوا على قتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذلك في دار الندوة ، أخبر الله رسوله عن طريق جبريل - عليه السلام - بأنهم سيجتمعون على قتله ، وبلغه أمر الله له بالهجرة . وقصة الهجرة معروفة في السيرة ^(١) من خروجه ليلاً وبقاء سيدنا على - رضى الله عنه - نائماً في فراش سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . ومعنى ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ : ليحبسوك . أما المكر من الله فهو معناه جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون .

وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُتْنَا مِثْلَ هَٰذَا آتِ هَٰذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

إخبار عن كفار قريش الذين كانوا يزعمون قدرتهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، حتى إن القرآن تحداهم في ذلك ولو بإتيانهم آية واحدة ولكنهم عجزوا . ويذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث الذي كان يخرج إلى الحيرة في تجارة ، فاشترى أحاديث قليلة ودمنة وكسرى وقيصر وزعم أنه يستطيع أن يأتي بأخبار مثل الأخبار التي يوردها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خصوصاً الماضية منها .

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَٰذِهِ حَقًّا لِّمَنَ عِنْدَكَ فَامْطُرْنَا حِجَارَةً
مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

في كبر وتبجح يخاطبون الحق - سبحانه وتعالى - اللهم إن كان هذا القرآن حقاً فعلاً

(١) ذكرها ابن كثير في تفسيره كاملة لمن أراد الرجوع إليها جـ ٢ / ص ٣٠٢ .

سُورَةُ الْاَنْفِثَاتِ

ومن عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، وهذا « من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم ومما عيبوا به . وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ، ووفقنا لاتباعه . ولكنهم استفتحوا على أنفسهم ، واستعجلوا العذاب ، وتقديم العقوبة » (١) كقول القرآن ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ (٢) - و - ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ (٣) .

وَمَا كَانَتْ أَللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

إن الحق - سبحانه وتعالى - قضت رحمته ألا يعذبهم وأنت يا محمد بين أظهرهم ، ولكن يؤخرهم ليوم عظيم شديد على من أنكر رسالتك ، وضل عن الطريق الحق الذي أمرك أن تدعو إليه .

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

يخبر الله تعالى أنهم أهل للعذاب مستحقون له ، ولكن لم يحدث ذلك التعذيب بفضل بركة وجود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينهم ، وكيف لا يقع بهم العذاب وهم يصدون عن المسجد الحرام أهله الذين أتوا إليه يصلون ويطوفون به ؟ لذلك يقول الحق عنهم إنهم ليسوا أهل هذا البيت الطاهر ، إنما أهله هم النبي وأصحابه المؤمنون المتقون . هؤلاء حقاً هم أولياؤه ، وجل قوله : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون ﴾ * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴿ (٤) - وجل قوله ﴿ وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾ (٥) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ - ٣٠٤ .

(٣) الشعراء : ١٨٧ .

(٢) المعارج : ١ .

(٥) البقرة : ٢١٧ .

(٤) التوبة : ١٧ - ١٨ .

سُورَةُ الْأَنْفِثَاتِ

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

كانت قريش تطوف بالبيت الحرام عرايا يصفقون ويصفرون . معتقدين أن ذلك هو
العبادة الصحيحة . والمكاء في اللغة : الصفير . أما التصدية فهي التصفيق .
ويعلق الإمام القرطبي قائلاً : على أن هذا « رد على الجاهل من الصوفية الذين
يرقصون ويصفقون ويصعقون . وذلك كله منكر يتنزه عن مثله العقلاء ويتشبه فاعله
بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت » (١) .

وفي كلام الإمام القرطبي السابق غنى عن الحديث والخوض في هذا الموضوع الذي
شاع حديثاً تحت مسميات « الحضرة » و « الزفة » و « المولد » و « الذكر » معتقدين أنها
قربات إلى الله ، وأنهم بذلك وصلوا الله وارتقوا إلى مراتب الصوفية العليا ، ومنازل
السعداء . والحقيقة أنهم أقرب إلى الشرك منهم إلى الإيمان . فما حظهم من ذلك إلا
بضع تخاليع متراقصة ، ومجهودات جوفاء . لو وضعوها في إنتاج ، أو كسب رزق ، أو
قضاء المصالح ، لكانت عند الله خيراً من عمرهم الذي ينفقونه هباءً منثوراً . والمصيبة
أنهم يسمون أنفسهم المتصوفة (٢) .

إن الإيمان الحق هو حسن الظن بالله ، الذي يجعل الإنسان يرتقى بإيمانه إلى مشارف
إلهية مشرقة . وهي استشراف ربّاني يصل المرء به إلى أعلى مراتب التكليف الإلهي .
وهي نقاء سريرة ، وصفاء قلب ، يجعلان صاحبهما حبيباً إلى الله وإلى رسوله . وما بين
صفاء القلب وحب الله مراحل متعددة من التكاليف المصحوبة بشتى الاختبارات
والابتلاءات ، بها يترقى مرة ويهبط مرة ، لكنه دائماً في صعود إلى منتهى إيماني راق ، لا
إلى هاوية مفرطة سحيقة . إن رقصات المؤمن الحقيقي يوقعها في أرق لقاء مع الله عندما
يدخل صلاته . هي في خطوات يتكسب بها عيشه بدلاً من أن يسأل الناس أعطوه أو

(١) تفسير القرطبي ، ٧ / ٤٠٠ .

(٢) يقسم لى أحد الأبناء الموثوق فيهم أنه جاءت إليه دعوة من إحدى الطرق الصوفية تدعوه للحضور ،
ومكتوب على بطاقة الدعوة « يتشرف . . فلان بدعوتكم إلى حضور الاحتفال بمولد سيدى محمد أبو
الفضل قطب دائرة الوجود ، من عمت بركته كل مولود ، ومعكم البيارق والطبل والسيوف » .

سُورَةُ الْاَنْفَالِ

منعوه ، بل هى فى أعظم سير له عندما يقصد المسجد يريد الجماعة . أما أنغامه فهى خلاصة الارتياح النفسى ، بدلاً من الذى يرجى من وراء الأنغام الشيطانية العابثة . هو إحساس غامر بعظمة المولى وقدرته ، وتكفله بعمره وحياته ، وليست أنغام المؤمن تُلْهِيات إبليسية ، يختلط فيها الماجنون بالصعاليك الذين لاهم لهم إلا ملء البطون ، وإتيان الفواحش . . . ذلك هو الإيمان الحق من وجهة نظر استشرافية مؤمنة شعارها ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

ينجر الحق : أن هذه الأموال التى ينفقونها فى محاربة الدعوة ستكون عليهم حسرة وندماً ، لأن الله متم نوره ولو كره الكافرون ، فيميز الله ساعتها المؤمن من الكافر ، السعيد من الشقى . وساعتها أيضاً يجمع الله كل الخبيث بعضه فوق بعض ويجعله متراكماً ، ويدخله جميعاً جهنم . أولئك هم الخاسرون الدنيا فى والآخرة .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا هُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونََ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾

فتح الباب أمام الذين كفروا كى ينتهوا عن ضلالهم عن الحق وعن الطريق المستقيم ، فإن اهتدوا ودخلوا الإسلام ، ورجعوا إلى طريق الطاعة والإنابة ، غفر الله لهم ما قد سلف .

وإن لم ينتهوا ويعودوا ويستمروا على ما هم فيه ، فإننا نعالجهم بالعذاب والعقوبة ،

سُورَةُ الْأَنْفِثَاتِ

كما في قريش يوم بدر ، وغيرها من الأمم . وإن أصروا على بغيهم فقاتلوهم ، ففي عدم قتالهم فتنة للناس . فإن انتهوا نتيجة إصراركم على الحق ، فإن الله بصير بهم وبما يعملون ، ومجازيهم به . واجعلوا نيتكم أنكم تريدون بصلاحتهم وجه الله حتى يبارك في قتالكم . واعلموا أن الله بما تعملون بصير . وإن تولوا عنكم ولم يسمعوا لكم ، ويستجيبوا لما فيه صلاحهم ، فتأكدوا أن الله هو مولاكم . ومن كان الله مولاه فالنصر حليفه لا محالة ، حتى ولو هزم في الدنيا لبعض الوقت ، فهو بعقيدته وبالثبات عليها منتصر . لأن النصر الحقيقي هو أن تكون مع الله ، وذلك هو النصر الحق .

❦ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ
عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٤﴾

الغنائم هي مكاسب الحرب للفريق الغالب ، وقد قسم الله غنائم الحرب بين المسلمين عندما تكون لهم الغلبة . وقد كان يوم فرق الله بين الحق والباطل يوم بدر . يوم التقى الفريقان في السابع عشر من رمضان .

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خَقَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ
مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٥﴾

يمن الله على عباده المجاهدين ، الذين رأوا جمع الكفار وكثرة عددهم وعدتهم وقلة عددهم هم وعدتهم ، ويذكرهم بفضله عليهم وينصره ، إذ كان كل فريق بجانب من وادي الجبل ، إذ أنتم بالجانب الأدنى إلى المدينة ، وهم بالجانب الأقصى ، وبضائع الفريق الآخر وركبهم أسفل منهم ناحية البحر . ويذكرهم أنه بفضله لم يجعلهم يحدون أو يضربون موعدًا . ولو كان تم ذلك لبلغكم كثرة عددهم فتشيع في صفوفكم

سُورَةُ الْاَنْفِثَاتِ

الفوضى ، ويعم الرعب ، وينتشر الفزع ، وشاع في نفوسكم أنكم لا محالة منهزمون . وجاء النذير والنبي في عشيرته يدعو الله ويرجوه ، ويشعره الله بالنصر ، وأنه آتٍ لا محالة ، وأن النصر لا بكثرة العدة والعتاد والناس ، ولكنّ القلة مع الإيمان بالله قوة ضاربة ، لا بأيديها فحسب ، لكن بعون الله وحبه واصطفائه كذلك . لذلك كانت آيات الله في موقعة بدر . فجاءت قريش بخيلها ، والمسلمون بيقينهم ، فكانت الغلبة للمسلمين . وكانت موقعة بدر هي الفاصل التاريخي بين غطرسة الكفر والبعث الإيماني . وببدر قامت دولة الإسلام في المدينة . وما النصر إلا من عند الله . والهزيمة لدى أهل الإيمان تمحيص ، ولدى الكافرين تأديب وردع ، وسحق للباطل . وهي عند المؤمنين عزة وهيبة وثبات ، وتجديد للعمل والنشاط لمعاودة الجهاد وذلك ﴿ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ﴾ ليؤمن المؤمن على حق ، وليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه . ويؤمن من آمن على ذلك .

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَبَكَّهُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتَهُ
وَلَنَنزَعَنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

لقد صور الله المشركين في عين أهل الإيمان قلة ، ولو تركهم ورؤيتهم لهم كثيرين لفشلوا ، ولعم الخوف والفزع بين النفوس والصفوف . فكان المسلمون بعون الله كثرة في أعين أنفسهم ، والكفار في أعين المسلمين قلة قليلة . فكانت جرأة المسلمين على القتال قوية ثابتة متأكدة من النصر . فكان الفوز للمسلمين والهزيمة للكفار . فالسلاح آية ظاهرة ، والإيمان قوة باطنة . وقوة الإيمان أقوى من قوة السلاح ، لذلك يقول الحق :

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي آَعَيْنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آَعَيْنِهِمْ لِيَقْضَى
اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

رؤية متبادلة : رؤية المسلمين للكفار وهم (أى الكفار) قلة ، وهذا دفع وشحد للقتال دونها فزع أو استكانة أو يأس . ورؤية الكفار للمسلمين وهم (أى المسلمين) قلة ، حتى يستهين الكفار بأمر المعركة ، فيخدعوا حتى أن أبا جهل قال في ذلك اليوم : إنما هم أكلة جزور .

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيعَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

نداء من الله القوى المتين لعباده الذين آمنوا أن يثبتوا عند لقاء فئة من الأعداء . ثم يأمرهم ألا ينشغلوا عن ذكر الله ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾^(١) فيجب أن يكثروا الذكر ، وأن يستمروا فيه ، وحسن التوكل على الله . ولعل الفلاح يأتيكم بحسن الثقة في الله ، وصدق التوكل عليه ، ثم يوصى ويأمر المؤمنين أن يطيعوا الله ورسوله ، وأن يتربطوا ثم يحذر المؤمنين من التنازع والاختلاف ، لكى لا يأتى الفشل وتذهب القوة والنصرة . كما يأمرهم بالصبر ، وهو أمر محمود فى كل المواطن خصوصاً الحروب . ثم يحذر المؤمنين - مرة أخرى - من أن يكون خروجهم للقتال رياءً ومفاخرة . وتخص الآية وتذم أبا جهل وأصحابه الذى قال : « إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله مالنا بالله من طاقة ، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة ، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نردّ بدرًا فنشرب فيها الخمر ، وتعزف علينا القيان . . . حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد »^(٢) .

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

أغرى الشيطان أوليائه الكفار أنه معهم ، يحارب معهم ، وأنهم على حق فى قتالهم ، لأنهم يحاربون على دين آبائهم ، وقال لهم ﴿إنى جار لكم﴾ سأقاتل معكم حتى

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ / ص ٢٥ .

(١) الرعد : ٢٨ .

سُورَةُ الْأَنْفِثَاتِ

تنتصروا . ولكن الله أمدّ رسوله والذين معه بعونه . فأرسل جبريل والملائكة يقاتلون عن المؤمنين . ففر الشيطان هاربًا من المشركين وقال لهم ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . ونكص على عقبيه - أى أدبر مسرعًا - وقيل إن إبليس خاف أن يكون يوم بدر هو اليوم الذى أنظر إليه .

إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاءٌ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

قال المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى ضعيفو الإيمان حديثو العهد بالإسلام ، الشاكّون وهم دون المنافقين ، قال هؤلاء وهؤلاء عند الخروج إلى القتال : ﴿ غَرَّ هَوَاءٌ دِينَهُمْ ﴾ مشيرين إلى جماعة المسلمين . أو أن المقصود من هذه الفئة هم الكفار الذين قالوا ذلك عندما رأوا عدد المسلمين صغيرًا وقوتهم ضعيفة فظنوا أنهم سيهزمونهم . وهذا من جهلهم ولكنّ المؤمنين كانوا متوكلين على الله واثقين بصدق نبيهم ، فثبتهم الله وانتصروا .

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٦١﴾

إن منظر توفى الملائكة للكفار يوم بدر لمنظر عظيم فظيع منكر ، إذ يضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم قائلين لهم : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ فشوهت وجوههم وظهورهم وأدبارهم ، فيعودون كما كانوا فيهلكون مرة أخرى غير منقطعين ، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم ، لأن الله ليس بظلام للعبيد ، أى لا يظلم أحدًا من خلقه ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

كَذَّابٍ أَلْفِرَعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦٢﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ
وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

إن الذين يكذبون اليوم بما أنزل على محمد متساوون في الكفر بآل فرعون وبالذين من قبلهم من الكفار من قوم لوط وهود وشعيب ، ومن يماثلهم من الظالمين حتى قيام الساعة . فعذبهم الله بسبب ذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب . هذا العقاب لم يكن الله مجريه عليهم بدون سبب ، ولكن بسبب تغييرهم وتبديلهم نعمة الله ، وهذا من تمام نعمة الله وعدله وقسطه ، وهو أحكم الحاكمين ، لا يغير نعمة على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه هو .

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ
ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّ فِي الْحَرَبِ
فَشِرَازِيهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً
فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾

أشر من يدب على وجه الأرض هم الذين كفروا بنعمة الله الذين لا يؤمنون . هؤلاء من صفاتهم نقض العهود ، ولا يخافون سوء العقاب على هذا العهد وتلك المواثيق . والمراد هؤلاء القوم هم بنو قريظة وبنو النضير ، وهذا هو دأب اليهود الدائم ، وعلى المسلمين أن يحذروا من عدوهم ، لأن فتنة العصر قد اجتاحت ساحتنا . فنكل بهم يا محمد عند ظفرك بهم في حرب ، وأسرههم لعلهم يتذكرون بوعدك إياهم ، ولا ينقضون العهود . وإن خفت الخيانة من هؤلاء القوم بالعهود فاطرح إليهم عهدهم في وجههم إنهم منبذون . ومعنى ﴿ على سواء ﴾ أى على مهل « أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك ، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء ، أى تستوى أنت وهم في ذلك » (١) فإن الله لا يحب الخائنين ، حتى ولو كان على الكفار أنفسهم .

(١) ابن كثير ج ٢ / ص ٣٢٠ .

سُورَةُ الْأَنْفِثَاتِ

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥١﴾

لا تحسبن من أفلت من الكفار يوم بدر أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم ، بل هم تحت سلطاتنا وقدرتنا فلا يعجزوننا ، إذ العبرة بالنهاية ، والنهاية بأيدينا .

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٥٢﴾

وأعد لهم يا محمد أنت وأمتك من عدة القتال ما ترهبهم بها ، فنظم جيشك ، وجهز سلاحه على أقوى ما تستطيع من السلاح والرجال وكل ما يساعد على التقدم والتفوق في كل مجالات الحياة .

بل إن من واجبنا اليوم امتلاك الذرة والنويات وكل ما أحدثه العلم من عدة السلاح : صواريخ موجهة . قنابل ذرية . أقمار صناعية . كل علوم الحرب يجب أن نملكها ونصنعها لنصون بها عسرتنا بالله ثم بما أمرنا الله به .

واعلموا أيها المسلمون أنه مهما أنفقتم من جهدكم ووقتكم في الجهاد فإنه يرد إليكم ، ويوفَّ إليكم على أكمل وجه .

إنه قرار بالتكليف بإعداد العدة كما هي في عصرنا الحديث ، من ذرة ومشتقاتها . ذلك واجبنا اليوم ، لنكون أمة الإسلام كما أرادها الله سبحانه وتعالى ، ولنخرج من الدلة والهوان الذى نحن فيه ، ونملك أمرنا ، ونعيد سيادتنا في الأرض ، ونقيم خلافتنا . فنعيد للإنسان كرامته ، وللعالم سكينته ، ونوقف غطرسة الإنسان المتمرد على أمر الله . وعندما نخلص النية لله ، ونعد العدة لحرب عدوه ، يبعث سبحانه الرهبة والخوف في قلوب أعداء الإسلام .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بالحرب والاستعداد الكلى لها في الآية السابقة ، وكلف

سُورَةُ الْأَنْفِثَاتِ

المسلمين بالاستعداد الكامل بعدة القتال قال سبحانه : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ ﴾ أى مالوا إلى السلام والمصالحة .

وبذلك يكون الأصل هو الاستعداد للحرب ، وإعداد عدته على أكمل وجه ، وبذلك يجب على المسلمين أن يتفقهوا ويدرسوا شئون الحرب والجهاد لعامة الأمة وخاصتها مع وجود الجيوش الحديثة المتخصصة . كما يجب عدم إعفاء أى فئة من الشعوب الإسلامية من التدريب على الدروس فى شئون الحرب ، فى مراحل التعليم ، ثم يكون التخصص والدراسات العليا فى فنون الحرب للجيوش النظامية . هذا ما يأمر به الإسلام ويجعله واجباً حكماً .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ إذا تأكد المسلمون من صدق عدوهم فى طلب المسالمة ، والنزول على أمر الله . وهذا هو الدليل على صدق النية . ويجب على النبى أو الأمير أن يفاوض فى أمر المسالمة دون إجبار أو إرغام على اعتناق الإسلام . ولكن يترك لهم الخيار بين الجزية أو الإسلام . والجزية هى تساوى ما يدفعه المسلمون من الزكاة .

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى آتَاكَ بِنَصْرِهِ
وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَ
بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾

واعلم يا محمد أن الكفار لا يستطيعون أن يخدعوك أو يخدعوا من ينوب عنك من حكام المسلمين الملتزمين بسنتك وبكتاب الله . فالله مؤيدك بنصره ومن سار مسيرتك من المؤمنين . ولن يستطيع غير الله أن يؤلف بين المؤمنين ، فقد من الله عليهم بأن ألف بين قلوبهم ، وجعلهم أتباعك ، مؤيدين بنصره . ولن تستطيع أن تؤلف بينهم يا محمد حتى ولو كلفك ذلك ما فى الأرض جميعاً . ولكن الله هو الذى يربط على قلوبهم . وجل قوله سبحانه : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ (١) .

(١) آل عمران : ١٠٣ .

سُورَةُ الْأَنْفَالِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

أى كافيك وناصرك ومؤيدك على العدو هو الله سبحانه وتعالى ، الذى ألف بين
قلوب المؤمنين ، وألفهم إليك ، وتجمعوا حولك .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ
يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَنَّاكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ
اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾

فيا محمد حرض المؤمنين على القتال - وابعث فيهم روح الجهاد والمثابرة ، وقتال أعداء
الله . فإن كنتم قلة فالنصر من عند الله .

ثم يشرح الله لنيبه ولخلفائه من بعده أن الانتصار ليس بكثرة العدد ولكن بما وقر في
القلب من الصدق ، والإخلاص والاندفاع للقتال مع اليقين بالجنة لشهداء المعركة .
والله يهب المؤمنين قوة من لدنه . فالمائة المؤمنة تغلب ألفا من الذين كفروا ، والمائة
الصابرة تغلب مائتين ، والألف تغلب ألفين .

هذا عطاء ما فوقه عطاء . إنه إكرام الحق للمجاهدين . إنه سبحانه ﴿ اشترى من
المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيُقتلُونَ وَيُقتَلُونَ وعدا عليه
حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم
به ﴾ (١) .

مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا

(١) التوبة : ١١١ .

سُورَةُ الْأَنْفِثَاتِ

أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

نزلت هذه الآيات عقب انتصار المسلمين في موقعة بدر . ونحن نعلم قصة مشاورة النبي صاحبيه أبا بكر وعمر في أمر الأسرى . فكان رأى أبى بكر الفداء ، ورأى عمر القتل . ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مال إلى رأى أبى بكر . ونزلت الآيات معارضة لأخذ الفداء .

وبعد العفو أباح الله الانتفاع بما ل الفداء حيث قال : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ .

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

هذا منتهى الرحمة من الله سبحانه . « قال ابن العربى : لما أسر من أسر من المشركين تكلم قوم منهم بالإسلام ولم يمضوا فيه عزيمة ، ولا اعترفوا به اعترافاً جازماً ويشبه أنهم أرادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين . قال علماؤنا : إن تكلم الكافر بالإيمان في قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمناً ، وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافراً . . . وقد بين الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - الحقيقة فقال : ﴿ وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ ﴾ أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرًا فقد خانوا الله من قبل بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك ، وإن كان هذا القول منهم خيراً ويعلمه الله فيقبل منهم ذلك ويعوضهم خيراً مما خرج عنهم ، ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم » (١) .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنْ أَسْتَصِرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٨ / ص ٥٥ .

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَاتَعَمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

قَسَمَ الله المؤمنين إلى أصناف : مهاجرين خرجوا من ديارهم ، وجاهدوا بأموالهم وانتصروا لدين الله وإقامته وإظهاره . وأنصار وهم أهل المدينة في ذلك الوقت الذين فتحوا قلوبهم قبل دورهم ومتاعهم لإخوانهم المهاجرين ، تجمعهم أخوة في الإيمان ، ومحبة في الله ، وانتصروا لله وللرسول بروحهم وأموالهم . فهؤلاء وهؤلاء بعضهم أولياء بعض من أجل ذلك آخى حبيب الله بينهما . وجل قول الحق : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ (١) .

وهناك صنف ثالث من المؤمنين : هم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، بل آثروا البقاء في ديارهم .

ومن عدل الإسلام وعظمته أنه يأمر جماعة المسلمين أن ينصروا هذه الفئة إن طلبت النصرة يوماً ما إلا في حالة واحدة وهي حالة طلبهم النصر « على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروهم عليهم ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدته » (٢) .
أما الكفار فبعضهم أولياء بعض .

وقد حذر الله المؤمنين من موالاة المشركين وهددهم إن لم يجانبوهم ، فستقع الفتنة في الناس ، ويختلط الفاسد بالمؤمن ، والعاصي بالمسلم ، وينشر الفساد بين الناس .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ
هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

هذا توثيق لأخوة المهاجرين والأنصار ومن استن بستهم ، وحذا حذوهم إلى يوم الدين . فياليت المسلمين يتعظون بكتاب ربهم ، وسنة رسولهم ، لعل عزتهم تعود ، وسيادتهم تسود . ١١

(١) التوبة : ١١٧ . (٢) تفسير القرطبي ج ٨ / ص ٥٧ .



بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

أنزل الله هذه الآيات الكريمة : يعلن فيها نقض عهد الذين نكثوا عهودهم ، وأن
لهم أربعة أشهر يدبرون فيها أمرهم ، ويرحلون خلالها إلى حيث شاءوا ، وبعد ذلك
يقاتلون أينما وجدوا .

ولذلك لم ييسمّل في أولها كعادة كل السور ، جرياً على عادة العرب الذين كانوا
- كما يقول الإمام القرطبي - إذا نقض أحد الطرفين المتعاهدين عهداً أو أرادوا ذلك
أرسلوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه « البسملة » (١) .

وفور نزول هذه الآيات : ألحق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على بن أبي طالب
بأبي بكر - رضي الله عنهما - في موسم الحج ، ليقرأ على المشركين هذه البراءة منهم . فإن
تابوا وآمنوا فهو خير لهم ، وإن تولّوا فليعلموا أنهم غير معجزى الله . ثم يعلن الحق أن
هؤلاء الكافرين لم ولن يكونوا معجزين الله سبحانه وتعالى ، فهو القوى العزيز القادر
على كل شيء . وأنذر يا محمد هؤلاء الكفار إن لم يرجعوا إلى الله ويؤمنوا بعذاب أليم
وخزى دائم ؛ لذلك يؤكد الله هذا المعنى في الآيات التالية أيضاً قائلاً :

وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ

(١) انظر : تفسير القرطبي ٨ / ٦١ وما بعدها .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ
وَنَشِيرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْيَمِّ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ
يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٣﴾

المعنى أن الله برىء من المشركين إلا المعاهدين في مدة عهدهم ، الذين لم ينقضوا
المسلمين شيئاً ، الذين ثبتوا على العهد ، فأمهلوا هؤلاء إلى مدتهم . ومعنى ﴿ لم
يظاهروا ﴾ لم يعاونوا . فهؤلاء أبقوهم إلى مدتهم وإن فاقت أربعة الأشهر . و ﴿ الحج
الأكبر ﴾ هو يوم النحر لأنه أعظم المناسك ، ولذلك « حرض الله تعالى على الوفاء
بذلك فقال ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ أى الموفين بعهدهم » (١) .

إن الله سبحانه وتعالى يحب لعباده الخير والإسلام . فها هو ذا سبحانه يحرض على
ذلك المؤمنين بأن يعينوا التائب الموفى بعهده حتى يبلغ مأمنه أى مكان إقامته وأمنه ،
وذلك لأن الكافرين قوم لا يعلمون ، فالإسلام بالخيار لا بالجبر ويجب على المسلمين أن
يبينوا للناس معلم الإسلام ثم على الناس أن يختاروا ، وما على الرسول إلا البلاغ .

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤﴾

إذا انتهت الأشهر الأربعة التى ضربها الله لهم موعداً لرجوعهم عن النكث ومخالفة
العهد ولتصريف أمورهم فيها ، فقد تم العهد وأصبح للمؤمنين أن يطلبوا منهم : إما
إسلامهم وإما الأسر أو القتل أينما وجدوا . وللمسلمين أن يترصدوا لهم أينما كانوا إلا أن
يتوبوا ، فإن تابوا وأعلنوا إسلامهم وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فعند ذلك يصبحون
إخوانكم فى الدين ، لهم مالكم وعليهم ما عليكم ، وعندها تُحلى سبيلهم .

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٣٣٥ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . . فإذا قالوها : عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » (١) .

من هنا كان أمرُ الله لنا ألا نكتفى بمجرد ملاقاتهم فقط لنقتلهم ، بل أمرنا بالترصد لهم والتخفى والخدعة والإتيان بهم من كل مكان يختبئون فيه ، وهذا أدعى للإنتهاء عليهم وأقوى لمحاربتهم . عن على بن أبى طالب قال : بعث النبى - صلى الله عليه وسلم - بأربعة أسياف : سيف فى المشركين من العرب قال تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ . (٢) والسيف الثانى هو قتال أهل الكتاب لقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عند يد وهم صاغرون ﴾ . (٣) والسيف الثالث قتال المنافقين فى قوله ﴿ يأياها النبى جاهد الكفار والمنافقين ﴾ . (٤) والسيف الرابع قتال الباغين فى قوله ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ (٥) ، (٦) .

وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه .
ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴿

إذا طلب الأمن والأمان أحد المشركين الذين أمر الله بقتالهم : فعليك يا محمد أن تجيبه إلى طلبه حتى يعود إلى الإسلام والقرآن . وهذا هو معنى ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ . فهم ، أى المشركون الطالبون الأمان ، فى حال مستمرة من الأمان إلى أن يهتدوا . كل ذلك ليعلموا دين الله وسماحة الإسلام . ثم بعد ذلك بين الحق سبحانه حكمته فى البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر ثم بعد ذلك السيف أينما ثقفوا ، فقال تعالى :

(١) رواه : البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى .

(٢) التوبة : ٥ .

(٣) التوبة : ٢٩ .

(٤) التحريم : ٩ .

(٥) الحجرات : ٩ .

(٦) ابن كثير ٣٣٦/٢ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ
الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

يبلغنا الحق أن نفى بالعهد ماداموا يفون بعهدهم . يقول القرطبي قال ابن زيد :
« فلم يستقيموا ف ضرب لهم أجلاً أربعة أشهر . فأما من لا عهد له فقاتلوه حيث
وجدتموه إلا أن يتوب » (١) .

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

إنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد وهم لو تمكنوا من المسلمين وعلوا عليهم لم يبقوا
ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة (٢) .
و ﴿إلا﴾ يعنى قرابة ، وقيل : عهدا ، والذمة : العهد . وأكثرهم فاسقون لغلبة
قلوبهم .

أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي
دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾

اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا أى « اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور
الدنيا الخسيسة » (٣) . ومعروف أن الباء تدخل على المتروك . ولجهلهم أيضًا صدوا عن

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٧٨ .

(٢) (٣ ، ٢) ابن كثير ج ٢ ص ٣٣٨ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

سبيل الله ودعوا إلى غيره . إنهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون في المؤمنين عهدًا ولا يخافون ميثاقًا لله ولا لعباده ، إنهم أهل عدوان على الحق وأهله .
أما الذين نكثوا أيمانهم من بعد إعلانهم الإسلام وازدادوا فجورًا فطعنوا في الدين وعابوه وحاربوه ، فيقتل أئمة الكفر منهم إنهم منافقون لا أيمان لهم حتى ينتهوا .
فيا أمة الإسلام : طهروا صفوفكم منهم إنهم مجرمون لا أمان لهم لعلهم ينتهون بالهلاك أو بتوبة صادقة تصلح مسيرتهم فتجعلهم معكم على صراط مستقيم . وأئمة الكفر في الآية : أبو جهل وعتبة وشيبة وأمие بن خلف ومن على شاكلتهم .

أَلَا تَقْلِيلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ
بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَرَّتْ لَكُمْ أَنْ تَخْشَوْهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ فَتِلَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

قاتلوا المشركين أيها المسلمون فتنالوا شرف تعذيب الله لهم بأيديكم ، ولتنال تلك
الأيادي المجاهدة شرف البذل والجهاد في سبيل الله ، وإن الله يخزيهم وهازمهم بكم
وناصرهم عليهم ، وسبحانه وتعالى يشفى صدور قوم مؤمنين يحبهم ويحبونه ، وإنه
سبحانه لمذهب غيظ قلوبكم وبفضله يذيقكم حلاوة الإيمان به ويتوب عليكم وهو
بفضله يتوب على من يشاء من عباده .

يقول ابن كثير : « هذا . . تحضيض وتهيج وإغراء على قتال المشركين الناكثين
بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة » (١) .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً وَاللَّهُ خَيْرُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٣٩ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

هذه الآية نظير قوله تعالى ﴿الم﴾ * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿١﴾ ونظير قوله تعالى ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ (٢).

و ﴿وليجة﴾ أى : بطانة ، والمعنى : مودة من دون الله ورسوله .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

ينبه الحق - سبحانه وتعالى - أنه ما ينبغي للمشركين أن يدخلوا مساجد الله ويعمروها كالمسلمين المخلصين العابدين وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر من أول يوم ، فهؤلاء أعمالهم هباء ، وفي النار هم فيها خالدون . إنما المعمرون مساجد الله هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ولم يخشوا إلا الله ، فهؤلاء هم عمار البيت وهؤلاء هم المهتدون .

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

إن الأجر على العمل يختلف في الكثرة والقلة ، فليست صلاة الفرض كالنافلة وليس

(٢) آل عمران : ١٤٢ .

(١) العنكبوت : ١ - ٣ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

الحج تغنى عنه العمرة وكذلك سقاية الحاج وخدمته وخدمة المسجد الحرام لا يغنى عن الإسلام وعن توحيد الله سبحانه وتعالى والجهاد في سبيله . فإن أضيفت إلى العبادات سقاية الحاج وخدمة المسجد الحرام فمقبولة بإذن الله الذى لا يرد توبة تائب ويتجاوز عن كثير لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وأحسن فى توحيدهِ وأخلص لله عبوديته . هؤلاء هم الذين آمنوا وهاجروا فى سبيل الله وصدقوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وجاهدوا بكل ما يملكون من أنفس وأموال لإعلاء كلمته وإقرار شرعه والحكم به ، هؤلاء أعظم درجة عند الله ولهم الفوز العظيم بجنات عرضها السموات والأرض جزاء لهم على حسن العمل وحسن الجهاد وصدق النية وتخلصها من الدنيا ومفاتها لتكون لله غير مشوبة بربا أو نفاق ، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً . هؤلاء يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان لهم فيها حقاً نعيم مقيم ، خالدون فيها أبداً . ﴿ إن الله عنده أجر عظيم ﴾ لمن خاف مقامه فعمل للقاءه فصلح وأصلح .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمُ الْظَالِمُونَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن
كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اَقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ ﴿٩٤﴾

إن القرابة الحقّة ليست قرابة الدم ، ولكنها قرابة العقيدة ، وجميل أن تجتمع قرابة الدم مع قرابة العقيدة والأخوة فى الله فقامت بالله مباركة زكية لا تخشى الموت ولا تهابه مادام المراد هو الله . والآية خطاب لجميع المؤمنين وهى باقية الحكم إلى يوم القيامة فى قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين (١) .

(١) تفسير القرطبي ٩٣ / ٨ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وقد خص سبحانه الآباء والإخوة لأنه لا قرابة أقرب منها بالنسبة للإنسان « فنفى الموالاة بينهم » لبيان أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان « (١) .
ولله در قول الشاعر:

يقولون لى دار الأربة قد دنت وأنت كئيبٌ إن ذا لعجيبٌ
فقلت وما تغنى ديار قريبةٌ إذا لم يكن بين القلوب قريبٌ
فكم من بعيد الدار نال مراده وآخر جازُ الجنب مات كئيب

هذه هى المودة الحقيقية مودة الإيثار والحب فى الله ، وليس هناك من هو أحب إلى المؤمن من الله ورسوله ﴿ لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ (٢) .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) (٣) .

وهكذا من يرض بالشرك فهو مشرك .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ تَوَبَّ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

هنا يذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بيوم حنين ، حين أعجبتهم كثرتهم وظنوا أنهم بها ينصرون ولكنهم هزموا لأن النصر من عند الله ، والقتال سبب ظاهر أما النصر فهو أمر

(١) القرطبي جـ ٨ ص ٩٤ . (٢) المجادلة : ٢٢ .

(٣) رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ورواه مسلم كتاب « الإيثار » باب « وجوب محبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - » .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

يستره الله لأمر عنده ، والكثرة لا تفيد إذا صاحبها الزهو والغرور وانصرفت عن رجائها لله وحبها له ، لذلك ، فقد هزمتهم يوم حنين وأنتم كثرة ولولا فضلُ الله ورحمته وإنزاله السكينة عليكم وإنزاله جنودًا للحق لم تروهم لهلكتم ، ليعلمهم درسًا لا ينسى أن النصر من عنده وحده فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . وكانت وقعة حنين هذه بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان للهجرة بعد تفرغ الرسول - صلى الله عليه وسلم - من فتح مكة وهدوء الأمور وإطلاق أهلها ، فجمعت له قبيلة هوازن جيشًا كثيفًا ليقاتلوه ، فخرج إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في جيش كبير يبلغ عشرة آلاف من المقاتلين مهاجرين وأنصارًا والتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين . . . (١) .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ بعد الهزيمة نصر الله نبيه وأسلمت هوازن وقام الرسول فقسم الغنائم .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ
شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

الآية تنهى عن أن يقترب المشركون من المسجد الحرام لأنهم نجس والدخول كان منهيًا عنه سنة عشر للهجرة . ﴿ وإن خفتكم عيلة ﴾ أى مالا أو فقرا أو انقطاع معاش فسوف يغنيكم الله من فضله . ذلك لأن المشركين الذين منعوا دخول المسجد الحرام كانوا يجلبون الأطعمة وأنواع التجارة المختلفة ، فوسوس الشيطان إلى المسلمين بأن قالوا: من أين نعيش وكيف ؟ فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله الواسع سبحانه هو المغنى . أما أن يدخلوا المسجد الحرام بعد ذلك فهذا أمر نهى الله عنه .

قَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

(١) القصة كاملة أوردها ابن كثير ج ٢ - ص ٣٤٣ وانظرها بتوسع - في كتب السيرة .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢١﴾

وكما أمرهم أن يقاتلوا الكفار المشركين ، أمرهم أن يقاتلوا الذين أوتوا الكتاب من
الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق
حتى يعطوا الجزية عن قهر وهم مذلولون حقرون مهانون . يقول ابن كثير : « فلهذا
لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين » .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
قَالَهُمْ اللَّهُ أَفَنُ يُؤَفَّكَوتُ ﴿٢٢﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا
إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَهًا
أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾

يقرر المولى أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا برسوله ، ولكنهم يتخذون عزيزاً
ابناً لله لأنه كتب التوراة لما فقدت بعد موت موسى عليه السلام فادعوا أنه ابن الله ،
ولانعلم كيف كتبها ؟ هل كان يحفظها ؟ أو هل كانت عنده أصول ؟ الله أعلم .
ولازالت اليهود تقديس عزيزاً ويسمونهم عزرة . وكذلك ادعت النصارى أن المسيح ابن
الله ، وبذلك يكون التقارب بين اليهود والنصارى في قول الباطل ، لأن مورد معارفهم
واحد وهو الافتراء والكذب على الله . وقوله ﴿ يضاهئون ﴾ أى يشابهون . وقد ردّ الله
عليهم فأخزاهم ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة
كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ (١) .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

إن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم اليهود ورهبانهم النصارى أرباباً من دون الله ،
واتبعوهم في كل ما حللوه لأنفسهم وما حرموه ، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم ، تعالى
الله وتقدس صفاته إنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً
أحد . هكذا أمروا ولكنهم خالفوا .

إن مرادهم هم واليهود إطفاء نور الله وحصار دينه ، لكن الله يأبى أن يُطفأ نوره
حتى لو كرهوا ذلك ، وإن الله سبحانه وتعالى متم نوره بقيام الإسلام وقيام دولته وعودة
خلافته ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله .

يقول الهادى البشير - صلى الله عليه وسلم - « ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار
ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزاً ويذل ذليلاً عزاً يعز الله به
الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر » (١) .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ
الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾
يَوْمَ يُخْمَلُ عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكُوفٌ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ
هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

هاتان الآيتان نزلتا في الأحبار وهم رجال الدين اليهود ، وفي الرهبان والقساوسة :
رجال الدين في المسيحية .

ويبين الله هنا أن رهبان النصارى وأحبار اليهود في خصائص طباعهم وغرائزهم
يأكلون أموال الناس بالباطل ويكنزون الذهب والفضة ويضنون بها على غيرهم
ويحرصون على كنزها وإكثارها ويمتنعون عن إنفاقها في سبيل الله ، كما أن هؤلاء الرهبان
والأحبار والقساوسة يصدون عن سبيل الله وعن الإسلام وهم يعلمون من كتبهم أنه

(١) الحديث عن تميم الدارى ورواه : الشيخان ، والإمام أحمد فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير . والحاكم فى
المستدرک ، وسعيد بن منصور فى سنته .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

الحق وأن محمدًا رسولُ الله وخاتم أنبيائه ، ولكنهم أنكروا ليظلوا مالكين متاع الدنيا ينكرون الحق ويدعون إلى الباطل ويستمرثون في ظلماته . فجزاؤهم في الآخرة ويوم القيامة أن يتحقق قول الله سبحانه فيهم ﴿ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ وتمر عليهم خزنة النار قائلين لهم ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ .

وَحَقًّا قَوْلُهُ ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ (١) وَحَقًّا قَوْلُهُ ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٢) .

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

أربعة أشهر حرم ، ثلاثة منها متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ثم رجب . هنا عاد الحق مرة أخرى للحديث عن أهل الشرك والكفر وعن تحريفهم في نظام الأشهر القمرية التي ارتضاها الله سبحانه وتعالى مواقيت لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - . فهذه مواقيت الله لا البشر ، فمن حاد عنها حاد عن نظام الله في التوقيت لأنه نظام مرتبط بنظام الخلق كونًا وبشرًا وحياة ونشورا ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم بمخالفة أمر الله ، لأنه بطاعته تسعدون وتأمنون وتسودون . وفي غير الأشهر الحرم لكم أن تقتاتوا المشركين كافة بغير استثناء حتى يرجعوا للحق الذي فيه حياتهم ونجاتهم . لذلك فقد «خصَّ الله تعالى الأربعة الأشهر الحرم بالذكر ، ونهى عن الظلم فيها تشريفًا لها، وإن كان منهيًا عنه في كل الزمان» . (٣) ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ .

(١) النحل : ٩٦ .

(٢) الأعلى : ١٦ ، ١٧ .

(٣) القرطبي ج ٨ ص ١٣٥ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا
وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ
سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

النسيء هو تأخير الشيء عن مواعده ، وهو التغيير والتبديل في نظام وترتيب الأشهر الحرم والإتيان بها في غير مواقيتها من السنة القمرية . مثلاً تبديل شهر مكان شهر حيث كانوا يحتاجون إلى القتال في المحرم مثلاً ، ولأن المحرم محرم فيه القتل كما أمر الله فيقاتلون فيه رغم ذلك ثم يحرمون شهر صفر وهذا نسيء . وأيضاً هو الإتيان بالحج في غير مواعده المشروع . فالتغيير والتبديل في نظام المناسك حرام وكفر ، والله سبحانه وتعالى يهدي إلى الحق . والله لا يهدي القوم الكافرين لأنهم يحلون النسيء عامًا ويحرمونه عامًا ويبدلون ويغيرون الشهر مكان الشهر حتى تبقى الشهور أربعة كما قال الله ، وكأنهم يظنون أنهم يضحكون على خالق السموات والأرض ، لذلك فقد فضح الله سرائرهم فقال ﴿ ليواطئوا ﴾ أى ليوافقوا عدة الأشهر الحرم الأربعة التي ذكرها .

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنِفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّا قَلَّتُمْ إِلَى
الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾

مالككم ؟ ما اسم استفهام معناه التقرير والتوبيخ . والمعنى : أى شيء يمنعكم عن
تلبية الجهاد ؟

يقول ابن كثير « هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - في غزوة تبوك حين طابت الشار والظلال في شدة الحر » (١) . والمعنى أنكم
تتكاسلون وتميلون إلى الدعة والراحة والاستكانة عن الجهاد والحرب . ويقول القرطبي

(١) ابن كثير : ٢ / ٣٥٧ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

«عائبهم الله على إيثار الراحة في الدنيا على الراحة في الآخرة إذ لا تُنال راحة الآخرة إلا بنبص الدنيا (١)» .

إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ
شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

تهديد شديد ووعيد لهؤلاء الذين رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة ، والذين نسوا أن أعظم الزاد جهاد في سبيل الله يشتري به العبد الآخرة .
وفي عصرنا هذا أصبح المسلمون لا وزن لهم ، إلى أن يعودوا للجهاد يمارسون فيه وبه الحياة . وياليت المسلمين اليوم يعقلون ذلك فيدرسوا القرآن ثم السنة من جديد ، كي يعلموا أن عزة الإنسان المسلم وكرامته متوقفة على أن يبذل نفسه وماله وجاهه في سبيل الله ، فينال الخلود في الدنيا تاريخًا ومجدًا وسمعةً حسنة ، وفي الآخرة مغفرة من الله ورضوانًا وجنات عرضها السموات والأرض . والعبد المسلم عندما يوثق حياته بالجهاد فقد اشترى من الله جنة ورضوانًا ، وبالجهاد والشهادة ينتصر الإنسان المسلم على شهواته الدنيا ويرقى إلى معالي المعرفة بالله فيعيش في الدنيا سيدًا وله في الآخرة مقعد صدق عند مليك مقتدر .

إن المسلمين لو عادوا إلى الجهاد يقاتلون في سبيل الله يدعون إليه بصدق نية في مرابطة ومثابرة لا يخشون في الله لومة لائم ولا يخشون الدنيا ، فمعية الله لهم نصر مبین وليعلموا أن العزة في البذل في سبيل الله بذلاً نفسيًا وماليًا وبالولد والزوج . فالجهاد في بدايته عزيمة وخاتمته نصر وفوز مبین ، فهل يعود للمسلمين رشدهم فيرتدوا لحل الجهاد ويباعوا الله ببيعة رجل واحد ؟ لعل الله ينعم عليهم فيخرجهم من ذلك الذل المخيم عليهم بسبب احتكامهم إلى غير ما أنزل الله ؟ اللهم ارزقنا حب الجهاد وأهلسنا حلله ، حتى تعود إلينا عزتنا ، فنسود العالم من جديد ، وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا خَرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا أَتَيْنَ
إِذْ هُمْ فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلْ

(١) القرطبي ج ٨ / ١٤١ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيْدُهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٤١﴾

إن لم تعينوا نبيكم وتنفروا معه في غزوة تبوك لقتال الروم فالله كفيل به ينصره كما نصره في مواطن كثيرة وأظهره على عدوه بالنصرة والغلبة . فقد نصره في غار ثور ليلة الهجرة . فنصره الله منفردًا ونصره أحد اثنين هو وصاحبه وأيده بجنود لم تروها من الملائكة ، ليتم أمر الله وتكون كلمته وحكمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله « عزيز في انتقامه حكيم في أقواله وأفعاله » .

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

أمر من الله أن ينفروا للجهاد عامة شبابًا وشيوخًا مشاغيل وغير مشاغيل من له عيال ومن ليس له ، صاحب الضيعة ومن لا ضيعة له رجالًا وفرسانًا شجعانًا وجبناء . (١) والمعنى أنهم أمروا جميعًا سواء أخفت حركاتهم أم ثقلت . وتلك دعوة عامة للجهاد في كل الحالات بالنفس والمال ، وذلك من ورائه خير كثير لا يعلمه إلا الله .

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ
وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٣﴾

ما زال الحق يوبخهم في استكانتهم وركونهم إلى الراحة واستنابتهم عن الجهاد ، فيبين لهم مدى جبنهم وتكالبهم على أتفه الأشياء التي لو دعوا إليها لولوا إليها ورغبوا فيها و﴿لو كان عرضًا﴾ أى : منافع الدنيا التافهة ، والمعنى : نفع أو غنيمة قريبة ، أو دعوا إلى سفر قصير مقصود غير شاق لو دعوا إلى ذلك أو ذاك لاتبعوك يا محمد ، ولكن بعدت عليهم الشقة أى مشقة السفر . وساعتها يحلفون لك بأغلظ الأيمان أنهم لو

(١) أورد الإمام القرطبي عشرة أقوال لمعنى خفافا وثقالا ذكرنا منها بعضها - راجع القرطبي ج ٨ ص ١٥٠ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

استطاعوا الخروج معك لخرجوا ، ولكن يقولون عندنا قصور في الظهر والمال . ولكنهم يكذبهم هذا ونفاقهم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون .
إن القاعدة في الإسلام عندما ينادى الإمام وهو خليفة المسلمين للحرب يستجيب له الكل عدا أصحاب الأعذار ، وقد كان الأولون من الصحابة يجاهدون بالنفس والمال .
ألم يجهز عثمانُ بنُ عفانَ جيشَ العسرة كله من ماله الخاص يرجو بذلك رضا الله لا يطلب به دنيا ؟

والمسلمون يجب أن يكونوا دائماً على استعداد للحرب والجهاد ، وهو ما يعرف في زماننا هذا بالتجنيد العام الإجباري . فالإسلام غائب ويجب أن يعود بأمة حاكمة بما أنزل الله وخلافة رشيدة في قولها وفعلها . ولن تعادل الموازين في الأرض إلا بقيام دولة القرآن مسيطرة على العالم كله . والمؤمن الحق هو الذي يخرج للجهاد لا يبغي دنيا يصيبها ، ولكن يرجو رضوان الله وحسن المقام في الآخرة اللذين هما نيته وقصده ولو بذلت في سبيل ذلك النفوس والأموال والجاه . أما الذين يساؤون بين الدنيا والآخرة إنما يهلكون أنفسهم .

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

لقد عفا الله عنك يا سيدي يا رسول الله لم أذنت لهم في الخروج معك للقتال بغير نية صادقة وعزيمة قوية على الجهاد ؟ وقيل إن العتاب على الإذن لهم بأن يتخلفوا عن الجهاد لاعتلالهم بأعذار . فلم أذنت لهم يا رسول الله وأنت حبيبي ومصطفائي ورسولي إليهم لا أتركك بدون وحي قرآني ينزل عليك فلم تنتظر وحياً أو قولاً فصلاً ؟ ورغم ذلك لقد عفوت عنك يا محمد .

لَا يَسْتَعِذُّنَا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ
أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾

إن الذين يستأذنون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أمر القعود عن الجهاد والتخلف عن الحرب والخروج مع المسلمين إنما هم ضعاف النفوس وضعاف الإيمان . هم المنافقون الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الذين شكت أفئدتهم في صحة ما أنزل الله إليك وعليك ، وما يزالون على الطريق مترددين بين قعودهم وتقديمهم وبين جهادهم وتخلفهم ، فهم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء حيارى .

ولو كان الإيمان قد خالط قلوب المنافقين لتنشطوا للخروج معك ليجاهدوا مع رسول الله والمؤمنين ، ولكن الله سبحانه يعلم ما في قلوبهم من النفاق وضعف الإيمان ، ولكن الله كره الخروج لهم معك فحبسهم عنك وخذلهم وقعدوا مع القاعدين عن الجهاد . وثبَّطهم أى أخرهم . ولذلك يبين الحق بعدها سبب بغضه الخروج لهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويوضح حكمته من ذلك وسبحانه هو العليم ، فيبين أنهم لو خرجوا مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما زادوا المسلمين إلا فسادًا وتخلُّفًا ونشروا بينهم النميمة والإيقاع بينهم ، إذ يريدون أن يبعثوا الفتنة بين صفوف المؤمنين ويقلبوا الأمور عن مرادها الصحيح حتى يحولوا بين المؤمنين ونصر الله ، ولكن الله مظهر للحق ورافع راياته ولو كرهوا ذلك .

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَتَذُنُّ لِي وَلَا نَفْتِيَّ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

إن من هؤلاء المنافقين من يقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ائذن لي حتى لا

سُورَةُ التَّوْبَةِ

أقع في الفتنة في الخروج معك بسبب الجوارى الجميلات من بنات الروم ، وهو عذر غير مقبول مردّه إلى النفاق ، لكنهم سقطوا في الفتنة فعلاً ورسبوا فيها بسبب تخلفهم هذا وأقوالهم هذه . إن المنافقين ليصابون بغم شديد وسوء وحزن عندما ينصر الله أهل الحق ويؤيد رسوله . وعندما تقع بالمؤمنين هزيمة اختباراً وتمحيصاً من الله يفرحون بذلك ، ويقولون قد أخذنا أمرنا من قبل أى احتطنا وأخذنا حذرنا ولم نخرج معهم ولم نفتحم صفوفهم الأولى حتى لا يقع فينا القتل ، ولكن الله حرمهم الشهادة في سبيله . هم يعتقدون في مفهومهم أن التخلف عن الجهاد أنجاهم من القتل والفقد عند الهزيمة ، لكنهم جهلوا قيمة الجهاد والشهادة عند الله ، فهم نظروا تحت أقدامهم وقاسوا الأمور الإيمانية بنتائجها الدنيوية الظاهرة ونسوا حظهم من الآخرة . بلى ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ .

قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

إذا كان المنافقون يفرحون أنهم قعدوا عن الجهاد وبذلك قد فاتهم القتل ، وإذا كانت هذه نظرهم للجهاد أنه نصر أو قتل وفناء ، فإن المؤمنين لا ينظرون إلى الهزيمة والقتل على أنها فناء ولكنها بقاء وخلود عند الله دائم : ﴿ بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ قائلين لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا في سابق علمه وكتابه ؛ فالنصر حسنى لنا أما القتل فهو أعظم حسنى لنا ، وهى شهادة ، فنحن غير يائسين من أى نتيجة ، فإما النصر أو الشهادة . « والمعنى كل شىء بقضاء وقدر » (١) .

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ
اللَّهُ عَذَابٌ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

إن الذين يتربصون بالمؤمنين ويتمنون لهم الشر لا يفلحون ، وإن المؤمنين حين يتربصون إنما يريدون طمس الباطل وإظهار الحق . ولن ينتصر الباطل على الحق أبداً ،

(١) القرطبي ج ٨ ص ١٥٩ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وإن وقع أحياناً فإنما لتمحيص المؤمنين وتقوية عزائمهم ليعاودوا القتال أشد قوة من المرة الأولى .

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾
وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى : مهما أنفق الكافر أو المنافق وتظاهر بالعمل وبالنفقة وأنها لله فالله عليم خبير يعلم سر النفس وجهرها . وإنما يتقبل الله من المتقين الذين يرجون بنفقتهم وجه الله والدار الآخرة ويسعون سرًا وعلناً لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة المنافقين والضالين والكافرين هي السفلى . والفسق تنطوى تحته كل الصفات الذميمة البغيضة ، والله طيب لا يقبل إلا طيباً . والأمر الذي كان سبباً في أن رفض الله تعالى قبول صدقاتهم أنهم كفروا بالله ورسوله ، وهم يدعون أنهم قد أسلموا وهم في ادعائهم هذا كاذبون ؛ فلو كانوا قد أسلموا ما أقبلوا على الصلاة وهم كسالى مترددون لا خشوع لهم ولا وجود ولا استحضرار في الصلاة ، كأنهم خُشب مسندة . إنهم في الحقيقة أموات وإن كانوا يتحركون . وإن أنفقوا ارتعدت أيديهم لأنهم لا ينفقون إلا مكرهين فقد غطى النفاق على بشريتهم فأغرقهم في الظلمات .

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾

فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم يا محمد . ولا تتساءل أنت وأصحابك عن دنياهم فهي زيف . إن الله يريد أن يعذبهم بها في الآخرة وهما (أى الأموال والأولاد) استدراج وفتنة لهم فيها هم فيه . والآية نظير قوله تعالى ﴿ أَيْحَسِبُونَ أَنَّنا نمدهم به من مال وبنين ﴾ *

سُورَةُ التَّوْبَةِ

نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴿١﴾ ونظير قوله تعالى أيضًا ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ ﴿٢﴾ .
وهؤلاء الكافرون يحلفون بالله كذبًا أنهم من المؤمنين الموحدين معاشر أهل الإيمان ،
والحقيقة أنهم قوم يفرقون أى يخافون « أن يُظهروا ما هم عليه فيقتلوا » ، ﴿٣﴾ فلا
تصدقوهم فإنهم أعداء لكم . وهى نظير قوله تعالى ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد
إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ ﴿٤﴾ .

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

إنهم أى المنافقين لو يجدون حصنًا يهتمون فيه أو مغارات بعيدة في الجبال أو مَدْخَلًا
(أى نفقًا) داخل الأرض لأسرعوا إلى كل هذه الأماكن يدارون أنفسهم فيها منكم ،
« أى يسرعون في ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرهًا لا محبة وودّوا أنهم لا يخالطونكم
ولكن للضرورة أحكام ، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم لأن الإسلام وأهله لا يزال
في عزّ ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سُرّ المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون ألا يخالطوا
المؤمنين » . ﴿٥٥﴾ و ﴿ يجمحون ﴾ أى يسرعون .

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ
يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا
اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

إن من المنافقين يا محمد من يعترض على فعلك في الصدقات . إنهم إن كان لهم
منها نصيب رضوا . ولكنهم لعدم قناعتهم في نفوسهم يعارضون عملك في الصدقات
لأنهم يريدون أن تميزهم على غيرهم . وحاش لله أن يفعل رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - إلا الحق والعدل والخير بما أمره الله سبحانه وتعالى . فما عليك يا محمد

(١) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ .
(٢) طه : ١٣١ .
(٣) القرطبي ج ٨ ص ١٦٤ .
(٤) المنافقون : ١ .
(٥) ابن كثير ج ٢ ص ٣٦٣ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

من ضعاف الإيمان الذين إذا أعطوا رضوا وإن مُنعوا غضبوا وضلوا عن الحق الذي أنت عليه . ولو أنهم رضوا بقسمة رسول الله لهم وأخذوا حقهم عن رضا وحب وإيمان بالله وبرسوله لكان خيراً لهم ، فما عطاء الرسول إلا عطاء الحق سبحانه وتعالى ، ولا يفعل ذلك إلا المؤمن الراغب إلى الله المبتغى وجهه . والفعل يلزم معناه يعيب والمعنى أنهم يعبون فعلك يا محمد .

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

إن الصدقات لثمانية أصناف من المسلمين ، وفي هذا ردٌّ على اعتراض بعض من يلزم محمداً - صلى الله عليه وسلم - في أمر الصدقة وكيفية توزيعها حيث تولى الله تعالى بنفسه عملية توزيعها وتقسيمها في القرآن الكريم .

والفقراء هم أشد الناس احتياجاً من غيرهم ، فهم الذين لا يجدون قوت يومهم وعيالهم وأزواجهم لشدة فاقتهم وحاجتهم . أما المسكين فهو الذي عنده ولكن ما عنده لا يكفيه . أما ﴿ العاملين عليها ﴾ فهم الجامعون للزكاة . و ﴿ المؤلفة قلوبهم ﴾ هم الذين لا يتمكن إسلامهم حقيقة إلا بالعطاء ، فلا مانع أن تتألف قلوبهم بالمال^(١) . أما قوله ﴿ وفي الرقاب ﴾ ، فيجوز عتق المؤمن المملوك . ويجوز دفع الديات عن المسلمين المثقلين بالديون والمحكوم عليهم بالديات والحجوزات وما يماثله ويكون ذلك عن عجز .

أما ﴿ الغارمين ﴾ في الآية فهم أقسام كما يقول ابن كثير : « فمنهم من تحمل حَمَالَةً أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بهاله أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم »^(٢) .

وأما ﴿ وفي سبيل الله ﴾ فمنهم « الغزاة »^(٣) . وعند الإمام أحمد أن الحج من سبيل

(١) وفي تحديدهم أقوال عديدة . انظر : القرطبي ١٧٨ / ٨ .

(٢) ابن كثير ج ٢ / ٣٦٥ . (٣) انظر : القرطبي ١٨٥ / ٨ .

سُورَةُ الْبُنْيَانِ

الله . أما ﴿ ابن السبيل ﴾ فهو المغترب المقطوع به الطريق المسافر إلى بلد آخر ليس معه شيء ، فيعطى من الصدقات ما يعينه على نفقة سفره حتى يرجع إلى بلده وإن كان ذا مال .

وتلك الأبواب الثمانية فريضة على المسلمين القادرين فهي حكم مقدر بتقدير الله وحده ﴿ والله عليم حكيم ﴾ .

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

إن من المنافقين فريقاً يدعى الإسلام إعلاناً أمام الناس . لكن سريرتهم مظلمة وقلوبهم مغلقة على ظلام دامس ، فهم يؤذون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويجرحونه بالكلام فيه ويقولون عليه : هو أذن أى سماع ومصدق لكل من يحدثه شيئاً فكل من يقول له شيئاً عن فلان صدقه وإذا حلفنا - نحن - له كذب الأولين وصدقنا . ولكنه - صلى الله عليه وسلم - خير من يستمع القول فيقدره ويزنه وينزله منزلته . فالحق عنده مقبول والباطل مرفوض ، فالله وليه وهو سبحانه يتولى الصالحين الذين يصدقون رسول الله ويعادون من يكذبه ويعلمون بيقين أن رسول الله أذن خير يصدق المؤمنين ويثق في مشورتهم ويحذر الكفار والمنافقين . ألم يتلق بأذنيه كلمات الله الخالدة وكذلك بقلبه وحواسه ؟ وحقاً ﴿ الذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ .

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾

درج المنافقون على إيذاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو منصرف عنهم . وما يزالون يؤذونه وهو يراجعهم ويقول ما بال أقوام يقولون أو يفعلون كذا وكذا . والمنافقون معروفون بنفاقهم ومداھنتهم ومواجهتهم أمام المسلمين المؤمنين بأكثر من وجه

سُورَةُ التَّوْبَةِ

فيحلفون أنهم مع المسلمين ليرضوهم ويقفوا موقفاً معادياً لله وللرسول بعد ذلك أمام أنفسهم وأمام الآخرين ناسين أنه من يعاد الله ورسوله ويحاربه ويخالفه فإن له نار جهنم خالداً فيها ، فويل للمنافقين من لقائه . أما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن معه ففي رضوان من الله ونعمه .

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا
إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا
نُخَافُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾
لَا تَعْنَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً
بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾

المنافقون دائماً يرتعدون لما يفعلون وما يفعلون ، فالشيطان يزين لهم فيقول بعضهم لبعض إننا نخاف أن ينزل الله سورة على محمد فتشتر عنا قبح أفعالنا وتفضح سرائرنا .
وعندها يعود الشيطان يشبط عزائمهم فيظلون في نفاقهم يتخبطون وفي بغيتهم يترددون .
وهذه هي عاداتهم الدائمة ووجه نفاقهم القبيح . فلا تعتذروا أيها المنافقون فلا بد أن نعذبكم ولا يُعفى عن جميعكم بسبب مقالاتكم الفاجرة الخاطئة المجرمة .

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَنَارَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٨﴾

إن من خصال المنافقين أنهم ينهون عن المعروف ويصدون عنه ويأمرون بالمنكر ،
ويمسكون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله ، فعاملهم الله بمثل معاملتهم : نسيهم ،
ومن ينسه الله فقد خرج من رحمته والعياذ بالله . إن المنافقين هم الفاسقون أى الخارجون
عن طاعة الله الداخلون في الضلالة . إنهم والكفار في نار جهنم خالدون فيها .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَادُهُمْ
فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٦﴾ أَلْقِيَانِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ
وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٦٧﴾

يحذر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يفعلوا فعل اليهود والنصارى ، فيضلوا
ويقترفوا من الآثام ما اقترفت الأمم من قبلهم سواء اليهود أو النصارى أو غيرهم من
الأمم التي ضلت طريق أنبيائها فخاضوا في طريق الضلال .

هذه الفرق قد ضلت طريقها وخسرت أعمالها في الدنيا والآخرة . ثم يستمر الحق في
تذكير الأمة المسلمة فيقول : ألم تصلحكم أنباء قوم نوح عليه السلام وكذلك عاد وثمود
وغيرهم ١٩

كل هؤلاء الأقوام حاربت رسلها فكانت عاقبتهم الخسران في الدنيا والعذاب في
الآخرة وتلك عاقبة الضالين عن طريق الأنبياء والمرسلين أولئك ليس لهم إلا النار وبئس
مثوى المنافقين المتكبرين .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ
وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

إن حكم الله سبحانه وتعالى بأن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يبين دور

سُورَةُ التَّوْبَةِ

الوحدة بين المسلمين وأهميتها ، وأن الفرقة في الرأي بين المسلمين مضيعة لجهودهم مثبطة لعزائمهم ، فما كان نصر المسلمين الأوائل حول رسول الله إلا لأنهم كانوا كالسوار حول المعصم . وبذلك أصبح من أوجب واجبات المسلم العامل توحيد صفوف أمتة والعمل الدءوب على إلغاء الفرق والطرق والتقسيمات التي تعدد الجماعات في الأمة فتضعف وحدتها وتبدد قوتها . وليكن لنا معاشر المسلمين درس من حكمة صلاة الجماعة والترغيب في إقامتها بالمساجد . إن هذا يؤكد لنا أن الإسلام قوته في تلاقى أفراد جماعته صفوفًا مترابطة حول كتاب الله نتلو آياته في ركعاتنا في تلاق وحب . فهل آن الأوان لأن ننظر في أمر الأمة وأين هي من كتاب الله ومن وحدة صفها حوله في إثناء وحب واجتهاد وعمل ؟ وعد الله عباده أهل الإيمان والتوحيد والصدق في القول والعمل في السر والعلن جنات تجري من تحتها الأنهار هم فيها خالدون ، ولهم فيها مساكن طيبة في جنات عدن ، ولهم أكبر من ذلك فيها وهو رضوان الله عليهم وذلك هو الفوز العظيم .

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ
وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا
بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَثَمَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ
فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ يَسْتَوُوا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

أمر من الله العزيز الحكيم إلى نبيه بأن يجاهد الكفار والمنافقين ويشدد عليهم ، فإن جهنم مثواهم بنفاقهم ومقاومتهم للحق وبئس المصير . إنهم يخلفون بالله كذبًا وقد قالوا ما يغضب الحق سبحانه وتعالى من قول يخالف صدق الإيمان ونزاهة التوحيد . إنهم بظلمة قلوبهم كفروا بعد أن أعلنوا أنهم آمنوا فلم يكن لهم إسلام ولا إيمان . إنهم كفروا بعد إسلامهم وبعد أن أغناهم الله من فضله ، فما مصير من يفعل ذلك إلا أن يتوبوا بصدق وندم على ما وقع منهم من نفاق . إنهم إن فعلوا ذلك : يكن خيرًا لهم ، وإن تولوا وأعرضوا عن التوبة والاستقامة فسوف يعذبهم الله عذابًا أليمًا في الدنيا والآخرة ، وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا آتَيْنَاهُم مِّن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ٧٥ ﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ٧٦ ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ٧٧ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ٧٨

ومن الناس الذين أسلموا من قالوا لو أتانا الله الرزق الواسع والمال العريض لنصدقن وسوف نكون من الذين صلح أمرهم مع الله ، ولكن لما أتاهم الله من فضله لم يفوا بما وعدوا وتولوا عن طاعته وهم معرضون عنها ، فأعقبهم ذلك نفاقاً في قلوبهم وسيظل لهذا النفاق ظلمة مخيمة عليهم حتى يلقوا الله يوم القيامة وهم في خزيهم يتقلبون في ظلمات إثمهم وبغيهم .

ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب سبحانه من عليم خبير يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

إن الله سبحانه وتعالى لا يزال يفضح المنافقين وسرائرهم ، فيعيب عليهم نقدهم ولمزهم بالمتصدقين واعتراضهم عليهم ، بعد أن فضحهم الله في بدايات السورة عندما قال ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ ، فإن تصدق الفقير بالقليل عرضوا به وإن أنفق الغنى قالوا مرء . ثم يقول الحق لنبيه :

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

يقول الحق لنبيه استغفر لهم أو لا تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم ، فليسوا جديرين ولا أهلاً بهذا الاستغفار منك يا محمد . وكلمة السبعين في الآية : لا يقصد بها التحديد

سُورَةُ التَّوْبَةِ

ولكنها مبالغة من العرب في كلامهم وعدم المغفرة لهم بسبب أنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين .

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

يذم الحق - سبحانه وتعالى - المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الخروج للقتال في غزوة تبوك ، وبخلوا وآثروا أن يمسكوا بأموالهم ضناً بها في سبيل الله وتعللوا بأن الجو حار . ويقول لهم رب العالمين إن نار جهنم أشد حراً ، ولو عقلوا لعلموا أن قيظ الحر في الدنيا له ما يربطه ولكن نار جهنم ليست بمنتھية .

إن المنافقين والكافرين خالدون فيها لا يخفف عنهم من عذابها ، وسيضحكون في الدنيا والدنيا قليلة مهما طالت ، والعبرة بمن يأتي مستبشراً يوم القيامة بما قدمت يداه ، والويل لمن يشاهد الموقف الشديد فيها ، إذ لا ولد يشفع له ولا والد . إنه يوم عصيب كل امرئ بما كسب رهين . وحقاً ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون﴾ .

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

يقول الحق لرسوله - صلى الله عليه وسلم - إذا عدت ومن معك من المؤمنين وجاءك طائفة من المنافقين فاستأذنوك ليخرجوا معك للجهاد فقل لهم لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ، لأن شرف القتال لا يناله إلا الذين استقاموا على أمر الله . إنكم رضيتُم بالقعود وخالفتم رسول الله فاقعدوا مع الخالفين الذين اشتروا الدنيا بالآخرة .

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقِمِ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وَمَا تَوْأَاهُمُ فَسِقُوتٌ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ
بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

احذر يا محمد أن تصلى على أحد منهم مات ولا تمش في جنازته ولا تقم على قبره ،
فقد فتحت لهم عرصات جهنم لأنهم كفروا بالله وتعالوا على الإيمان به وكذلك كذبوا
رسوله وحادوا عن الطريق المستقيم وفسقوا عن الحق وانغمسوا في نفاق الضالين فماتوا
وهم كافرون . فالنفاق أشد من الكفر لأن الكافر صريح في عداوته والمؤمنون يحذرونه
ويتجنبون طريقه ، أما المنافق فيخدع ويرaug حتى يوقع بالمؤمنين الصادقين ، فاحذرهم
يا محمد حتى وهم في سكرات الموت ، واحذر أن تعجبك أموالهم فإنها رجس يغريهم بها
الشیطان ليوقعهم في قاع جهنم ، واحذر كذلك أن تعجبك أولادهم إنما يريد الله أن
يعذبهم بها في الدنيا فيعصوا الله بها .

وعدم صلاة النبی - صلى الله عليه وسلم - على ميت منهم فيها فوات كبير للخير
تجاه هذا الميت . لم لا وهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة والشفيع يوم العرض على الله .
والصلاة رحمة ودعاء .

وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولَؤُلَاطُولِ
مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ
وُطِيعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

إن الذين تخلفوا عن رسول الله وقعدوا عن الجهاد وهم قادرون عليه ، قد تلبست
نفوسهم بعار النفاق والتقاعس عن طريق أهل التوحيد الصادقين ، ورضوا بأن يكونوا
مع الخوالف من النساء والأطفال والشيخوخ ، فإذا كان القتال كانوا أجبن الناس ، وإن
كان أمن كانوا أول المتحدثين كلامًا . وهى نظير قوله تعالى ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ﴾

سُورَةُ التَّوْبَةِ

ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم
بالسنة حداد^(١)

فسبحان الله خلق الحق وأهله وخلق الباطل وأهله . سبحانه حكم عدل لا يسأل
عما يفعل لا إله إلا هو . فبعد أن عدّد مساوئ وذنوب المنافقين ، بين أن الرسول
والذين آمنوا معه جاهدوا وبذلوا المال والنفس والولد والوقت والجاه في سبيل الله بغير
من ولا خيلاء ، ولكن في تواضع وحب لله ثم لرسوله والمؤمنين . وقرر أن أولئك الخيرين
الطيبين أهل الصلاح والفلاح بما عملوا وقدموا من الصالحات هم الخيرون فعلاً وهم
المفلحون حقاً مقابلةً بموقف المنافقين الجبناء الذين رضوا لأنفسهم الذل والعار والقيود
مع النساء .

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾

وجاء إلى رسول الله المتخلفون عن الجهاد من الأعراب يعتذرون له عن تخلفهم عن
الجهاد . والآية توضح حال هؤلاء المعاذير في ترك الجهاد . فمنهم من قبل النبي عذره
ومنهم من لم يقبل . وفريق آخر تخلف حتى عن المجيء للاعتذار إلى النبي هؤلاء هم
الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴿١٠﴾ .

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ
خَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ
مَأْجِلَكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا
مَا يُنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ
رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

(١) الأحزاب : ١٩ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

إن الجهاد في الإسلام فريضة على من أنعم الله عليه بالصحة والعافية والمال ، فأولئك إذا تقاعسوا عن الجهاد والدعوة إلى دين الله وإقامة دولته وتطبيق شريعته كانوا مقصرين ومستولين عن تقصيرهم في حق دينهم وشريعتهم . وإن أهل الإسلام كما يُسألون عن الصلاة والصيام والزكاة والحج وحسن توحيدهم لله وصدق عبوديتهم له سبحانه وتعالى ، فكذلك يسألون عن تعطيل شعائر دينهم وعن ضلال حكامهم وعن التوقف عن الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى . فالجهاد في سبيل الله الركن السادس من أركان الإسلام ، وحقاً قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ (١) .

فالحق سبحانه وتعالى يستثنى من الأمة الضعفاء والمرضى وكذلك الفقراء الذين لا يجدون من المال ما يبذلونه في سبيل عدة القتال ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ (٢) - ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ (٣) .
« ليس على كل هؤلاء حرج إذا عرفوا الحق وأحبوا أوليائه وأبغضوا أعداءه » (٤) .

قال العلماء : « فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعداء وما صبرت القلوب ؛ فخرج ابن أم مكتوم إلى أحد وطلب أن يُعطى اللواء فأخذه مصعب بن عمير فجاء رجل من الكفار فضرب يده التي فيها اللواء فقطعها فأمسكه باليد الأخرى فضرب اليد الأخرى فأمسكه ب صدره وقرأ ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ (٥) هذه عزائم القوم » (٦) . إن الذين صدقت نياتهم في الله يسألون عن الدعوة إلى دين الله . ومن هؤلاء المستثنى من أمر الجهاد هؤلاء النفر الذين جاءوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستحملونه إلى المعركة ، أى يطلبون إليه أن يرفعهم على الظهور أو يوفر لهم أحمالاً يذهبون ، بها فقال لا أجد ما أحملكم عليه ، هؤلاء أراحهم الله وسمح بقبول عذرهم لكن بشرط صفاء النيات والإخلاص القلبي لإخوانهم المسلمين في المعركة ، فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً على عدم مشاركتهم في الجهاد ، ولم يفرحوا بمجرد أن وجدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غير قادر على توفير حمولة لهم .

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

(٣) النور : ٦١ .

(٤) القرطبي ج ٨ ص ٢٢٦ .

(٥) آل عمران : ١٤٤ .

(٦) انظر تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٢٦ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

كل هؤلاء المستثنين في الآية ما عليهم من سبيل أى من عقوبة وإثم ، والله غفور رحيم .

ثم يبين الحق بعد ذلك أن السبيل أى العقوبة والإثم على الأقوياء في المال والصحة غير ما ذكر في أول الآية . هؤلاء رضوا أن يكونوا مع الخوالف . لقد طبع الله على قلوبهم ، فهم لا يعلمون مكانة الجهاد والمجاهدين ، غافلون عن الحق واتباعه .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُتَعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ سَيَحْلِفُونَ لَكُمْ لَنُتَعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

حين رجع الرسول - صلى الله عليه وسلم - من ميدان الشرف والقتال مع الذين آمنوا وصدقوا ، أخذ المنافقون القاعدون عن الجهاد يعتذرون وينتحلون أسبابا لتخلفهم ، فيقول لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تعتذروا ، فقد أخبرنا الله خبركم ونبأنا عن نفاقكم وستعرضون على الله وأسراركم مكشوفة وكتبكم منشورة وسرائركم مفضوحة ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ، ويومها تشهد عليكم جوارحكم وعندها تهلكون بما ظلمتم به أنفسكم » . وأى ظلم أعظم من معصية الله ثم معصية رسوله ؟ ! فيأبى المؤمنون لا تصدقوا المنافقين واحذروهم ، سيحلفون بالله ، فلا تصدقوهم ، وأعرضوا عنهم واجتنبوهم ، إنهم رجس وما واهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن الله غير راضٍ عنهم إن الله لا يرضى عن قوم فاسقين والله من ورائهم محيط .

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ

سُورَةُ الْاَعْرَابِ

الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ
الرَّسُولِ إِلَّا إِنِّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾

الأعراب هم سكان البادية ، وقد عرف عنهم أنهم ذوو بأس وغلظة في أنفسهم وعلى
غيرهم قساة الطبع أجلاف .

والحق سبحانه وتعالى يخبر أن في الأعراب كفارًا ومنافقين ، لكن كفرهم ونفاقهم
يفوق غيرهم ، وقليل منهم مؤمن يعلم حدود الله فيتيقيه . كذلك من الأعراب من يمتنّ
بما ينفق ويتربص بالمؤمنين ولكن الله يجعل السوء عليهم هم ، وسبحانه سميع عليم .
كذلك منهم من يصدق في إيمانه وتوحيده وينفق حبًا في الله ثم يتخذ من أعمال الرسول
وصلواته قدوة فيعمل خوفًا ورجاء في الله وأملًا في دعاء الرسول لهم . وصلوات الرسول
في الآية : بمعنى دعاء الرسول لهم ، وكل ذلك حاصل لهم وباق عند الله لأنهم داخلون
في رحمته ، إن الله غفور رحيم .

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢٠﴾

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، الذين هاجروا
قبل رسول الله ومعه وبعده إلى المدينة ، وكذلك أصحاب الهجرة الأولى إلى الحبشة ،
وعلى رأسهم الصديق - رضى الله عنه - صاحب رسول الله في الغار ومستشاره الأول
وحبيبه الأوفى - كل هؤلاء رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وقد أعد لهم جنات تجري من
تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ النَّفَاقِ
لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٣﴾

إن الله سبحانه لا يترك رسوله حتى ينبهه إلى ما حوله من المنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون سواء أكانوا من الأعراب أم من أهل المدينة وأولئك قد مارسوا النفاق فهم يقولون غير ما يبطنون فما عليك منهم يا رسول الله ، إن الله معك يعرفك إياهم لن يضروك فإن وليك الله ومن كان الله وليه فما عليه من الناس . وهؤلاء سنعذبهم مرتين يعنى « القتل والسبى » (١) ثم عذاب شديد يوم القيامة .

يقول ابن كثير « لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكديبا وشكا ، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق ، فقال ﴿ وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ، ولهم أعمال أخرى صالحة خلطوا هذه بتلك ، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه . وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثرين » (٢) .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

إن الله جعل في أموال الأغنياء قسما للفقراء ، والصدقة المعلومة هى الزكاة المحدودة وتخرج من المال إذا بلغ نصابه المستحق عليه . وهناك صدقة غير محدودة وهى حسب سخاء النفس ورغبتها فى الخير . وهذه الصدقة تطهر صاحبها وتباركه وتبارك له فيها عنده . والرسول يأخذ الصدقات ويصلى على أصحابها أى يدعو لهم بالبركة والنماء ، ويخلفه فى ذلك الحاكم المقيم لأحكام الشرع الحارس لدين الله . ثم يعلن الحق أنه يقبل

(١ ، ٢) ابن كثير ٢ / ٣٨٥ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

التوبة عن عباده ترغيباً في الرجوع إليه والتوبة له ، وهذا « تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها . وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد » (١) .

وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَسِيرَ إِلَهُكُمْ وَعَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّوكَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ وَآخِرُكُمْ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾

وكان تلك الآية تنذر الذين لا يطيعون الله في كل ما أمر به من عبادات جسدية أو مالية أو جهادية أو أخلاقية ! إذ هي عامة في كل أمر ونهى .
فالحق يخبر أن أعمال العباد ستعرض عليه سبحانه وتعالى وعلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وعلى المؤمنين ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ (٢) .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِّلْمَسْجِدِ أُسُسٌ عَلَىٰ الشَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ يَحِبُّ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارٍ يَهُوَ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾

إن المنافقين اتخذوا مسجداً ليضروا به الذين آمنوا وليفرقوا به بين المسلمين ، كما اتخذوه مرصداً لمحاربة المسلمين .

(١) ابن كثير ٢ / ٣٨٦ . (٢) الحاقة ١٨ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

يقول الإمام القرطبي: « قال أهل التفسير: إن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه ، فحسدهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا : نبني مسجداً ونبعث إلى النبي يأتينا فيصلى لنا كما صلى في مسجد إخواننا . . فأتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا يا رسول الله قد بنينا مسجداً لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة ونحب أن تصلى لنا فيه وتدعو بالبركة . فقال - صلى الله عليه وسلم - إني على سفر وحال شغل فلو قدمنا لأتيناكم وصلينا لكم فيه . فلما انصرف النبي - صلى الله عليه وسلم - من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد ، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم ، فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضرار ، فدعا النبي - صلى الله عليه وسلم - مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشيًا قاتل حمزة فقال « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه » فخرجوا مسرعين . . . ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه . وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً » . ثم يخبر الحق نبيه ألا يقيم فيه أبداً لأن من أقاموه إنما هم مدلسون كاذبون منافقون ، وإن المسجد الذي يليق بصلاتك يا محمد إنما هو مسجد أسس على التقوى من أول يوم ، إنه لمسجدك يا محمد الذي بناه معك رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

إن عمل المنافقين والمرائين سيظل علامة على خبث سرائرهم وظلمة قلوبهم كما قال عز وجل ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ﴾ فسحقاً لهم بما ظلموا وطوبى لمن صدق مع الله وعده وصفى قلبه ونقاها للعمل بدينه وشريعته .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ التَّيْبُوتُ
الْعِيدُوتُ الْحَمِيدُوتُ السَّكِينُوتُ الرَّكْعُوتُ السَّجْدُوتُ
الْأَمْرُوتُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُوتُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُوتُ لِحُدُودِ اللَّهِ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

سُورَةُ التَّوْبَةِ

إن الله سبحانه وتعالى يعلن رضوانه وحبّه للذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر ،
ويقرر أن نفوسهم وأموالهم له سبحانه وتعالى ، إن الصفقة هي الجهاد وإن الثمن هو
الجنة . فالمؤمن يساوى الجنة في تقدير الله والجنة تساوى المؤمن وبذلك يرفعه الله إلى
مصابف ﴿الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ .

إن هؤلاء المؤمنين قد باعوا لله بصدق فاشترى سبحانه ، فنعم البيع بيعهم ونعم
الشراء شرائه . والشراء أنهم قالوا ربنا الله ثم استقاموا على الحق على ما بين دفتى الكتاب
العزیز وبيان الرسول فكانت تلك صفاتهم . إنه اشترى منهم نفوسهم وأموالهم بأن لهم
الجنة ، ثم قدم تسع صفات هي مقامهم في منازل السالكين إلى الله عن طريق الإسلام .
منازل تسعة يرتقون فيها حتى يكونوا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن
أولئك رفيقا . فكيف نجتاز تلك المواقف كلها ؟ إنها كلمة واحدة ، كلمة حق قررها
الله لعباده الذين اصطفى ، إذا قالوها كانت لهم الجنة وكانوا عباد الله المخلصين ، إذا
قالوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد عبده ورسوله ، إذا أخلصوها وصدقوا فيها
فقد باعوا لله والله قد اشترى . كلمة الإخلاص كلمة التوحيد . كلمة يخرج بها العبد من
الظلمات إلى النور فتصفو عبوديته ويصدق حبه لله فيطيع الله ويطيع الرسول فيصبح مع
الذين أنعم الله عليهم . من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

إنه شراء رابح لتجارة طيبة أحد طرفيها المخلصون الموحدون ﴿الذين يذكرون الله
قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ ^(١) والذين قال لهم
ربهم ﴿لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ ^(٢) ذلك عهد
الله لهم ومن أوفى بعهده من الله ؟ لا أحد أوفى بالعهد من الله .

«والتائبون ﴿هم الراجعون عن الحالة المذمومة في معصية الله إلى الحالة المحمودة
في طاعة الله والتائب هو الراجع . . . العابدون ﴿أى المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم
الله سبحانه . . . والحمدون ﴿أى الراضون بقضائه . . . السائحون ﴿: الصائمون . . .
الراكون الساجدون ﴿يعنى في الصلاة المكتوبة . . . الأمرون بالمعروف ﴿أى

(١) آل عمران : ١٩١ .

(٢) آل عمران : ١٩٥ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

بالسنة وقيل الإيمان . . . و ﴿الناهون عن المنكر﴾ قيل عن البدعة وقيل عن الكفر .
و ﴿الحافظون لحدود الله﴾ أى القائمون بها أمر به والمتتهون عما نهى الله عنه « (١) » .

مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

يذكر ابن كثير رواية لسبب نزول الآية (١١٣) فيقول : « قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال « أى عم ، قل : لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال أنا على ملة عبد المطلب . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فنزلت هذه الآية (٢) .

أما الإمام القرطبي ، فيقول « روى النسائي عن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : أتستغفر لهما وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه ؟ فأتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكرت ذلك له ، فنزلت ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ . والمعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم الخليل لأبيه ؛ فإن ذلك لم يكن إلا عن عِدَّة « (٣) » .

(٢) ابن كثير ٢ / ٣٩٣ .

(١) انظر تفسير القرطبي ٨ / ٢٦٩ .

(٣) القرطبي ٨ / ٢٧٤ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا
لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

إن الله سبحانه وتعالى لا يضل الناس بعد إذ هداهم إلى دينه وطريقه . وهو يبين لهم
أسباب النجاة وطريق التقوى وبعد ذلك يسألهم ويحاسبهم وهو بكل شيء عليم . والله
سبحانه له ملك السموات والأرض ليس له فيها شريك ، فاحذروا غضبه وليس لكم
من دونه من ولي ولا نصير .

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾

قيل إن التوبة التي تابها الله على النبي والمهاجرين والأنصار هي من أجل إذن
الرسول - صلى الله عليه وسلم - للمنافقين أن يقعدوا عن الجهاد ويتخلفوا عن الحرب .
وقيل التوبة في الآية هي خلاصهم من نكاية العدو . و ﴿ساعة العسرة﴾ أي جميع
أوقات الغزوات العسيرة التي شهدتها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من
بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم عن الحق ويشكون في دين الله والرسول بسبب
ملاقوه من شدة وعسر في هذه الغزوات ، لكن الله لا يترك عباده ضالين فسرعان ما
يأخذهم إليه برحمته وحنانه ، وحقاً ﴿تاب الله عليهم إنه بهم رءوف رحيم﴾ .

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ
عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ
اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

هؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك ومرة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وكلهم من الأنصار ، هؤلاء الثلاثة لم تكن تقبل توبتهم وأخر النبي - صلى الله عليه وسلم - هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن .

يقول القرطبي : قال كعب : كنا خُلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله عز وجل ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلفنا تَخَلُّفًا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه « (١) » .

إن من شدة ضيق هؤلاء الثلاثة أن ضاقت عليهم الأرض على اتساعها لأنهم كانوا يعاملون معاملة قاسية من المسلمين لا يكلمون ولا يعاملون بل كانوا منبوذين مهجورين ، « وفي هذا دليل على هجران أهل المعاصي حتى يتوبوا » (٢) .

وفي هذا درس للعاصي المذنب المقترب الذنوب والآثام أن يسرع في العودة إلى الله حتى ينال رضا الله ورضا المجتمع ويعيش بينهم كائنًا حيًا غير منعزل ، فالعزلة الحقيقية هي الانقطاع عن الله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١﴾

أمر بالتزام الصدق واتباع طريقه وبتقوى الله وخشيته وهذا من كمال الإيمان .
عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا . وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا » (٣) .

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ؕ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٨٢ . (٢) القرطبي ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٣) رواه الإمام البخارى فى الأدب ، ومسلم والإمام أحمد والترمذى .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

مَخَصَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ
مِنْ عَدُوِّ نَبَلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا
إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

لم يكن من صالح أهل المدينة ولا لصالح الأعراب من حول المدينة أن يتخلفوا عن
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك ، وما كان ينبغي لهم أن يفعلوه ورسول
الله في مشقة وعسرة . وإن الذين خرجوا مع رسول الله ولَبَّوا النداء والجهاد بآرك الله لهم
ورضى عنهم ، ذلك لأنهم لم يسيروا سيرا يقطعون به وديانا أو طرقا أو يصيبهم ظمأ
وعطش شديد ولم يصبهم تعب ومشقة في الغزوة أو مخمصة أى مجاعة ولا ينزلون أو
يدوسون أرضا مما يغيظ أهل الكفر والشرك بسبب دخولهم هذه الأرض ولا يقتلون العدو
ويقتصون منه ، لا يفعلون واحدة من هذه إلا وكتب لهم بها أعمال صالحة وجزاؤهم في
الدنيا والآخرة رضا الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . والله لا
يضيع أجر المحسنين .

﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ
لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ﴿١٠٦﴾

ليس على المؤمنين أن ينفروا للجهاد كلهم فلا بد من أن يكون في القتال جماعة تخلفهم
جماعة أخرى هم المقيمون خارج القتال لإدارة شئون المعاش والنظام . وكذلك لابد من
انقطاع جماعة للتفقه في الدين حتى يكون منهم الدعاة والفقهاء العارفون في علوم الشرع
والدين .

والمسلمون مكلفون بدراسة كل علوم الدنيا والدين معاً لأنهم مكلفون من الله
بحراسة الدنيا . وما أصابنا من تقاعس وتخلف ما هو إلا تقاعس عن الدراسة
والتحصيل والعلم والمعرفة التى هى أساس من أسس الشريعة الإسلامية . ولم تكن
هناك شريعة إلا بدراسة هذه الشريعة والتفقه فيها حتى تنفذ على أكمل وجه . وحقاً

سُورَةُ التَّوْبَةِ

قولُ رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم - « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة » (١) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٢﴾

هذا أمر صريح من الله أن يقاتل المؤمنون الكفار أولاً فأولاً الأقرب من العدو ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - بدأ بالكفار من العرب ثم الروم والفرس . وليجدوا في المؤمنين غلظة وشدة ومجافاة حتى يرتدعوا ولا يغتروا ولتكن فيكم حمية الغيرة على الإسلام ومحارمه .

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ أَنََّّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾

يقرر الحق في هذه الآيات حال المؤمنين والكافرين عندما يتنزل القرآن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يتلوه عليهم . فالمؤمنون يزدادون بها يسمعون إيماناً ومعرفة ووصولاً للحق الذي نزل ، فانشرحت صدورهم وفاض نور الإيمان واليقين من قلوبهم فنور وجوههم وشرح صدورهم فازدادوا بعد ذلك حباً ووثوقاً وقرباً بحضرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - . أما المنافقون وهم أصحاب القلوب المريضة والنفوس الخبيثة فلم يزدادوا بسماعهم للحق إلا رجساً أى شكاً إلى شكهم وكفراً إلى كفرهم . وذلك أمر يقع لأصحاب الوسواس والباطل ، يفتنون في المعاش أو في المرض أو ضيق ذات اليد

(١) رواه الترمذى كتاب العلم ، باب : فضل العلم . وقال : حديث حسن .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

فلا يذكرهم ذلك بالله ، وبدلاً من أن يتوبوا ويستغفروا ربهم إذا هم مصرون على الباطل والمعصية .

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ
أَنْصَرَفُوا صَرَفَ آلِهَةٍ قُلُوبِهِمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

إن من عادة المنافقين أن يتلفتوا خلفهم وأمامهم احتراساً من أن يراهم أحد وهم في إثم نفاقهم يترددون . فإذا حضروا إلى الرسول ووجدوه يتلوا قرآناً مذكوراً فيه فعلهم فاضحاً لهم وكاشفاً سرائرهم ، ينظر بعضهم إلى بعض نظرة رعب وخوف ويتساءلون فيما بينهم هل يراكم أحد عندما تتكلمون عن محمد فينقل له أحاديثكم ؟ وهذا استمرار لجهلهم لأنهم مازالوا حتى هذه اللحظة يشكون في محمد ونبوته وإطلاعه على الغيب من جهة ربه بما يشاء سبحانه . حقاً إنهم قوم لا يفقهون .

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

الخطاب هنا للعرب ثم للناس كافة بأن الله بعث لهم أشرف وأكرم رسول ، خيار من خيار من خيار فهو منكم ومن دمائكم وهو بشر رسول ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ﴾ (١) بل هو من أنفسكم (٢) نسباً وحسباً وشرفاً .

عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بنى هاشم (٣) .

(١) الكهف : ١١٠ .

(٢) أفعّل تفضيل من نفيس أى غال وأصيل .

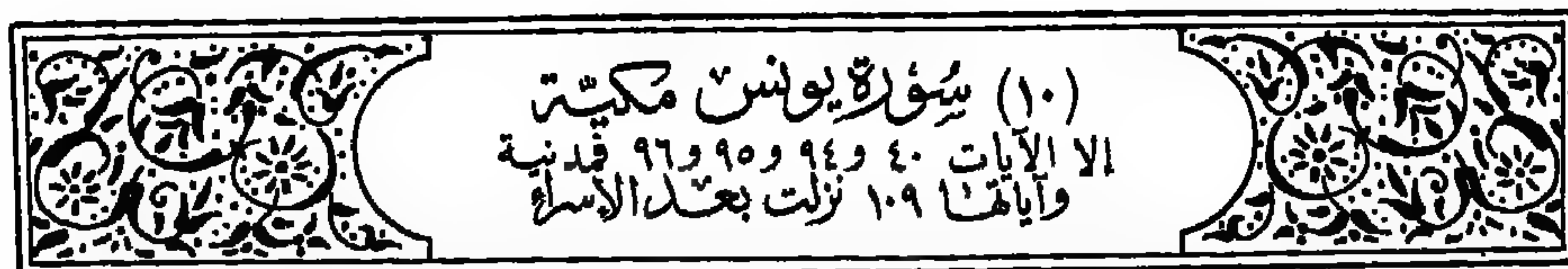
(٣) رواه : مسلم ، كتاب : الفضائل ، باب أفضل نسب النبي - صلى الله عليه وسلم - ، واللفظ له ورواه : الترمذى .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وهو - صلى الله عليه وسلم - عزيز عليه ما عنتم أى « يعز عليه الشئ الذى يعنت أُمته ويشق عليها . وشريعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلها سمحة وهو حريص على إيمانكم وإسلامكم وهدايتكم . بالمؤمنين الموحدين رءوف رحيم كقوله تعالى : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ * فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون ﴾ * وتوكل على العزيز الرحيم ﴿ (١) .

فهل استجبتم له كى تنالوا خير الدنيا والآخرة ؟

هل استجبتم لنداء الله الذى أنعم عليكم فأرسل إليكم رسولا يخرجكم من الظلمات إلى النور ؟ ألم تنظروا كيف وصفه الله سبحانه وتعالى بصفتين من صفاته وسماه باسمين من أسمائه تكريماً له وإعزازاً لعلكم تنزلوه من أنفسكم منزلة التكريم ؟ ويا لشقاوة من لا يكرم من كرمه الله وأعزه ورفعته فوق النبيين والمرسلين !! فإن أعرض الكفار عنك يا محمد بعد كل هذه النعم التى أسبغها الله عليهم وتولى عنك قومك ، فقل حسبي الله لا إله إلا هو اعتمدت عليه وعليه توكلت وهو رب العرش العظيم . وسبحان رب العرش العظيم وسلام عليك يا سيدى يا رسول الله .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾

﴿الر﴾ تلك الحروف التي بُدئ بها في بعض السور قد سبق الكلام عنها في سورة البقرة .

إن آيات الله التي يتألف منها كتابه العزيز الموحى به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هي آياتٌ محكمة من لدن حكيم خبير ، آمن بها من آمن وكفر بها من كفر .
فالفريق الأول قد نجا أما الثاني فقد ضل عن الطريق وحاد عن هدى أنبياء الله كافة وفقد طريق السلام والأمن .

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِדْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

إن الحق - سبحانه وتعالى - ينكر على الكفار تعجبهم من إرسال الله رسلاً من البشر ، وهي نظير قوله تعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - لقومه ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ (١) .

إنه لقسوة في قلوبهم وكبر شيطاني في نفوسهم أن قالوا بكفرهم وضلالهم إن هذا لسحر مبين - ولو هداهم الله لقالوا إنه لبيان عظيم ونور ورحمة من رب العالمين .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ

(١) الأعراف : ٦٣ .

سُورَةُ يُوسُفَ

الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ. ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

يردّ الله تعالى على الذين كذبوا - في الآية السابقة - قدرة الله على بعثه لمحمد - صلى الله عليه وسلم - . وهؤلاء المنكرون هم : المشركون بالله ومعهم النصارى واليهود . وقد أجاب الله على افتراءهم : إن ربكم أيها المنكرون من مشركى العرب والضالين من اليهود والنصارى هو الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على عرش قدرته سبحانه يدبر أمر الكون وأمر السماوات والأرض وأمر الخلائق كلها سبحانه ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴾ ^(١) . « ولا يشغله شأن عن شأن ولا تغلظه المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير فى الجبال والبحار وال عمران والقفار » ^(٢) . كل ذلك لأنه الرب الفعال الواحد الأحد وهو سبحانه المستحق أن يعبد بحق . وليس لسواه أن يعبد ، ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ ^(٣) .

سبحانه إليه مرجع كل الخليقة يوم القيامة ، وكما بدأ خلق الخلق كذلك يعيده وهو أهون عليه ليأخذ كل ذى حق حقه بالعدل والقسط ، ثم يسأل من كفر ويعاقبه بكفره ويسأل من آمن به ويجزيه على إيمانه بجناتٍ وعيون ومقام كريم .

هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

سبحانه هو الخالق للأفلاك الدالة على كمال قدرته وبديع صنعه . وهذه آيات بينات ترد على منكرى البعث والنشور ومنكرى النبوة كذلك . فسبحانه جعل من الشمس والقمر مصدرًا لإحياء الأرض ومشاهدة السموات والنظر فيها ، ما خلق الله ذلك

(١) سبأ : ٣ . (٢) تفسير ابن كثير ٤٠٦/٢ .

(٣) الشورى : ١١ .

سُورَةُ يُوسُفَ

إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا خَلَقَ ذَلِكَ عَبَثًا ﴿١﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿١﴾

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٢﴾

إن في اختلاف الليل والنهار من طول وقصر لآيات معجزة من عند الله ، إلى من يبصر آياته ويتفكر في خلقه وإبداعه ، ثم يقر لله سبحانه بأنه الواحد القهار . فكيف تنسلخ برودة الليل من حرارة النهار؟ وكيف تنسلخ أنوار النهار من ظلمة الليل ؟ إنه هو الله القادر على كل شيء سبحانه عما يصفون .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ إِلَّا مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

إن الذين لا يرجون لقاء الله قد ضلوا طريق النجاة ، فلم يؤمنوا بالله وكفروا بخاتم المرسلين ، وبذلك ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا باطمئنانهم إليها وسكونهم فيها ، وحسبوا أن الدنيا باقية ، وأنها ليست إلى زوال أو خدعوا أنفسهم بذلك . والذين هم معرضون غافلون عن النظر في آيات الله وكونه غفلة استغرقتهم حتى كانوا في الآخرة من الهالكين - إن هؤلاء مأواهم النار جزاء على فعلهم في الدنيا من آثام ومعاص وسيجدون أنفسهم في عرصات جهنم ، وليس لهم من دون الله ولي ولا نصير .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾

هذه حال السعداء المؤمنين بلقاء الله ، يرجون رضوانه حيث لم يطمثوا بالحياة الدنيا

(١) يس : ٤٠ .

سُورَةُ الْيُونُسِ

بل تعلقت قلوبهم بالله ورسوله وشرعه ، هؤلاء لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فيها ما لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . دعواهم فيها ، « أى دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم . وقيل : إذا أرادوا أن يسألوا شيئاً ، أخرجوا السؤال بلفظ التسبيح ويختمون بالحمد » .^(١) وقيل إن الدعاء هنا بمعنى التمنى كما قال الحق ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾^(٢) أى ما تتمنون .

﴿ وَلَوْ يَعِجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

لقد طبع الإنسان بفطرته على العجلة ، وفى حالة الغضب ربما يضر نفسه وهو لا يدري ، وهنا يخبر الحق أنه لا يعجل لهم استجابة الشر كما يستعجلون الإجابة فى حالات الخير ، لأنه هو السميع البصير يعلم السرّ الخفيّ ويعلم أن أكثر ما يعلنه الإنسان فى عجلته وغضبه ليس هو المراد إذا كان فى ثباته واتزانه .

من هنا حذّر الرسول الهادى - صلى الله عليه وسلم - من أن ندعو على أنفسنا وأولادنا فقال : « لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاءً فيستجيب لكم »^(٣) .

يقول القرطبي : « قيل : معناه ولو عجل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب والخير لماتوا » . . وقال أيضاً « لو فعل الله مع الناس فى إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم فى إجابته إلى الخير لأهلكهم » . ثم يقول . . « إنه خاص بالكافر ، أى ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة »^(٤) . ولكن الله بصير بالعباد .

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

(١) القرطبي ج ٨ ص ٣١٣ .

(٢) فصلت : ٣١ .

(٣) رواه مسلم كتاب الزهد باب حديث جابر الطويل وقصة أبى اليسر .

(٤) انظر تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣١٥ .

سُورَةُ يُوسُفَ

هنا بيان من الله العزيز الحكيم عن الإنسان وطباعه التي جُبل عليها ، إذا مسّه الضر أسرع وتعجل وتضرع إلى ربه في كل أحواله قائماً وقاعداً ونائماً في كل وقت ، وصار يلج في الدعاء ويتعجل الإجابة . وهي نظير قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾^(١) . وإذا استجاب الله له نسي أنه كان مستغرقاً في الدعاء وأنه كان يوماً محتاجاً إلى ربّ السموات والأرض ، وكأنه لم يصبه ضرر أو لم يمسه هم أو حزن أو شر ، إلا من رزقه الله سلامة الفهم ونعمة الهداية والاحتياج إلى الله في حالي السراء والضراء فهذا خارج عن تكلمت عنهم الآية .

وفي هذا يقول رسول ربّ العالمين - صلى الله عليه وسلم - « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له »^(٢) .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يخبر الله سبحانه وتعالى عن القرون والأمم الماضية بأنهم لما ظلموا وأشركوا أهلكهم ؛ وذلك بسبب عصيانهم رسل الله ، لأنهم حادوا عن الإسلام الذي هو دين كل الأنبياء . والرسول من لدن آدم عليه السلام ، حتى جاء محمد - صلى الله عليه وسلم - يتمم المسيرة ويصحح الخطأ ويبلغ الدين كله ، فمن استجاب له فقد فاز ومن ضلّ وعصى فقد خسر خسراناً مبيناً .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء »^(٣) .

(١) فصلت : ٥١ .

(٢) رواه : الإمام أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه .

(٣) رواه مسلم عن أبي سعيد .

سُورَةُ يُوسُفَ

ثم جعل سبحانه الأمة المسلمة هي أمة الإنابة عن الأنبياء والرسل ، لكونها وارثةً للخلافة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وكذلك هي المسئولة عن تعطيل الدين بكافة شرائعه وتعاليمه .

فأنتم أيها المسلمون مسئولون أمام الله عن فساد العصور من بعد الخلافة الرشيدة ، فاعلموا وادعوا إلى الله على بصيرة وذكروا المسلمين بكتابتهم وادعواهم للحكم به ، فمن لم يدعُ بذلك ويجاهد في سبيل الله حتى ترجع أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى خلافةٍ رشيدة عادلة ، فحساب الله له عسير ، وسؤاله شديد .
فيا أمة محمد : أنتِ أمةُ الدعوة والخلافة فسارعي إلى مغفرة من الله بجهاد كبير حتى تقوم الأمة وتعود الدولة ، والله سبحانه نعم المعين لعباده المخلصين .

وَإِذَا تَتَلَّاهُمْ عَلَيْهِمْ أَيْبَانًا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِقُرْآنٍ
غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا
مَآيُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ
مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ
إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

هذا إخبار من الحق سبحانه وتعالى عن تعنت كفار مكة ومشركيها الجاحدين أنهم إذا سمعوا آيات الله يتلوها عليهم محمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا له : لا نطيعك حتى تأتينا بقرآن غير هذا ، أو بدّل فيه . ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أجابهم بالقطع أنه لا يفعل ولن يفعل ، فأجاب الله عنه بقوله قل لهم يا محمد ما يكون لي أي ما ينبغي لي أن أبدّله بنفسي إنني عبد الله ورسوله ﴿١٥﴾ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿١٦﴾ ولأنني أخاف إن عصيت ربي وطاوعتكم في طلبكم التبديل أو التحريف أخاف عذاب يوم عظيم .

يأهل مكة ويا من حولها من الأعراب ، إنني لبثت فيكم من السنين أربعين سنة قبل البعثة سميتوني أثناءها بالصادق الأمين ، واليوم تكذبونني !!؟

سُورَةُ يُوسُفَ

إنه ليس في الخلق أظلم من عبد يدعى افتراءً وكذباً على الله سبحانه وتعالى أن له شركاء أو أن له ولدًا أو أن له ما يماثله ، سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون ! وليس في الخلق أيضًا أظلم من عبد ينكر القرآن ويفترى على الله الكذب إنه لا يفلح المجرمون .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

لا يزال الحق سبحانه وتعالى ينكر على المشركين شركهم بالله عندما يعبدون غيره ظانين أن هذه الآلهة المزعومة (الأصنام) تشفع لهم عند الله . وهذا ضلال وبهتان عظيم ، فمن عبد غير الله فقد ضلّ السبيل وأضلّ . فقل لهم يا محمد : أتنبئون الله وتخبرونه أن له شريكًا وشفيعًا في خلقه وملكوته ؟ ومن أنتم ؟ أنتم الضعفاء والعاجزون . أنتم لا تستطيعون كشف الضر عنكم ، وشربة الماء تُحبس فيكم فلا تملكون صرف أذاها عن أنفسكم ، فماذا يملك لكم هؤلاء الشفعاء المدّعون ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون ، وتنزه فوق كل ذلك وتقدس عن الشرك .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

إن الكفار أرادوا أن يعجزوا محمدًا ، فطلبوا منه آيات معجزات غير معجزة القرآن - كما أعطى الله ثمود الناقة - وأن يحول لهم جبل الصفا ذهبًا ، ويكون له بيت من زخرف ، ويحيي لهم من مات من آبائهم وأجدادهم ؛ فقل لهم يا محمد إن نزول الآيات غيب ، فتربصوا وانتظروا قضاء الله بيننا .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرُفٌ ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

سُورَةُ يُوسُفَ

إن الله سبحانه وتعالى يكشف لنا عن طبيعة الإنسان ، ويبين أن له طبائع متغيرة متقلبة فربما يكون ساعة مع الحق ثم يتغير في نفس الآن فيرى الباطل أنفع له في الدنيا فينسى ما كان عليه من الخير . وذلك التغير يقع بسبب ضعف الإيمان وعدم التمكن في الحق . من هذا التغير أنه إذا أصاب الناس رحمة من بعد ضراء ، كالرخاء بعد الشدة والخصب بعد الجذب ، فإنهم لا يؤمنون في الوقت الذي كانوا فيه ذوى دعاءٍ عريض ، ومروا كأن لم يمسه شئ . أجل إن رسلنا يكتبون ما تمكرون .

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّاهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

إن الله أنعم عليكم بما تستطيعون به الانتقال بين وديانكم والبلدان المختلفة البعيدة والقريبة بوسائل النقل فعلمكم كيف تسيروها في البحر والجو وفوق الأرض . فإذا أصبتم بريح تعوق مسيرة السفن وأصبحتم تحاطون بالموج الشديد من كل جانب دعوتكم الله مخلصين له الدين لئن صرفت عنا يارب هذا الكرب وهذه الشدة لنكونن من العاملين بطاعتك على نعمة إنقاذنا من هذه الشدة .

فلما نجاهم الله إذا هم يبغون متكبرين في الأرض بغير حق ، حقاً إليه مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون .

إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آتَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

سُورَةُ يُوسُفَ

إن حلاوة الدنيا وما تغرى به من زخرفها وزينتها وتكاثر الأموال والأولاد فيها ، وإغراءها بالجاه وامتلاك أمرها بالحكم فيها والسيطرة من الحاكمين على المحكومين ، كل ذلك سرعان ما ينقضى . فمثله مثل النبات الذى أخرجه الله من الأرض وامتلات به من جميع الأشكال والألوان وازينت بكل ما خرج من رباها وسهولها حتى يظن زارعو هذا النبات وأهله أنهم قادرون على حصاده وجمعه ، فإذا بصاعقة أو ريح شديدة تذهب بالأخضر واليابس فأصبحت عجفاء جدباء بعد خصب ونماء خاوية على عروشها صعيداً زلقاً .

فهكذا الدنيا تنقضى فى ساعة ويُبْعَث من فى القبور ويحىء يوم الحساب !! فمن يدفع عن الناس إذن ؟ إنه يوم لا يدفع فيه أحدٌ عن أحدٍ شيئاً ، يوم يقول فيه عيسى ابن مريم : ربى لا أسألك اليوم أمى ولكن أسألك اليوم يارب نفسى ، فاحذروا أيها المسلمون احذروا ياهل الإيمان ذلك اليوم واستعدوا له إنه يوم عصيب .

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

والسلام اسم من أسماء الله . والصراط المستقيم هو الإسلام فمن تمسك به فله الحسنى وزيادة . وهؤلاء تحدث الحق عنهم بقوله :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٦﴾

والحسنى : هى الجنة ، والزيادة : هى رضوان الله تعالى .
وتلك هى منزلة المصدقين المخلصين : ﴿ الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ﴾
أى غبار أو سواد مما يلحق وجوه الكفرة الفجرة فى عرصات جهنم .

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا هُم مِّنَ اللَّهِ بِعَاصِمِينَ ﴿٢٧﴾
أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قُطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٨﴾

يبين العزيز العدل الحكيم صائب حكمه وعدله فى الذين كسبوا السيئات ، فعزاء السيئة سيئة بمثلها ، غير أن السيئات لها ظلمة وقسوة تكسب أصحابها ذلة ترهقهم بها

سُورَةُ يُوسُفَ

في معاشهم وليس لهم من عاصم فالعاصم هو الله وقد حاربوه بالمعاصي فهؤلاء تسود وجوههم في الدار الآخرة فهي وجوه مسودة عليها غبرة . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ
وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ
عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾

يوم القيامة ينادى الحق سبحانه وتعالى أصحاب الكفر والضلالة الزموا مكانكم أنتم وشركاءكم . ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ أى « فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا»^(١) . كما يخبر الحق عنهم في موضع آخر ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾^(٢) وقوله ﴿ إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾^(٣) وقوله ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ﴾^(٤) .

فساعتها سوف لا تنفع شفاعتهم شيئاً بل ستتبرأ منهم الأصنام ، قائلة ما كنا ندرى بكم والله شهيد بيننا وبينكم لأننا لم ندعكم إلى عبادتنا ولا طلبنا منكم ذلك . وهذا تقرير للجماعة المشركة التى كانت تعبد ما لا يسمع ولا يرى ولا ينفع ولا يضر . ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ لا ندرى شيئاً حيث كنا جمادات صماء لا روح فينا ولا حياة .

هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ تبلو ﴾ بمعنى تذوق وتعلم ما مضى من عملها إن خيراً فخير وإن شراً فشر : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾^(٥) ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾^(٦) . وترد الأمور كلها إلى الله للفصل فيها ، فيدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . هكذا عدل الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

(٣) البقرة : ١٦٦ .

(٦) الإسراء : ١٣ .

(٢) مريم : ٨٢ .

(٥) القيامة : ١٣ .

(١) القرطبي ج ٨ ص ٣٣٣ .

(٤) الأحقاف : ٦ .

سُورَةُ يُوسُفَ

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ ﴿٣٢﴾

هذه الآيات تدل على قدرة الخالق وعجز المخلوق ، ثم تلوم المخلوق من بنى الإنسان على انحرافه في الفهم السوي . فأيها الضالون عن طريق التوحيد من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أليس هو الله ؟ ومن يملك لكم السمع والابصار ؟ أليس هو الله ؟ ومن يخرج الحي من الميت وكذلك الميت من الحي ؟ أليس هو الله ؟ ! ومن يدبر أمر السماء والأرض ؟ فلماذا لا تتقونه ؟ وماذا بعد بيان الحق وظهوره ؟ إنه الضلال . . . !
فقل لهم يا محمد « أفلا تخافون عقابه ونقمته في الدنيا والآخرة » (١) ؟

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

فبسبب شركهم وكفرهم ، حق عليهم القول باللعنة والحزى والعذاب المهيّن ، وهؤلاء هم الفاسقون . والفسق هو مفارقة الحق إلى الباطل .

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

حاش لله أن يكون له شركاء فهو الخالق الواحد القادر على غير مثال . والحق - سبحانه وتعالى يبطل دعاواهم في هذه الآيات ، ويبطل افتراءهم بادعائهم الصاحبة والشريك واتخاذهم أصنامًا وأندادًا لله ، فهل أى من هذه أو تلك ما يستطيع أن يبدأ

(١) القرطبي ج ٨ ص ٣٣٥ .

سُورَةُ يُوسُفَ

الخلق ثم يعيده ؟! فكيف تنصرفون عن طريق الرشده والهدى إلى طريق الضلال والتخبط ؟ فما لكم كيف تحكمون أيها المشركون وأنتم تعلمون جيدًا أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تنفع ولا تضر ولا تقدر على هداية عاص أو إراحة حيران ؟ إنكم لا تتبعون إلا ظنًا ، أى : وهما وسرابًا لا يغنى عنكم من الله شيئًا لأنكم لا تستطيعون أن تقدموا ولو دليلًا أو برهانًا واحدًا على صحة ادعاءاتكم وافتراءاتكم وشرككم الذى أنتم به متلبسون .

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ
الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطْعَمُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ
وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ كَذَّابٌ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَنُظِرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبُهُ
الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن ، لأنه لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بسورة أو آية واحدة من مثله . ومستحيل أن يؤتى بهذا القرآن من عند غير الله ، وهو حق يصدق ما بين يدي محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو تفصيل للحق الذى أنزله الله عليه . والذين يقولون إن محمدًا قد افتراه ، فحججتنا عليهم بينة ، فليأتوا بسورة من مثله إن استطاعوا وإن كانوا صادقين . إنهم لن يستطيعوا ذلك ولو اجتمعوا له . إنه كتاب مقدس من عند الله جاء مصداقًا لمحمد ومهيمنًا على الكتب السابقة .

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهير ﴾ (١)

فالحق - سبحانه وتعالى - تحداهم فى ذلك الأمر على ضروب ثلاثة : طلبه - سبحانه وتعالى - منهم أن يعارضوا هذا القرآن كله بنظيره من عندهم ، ردا على قولهم إن هذا القرآن من عند محمد . ثم طلبه - سبحانه وتعالى - منهم أن يأتوا بعشر سور منه ، كما

سُورَةُ يُوسُفَ

نرى ذلك في سورة هود ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (١) .

ثم طلبه - سبحانه وتعالى - منهم في هذه السورة أن يأتوا بسورة واحدة من هذا القرآن ، وهذا إمعان في التحدى وإعجاز من الله .

بل إنهم كذبوا القرآن ولم يعلموا كنوزه وأسراره ، مثلهم مثل ما كذبت الأمم السابقة أنبياءها ، فانظر كيف أهلكناها ، واحذروا أيها المشركون الضالون أن تقعوا في مثل ما وقع فيه السالفون فتصيبكم اللعنة وتهلكون .

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

يقول الإمام القرطبي « قيل : المراد أهل مكة ، أى ومنهم من يؤمن به في المستقبل وإن طال تكذيبه ، لعلمه تعالى السابق فيهم أنهم من السعداء ومنهم من يصتر على كفره حتى يموت كأبى طالب وأبى لهب ونحوهما . وقيل المراد أهل الكتاب . وقيل هو عام في جميع الكفار ، وهو الصحيح . . . وإنما أخر الله العقوبة لأن منهم من سيؤمن » . (٢) ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ تهديد لهم ووعيد .

ثم يقول الحق لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : تبرأ منهم يا محمد إن كذبوك ، وقل لهم لى ثواب تبليغي لكم وإنذارى إياكم ، وقد بينت لكم طريق الرشد والصواب ، ولكم عملكم وجزاؤه النار لأنكم أشركتم ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾ (٣) . وهى أيضاً نظير قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم الخليل لقومه المشركين ﴿ إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله ﴾ (٤) . فالله وليك يا محمد وسيجزئهم بكفرهم وضلالهم وسينصرك ويؤيدك ويجعل العاقبة لك ولمن معك .

(٢) القرطبي ج ٨ ص ٣٤٥ .

(٤) الممتحنة : ٤ .

(١) هود : ١٣ .

(٣) الكافرون : ١ - ٦ .

سُورَةُ يُنُوسَ

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ
إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٤﴾

ومنهم من يستمع إليك ولكن قلبه ليس معك . إنهم يستمعون ليجادلوا في الحق ويخوضوا فيه ، فأنت لا تستطيع فتح مغاليق قلوبهم التي طبع الله عليها حتى ولو كانت آذانهم مصغية ، مثله مثل البصر تمامًا ، فمنهم من ينظر إليك ولكن قلبه أعمى ؛ فالمراد « أن أحدا لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته . . . وفي هذا تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - » (١) .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٥﴾

إن جهل الناس بالله واستعلاءهم على ما جاء به رسول الله يجعلهم يظلمون أنفسهم وهم لا يشعرون . ويقول ابن كثير : « أخبر الله - سبحانه وتعالى - أنه لا يظلم أحدا شيئا وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من عمى وفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا وأضل به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله » (٢) .

في الحديث عن أبي ذر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - عن رب العزة - سبحانه وتعالى - « يا عبادي : إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . . إلى أن قال في نهايته . . يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٣) .

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٦﴾

سيأتى يوم عظيم يحشرون فيه إلى الله وكأنهم لم يلبثوا في دنياهم إلا ساعة من نهار ، ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ (٤) . فلا أعراق ولا جاه

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤١٨ .

(١) القرطبي ج ٨ ص ٣٤٦ .

(٤) المؤمنون : ١٠١ .

(٣) الحديث رواه مسلم كتاب البر باب تحريم الظلم .

سُورَةُ يُوسُفَ

ولكنها أعمال تُحسب وحقوق تسأل ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ . وإنا سوف نوف كلا حسابه ولا يظلم ربك أحدا . « فطول أعمارهم في مقابلة الخلود كساعة » ^(١) هكذا رأوا .

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

إما نرينك يا محمد بعض ما وعدناهم به بنصرك عليهم وخذلانهم ومذلتهم « وننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم » ^(٢) أو اصبر فإن مرجعهم إلينا ، وإلينا المنقلب فهناك الحساب الدقيق ثم الله شهيد على ما يفعلون .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

إن أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - قد شرفها الله - سبحانه وتعالى - فجعلها أول الأمم ، وكل أمة تعرض بعملها على الله وأمامهم رسولهم وكتاب أعمالهم ، وهكذا أمة بعد أمة .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا

مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَسْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٤٩﴾

إن الكفار يقولون : متى الساعة ؟ ومتى هذا الوعيد ؟ إنكاراً منهم لكلام محمد وسخرية بكلام الله مع أنه لا فائدة من سؤاها هذا . فأمر الحق نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهم : لا أملك من الله ما أنفع به نفسي فأدفع عنكم شيئاً ، وكل ما للإنسان إنما هو بمشيئة الحق سبحانه وتعالى ، فكيف أوفيكم ما تستعجلون به ؟ فلا تستعجلون ، فلكل أمة أجلها ووقتها المحدد لهلاكها وعذابها وحسابها ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾ ^(٣) - ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ فيم أنت من ذكرها * إلى ربك منتهاها ﴿ ^(٤) .

(١) هذا القول لابن عباس - انظر القرطبي ج ٨ ص ٣٤٧ .

(٢) ابن كثير ٤١٨/٢ .

(٣) (٤) النازعات : ٤٢ - ٤٤ .

(٣) المنافقون : ١١ .

سُورَةُ يُوسُفَ

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَا ذَايَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا
مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؕ ءَالْتُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا
عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

إنكم أيها الكفار تستعجلون العذاب فسوف يأتاكم بغتة ليلاً أو نهاراً ، فما أعظم
ما تستعجلون به !! إنكم تستعجلون شيئاً عظيماً مهولاً . أأأمنون لما يقع عليكم العذاب
ثم ساعتها تؤمنون وتقولون ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا
موقنون ﴾ (١) ؟

ثم بعد ذلك تقول لكم خزنة النار ذوقوا عذاباً شديداً خالدين فيه أبداً ، وذلك
بسبب كفركم وشرككم .

﴿ وَيَسْتَنْشِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ
لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ . وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ
وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

إنهم يقولون لمحمد - صلى الله عليه وسلم - : أحق ما أنت تالیه علينا يا محمد
ومخبرنا به من أنباء الدنيا والآخرة ؟ قل لهم يا محمد : إی وربی . وإی « كلمة تحقيق
وإيجاب وتأکید بمعنى نعم » (٢) .

أی نعم أقسم بالله إنه لحق ، فإن آمتتم كتبت لكم النجاة ، وإن كفرتم لستم
بمعجزی الله ، والله هو القوى القادر الفعال ، ويوم القيامة لو أتیح لنفس أن تملك ما
فی الأرض جميعاً لافتدت به ولكن هيهات هيهات . . ! فهنا دار العمل ، وهناك دار
الجزاء يوم القيامة .

(٢) القرطبي ج ٨ ص ٣٥١ .

(١) السجدة : ١٢ .

سُورَةُ يُوسُفَ

إن الضالين ليس أمامهم يوم القيامة إلا خزي وعذاب شديد .
إن وعد الله حق ولن يخلف الله وعده سبحانه هو مالك السموات والأرض قادر على جمع الخليقة بعد فنائها وإليه المرجع والمآب .

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

يذكر الحق - سبحانه وتعالى - خلقه بأعظم ما امتن به عليهم من موعظة وإرشادات وتعاليم مشروحة واضحة لهم في كتابه العزيز (القرآن) ، فبين لهم فيه ما فيه شفاء صدورهم ونفوسهم من سقيم الأخلاق ، وشرح به صدورهم للحق فشفت به من الأدران والأسقام ، وهو بذلك هدى ورحمة للمؤمنين وتطهير وتنظيف لما في النفوس من عوالق الرجس والأدناس . وهى نظير قوله تعالى : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ (١) .

إن الله سبحانه يقر وقراره الحق أن الإنسان أنعم الله عليه بالهداية فهدى إلى ما فى كتاب الله من الحق ، فذلك هو الخير الذى يستحق من الإنسان أن يُسرَّ به ويفرح لأن الذى أتاه هو الخير فى الدنيا والآخرة ، فكل ما هو من زينة الدنيا بعد ذلك أمر هين لا يساوى شيئاً أمام فضل الله فى الآخرة . فبذلك فليفرح المؤمنون بما أعد لهم خير مما جمعوا له من حطام الدنيا ونعيمها الزائف الموقوت .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآلَ اللَّهِ
أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

تخاطب الآيات الكفار أن ليس لهم من حق أن يحلوا ويحرموا من تلقاء أنفسهم ، فالله سبحانه وتعالى صاحب الشأن فى ذلك ، فهو ينزل الرزق ويبين طريق حلاله وطريق حرامه وليس لغير الله ذلك ، فمن أحل وحرم بغير ما أنزل الله فقد افترى على الله .

(١) الإسراء : ٨٢ .

سُورَةُ يُونُسَ

وما ظن أولئك الذين يفترون على الله ويحلون ويحرمون حسب أهوائهم ؟ « يحسبون أن الله لا يؤاخذهم به » ^(١) أين يذهب أولئك الذين افتروا على الله الكذب ؟ إن الله يمهلهم ويؤخر عقابهم عنهم يرجعون . وهذا فضل منه سبحانه ، ولكن أكثرهم لا يشكرون نعمة الله ولا يعلمون فضله وقدره .

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

سبحانه لا تخفى عليه خافية . كل شئون الخلق تحت بصيرته ، يعلم مستقرها ومستودعها صغرت أو كبرت خفيت أم ظهرت . كل ما خلقه قائم في علمه ، عنده مفاتيح الغيب لا يعلم سرها إلا هو . يقول ابن كثير « وإذا كان هذا علمه بحركات الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة » ^(٢) ؟

فكل أمورنا ، الله رقيب ومطلع عليها وسامع لها ، ولذا يجب على الإنسان أن يعبد الله وكأنه يراه حتى تكتمل مرتبة العبادة ويصل بمرتبة التكليف إلى مشارف الإحسان .

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾

أولياء الله : هم الذين اتبعوا رسول الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - فلا يفرطون في فرض أو سنة . هم الحراس على أمره - سبحانه وتعالى - يؤدون فرائضه وسنن رسوله لا يخشون في الله لومة لائم يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . زهاد في الدنيا . رغبته في الآخرة شديدة يحبون في الله ويبغضون في الله . الدنيا بين أيديهم عرض زائل والآخرة في قلوبهم ميراث مقدس يبذلون النفس والنفيس لتكون كلمة الله هي العليا .

(١) القرطبي ج ٨ ص ٣٥٥ .

(٢) ابن كثير ج ٢ / ٤٢٢ .

سُورَةُ يُنُسُ

إن أولياء الله هؤلاء لا خوف عليهم في الآخرة ، وقيل في ذرياتهم لأن الله يتولاهم ، ولاهم يحزنون لفوات وانقضاء الدنيا .

ويذكر القرطبي قول الزهري وعطاء وقتاده في ﴿ البشري ﴾ أنها « هي البشارة التي تبشر بها الملائكة المؤمن في الدنيا عند الموت » (١) .

وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾
لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

يسأل الله نبيه المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بأن لا يحزن على قولهم وافترائهم وتكذيبهم له قائلاً إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين وإن القوة والغلبة له سبحانه فلا تحزن فالله عليم بهم سميع لأقوالهم . وكذلك كل ما في السموات والأرض مشاهد وغائب فهو لله رب العالمين وحده لا شريك الله ، ودغ الذين يعتقدون النفع والضر في أشياء تافهة وأصنام إن يتبعون إلا الظن والتخرص والكذب .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

إنه من باب أولى أيها المشركون المعتقدون في الأصنام النفع والضر أن تعبدوا إلهاً واحداً يستطيع - وبالفعل - أن يجعل لكم ليلاً تنامون فيه وتريحون أبدانكم ونهاراً للسعي والجد واجتلاب الرزق ، أليس في ذلك آية ؟ ألم تسمعوا هذه الحجج والبراهين فتعتبروا بها وتهتدوا إلى الله رب العالمين الفرد الصمد !!

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنْ
الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا
مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

(١) القرطبي ج ٧ ص ٣٥٨ .

سُورَةُ يُوسُفَ

قالت النصارى : المسيح ابن الله ، وادعت ذلك اليهود لعزير ، وزعمت الكفار أن الملائكة بنات الله ، سبحانه وتعالى عما يصفون !! إنه الواحد الأحد الفرد الصمد لا والد له ولا ولد كل ما فى السموات والأرض عبيد ومليك له . لا يشاركه أحد فى ملكه . سبحانه هو الغنى ونحن الفقراء إليه . فأنتم أيها المتقولون المفترون ليس عندكم من سلطان أى دليل أو برهان أو حجة على صحة ما تقولونه ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ﴾ * لقد جئتم شيئا إذا ﴾ * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ﴾ * أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ﴾ * لقد أحصاهم وعدهم عدا ﴾ * وكلهم آتية يوم القيامة فردا ﴾ ^(١) . إنكم أيها المفترون ستلقون عذابا خالدين فيه أبدا . فتمتعوا فى دنياكم فما متاع الدنيا إلا قليل وإن طال ، فلکم يوم عظيم نذيقكم فيه العذاب الغليظ بسبب كفرکم هذا .

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كِبُرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِشَايئِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ ^{٧١} فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^{٧٢} فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ رِيفِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَهُ وَأَغْرَقْنَاهُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ ^{٧٣}

أخبر قومك يا محمد وأسمعهم قصص السابقين ، واحك لهم عن نوح النبی الرسول - عليه الصلاة والسلام - وكيف صبر مع قومه صبرا كبيرا حيث عاش بينهم يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما صابرا محتسبا ، كيف كانت عاقبة عنادهم له وإصرارهم على الكفر ؟ لقد أمر الله سبحانه الأرض ففاضت بالماء وأمر السماء فأمطرت مطرا غزيرا حتى كانت اليابسة كلها فى ديار نوح وقومه بحرا أغرق كل من أبى أن يكون معه وعلى دينه فى سفينة النجاة التى أمر أن يصنعها ويركب معه فيها أتباعه الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريقته وعلى شريعة الله .

(١) مريم : ٨٨ - ٩٥ .

سُورَةُ يُوسُفَ

واليوم شريعة الإسلام معطلة والأمة كلها مسئولة ومحاسبة على ذلك ، اللهم إلا من أعلن غضبه على ذلك وأقامها في نفسه وبيته هو ومجتمعه وهو يجاهد في سبيل الله بالنفس والمال .

هذا هو نوح مع قومه الذي أمره الله أن يقول لهم إن كان قد عظم وثقل عليكم مقامى أى لبثى فيكم وطول عمرى مع التذكرة والدعوة إلى الشريعة وآيات الله والحكم بما أنزل الله فإنى اعتمدت على الله . « ولم يزل عليه السلام متوكلاً على الله في كل حال ولكن بين أنه متوكل في هذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم أى إن لم تنصرونى فإنى أتوكل على من ينصرنى » (١) .

وقد بلغت الثقة بنوح حدًا في اعتماده وتوكله على الله ما جعله يتحداهم ويطلب إليهم مواجهته بكل قواهم ، فكان من كيدهم غير وجل أوخائف لأنه يعلم مسبقًا أن آلتهم لا تنفع ولا تضر . وفي كل هذا تسلية للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - . فآمن به من آمن وكفر به من كفر وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لأن نوحًا لا يفعل ذلك مقابل أجر إن أجره إلا على الله رب العالمين الذى أمره أن يكون موحدًا مسلمًا عبدًا منيًّا بعد أن أهلكهم بظلمهم .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ
مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

وقد جاءت بعد نوح رسل لأمم بعده كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب فجاءوا لقومهم بالمعجزات أيضًا فما كان صنيعهم معهم يختلف عن صنيعهم مع نوح . كذلك نختم ونغلق على قلوب المتجاوزين حدودهم في الافتراء والكذب على الله والعناد معه ومحاربة الرسل .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا

(١) القرطبي ج ٨ / ٣٦٢ .

سُورَةُ يُوسُفَ

أَجِثْنَا لَتَلْفِنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا

بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يبين الله أنه أرسل بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام موسى وهارون ، ولكن فرعون استكبر وكان من المجرمين ولم يستجب لهما ، فكانت عاقبته الخسران المبين . ولما جاء قوم فرعون الحق من ربهم على يدى موسى وأخيه هارون الذى كان له بمثابة الوزير . ١١ . ولما أظهر موسى الآيات والحجج من العصا التى صارت حية وأخرج يده بيضاء فكانت نوراً ١١ ولما قال موسى لفرعون وقومه إن الذى أنا عليه هو الحق من الله سبحانه ١١ لما كان كل هذا : قالوا فى تبجح وغطرسة بالباطل : أجثثنا يا موسى لتصرفنا عن آلهتنا تلك التى وجدنا أهلنا من قبلنا يعبدونها ، ونحن نرى أنك ما تفعل ذلك إلا طلباً للكبرياء فى الأرض وتكون أنت وأخوك لهما الدنيا لتحكما بها فينا ؟ إننا سنظل على ما كان عليه آباؤنا ولن نؤمن لكما .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَثُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّتَهُ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَن يَقْتُلَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

مع ثبات موسى وأخيه على الحق ، قال فرعون لقومه ووزيره هامان وحاشيته : اجمعوا لى كل ساحر عليم بالسحر خبير به . وجمع السحرة بآلات سحرهم وتمت المواجهة . قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون من السحر وأدواته ، فألقت السحرة حبالها وعصيها . فلما انتهوا من عملهم وألقوا كل ما لديهم من أدوات السحر ، قال - موسى عليه السلام - إن الله سيبطله وذلك لأنه سبحانه لا يصلح عمل المفسدين ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون . فألقى موسى عصاه فابتلعت كل أعمال السحرة وهى كما هى عصاه بعد أن انقلبت حية تسعى . وهنا وقعت الآية بأن آمن السحرة لموسى ولم يعبثوا بما كان من فرعون وقومه .

سُورَةُ يُوسُفَ

وَأَمَّنَ مَعَ السَّحَرَةِ عِدَدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَكَذَلِكَ آمَنَ لِمُوسَى مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ شَبَابٌ وَشُيُوخٌ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، فَقَدْ كَانُوا يَحْذَرُونَ أَنْ يَفْتِنَهُمْ فِرْعَوْنَ بِتَعْذِيبِهِمْ ، وَإِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ مُتَكَبِّرٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ .

وَقَالَ مُوسَى يَنْقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

قال موسى لقومه بعد أن آمن من آمن وكفر من كفر : يا قوم : إن كنتم آمنتُمْ حقًا وصدقًا فتوكلوا على الله ، فمن يتوكل على الله فهو حسبه وناصره ومؤيده فتوكلوا عليه إن كنتم مسلمين . فهي نظير قوله تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ^(١) ؟ ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ^(٢) - و- ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ . ^(٣) فقالوا : على الله توكلنا حقًا ثم دعوا : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتًا وَأَجْعَلُوا يُثُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

أوصى الله - سبحانه وتعالى - أي أصدر أوامره لموسى وأخيه هارون أن يتخذوا في مصر منازل وتكون هذه المنازل قبلة يعلن منها كلمة التوحيد ثم يقيم فيها شرعه وعدله وصلواته وعند ذلك تكون البشرى للمؤمنين . وهنا يوصيهم رب العزة أن يقيموا الصلاة خصوصًا وهم في هذه الحال من الخوف والرعب والصراع بين الحق والباطل ، حيث إن الصلاة تهدئ من الروح وتطمئن النفوس ، حيث إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا حزبه أمر صلى . ثم بشرهم بعد ذلك يا موسى بأن لهم العاقبة والنصر المبين . أما فرعون وأعداؤه فلهم خزي في الدنيا وفي الآخرة عذاب عظيم بسبب محاربتهم لله ولرسوله والمؤمنين .

(٢) هود : ١٢٣ .

(١) الزمر : ٣٦ .

(٣) الفاتحة : ٥ .

سُورَةُ يُوسُفَ

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قال موسى لربه : إنك يا ربنا أعطيت فرعون وقومه متاعاً واسعاً في الدنيا ومكنتهم فيها ليحكموها فحكموها بخلاف أمرك وأفسدوا فيها بغيرك وكبر ، وكان الأولى بهم أن يشكروك ويعبدوك .

ربنا اطمس على أموالهم واطبع على قلوبهم حتى لا « تشرح للإيمان » إذا رأوا العذاب الأليم ، قال الله سبحانه لموسى وهارون قد استجيبتم دعوتكما فاستقيما على شريعتي وأقيا أمرى فى قومكما ولا تتبعنا من يغريكما بغير طريقى ولا تتبعنا سبيل الذين لا يعلمون . وهكذا قد استجاب الله لدعوة موسى كما استجاب من قبل لدعوة نوح على قومه ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴿ ٢ ﴾ .

﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِى ءَاْمَنْتُ بِهِ ءَبْنُوْا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ ٩٠ ﴾ ءَاَلْكَنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿ ٩١ ﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّىكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ ﴿ ٩٢ ﴾

خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر ولكن فرعون اتبع أثرهم ، ولما كاد يدرکہم ويلحقہم ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق فصار كل فرق كالجلل العظيم ، وسار موسى وقومه بين الحاجزين المائين فى عمق البحر على اليا بس ، واتبعہم فرعون وقومه ،

سُورَةُ يُوسُفَ

فأغرقهم الله حيث تلاحم الماء عليهم . وقال فرعون وهو يغرغر آمنْتُ برب موسى وهارون ولكن لم يتقبل منه ولا من قومه وأجابه الله سبحانه أفي هذا الوقت تقول آمنْتُ؟ !!!

فاليوم ننجيك بيدنك فقط لتكون لمن خلفك من بنى إسرائيل ولمن بقى من قومك ولم يصلهم هذا الخبر فتكون لهم آية وعبرة وعظة ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا معرضون في تأملها غائبون عنها .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعَامُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣﴾

لقد نصر الله بنى إسرائيل على فرعون وجعل لهم مكانة وملكاً ، ولكنهم لم يسمعوا ولم يتعظوا . وقيل إن ﴿ مَبُوءًا صِدْقٍ ﴾ هذا هو بلاد مصر والشام ^(١) .
والله - سبحانه وتعالى - سيقضى بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا عليه من الحق وساعتها سيعلمون أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، فالدنيا إن لم تكن مزرعةً للآخرة فقد خسرها الإنسان .

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾

« الخطاب في الآية للنبي والمراد غيره أى لست في شك ولكن غيرك في شك » ^(٢) .
إن اليهود يعلمون من كتابهم التوراة بأن نبياً من العرب سيُبعث بكتاب من عند الله .
والحق تبارك وتعالى يقول لنبيه بأن أمرك يا محمد مكتوب عندهم فاسألهم عنه فإنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم ، وهذا أمر يؤكد الله لنبيه ولهم ، وإن إنكارهم للرسول مكابرة منهم للحق الذى يعلمونه ، فلا تكونن يا محمد أنت أو أمتك من الممترين البشاكين .

(١) انظر : ابن كثير ٢ / ٤٣١ .

(٢) القرطبي ج ٨ / ٣٨٢ .

سُورَةُ يُوسُفَ

وهذا حث وتحذير من الله للمؤمنين أن يحرصوا دائماً على التصديق بآيات الله ولا يكونوا أبداً مع من يكذب بها وإلا كانوا من الخاسرين .

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ
حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمِنَتْ فَتَنْفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُوسُفَ
لَمَاءَ أَمِنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٨﴾

إن في طبيعة قلوبهم مرضاً وظلمة لا يستطيعون أن يتذوقوا حلاوة الإيمان ، وبذلك
حققت عليهم كلمة ربك أي غضبه عليهم وسخطه بسبب معاصيهم ، ولو جاءتهم
الآيات والحجج فساعتها يؤمنون ، ولكن لا ينفع نفساً إيمانها في يوم لا تنفع فيه المَعْدرة .
لقد انتهت أيام العمل وفي الآخرة الحساب والسؤال والجزاء .

إن قرية نبي الله يوسف أي أهل القرية لما عصوا يوسف غضب عليه السلام وذهب
مغاضباً ، وخافوا أن يعاقبهم الله بسبب معصيتهم لنبيهم ، فأمنوا وبسبب إيمانهم
كشف الله عنهم العذاب عذاب الخزي في الحياة الدنيا بعد أن سبح يوسف في بطن
الحوت أربعين يوماً حتى غفر الله له ونجاه وعاد إلى قومه وهم مؤمنون .

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ
وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ
قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقَّقْنَا نَجْيَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

يا محمد لا تعجب لعدم إيمان كل الناس فلو شاء ربك لآمن كل من في الأرض
كافة .

سُورَةُ يُوسُفَ

فالإيمان إن لم يكن مصدره الإحساس العملي والشعور الصادق من العبد بأن الله مستحق العبادة من عبده بحق فلا يعد إيماناً . وهى نظير ﴿ إنك لا تهدى من أحبت ﴾^(١) - ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾^(٢) - ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾^(٣) .

إن الإيمان بالله عطاء يجتنبى له الحق من استحق بحق أن يكون عبداً لله فيطهره من الرجس ويغمس آحرين فى رجس وغضب . ولو شئنا يا محمد أن نهدي كل من فى الأرض من الخلق لفعلنا ، ولكن الله بحكمته وعلمه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بالمتقين وهو الهادى وما عليك إلا البلاغ .

إن الذين يكذبون بمحمد خاسرون للدنيا والآخرة مثل الذين كذبوا من قبل نوحاً وإبراهيم ثم الذين ضلوا من قوم موسى وعيسى عليهم جميعاً السلام . إن الله - سبحانه وتعالى - سيصيب الذين كذبوا الرسل بعذاب وهلاك شديد ، أما المؤمنون والرسل من قبلهم فكان حقاً على الله نجاتهم كما يقول سبحانه ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾^(٤) .

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

يقول الحق - سبحانه وتعالى - لنبيه قل يا محمد للناس إن كنتم فى شك فيما أوحاه الله إلى وصحة ما جئتكم به من الدين الحنيف فإنى لا أعبد الذى تعبدون من الأصنام والأوثان التى هى شرك بالله ولكن أعبد الله رباً واحداً لا شريك له . وإن كانت آلهتكم المدعاة على حق ، فلتنصركم علينا ، فإنى أعبد الذى فطرنى على الإيمان والإسلام والتوحيد له سبحانه ولا أعبد ما لا ينفع ولا يضر ، وإن فعلت ذلك وحاش لله أن أفعل

(١) القصص : ٥٦ . (٢) آل عمران : ٢٠ .

(٣) الغاشية : ٢١-٢٢ . (٤) الأنعام : ١٢ .

سُورَةُ يُوسُفَ

معه ذلك فأنا إذن غير موفق إلى العبادة الصحيحة في موضعها الصحيح . كما أمرني الله سبحانه أن أتوجه إليه بوجهي وحقيقة نفسي وقلبي ، فأحصر حقيقة وجودي في أن أعرف بها على الله لأكون حنيفاً مسلماً وأنجواً من عذاب شديد وأكون من الموحدين .

وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ
يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

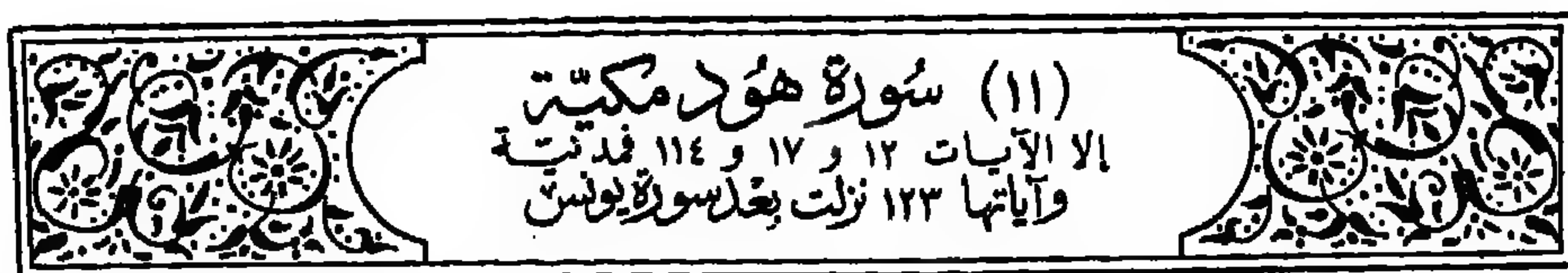
اعلموا أن الضار والنافع هو الله ، فإن أصابكم ضرر فلا دافع له إلا الله ولا كاشف له إلا هو ، وإن أصابكم خير منه أيضاً فلن يستطيع أحد أن يرده عنكم . وهو سبحانه ينعم بفضله على من يشاء من عباده فيجعلهم على طريق الإسلام . وهو الغفور الرحيم لمن استقام على الكتاب والسنة وهما معاً الطريق المؤدى إلى الجنة .

قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفُّ الْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمِنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ
إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

قل يا محمد لكل الناس قد جاءكم من ربكم الحق واضحاً بيّناً ، فالسعادة والفلاح لمن اهتدى بالقرآن والسنة . فمن كان القرآن هديه والسنة بيانه فقد اهتدى إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة ، وأما من فارق نوره وتعاليمه فقد فارق الحق وحاد عن الطريق الذي به يكون لقاء الله ، والذي يضل طريق الإسلام فقد أورد نفسه المهالك .

فاتبع يا محمد ما يوحى به إليك ربك . تعايش مع القرآن واتبع الحق الذي به وعليه تقوم الساعة حتى يحكم الله بينك وبين الذين لم يستجيبوا لك واتبع ما يوحى إليك من القرآن واصبر حتى يحكم الله والله خير الحاكمين .

والحمد لله رب العالمين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكِيبُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنِ اسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُعْمِنُكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

تكلّمنا في أول سورة البقرة عن الحروف المقطعة في أوائل السور . ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ لعظم شأنه وجليل منزلته ، لا يتخلله باطل ولا يحمل إلا الحق والنور الذي يهدى البشرية إلى طريقها المستقيم .

إنها بحق آيات من كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ أبلغكم مقاصده العالية وهي توحيد الله لا نعبد غيره ولا نحتكم إلا إليه بما أنزل ، وقد شرع ويّين في ذلك الكتاب الذي فصلت آياته .

ولما كان رسول الله هو النذير والبشير بهذا الكتاب : فقد ألهمه الله السنة ليبين لنا به ما دق وما غمض من أحكام التشريع والجائز وغير الجائز ، حصيلة غنية من لدن حكيم خبير . فلا يجوز لكم أن تعبدوا غيره ولا أن تتلقوا من سواه ، فإن فعلتم فتوبوا إليه واستغفروه برجوع قلب وعقل ، واحذروا أن تتولوا عنه ففي ذلك غضب منه سبحانه وإليه مرجعكم ، فأين منه تذهبون وهو سبحانه على كل شيء قدير ؟

سُورَةُ يُوسُفَ

أَلَا إِنَّهُمْ يَلْتَنُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يَعْلَنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١﴾

يقول القرطبي « أخبر عن معاداة المشركين للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين
ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم . و ﴿ يثنون صدورهم ﴾ أى يطوونها على عداوة
المسلمين » (١) .

سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . فاخفوا كما تشاءون إنه عليم
بذات الصدور لا تخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، مهما غطا رءوسهم
بثيابهم ومهما تواروا ومهما عقدوا في قلوبهم من شحناء وعداوة وقد أظهروا خلافه .

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾

إنه ما من خلق لله في السموات والأرض إلا وقد ضمن رزقه وقضى أجله في الدنيا
وميعاده في الآخرة . وما من دابة كبرت أو صغرت في أقطار الكون المستور والظاهر إلا
وقد قضى الله رزقها وأجلها وشقاءها وسعادتها على قدر طاقة قدرتها وحياتها .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ
لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٣﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى
أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ
بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤﴾

خلق تعالى السموات والأرض في ستة أيام وقدر فيها أرزاق الخلق جميعًا ، وكان عرشه
على الماء بما شاء وكيف شاء إنه الفعال لما يريد . وما قرره الله سبحانه وتعالى نؤمن به

(١) القرطبي ٥ / ٩ .

سُورَةُ يُوسُفَ

فهو العليم الخبير وهو على كل شيء قدير وهو سبحانه يبلو عباده بالأوامر والنواهي ثم ينظر أيهم أحسن عملاً وطاعة واستجابة ، فطوبى لمن أطاع أوامر الله وإرشادات الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، والفوز والسعادة لمن صدق بالبعث بعد الموت واستعد له . ويأياها المنكرون الجاحدون قدرة الله : أبعد ذلك تكفرون وتنكرون البعث والموت والحساب وأنتم تعلمون جيداً أن الله خلق السموات والأرض ؟ ثم تقولون بعد ذلك ما هذا إلا سحر مبين ؟!!! إن هذا الشيء عجيب . . . !!

ثم يخبر الحق بعد ذلك عن مكنون نفوسهم المريضة وأمنهم مكر الله عندما يؤخر عنهم العذاب إلى أجل مسمى ، فإذا هم يغترون بذلك بل يستعجلون هذا العذاب تكديباً من عند أنفسهم ويقولون (ما يحبسه) ؟ أى ما يؤخر هذا العذاب عنا ؟ ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم ﴾ « قيل : هو قتل المشركين ببدر وقتل جبريل المستهزئين »^(١) . والظاهر : أن المراد به العذاب الشامل للكفرة دون ما يختص ببعض منهم ، على أنه لم يكن موعوداً يستعجل منه المجرمون^(٢) . ومعنى ﴿ وحق بهم ﴾ أى نزل وأحاط . أما ﴿ أمة ﴾ فى الآية : فهى بمعنى أجل أو مدة مضروبة .

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ﴿١﴾
وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأٍ مَسْتَةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ
فَخُورٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴿٣﴾

إن الإنسان لينسى ما أنعم الله عليه من نعم فى سعة الرزق والصحة والجاه والأزواج والأولاد إذا ما اختبره الله سبحانه وتعالى فى ماله أو نفسه أو أولاده أو جاهه وساعتها يصبح يثوساً كفوراً لم يذكر إلا ساعة شدته وأزمته .

ثم إذا أذاقه الله صحة ورخاء وسعة فى الرزق وفرج كربته بعد ضراء مسته إذا به يفرح

(١) القرطبي : ١٠ / ٩ .

(٢) تفسير أبو السعود ١٤ / ٣ .

سُورَةُ هُودٍ

« وينسى شكر الله عليه » . ^(١) وهكذا الإنسان دائماً : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين ﴾ ^(٢) .

فالإنسان خلق هلوعاً ضعيفاً يفرح ويحزن ، سريع النقم والغضب وشديد الفرح إلا من رحم الله من الذين صبروا على الشدائد والذين يعتقدون أن أمرهم كله خير إن أصابهم سراء شكروا فكان خيراً لهم وإن أصابتهم ضراء صبروا فكان خيراً لهم .

وعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » ^(٣) .

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وبث فيه من خصائص الطباع ما به يرضى ويُسرّ وما به يغضب ويقنط . لكن مع الإيمان والتخلق بالخلق الحسن والصبر والتحمل يرتفع الإنسان إلى مراتب الصابرين فيرضى بالقضاء ويصبر في الشدة ويشكر في النعمة ويحسن العبودية لله مع حسن التبصر فيما أنعم به الحق عليه وجلّ قوله تعالى : ﴿ والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ ^(٤) - أولئك هم المؤمنون وأولئك لهم مغفرة وأجر كبير .

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُمَقَّرَاتٍ ۖ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُم فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

لقد اعتاد الكفار التحدى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولذا يرشد الله تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم - ألا يضيق صدره بهم وأن لا يصدده غباؤهم عن الاستمرار في الدعوة إلى الله ودعوتهم إلى العزيز الغفار .

(١) القرطبي ١١/٩ .

(٢) المعارج : ١٩ - ٢٢ .

(٤) سورة العصر .

(٣) رواه مسلم كتاب الزهد باب « المؤمن أمره كله خير » .

سُورَةُ هُودٍ

فلا يشغلك يا محمد قولهم : « إنك افتريت هذا القرآن أو اختلقته » إنهم لا يبصرون الحق ولا يعقلونه . بل لا يقولون إلا بهتاناً .

قل لهم يا محمد : أيها الضالون المكذبون هاتوا عشر سور مثل سور هذا القرآن في حسن صياغته وسبكه وبيانه وعلى نظم بلاغته ودقته وفصاحته وإحكامه وإتقانه . ولم ولن تستطيعوا أن تأتوا بذلك ولو اجتمع أعوانكم وكهنتكم وكان بعضهم لبعض ظهيراً . فإن أصروا على باطل دعواهم ولم يستجيبوا لكم فاعلموا أن الله الذي أنزل على نبيه الكتاب هو القادر على أن يرد كيد المبطلين وأن لا إله إلا الله فهل أنتم مسلمون .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ
﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ
مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

إن الناس فريقان : فريق لم يؤمن بالله العزيز الحكيم وعاش يجمع الدنيا وحسبه منها زينتها وزخرفها وبهرجها يقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا . إن هؤلاء قد وفى الله لهم في الدنيا كل ما سعوا إليه من زخرف الحياة وجاهاها . أما الفريق الثانى فهو الفريق الذى يريد الآخرة ويسعى لها في الدنيا وهو مؤمن . وهو الفريق الفائز برضوان الله وجنته ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾ * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴿ (١) .

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَدَيْنِهِ مِّن رَّبِّهِ ۖ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ ۖ كَتَبَ مُوسَىٰٓ إِمَامًا
وَرَحْمَةً ۖ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۖ مِنَ الْأَحْزَابِ ۖ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ فَلَا تَكُ
فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

(١) الإسراء : ١٨ - ٢١ .

سُورَةُ هُودٍ

حقًا ، ﴿ أفنَجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ * ما لكم كيف تحكمون ﴿ (١) . هل الذى هو على كتاب الله وأمره ونهيه مستقيم . وبسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ملتزم كمن لا هم له ولا شاغل إلا الدنيا وزينتها وزخرفها الباطل ؟ ! وقيل إن المراد بالشاهد فى الآية هو النبى - صلى الله عليه وسلم - وقيل جبريل . ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب ﴾ أى « ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض ومشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بنى آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن » (٢) . فالنار موعده .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من سمع بى من أمتى أو يهودى أو نصرانى فلم يؤمن بى ، لم يدخل الجنة » (٣) .

فلا تكن فى مرة أى فى شكٍ مما أنزلنا عليك إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . وحقًا قوله تعالى ﴿ وإن تُطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ (٤) .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾
الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ
لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ
لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

إنه لا أحد أظلم منهم بسبب افتراءهم الكذب على الله وزعمهم أن الله له شريك وولد واتخذوا الأصنام شفعاء لهم عند الله . أولئك يعرضون على ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء وتشهد عليهم الأشهاد ، أى الملائكة ، وقيل : الأنبياء والرسل . نعم ألا لعنة الله على الظالمين الذين كانوا يصدون الناس عن طريق الإيمان والهدى والطاعة ويريدونها عوجًا أى غير معتدلة أولئك لم يكونوا معجزين « أى فائتين من

(١) القلم : ٣٥ - ٣٦ . (٢) ابن كثير ٢ / ٤٤٠ .

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى موسى الأشعرى .

(٤) الأنعام : ١١٦ .

سُورَةُ هُودٍ

عذاب الله «^(١) لأنه هو الفعال ذو القوة المتين . إن أولياءهم ساعة العذاب لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فماذا يملكون لهم ؟ إن الذين حادوا عن صراط الله يضاعف لهم العذاب » وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم بل كانوا صما عن سماع الحق عميا عن اتباعه «^(٢) .

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١١﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ
فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسَرُونَ ﴿١٢﴾

إن هؤلاء قد خسروا أنفسهم بضلالهم عن طريق الله وضل عنهم أي « ذهب عنهم الأنداد والأصنام فلم تُجِد عنهم شيئا بل ضرتهم كل الضرر »^(٣) . وجل قوله سبحانه ﴿ وَإِذَا حَشَرَ النَّاسَ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾^(٤) وأيضا قوله ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ كلاً سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً^(٥) . لذلك يخبرنا الحق أن هؤلاء الناس هم أخسر الناس فئة وأخسرهم صفقة لأنهم خسروا رضوان الله وجنته وتبراً منهم الذين اتبعوهم وهم بدورهم تبرءوا من الذين اتبعوا .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ
وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٤﴾

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم في طريق مغاير لطريق الذين خسروا أنفسهم . إن هؤلاء (أي المؤمنين) قد أختبوا قلوبهم لله وخشعت أفئدتهم وسكنت واطمأنت إلى ربها فاستوعبت أمره ففعلته وعقلت نهيها فاجتنبته . والعبد المؤمن يحب كل ما أمر الله به فيفعله فهو حبيب مطاع ، وبذلك كانوا هم أصحاب الجنة وفيها خالدون .

(١) القرطبي ١٩/٩ . (٢) ابن كثير ٤٤١/٢ .

(٣) ابن كثير ٤٤١/٢ . (٤) الأحقاف : ٦ .

(٥) مريم : ٨١-٨٢ .

سُورَةُ هُودٍ

وكيف يسوّى عاقل بين المؤمنين والكافرين . مثل الفريقين كالأعمى ، وهو الكافر الذى غمت على قلبه ظلمة حجبتة عن معرفة الحق ، وكالبصير وهو المؤمن الذى شاهد الحق قلبه فأمن به . كيف يسوى الله بين الأصم الذى طبع الله على أذنيه وبين السميع الذى استمع بقلبه مع أذنيه فاستطاع أن يفرق بين الحق والباطل ، هل يستوى الفريقان عند ربك ؟ كلا !!

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُكَادِبُوا أَلْرَأْيَ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نُنْظِئُكُمْ كَذِبًا ﴿٢٧﴾

يذكر الحق سبحانه وتعالى أنه قد أرسل نوحا عليه السلام إلى قومه فقال لهم إني لكم نذير مبين ، أدعوكم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن أطعتم أمرى فإنى أبشركم بأن الله سيرضى عنكم وسوف ينجيكم سبحانه وتعالى من عذاب يوم أليم لا ينجو من هلاكه إلا من آمن بالله ثم برسله واعتقد أن الدنيا ساعة وبعدها حساب شديد وعذاب أليم . ولكن الملائكة من عليه قومه أجابوه فى غطرسة وكبرياء : يا نوح ما نرى أحداً اتبعك إلا من هم أراذلنا ، أى « أخسائونا وسقطنا وسفلتنا »^(١) وعيروا نوحاً بأن الفقراء هم الذين صدقوه . ودائماً لا يقاوم الحق إلا أصحاب الدنيا المالكون لها خوفاً على دنياهم . والإنسان عند الله يُقدر بما حمل قلبه من إيمان ووعى عقله من الحق . أما المال فعرض زائل ومتروك فى الدنيا عند الموت وصاحبه يحاسب عليه . ولجهل الأغنياء من قوم نوح بحقيقة الأمر كان ردهم على نوح هو دليل جهلهم بالحق . فلو كُشف عن قلوبهم وعقولهم لووجدوا أنهم هم الأراذل وأنهم هم بادئوا الرأى دونما نظر أو تفكر أو تعقل ، وأن الفضل والصواب والعقل والإنسانية إنما كل ذلك لأصحاب نوح الذين لبوا نداءه .

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ يَدَيْنِهِم مِّن رَّبِّ وَءَانْتَنِ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ

(١) القرطبي ٩/ ٢٣ .

سُورَةُ هُودٍ

أَنْزَلْنَاهُمْ مَكُوهًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمٍ لَا اسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنْ أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

قال نوح لجماعة المتكبرين من قومه : أرايتم أننى أكذب عليكم ؟ وكيف بأمركم عندما تنكشف الحقيقة وتعلمون أنكم أنتم الضالون وأننى على بينة وبقين من ربى وأتانى رخصة من عنده ؟ إنكم تعاليتهم على الحق وليس على أن ألزمكم به ، ولكن أمرت أن أبلغكم إياه ، ومادمت له كارهين فإلى الله مرجعكم وعليه حسابكم . ويا قوم اعلموا أنى لا أسالكم على ما أهديكم إليه وأدعوكم لاعتقاده أجراً ، إنما أجرى على الله رب العالمين . وأما الذين صدّقوا برسالتى ما أنا بطاردهم ، إنهم أمتى وإنهم ملاقو الله وسيسالنى عنهم فلن أخذهم ومن ينصرنى من الله إن طردتهم ما أراكم إلا قوماً تجهلون ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ (١).

ويا قوم لست ملكاً ولست بمطلع على الغيب ولا أملك التصرف فى خزائن الله فأنا بشر مثلكم ، ولا أقول للذين تزدرىهم أعينكم أى تحقروهم وتكرهونهم إنهم ليس لهم ثواب عند الله على أعمالهم فالله أعلم بهم وبما فى نفوسهم ، فإن قلت هذا الذى تريدونه فأنا إذن من الظالمين .

قَالُوا يَنْتُحُونَ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جَدَلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ

(١) الأنعام : ٥٢ .

سُورَةُ هُودٍ

تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ
مِّمَّا تُجْحَرُونَ ﴿٣٥﴾

لقد استعجل قوم نوح عذاب الله لهم ، فقالوا لنوح عليه السلام قد أعدت علينا القول مرارًا وهددتنا بما عند ربك من العذاب فأتنا بما وعدت وهددت إن كنت من الصادقين . قال نوح عليه السلام : إن الله إن شاء عذبكم فلستم بمعجزين له إذ سبحانه الفعال ، واعلموا أننى عبد الله ورسوله أفعل ما أومر به وإن لم تنتفعوا بنصيحتى فأمرى إلى الله وأمركم كذلك إليه سبحانه . والله يشاء لعباده الخير فإن عاند العبد ربه فالله على ما يشاء قدير ، وإن عاقبكم وأهلككم بسبب غوايتكم وضلالكم الطريق فعليكم ظلمة غوايتكم وهو ربكم وإليه ترجعون . ربما يقول العرب من قریش إن محمدًا يفترى ما يقول فقل لهم يا محمد إن افتريته فأنا المسئول عنه عند الله الذى يعلم أننى بريء مما ترتكبون فى حقى وحقه سبحانه من الافتراء . وهذه الآية ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ « كلام معترض فى وسط هذه القصة مؤكد ومقرر لها » (١) .

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّأَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا
إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

أوحى الله تعالى إلى نوح بأنه لن يؤمن إلا تلك الجماعة التى آمنت بك واتبعتك ، فلا تحزن يا نوح على هؤلاء الضالين المكذبين ، إنهم مهلكون بالغرق ، واصنع الفلك أى السفينة وخذ فيها كل من آمن بك وأهلك المؤمنين بك . نعم اصنعها بعين الله وبعلمه وبقدرته هذه هى سفينة النجاة لمن آمن بالله ورسوله وهذا هو عقابى لهم بدعائك عليهم إذ قال نوح ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا ﴾ (٢) - ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ (٣) .

(٢) نوح : ٢٦ .

(١) ابن كثير ٢ / ٤٤٤ .

(٣) القمر : ١٠ .

سُورَةُ هُودٍ

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأْتُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا
فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ
عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

أمر الله نوحا أن يصنع السفينة وكلما مرت عليه جماعة من قومه سخروا منه إذ إنه يصنع سفينة في مكان غير جائز لصنعها به وهو الجبل وهم لا يدرون مكر الله وآمنون من عذابه ، لكنّ نوحًا والذين معه هم الساخرون منهم حقيقة لأنهم يعلمون مصير هؤلاء المجرمين قائلين لهم ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

لقد جاء وعد الله لنوح ففار التنور . والتنور : وردت فيه أقوال عديدة منها أنه وجه الأرض ، أو هو أماكن النار من الحجارة ، أو هو أعلى الأرض كما أوردها العلماء ^(١) . وجاء أمر الله لنوح أن يحمل في السفينة : من كل زوجين اثنين حتى يتم الاحتفاظ بنسل المخلوقات بعد الطوفان ، ثم الأهل المؤمنين بنوح إلا من سبق عليه القول منهم ، ثم من آمن كذلك ، أي أحملهم أيضًا في السفينة ، ولكنه لم يؤمن مع نوح إلا قليل . يقول ابن عباس - رضى الله عنهما - : آمن من قومه ثمانون إنسانًا منهم ثلاثة من بنيه سام وحام ويافت وثلاث كنانن ^(٢) له .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرُدُهَا وَمُرْسُهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْتِى إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعِصْنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ

(١) انظر : هذه الأقوال في تفسير القرطبي ٣٣/٩ وما بعدها .

(٢) كنانن : جمع كنة وهى امرأة الابن أو الأخ - انظر القرطبي ٣٥/٩ .

سُورَةُ هُودٍ

لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَتَّأَرْضُ اِبْلَعِ مَاءَكَ وَيَنْسَمَاءُ أَقْلَعِ وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ
الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

يخبر الله عن نوح عليه السلام أنه قال لمن ركب معه وآمنوا به اركبوا فيها باسم الله سيرها ومنتهاها إني ربي لغفور رحيم . وجرت السفينة بهم في موج يشبه الجبال لقوته وغزارته وساعتها نادى نوح ابنه يا بني اركب معنا . قيل إنه كان كافراً واسمه كنعان وقيل يام وكان في معزل من دين أبيه ^(١) .

مازال نوح ينادى ابنه يا ولدى اليوم لا نجاة إلا لمن آمن وركب السفينة . وقال الولد العاق الكافر ساوى إلى جبل يعصمنى من الماء . وألحّ نوح على ولده بأنه لا عاصم اليوم من أمر الله ولكن ظلمة الكفر خيمت على الولد وألحّت عليه فلم يُجب أباه فكان من المهلكين .

وهنا قيل يا أرض ابلعى ما أخرجته من ماء وأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك ، وغِيضُ الماء أى شرع في النقص . وتحققت دعوة نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، فلم يبق منهم شيء ، استجابة لدعوة نوح عليه السلام . واستوت السفينة على الجودي وهو جبل بالقرب من إقليم الموصل بالعراق . وقيل إنه « جبل بالجزيرة ، تشاхت الجبال يومئذ من الغرق وتطاوت فغرقت ، وتواضع هو الله عز وجل فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام » ^(٢) .

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ
الْحَكَمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ
أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾

(١) انظر القرطبي ٣٨/٩ .

(٢) انظر ابن كثير ٤٤٦/٢ .

سُورَةُ نُوحٍ

يحكى القرآن الكريم بعض ما حدث قبل غرق القوم : إذ نادى نوح ربه إن ابني من أهلي فنجه . ظناً منه أن ابنه من أهله وداخل في وعد الله في قوله ﴿ احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ﴾ ولذلك قال له نوح ﴿ وإن وعدك الحق ﴾ ويرد الله عليه : لا يانوح إن ابنك ﴿ ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ . ولم يقتصر الحق على ذلك بل شرح لنوح القضية فليس لك وإن كنت نبياً ورسولاً أن تسألني ما ليس من حق العبد فاحذر يا نوح أن تفعل ذلك فتكون من الجاهلين (أى الآثمين) .

يقول القرطبي « في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين » . (١) وهنا سلم نوح النبي الأمر لربه قائلاً ﴿ ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ . وهذا الموقف من نوح يعلن عن عظمة العصمة في الأنبياء .

قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

أمر من الله بالهبوط من السفينة إلى الأرض ، والملائكة تقول لهم اهبطوا بسلام منا وأمن فلا تخف يا نوح إن عناية الله معك وذلك السلام منا تصحبه بركاتك عليك وعلى أمم ممن معك . ويقول العلماء إنه قد دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة ، وأيضاً دخل كل كافر في ﴿ وأمم سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

تلك من أنباء الغيب نقصها عليك يا محمد ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل القرآن ، فاصبر على أمر تبليغ رسالتك وإيذاء قومك لك إن العاقبة للمتقين الخائفين من لقاء الله العاملين بكتاب الله وسنة رسوله .

وَالِإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَإِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يٰقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِ اجْتَبَيْتُمُوهُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيَّ إِن كُنتُمْ تُبْغُونَ إِلَّا لِنَفْسِكُمْ فَتَنُوا بَيْنَكُمْ وَلَٰئِي لَ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤٧ .

سُورَةُ هُودٍ

فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

إن في قوله سبحانه ﴿أخاهم هوداً﴾ معنى يرقق القلب ويزيل الصدأ من النفوس ،
فماذا فعل معهم أخوهم هود ؟ قال لهم : يا قومي اعبدوا الله ليس لكم إله غيره هو
ربكم وإليه مرجعكم . وإنكم لو عبدتم غير الله مالا ينفعكم ولا يضركم تكونون
مفترين على الله الذي خلقكم فأطعمكم فستركم . وقال لهم أيضاً : يا قومي لا
أسألكم على دعوتي إياكم إلى عبادة الله الواحد أجراً ، إن أجرى إلا على الذي فطرني
والذي فطر السموات والأرض غير محتاج إليكم . فيا قومي راجعوا أنفسكم وتوبوا إليه
وامثلوا لأوامره يرسل السماء عليكم مدراراً بسبب توبتكم واستغفاركم إياه .

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّهِ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾

لقد تمادى قوم هود في غيهم وضلالهم فقالوا له : نحن لن نترك آلهتنا بمجرد طلبك
ذلك منا وما نحن لك بمؤمنين . وأنت لم تأتنا ببينة أى حجة أو برهان على ما تدعيه .
بل ازدادوا في تماديهم على هود عليه السلام فرموه بالجنون وقالوا له في سخرية واستهزاء :
لقد مسك الجنون ، إذ غضبت آلهتنا عليك فأصابك ما أصابك بسبب « نهيك عن
عبادتها وعيبك لها » .^(١) ولكن هوداً أجابهم في ثبات وثقة قائلاً لهم : إني أشهد الله
واشهدوا أنتم كذلك أنني بريء مما تشركون مع الله غيره . فكل ما تتعبدون به لغير الله
أنا ومن اتبعني برآء منه ولن نقركم على شرككم . ثم بإصرارهم على كفرهم ، قال لهم
هود فكيدوني جميعاً بما ملكتم من حطام دنياكم أنتم وأصنامكم التي تعبدونها ثم
لاتؤخرون ، وهذا كمال الثقة في الله وبالله .

(١) ابن كثير ٢/ ٤٤٩ .

سُورَةُ هُودٍ

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِن رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾

إنى توكلت على الله ربى الذى خلق كل شىء الذى ما من دابة فى الأرض إلا وقد قدر لها رزقها وحياتها إن ربى على صراط مستقيم « لا خلل فى تدبيره ولا تفاوت فى خلقه سبحانه » . (١) و ا قومى ، إن تتولوا عما جئتكم به فقد ثبتت عليكم الحجة وأقيم عليكم البرهان والله قادر على أن يستخلف قوماً غيركم طائعين ذاكرين الله موحدين له عابدين إياه إن ربى على كل شىء حفيظ .

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِّءَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

وجاء أمر الله فنصر هوداً ومن معه وأهلك الكافرين ، وأصبحت عاد عبرة لما جحدوا بآيات الله وعصوا رسله وكانوا من أتباع الجبابرة والمعاندين لأمر الله ورسله وكلماته . « وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد » (٢) .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ ﴿٦١﴾

أرسل الله سبحانه وتعالى نبيه صالحاً إلى قوم ثمود ، وكانوا يسكنون أرضاً بين تبوك

(١) القرطبي ٥٣/٩ . (٢) ابن كثير ٤٥٠/٢ .

سُورَةُ هُودٍ

والمدينة في صحراء الحجاز . وقال لهم صالح إننى رسول من رب العالمين الذى خلق كل شىء ، ومهمتى فيكم أن أدعوكم إليه وأعرفكم عليه ليس لكم إله غيره فهو الذى خلق ذلك العالم أرضه وسماؤه وأنشأكم من الأرض واستعمركم فيها لتعمروها ، فواجبكم أن تشكروه على إيجادكم وتستغفروه على تقصيركم فى عبادته فاستغفروا ربكم وتوبوا إليه إن ربي قريب مجيب .

قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّآ لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١٢﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِّنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣﴾

أما الآن يا صالح وقد دعوتنا إلى هجر ما كان يعبد آباؤنا ، فإننا فى شك من صحة ما تدعوننا إليه ولدينا ريب فيه . تدعوننا إلى ذلك وقد كنّا نأمل فيك أن تكون سيدا علينا قبل مجيئك بهذا البيان ، فانقطع الآن رجاؤنا منك وأملنا فيك . فيرد عليهم صالح قائلا : يا قومى أنا على يقين من ربي ﴿ وآتاني منه رحمة ﴾ أى نبوة ورسالة . وقيل الهداية وقيل الإيمان والإسلام . ﴿ فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير ﴾ أى تضليل وإبعاد عن طريق الله .

وَيَتَقَوَّمُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿١٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ؕ الْآلُ ثَمُودَ أَكْفَرُوا بِرَبِّهِمْ ؕ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿١٨﴾

قال صالح عليه السلام : يا آل ثمود هذه هى الناقة التى طلبتم إخراجها من الجبل ، فأخرجناها لكم بأمر الله من الجبل والصخور الصماء آية خارقة للعادة لتشهدوا

سُورَةُ هُودٍ

فيها قدرة الحق سبحانه وتعالى غير المحدودة ، لا تمسوها بسوء . إنها آية الله لكم اتركوها
ترعى في حشائش الأرض لأنكم إذا فعلتم فسيأخذكم الله بعذاب أليم لا تقدرون عليه
ويكون به هلاككم . ولكنهم لم يسمعون ففعلوها أى قتلوها ، فأبلغهم ، صالح أن
يتمتعوا في دارهم ثلاثة أيام انتظاراً للهلاك الواقع عليهم من الله ، وذلك نفسه عذاب
سابق للعذاب . وجاء غضب الله وهزّت الصواعق الأرض من تحتهم وزلزلت الأرض
زلزالها وأخذت الصيحة الذين ظلموا وحاربوا الله وقاوموا نبيه صالحاً فأهلكهم الحق بما
ظلموا وأصبحوا في ديارهم جائمين ، صوراً هشة كأنها أجساد خاوية ، فإن اقتربت
منها أو لا مستها فكانها هشيم تذروه الرياح ، وهكذا كل من تكبر على أن يدين الله رب
العالمين ووعد الله غير مكذوب .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ
بِعِجْلٍ خَافٍ ۖ فَامْرَأَ آيِدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ۖ

إن الملائكة جاءت تبشر إبراهيم وسلمت عليه ورحب بهم إبراهيم ، ثم انصرف إلى
داخل بيته فجهز عجلًا حينئذ (أى مشويًا) وقدمه تحية لضيوفه ودعاهم لياكلوا ،
ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى الطعام . ولما لم يستجيبوا لدعوة إبراهيم خاف منهم فقالت
له الملائكة يا إبراهيم إنا رسل ربك فلا تخف إنا مرسلون من الله إلى قوم لوط لنذيقهم
جزاء إعراضهم عن الحق الذى جاء به لوط .

وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ نَهْأً يَاسْحَقٌ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ۖ قَالَتْ
يَبْنَوتَى ۖ أَلِدْ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلٌ شَيْخًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۖ

لقد بشرت الملائكة امرأة إبراهيم سارة بأنها ستلد لإبراهيم إسحاق وسيلد إسحاق
يعقوب ، لأنها كما يقول القرطبي « لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر تمت سارة أن
يكون لها ابن وأيست لكبر سنها فبشرت بولد يكون نبيًا ويلد نبيًا فكان هذا بشارة لها بأن

سُورَةُ هُودٍ

ترى ولد ولدها . (١) وقيل إنها حاضت في هذه الساعة ، وهذا معنى قوله تعالى ضحكت . ثم انصرفت الملائكة إلى قوم لوط فأهلك الله الكافرين بهم . وهذا سيتبين لنا بعد قليل .

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ
مُجِيدٌ ﴿٧٣﴾

حقاً ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ (٢) فلا تعجبي من هذا يا سارة إنها هي إرادة الله وقدرته فإن الله على ما يشاء قدير ، رحمة الله عليكم يا أهل البيت وبركاته .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتْلُو آيَاتِهِ لَعَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَرْحَمُونَهُ ۚ فَمِنْهُمْ يُعِزُّهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ وَيُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُدْعُونَ ۚ
عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

لما انتهت مهمة الملائكة مع إبراهيم عليه السلام ذهبوا إلى قوم لوط في هيئة الآدميين وعليهم وقار ورهبة ووجاهة وذلك بعد أن أخبروا إبراهيم عليه السلام بما يريدون فعله ، ودار حوار طويل بين إبراهيم عليه السلام وبين الملائكة ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ . ولحلمه : كان يأسى على ما فات قوم لوط من الإيمان . ولأنه كان يرجع إلى الله تعالى في الأمور كلها : رغب في إنقاذهم خوفاً على المسلمين فيهم (٣) ، ولكن قال له ربه سبحانه ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ الجدال ، إن عذابي نازل بهم لا محالة ، وفي الوقت نفسه : ﴿ نحن أعلم ﴾ بالمسلم فيهم ﴿ لننجينه ﴾ (٤) وانتهى الحوار ، وكان ما أراد الله .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾
وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُمْ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقَوْمِ هَؤُلَاءِ

(١) القرطبي ٦٩/٩ .

(٢) يس : ٨٢ .

(٣) انظر : القرطبي ٧٢/٩ .

(٤) انظر سورة العنكبوت ، الآيات : ٢٨ - ٣٥ .

سُورَةُ هُودٍ

بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ
رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾

وفي بجاجة من قوم لوط ووقاحة في أخلاقهم ، أسرعوا إلى ضيوف لوط عليه السلام
بنية الاعتداء عليهم وهم الملائكة الأطهار . فخاف لوط وتآزمت نفسه وقال لقومه
لا تفضحوني في ضيفي وعندكم بناتي - ويقصد بنات القوم « إذ نبى القوم أب لهم »^(١) .
لقول الله تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾^(٢) وهو أب
لهم ، - يا قومي هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم بالزواج . ولكن أجاب قومه بأن رغبتهم
القبیحة المنكرة السيئة ليست متوجهة إلى النساء ولكن للذكور ، وبذلك سيعتدون على
ضيفه . ولوط في حيرة ودهشة من صنيع القوم الفاحش المنكر وهو يقول أليس منكم
رجل رشيد؟ أي شديد يأمر بالمعروف وينكر هذا المنكر .

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ
أَوْءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾

يرد هؤلاء القوم الكافرون « إنك لتعلم أنه لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن . . وليس
لنا غرض إلا في الذكور وأنت تعلم ذلك فأبيّ حاجة في تكرار القول علينا . . فإنها نريد
الرجال »^(٣) . ويشس لوط منهم وتمنى عوناً على ردهم وتمنى أنصاراً يرد بها كيد هؤلاء أهل
الفحش .

قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَاصِلُوكَ إِنَّا كَذِبَةٌ فَاصْبِرْ يَا هَلِكَ يَاقُوتَ لَوْلَا يَلْنَفِتُ
مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ
الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

(١) القرطبي ٧٦/٩ .

(٢) الأحزاب ٦ .

(٣) ابن كثير ٤٥٣/٢ .

سُورَةُ هُودٍ

قلنا إن لوطاً يئس من قومه وتمنى العون والأنصار ليستعين بهما عليهم ، أو يأوى إلى ركن شديد ينضوى عنده . « ويروى أن الملائكة وجدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن ركنك لشديد » ^(١) وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « رحمة الله على لوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد إذ قال ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ فما بعث الله من بعده نبياً إلا في ذروة من قومه » ^(٢) .

عندئذ قالت الملائكة للوط - عليه السلام - يا نبي الله : إننا بأمر الله مهلكو هذه القرية بمن فيها ، فخذ من آمن بك وأهلك المؤمنين بك كذلك إلا امرأتك فإنها من الهالكين لكونها من الضالين عن طريق الحق . وإن نهاية هلاكهم الصبح ، فأسرع واخرج من القرية قبل أن يقع عليها غضب الله سبحانه . وخرج لوط ومن معه من المؤمنين وكانوا قلة قليلة حتى جاء أمر الله .

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ
مَّنْضُودٍ ۝٨٣ مُّسَوِّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٤

جاء أمر الله فكانت القرية مع الصباح منسوفة بمن فيها فقد سلط الله عليهم حجارة مسومة أى مسمومة . والحجارة كانت معدة لذلك . وقيل يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم ، ومسومة أى « معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه » ^(٣) .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوِّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ
وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَتَقَوِّمُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥ يَقِيتُ
اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۝٨٦﴾

(١) القرطبي ٧٨ / ٩ .

(٢) رواه الترمذى كتاب التفسير باب ومن سورة يوسف ، وقال : حديث حسن .

(٣) ابن كثير ٤٥٥ / ٢ .

سُورَةُ هُودٍ

وهؤلاء قوم شعيب كانوا يسكنون ما بين بلاد الشام والحجاز أرسل الله إليهم نبيه شعيبًا ، وكان عليه السلام من أوسط أنسابهم وعلى خصال حميدة وخلق كريم شهرته بينهم الصدق والأمانة والعدل في نفسه وغيره . أرسله الله في قومه وهم قبيلة مدين وكانوا على كثرة في المال والجاه غير أنهم مع ذلك كانوا يطففون في الميزان ﴿ إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴿ ^(١) فقال لهم شعيب يا قومى لا تنقصوا الكيل ولا الميزان واعدلوا إذا باعكم الناس أو بعتم لهم . ويا قومى اعلموا أن الله خالقكم ورازقكم فيجب عليكم عبادته واتخاذهُ ربًّا معبودًا واحدًا ولا تشركوا به شيئًا إني أخاف عليكم عذاب يوم محيط لا تجدون فيه ما توفون به ما ظلمتم وأبخستم وأطفتم ، واعلموا أن ما تبقى لكم من أعمالكم الصالحة التى تريدون بها وجه الله هى التى لكم من دنياكم عند خروجكم منها . ﴿ بقية الله خير لكم ﴾ أى « ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس » ^(٢) . وحقًا ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ ^(٣) .

قَالُوا يَشْعِيبُ أَصَلَوْتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَكُونُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكَم عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

إن قوم شعيب لم يستطيعوا أن يتلقوا الحق من شعيب بعقول فاقهة مستنيرة ، وقلوب واعية لتقدر على فهم وفقه ما يقول شعيب ، فقالوا له على سبيل السخرية والاستهزاء : ما هذه الصلاة التى تمنعنا من عبادة أصنامنا والتصرف فى أموالنا كيف نشاء !!؟ اعقل يا شعيب لقد عرفناك فىنا الحليم الرشيد . قل غير هذا . . . قبحهم الله !! فأجاب شعيب : أتعجبون من أمرى إنه حق أوحى به إلى ربى وكلفنى أن أبلغكم إياه لنستقيم

(١) المطففين : ٢ ، ٣ .

(٢) ابن كثير ٢ / ٤٥٦ . (٣) المائدة : ١٠٠ .

سُورَةُ هُودٍ

معًا على طريقه المستقيم ، وبذلك يرزقنا رزقًا حسنًا طاهرًا من الحرام ، وكل ظلم للناس حرام عند الله . وأنا معكم إن أطعتم أمر الله فلن أخالفكم إلى ما أناكم عنه وأفوض الأمر إلى الله وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أرجع وأنيب .

وَيَقَوْمٍ لَا يُجِرُ مَنَّاكَمُ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ
أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿١١﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ
تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿١٢﴾

قال لهم شعيب : يا قومي لا يحملنكم ولا يدفعنكم عداوتكم لي وبغضكم لي على أن تستمروا على ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي فيصيبكم مثل ما أصاب من قبلكم من قوم نوح وهود وصالح ولوط ، ثم استغفروا ربكم بسبب ما اقترفتموه من آثام ومعاص إن ربي رحيم ودود لمن تاب ورجع إليه .

قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ
لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ
وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢﴾ وَيَقَوْمِ
أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَمَن هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٣﴾

قال قوم شعيب له مصريين على ضلالهم : يا شعيب ما نفقه وما نفهم لك قولاً ولن نرضى لك عملاً تأمرنا به ولا نجد حكمة فيما تقول لنا وإنا لنراك فينا ضعيفاً أوحده ، حتى عشيرتك لا تتبعك ، ولولا معزة أهلك وعشيرتك عندنا لرجمناك بالحجارة وما أنت في هذه الحال بعزيز أو غال علينا حتى نتركك . قال يا قومي : أتركونني وتتركون عذابي من أجل أهلي وعشيرتي ، وليس من أجل الله الواحد الذي خلقنا جميعاً وما حملت الأرض وما أقلت؟ إن كلامكم لباطل إن ربي محيط بخلقهم وسيرهم ما تستحقون

سُورَةُ هُودٍ

من العقوبة والغضب . فيا قومى اعملوا على مكانتكم أى طريقتم وافعلوا ما تشاءون
وإنى لعامل بما أمرنى الله وسوف تعلمون من يخزيه الله سبحانه جلت قدرته فارتقبوا أمر
الله وإنى لمعكم أرقبه وأنا مؤمن به .

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿١٤﴾ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا
بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿١٥﴾

لقد جاء أمرنا وحن موعد القضاء من الله على الظالمين .
يقول ابن كثير « وقوله ﴿ جاثمين ﴾ أى هامدين لا حراك بهم . وذكرها هنا أنه
أتتهم الصيحة وفى الأعراف رجفة وفى الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة
اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه » (١) .
وهكذا أهلكنا قوم شعيب كأنهم لم يعيشوا فى ديارهم تلك من قبل مثلهم مثل
ثمود ، وكذلك تكون نهاية كل فاسق متكبر كافر .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوهُ
أَمْرٌ فِرْعَوْنُ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ
النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَرْزُودُ ﴿١٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَبْئَسُ
الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿١٩﴾

أرسل الله موسى - عليه السلام - إلى فرعون يدعو إلى عبادة الله وتوحيده ، ومع موسى
سلطان مبين أى قوة من الله تحوط به وتحفظه من كيد الكافرين ، وهذا السلطان كان
متمثلاً فى قوة موسى وحجته وإحدى معجزاته وهى العصا . وكان حول فرعون أشراف
قومه وقادة جيوشه ومستشاروه وكهّانه . والشعب دائماً فى أمة الكفر مسوق بقوة بطش

(١) ابن كثير ٢/ ٤٥٨ .

سُورَةُ هُودٍ

الحاكم وزبانيته . واتبع الشعب أمر طاغيته فرعون وهو أمر غير رشيد إذ يوم القيامة سيساق فرعون وخلفه قومه إلى النار بسبب ذلك . ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ أى « بئس المدخل المدخول » (١) .

كما أنه تنزل عليهم اللعنات في الدنيا . ﴿ ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ أى بئس العطاء يعطى لهم فيها (٢) .

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَنَبَّيْ ﴿١١﴾

تلك يا محمد من أنباء القرى الماضية نقصها عليك ، منها قائم أى عامر وحصيد أى هالك ، وما ظلمناهم عندما أهلكناهم لأن الله سبحانه منزه عن الظلم فهو العدل والحق . ولكننا أهلكناهم بسبب استحقاقهم لهذا الهلاك لأنهم هم أنفسهم ظالمون ولم تغن عنهم أصنامهم التى اتخذوها عوضاً عن الله سبحانه وتعالى عما يصفون فخسروا الدنيا والآخرة معاً ، وهذا هو ما يفعله الله سبحانه بالظالمين .

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٤﴾

فكما أهلكنا تلك القرى وأهلها الظالمين المكذبين كذلك نهلك كل من يشابههم فى أقوالهم وأفعالهم ، إن أخذنا وعقابنا أليم شديد .

وعن أبى موسى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » (٣) .

(١) القرطبى ٩٣ / ٩ . (٢) المرجع السابق ٩٤ / ٩ .

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه .

سُورَةُ هُودٍ

إن في ذلك لآية لمن عرف الله وآمن بما جاء على يدي رسله من الحق وعمل لليوم الآخر ، ذلك اليوم الذي يجمع فيه كل الناس فهو يوم عظيم تشهده الملائكة والأنبياء والرسل وجميع الخلائق من الإنس والجن والطير يوم لا شك في إتيانه وما تؤخره إلا من أجل ميعاد ثابت .

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا
فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ
خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٨﴾
فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا
لَمَوْفُونَ بِمَا نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٩﴾

إن هذا اليوم يوم عصيب لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ ^(١) - وجل قوله تعالى ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ ^(٢) .

وفي حديث الشفاعة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم » ^(٣) .

وفي ذلك اليوم أيضاً شقى وسعيد ، شقى بما عصى وسعيد بما قدم من الصالحات ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ ^(٤) والأشقياء في النار - لهم فيها زفير وشهيق - لا يخرجون منها والسعداء في الجنة أبداً إلا ما شاء ربك . لكن ما المغزى وراء الاستثناء الموجود وراء كل فريق بقوله تعالى ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ ؟

يقول ابن كثير إن الاستثناء « عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبين والمؤمنين حتى يشفعوا في أصحاب الكبائر

(١) النبأ : ٣٨ . (٢) طه : ١٠٨ .

(٣) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى والإمام أحمد في مسنده .

(٤) الشورى : ٧ .

سُورَةُ هُودٍ

ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتُخْرِجُ من النار من لم يعمل خيراً قط وقال يوماً لا إله إلا الله « (١) » .

أما الاستثناء في الآية التالية ، آية ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ ، فيقول عنها ابن كثير أيضاً «معنى الاستثناء هاهنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته بل هو موكل إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائماً» (٢) .

أما قوله ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ أى غير مقطوع . فالعذاب عذاب خالد أبدى والجنة ﴿خالدين فيها﴾ أبداً لا موت فيها . بل إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول عن الموت في الحديث الذى جاء فى الصحيحين « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال ي أهل الجنة خلود فلا موت وي أهل النار خلود فلا موت » . كما ورد فى الصحيح أيضاً « فيقال ي أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » (٣) .

فلا تتعجب يا محمد من الباطل الذى يعبدونه ، فليس لهم حجة أو دليل فى عبادتهم غير الله إلا آباؤهم الضالون ، وإن الله موفيههم نصيبهم غير منقوص ولا يظلم ربك أحداً .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١﴾ وَإِنْ كُنَّا لَأَيُّؤِفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾

اعلم يا محمد أننا كذلك آتينا موسى الكتاب ، فما كان من قومه بنى إسرائيل إلا أن اختلفوا فى حقيقته وحججه ، ولولا أن الله قضى فيما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى بينهم ولعجل لهم ما يستحقون من العذاب ولكن عذاب الآخرة أشد وأخزى وأخلد وأبقى . واعلم يا محمد أن جميع من كفروا سواء قبل موسى أو بعده أو من قومك : فالنار موعد المعاندين منهم والمصريين على ألا يجيبوا ويستجيبوا لدعوة الله وأمره

(١) ابن كثير ٢ / ٤٦٠ .

(٢) ابن كثير ٢ / ٤٦٠ .

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى والإمام أحمد فى مسنده والدارمى فى سننه .

سُورَةُ هُودٍ

فربك لا يخفى عليه شيء والله هو المحصى للأعمال كبيرها وحقيرها ، وكل سيجازى على عمله .

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

أمر من الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يستقيم . وليس معنى ذلك أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن مستقيماً ، فهو عليه الصلاة والسلام فُطر على الاستقامة من طفولته ، ولكن الله سبحانه يشرقه بأن يأمره ليرقى من رقى إلى أرقى في مراتب الاستقامة . فاستقم يا محمد واثبت أنت ومن معك على الإيمان والاستقامة ، واثبت وارتق في نور كمالك المنعم به عليك من الله . والاستقامة في الإسلام إنما هي التلبس بروح الدين ليستطيع الإنسان أن يرقى في سلوكه وأخلاقه ببعض صفات الحق .

وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ
ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

ولا تركنوا وتميلوا إلى الظالمين « ولا ترضوا بأعمالهم » ^(١) فتنتقل ظلمة بغيهم إليكم فتجاوزوا الحد المرسوم للعدل والحق فتُحرموا من نور البصيرة وتمسكم النار ، ولن تجدوا ساعتها من ينقذكم ويخلصكم أو يدفع عنكم عذاب الله ثم لا تنصرون .

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ
ذِكْرَى لِّلذَّكَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

يأمرنا الحق أن نقيم الصلاة ، وكأن الله يعلمنا أنه لا بد من أن نزكى النفس والبدن والقلب والضمير ، وذلك بالاستقامة على ما أمر به ثم بهجران الظالمين . وذلك يلزم بأن نرعى العدل في أنفسنا وفي الناس وطهارة الضمير والبدن ويقظة القلب مع النفس لنقف بين يدي الحق لنقيم الصلاة ، فالصلاة حضور بين يدي الله الخالق الرازق المحيي المميت الباعث . فأول ما ينظر في عمل العبد الصلاة فإن صلحت فلصاحبها البشرى

(١) رأى ابن عباس أورده ابن كثير ٤٦١/٢ .

سُورَةُ هُودٍ

بأن كل شيء بعدها مقبول لأنها ميزان الأعمال . فالصادق في صلاته لا يكذب خارجها والمتطهر لصلاته يخاف أن يمسّه نجس والحاضر في صلاته قد تمتع بالحضور في حضرة الله فشاهد أنوار الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فعاش الاستقامة بين يدي الخالق فذاق طعم شراب المحبين واستمع إلى رب العالمين وأخذ طريقه مع الذين يقيمون الصلاة بحضور قلب وخشوع روح ويقظة ضمير فأقام الصلاة بقلبه وروحه وسجدت جوارحه وقالت لا معبود بحق إلا الله .

أما قوله ﴿ إِن الْحَسَنَاتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ترغيب في فعل الخيرات بكثرة حتى تُذهب وتمحو ما علق بالإنسان من ذنوب سالفة لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حديث أبي ذر « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »^(١).

واصبر يا محمد على الصلاة ، نظير قوله تعالى ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾^(٢) وقيل : « المعنى واصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى »^(٣) إن الله لا يضيع أجر المحسنين .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا

مُجْرِمِينَ

إن الله تبارك وتعالى يقول لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - : انتبهوا ، فقد كان من القرون من قبلكم أقلية من خيرة هذه القرون ، تذكر الناس بما عليهم لله وبما أنعم به الله عليهم ، وتبين لهم أنواع الفساد وأعمال الخير وسوء أهل الفساد ومكارم وفوز أهل الخير . وهؤلاء كانوا لا يخيفهم بطش ظالم ولا طغيان فاسد من حكامهم الطغاة . وقد نجينا الذين لم يفتنوا في أمرنا . أما الذين ظلموا فاتبعوا شهواتهم وملذات الحياة ، هؤلاء قوم مجرمون . وفي هذا تحضيض على إنكار المنكر والأمر بالمعروف وإقراره .

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ، والترمذي في سننه ، والحاكم في المستدرک عن معاذ والإمام البيهقي في شعب الإيوان عن أبي ذر . ورواه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه .

(٢) طه : ١٣٢ . (٣) القرطبي ٩ / ١١٣ .

سُورَةُ هُودٍ

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

ما كان الله العدل الحق ليهلك أهل القرى وهم على الحق ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بانحرافهم عن شرائع ربهم وحادوا عن طريق أنبيائهم . ولم يكن « ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط . ودلّ هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب »^(١) .

وفي قدرة الله أن يجعل الناس أمة واحدة على فهم واحد ، ولكن ليستين الحق من الباطل والعامل من العاقل ، فيميّز بين الناس : عرض لهم دينه ، وأنعم عليهم بعقل يميزون به بين الحق والباطل ، فأمن من آمن ، وكفر من كفر ، فحق العقاب والثواب . وهي نظير قوله تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾^(٢) أما قوله ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ أى على أديان شتى . ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ « بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف »^(٣) وهو استثناء منقطع من ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ ولكن ثبت في علم الله ومقدوره أنه سيملاً الجنة بمن يستحق منهم دخول الجنة ، وهكذا النار .

وعن أبي هريرة قال : قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة ما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . فقال الله عز وجل للجنة : أنتِ رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار أنتِ عذابى أنتقم بك ممن أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها . فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها ربّ العزة قدمه فتقول قط قط وعزتك »^(٤) .

(١) القرطبي ٩/ ١١٤ . (٢) يونس : ٩٩ .

(٣) القرطبي ٩/ ١١٤ .

(٤) رواه الإمام البخارى فى صحيحه والإمام أحمد فى مسنده .

سُورَةُ هُودٍ

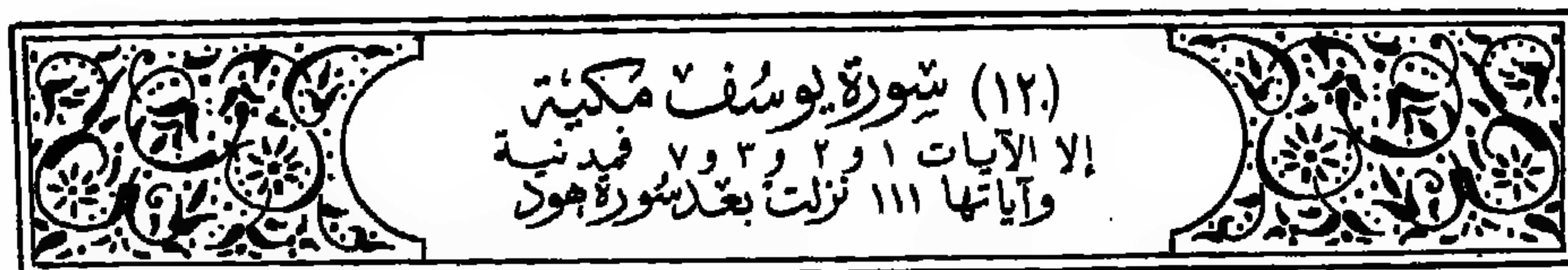
وَكَلَّا نَقْصُرْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

تحمل الرسل باطل الناس وصابروا وصبروا وأتم كل نبي رسالته إلى أمته ، حتى جاء محمد - صلى الله عليه وسلم - وحمل في قلبه ومشاعره كل ما قص الله عليه من أنباء الرسل ، فثبت الله بذلك قلبه واحتمل الحق لما جاءه من الله نور قذف به سبحانه في قلبه ، وأصبح كل ما يحوط بالنبى ويشع حوله حق وموعظة وذكرى للمؤمنين ، كما احتمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا صلف المشركين والكافرين حتى نصر الله الحق أو ماتوا دونه .

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾
وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ
وَمَارْبُكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

قل يا محمد للذين لا يؤمنون اعملوا على طريققتكم إنا على طريققتنا مع الله وشرعه وهديه ، وانتظروا عقاب الله وردعه لكم إنا منتظرون ﴿١٢١﴾ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴿١٢٢﴾^(١) لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وقد أتم الله وعده لعبده ورسوله . واعلموا أن الله غيب السموات والأرض وإليه سبحانه وتعالى يرجع الأمر كله وإننا عابدون له متوكلون عليه والمؤمنون معنا في ثبات ومثابرة . واعلموا أيها الظالمون المكذبون أن الله لن يخلف المؤمنين وعده ولن يترك رسوله وما هو سبحانه بغافل عما تعملون أيها الكافرون . فالنبى ومن معه بعين الله ولن يضيع الله عمل المؤمنين . نسألك اللهم ألا تضيع عملنا هباءً منثوراً واجعله خالصاً لوجهك الكريم يا رب العالمين .

(١) الأنعام : ١٣٥ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّيِّكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

تحدثنا عن الحروف التي بدأت بها السور وذلك في سورة البقرة . أما المقصود بالكتاب المبين فهو القرآن الكريم ، قد أنزله الله على محمد خاتم المرسلين - صلى الله عليه وسلم - يبين فيه للخلق طريق فلاحهم ، لتستقيم الحياة وتعتدل بموازين شرع الله سبحانه وتعالى . والمقصود من سرد قصص ما وقع ليوسف ويعقوب عليهما السلام إنما هو تسلية ومواساة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ليصابر ويرابط ومن معه من المؤمنين حتى ينتصر الحق ويخذل الباطل وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

لم يكن عندك علم أو أخبار يا محمد قبل أن نقص عليك هذا القصص المبين ، فعائش من سبقك في قصصهم حتى يتحقق لك النصر والفوز إن شاء الله . وسميت هذه السورة أحسن القصص لأنه « ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة »^(١) .

(١) القرطبي ٩/ ١٢٠ .

سُورَةُ يُوسُفَ

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

سَاجِدِينَ ﴿١﴾

كان لسيدنا يعقوب عليه السلام اثنا عشر رجلاً من الأولاد ، من أربع زوجات ، منهم يوسف . وكان يوسف على قسط وافر من الجمال ، صورة وخلقاً وذكاءً وإدراكاً للأشياء ، يسبق سنّه بكثير .

والمقصود بالشمس : أم يوسف ، أما القمر فهو أبوه يعقوب ، عليه السلام .
استمع يا محمد إلى أحسن القصص . فهذا هو يوسف وهو يقول لأبيه يا أبت إنني رأيت في نومي ﴿١﴾ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴿٢﴾ . ولما كانت تلك الكواكب جماداً ، ويوسف قد رآها في هياكل حية واعية للسجود فهو أمر عجيب ، ولكن يعقوب النبي عرف أنه خضوع كائنات من الكون .
وتلك الرؤية من المبشرات بالنبوة المنتظرة ليوسف ، كما سيتبين بعد ذلك .

قَالَ يَبْنَئِي لَأَنْقَضُضَ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ
عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ
رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤﴾

لقد فسّر يعقوب الرؤية بأن يوسف سيبلغ منزلة من منازل القرب لله سبحانه وتعالى . وهذا إرهاب من نبوة يوسف ، عليه السلام . وتعبير الرؤيا خضوع إخوة يوسف له ، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً ، فخشي يعقوب أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك ويكيدون له . فحذّره أبوه أن يفسر لإخوته ما رأى ، وذلك لأن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين ، فربما يوسوس لهم بحسده والتربص به . وأطاع يوسف أباه ولكن إخوة يوسف حسدوه وتربصوا به . وتستغرق الرؤية يعقوب ويعايشها ، ويقرأ في سطورها مستقبل يوسف ، ويقرأ في وجوه إخوته وفي نبرات حديثهم عن يوسف ما يشغله عليه ، لأنه يشعر بابنه بينهم لما يتمتع به من جمال الصورة والخلق ونضوج الفكر مع صغر السن .

سُورَةُ يُوسُفَ

فاسمع لى يا ولدى وربما تريك الأيام ما لم تر اليوم . إن شأنك يا يوسف لرفيع جليل ، ومستقبلك ينبئ بأن نبوة تنتظرك مصحوبة بدنيا عريضة بمناصبها وأمجادها . وكان يوسف بين الفينة والفينة يسأل أباه عن جديه إسحاق وإبراهيم ، وكان يعقوب يحكى له عنهما . وهكذا ظل يعقوب يلقي ابنه ماضى آباءه وأجداده وهو يطمئن ابنه أن الله اختاره واصطفاه للنبوة المنتظرة وأتم عليه نعمه ، أى بإرساله والإيحاء إليه ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق أى جده ووالد جدّه . ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ أى هو أعلم حيث يجعل رسالته كما فى آية أخرى .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ ٧ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿ ٨ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ ٩

إن ما فات من قصة يوسف كان بمثابة مقدمة لها فى بلاغة جليلة رائعة . وتبدأ بالإشارة المجملة إلى آيات عجيبة لمن شاء أن يبصر . وهى قصة تصور أروع أساليب القصة وسبكها وحبكها . ولعل من يدرس فن القصة يقول : إنها أساس متين لأروع القصص بكل ما يحمل من مقومات فنية من سبك وحبك ورسم محكم للشخصيات حتى تصل أحداث القصة إلى ذروتها ، فنجد الحلّ أمامنا وتنساق العبر والمواعظ التى تجرى وراء مجرى الأحداث .

لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته آيات ، أى عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه . إذ قال إخوة يوسف يحدثون بعضهم البعض : إن يوسف وأخاه بنيامين - وكان شقيقه لأمه - ﴿ أحبّ إلى أبينا منا ﴾ ونحن جماعة ، وإننا ما نظن غير ذلك . إن أبانا بسبب حبه لهما عنا لى ضلال بين واضح . اقتلوا يوسف أو اطرحوه فى أرض بعيدة عن أبيكم لا يعرف مكانه ، وبذلك يصفو أبوكم لكم ويخلص لمحببتكم ، ثم بعد ذلك نتوب ويقبل الله منا تلك التوبة ونكون صالحين ، أى أنهم أضمرُوا التوبة قبل الذنب .

قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهٖ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ
إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿ ١٠ ﴾

سُورَةُ يُوسُفَ

اقترح أحد الإخوة بآلا يقتلوا يوسف ، بل يلقوه في أسفل بئر بيت المقدس يلتقطه بعض السيارة من التجار المتجولين يستعمله في خدمته . وقد اقترح عليهم هذا الاقتراح بدلاً من أن يصلوا في عداوته إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه والتمكين له . فصرفهم الله عنه .

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

أخذ إخوة يوسف يدبرون الأمر ، فقالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ؟ إننا إخوته ونحن حراس له وسنحافظ عليه . أرسله معنا يلعب ويتمتع كأصحاب سنه الصغار . فردّ عليهم أبوهم :

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾

قال يعقوب لأبنائه : إنني أخاف أن تغفلوا عنه ، فيأكله الذئب منكم ، قالوا يا أبانا إن أكل الذئب يوسف ونحن معه فهذا أمر يجعلنا غير جديرين بتحمل المسؤولية ، ونحن إذن هالكون عاجزون .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

لما ذهب إخوة يوسف به إلى الخلاء البعيد ، واجتمعوا رأيهم على أن يجعلوه في البئر ، أوحى الله إليه يا يوسف لا تحف ستكون فوقهم يوماً ما وستخبرهم بأنهم كانوا كاذبين ظالمين ، وساعتها سيكونون في موقف الضعف وأنت في موضع القوة . وفي قوله تعالى ﴿ واجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ تعظيم لما فعلوه ، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب .

وَجَاءَ آبَاَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكُلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

سُورَةُ يُوسُفَ

لقد تركوا يوسف في البئر ، وعادوا إلى أبيهم ليكون ويدعون أن الذئب قد أكل يوسف ، وأنت يا أبانا لن تصدقنا ولو كنّا صادقين . لقد تركناه عند « ثيابنا وأقمشتنا حارساً لها ، فأكله الذئب . وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ أخذوا ذلك من فيه فتحرموا به لأنه كان أظهر المخاوف عليه » (١) .

وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

جاءوا إلى أبيهم ومعهم قميص يوسف وعليه دم كذب ، قيل إنه دم جدى أوطية مدعين أن الذئب أكل يوسف لما رجعوا إليه .

قال العلماء رحمة الله عليهم في هذه الآية « لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التنيب » (٢) ، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ، ويسلم القميص من التخريق . ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص ، فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص ؟ (٣) .

ولكن يعقوب النبى قال لهم ﴿ بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أى زينت غير الذى تصفونه وتدعونه فصبر جميل أستعين به على ادعائكم الذى اتفقت عليه ، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً
وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ يَمَاعَزُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ بِضَمٍّ بَحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

(١) القرطبي ٩ / ١٤٨ .

(٢) التنيب : التخريق . نتيجة دخول أنياب الذئب فيه .

(٣) القرطبي ٩ / ١٤٩ .

سُورَةُ يُوسُفَ

واعتبرت القافلة يوسف عليه السلام رزقاً ساقه الله إليها ، واعتبروه بضاعة تباع وتشتري ، ورحلوا به إلى مصر ، وعرضوه على عزيزها ، وكان رجلاً كريماً وفيه فراسة ، فاستبشر خيراً بيوسف ، وتوسم فيه الخير والصلاح ، وأحبّه . وبذلك الرأفة التي قذف بها الله في قلب عزيز مصر اشترى يوسف عليه السلام من التجار ، وكان ثمنه قليلاً جداً ، فالبائعون والمشترون لا يدرون ولا يعلمون من هو . ولكن الذي اشتراه وضع الله في قلبه محبة عظيمة ليوسف وتقديراً . فقد جعله الله يهاب يوسف حتى أكرمه إكراماً شديداً .

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَاتٍ هَـ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

قال عزيز مصر الذي اشترى يوسف لامراته أكرمي مثواه « أى منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن » ^(١) إننى أشعر بأنه سينفعنا أو نتخذه ولداً لنا ، وبهذا : مكن الله ليوسف فى الأرض ، أى بلاد مصر ، ليعيش ويتربى فى أرغد عيش وأسمى منزلة ، ويتعلم تعبير الرؤيا ، والله هو الغالب لما سواه ، ولكن الناس لا تعلم حكمته وتلطفه فيما يدبره لخلقهم وعامتهم وخاصتهم ، ويوسف من عين خاصتهم .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ بَاءَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

﴿ ولما بلغ ﴾ يوسف عليه السلام ﴿ أشده ﴾ أى استكمل عقله وتم خلقه ، ﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ أى حباه الله بالنبوة . حقاً يجزى الله المحسنين الصابرين على المصائب كصبر يوسف عليه السلام .

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

(١) القرطبي ١٥٩/٩ .

سُورَةُ يُوسُفَ

هنا بيان وشرح عن الطبيعة البشرية وضعفها . وامرأة العزيز هنا هي محور وقائع الآيات التالية التي تصور قصة حبها ليوسف عليه السلام وأنها قد ضعفت فخانت زوجها وخانت يوسف عليه السلام أيضًا . هذه المرأة ، التي أوصاها زوجها بيوسف وبإكرامه ، تحاصره لتوقعه في ذنب عظيم ، فهل يستسلم إذ راودته عن نفسه ودعته إليها ، بعد أن غلقت الأبواب وقالت له : هيت لك وهي « لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها وهي كلمة حث وإقبال على الأشياء » ^(١) ، فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، وقال : ﴿ معاذ الله ﴾ إني أعوذ به من ذلك ومما تدعونني إليه . ﴿ إنه ربي ﴾ يعني زوجها - وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير - وهو عزيز مصر وسيدى الذى ربانى وأكرمنى فكيف أخونه وأنت امرأته ؟!

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهٖء كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهٗ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ
مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن
يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا
إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ
قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي
لِذُنُوبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

إن تلك الآيات التي نحن بصدددها ، تزيد الشرح والبيان عن الفطرة البشرية وضعفها ، وكيف أن الله لا يترك عبده الذى يحتذى به ويجاهد لطاعته . فامرأة العزيز أحببت يوسف ابتداءً لدمائة خلقه وحسن طباعه ، وفجأة وجد يوسف نفسه محاصرًا ببطش هذه المرأة التي أرادت أن تفتنه . ويوسف لم يخش في حياته غير الله ، ولم يتوكل على غير الله . ففي البئر تضرع إلى ربه ، وهو في أيدي التجار الذين انتشلوه من البئر

(١) القرطبي ١٦٥ / ٩ وهو قول مجاهد وغيره .

سُورَةُ يُوسُفَ

كانت ثقته في الله أشد من كل المواقف ، فهل يستسلم يوسف بعد كل هذا ؟ إن الله سبحانه وتعالى يراه ويشهده ، وهو كذلك يشهد نور الله . . فدفعها عنه ، واتجه إلى الباب ليرفع مغاليقه واتبعته زوج العزيز وأخذت بقميصه فمزقته ، فوجدا زوجها عند الباب . وأوجد الله سبحانه وتعالى من حكم بالعدل وأظهر الحقيقة ، بعد أن فُتح الباب ، ووُجد العزيز أمامه هو وزوجته في صورة غير طبيعية ، حيث أسرع زوج العزيز تبرئ نفسها مما وقع ، فحوّلت وجه التهمة بسرعة من عليها إلى يوسف موجهة الاتهام له قائلة لزوجها : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ وقال يوسف في ثبات واطمئنان هي راودتني عن نفسي ودعتني إليها .

وهنا نرى كيف يدافع الله عن عباده الذين اصطفى ، الموقف شديد الحرج يوسف يقول وقوله حق : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ وهي تقول وقولها باطل : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك ﴾ خيانة وغدرًا ؟ فشهد شاهد من أهلها . وفعلاً وجدوا قميصه - عليه السلام - قد من دبر وثبتت براءة يوسف .

وهنا قال لها زوجها استغفري الله لذنبك هذا بعد أن قال ليوسف ، يا يوسف أعرض عن هذا واضرب عنه صفحاً ولا تذكره لأحد ، خصوصاً أنه « كان لينّ العريكة سهلاً ، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه ، فقال لها استغفري لذنبك أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بها هو برىء منه » .^(١) إنك كنت من الخاطئين .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٢١ ﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٢٢ ﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَتِهِ لَيُسَجِّنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ٢٣ ﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي

(١) ابن كثير ٢/ ٤٧٦ .

سُورَةُ يُوسُفَ

كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٢﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

تناقل خدام القصر وعماله خبر يوسف - عليه السلام - وسيدة القصر ، حتى شاع في المدينة وتحدث به الناس . ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ من صاحبات الشأن والمكانة فيها : ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين﴾ . وهكذا شاعت في مصر أخبار القصر ، وأن امرأة العزيز تطلب من خادمها ما لا يليق بمثلها ، وهو يتبرأ من هذا الفعل ويستعيد بالله منه .

وسمعت زليخة زوج العزيز ما يدور في المدينة وأن زوجات وزرائها وكبرائها يلمنها على ما فعلت ، فأرسلت إليهن ، ودعتهن على طعام . وبعد أن تناولن طعام الوليمة أجلستهن في جلسة وثيرة الزينة والفراش الفخم ، وقدمت لهن التفاح ومعه السكاكين الحادة الآخذة ، ولما أخذت كل واحدة منهن سكيناً لتقطع به التفاح قالت زوجة العزيز: يا يوسف : اخرج عليهن فخرج يوسف ووقع عليه بصرهن ، فلم يدرين وذهب وعيهن ، وأخذت السكاكين في أيديهن تجول ، ونفوا عنه أن يكون بشراً من بين الناس وألبسوه لشدة جماله وحسنه لباس الملائكة .

وهنا قالت لهن امرأة العزيز ﴿فذلك الذي لمتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغر﴾ .

وهنا قال يوسف في اطمئنان الواثقين بالله وبأنه سبحانه وتعالى هو الفعال : ﴿رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ أي من الوقوع في الفاحشة . وفي ضراعة المختبين قال يوسف متمماً دعاءه ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾ والله الرؤوف الرحيم المطلع قد استجاب لضراعة يوسف الصادقة الصاعدة من سويداء قلبه ﴿فصرف عنه كيدهن﴾ .

هذا هو موقف يوسف الصديق - عليه السلام - موقف صعب اختبره الله فيه ، فكان صادقاً مع الله ومع نفسه ، لما كان فيه من صراع تلك المرأة ذات المنصب والجمال ، التي دعت إليها بكل مغرياتها ، فرفض وخاف الله رب العالمين . ثبت في الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله :

سُورَةُ يُوسُفَ

وذكر منهم : ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين « (١) .

ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُؤْنُهُمْ حَتَّى حِينَ ﴿٣٥﴾

يقول ابن كثير « ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين ، أى إلى مدة ، بعد ما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات - وهى الأدلة - على صدقه في عفته ونزاهته . وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها ، وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة ، امتنع من الخروج حتى تبين براءته مما تُسبب إليه من الخيانة . فلما تقرر ذلك ، خرج وهو نقى العرض صلوات الله عليه وسلامه « (٢) .

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَنزِلُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه ، رأيا مناما وطلبا تعبيره ، فأخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه . ثم قال وهذا إنما هو من تعليم الله إياي ، لأنى هجرت طريق الكفر والشرك ،

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى والإمام أحمد ، عن أبى هريرة .

ورواه : مسلم والترمذى ، عن أبى سعيد .

(٢) ابن كثير ٤٧٧ / ٢ .

سُورَةُ يُوسُفَ

وسلكت طريق المرسلين عليهم السلام . وهكذا لم يترك يوسف مناسبة يستطيع فيها أن يعلن عن دينه وشريعته دون أن يفعل وإنها سنة الأنبياء ثم ورثتهم .

وهنا يبدأ يوسف عليه السلام منتهزاً فرصة حاجة الرجلين إليه لتفسير ما رأيا ، فيعطيهما درساً في التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى ، ويعلن لهما عن دين الإسلام الذي هو طريق عبادة الله بحق لا يتخلله باطل ، فيقول : اعلمنا معاً أنني على دين أنتم عنه غافلون ، وهو دين الإسلام دين كل الأنبياء من لدن آدم عليه السلام حتى جاء أبى إبراهيم رسولاً نبياً ، وكذلك جاء من بعده ولداه إسحاق ويعقوب كل منهما نبى يبشر بدين أبيه . وإنى كذلك على هذا الدرب أسير وطوبى لمن كان على شريعة الحق شريعة الإسلام .

يَصْصَحِي السَّجْنَءَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٦﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

وقبل أن ينتقل يوسف إلى موضوع الرؤية يقول ﴿ يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ فينتبه الرجلان إلى يوسف ماذا يا يوسف ؟ !! فيلقنهم يوسف معارف التوحيد ، وينبهمهم إلى أن الله واحد وليس له شركاء ، وأنه خالق الكون وحده ، وأن الذين خسروا الدنيا والآخرة إنما هم الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى أو شركاء تصوروا أن لهم مع الله أمراً وحكماً ، وبذلك ضلوا عن أن السلطان والقدرة والفعل لله سبحانه وحده لا شريك له ، وأن ما يعبدون هم وآباؤهم باطل وزور وبهتان ، وأن الحكم لله لا ينبغي أن يكون لشيء أو لأحد آخر ، فليس للخلق حق التشريع ، وليس من حق البشر أن يتدعوا شريعة من عند أنفسهم يحكمون بها الناس ، فالله سبحانه وتعالى هو المشرع والمقرر لقوانين الحكم بين الناس .

والحكم بما أنزل الله هو رأس العبادة ورأس التوحيد . ومن شرع بنفسه ولنفسه ، فقد

سُورَةُ يُوسُفَ

ضَلَّ سَبِيلَ الْحَقِّ وَحَادَ عَنْ سَلَامَةِ الطَّرِيقِ ﴿١﴾ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ ﴿٢﴾ أَيْ : الْقَوِيمَ ﴿٣﴾ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ .

وهكذا نشر يوسف عقيدة الإسلام داخل السجن عندما وجد طريقاً إلى ذلك ، فبين للرجلين طريق الخير . . ثم أخذهما إلى حاجتهما ، كما طلبا منه ، بعد أن أعدّ فكرهما للنظر في سلامة الطريق وهو التوحيد ثم الحكم بما أنزل الله .

يَصْحَبِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ
فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٥﴾

ينادى يوسف الرجلين المستفسرين عن رؤياهما : يا صاحبي السجن اعلمنا أن أحدهما سيسقى ربه (أى سيئده الذى يعمل عنده) خمرًا ، أما الآخر فسيقتل ويعلق على الأعواد حتى يأكل الطير من رأسه . قضى الأمر فيما استفتيتانى فيه .

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ
ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٦﴾

وقال يوسف للذى أيقن ^(١) أنه ناج من الصلب والموت : إذا ذهبت إلى ربك ^(٢) فاذكر له قصتي . وقد قال يوسف ذلك لهذا الرجل الذى سينجو من الموت خفية من وراء الرجل الآخر « لئلا يشعره أنه المصلوب » ^(٣) .

ولأن ذلك الطلب لا يصح ليوسف ، فالله هو سنده وهو الذى إليه يلجأ ويطلب منه ، فبسبب ذلك زادت سنو يوسف في السجن ؛ لأن مثله لا يطلب من غير الله ، ونسى الذى هو ناج أن يذكر قصة يوسف لربه أى رئيسه أو الملك « وكان من جملة مكائد الشيطان لئلا يخرج نبي الله من السجن » ^(٤) .

وفعلًا لبث في السجن بضع سنين .

(١) ظنّ في الآية بمعنى أيقن في قول أكثر المفسرين انظر القرطبي ١٩٤ / ٩ .

(٢) ربه في الآية بمعنى رئيسه وليس الإله المعبود بحق .

(٣) ابن كثير ٤٧٩ / ٢ .

(٤) ابن كثير ٤٧٩ / ٢ .

سُورَةُ يُوسُفَ

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا
تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَثْتَ أَحْلَامَ وَمَنْحَنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ
الَّذِي نَجَّاهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا
الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ ﴿٤٩﴾

وهكذا لما أراد الله أن يخرج يوسف من السجن سبب له الأسباب ، فكانت هذه
الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله أنها كانت سببا لخروج يوسف من السجن معززا
مكرما . وذلك أن الملك قص على كبار دولته ما رأى ، وسألهم عن تفسير ذلك ، فلم
يعرفوا ، عند ذلك تذكر ساقى الملك ما وصاه به يوسف ، تذكر ذلك بعد أمة أى مدّة ،
وأرشدهم إلى أن يوسف هو الذى سينبئهم بتأويل رؤيا الملك . وقصّ عليه الصاحب
رؤيا الملك قائلا له أفتنى فى ذلك لعلّى أرجع إلى الناس « أى إلى الملك وأصحابه . .
لعلهم يعلمون مكانك من الفضل والعلم ، فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك
وحده تعظيما له » ^(١) فقال يوسف - عليه السلام - : تزرعون قمحا لمدة سبع سنين
وشعيرا كذلك ، بجد واجتهاد متواصل وما حصدتم من القمح فاتركوه فى سنبله أى
« فادخروه فى سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذى
تأكلونه ، وليكن قليلا قليلا ، لا تسرفوا فيه لتتفعوا فى السبع الشداد » ^(٢) . ففسر البقر
بالسنين .

(٢) ابن كثير ٢ / ٤٨٠ .

(١) القرطبي ٩ / ٢٠٢ .

سُورَةُ يُوسُفَ

إذن فالبقرات السمان السبع ، والسنبلات الخضر المخصبات السبع ، هن السنون المخصبات . أما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات ، فهن السبع السنين المجذبات . ثم سيأتى بعد ذلك عام يكثر فيه الرخاء وينزل فيه المطر ويكثر الزرع والثمر بالفواكه المختلفة فتأكلونها ثمراً ناضجاً وعصيراً شهياً .

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ اكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاودَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٢﴾

لما بلغ تفسير الرؤيا الملك ، علم أن يوسف هذا شخصية خطيرة علماً وأدباً ودراية بشئون الحياة وآيات الوجود . فقال اتنوني به أى أخرجوه من السجن ، ليحضر بين يدي فأسمع بنفسى علم ذلك الرجل وأتعرّف عليه . فذهب رسول الملك ليوسف وطلب منه أن يحضر بين يدي الملك ، ولكن يوسف فى عزة إيمانه بالله وكرامة نبوته قال : لا أفعل حتى يحقق الملك فى أمر النسوة اللاتى كن مع امرأة العزيز وقطعن أيديهن وما كان من أمر امرأة العزيز معى . ويعود الرسول إلى الملك . ويجمع الملك النسوة ومعهن امرأة العزيز ، ويسألهن الملك : ما خبركن وشأنكن يوم الضيافة ؟ وهنا وقفت زوجة العزيز فى شجاعة وقوة تدل على أنها نادمة على ما فعلت ، فقالت وقالت النسوة معها : ﴿ حاش لله ﴾ أى معاذ الله من ذلك ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ . ثم قالت امرأة العزيز فى شجاعة شاهدة بالحق : أنا راودته عن نفسه فاعتصم بربه الذى يعبد ، وأعلن فى وثوق بأن ربه سينصره ويحميه من أن يقع فى معصية . ولقد نجاه ربه وهو رب وإله كل الكون ، وحصحص^(١) الحق وإنه لمن الصادقين .

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

(١) حصحص الحق : انقطع عن الباطل بظهوره وثباته . انظر القرطبي ٢٠٨ / ٩ .

سُورَةُ يُوسُفَ

تقول امرأة العزيز ^(١) « إنما اعترفت بهذا على نفسي ، ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر . وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ . . . ولست أبرئ نفسي ؛ فإن النفس تتحدث وتتمنى ؛ ولهذا راودته لأن ﴿ النفس لأماره بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ أي إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ » ^(٢) .

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ
 آمِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا
 لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ
 أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

بعد أن انتهى الملك من التحقيق في أمر يوسف والنسوة ، وظهرت براءة يوسف باعتراف امرأة العزيز بالحقيقة ، قال الملك : أحضروا لي يوسف إنني أريده لنفسى ، أى لأجعله من خاصتى وأهل مشورتى . فلما حضر يوسف قال له الملك ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ ﴾ ذو مكانة وأمانة . فقال له يوسف اجعلنى أميناً على خزائن ملكك في الأرض التى أنت مالك لها ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ بما ينمى لك مالك ويقوى ملكك . ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى مصر ، جعلناه حاكماً فيها أميناً على ما يملك الملك ، يتبوا فيها ومنها حيث يشاء ، أى يتصرف فيها كيف شاء . وهكذا ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَا أَدْخَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَأَجَلُ مِمَّا خَوَّلَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَالنَّفُوذِ فِي الدُّنْيَا » ^(٣) .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُؤْنِي بِأَنْحَ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتَرُونَ أَنِّي أُفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرٌ

(١) في قول آخر أن هذا الكلام ليوسف - عليه السلام - موجهًا كلامه لرسول الملك .

(٢) ابن كثير ٢ / ٤٨٢ .

(٣) ابن كثير ٢ / ٤٨١ .

سُورَةُ يُوسُفَ

الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَوِّدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾

وأراد الله أن يجمع شمل يوسف بأبيه ، فاشتدت المجاعة في فلسطين ، وسمعوا بأن مصر تبيع لمن حولها من البلدان ما يحتاج إليه الناس من قمح وشعير وخلاف ذلك ، فأرسل يعقوب بنيه ليباعوا من مصر حاجتهم من الطعام ، ودخلوا على يوسف ﴿فعرّفهم وهم له منكرون﴾ غير عارفين له « لأنهم خلفوه صبيًا ، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة ، مع طول المدة ؛ وهي أربعون سنة . » (١) .

وقد استدرجهم يوسف - عليه السلام - في حديث استفسر فيه منهم عن بلادهم ، وأين موقعها ؟ وعن عاداتهم فيها ، حتى حكوا له عن أبيهم الشيخ الكبير ، وعن أخيه الصغير بنيامين ، وعن أخيه المفقود . فقال لهم يوسف بعد أن أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحماهم : أرايتم كيف أحسنت إليكم في الكيل ؟ فإن عدتم لتأخذوا بضاعة المعاش من عندي ، فلن أعطيكم حتى تأتونني بأخيك من أبيكم ، لأراه معكم وأثبت منه أنكم صادقون فيما ذكرتم عن أبيكم وعن أخيك بنيامين هذا . فقالوا له سناود عنه أباه ونبذل كل جهدنا لنأتيك به . قال هذا شرط البيع لكم مرة ثانية .

وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَ كَيْلَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّاهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفُظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿٦٥﴾

(١) القرطبي ٩ / ٢٢٠ .

سُورَةُ يُوسُفَ

أمر يوسف غلمانه أن يدسوا ثمن بضاعة إخوته ﴿ في رحالهم ﴾ ، أى فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون . ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم ﴾ قالوا له إن أمير مصر طلب منهم حضور أخيه بنيامين . فقال لهم يعقوب لا آمنكم عليه فتفعلون به ما فعلتم بيوسف من قبل خصوصاً أنكم قلتم عند غياب يوسف ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ فظلوا يعطونه المواثيق التى تطمئن أباهم برجوع بنيامين إليه مرة أخرى وأنهم سيكونون أمناء عليه .

ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا ثمن بضاعتهم موجودة فى رحالهم فقالوا : يا أبانا إن ثمن بضاعتنا رد إلينا ، فأرسل معنا أخانا فنتباع ويزيدنا أمير مصر جملًا محملًا ونجلب الميرة أى طعامًا لأهلنا .

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ
فَلَمَّا أَتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾

قال لهم أبوهم لن أرسله معكم إلا بعد أن تحلفوا لى بالعهود والمواثيق التى تضمن رجوع أخيكم معكم إلا أن يحاط بكم بالهلاك أو الموت أو يمكر بكم ، فأعطوه المواثيق والعهود فأعطاهم يعقوب ابنه بنيامين .

وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ
مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾
وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

اشترط يعقوب على أولاده أن يدخلوا على أخيه ، وألا يدخلوا كلهم من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة ، ربما لأنه خاف عليهم .

وهكذا أمر يعقوب أبناءه أن يدخلوا من أبواب متفرقة قائلًا لهم ﴿ وما أغنى عنكم من الله من شيء ﴾ أى إن الحذر لا يمنع القدر فكل شيء بقضاء الله وقدره .

وهكذا احتاط يعقوب عليه السلام للأمر ، وأخذ بالأسباب ، ثم ترك الأمر لله وكل

سُورَةُ يُوسُفَ

جوارحه متوكلة على الله . فسمعوا لأبيهم ولم يدخلوا إلا متفرقين لأن وصية أبيهم لهم ما هى إلا نتيجة شفافية وإشراق روحى .

فلما وصلوا إلى مصر دخلوها من أبواب متفرقة ، وما كانوا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً إن أراد الله أى مكروه بهم ، إلا هذا الخاطر الذى جاء على قلب يعقوب بوصيته لهم أن يتفرقوا «لئلا يرى الملك عددهم وقوتهم فيبطش بهم حسداً أو حذراً»^(١) .
 إن يعقوب - عليه السلام - ﴿لذو علم﴾ أى لذو علم بأمور دينه وصفات ربه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ذلك عن يعقوب .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ
 بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

ولما وصل أولاد يعقوب لديوان يوسف ومعهم بنيامين أخوهم ، اجتمع بهم يوسف ، ثم ضم أخاه إليه ، فاختل به وأسر إليه أنه أخوه . ففرح وكنتم فرحته . وصارحه بنيامين كذلك بحزن أبيه عليه وآلامه المتواصلة وأعطى يوسف إخوته كل ما طلبوا من متاع المعاش وزاد لهم فى ذلك .

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ
 إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ
 الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٦٩﴾

ثم أمر يوسف عماله أن يضعوا صواع الملك ، أى ميزانه ومكياله ، فى متاع أخيه بنيامين - وقيل إنه وضعه هو بنفسه وهو مختل بأخيه على غفلة من إخوته - ففعلوا ووضعوا المكيال أو الصواع فى رحل بنيامين . ولما سارت القافلة نادى مناد من قبل الملك : قفى أيتها العير ﴿إنكم لسارقون﴾ . فعز ذلك على أولاد يعقوب ، فقالوا ﴿ماذا تفقدون﴾ ؟ وتركوا متاعهم ورحالهم للتفتيش ، وهم فى اطمئنان وأمن لثقتهم بأنفسهم أنهم بعيدون عن هذه الفعلة الخطيرة .

(١) القرطبي ٩/ ٢٢٨ .

سُورَةُ يُوسُفَ

قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا أَجْزَاؤُهُ مِنْ وَجْدٍ فِي رَحْلِهِ ۖ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾

قال أولاد يعقوب ، قبل التفتيش ، والله ما جئنا لنسرق ، وأنتم تعلمون أننا ما جئنا إلا للتجارة واجتلاب الطعام ، ولم نكن يوماً سارقين ، فنحن أبناء نبي . فقال عمال الملك من نجد الصواع في حوزته ورحله ﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ ﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ﴾ أى « يستعبد ويسترق » . ^(١) « هكذا كانت شريعة إبراهيم - عليه السلام - أن السارق يدفع إلى المسروق منه » . ^(٢) كذلك نفعل في الظالمين أن يُقتص منهن إذا سرقوا .

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

انتهى التفتيش ، بعد أن بدأ بأوعية إخوته قبل وعاء أخيه بنيامين ، ووجدوا الصواع في متاع بنيامين . ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ بوحينا له فعل هذا معهم ، لنمكن له وليتم الله أمراً كان مفعولاً . وشاء الله أن يأخذ أخاه منهم باعترافهم هم أنفسهم والحكم مسبقاً على السارق فيهم . فما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في سلطان الملك وحكمه إلا بهذا الاعتراف منهم ، الذى هو من شريعة يعقوب وإبراهيم بإذن الله الواحد المقتدر والحمد لله هو فوق كل علم وعالم .

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُّوسُفُ فِي نَفْسِهِ ۖ

(١) القرطبي ٩ / ٢٣٤ .

(٢) ابن كثير ٢ / ٤٨٥ .

سُورَةُ يُوسُفَ

وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا
يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا
لَظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾

لما رأى إخوة يوسف الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ، ذكروا أن هذا فعل كما فعل
أخ له من قبل ، يعنون به يوسف عليه السلام . حُكِمَ على بنيامين بالسجن والأسر
عنده في ظاهر الأمر وذلك ليستبقية يوسف - عليه السلام - عنده . وهذا العمل كان
بوحى من الله عز وجل ليبقى بنيامين عنده . فلما كان ذلك أخذ إخوة يوسف
يستعطفونه ويقولون له إن كان قد سرق ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ والمعنى « اقتدى
بأخيه ، ولو اقتدى بنا ما سرق ، وإنما قالوا ذلك ليبرئوا من فعله ، لأنه ليس من أمهم ؛
وأنه إن سرق فقد جذبه عرق أخيه السارق ؛ لأن الاشتراك في الأنساب يشاكل في
الأخلاق » (١) .

أما قصة السرقة (٢) هذه التى قصدها إخوة يوسف ، فهى حاصلة مع يوسف نفسه ،
وملخصها كما ذكرتها كتب التفاسير : أن عمّة له كانت موجودة وحاضنة له وهو
صغير . فأراد يعقوب أن يأخذ ابنه يوسف من عمته لشدة شغفه به ، ولكن عزّ عليها
ذلك لحبها الشديد هى الأخرى له . فأرادت أن تبطل مراد أخيها يعقوب أن يأخذه ،
فربطت شيئاً تحت ثياب يوسف وأعلنت عن فقدانها إياه ، فأمروا بكشف أهل البيت
فوجدوها عند يوسف فحكم عليه بأن يبقى عندها لأنه سارق . وذلك : مكر منها لكى
تبقى يوسف ابن أخيها معها لحبها الشديد له . فعيره إخوته بهذه الحادثة التى هو برىء
منها ، فألم ذلك يوسف - عليه السلام - فقال لهم ﴿ أنتم شر مكانا ﴾ من الذى تنسبون
إليه هذه التهمة والله - سبحانه وتعالى - هو العليم بكم وبصنيعكم .

وأخذ إخوة يوسف يرجونه أن يأخذ أحداً منهم بدلاً من بنيامين ، لأن أباه شيخ كبير

(١) القرطبي ٩/ ٢٣٩ .

(٢) القصة المذكورة بالتفصيل فى ابن كثير ٢/ ٤٨٦ .

سُورَةُ يُوسُفَ

ويحبه كثيراً ولا يقوى على مفارقتها ، خصوصاً إذا سمع ورأى رجوعنا بدونه . فقال لهم يوسف حاش لله أن ن ظلم من ليس في محل الظلم ، إننا إن فعلنا ذلك كنا من الظالمين .

فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٢﴾

ولما يئس إخوة يوسف من أن يسلمهم العزيز أخاهم ، ﴿ خلصوا نجيا ﴾ أى انفردوا عن الناس ببعضهم ، وليس هو معهم ، يتناجون ليتشاوروا في الأمر . فقال كبيرهم إن أباكم قد أخذ عليكم ميثاقاً بالحفاظ على بنيامين ، وقد علمتم سوء جرمكم مع يوسف ، فأنا لن أترك هذه البلدة (مصر) حتى يأذن أبى ويوحى الله إلى أبى أننى مظلوم وبأننا لم نخنه في بنيامين والله - سبحانه وتعالى - خير حاكم بعدله في قضيتنا تلك وهو خير الحاكمين .

أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٣﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٤﴾

عاد الإخوة إلى أبيهم ، وتركوا أخاهم بنيامين في مصر ، وحكوا له ما وقع ، أن بنيامين سرق وما كنا نعلم الغيب حتى لا نطلبه منك للسفر معنا ، وما كنا نعلم عليه سرقة سيفعلها في متاع الملك ، وإن كنت لا تصدقنا اسأل أهل مصر والبلدة التى كنا فيها والعير أى التى رافقناها ورافقتنا في الرحلة بما فيها من خدم وأناس وعمال ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقة .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٥﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكُنَّ سَفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْصَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٦﴾

سُورَةُ يُوسُفَ

قال أبوه بعد سماعه كلامهم ، كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب : لقد سولت (أى زينت) ﴿ لكم أنفسكم أمراً ﴾ وتقولون إن ابنك سرق ، وما سرق ، فسأصبر صبراً جميلاً عن رضا وتسليم بأمر الله ، لعل جزاء صبرى أن يأتينى يوسف وأخوه بنيامين ، إن ربي عليم بحالى ، حكيم فى حكمه ، يجزى الصابرين المحتسبين ، ويكفينى تسليمى بقضائه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

يقول الإمام القرطبي « الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه فى نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل ، والرضا والتسليم لمجرىه عليه وهو العليم الحكيم ، ويقتدى بنبي الله يعقوب وسائر النبيين ، صلوات الله عليهم أجمعين . » (١) . واعتزل يعقوب أبناءه وأعرض عنهم ﴿ وقال يا أسفى على يوسف ﴾ أى يا حزناه . والأسف هو الحزن الشديد . واشتد بكاءه حتى ﴿ ابيضت عيناه من الحزن ﴾ وكفتا عن الإبصار . وقيل لهما لم تقويا على كل الرؤية . وظل على حاله هكذا حزينا كظيماً « ساكتاً لا يشكو أمره إلى مخلوق » .

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

قال له أبناءه أنت يا أبانا لا تكف عن ذكر يوسف ، وما تزال تذكره حتى تصير حرضاً أى تالفاً فاسداً جسمك وحالك ، ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ أى الميتين . وهذا إشفاق من أولاده عليه . ثم بعد ذلك استعطف أبناءه قائلاً : يا بنى اذهبوا وابحثوا عن يوسف وأخيه وتحسسوا أمره هو وأخيه أى « اذهبوا إلى الذى طلب منكم أخاكم واحتال عليكم فى أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه » (٢) ، ولا تيأسوا من فتح الله وفرجه ، ولا تقطعوا الأمل فيه سبحانه إنه لا يفعل ذلك إلا القوم الكافرون اليائسون من رحمته ، فعسى أن تصيبنا رحمة الله وفضله .

(٢) القرطبي ٩/ ٢٥٢ .

(١) القرطبي ٩/ ٢٤٧ .

سُورَةُ يُوسُفَ

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَاةٍ
فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

واستمع إخوة يوسف لأبيهم ، ودخلوا على عزيز مصر يوسف عليه السلام - وقالوا له مستعطفين : يا أيها العزيز قد وقع بنا وبأهلنا القحط والشدة والضر ، وجئناك ببضاعة مزجاة أى طيبة جيدة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزيك خيراً بخير إن الله يحب المتصدقين .

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَأَنْتَ نَكَ
لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ
وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا نَالَهُ لَقَدْ أَثَرَكَ
اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يُغْفِرُ
اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقِمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى
وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوفِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

لما ذكر إخوة يوسف لأبيهم يوسف - عليه السلام ما أصابهم من القحط والجوع والجدب ، قال لهم : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ ؟ وهذا استفهام يذكرهم فيه بجرم صنيعهم القديم ويوبخهم به عليهم يتذكرون ، وهو تحقيق لقوله تعالى : ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾ لأنكم كنتم على جهل بتعاليم شريعتكم وبمقدار هذا الذى ارتكبتموه . وهنا قالوا إنك لأنت يوسف أخونا ؟ فقال لهم نعم أنا يوسف وهذا أخى بنيامين ﴿ قد من الله علينا ﴾ بفضلته وكرمه وحفظه نتيجة تقوانا وخوفنا وحبنا لله ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ الذين يعرفونه ويخافون حسابه . قال إخوة يوسف ﴿ قاله لقد آثرك الله علينا ﴾ نتيجة خطئنا . وأجاب يوسف جواب الكريم ابن الكريم الذى لا يحاسب على السيئة بالسيئة ، ولكن يعطى بالسيئة الحسنة ، بل زيادة ، طمعا فى عفو الله وحبه وصفحه وعطائه . وبذلك أعطى الله يوسف ما تمنى أو

سُورَةُ يُوسُفَ

تصور من النعم ، فماذا قال لهم يوسف ؟ ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ﴾ أى لا تأنيب لكم عندي ، ولا عتب عندي لكم ، على ما أجرتموه في حقى القديم . بل زادهم بأن دعا لهم بالمغفرة من رب رحمان رحيم . ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى ﴾ فسيرتد بصيرا حين يعلم أنى فى سلام من الله وعافية .

وكان « ذلك قميص إبراهيم الذى ألبسه الله فى النار من حرير الجنة ، وكان كساه إسحق ، وكان إسحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص فى قصبة من فضة وعلقه فى عنق يوسف ، لما كان يخاف عليه من العين . وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك ، فإن فيه ريح الجنة ، وإن ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلا عوفى . وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه سوف يرجع إليه بصره . » (١)

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْتَدُونِ ﴿١٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْ نَسْتَغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٩﴾

لما عادوا إلى أبيهم وخرجت العير منطلقاً من مصر إلى الشام ﴿ قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ أى « تضعفون رأى » (٢) أو « لولا أن تسفهون » . (٣) وهنا دخل حامل القميص بالبشرى وبشر أباه بوجود يوسف وألقى القميص على وجه فأعاد إليه بصره و ﴿ قال ﴾ لأولاده ﴿ ألم أقول لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ ﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ إذ نعرف أننا ﴿ كنا خاطئين ﴾ . وقال يعقوب لأبنائه ﴿ سوف

(١) القرطبي ٢٥٨/٩ .

(٢) القرطبي ٢٦٠/٩ وهو قول ابن عباس ومجاهد .

(٣) القرطبي ٢٦٠/٩ وهو قول ابن الأعرابى .

سُورَةُ يُوسُفَ

أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ﴿ يغفر الذنب ويقبل التوب . وجاء يعقوب إلى مصر وكل أبنائه وأهله . وخرج يوسف وخرج معه الملك والوزراء وكبراء القوم لاستقبال نبي الله يعقوب ، عليه السلام . ولما التقى يوسف بأبويه ﴿ قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴿ ودخلوا كذلك .

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ
قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ
بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴿

وضع يوسف أبويه على كرسى حكمه ، وخروا له سجدا ، أى خروا شكرا لله
و«يوسف كالقبلة لتحقيق رؤياه» .^(١) وقال يوسف ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل
قد جعلها ربى حقا ﴿ . ثم حكى لأبيه قصة السجن ، وما كان من إخوته ، وقصة نزغ
الشیطان بينهم وبينه . وها أنا ذا قد أخرجنى ربى من السجن وجمعنى بك وبوالدتى
وإخوتى ، وأبطل الله سبحانه كيد الشيطان ، وأصلح قلوب إخوتى ، وتلك نعمة له
سبحان ربى من لطيف فى حكمه وقضائه لما يشاء وهو العليم الحكيم .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ
وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿

هذا دعاء من يوسف لربه يعدد فيه نعم الله عليه . وتلك النعم هى : نجاته من
البئر ، وإكرام العزيز له ، وبراءته من تهمة امرأة العزيز له ، وجعلها بنفسها تحكى
ذلك للملك . فثبت بذلك أن الله محيط بمن يحببه ويختاره لرسالته ، فهو به حفيظ
كريم عليم محسن معط وهاب فاطر السموات والأرض أى خالق الموجودات ومبدئها ،
وهو أيضا ولي يوسف أى ناصره ومتولى فى شئون الدنيا وفى الآخرة . ثم يدعو فيقول
﴿ توفنى مسلما ﴿ أى على ملة الإسلام لأن تمنى الموت فى حد ذاته منهى عنه .

(١) القرطبي ٩/ ٢٦٤ .

سُورَةُ يُوسُفَ

يذكر القرطبي قول سهل بن عبد الله التستري : لا يتمنى الموت إلا ثلاث : « رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفرّ من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاق محب للقاء الله عزّ وجل » (١).

وفي الصحيح عن أنس قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنياً ، فليقل : اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » (٢).

ورواه مسلم - واللفظ له - كتاب الذكر ، باب : كراهة تمنى الموت لضر نزل به . هذا هو معنى دعوة يوسف توفني مسلماً . ثم يدعو فيقول ﴿ وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ من آباءى وأجدادى .

وهنا تنتهى قصة يوسف فى سورة يوسف ، ثم يتوجه الخطاب من الله لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - فيقول سبحانه :

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٤﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٦﴾

ذلك الذى قصصناه عليك يا محمد من أنباء الغيب ، فلم تكن حاضراً فيها وما كنت تعلم عن خبر يوسف شيئاً ، فقد قصصناه مفصلاً لتصبر على ما تلاقى من قومك . فهذه الأخبار عمن سبق من الأنبياء فيها عظة وذكرى لك ولمن حولك من أولى الألباب . ومهما اجتهدت وحرصت على أن يكون الخلق على الإسلام فذلك لا يقع كما تتمنى ، إنما أنت تذكر الناس بالحق وتدعوهم إليه ، وهذا ما عليك والله يهدى من يشاء .

وهذه الآية ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ هى نظير قوله تعالى ﴿ إِنْ فِي

(١) القرطبي ٢٦٩/٩ .

(٢) رواه البخارى ، كتاب التمنى ، باب : ما يكره من التمنى . ورواه مسلم - واللفظ له - كتاب الذكر ، باب كراهة : تمنى الموت لضر نزل به .

سُورَةُ يُوسُفَ

ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿^(١) وأيضاً ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾^(٢) وإنك يا محمد لا تريد من الناس أجراً ، وما أجرك إلا على الله رب العالمين إن هو إلا ذكر للعالمين ، تتذكرون به وتهتدون وتنجون به في الدنيا والآخرة .

وَكَايْنِ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوْا
إِلَى ٱللَّهِ عَلَى بَصِيْرَةٍ أَنَاْ وَمِنِ ٱتَّبَعْنِيْ وَسُبِّحْنَ ٱللَّهَ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾

إن أكثر الناس يا محمد يمرون على آيات الله . ينظرون إليها في السموات والأرض ، ويدهشون لها ، ثم يعرضون عنها ، ويصبحون في غفلة عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده وقدرته ، فهم معرضون .

أما قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ فهي إخبار من الحق سبحانه وتعالى عن حقيقة إيمان أكثر الناس كما تفصل الآية ، وإن كانت قد نزلت في قوم بعينهم ، لكن العبرة بعموم اللفظ . فكثير من الناس يقرون ويعترفون بالله خالقاً لهم ولكل الأشياء ، ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾^(٣) لكنهم ارتضوا مع الله شريكاً وندا له ، إذن الإيـمان مختلط عندهم بالشرك . وكل مظاهر حياتهم يشوبها الشرك مع الاعتقاد في الوقت نفسه بالله رباً خالقاً معبوداً . وهذا مرفوض تماماً في مفهوم الفكر الإسلامي الراشد . وقد صحح القرآن هذا الفهم ولم نجد سورة في القرآن خالية من قضية الشرك والعبودية ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾^(٤) . انظر إلى قوله ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه ﴾ . وانظر إلى قوله ﴿ أحداً ﴾ إلماح منه سبحانه إلى أن المعبودات هنا في صورة أفراد أو أشخاص في مقابل

(١) الشعراء : ٨ .

(٢) الأنعام : ١١٦ .

(٣) لقمان : ٢٥ .

(٤) الكهف : ١١٠ .

سُورَةُ الْاِنشِاقِ

ما قاله في موضع آخر ﴿ألا تشركوا بالله شيئاً﴾ نفى الشرك في كل جنسيات الوجود سواء بشراً أو طاغوتاً أو حكماً أو آلهة أو أى شىء آخر . ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴿^(١)﴾ .

فاعبدوا أيها الناس إلهاً واحداً ، وكونوا له مخلصين ، ولا تلبسوا إيمانكم بظلم أى شرك ، ووجهوا نيتكم في أعمالكم له وحده ، واحكموا أنفسكم بشرع الله ودينه ، وتلقوا منه وحده الشرائع ، وتوجهوا إليه بالشعائر ، ولا تفصلوا دينكم عن دنياكم . . فعبث قولهم « لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين » ، فهذا شرك وطاغوت وتنحية لله عن أمرنا وشئوننا ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ فالحكم والعبادة مقترنان في سياق إيماني واحد .

إن حياتنا لملوءة بكثير من مظاهر الشرك التي تغطي أوجه حياتنا اليومية ونحن لا ندري ، وهي تسرى في تصرفاتنا مسرى ديب النمل ، حتى غلظت تلك المظاهر وباتت واضحة معلنة ، حتى حسبنا الله غائباً وغير موجود وإن كنا نتشدد بإعلان وجوده في مجرد أقوال لا تؤصلها أفعال دون أن ندري مقتضيات قول « لا إله إلا الله » وحتى أصبحنا نتقرب إلى غير الله معتقدين وساطته عند الله ، فأصبحنا لغير الله وبغير الله ووجهنا العبادة إلى غير صاحبها ، فأصابنا الحول التعبدى وانكسر شعاع التوحيد في قلوب معظم الناس حتى صاروا يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهم في الحقيقة - بأفعالهم هذه - الأنخسرون أعمالاً بضلال عبادتهم وإلباسهم ثوب التوحيد لغير صاحبه وهو الله الواحد .

وبعد . . أأمن هؤلاء المشركون أن يتنزل عليهم أمر وعذاب يغشاهم وهم لا يشعرون أو تأتيهم الساعة بغتة وساعتها لا ينفعهم شركهم شيئاً . أو لا يخافون أن تأتي هذه الساعة وهم في لهوهم يعمهون ويلعبون ويلهون بدنيا ليست لهم ؟ فتوكل على الله يا محمد وقل للناس في قوة وأنت متوكل على الله : هذه سبيلي وتلك طريقتي ومنهاجي أدعو له على بصيرة وبرهان ونور وهدى أنا ومن اتبعني من المؤمنين حقاً الموحدين بالله الذين لا يعبدون مع الله إلهاً غيره وما أنا من المشركين .

(١) الزمر : ٦٥ ، ٦٦ .

سُورَةُ يُوسُفَ

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

إن الله لم يبعث يا محمد قبل إرسالك بالنبوة إلا رجالاً اختارهم الله لحمل أمانته وتبليغها للناس ، لم يكونوا ملائكة ولكن كانوا رجالاً أوحى إليهم . وهذا ردّ على القائلين ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ . . أى أرسلنا رجالاً ليس فيهم امرأة ولا جنى ولا ملك .

وكان كل نبي أو رسول يبعث إلى قومه خاصة ، لكن الله بعث محمداً رسولاً إلى كل العالمين ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ ^(١) . ثم لم نعاقب أمهم بالعذاب حتى إذا استيأس الرسل أى يثسوا من إيمان قومهم . . . « وأيقنوا أن قومهم كذبوهم » . ^(٢) فلما حصل كل ذلك جاءهم أمرنا بالنصر والفوز على أمهم الضالة ، فأهلكنا أعداء الحق ونصرنا ونجينا الذين اتبعوا أنبياءنا وجعلناهم الوارثين الحاكمين .

وإننا لنجد في سيرة الأنبياء وقصصهم خصوصاً سيدنا يوسف - عليه السلام - عبراً كثيرة وعظات رائعة وذكرًا وهداية لأصحاب القلوب والعقول المكتملة بالحياة والفهم والإدراك . . . ومستحيل أن يكون القرآن الكريم أمر يفترى ولكنه تصديق الذى بين يديه من التوراة والإنجيل ، وجميع كتب الله تعالى . إنه تفصيل كل شيء مما يحتاج له العباد من هداية وطريق مستقيم وشرائع وعبادات ، وهو منحة من رب العالمين إلى البشرية جمعاء والحمد لله رب العالمين .

(٢) القرطبي ٢٧٥ / ٩ .

(١) الأعراف : ١٥٨ .

(١٣) سُوْرَةُ الرَّعْلِ مَلَنِتْ
وَآيَاتُهَا ٤٣ نَزَلَتْ بَعْدَ سُوْرَةِ هُجُلٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

﴿الْمَرْ﴾ تقدم الكلام عن الحروف المقطعة في أول سورة البقرة . ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أى هذه آيات القرآن تنزل من رب العالمين ، وإن كان أكثر الناس لا يسلّمون بذلك . إنه تنزيل الخالق المصور الفعال القادر بديع السموات والأرض ، وهو القول الحق ، والكتاب الحق ، والآيات الحق ، فما عليك يا محمد من منكرى نزوله وقد طمس الله قلوبهم وطبع عليها .

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه . وعجبا لهذا الخلق الذى يشاهد قدرة الله فى الكون ثم لا يؤمن به سبحانه ، رفع السماء بلا عمد وذلك أمر مشهود لكل الناس . عجبا ١١ كيف لا يؤمنون ؟ ألم يشهدوا ما حملت السموات من كواكب وشموس وأجرام ومجرات ؟ سبحانه الله الخالق القادر المدبر لكل الخلق بعظمته وقدرته النافذة . سبحانه خلق فأبدع وصبور ثم استوى على عرش قدرته . والله سبحانه وحده هو الذى يعلم كيف استوى سبحانه على العرش . فالاستواء فى الحقيقة من خواص علمه ، وهو الواحد الأحد وهو على كل شىء قدير وبكل شىء محيط . فيجب على المؤمنين التسليم بهذا الاستواء ، واليقين به ، ثم لا يبحثون فى كنهه وكيفيته . على أن الآية تقيم الدليل القطعى على نفوذ أمره - سبحانه وتعالى - وتمام سلطانه بالسيطرة الكلية والتدبير النافذ فى عوالم الوجود كافة . ﴿يفصل الآيات﴾ : أى يوضح الدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو ، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

سُورَةُ الرَّعْدِ

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ
أَثْنَيْنِ يُغِشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

بعد أن عدّد الله سبحانه آياتِ خلقِ العالم العلوى ، شرع في ذكر قدرته وحكمته وأحكامه للعالم السفلى ، فقال ، سبحانه وتعالى : ﴿ وهو الذي مدّ الأرض ﴾ أى بالحياة والحركة والوجود ، أو بمعنى بسطها طولاً وعرضاً فجعل فيها رواسى من الجبال الثابتة التى تثبت الأرض وترسيها وشق فيها من الأنهار .

وفى بسطه للأرض جعلها صالحة لسكنى الإنسان ولكل دابة صغرت أو كبرت مستأنسة أو مستوحشة ، وجعل فيها من الثمار فاكهة متنوعة كثيرة ، وجعل فيها من كل زوجين اثنين أى « من كل شكل صنفان » (١) .

سبحانه كل شيء عنده بمقدار ، وجعل الإنسان قادراً عليه بعلم الله ورحمته ، كما جعله قادراً على استيعاب ما ينسر به أمر الأرض وتمهيدها وحرثها سبحانه علّم الإنسان ما لم يعلم .

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ
صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾

إن من آيات الله الدالة على قدرته أن الأرض فى مساحة محدودة على امتداد عريض تسقى بماء واحد واليد الزراعية واحدة والسماء واحدة . يرمى البذر فى الأرض متنوعاً متعدداً ، فتخرج من كل الثمرات طعوم مختلفة وألوان مختلفة . الحلو بجوار الحامض والحلو بجوار الملح والطويل بجوار القصير صنوان وغير صنوان . والصنوان « هو الأصول المجتمعة فى منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك . وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار » (٢) سبحانه من مبدع قادر جعل ذاك بجوار ذاك ، وفضّل بعضها على بعض فى الأكل . فسبحانه وتعالى جل قوله ﴿ أفأرأيتم ما تحرثون ﴾ * أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴿ (٣) ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وقد قرر علماء البحث فى طبيعة خلق العوالم الأرضية والطبقات الجوية ، الذين عاشوا

(١) ابن كثير : ٢ / ٥٠٠ . (٢) ابن كثير : ٢ / ٥٠٠ . (٣) الواقعة : ٦٣ - ٦٤ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

ضمير الإنسان ، أن خلق هذا العالم وأمر هذا الكون وما فيه من نظام ، إذا اختل قيد شعرة هلك العالم وفنى . أليس ذلك دليلا على وجود الله الصانع المدبر صاحب الكمال المطلق والقدرة النافذة في كل شيء ، وهو على كل شيء قدير . . ؟

﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ نَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

« إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك ، بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين ، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث » ^(١) . وإن كان هناك عجب ، فعجب إنكارهم البعث بعد ما عرفوا قدرتي على الخلق وخلق كل هذه الموجودات السابقة . فكل هؤلاء يا محمد كافرون بربهم يسحبون على وجوههم في النار خالدين فيها أبدا .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾

هؤلاء المكذبون يستعجلون الهلاك ، والله - سبحانه وتعالى - أمر بتأخير العقوبة لهذه الأمة - أمة محمد - إلى يوم الدين : وقد أبان المولى عن طلبهم العذاب واستعجالهم له بقوله ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ ^(٢) - وبقوله ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ ^(٣) وبقوله ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعًا مِنْ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ^(٤) .

أى عقوبتنا وحسابنا . ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ ﴾ أى العقوبات التى وقعت على الأمم السابقة . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ للمشرك إذا آمن وأسلم وجهه لله ، وللمذنب إذا رجع وتاب وعمل صالحا رغم ظلمهم السابق على توبتهم أو إيمانهم . وأيضا ﴿ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ على من أصر على الكفر والإلحاد والجحود والإنكار ﴿ غَافِرٌ

(٢) الأنفال : ٣٢

(٤) ص : ١٦ .

(١) القرطبي : ٩ / ٢٨٤ .

(٣) المعارج : ١

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴿١﴾ - ﴿٢﴾ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴿٣﴾ .

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٤﴾

يقول المشركون كفرا وعنادا : لولا يأتينا بآية من ربه؟ عجبا من هؤلاء الكفار ! ألم يكتفوا بأن الله أرسل لهم رسولا شاهدا عليهم ، وكتابا حجة عليهم؟ ! الحق ينادي رسوله ﴿٥﴾ إنما أنت منذر ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴿٨﴾ . ﴿٩﴾ وقد أنذرت وبلغت وشرحت لهم ولكل قوم أرسلناك لهم . فما عليك إلا البلاغ يا محمد ، فالله هو الهادي عندما يشاء ذلك .

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿١٠﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿١١﴾

ينخبأ تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء ، فهو - سبحانه وتعالى - يعلم ما تحمل كل أنثى من جنين ، ذكرا أو أنثى ، شقيا أو سعيدا ، طويل العمر أو قصيره . فهو المنفرد بالغيب وحده . وهو يعلم ما تغيب الأرحام ، أي ما تسقطه المرأة من جنين قبل التسعة الأشهر . وما تزداد ، أي وما يزيد عن ذلك . فالله هو صاحب القدرة والتصرف المطلق في كل ذلك فكل شيء عنده بمقدار وحكمة وتصرف وتقدير ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴿١٤﴾ .

سبحانه عالم الغيب ، لا يخفى عليه شيء غائب عن العباد أو شاهد لهم ، كبير متعال على كل شيء ، محيط بكل الموجودات ، وقاهر كل شيء ، فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرها .

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ۚ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٥﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ ۚ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۚ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١٦﴾

(١) غافر : ٣ . (٢) الحجر : ٤٩ - ٥٠ . (٣) الأحزاب : ٤٥ ، الفتح : ٨ . (٤) القمر : ٤٩ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه ، فهو لا يخفى عليه شيء في السموات أو في الأرض ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فيستوى علمه بكل كبيرة أو صغيرة ، سواء مع من يستر في نفسه الخير أو الشر ، أو من يجهر بهما ويحدث بهما غيره . ولا يخفى عليه المتوارى الباطن في الظلمات أو الظاهر الماشى في ضياء النهار ، فإن كليهما في علم الله على السواء . سبحانه وتعالى له ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار . إنها ملائكة تحوط بالعبد فتكتب ما له بحسناته وما عليه بسيئاته . وكذلك هؤلاء الحفظة يحفظونه من حوادث الطريق . والمقصود أن الملائكة حوله من كل جهة حارسة له من أحداث الزمان والمكان ، فإن أطاع الله أعانوه وإن عصى الله انتظروا لعله يتوب وإلا كتبوا عليه السيئات بمثلها والحسنة بعشرة إلى سبع مائة ضعف حسب الصدق والرغبة في الخير . وقد كانت الأمة المسلمة على صدق مع الله في العمل بكتابه وسنة نبيه ، عليه الصلاة والسلام . فلما تغيرت مع الله ، فحكمت بغير كتابه وسنة نبيه واتبعت الكفار واتخذت منهم مستشارين وأعوانا ، أذها الله وجعلها تعيش في تبعية ذليلة ، تارة للغرب وتارة للشرق ، وجعلوا أمرها في غير يدها . ولو تابوا ورجعوا إلى الله فأقاموا دينه واعتمدوا على أنفسهم وحكموا في أنفسهم كتاب الله وتمسكوا بسنة النبي ﷺ لعاد لهم عزهم وحفظت كرامتهم المهذرة . فالله عز وجل لا يغير ما بقوم من سوء حتى يغيروا هم ما بأنفسهم . وجلّ قوله ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ (١) . وإذا أراد الله بقوم سوءاً أرشدهم إليه وأعمى أبصارهم ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا ﴾ (٢) . وما لهم من دون الله من ملجأ أو ناصر .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾
وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنَ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ
بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾

يعدد الله - سبحانه وتعالى - مظاهر نعمته ورحمته وقدرته للخلق ؛ فيخبر أنه هو الذي يرينا البرق ويسخره ، وهو الضوء اللامع الساطع من بين السحب خوفاً منه وطمعا في زيادته ، لأنه بركة تبشر بالمطر . وأنه تعالى هو الذي ينشئ السحاب الكثيف

(٢) مريم : ٧٥ .

(١) الأنفال : ٢٥

سُورَةُ الرَّعْدِ

بالماء الآتى بالمطر الذى هو نعمة ورزق من عند الله - سبحانه وتعالى ، يجعل الرعد يسبح بحمده والرعد صوت السحاب . وأيضا تسبح الملائكة بحمده من خيفته . ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ قيل إنها «نزلت في يهودى ، قال للنبي ﷺ : أخبرنى ، من أى شىء ربك ، أمن لؤلؤ أم من ياقوت ؟ فجاءت صاعقة فأحرقتة . وقيل نزلت في بعض كفار العرب » (١) .

إذن عقاب الله شديد على من يجادل فى الله ، وهو شديد المحال ، أى المكر . والمكر من الله تدبير للحق ونصرة لأهله ، وهو إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر . . «وقيل المحال هو القوة والشدة » (٢) . كفانا الله شرّ الذين يجادلون فى الله بغير حق ، ونصرنا عليهم ، وهو سبحانه وتعالى ولينا وناصرنا ومؤيدنا . فهل من رجعة إلى الله وكتابه وسنة رسوله فنسود الدنيا كما سدنّاها من قبل ونعيش بعزة الإسلام والتوحيد !!؟

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾

له سبحانه دعوة الحق ، أى دعوة الصديق ، وهى الإسلام بكل تكاليفه وشرائعه وعباداته ، والتسليم والتوحيد والخضوع لله عزّ وجل ، ثم الاحتكام لما أنزل الله عزّ وجل ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ . أما الذين يدعون من دون الله ويشركون به غيره ويركنون إلى عبادة الطاغوت (٣) ، فهم لا يستجاب لهم إلا إذا قبضت بكفيك على الماء لتبعث به إلى فيك من شدة العطش . فإن حدث ذلك الأخير تحقق ذاك الأول . وهذا منتهى الإعجاز . وحقا . . ما دعاء الكافرين للأوثان والأصنام إلا فى ضلال . وجل قوله - سبحانه ﴿ضلّ من تدعون إلا إياه﴾ (٤) وجل قوله أيضا ﴿أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا ضلوا عنا﴾ (٥) .

(٢) القرطبي : ٢٩٩ / ٩ .

(١) القرطبي : ٢٩٦ / ٩ .

(٣) الطاغوت = مصطلح قرآنى يطلق على كل باطل فى الأرض أشرك به مع الله فى العبادة ، سواء كان سلطانا أو ملكا أو حكما أو بشرا أو أفكارا هدامة أو نظريات حديثة فاسدة . . إلى غير ذلك مما ألّه الناس بحكم سيطرته عليهم لجلب منفعة أو إتيان مصلحة مع تجنب الله - سبحانه وتعالى - وتهميشه عن أمور حياتهم مكتفين بمجرد إعلان لا إله إلا الله ، دون اللجوء إلى مقتضياتها الفعلية . (المؤلفة)

(٥) الاعراف : ٣٧ .

(٤) الإسراء : ٦٧ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ، ولهذا يسجد له كل شيء طوعا من المؤمنين وكرها من المنافقين . والله يسجد الإنس والجن والشجر والدواب طوعا ، أى من دخل فى الإسلام رغبة ، وكرها أى من دخل مقهورا بالسيف أو منافقا ، وظلالهم كلها تسبح وتسجد لله رب العالمين فى وقت البكور والآصال أواخر النهار .

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَعَاوِلًا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

لما تمادى الكفار فى مجادلة حضرة الرسول بالباطل والمكابرة، قرر الله سبحانه أنه لا إله إلا هو، وقال سبحانه لنبيه - ﷺ - يا محمد قل لهم من رب السموات والأرض؟ أليس هو الله! إنهم يعرفون ذلك جيدا ﴿١٥﴾ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴿١٦﴾. ولكنهم يعبدون معه آلهة لا تملك لأنفسها نفعا أو ضرا، ولا تحصل لهم مصلحة أو تدفع عنهم مضرة. وما عبدوا مع الله آلهة أخرى إلا وهم معترفون أنها مخلوقة لله لا تنفع ولا تضر كما كانوا يلبون «لييك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك».

فكيف تتخذون من دون الله أولياء لا يملكون شيئا وهم مخلوقون ولا يخلقون؟ قل كذلك يا محمد ﴿١٧﴾ هل يستوى الأعمى والبصير ﴿١٨﴾ كيف تفكرون؟ وكيف تسؤل لكم أنفسكم أن تتخذوا أولياء من دون الله الذى خلقكم وصوركم وأخرجكم من ظلمة الأرحام إلى نور الحياة؟ فكيف لا تتفكرون فى خلقكم وتطوركم من النطفة إلى المضغة إلى الطفولة فالشباب فالفتوة فالرجولة فالشيخوخة فمفارقة هذه الدنيا؟

وقل لهم يا محمد أيضا هل يستوى طريق الحق مع طريق الضلال ، مثل طريق النور وطريق الظلام ؟ «أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتمثله فى الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ فليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله أحد ، ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة » (٢). ﴿١٩﴾ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴿٢٠﴾ (٣).

(٣) الإسراء / ٤٣ .

(٢) ابن كثير : ٥٠٧ / ٢ .

(١) لقمان : ٢٥ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقُدْرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ
عَلَيْهِ فِي النَّارِ أَبْتَغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرْدٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

يضرب الله تعالى أمثلة للحق والباطل ، ويعقد مقارنة بينهما بأمثلة حياتية نفهمها ونتدبرها . وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه والباطل في اضمحلاله وفنائه . فيبين الله تعالى أن للباطل زبدا ، وهو ما يشبه الرغبة والفقايق والنفايات الخفيفة التي من خواصها أن تعوم على وجه الماء ، فيقول الحق : أنزل من السماء ماء فسالت أودية (جمع واد) أى جرت في الوديان بقدرها ، أى بحسب ما يتسع له كل واد من حمل الماء ؛ « وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علما كثيرا ، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها » . بعد ذلك ظهر هذا الزبد على وجه الماء عائما كثيرا لا فائدة فيه غير أنه غثاء ونفايات وعوادم ليس لها عمر ، إذ تضع في الجو والهواء . فهذا هو الباطل وما يصير إليه ومنتهاه ومآله ، يغرى ويلفت النظر لكنه لا شيء ، فهذا زبد . وهناك زبد آخر مثله هو ما يتبقى بعد انصهار الحديد أو النحاس أو الذهب لاستخلاصها وتشكيلها على هيئة حلّى أو متاع ، فلا بد لهذه العملية من زبد يطفو على وجهها يعلوها كما يعلو زبد الأودية على سطحها . فهذا زبدان : زبد الأودية وزبد انصهار تلك الحلّى عند تنقيتها . كذلك يضرب الله الحق والباطل « أى إذا اجتماعا ، لاثبات للباطل ولا دوام له ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل » .^(١) وبعد ذلك يعطى الله الصورة الحقيقية المجردة للحق والباطل من خلال الأمثلة السابقة فيقول ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ أى يذهب متفرقا متمزقا لا ينفع ، بل يصير منشورا متفرقا تنسفه عوامل الجو والرياح ويذهب في جوانب الوادى مبعثرا ، ثم لا يبقى بعد ذلك إلا الماء . كذلك زبد الذهب والفضة يروح ويذهب ولا يبقى إلا المعدن . فذاك هو ما ينفع الناس الذى يبقى ويمكث ويثقل في الأرض كذلك . « فالباطل وإن علا في بعض

(١) ابن كثير : ٥٠٨ / ٢ .

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

الأحوال ، فإنه يضمحمل كاضمحلال الزبد والخبث » (١). كذلك يضرب الله الأمثال ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (٢).

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَيُسَمَّى الْمَهَادُ ﴿١٨﴾

ينخر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء . فالحسنى - أى الجزاء الحسن - للذين
استمعوا إلى رسول الله واتبعوه وأطاعوه وأطاعوا الله تعالى و ﴿من يطع الرسول فقد أطاع
الله﴾ (٣). أولئك لهم من الله المثوبة ، ولهم الحسنى وهى الجنة التى وعدها الله المتقين .
﴿أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾ * وأما من آمن وعمل
صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ﴿ (٤) . ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى
وزيادة﴾ (٥). أما ﴿الذين لم يستجيبوا له﴾ أى لم يطيعوا الله ، فلهم العذاب الأليم يوم
القيامة ، ولو استطاعوا ساعتها أن يفتدوا أنفسهم بملء الأرض ذهباً ومثله معه من
أموال ومتاع حتى ينجوا بأنفسهم من العذاب : لفعلوا ، ولكن هيهات هيهات !!
ولات ساعة مندم !!

إنهم كفروا بربهم ؛ فليس لهم إلا ﴿سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ .

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِمَّةَ﴾ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى لا يستوى من الناس من تحقق صدق ما جئت به يا محمد من عند
ربك ، ومن هو أعمى لا يهتدى إلى خير لا يفهمه ولا ينقاد له . إن الذين يستمعون
القرآن فتنتفتح له قلوبهم وتنشرح له صدورهم إنما هم الذين لبوا نداء الرسول وقالوا
لربهم بحب ﴿ربنا إنما سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا﴾ هؤلاء هم

(١) القرطبي : ٩ / ٣٠٥ . (٢) العنكبوت : ٤٣ . (٣) النساء : ٨٠ .
(٤) الكهف : ٨٧ ، ٨٨ . (٥) يونس : ٢٦ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

أولو الألباب^(١) الذين انفتحت قلوبهم ومسامعهم لذكر الله ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ ووفوا ما عليهم لله سبحانه من صلاة وزكاة وصيام وحج وحسن توحيد وخافوا الله في كل أمر له ففعلوه وفي كل نهى منه فتجنبوه ، فهم ليسوا كالمنافقين إذا عاهد الواحد منهم غدر .

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١١﴾
وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ
مِنْ آبَائِهِمْ وَازْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١٤﴾

هم أيضا الذين يصلون الأرحام والأقارب والفقراء والمساكين بالنفس والمال، ويحسنون إليهم جميعا، ويخافون الله ويتقونه في كل تصرفاتهم وأفعالهم، ويخافون عاقبة مخالفة أوامر ربهم وسوء الحساب. ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ على ربط أنفسهم عن الوقوع في المهالك والمحارم ، ويقبضون على دينهم قبضا محكما ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ، والذين أقاموا الصلاة ولم يضيعوها ولم يؤخروها ، وأدوا الزكاة المفروضة سرا وعلانية ﴿ ويدرءون ﴾ أى يدفعون ويزيلون ويمحون بالعمل الصالح الذى يفعلونه كل سيئ من أعمال سابقة فهم يدفعون « الشر بالخير والمنكر بالمعروف والفحش بالسلام والظلم بالعفو والذنوب بالتوبة »^(٢) . ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ وهى الجنة فى الآخرة « يجمع بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانا من الله وإحسانا من غير تنقيص للأعلى عن درجته »^(٣) . ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ بالتحية والسلام والتهنئة والخدمة تكرامة لهم

(١) قبل إن هذه الآية نزلت فى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وأبى جهل لعنه الله ، انظر القرطبي : ٣٠٧ / ٩ .

(٢) ابن كثير : ٥١٠ / ٢ .

(٣) أقوال أوردها القرطبي : ٣١١ / ٩ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

وجائزة . (سلام عليكم) بسبب صبركم في الدنيا على ما لا قيتموه من أذى في سبيل الله فنعم الدار داركم وهى دار الخلد والنعيم المقيم .

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٤٥﴾

درج القرآن الكريم على أنه إذا عدّد صفات أهل الخير والفلاح وسلوكهم القويم أخذ في وصف أهل المعاصى والتائبين في منعرجات آثامهم ، وذلك ليبيّن للبشرية الطريقين .

وهنا يعدد صفات أهل الضلال والشقاء بعد أن تكلم في الآيات السابقة عن صفات أهل الهدى والرشاد . فهؤلاء ﴿ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ فهم منافقون ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ من الرحم وذوى القربى وأصحاب الحوائج ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾ بالكفر وارتكاب الآثام والمعاصى أولئك مطرودون من رحمة الله ﴿ ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ وهى النار يسحبون فيها على وجوههم .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٤٦﴾

يذكر تعالى أنه هو الذى يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتصر على من يشاء ، لما له في ذلك من الحكمة والعدل . إن الذين يركنون إلى غير الله شغلّتهم الدنيا وفرحوا بما أوتوا منها ، فانصرفوا لها يجمعونها . وما الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة إلا متاع الطعام والثياب وزينة المنزل أو مراكز الدنيا ، وأعلاها الحكم فيها ، وهو إما يزول عن صاحبه أو يزول صاحبه عنه . والويل لمن تولى الحكم في الدنيا فحكم بغير ما أنزل الله ، إن النار والغسلين في انتظاره ، حقا ما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع قليل . . !

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٤٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٤٨﴾

سُورَةُ الرَّعْدِ

إنه من جهل الإنسان بربه ورسله يقول ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أى هلا نزلت عليه آية صدق من ربه ومعجزة نصدقه بها . . . وكأن القرآن وما فيه من سوق الآيات ليس بآية أو معجزة !! لكن لشدة جهلهم قالوا ذلك ، وكأنه لا وجود لمحمد في قلوبهم الذى عاش معهم أربعين سنة قبل النبوة فى كمال وصدق وأمانة حتى لقبوه هم أنفسهم بالصادق الأمين . . . إنه الكبر البشرى الملوث بظلمة الجاهلية . والحق أن الله يهدى من يشاء بآياته ويعمى عنها من يشاء من الناس . فقل لهم يا محمد : قافلة التوحيد ستسير وستؤدى أمانتها ورسالتها ، فقولوا أيها الكافرون ما تريدون ، فذلك ليس بمعطل لمسيرة الموحدين . فسحقا لكم بضلالكم والله - سبحانه وتعالى يهدى إليه من يشاء أنصارا لرسله وورثة لنبيه الخاتم محمد - ﷺ . والذين آمنوا هداهم الله بنوره فارتعدت قلوبهم بذكر الله فهداهم وطمان قلوبهم ولانت هياكلهم البشرية وهدأت نفوسهم فذهب عنها اضطرابها فثابت واطمأنت ذاكرة الله فى إخبارات .

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُ ﴿٢١﴾

هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم : أى (١) : فرح لهم وقرة عين ، كما قال ابن عباس . وعنه أيضا : أنها أرض الجنة بالحبشية . وقال إبراهيم النخعى : خير لهم ، وعنه أيضا : كرامة من الله لهم .

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٢٢﴾

وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة لتبلغهم رسالة الله إليهم ، فإننا كذلك قد أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله رسلا ، وقد كذبوا من قبلك فلك بهم أسوة ، فأحطنا بالمكذبين ودمرناهم تدميرا ، فليحذر من حولك من وقوع النقم فإنهم يكذبونك ، وإن تكذبيهم لأشد من تكذيب غيرك من المرسلين ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين﴾ (٢) .

(٢) الأنعام : ٣٤

(١) انظر القرطبي : ٣١٦ / ٩ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

سوف يكون عذابنا شديدا يا محمد لهؤلاء الذين يكفرون بالرحمن .^(١) فقل لهم : إنه هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب أى مرجعى وإنابتى وخضوعى .

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سِيرَتْ بِهٖ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهٖ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهٖ الْمَوْتَىٰ بَلَّ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوِشَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢١﴾

ينخر الحق بأنه لو كان فى الكتب والقرون الماضية كتاب تسير به الجبال ويجعلها تفسح الطريق للناس ، أو يحى به الموتى ويبعثون من قبورهم ، أو تقطع به الأرض وديانا للغرس والزراعة : لكان القرآن الكريم ، أولى كتب الله عز وجل للقيام بهذه المهمة لما فيه من هدى وإعجاز وبيان شاف للقلوب ، لكن الأمر مرجعه كله لله تعالى فليس ذلك من وظائف القرآن إنما مهمة القرآن أن يهدى ويدعو الناس إلى توحيد الله وعدم الإشراك به . وهذا مدح للقرآن الكريم الذى أنزله الله على محمد ﷺ ، وتفضيل له على سائر الكتب المنزلة قبله .

أفلم يعلم أو يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس كلهم أجمعين ، ولا تزال بسبب تكذيب الكفار وعنادهم تصيبهم قارعة - أى عذاب من السماء - تنزل بساحتهم أو بالقرب منهم حتى يأتى وعد الله يوم القيامة إن الله لا يخلف الميعاد .

وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٢٢﴾

فلا تحزن لما يفعلون يا محمد ، فكم من رسول قبلك كُذِّب من قبل قومه فأنظرتهم وأجلت لهم ، ثم أخذتهم بعذاب أليم لم يفلتوا منه . وهذا تسلية للرسول فى تكذيب من كذبه من قومه .

(١) كانوا يرفضون ذكر الرحمن الرحيم فى أقوالهم ، ولهذا رفضوها من رسول الله فى صلح الحديبية ، وقالوا ما ندرى ما الرحمن الرحيم .

سُورَةُ الرَّعْدِ

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّظُهُمْ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾

الله القائم على كل نفس ، فيعلم حوائجها وحقيقتها ، ويجزيها بما عملت من خير أو يعاقبها بما ارتكبت من معصيته ، والذي لا يخفى عليه خافية ، والذي ﴿ هو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تملك نفعا أو ضرا لها ولا لعابديها ؟ إن هؤلاء يكابرون ويعاندون رسول الله - ﷺ - ويجعلون لله شركاء ويسمونهم ، فقل لهم يا محمد : سموا ما شئتم من أحجاركم وأصنامكم ، فلن تغنى عنكم من الله شيئا ، أتدعون لله ما لا يعلمه سبحانه وهو خالق كل الكون ؟ إنه عالم الغيب والظاهر من السموات والأرض وما أخفيتم من القول وما أظهرتم . إن الشيطان زين لكم مكرهم وصدكم . عن سبيل الله ، سبيل الحق والنور . فمن يضلل الله فما له من هاد ، بل لهم عذاب أليم في الحياة الدنيا ، وكذلك لهم في الآخرة عذاب شاق وصعب ويومها ما لهم من الله من واق أى مانع أو دافع .

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ ﴿٣٥﴾

إن الجنة التي وعد الله بها المتقون - أى الذين صدقوا برسل الله وخاتمهم محمد - ﷺ - في هذه الجنة من الثمرات والمطاعم والمشارب بلا انقطاع ولا فناء . ﴿ وفاكهة كثيرة ﴾ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴿ . (١) - ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ﴾ (٢) . ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى سارحة في أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها .

جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - « يأكل أهل الجنة ويشربون

(٢) الإنسان : ١٤ .

(١) الواقعة : ٣٣ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون طعامهم ذلك جشاء كريح المسك ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس « (١) » .

هذه جنات أعدت للمتقين أكلها دائم وظلها دائم لا ينقطعان وهذه عقبى المتقين .
أما عقبى الكافرين النار . فهل يستوى الفريقان ؟ كلا ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ (٢) .

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ
قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٦﴾

ومن الذين آتيناهم الكتاب يا محمد من اليهود والنصارى من يفرح وينشرح بما أنزل إليك من القرآن لأنه يشهد على صدق ما هو عندهم من أخبارك وأخبار رسالتك .
ومنهم من ينكر بعضه جحودا وحقدا ، ويصرون على أن المسيح ابن الله وعزير ابن الله ،
فقل لهؤلاء جميعا : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه أرجع في كل
أمورى وشئونى .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ
اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

وهكذا أنزلناه إليك ﴿حكما عربيا﴾ أى كتابا جمع أحكام الله وأوامره ونواهيه ، بلسان
عربى على رسول عربى . فلا تتبع يا محمد أهواء المشركين ، إنهم أصحاب أهواء وعلل
وحاش أن تتبع أهواءهم بعدما جاءك الحق من الله تعالى ، فتضل عن الطريق ، فلا تجد
ساعتها ما يدفع عنك عقاب الله وغضبه . وقيل الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته .
وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة
النبوية الشريفة .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ
بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

(١) رواه مسلم فى صحيحه ، وأبو داود والإمام أحمد فى مسنده . (٢) الحشر : ٢٠ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

عاب اليهود والنصارى على رسول الله أنه عدّد أزواجه فقال الله تعالى ، ليس محمد بدعا من الرسل ، فقد أرسلنا من قبله رسلا وكان هؤلاء الرسل أزواج وذرية ، فليس محمد إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل ، فإن تزوج فقد تزوج من كانوا قبله وإن عدد زوجاته فبأمر الله له .

يقول القرطبي « هذه الآية تدل على الترغيب في النكاح والحض عليه ، وتنتهى عن التبتل وهو ترك النكاح » (١).

ثم عاد الله - سبحانه وتعالى ليرد عليهم فيما اقترحوه من نزول آيات ﴿ لولا أنزل عليه آية ﴾ أو طلبهم من الرسول أن يأتى لهم بمعجزة من عنده فيرد الحق ﴿ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ﴾ إذ إنه لكل أجل وقضاء عند الله موعد ووقت معلوم .

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣١﴾

سبحانه وتعالى ، هو العدل المطلق ، لا يسأل عما يفعل ، وعباده بين يديه يسألون . فهو يثبت ما يشاء من آجال ويمحو ما يشاء أو يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء من كل شيء ، ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ أى أصل ما كتبه من آجال وأعمار محفوظ بها كل ما شاء الذى لا يبدل ولا يغير . فهو المتصرف فى حكمه وملكوته كيف يشاء .

وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٣٢﴾

فإما نرينك يا محمد بعض ما وعدناهم به من الخزي والدمار والخذلان فى الدنيا بمعصيتهم لله ثم بإعراضهم عن بلاغك لهم بالحق ، أو نتوفينك قبل ذلك وقد بلغت رسالتك ، وهذا هو المطلوب منك وعلينا الحساب ، أى حسابهم وجزاؤهم .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٣﴾

أو لم ير هؤلاء المنكرون أن الله يأتى بالأرض فيصيبها بنقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض من تحت أقدام الكافرين ؟ فالله يريهم « النقصان فى أمورهم ليعلموا أن

(١) القرطبي : ٣٢٧ / ٩ .

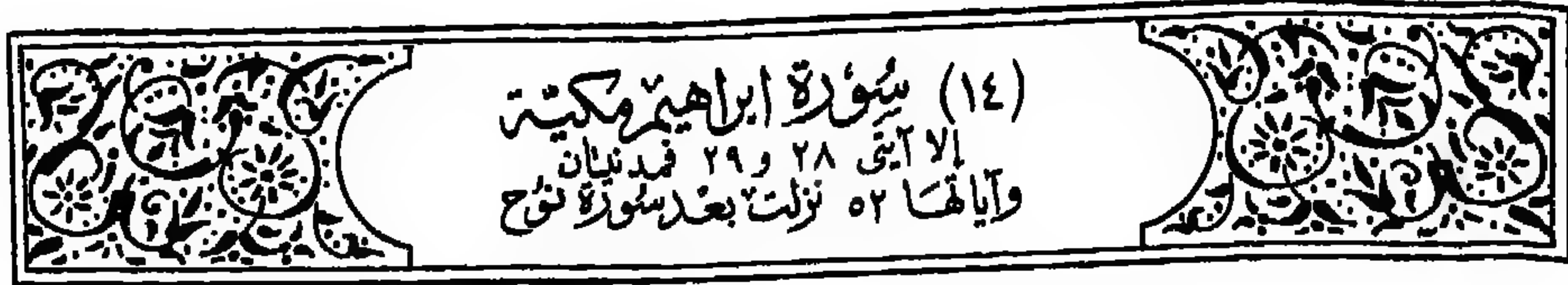
سُورَةُ الرَّعْدِ

تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز . والإسلام من ناحية أخرى يسبح ويسطع بنوره وتفتح مكة وهذا هو التفسير الأثرى القديم .

وقد يكون هذا النقصان : مجرد اضمحلال طبقة الأرض من القطبين وانخفاضها تبعا لطبيعة كونية أرضية ، بحيث يبدو منظر كوكب الأرض وكأنه يضاوى الشكل . وتختلف هذه المناطق عن أخرياتها في الطبيعة الجوية من برودة وشمس وخلافه ، فالأرض منتقصة من الطرفين ، وذلك حسب ما وصل إليه العلم الحديث أخيرا من حقائق .

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ
لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

وكم من أمم يا محمد مكرت بأنبيائهم من قبلك وأرادوا إخراجهم من بلادهم ، فله المكر جميعا يجازيهم به ويقلبه عليهم ، فالمكر من الله كما قلنا تدبير وتمكين للمؤمنين وعبرة وعظة وهزيمة للكافرين والخير منه والشر لا يكون إلا بإذنه ، يحيط علمه كل الكون ويعلم ما خفى وما ظهر . ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبي الدار﴾ ؟ أى لمن الثواب ولمن العقاب وذلك فى الآخرة ، فالعبرة بالخواتيم ، والله ناصر عبده ورسوله ، ومتم نوره ، ومخزى الكافرين ، وسيقول لك ﴿الذين كفروا لست مرسلا﴾ أى ما أرسلك الله ، وما أنت إلا متقول علينا ، وذلك بسبب عدم استجابتك لهم بما يقترحونه عليك ، فقل لهم يا محمد حسبى الله هو الشاهد على وعليكم ؛ شاهد على فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان . إن الحق لله يقرره ويقضيه وليس لكم . والله هو الذى أرسلنى رسولا ونبيا وخاتما للأنبياء ، وأنزل علينا كتابا جمع فيه كل ما أنزل على الرسل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كتاب عزيز من رب عزيز يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، وهو سبحانه شهيد بينى وبينكم وسبحانه وتعالى عنده وحده ﴿علم الكتاب﴾ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾

تكلّمنا عن الحروف المقطعة ومعانيها في أول سورة البقرة . هذا كتاب يا محمد أنزلناه
إليك وهو (القرآن الكريم) ، لتبين للناس طريق الله ، وتعرفهم أن ربهم واحد لا
شريك له ، فتخرجهم بذلك من ظلمات الشرك بالله ومعصية أمره إلى طاعته وتوحيده ،
وتباعد بينهم وبين الضالين المكذبين برسول الله وكتبه ، حتى يكونوا على صراط الله
العزیز أى القاهر لكل ما سواه ، الحميد أى المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره
ونهيّه .

اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

يقرر الله سبحانه أنه هو وحده الذى يملك السموات والأرض وما بينهما وما تحت
طبقات الأرض . فالويل لمن لا يتأمل بل ينكر آيات الله ، هؤلاء : ويل لهم من عذاب
شديد يوم القيامة .

إنهم أصحاب القلوب المائلة إلى الدنيا ، يقدمونها ويؤثرونها على الآخرة ، ويعملون
للدنيا ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ، فقد أنساهم حبّ الدنيا حبّ الآخرة .

سُورَةُ الْاِنْبِرَاءِ

إنهم أصحاب السبيل المعوج ، يصدون من يريد الاستقامة عن هدفه ، ويحولون بينه وبين الهدى والرشاد ، ويقفون في وجه كل خير راشد ، ويصدون الناس عن الرسل وتعاليمهم وهدايتهم وطريقهم المستقيم ، أولئك أظلمت قلوبهم ، فهم في ضلال بعيد .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾

إن من رحمة الله تعالى على خلقه ، ولطفه بهم ، أنه يرسل الرسل بلغة أقوامهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم ، حتى لا تكون هناك حجة .

عن أبي ذر قال ، قال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لم يبعث الله عز وجل نبيا إلا بلغة قومه »^(١). وقد كانت هذه سنته في خلقه : أنه ما بعث نبيا في أمة إلا أن يكون بلغتهم ، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم . لكن الحق - سبحانه وتعالى اختص محمدا - صلى الله عليه وسلم - بعموم الرسالة إلى سائر الناس ، كما قال سبحانه ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾^(٢).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢﴾

إن مهمة الرسل واحدة في كل العصور ، وهي إخراج الناس من ظلمة الكفر بالله والجهل به إلى نور معرفة الله واليقين بوجوده ، سبحانه وتعالى . وتلك المهمة الجليلة أرسل بها محمد - صلى الله عليه وسلم - وأرسل بها موسى - عليه السلام - ليخرج قومه من ظلم فرعون وأسرهم لعلهم يفيثون إلى الله فيستقيمون ويعيشون حياة الإسلام وقد أمر الله موسى أن يذكر بني إسرائيل بأيام الله عندهم ، أي « بأياديه ونعمه عليهم في إخراجهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه وإنجائه إياهم من عدوهم وفلقه لهم البحر وتظليله إياهم بالغمام وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم »^(٣). ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ صبار حالة الضراء شكور حالة السراء .

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في الجامع الصغير .

(٢) الأعراف : ١٥٨ . (٣) ابن كثير : ٢ / ٥٢٣ .

سُورَةُ اِنَّا هِيْمَا

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ
ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ فِي ذُلِّكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

تمردت بنو إسرائيل على موسى ، فقال لهم اذكروا نعمة الله عليكم لما أنجاكم من آل
فرعون الذين كانوا يذبحون أبناءكم الذكور ، ويستبقون الإناث منهم ، وفي ذلك خزي
وضياع لكرامتكم . فكونوا عبادا لله شاكرين . ولكن بنى إسرائيل جبلت على الغدر
ونكران النعمة ولو شكروا لكان خيرا لهم .

وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمْ لِمَنِ شَكَرْتُمْ لَا زَيْدٌ لَّكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي
لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾

واذكر إذ أعلمكم ربكم بأنه إذا شكرتم نعم الله واعترفتم بها وحافظتم عليها قولا
وعملا ، ليزيدنكم منها ويبارك فيها . أما إذا جحدتم وكفرتم بى وبنعمى ، فإن
عذابى أليم شديد .

وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٩﴾

فالحمد لله الذى لا تنفعه عبادة ، ولا تضره معصية ، فسواء آمنتم أو كفرتم فلن ينفع
الله إيمانكم ولن تضره سبحانه معاصيكم حتى ولو كان بعضكم لبعض ظهيرا فالله هو
الغنى الحميد أى هو غنى عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفر .

الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي
أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِء وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ
مُزِيبٌ ﴿١٠﴾

سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ

إن المتكبرين على الله الذين ردّوا أيديهم في أفواههم عاضين عليها من الغيظ ،
﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لنفى شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ ، أولئك النار
مأواهم وبين عرصاتها مثواهم وما هم منها بخارجين . فليهلكوا بشكهم ورييهم تعصر
النار أكبادهم فيموتون فيها ويحيون .

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ
لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ
مُّبِينٍ ۝۱﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة ، وذلك أن أمهم لما أنكرت
وجود الله في جحود وغلظة وقسوة قلب ، قالت لهم الرسل : ﴿ أفى الله شك ﴾ ؟ وهو
الذى فطر السموات والأرض ، أى خلقها وأبدعها وأوجدتها بعد العدم؟ وهو الذى
بسط الأرض ورفع فوقها الجبال وشق فيها البحار ؟ : إنه يدعوكم فضلا منه ومنة إلى
طاعته ليغفر لكم ذنوبكم في الدار الآخرة ويؤخركم لأجل مسمى في الدنيا .
فما آباؤكم الذين تتمسكون بهم وبمعبوداتهم الباطلة إلا كفار عبدوا الطاغوت
فاستحقوا النار فثوبوا إلى الله يغفر الله لكم .

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ ۖ وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ۝۲ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا
وَلَنْصِيرَتْ عَلَىٰ مَاءٍ أَذْيَتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝۳

لما قالت الأقوام لأنبيائهم ، أتريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، قالت لهم
الرسل : إنما نحن أنبياء الله وعبيده كُلفنا أن نأتى إليكم ندعوكم إليه سبحانه لتوحيده في
ربوبيته لكم ، فلا تشركوا به شيئا ولا تتخذوا معه أوثانا تعبدونها .
وسارت مسيرة الأنبياء داعية إلى توحيد الله ، وتخليص العبودية من غبار الشرك حتى

سُورَةُ الْاِنْبِرَاءِ

جاء النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - سيد البشرية متمماً للمسيرة المباركة للأنبياء ،
ومعه القرآن جامعاً مجمل شرائع الأنبياء ، فما كان لنا أيها الجاحدون المنكرون أن نأتيكم
بحجة أو آية إلا بإذن الله ومشيتته لأن ذلك ليس في قدرتنا نحن البشر ، ونحن متوكلون
على الله في كل أفعالنا حق التوكل الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمنون .
واعلموا أيها الناس - وقد أبيتم أن تعبدوا الله وحده - أننا مستعينون به موحدون لذاته
العلية ، وكيف لا نفعل ذلك وقد هدانا - سبحانه وتعالى - إلى طريق الخير وعرفنا إلى
صفاته ؟ وهذا اجتناء منه وتكريم وسنصبر على إيدائكم لنا ما دام ذلك في سبيل الله .
وعلى الله توكلنا واستعنا . اللهم انصرنا على القوم الظالمين .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي
مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ
مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ
كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾
يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ
بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم ، والنفي من
بين أظهرهم . قال الذين كفروا لرسولهم : لن نطيعكم وسنخرجكم من أرضنا إن لم
تتركوا ما تدعوننا إليه وتعودوا في ملتنا وديننا وآبائنا . ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ﴾ أى إلى
الأنبياء ﴿ رَبِّهِمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ ثم لنسكننكم أيها المؤمنون أرضهم من بعدهم
ويكون لكم الأمر . وذلك عهدي مع من ﴿ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ، أو منهم
وأرزقهم امتلاك الأرض والحكم فيها بعد إهلاك الظالمين ومحو آثارهم . وجل قوله تعالى
﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

فلما اشتد عناد الكافرين لرسولهم ، استفتح هؤلاء الرسل أى لجئوا إلى ربهم

سُورَةُ ابْرَاهِيمَ

مستجيرين به سبحانه أن ينصرهم على المعاندين للحق المجادلين فيه ، أى طلب الرسل من ربهم النصر على الكافرين المعاندين للحق .
وفتح الله عليهم بالنصر ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ . وصار من وراء هؤلاء الكفار ومن أمامهم نار مشتعله بالحجارة وأجساد الكافرين ، وأخذوا يطلبون الشراب لتهدأ النار في أجوافهم ، فيسقون شراباً من حميم وغساق يسقونه جرعة جرعة لا مرة واحدة فلا يكادون يطيقونه ويبتلعونه ، ويأتيهم الموت من كل مكان من فوقهم وتحتهم وعن يمينهم وعن شمائلهم وكل أنواع العذاب ولكنهم لا يموتون كما قال عز وجل ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ (١) .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ
لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾
وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت وعدموها وهم أحوج ما كانوا إليها .
فأعمالهم في الدنيا صارت يوم القيامة ﴿ كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾ أى ذى ريح شديدة عاصفة قوية تهلك أمامها كل شيء ، لا يأخذون ولا ينالون منها شيئاً عند الحساب . و ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أى سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم وهم أحوج ما كانوا إليه .

ثم يهدد المولى سبحانه الكفرة المعاندين لرسلم قائلاً :
أليس من السهل على الله سبحانه - وهو القادر الذى خلق السموات وما فيها والأرض وما عليها - أن يفتنكم ويأتى بخلق جديد غيركم وعلى غير صفتكم ؟ ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أى بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه . فلم لا تعتبرون . . ؟
وجل قوله ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ (٢) - ﴿ يأياها الذين

(٢) محمد : ٣٨ .

(١) فاطر : ٣٦ .

سُورَةُ الْاِنْبِرَاءِ

آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴿١﴾ - ﴿٢﴾ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرًا ﴿٣﴾ .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٤﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

يوم القيامة تبرز الخلائق كلها مجتمعة في صعيد واحد ، بارها وفاجرها ، لله الواحد القهار ، تستغيث وتستنجد بالله ﴿ فقال الضعفاء ﴾ الذين عصوا الله في الدنيا وكانوا أتباعا لرؤسائهم وأوليائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده وعن موافقة الرسل : إنا كنا تابعين لكم في الدنيا نطيعكم ونسمع كلامكم ونمشي وراءكم ، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن . ﴿ فهل أنتم مغنون عنا ﴾ أي دافعون عنا شيئا من العذاب ، كما كنتم تعدوننا في الدنيا وتزينون لنا وتمنون ؟ ١١ فماذا كان ردّهم ؟ ﴿ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ﴾ ما بيدنا شيء ، ولقد حقت كلمة العذاب علينا وعليكم . ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ ما لنا وإياكم من خلاص أو نجاة من عذاب الله .

ثم يقوم إبليس بعد ذلك خطيبا فيهم ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم فيقول لهم إن الله تعالى قال لكم الحق أي على السنة رسله ، ودعاكم إلى الخير والفلاح فلم تستمعوا له سبحانه ، ودعوتكم أنا إلى الكفر والضلال فأطعتموني . استمعتم لي ولم تستمعوا لله ، فاليوم تهلكون ولن تجدوا من الله من واف . ﴿ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ فلن أغنى عنكم من الله من شيء ، فاليوم ليس للظالمين إلا العذاب الأليم .

(١) المائدة : ٥٤ .

(٢) النساء : ١٣٣ .

سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ

فيا ليت أبناء آدم تصحو ضمائرهم وهم لا يزالون في الدنيا ، فيعادوا الشيطان وأهله
ويصالحوا الرحمن ، فتكون توبتهم مقبولة ورحمة الله عامة عليهم في كل وقت وحين .

وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٤٣﴾

بعد أن عرض علينا المولى موقف الظالمين في النار ، عرض سبحانه موقف الصالحين
في الجنة فقال ﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ﴾ لا جنة واحدة ، ولكن
جنات كثيرة ، وفي تلك الجنات أنهار جارية حيث ساروا وأين ساروا ، ونعيم ورحمات
من الله كثيرة : وفي نعيم الجنة حياة خالدة باقية لا تزول . خلود مبارك ﴿ بإذن ربهم ﴾
ورضاه وحبه وعفوه تمر عليهم الملائكة بالسلام ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى
الدار ﴾ (١) .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٥﴾

هذه الآيات توضح ما يصير إليه حال السعداء بما عقلوا من الحق ، فقد ضرب الله
مثلا هنا للكلمة الطيبة ، ليبين إلى أى مدى يؤتى الإيمان ثمارا طيبة في قلب المؤمن .
والكلمة الطيبة يقصد بها هنا كلمة التوحيد تلك التى ينطق بها الإنسان خالصة من
قلبه (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) . تلك الكلمة هى عمدة التوحيد ،
والطريق إلى الجنة . إن صدق بها قلب المسلم فاكسب بها فهم الأركان الخمسة - وهى
عمدة هذه الأركان - فأدى هذه الأركان بفهم عقل وتصديق قلب ، واحتواها بروحه ،
فإنه يغدو في حضرة الحق عبدا ربانيا ربه الكلمة الطيبة صاحبة الأصل الثابت والفرع
الواصل إلى السماء ، فصار كالشجرة الطيبة أصلها ثابت متين وفرعها عالٍ في السماء

(١) الرعد : ٢٤ .

سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ

تؤتى أكلها كل حين . وهكذا المؤمن يعطى فى كل وقت ، متصل بالله فى كل حين ، قلبه حى دائما نابض يقظ ينفع ولا يضر يؤتى ثماره الخيرة الطيبة .

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾
يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

ينتقل بنا الحق إلى المثل المواجه لتلك الدوحة بأهلها المصطفين الأخيار الأبرار ، وهو مثل مغاير تماما . إنه مثل لكلمة خبيثة ﴿ كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ﴾ ليس لها من قرار أى أصل تركز عليه . إنها شىء ضائع ليس له معالم وليس له أساس . ﴿ اجتثت ﴾ أى استؤصلت . « كذا الكفر لا أصل له ولا فرع ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شىء » (١) . والله العزيز الحكيم يثبت أوليائه وعباده على الحق فى الدنيا وفى الآخرة ، أما الظالمون فلا ثبات لهم ، بل هم فى ضلال ، وهذه حكمة الله تعالى فى خلقه ، إذ هو يفعل ما يشاء .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

إنهم جهلوا الحقيقة ، وعميت قلوبهم ، فبدل أن يشكروا نعمة الله فيؤمنوا به ويعزروه ويوقروه حادوا عن صراطه المستقيم ، وخالفوا أمره ، وكفروا بنعمته ، وأضلوا قومهم ولم يصدقوهم النصيحة فأحلّوهم دار البوار والفناء فكانت جهنم لهم مستقرا ومستودعا ، يعذبون فيها عذابا شديدا غير منقطع ، فبئس القرار قرارهم .
إن الظالمين الكفار جعلوا لله أندادا ونظراء وشركاء ، وذلك خسران مبین وما فعلوا ذلك إلا ليضلوا الناس عن طريق الله وعن سبيله المستقيم المؤدى للخير ، وليضلوا

(١) ابن كثير : ٢ / ٥٣١ .

سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ

أتباعهم وأنصارهم عن سبيل الله . فقل لهم يا رسول الله تمتعوا بكفركم وماتستطيعون فعله : افعلوه ، وتمتعوا به ، فإنه متاع قليل ومصيركم إلى النار ومرجعكم ومآلكم إلى جهنم . ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ (١) .

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾

قل يا محمد لعبادي ، الذين شهدوا لي بالربوبية ولك بالنبوة والرسالة ، أطيعوا الله وقوموا بحقه ، والإحسان إلى خلقه ، بأن تقيموا الصلاة خالصة لوجه الله العزيز الحكيم ، فالصلاة عماد الإسلام . أقيموها خالصة وحافظوا على مواقيتها وحدودها . وقل لهم أن ينفقوا من أموالهم سراً وعلانية ، لوجه الله وحده لا يرجون بها ينفقون شهرة في الناس ، ولكن رجاء في الله وحبا في مرضاته ورجاء لمغفرته . فليسارعوا في الخيرات ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ أي من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا تقبل فيه شفاعاة ولا فدية من أحد لنفسه يفدى بها نفسه ، والذي « ليس (فيه) مخالاة خليل ، فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالته ، بل هناك العدل والقسط » (١) .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَاكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

الله - سبحانه وتعالى - يعدد نعمه على خلقه ، فهو لا إله غيره ولا معبود سواه بحق ، قيوم السموات والأرض ، خلق كل شيء فأبدع خلقه . رفع السماء بلا عمد

(٢) ابن كثير : ٥٣٩ / ٢ .

(١) لقمان : ٢٤ .

سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ

وبسط الأرض وشق فيها أنهارها وبحارها ورفع جبالها . سبحانه خلق السموات والأرض وما فيها . ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع . وهو الذى أجرى الفلك فى البحار ، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من المنافع . وكل شىء عنده بمقدار لا إله إلا هو .

وهو الذى سخر الشمس والقمر ، مستمرين فى فلك سيار ، لا الليل يدرك النهار ولا النهار مدرك الليل ، وكلاهما فى فلك واحد يسبحون فيه بأمر الله . ليل تسكنون فيه للراحة والهدوء والصفاء ونهار لتبتغوا فيه من فضل الله .

والله - سبحانه وتعالى - يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم ، فضلاً عن القيام بشكرها . فقد أعطى الإنسان كل حاجته فى الدنيا من قبل أن يسأله ، وما سأله أعطاه . كذلك جعل عطاءاته للإنسان حسب حاجته . وأعطاه بغير سؤال لأنه سبحانه خالقه وأعلم منه بحاجته . فسواء سأل الإنسان ربه أم لم يسأله ، فهو معطيه كل ضرورات حياته ، ومسخر له كل قوى الطبيعة ، وخلق فيه حكمة تصرفها ، وركب فيه وفى فطرته وطبيعته قدرة على استخدام البحار والهواء والرياح والكهرباء والغوص فى طبقات الأرض والتحليق والاختراق لطبقات الجو . ونعم الله غير ذلك لا يقدر على إحصائها أحد ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ
الْأَصْنَامَ ۖ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ
عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۖ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ
عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۖ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ
وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ
لِي الْكِبَرَ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۖ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ
الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۖ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۖ

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

«يذكر تعالى في هذا المقام ، محتجا على مشركى العرب ، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه وآهله ، تبرأ ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن فقال ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا ﴾ ^(١) . أى اجعل مكة بلدا آمنا لا يسفك فيه دم ولا يقع فيه ظلم لأى أحد ، ولا يصطاد طيره ولا يقطع شجره . وفعلا استجاب الحق له فقال ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ﴾ الآية ^(٢) . ثم دعا إبراهيم ربه أن يجنبه هو وبنيه أن يعبدوا الأصنام «وينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته ^(٣) بناء على هذه الآية . ثم تبرأ إبراهيم بعد ذلك ممن عبد الأصنام ، وذكر أن هناك خلائق كثيرين من الناس افتتنوا بهذه الأصنام وعبدوها ، وتبرأ ممن اتبعها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم . أما من اتبعه فإنه من إبراهيم على دين الإسلام .

ثم رفع إبراهيم دعاءً ثانياً إلى ربه بعد الدعاء الأول ، إذ طلب من ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إلى هذا البيت ليقوموا الصلاة حوله ويتعبدوا . وارزقهم يا رب من الثمرات لأنه واد غير ذى زرع وغير خصب . وقد حقق الله دعوة إبراهيم بقوله سبحانه ﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ﴾ ^(٤) . ثم قال إنك يا ربنا تعلم السر والعلن من الدعاء وغيره ، وليس شىء خافيا عنك سبحانه علام الغيوب . كل ما فى الأرض أنت تعلمه وكل ما فى السموات أنت تدريه . ثم يشكر الله ويحمده على نعمته عليه بأن رزقه من الولد بعد الكبر ، فرزقه إسماعيل من هاجر وإسحاق من العاقر العجوز سارة . سلام الله عليهم أجمعين . إنك سبحانه تستمع لعبدك بقدر إخلاصه ، وفوق ذلك تفضلا منك وعطاء على غير استحقاق . ثم يختتم إبراهيم مناجاته لربه داعيا ضارعا فى عبودية خاشعة ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ﴾ أى واجعلهم هم الآخرين كذلك مقيمين للصلاة مثلى . ﴿ ربنا وتقبل دعاء* ربنا اغفر لى ولوالدى ﴾ - وذلك قبل أن يتبرأ من أبيه ويعلم أنه عدو لله - ﴿ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ .

(١) ابن كثير : ٢ / ٥٤٠ .

(٢) العنكبوت : ٦٧ .

(٣) ابن كثير : ٢ / ٥٤٠ .

(٤) القصص : ٥٧ .

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئَدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾

لا تحسبن الله يا محمد ، إذا أنظر الظالمين وأجلهم ، أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على صنعهم ؛ بل هو يحصى ذلك عليهم ويعده عداً . « وهذا تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن أخبره عن أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم ، أى اصبر كما صبر إبراهيم ، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله إمهال العصاة مدة » ^(١) إلى يوم ﴿ تشخص فيه الأبصار ﴾ أى لا تغمض أبداً من شدة هول ما ترى يوم القيامة . ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر ، فقال ﴿ مهطعين ﴾ أى مسرعين ، ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ رافعين إياها ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أى أبصارهم ظاهرة شاخصة يديمون النظر لا يطفون لحظة ، فلا ترجع نظراتهم إلى عاداتها من شدة الهول والدل ، أفئدتهم خاوية خربة من كل خير .

وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

إنك مكلف يا محمد بإصدار الناس جميعاً بأن الله خالقهم سبحانه ، وسيأتهم يوم شديد يُسألون فيه عن رسلهم وما أرسلوا به إليهم ، فلم يعتبروا ببلاغ رسلهم إليهم . ولكن يوم يرون العذاب والبعث والسؤال والحساب يسألون الله أن يؤخرهم ﴿ إلى أجل

(١) القرطبي : ٣٧٦ / ٩ .

سُورَةُ الْاِنْبِرَاءِ

قريب ﴿ ليستعيدوا النظر ويتبعوا الرسل . وهذا لا يغنى عنهم يؤمئذ من الله من شيء ، فهم كمن قال ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ﴾ ^(١) . وجل قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ ^(٢) . ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ﴾ وهذا قول الملائكة لهم ﴿ ما لكم من زوال ﴾ أى من رجوع مرة أخرى إلى الدنيا ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿ . ^(٣) هذا يوم يقال لهم فيه ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ ^(٤) . فمهما اعتذرتم وتعذرتم بقولكم ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ ^(٥) . فاليوم ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ ^(٦) .

وقد عدد الله تعالى جرائم الذين ظلموا أنفسهم بمعصيتهم لله ، فلم تأخذهم العبرة إذ قال لقد سكتكم فى مساكن الظالمين ، وفعلتم فعلهم ، وقد شاهدتم ما فعل الله بهم من إهلاك وعذاب ، وضربنا لكم أمثالا كثيرة لتحذروا مسيرتهم وتجتنبوا طريقهم ، فلم تفعلوا . فاليوم لا تلوموا إلا أنفسكم .

لقد مكر الكافرون والظالمون بأصحاب الدعوات وبالأنبيا والرسل ودبروا لهم ما تصوروا ، من جهلهم ، أنه يصرفهم عن الحق ، ولكن أهل الحق فى معية الله سبحانه يحتملون فى سبيله مظالم المفترين سواء كانوا من الحكام أو من عملائهم . فالحاكم الظالم يظن بجهله أنه يفعل ، ولكن الشيطان يزين له ، والله مطلع على ما يفعل الظالمون حكاما أو محكومين . وكم من ظالم انتهت حياته بعبر لمن يتعظ .

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

فلا تحسبوا أيها الناس أن الله يخلف وعده لرسله ، كلا . إنه سبحانه لا يخلف وعدا وعده رسله أو خلقه ، فالنار لمن عصى والجنة لمن اتقى ، فاحذروا معصيته . إنه سبحانه عزيز ذو انتقام . وهذا تقرير وتوكيد من الله تعالى لوعده .

(٢) الأنعام : ٢٧ .

(١) المؤمنون : ٩٩ .

(٤) المؤمنون : ١٠٨ .

(٣) المرسلات : ٣٥ - ٣٦ .

(٦) السجدة : ١٤ .

(٥) السجدة : ١٢ .

سُورَةُ الْاِنْبِرَاءِ

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٥٨﴾ وَتَرَى
 الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى
 وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٦٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿٦١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ
 أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٦٢﴾

اذكر لهم يا محمد هذا اليوم الذي تبدل فيه الأرض غير الأرض ، وتبرز الخلائق أى
 تخرج كلها من قبورها لله . والمجرمون يؤمئذ مشدود بعضهم إلى بعض ، أرجلهم مع
 أيديهم ، مشدودون في أصفاء وقيود وحلقات من حديد تُحمى عليها في النار ،
 ملابسهم من قطران وهو شئ سريع الاشتعال يشبه النحاس المذاب تضرب وجوههم
 النار فتغشيها .

هؤلاء الكافرون برسل الله وكتبه والمعطلون لدين الله وأحكامه والمحاربون للدعاة إلى
 الله ، والمعدبون لأهل الدعوة ، هؤلاء الظالمون لهم في الآخرة عذاب عظيم ، كما سبق ،
 بسبب محاربتهم لله ولرسوله والمؤمنين ﴿٦٠﴾ ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع
 الحساب ﴿٦١﴾ .

إن القرآن الكريم أنزله الله سبحانه وتعالى بلاغاً للناس . وهل هناك بلاغ أقوى من
 بلاغ القرآن ؟ وأى بلاغ يبلغ من الحق ما بلغ القرآن ؟ وأى بلاغ يبلغ نوره ما بلغ نور
 القرآن ؟ وأى هداية تساوى هداية القرآن ؟ إنه بلاغ الله إلى خلقه . فمن اتعظ بها أنذر
 وحذر كان من الناجين ، ومن استمع القرآن ولم يتدبر فقد أهلك نفسه ! إنه بلاغ
 للناس ! فطوبى لمن خاف أمره فأطاع الله وحفظ حدوده فأقامها وراجع سنة النبي -
 صلى الله عليه وسلم - ففسر القرآن بها وأقامها به وأقامه بها ! فهى بيانه الأمين وتفسيره
 الواضح . وسبحانه من إله واحد ! ولن يستطيع أن يذكر آيات الله ويتعرف عليها إلا
 أولو الأبواب ! وهم الذين قالوا ﴿ربنا الله ثم استقاموا﴾ .

رقم الإيداع ٩٤ / ٧٥٣٦
I.S.B.N 977 - 09 - 0129 - 5

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسن - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

